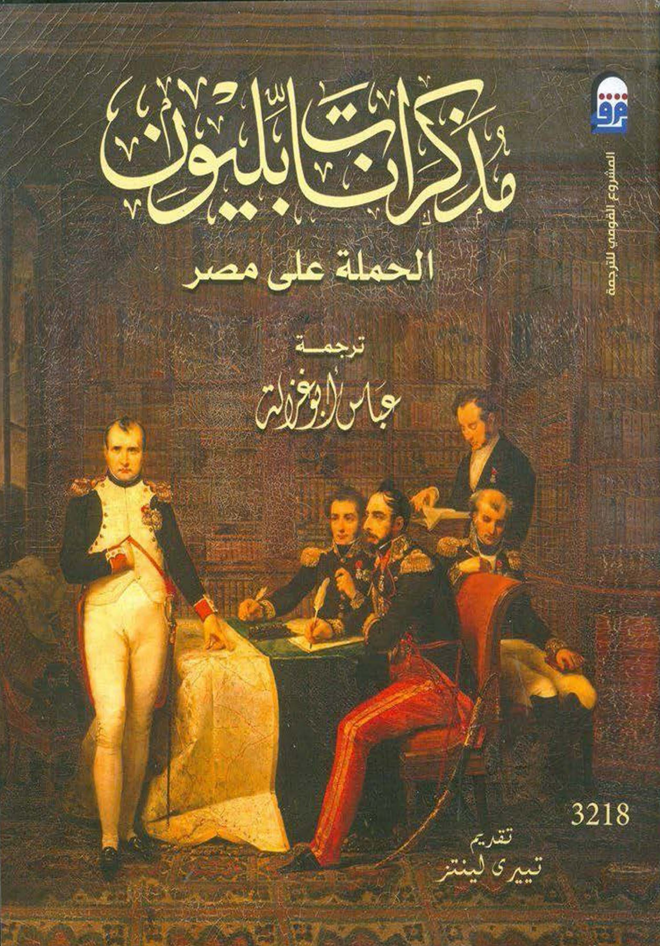


مذكرات نابليون

الحملة على مصر

ترجمة

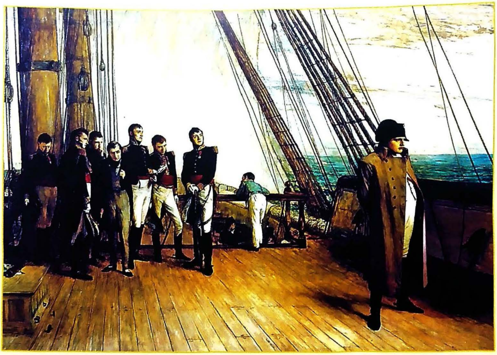
عباس أبو غزالة

تقديم

تيري لينتز

3218

المشروع القومي للترجمة



"نابليون على متن السفينة بيليروفون (Bellérophon) المتجهة إلى منفاه في جزيرة سانت-هيلانة."

رسم (Sir William Quiller) سيرويليام كويلاير 1880

مذكـرات نـابليـون

الحملة على مصر

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 3218
- مذكرات نابليون: الحملة على مصر
- تييرى لينتز
- عباس أبو غزالة
- الطبعة الأولى 2019

هذه ترجمة كتاب:
Mémoires de Napoléon: La Campagne d'Egypte Tome 3
Par: Thierry Lentz

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

مذكــرات نــابليــون

الحملة على مصر

تقديم

تيـيري لينتـز

ترجمـة

عباس أبو غزالة

2019

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

بونابارت، نابليون شارل، ١٧٦٩-١٨٤٠
مذكرات نابليون-الحملة على مصر
تقديم: تييري لينتز؛ ترجمة عباس أبو غزالة
ط ١ القاهرة: المركز القومي للترجمة ٢٠١٩.
٤٢٨ ص؛ ٢٧سم
١ - بونابارت، نابليون شارل، ١٧٦٩-١٨٤٠ - المذكرات.
٢- مصر - تاريخ - الحملة الفرنسية (١٧٩٨-٤١٨٠)
٣- القادة العسكريون
(أ) لينتز، تييري (مقدم)
(أ) أبو غزالة، عباس (مترجم)
(ب) العنوان ٩٢٠

رقم الإيداع ١٦٤٦٩ / ٢٠١٨
الترقيم الدولي: 6 -1498-92 -977- 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المركز.

A Monique

إهداء إلى

زوجتي مونيك

محبة وتقديرًا وعرفانًا

« Napoléon a épuisé la bonne volonté des Français, fait abus de leurs sacrifices, couvert l'Europe de tombes, de cendres et de larmes ; pourtant ceux-là mêmes qu'il fit le plus souffrir, les soldats, lui furent le plus fidèles, et de nos jours encore, malgré le temps écoulé, les sentiments différents, les deuils nouveaux, des foules, venues de tous les bouts du monde, rendent hommage à son souvenir et s'abandonnent près de son tombeau au frisson de la grandeur. »

Le général Charles de Gaulle.

"لقد استنزف نابليون عزيمة الفرنسيين الصادقة، وأساء استعمال تضحياتهم، وملأ أوروبا بالقبور، والرماد والدموع. ومع ذلك فإن هؤلاء الجنود أنفسهم، والذين سبّب معاناتهم، قد أجزلوا له الوفاء. وعلى الرغم من مضي الوقت، والعواطف المختلفة، وأحزان الحداد الحديثة، فإنه بأيامنا هذه لا تزال الجماهير تأتي من أقاصي المعمورة لاستعادة ذكراه، والاستسلام بالقرب من مقبرته لرعشة العظمة".

الجنرال شارل ديجول

الفهرس



نابليون يملي مذكراته... وأسطورته إلى رفقائه في سانت - هيلانة

(بطاقة بريدية قديمة، بداية القرن العشرين، مقتنيات مؤسسة نابليون)

كلمة المترجم

صدر حديثًا *"Mémoires de Napoléon-La campagne d'Égypte"* مذكرات نابليون، الحملة على مصر، ضمن مراسلات نابليون التي حققتها لجنة الإمبراطورية الثانية وأعطتها الصفة الرسمية. وقد استرعى انتباهي تقديم تييري لينتز (Thierry Lentz)، الأمين العام للجنة المكلفة لنشر مراسلات نابليون، ورئيس مؤسسة نابليون، والذي أبرز في مقدمته أن نجاح روايات وشهادات رفقائه في المنفى أدى إلى نسيان مذكرات نابليون (الحقيقية) التي أرادها وأملاها وصححها، وتركها وديعة لرفاقه لأمانة نشرها.

ورغم مرور أكثر من مئتي عام على هذه الحملة على مصر، فإن أهمية ترجمة "مذكرات نابليون"، تتيح للمؤرخ إعادة النظر في تأريخ الحملة، كما تبرز عناصر شخصية بونابرت المركبة، والتي لا تزال تحظى باهتمام المؤرخين والكتاب. هذا وكنت قد أعددت كتابًا باللغة الفرنسية بعنوان: (الحملة الفرنسية على الإسكندرية - كليبر ضد بونابرت)"*L'Expédition d'Alexandrie-Kléber contre Bonaparte* (1798-1799)"والذي صدر عام 2016 عن دارجيتنير(Geuthner) بباريس. ولإعداد هذا الكتاب كنت قد اطلعت على المحفوظات ومذكرات الجنرالات والجنود المشاركين في الحملة، وكذلك ما صدر من دراسات وخاصة دراسة قائد المدفعية كليمان دي لاجونكيار(C. de La Jonquière) والصادرة في خمسة أجزاء بعنوان*"L'Expédition d'Égypte"* (الحملة على مصر)، وأوليت اهتمامًا بالغًا بالاطلاع على مذكرات كليبر في مصر الصادرة عام 1988 في أربعة أجزاء بعنوان: "كليبر في مصر" (Jean-Baptiste Kléber : *Kléber en Égypte* 1798- 1800).

ويلقي الكتاب الضوء على الاهتمام الذي أولاه نابليون لكتابة هذه المذكرات، وربما كان يهدف إلى السير على أثر قيصر عندما أملى "الحرب في جول" (*La guerre des Gaules*). وحين تحدث نابليون آخذًا وضع المؤرخ باسم الغائب، رغم أن هذه المذكرات تمثل شهادة نابليون نفسه، فقد كان فيها هو كاتب السيناريو، والمخرج، وممثل الدور الرئيس في ملحمة مسيرته الذاتية. وهو على كل حال لم يكن راصدًا محايدًا على الدوام.

وبعد هزيمته واترلو(Waterloo) في 18 يونيو 1815، بدأ نابليون كتابة مذكراته في منفاه في سانت-هيلانة، وهي جزيرة براكين في قلب جنوب الأطلنطي، وأتيح للأسير اصطحاب ثلاثة ضباط وسكرتير. وبعد تردد قام باختيار الجنرالات: برتران (Bertrand) [42 سنة]، وموتولون (Montholon) [32 سنة]، وجورجو (Gourgaud) [32 سنة]، وضم إليهم مستشار الدولة، لاس كاز (Las Cases) [42 سنة]، وابنه، والمملوك علي؛

أمين المكتبة أو خادم الغرفة. ولم يكن هؤلاء إلا أدوات في خدمة ما أملاه نابليون حتى قبيل أسابيع من وفاته في 5 مايو 1821، ليترك شهادة للأجيال المقبلة. وكان نابليون يعطي لمذكراته أهمية تاريخية لدرجة عدم ترك العناية لأحد بقول الأمر بدلاً منه. وقد قبل هؤلاء الرفقاء اتباع الإمبراطور المخلوع بكل تفان دون معرفة مصيرهم، ليجعلهم يساهمون في إعادة تشكيل مذكراته وصنع أسطورته.

وتعتبر المذكرات إنتاجًا جاهزًا من مصنع تاريخ سانت - هيلانة، وهي تتميز بمنهج صارم، وتبويب على نسق واحد (فصل رئيس، وفصول فرعية)، وتسلسل تاريخي، وأسلوب بسيط، موجز ودون هوى، ومضمون ثري ومختصر.

وكان بودي ألا أثقل على القارئ بمقدمة المترجم، خصوصًا وأن النسخة الفرنسية مثقلة بمقدمتين طويلتين كان لا بد منهما لتهيئة القارئ لملابسات تأليف مذكرات نابليون؛ ليكون القارئ عن كثب من سياق وبواعث وصعوبات القيام بهذا العمل التاريخي الذي حشد له نابليون من طاقته الكثير، حريصًا على أن يترك كلمته للتاريخ بوصفه واحدًا من كبار صُنَّاعه، إلا أنني وجدت ضرورة أخرى ليسجل المترجم تجربته لدواع مماثلة، لا تنفكُّ عن السياق ذاته، وهو ما يقترب بالقارئ أكثر وأكثر إلى أعماق نابليون الكاتب، والكتاب بوصفه مذكرات موضوعية تتجاوز طابع الذاتية، لتصبح كما أراد مؤلفها عملاً تاريخيًا في المقام الأول.

وليسمح لي القارئ الكريم، ولا أُصادِر رؤيتَه؛ في أن نابليون قد نجح إلى حد كبير فيما سعى إليه من تخليص العمل من الذاتية والسردية التي تنأي عن طبيعة العمل التأريخي، فحرص على السرد المعلوماتي لا الوصفي للأحداث والشخوص، وتجنب الحديث عن نفسه (بونابرت، ونابليون، والإمبراطور)، وكما حاول في كثير من الأحيان شرح أو تبرير توجهاته إلا بالقدر المقبول الذي يفرضه السياق، وفي المواضع التي اقتضتها الضرورة حسبما يرى. وإذا كان قد حاول تجنب التأثير على القارئ والمؤرخ، إلا أنه كان لا بد من تصديه بنفسه للدفاع عن بعض مواقفه وقراراته السياسية والعسكرية، خشية انحراف التأويل عند اتخاذ الأحكام عليه أو على رجاله سلبًا في حال عدم الإلمام بسياقات الحوادث ودواعي الضرورات. غير أنه حرص على التوازن بين سلوكي الدفاع والاعتراف، فبقدر ما برر ودافع عن بعض توجهاته وقراراته، وبعض فِعاله الجسيمة أو فِعال رجاله، فإنه قد اعترف أيضًا بكثير من الكوارث والأخطاء، لاسيما تلك التي أدت في النهاية إلى الفشل الحقيقي للحملة، والعودة غير المحمودة للجيش الفرنسي بعد تكبده خسائر فادحة في الأرواح والمعدات وشرف العسكرية الفرنسية. وكذلك لم يستنكف نابليون أن يفصِّل النكبات التي ألحقها بأهالي البلاد التي فتحها، والتي فشل في فتحها كذلك، وأفصح عن الأعداد الهائلة للضحايا من الجنود والمدنيين بالآلاف، في سعيه المحموم لإنقاذ مشروعه مهما تكن التكاليف، لتتجلى قسوة الحرب وأهوالها، كأسوأ ما يكون. وكذلك لم يخش الإفصاح عن أعداد قتلاه وجرحاه وأسراه في هذه

البلاد البعيدة، وكانوا بالآلاف، وهو ما أفقد الشعب الفرنسي أعدادًا كبيرة من خيرة قادته وشبابه، في خيلاء الاعتزاز بشرف العسكرية الفرنسية، وعبقرية حلم الإمبراطورية، برغم ذهاب كل ذلك هباءً منثورًا، وانتهاء بالختام الدرامي لمسيرة البطل الذي كان قائدًا عبقريًا، وسياسيًا محنكًا. لقد حقق نابليون ذاته، وحصد بعبقرتيه أسباب الخلود، لكنه انتهى أسيرًا في سانت - هيلانة، ليفقد كل شيء بتهاوي أركان مجده، وليقرر ألا يترك العالم قبل أن يسجل بنفسه حصاد تجربته للتاريخ.

ولا أريد بذلك أن أفصح عن انفعالاتي وتأويلي للكتاب، وإنما إشارة لحواريةٍ محتومة بين هذا الكتاب المهم وبين قارئه؛ لأن الكتاب بطريقته ومضمونه لن يقف بقارئه عند حد إحصاء أو تتبع الشواهد والمشاهد التاريخية، لكنه سيدفع المتأمل حتمًا لاستعادة الأيام وقراءتها من جديد؛ لأن الكتاب - بحقٍّ - يثير جدلاً وأسئلة، ويغري بالحوار والنقاش، وربما تعديل المواقف والرؤى إزاء هذه الفترة المؤثرة في تاريخ البشر، ولا سيما في المنطقة العربية خصوصا، وبشأن مصر على نحو أخص.

ولا بد أن يُوقفنا الكتابُ عند عبقرية مصر في المكان والزمان، وهو ما حرص بونابرت على تأكيده، بالإشارة إلى المنعة الطبيعية لموقع مصر الجغرافي الفريد، والذي حقق لها المنعة والذود عن جبهات الوطن بسواحله العميقة على البحرين الأحمر والمتوسط، وصحراواته المهلكة لجيوش الغزاة. كما ستُوقفنا الأحداث عند مواقف المصريين في السلم وفي الحرب، وضرورات الإقدام أو الإحجام لشعب يأبى الضَّيْم، فإذا قبله مُكرهًا وكارهًا فإلى حين يقضي الله أمرًا كان مفعولاً. وبين السلام والاستسلام يذهب تأمُّل القارئ أمام هذا الشعب الأبيِّ الذي قُدِّر له أن يكون محط أطماع الغزاة والفاتحين عبر العصور، فيخرج في نهاية كل مطافٍ أشد عافية لمواطئ الخلود بعبقرية مصريته التي استوعبت كل الثقافات والحضارات التي لم تغير من طبيعة هذا الشعب المسالم بطبيعته الرصينة المتدينة، على ما يتبدى عنده في المواقف التاريخية الحاسمة من القدرة على التمرد والرفض، والنهوض للثورة والتغيير متى دعت الضرورات فأزاحته عن مواضع الدَّعة والانتظار. وهنا يغرق العقل في السؤال عن حكمة المصريين الخاصة في كسر أمواج الحوادث الجسام في السلم وفي الحرب، وأيام الطواغيت، كهؤلاء المماليك الذين أهلكم الدهر، وكان القضاء عليهم من ثمرات الحملة الفرنسية بما لها وما عليها.

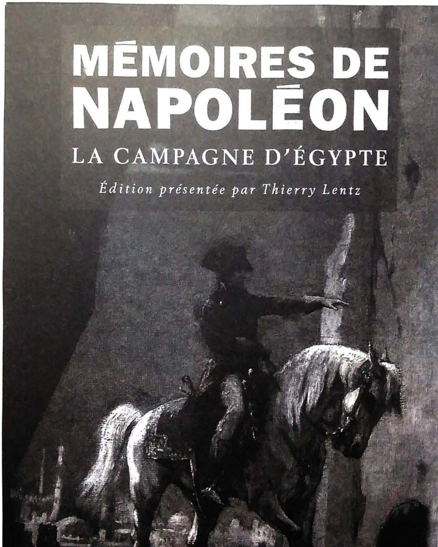
بقي أن أشير إلى الأسلوب التاريخي الجاف لمذكرات نابليون الغارقة في المعلومات التاريخية التي أخذها من الوثائق والكتب والمراسلات وآلاف الأوراق التي مثلت مرجعيته في مصنع التاريخ في سانت - هيلانة. وقد أصاب نابليون حين لم ينزلق إلى السردية بقدر ما حاول الحفاظ على طابع التأريخ بالطريقة التي رآها وعرضها المؤلف بصيغة الغائب، ليحاكي صوت المؤرخ الخارج عن الأحداث، وليس صوت المتكلم صانع الأحداث أو

شريكها، وهو ما ترك أثره على البعد الموضوعي للراوية التاريخي العليم. وقد كان لنابليون أسلوبياته الخاصة في السرد التاريخيّ التوثيقيّ، وحاول حشد كثير من التفاصيل دون استرسال، وهو ما أدى لأسلوبية خاصة في التعبير، قُوامها الجمل الموجزة المركبة، والتي افتقدت طابع الأدبية والاتساق الأسلوبي المتكامل، وكانت في الغالب من البساطة والعفوية والجفاف بحيث مثلت عبئًا على المترجم. وقد حاولت قدر الإمكان الحفاظ على أسلوبية نابليون على جفافها، مع الحفاظ كذلك على أسلوبية التعبير والبناء اللغوي الفرنسي، لئلا يفقد النص الأصل طبيعته وروحه، مع التطويع الممكن لأسلوبيات التعبير العربي، فوقف المترجم وسطًا بين حرفية وأصالة النص الفرنسي، ومقتضيات التلقي الملائم للذائقة العربية اللغوية. وهكذا كان تدخل المترجم محدودًا عند الضرورة، وخاصة عند إضافة بعض الروابط بين الجمل، لتحقيق التلاحم الدلالي في السياق، فضلاً عن التقديم أو التأخير حفاظًا على مرونة التركيب ووضوحه، وتماسكه واتساقه. وكذلك حرص المترجم على كتابة الأرقام على غير طريقة نابليون، وذلك بتحويل الأرقام العددية إلى لفظية بالحروف، خشية الخطأ في نقلها الطباعي، وهو أمر وارد، كما أضاف المترجم بعض الألفاظ بين قوسين معقوفين، ليتبين للقارئ إضافتها، تأكيدًا لأمانة النقل دون تدخل مُخلٍّ من المترجم.

ولا أريد أن أشير إلى الصعوبات المحتومة التي قابلت المترجم شأن كل تصدٍّ لمثل هذا العمل، وخصوصًا على مستوى الاصطلاحات الهائلة والمتنوعة، تاريخيًا وعسكريًا وجغرافيًا، وهو ما استدعى بالضرورة اجتهادات ومشوراتٍ عدة مع المتخصصين، فضلاً عن الرجوع للخرائط، والموسوعات، والمعاجم المتخصصة، وبعض الكتابات التاريخية والجغرافية المتخصصة.

كما أتوجه بالشكر إلى إدارة الجمعية الجغرافية المصرية برئاسة الأستاذ الدكتور السيد السيد الحسيني، ونائبه الأستاذ الدكتور فتحي أبو عيانة فقد سهلا لي الاستفادة من مجموعة الخرائط الطبوغرافية التي قام برسمها ضباط الهندسة الحربية ومهندسو الطرق والكباري وعلماء الجغرافيا من أعضاء المعهد العلمي الفرنسي الذين رافقوا الجيش فى أثناء الحملة، مما أتاح لي - وبفضل مساهمة المهندسة زوجتي- إثراء الترجمة بإضافة تاريخ ومواقع المعارك التي سجلها علماء الحملة على هذه الخرائط.

ولا يفوتني الإشادة بدور الشاعر والباحث الأثري أحمد على منصور، وهو القارئ الأول الذي راجع صفحات الكتاب وفصوله أولاً بأول وخاصة فيما يتعلق بأسلوبيات النص العربي.


MÉMOIRES DE NAPOLÉON
LA CAMPAGNE D'ÉGYPTE
Édition présentée par Thierry Lentz
Tallandier

تقديم مذكرات نابليون

في فناء قصر فونتينبلو (Fontainebleau)، وفي يوم 20 إبريل 1814م، ودع نابليون حرس الإمبراطورية. وبناءً على اتفاق كان قد وقَّع عليه قبل عشرة أيام، حصل - من المنتصرين عليه - على ملكية جزيرة ألبا (Elbe). وفي حديثه إلى قدامى جنود الامبراطورية، وبعد أن شرح لهم أسباب تنازله، وشكرهم على تفانيهم على مدى السنوات العشرين الماضية، أعلن نابليون عن البرنامج الذي حدده لنفسه من ذلك الحين فصاعدًا لشغل وقته، قائلاً: "لا ترثوا لحالي، فإذا قبلت البقاء على قيد الحياة فمن أجل خدمة مجدكم أيضًا، أريد أن أكتب عن الأعمال العظيمة التي أنجزناها معًا"[1].

ولم يتم الوفاء بهذا التعهد في أثناء المنفى الأول؛ إذ رجع الإمبراطور إلى فرنسا في مارس 1815م، واعتلى العرش من جديد. وقد استمرت المغامرة لأقل من مئة يوم، وانتهت بهزيمة واترلو (Waterloo)، فتخلى عن العرش للمرة الثانية. وتسلم الحكم حكومة مؤقتة طلبت إبعاد المهزوم عن باريس في أسرع وقت. وقبل أن يغادر نابليون قصر الإليزيه (Elysées) حيث كان يقيم، وعلى الأخص في التويليري (Tuileries)، كان آخر ما فعله أن وجَّه إلى أمين مكتبته، باربيه (Barbier)، أمرًا يرجوه فيه أن يرسل للرحلة مكتبته الضخمة إلى أمريكا عن طريق لوهافر (Le Havre)[2].

وقد كانت هذه الكتب تشكل أساس وثائق العمل في المستقبل. وإذا كان سيد أوروبا السابق سيكرس جهده لكتابة مذكراته، فلن يكون في أمريكا، ولكن في جزيرة نائية، حيث قرر الحلفاء احتجازه ومراقبته عن قرب. وقد كاد أن يحقق هناك مشروعه بنجاح، والذي كان قد بدأه على السفينة التي نقلته إلى سانت - هيلانة (Sainte-Hélène)، والذي استأنفه في جناح البريار (Briars)، حيث أقام على مدى عدة أسابيع، حتى انتهى منه في مقره النهائي في لونجوود (Longwood)، قبل عدة أسابيع من وفاته في 5 مايو 1821م.

ولا ينبغي الخلط بين تلك الكتابات وما يطلق عليه المذكرات (Mémoriaux)، وهي كلام تم نقله وتزويده باعتبارات ذاتية أو إضافات من المرافقين الأوفياء الذين استمعوا لحديثه في المرحلة الأخيرة من سيرته[3].

ومن بين هذه الشهادات التي أطلق عليها هاينريش هاينه (Heinrich Heine) "الأناجيل" (Les évangiles) يحوزُ مكانة مرموقة كلٌّ من الكاتب المشهور لاس كاز (Las Cases) [4]: "مذكرات سانت - هيلانة" (*Mémorial*

(*de Sainte-Hélène*)، وكتاب "نابليون في المنفى" (*Napoléon en exil*)، الذي كتبه الدكتور أوميرا (O'Meara)[5]. وقد تم نشر الكتابين بمجرد وفاة الإمبراطور، بعد إضافة روايات الأسر (*Récits de captivité*)، والتي كتبها الجنرال مونتولون (Montholon)[6]، ثم يوميات ومذكرات أو دفاتر الجنرال جورجو (Gourgaud)[7]، وخادم الحجرة مرشان (Marchand)، ومارشال القصر الكبير برتران (Bertrand)، بالإضافة لغيرهم أيضًا[8].

ولقد أدى نجاحهم الشعبي إلى نسيان مذكرات نابليون [الحقيقية] التي أرادها وأملاها وصححها وتركها وديعة لرفاقه لأمانة نشرها. ومع ذلك يستند المؤرخون في الحقيقة إلى عشرات الشهادات للشخصيات المهمة أو الثانوية في حكومة القنصلية أو الإمبراطورية[9]، ونادرًا ما كانوا يرجعون إليه، مع أنه كاتب السيناريو والمخرج وممثل الدور الرئيسي في الملحمة. ومع ذلك فمن الضروري معرفة وجهة نظر نابليون بونابرت في مراحل كثيرة مهمة في مسيرته الذاتية في نفس الوقت الذي شارك في كتابة الحدث النابليوني في تاريخ لاحق.

* * *

"يمتلك العصر كاتبًا خالدًا، خالدًا مثل قيصر (César)، وكان الملك نفسه كاتبًا كبيرًا لأنه عقل عظيم"؛ هكذا قال تيير (Thiers) بحماس[10]. ولن نعارض كاتب أحد الأحداث التاريخية الهائلة عن القنصلية والإمبراطورية؛ حيث كاد نابليون أن يكون كاتبًا، وربما كان قد تمنى ذلك لو لم توات الأحداث والفضيلة (virtu) المسيرة التي نعرفها. وعلى أية حال، فقد حاول نابليون في شبابه ممارسة كل أنواع الكتابة بنجاح غير منتظم، فكتب عددًا من النصوص التي وصلت إلينا، رغم أنه حاول - فيما بعد- إخفاء بعضها مما كان أكثر ذاتية كالرواية، مثل قصة: "الكونت دي أسيكس" (*Le Comte d'Essex*) 1789م، و"قناع الرسول" (*Le Masque Prophète*) 1789م، و"كورسيكا الجديدة" (*Nouvelle Corse*) 1789م، و"كليسون وأوجيني" (*Clisson et Eugénie*) 1795م؛ ورسائل فلسفية مثل: "مقارنة بين حب الوطن وحب المجد" (*Parallèle entre l'amour de la patrie et l'amour de la gloire*) 1786م، و"حديث ليون" (*Le discours de Lyon*) 1791م، أو "الحوار عن الحب" (*Le dialogue sur l'amour*) 1796م؛ وكتابات سياسية تمامًا، مثل: "هل حق الكورسيكيين خلع نير العبودية عن أهل جنوة" (*Les Corses ont-ils le droit de secouer le joug des Génois ?*) 1786م، و"دستور دي لا كالوت من كتيبة دي لا فار" 1789م (*La constitution de la Calotte du Régiment de la Fère*)، و"رسالة إلى ماتيو بوتافوكو"(*La lettre à Matteo Buttafco*, (1791) أو "عشاء بوكار" الشهير (*Le Souper de Beaucaire*) 1791م وهو أول مؤلف طبع عام 1793م[11]. وهذه الكتابات التي كتبها في شبابه تختص بتاريخ الأدب في القرن

الثامن عشر، وتحمل طابع عصر التنوير، ما يشكل صعوبة تقديرها أحيانًا لأن العقول كانت قد تأثرت بالكُتاب الرومانسيين ومَن لحق بهم، ومع ذلك فإن بعضها لم يكن أقل جودة.

وتعتبر بقية الأعمال التي كتبها نابليون من طراز آخر، ويظهر جليًا فيها دقة الأسلوب والعبارات المنمقة، حتى تكاد أن تكون أقوالاً مأثورة[12]، لا مجرد أعمال مُروَّجة للدعاية. ولم يتوقف بونابرت طوال حياته عن الكتابة بخطه العسير على القراءة أو الإملاء (والذي كان يصعب على السكرتارية متابعته)، وقد يمثل كل ذلك عشرات الملايين من الصفحات: المراسلات[13]، والأوامر والتصريحات، والمذكرات والنصوص القانونية، وكذلك المقالات الصحفية التي كان ينشرها في "المونيتير العالمي" (*Le Moniteur universel*)، جريدة الحكومة الرسمية. ولما كان الحال كذلك، فلماذا لم يكتب مذكراته عند أفول مسيرته، ويترك شهادة للأجيال المقبلة على نحو ما قال أيضًا تيير (Thiers): "إنَّ هذه المهمة لم تكن جديرة إلا به"[14].

ولما كان مدركًا طبيعة مصيره الفريد وعدم التواضع على ما قد نتفق عليه، فلم يكن يريد أن يترك للغير أن يحكي أو يفسر الأحداث قبل أن يُقدم هو روايته عنها. لقد تخلى عن هذا العمل عندما كان ملكًا على جزيرة إلبا (Elbe)، وقرر أن يكرس نفسه له عمليًا بعد واترلو (Waterloo) (18 يونيو 1815م)، وبعد عزله للمرة الثانية في (22 يونيو).

وبعد قضاء عدة أيام في قصر ملميزون (Malmaison)، وصل إلى روشفور (Rochefort)، ثم إلى جزيرة إكس (Aix) كان يأمل اللجوء منها إلى الولايات المتحدة ليعيش هنالك حياة البورجوازي، ويسترد الصناديق التي أرسلها بربييه (Barbier)، وليبدأ الكتابة. وبدا له أن الرحيل إلى العالم الجديد مستحيل، واختار أن يرحل على متن السفينة (HMS *Bellérophon*)، وطلب استضافة البلد الذي وصفه في خطاب التنازل بأنه "أكبر عدو على الدوام" (15 يوليو). وكان يأمل - كما قال دون اقتناع كبير- في أنهم سوف يقيمونه في مكان ما في بيت مريح في الريف الإنجليزي، حيث يرى مرور الأيام مشغولاً برائعته الأخيرة؛ [ألا وهي] كتابة تاريخه الشخصي.

ونعرف ما جرى، حيث وقع في الشَّرَك، وأخبروه أن مكان إقامته سيكون "سانت - هيلانة"، وهي جزيرة براكين في قلب جنوب الأطلنطي. وعندما علم بالخبر، سأل لاس كاز: "ماذا يمكن أن نفعل في هذا المكان الذي لا يمكن الوصول إليه؟" وسمعه يقول: "مولاي، سوف نعيش في الماضي، ويوجد فيه ما يرضينا. ألا ننعم بحياة قيصر وبحياة الإسكندر؟، سوف نستحوذ على ما هو أفضل، سوف تقرأ ما كتبت، يا مولاي!".

ويرد أسير أوروبا موافقًا: "حسنًا، سوف نكتب مذكراتنا، نعم يجب أن نعمل؛ فإنَّ العمل أيضًا منجل الزمن. وبعد كل اعتبار لا بد أن نحقق أقداره، فإنها عقيدتي الكبرى أيضًا. حسنًا! على أقداري أن تتحقق"[15].

وكان قد تم ترحيله في 4 أغسطس 1815م، بصحبة ثلاثة جنرالات وسكرتير وبعض الخدم، على متن

السفينة نورثوهبرلاند (*Northuberland*)، التي أقلعت نحو المنفى في آخر الدنيا، ونزل منها في 17 أكتوبر 1815م، وكان قد بدأ الإملاء منذ أسابيع.

ولم يكن شاتوبريان (Chateubriand) على حق حين كتب: «لحسن حظه لم يكتب عن حياته، لكان أخل بها، حيث يجب على الرجال من هذا النوع ترك رواية مذكراتهم لهذا الصوت المجهول الذي لا ينتمي إلى أحد، والذي يخرج من الشعوب والعصور"[16]. لقد أراد نابليون أن يشارك في هذه المعركة من أجل الأجيال المقبلة، لذلك بدأ كعادته بالتنظيم والمراقبة والبت في كل شيء. فطوال أكثر من خمسة أعوام كان على رأس "شركة" حقيقية تعمل في اتجاهين، هما: نقل أقواله (وهو عمل سوف يبدع فيه لاس كاز، وعلى مستوى أدنى كُتاب المذكرات الآخرين)، والتدخل المباشر في كتابة التاريخ مع المذكرات. ومن أجل هذا الإنتاج الثاني - وهو ما يهمنا هنا - لم يدخر وقته ولا مساعديه. ورغم أنه ترك فرنسا بدون مجموعة الوثائق التي طلبها من أمين مكتبته، فإنه استطاع تكوين واحدة مزودة بما فيه الكفاية لبناء إملاءاته مستندًا على مواد مطابقة للحقيقة.

كيف كان يعمل مصنع التاريخ؟ كان في البداية بمساهمة رفقاء المنفى، حيث أتيح للأسير اصطحاب ثلاثة ضباط وسكرتير. وبعد تردد قام باختيار الجنرالات: برتران (Bertrand)، وموتولون (Montholon)، وجورجو (Gourgaud)، وضم إليهم مستشار الدولة، لاس كاز (Las Cases) [17].

كان "عمانويل دي لاس كاز" (1842-1776م) ضابطًا بحريًا قبل أن يهاجر إلى إنجلترا، حيث نشر هناك باسم مستعار:"ليساج" (Lesage) أطلسًا مشهورًا في الجغرافيا والتاريخ (*Atlas géographique et historique*) [18]. وعاد إلى فرنسا بفضل قرار عفو أصدره بونابرت (1802م)، وبدأ خدمة النظام وقد استطاع أن يلحق بما فات من الوقت، وأصبح كبير أمناء القصر (1809م)، ورئيس النقض (1810م)، ثم مستشار الدولة (24 مارس 1815م)، وأتاح له منصب "كبير الأمناء" الحصول على لقب "كونت الإمبراطورية". وقد أدرك أهمية أن يكون شاهدًا على نفي الإمبراطور نهائيًا، وارتبط به ورافقه حتى إبحاره على السفينة نوثرهوبرلاند (*Northumberland*). وعلى متن السفينة البريطانية اكتسب ثقة رئيسه، وأقنعه أن يبدأ - دون انتظار - الإملاء على رفقائه العسكريين. وفي نفس الوقت كان يسجل بنفسه الجريدة التي أصبحت (*Le Mémorial*) المذكرة التذكارية، وتم طرده من الجزيرة بعد أن حاول أن يُخرج منها مراسلات سرية (ديسمبر 1816م)، ولم ير نهاية العمل الذي كان له المبادرة فيه، ولكنه رضي بالنجاح العالمي لكتاباته الشخصية[19]. وكان الجنرال "كونت هنري جاتيان برتران" (Henri Gatien Bertrand) (1844 -1773) رجلاً محنكًا، وأدرك أساتذته مبكرًا وضوح ودقة أسلوبه، وذاع صيته كثيرًا في أثناء معارك نابليون، ومارس وظائف مهمة عندما كان الحاكم العام لأقاليم الإليرية

(Illyriennes)، وحلّ محل ديروك (Duroc) (الذي توفي في حرب 1813م) في شغل مهام مارشال القصر الكبير، وأصبح بذلك مسئول الخدمة العامة والأمن، وأقرب مساعدي العاهل في مكان إقامته.

وقد كان برتران رجلاً مثقفا ساهم في المناقشة والتعقيب، وبحث بعض النقاط الغامضة، وكتابة ما يملى عليه مثل الآخرين[20]. وقد استبعد أحيانًا من كتابة المذكرات في نهاية الأسر، وفقد بعض الحظوة لأنه لم يجرؤ على رفض مشروع العودة إلى أوروبا، والذي كان يراود زوجته فاني ديلون (Fanny Dillon). ولكن لا شك في أنبرتران بقي أحد كبار العاملين في سانت - هيلانة، وأكثر الشخصيات الجذابة والمدهشة في ختام المأساة.

وأما الجنرال كونت شارل - تريستان دي موتولون- سيموفيل (Charles-Tristan de Montholon-Sémonville) (1783-1853)، فقد كان مساعد فريق المرشال برتييه (Berthier) (1807م)، ثم صار بعد عامين عقيد (كولونيل) وكبير أمناء الإمبراطورة جوزيفين، ثم وزيرًا مفوضًا في إقطاعية دوقة ورزبورج (Wurzbourg)، ثم استبعد فترة بسبب زواج "سيئ" من مطلقة، هي ألبين دي فاسال (Albine de Vassal). ثم عاد مرة أخرى إلى الخدمة عام 1814م، قائدًا للحرس الوطني لمقاطعة لا لوار (la Loire). وبعد الاعتزال الأول تحالف مع لويس الثامن، الذي عينه مارشال فريق (جنرال لواء)، الترقية التي تم التصديق عليها في المئة يوم (Cent-Jours). وأصبح هذا الجنرال المغامر بعد "واترلو" مساعد فريق الإمبراطور، واختار أن يظل مخلصًا له، وبناء عليه لحق به في سانت - هيلانة. وكان تدخله في تحضير المذكرات مهمًا، خاصة في نهاية النفي، في الوقت الذي عاد فيه إلى أوروبا لاس كاز (Las Cases)، وجورجو (Gourgaud)، وكان نابليون مستاءً من برتران (Bertrand)[21].

وأما الجنرال البارون جسبار جورجو (Gaspard Gourgaud) (1783-1852م)، فهو ثالث الضباط الذين ارتبط مصيرهم بشدة بمصير نابليون، وقد كان رجلاً ذا تربية وثقافة عالية، ومهندسًا متعدد المهارات، وضابط مدفعية، شارك في معظم حروب الإمبراطورية قبل أن يصبح ضابطًا، ثم ضابطًا أول في إدارة الإمبراطور، وهي وظيفة أعدت له خصيصًا عام 1813م. كما أنه أنقذ حياة نابليون في بريين (Brienne) يوم 29 يناير1814، عندما تغلب على فارس روسي كاد أن يطعنه. ولم يتم تعيينه جنرال ومرافقا عسكريًا إلا في 21 يونيو 1815م، عشية التنازل الثاني. وقد كان جورجو غيورًا من اهتمام عاهله بغيره، وظهر سوء طبعه طوال إقامته في سانت - هيلانة، لدرجة أن نابليون لم يحتفظ به حين أراد العودة إلى أوروبا في نهاية فبراير 1818م. كما أنه كان يعاني

كثيرًا في محاولته متابعة إملاءات الإمبراطور. ومن أشهر اللوحات التي تمثل المنفى في سانت - هيلانة لوحة كار- أوجيست فون ستيوبن (Karl-August von Steuben): "نابليون يملي على الجنرال جورجو مذكراته" (*Napoléon dictant ses mémoires au général Gourgaud*)[22].

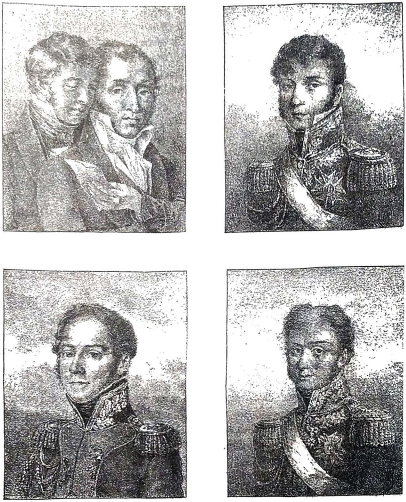
وهنالك مشارك آخر هو الطبيب الإنجليزي الأيرلندي باري أوميارا (Barry O'Meara) (1782-1863)، وكان جراحًا على السفينة بيليروفون (*Bellérophon*)، منتدبًا من قبل الإمبراطور، وأصبح أحد المخلصين له، وحظي بنصيب من الأسرار، وشارك دون شك في تبييض بعض الإملاء. وقد أدى قربه من الفرنسيين واستقلال رأيه إلى الاختلاف مع حاكم سانت - هيلانة، السير هدسون لوي (Sir Hudson Lowe)، الذي طرده من الجزيرة في يوليو 1818م. وانتقم الطبيب أوميارا عندما نشر عدة مؤلفات أساءت لسمعة عدوه، حتى في موطنه الأصلي. وقد شارك أيضًا في وقت مبكر في نشر مذكرات نابليون (*Mémoires de Napoléon*).[23]

وإلى جانب هؤلاء "المثقفين"، أو على كل حال كما اعترف الإمبراطور بذلك، فقد طلب مشاركة آخرين، ولكن دون التدخل في المضمون، باستثناء الفراش لويس مرشان (Louis Marchand) (1791-1876م)، الوحيد من الخدم الذي حظي بشرف بعض الإملاءات. وقد استُخدم الآخرون من المجموعة الثانية " كالآلات الكاتبة" إذا صح القول؛ [منهم] جاك جوركان (Jacques Jourquin)، الذي أعاد كتابة المحاولات المختلفة باستمرار. وقد برز اثنان، هما: الشاب عمانويل لاس كاز (Emmanuel Las Cases) (1800- 1854م)، ابن مستشار الدولة، ولويس- إيتين سان - دينيس (Louis-Etienne Saint-Denis) (1788- 1856م)، والمعروف بالاسم الأكثر شهرة "المملوك علي". وقد كان الأول مشغولاً بتبييض ملاحظات والده في المذكرة التذكارية (*Mémorial*)، واشتغل أيضًا في مؤلفات نابليون. وقد كان سان دينيس (Saint-Denis) أكثر التزامًا بشكل مباشر بصياغة المذكرات، وهو من مواليد فرساي (Versaillais)، وخدم في اسطبلات عائلة الإمبراطور (1806م)، وتم تعيينه المملوك الثاني عام 1811م[24]. وقد أطلق عليه حينذاك اسم "علي"، ولحق نابليون في جزيرة إلبا (Elbe) وجزيرة سانت - هيلانة، حيث شغل مهام الخادم والصياد وأمين المكتبة، والناسخ الذي لا يكل (دون أن يرتدي زي المملوك البراق). هذا الموظف "ذو الخط الرفيع البديع"، والذي عمل عند موثق العقود مرشان (Marchand)، قضى طوال حياته يُدون الملاحظات، ويكتب موجز ما يذكره، ويحافظ على أوراق كثيرة. وعند عودته إلى أوروبا، قام بمساعدة لاس كاز (Las Cases) وأوميارا (O'Meara) في ترتيب أوراقهما[25]. وفي أثناء المنفي، قضى ساعات في إعادة كتابة خربشات لا شكل لها خرجت من مكتب الإمبراطور، فيقول: "كان الإمبراطور يصحح دون انقطاع كل ما طلب عمله، ودون انقطاع يطلب محو الكلمات والجمل وبعض السطور بأكملها، وحتى أرباع الصفحات، وباستمرار كان لا بد من الإضافة والتغيير والحذف وإعادة التصويب بعد التصويب، حتى ما كان قد

تم تبييضه من قبل وكان يعتبره عملاً منتهيًا. ويقول في هذا الموضوع: "حسنًا! أعاد روسو(Rousseau) كتابة مخطوطات قصة "لا نوفيل هيلويز" (*La Nouvelle Héloïse*) سبع مرات". ودون فخر (فلم يكن من هذا النوع)، فهو الذي أسّر إلى الورق: "يجب أن نلاحظ أن كل مخطوطات لونجود (Longwood)، كتبتها بيدي، ما عدا بعضها قليل الأهمية، أو ما كان من أول إملاء[26]." ويكاد أن يبالغ المملوك المزعوم. وعندما كان الحماس يشتد في العمل، ويصبح حجم العمل غاية في الأهمية، كان الجنرالات يضطرون للانهماك في عملية التبييض. وهكذا تم تكليف "موتولون" بإعادة كتابة فصل عن حصار طولون (Toulon)[27]. وكذلك عندما تبعثرت – للأسف - أوراق برتران والتي بيعت (ثلاث مرات بين عام 1982 وعام 1986 م)، وتم بيع عدد كبير جدًا من المسودات والكتابات المنسوخة بخط المارشال الكبير.

وقد أدرك نابليون منذ الأميال الأولى التي قطعتها سفينة نوثرهوبرلاند (*Northumberland*)، أن رفقاء سوء الحظ كانوا يكتبون يوميات، ويدونون حركاته وسكناته أو تصريحاته بشأن الموضوعات كثيرة التنوع، فقام في البداية بإلقاء اللوم عليهم، على الرغم أنه كان يعرف أن الظاهرة لا مفر منها، وانتهى إلى التسليم بأن مثل هذه الشهادات على الطبيعة قد تثير اهتمام جمهور أوسع، وتوضح رؤيته عن الأشياء والرجال والأحداث، إلى طبقات لا تصلها حتمًا هذه المذكرات التي أرادها موثقة وواضحة ودقيقة. ولقد كان ذلك المشروع مخصصًا في البداية للصفوة، وفي وقت لاحق للمؤرخين.

ولإنجاز هذا العمل على الوجه الأمثل، كان لا بد لما هو أكثر من الكلام والذكريات، فلم يكن بونابرت يتذكر كل شيء، ولم يكن يريد لضعف ذاكرته وحجم الأحداث التي كانت في أعماقها أن تُفسد عمله التاريخيَّ مع مرور الزمن. "كان [الإمبراطور] يقول: الرأس بدون ذاكرة هي مثل ميدان بغير حامية عسكرية". وعلى ذلك علق لاس كاز، وأضاف يقول: "بينما كانت [ذاكرته] موفقة، فلم تكن جامعة، إلا أنها كانت نسبية ووافية، وخاصة مما كان يراه ضروريًا له [28]". ولإنعاش ذاكرته ودعمها، بدأ البحث عن الوثائق، واستغرق بضعة أشهر لتشكيل مكتبة جديرة بهذا الوصف، رغم أنها لم تكن وافية بالاحتياجات. كان نابليون يريد إنجازعمل تاريخي بما يتضمنه هذا المعنى بالنسبة له: "غالبًا ما يجعل المؤرخون التاريخ غير مفهوم بسبب جهلهم أو تكاسلهم، وعندما لا يفهمون أو لا يعرفون، فإنهم يجيدون التعبير بدلاً من عمل البحوث التي تتيح لهم معرفة الحقيقة"[29]. ولما لم يكن "متكاسلاً"، فقد سعى منذ اللحظات الأولى للاستناد في إملاءاته على مصادر خارجية عديدة قد تكون في الوقت نفسه تدعيمًا لذاكرته ولعناصر المناقشة والتفكير.



تتألف سكرتارية نابليون لكتابة مذكراته من: لاس كاز، موتولون، جورجو، وبرتران.
(رسم على حفر، منتصف القرن التاسع عشر - مجموعة مؤسسة نابليون).

ولم يسمح فوشيه (Fouché)، رئيس الحكومة المؤقتة، برحيل الكتب المطلوبة من باربييه (Barbier)، واقترح كحل بديل التنازل للإمبراطور عن مكتبة تريانون (Trianon)، ووافق مجلس النواب على اقتراح بهذا المعنى. وقد عارض تنفيذه البروسيون الذين كانوا يحتلون فرساي (Versailles). ورغم ذلك استطاع نابليون الحصول على بعض الكتب من المجموعة المحفوظة في مالميزون (Malmaison)، وأربعمئة مؤلف من مكتبة قصر رامبوييه (Rambouillet)، ولكن هذه الكتب كانت عن الأدب أساسًا، وكانت قليلة الفائدة لإنجاز عمل تاريخي حقيقي[30].

وفي أثناء التوقف في ماديرا (Madère)، أرسل إلى مكتب لندن أول قائمة من الكتب التي كان الأسير يرجو امتلاكها، ووصلت هذه الكتب متأخرة بعد ستة أشهر، وكانت تشمل مجموعة (غير كاملة) من المرشد العالمي (*Le Moniteur Universel*)، انقض عليها نابليون بنفسه انقضاضًا تامًا، لدرجة أنه أمسك بالآلات ليفتح الصناديق [بنفسه]. وقد صرح أوميارا (O'Meara) [31] بذلك [قائلاً]: "وجدت [نابليون] في غرفته تحيط به كومة من الكتب، والابتسامة تضيء وجهه. لقد كان مزاجه رائعًا، وقضى معظم الليلة في القراءة". وقبل ذلك استطعنا استعارة بعض المجموعات من الجرائد والنشرات الرسمية للجيش الكبير، من شخصيات مختلفة من سانت - هيلانة. ثم وصلت خلال شهور هدايا منفردة، ومذكرات لمعاصرين، وكتب تاريخ، ومعاجم ودراسات تخصصية. وهكذا أرسل بانتظام كل من لورد وليدي هولاند (Lord et Lady Holland)، وهما من المعجبين البريطانيين من الطبقة الراقية، أرسلوا بعض الإصدارات الحديثة أو المؤلفات القديمة[32]. وفي شهر يونيو 1818م، تم تقديم طلب جديد إلى الحكومة البريطانية، وكانت الاستجابة سخية لهذا الطلب، وجاءت تُثري المكتبة التي يديرها علي[33]. وأخيرًا، وبينما كانت صحة الإمبراطور تتدهور، وتباعدت أعمال الإملاء، وصل إلى لونجود (Longwood) فيض نهائي منها، كان يقرب من مائتي مجلد أهدتها أيضًا الليدي هولاند (Lady Holland).

وإجمالاً تم جمع ثلاثة آلاف مجلد، كان أقل من نصفها يخص التاريخ والجغرافيا وفن الحرب والسياسية[34]. وكان نابليون يشكو إلى الحاكم لوو (Low) من فقر مكتبته، معتبرًا "أن رجلاً في نفس مكانته" يحتاج ستة آلاف مجلد ليتقن العمل. ولذلك اضطر للاكتفاء بما لديه، وبتفضيل نوع اليوميات. وعلى سبيل المثال يجب الاعتراف بأن مجموعة "المرشد العالمي" (*Le Moniteur Universel*) كانت وتظل كنزًا من المعلومات التي لم يكن غنًى عنها. ولتفسير هذا الكم الوثائقي كان الإمبراطور على حق حين صرح إلى لاس كاز [قائلاً]: "إن هذه المجموعة الهائلة للغاية من "المرشد العالمي"، رغم كل هذه الشهرة، لم تكن دائمًا ملائمة ومفيدة، إلا لي أنا وحدي. إن العقلاء وأصحاب المواهب الحقيقية يكتبون التاريخ استنادًا إلى الأوراق الرسمية، وهو ما ألتمس وأستند إليه"[35]. وقد كان الأسير يمضي الساعات في إعادة قراءة حزمة من الأوراق ليأخذ منها بعد ذلك توضيحات جديدة لعمل مؤلفه الكبير. وقد علق المارشال الكبير: "يقرأ الإمبراطور المرشد (*Le Moniteur*)، فهو يهمه، وليختبر بصيرته"[36].

أما فيما يخص الوثائق الإنجليزية التي جاءت عبر لونجوود (Longwood)، فقد قام بترجمتها مَن يعرفون هذه اللغة؛ وهم: لاس كاز (الذي علم الامبراطور بعض مبادئها)، والمارشال الكبير، وزوجة برتران

(Bertrand)[37]، وأيضًا جورجو (Gourgaud). وقد ساهم الدكتور أوميارا (O'Meara) بنفسه، ولكن في أغلب الأحيان في ترجمة مقالات الجرائد.

لقد كانوا رجالاً أوفياء، ومهما كانت كمية الأقلام أو ضخامة الأوراق[38] من الوثائق فإنها لم تكن كافية. وكانت العزيمة الصلبة لتحقيق النتيجة، وكان كل شيء متوافرًا ليستطيع المصنع الإنتاج لكتابة مذكرات نابليون.

وفي البداية، وحين يكون نابليون بصدد موضوع معين، فإنه كان يحدد ما يريد التفكير فيه من موضوعات بمذكرة مفصلة [39] أو شفهيًا، ثم يقوم بإملائها. وكان يكلف مساعد أو المساعدين المختارين (لاس كاز، برتران، موتولون، أو جورجو) بجمع الوثائق المفيدة. وأحيانًا يقوم نابليون بنفسه بهذا العمل ويتصفح الكتب والجرائد، ويشير إلى الفقرات، أو يأمر بعمل بحث مُكمل. وقد يمسك أيضًا بالقلم ويكتب سريعًا التصورات الأولى والخطط وفقرات بأكملها. وإذا كان لا بد أحيانًا من حل إحدى المشكلات الفنية بواسطة أحد المتخصصين من الرفاق، نحو دعوة جورجو لتحقيق مقاييس الفيضان، أو رسم الخرائط، ونحو تكليف برتران بإيضاح نقطة أو أخرى عن احتلال مصر وكتابة ملاحظات عن التحصينات، فقد كان لا بد من أن يتم كل شيء على وجه السرعة. وفي ذلك يشكو المارشال الكبير في دفاتره (*Cahiers*) [40] [قائلاً]: "كان الإمبراطور يطلب خطة عمل، معتقدًا أن ذلك سيتم إنجازه في ساعتين".

وبعد الانتهاء من هذه المرحلة الأولى، يقوم نابليون بفحص الملاحظات التي تصله، ويفرض على رفقائه التأمل لوضع أفكاره في نصابها، ونقد الكتب التي اطلع عليها، وانتقاء المعلومات. ثم يملي أحد الجنرالات، أو لاس كاز، (أو مرشان (Marchand) بشكل استثنائي، وخاصة في الشهور الأخيرة من اعتقاله). وأحيانًا ما كانت هذه الجلسات تُدار في غرفة نومه، وليس في مكتب عمله الصغير بدون مدفأة، وفي أغلب الأحيان في قاعة البليار التي بناها نجاروا "نورثومبرلاند" (*Northumberland*) أمام منزل لونجوود (Longwood) عندما كان نابليون يقيم في "بريار" (Briars): "كانت هذه الدار الباردة والرطبة الملجأ المفضل للمنفيين، وكانت تستخدم بالتتابع كغرفة طعام، ومكتب الطوبوغرافيا، وقاعة البليار، وأخيرًا قاعة انتظار، حيث ينتظر فيها الزوار الذين يستقبلهم نابليون، ويشتغلون أيضًا فيها، ويمشون فيها ذهابًا وإيابًا، ويتحدثون في أيام الجو السيئ [...]. وقد أملى الامبراطور جزءًا كبيرًا من الأعمال التاريخية في هذه القاعة؛ وهي: "الحملة على إيطاليا" (*Campagnes d'Italie*)، و"الحملة على مصر وسوريا" (*Campagnes d'Égypte et de Syrie*)، وكتابات عن حكومة الإدارة، والقنصلية والإمبراطورية، وجزيرة إلبا، و"المئة يوم"، الخ[41]. وقد يصل نتاج الجلسة إلى ما بين بضع فقرات وحتى فصل كامل، وكانت دائمًا مادة خامًا لا بد من تبييضها. ويقول لاس كاز: "كان الإمبراطور يُملي بسرعة تكاد تكون كسرعة الكلام، وكان يجب عليَّ أن أبتكر كتابة هيروغليفية وأجري بسرعة بدوري لإملاء ابني"[42]. ويؤكد مونتولون ذلك: "عندما كان الإمبراطور يملي، فإنه كان يتجول باستمرار في كل الجهات، منخفض

الرأس، ويداه خلف ظهره، وتظهر عضلات جبينه مشدودة، والفم متقلص بخفة. كان يمشي ويملي النص بسرعة معينة، ولكن دائمًا بحسب الأمر الذي يشغله. ولم يكن أبدًا ينتظر الانتهاء من كتابة ما يمليه، ويبدو أنه لا يلاحظ أننا نكتب. وعندما كان يتوقف، فإنما ليطلب قراءة ما كتبناه. وإذا لم نقم بالقراءة بسرعة لسوء الحظ، فإنه كان يُظهرعدم الصبر. والشيء نفسه عندما لا يعجبه الإملاء، ويدعي حينئذ أننا قد غيرنا طبيعة فكرته، وأننا لا نعرف ما الكتابة"[43]. ونفس الوتيرة في حالة مذكرة غير منشورة جزئيًا كتبها برتران: "كان الإمبراطور يملي بسرعة فائقة، فلا تستطيع اليد المدربة مليًا والمعتادة على الاختزال ملاحقة (إملاء) الكلام"[44]. وعند قراءة "الصيغة الأولى"، وغالبًا بعد أحاديث منفردة جديدة في أثناء سهرات قاعة لونجوود، كان يتم إملاء صياغة ثانية أكثر تقدمًا وأفضل شكلاً. وبعد إعادة كتابة أخرى، يقرأ نابليون من جديد، وفي هذه المرة يكتب ملاحظاته بنفسه، وفي أغلب الأحيان بالقلم الرصاص. وهكذا نصل إلى أسلوب أكثر توفيقًا في السرد، وبالرغم من ذلك لا يكون نهائيًا؛ فلقد تجيء تصويبات جديدة تأتي شيئًا فشيئًا عند ظهور إحدى الذكريات، أو عند وصول كتاب مفيد، أو عند تراجع الكاتب بكل بساطة. وقد كانت الجلسات مطولة وشبه يومية، كما كتب برتران يوم 3 مارس 1819م في دفاتره (*Cahiers*): "قرأ المارشال الكبير معركة واترلو للإمبراطور، واستمرت القراءة ثلاث ساعات".

ولم يكن "أمناء السر" يستطيعون الكتابة فورًا، فقد كانوا يحررون بأنفسهم ما فهموه من الإملاء، ويستخدمون أسلوبهم على الأقل حال عدم حضور أفكارهم... التي لم تكن – بأية حال - تتعدى مستوى إعادة القراءة مرةً بعد مرة. وكان الكاتب يعطي لمذكراته أهمية تاريخية لدرجة أنه لم يكن يترك لأحد العناية بذكر الأمور بدلاً منه. وفي يومياتها (*Journal*) فإن ألبين دي مونتولون (Albine de Montholon) (التي لم تكن تواظب على حضور الجلسات، ولم تكن تعرف شيئًا دون ما أسر به زوجها البكاش) - لم تكتب أقل من ذلك: "ما كان يمليه الإمبراطور لم يكن مفهومًا، لدرجة أنه كان لا بد من تلخيص ثلاثين صفحة للحصول على عشر صفحات؛ لأنه لم يكن يعرف الكتابة أو التعبير عن رأيه بوضوح"[45]. وهذه هي المرة الأولى التي نقابل فيها مثل هذا الرأي عن أسلوب عمل وقدرة نابليون على التفكير، وتلك شهادة من كانت تعتبر آخر عشيقات نابليون، وبناء عليه يمكن استبعادها[46].

وكان الجنرال "موتولون" قادرًا بجدارة على إثارة الإعجاب، مما جعله لا غنى عنه، وخاصة بعد الشقاق الذي حدث بين رب العمل والمارشال الكبير. وقد أكد فيما بعد أنه كان مفضلاً عن "غريمه" في الإملاء والصياغة، وهو ما أبرزته ألبين (Albine) بشيء من سوء النية [إذ تقول]: "لم يكن المارشال الكبير يجيد الكتابة، وكانت مراسلاته رديئة، ويعرف الإمبراطور ذلك. وفي بادئ الأمر أملى عليه حملات مصر الحربية، وكان ذلك أمرًا طبيعيًا، حيث شارك فيها مع الإمبراطور. ثم أعاد من جديد مع موتولون كل الفصول عن مصر"[47]. ونحسب هذه الخواطر ترجع للمنازعات والغيرة الوضيعة التي كانت في لونجوود يوميًا طوال خمس سنوات. وقد

كان لاس كاز، ثم برتران، هدفًا مفضلاً لمونتولون وزوجته. ورغم أن برتران لم يخدم إلا قليلاً، فإنه لم يكن مستبعدًا، وهناك وثائق كثيرة جاءت من سانت - هيلانة كان قد كتبها بيده، يمكن ضمها إلى المذكرات (*Mémoires*)[48].

ولم يجازف نابليون فيترك شيئًا للصدفة ولا للآخرين في كتابة مذكراته، يشهد على ذلك "التعليمات" التي وجهها إلى موتولون بالضبط، ويقول له كيف تجب دقة إدخال المستندات والوثائق المثبتة بسرد الحملة على إيطاليا. ويبين النص - الذي كتبه الإمبراطور كاملاً بيده - مدى دقته المتناهية، حيث يقول: "أرسل لك مراسلاتي، وأرجوك أن تكتب بالحبر ما كتبته بالقلم الرصاص؛ أي الملاحظات أو أرقام الفصل الخاصة بكل رسالة [...]. وصمم لي كتيبًا من ثماني عشرة ورقة، كل منها من أربع صفحات، مما يشكل اثنتين وسبعين صفحة. ستخصص هذه الصفحات: الأوراق الأولى تخص الفصل الخامس، ومونتنوت (Montenotte) [يتابع إحصاء مكان ثماني عشرة ورقة]، وكل ورقة تشمل رقم صفحة الفصل حيث توجد الرسالة التي تخصه [...]، علاوة على خطابات المراسلات. ويجب ضم الرسائل المطبوعة [...] والموجودة في [جريدة المرشد] المونيتير (*Le Moniteur*)، وتخص جيش إيطاليا، إلخ"[49]. فهل هناك أكثر دقة من ذلك، وهل يمكن أن نصدق زوجة موتولون عندما تضع زوجها في موضع مَن يُنمِّق فكر نابليون المشوش؟

كان العمل يبدأ بانتظام يسرًا أو عسرًا، وأصبح هذا النشاط ضرورة حيوية في بعض الأحيان، حتى دون أهمية الإملاء "التاريخية". كما لاحظ ذلك مونتولون (Montholon) [إذ يقول]: "كان العمل الوحيد الباقي لحياة الإمبراطور عندما كنت أنا وبرتران نوفق في إيقاظ ذكرياته، وإبعاد الشعور بوضعه الراهن عن فكره. وتعتبر عملية الإملاء – إذن - لقضاء الوقت، وتصبح غير مثمرة". وكتب مونتولون إلى زوجته: "تم استعدائي وإملائي نصًا لمدة ثلاث ساعات، فقط لقضاء الوقت؛ وذلك لأن من العسير أن يكون الحال أكثر كآبة ومعاناة"[50]. وفي وسط رطوبة لونجوود كان الحديث إلى الأجيال نشاطًا سياسيًا، ومهمة ثقيلة، وكان تسلية في الوقت ذاته.

ولم يتقيد المصنع بنظام وتاريخ الأحداث، كنا ننتقل من مسألة أو حدث ثانوي إلى آخر، فقط كما يتراءى لرغبات الإمبراطور. وحتى أننا كنا نستطيع العمل في أكثر من موضوع في نفس الوقت، بما فيه نفس اليوم. وهذا ما أوضحه برتران في دفاتره (*Cahiers*) إذ يقول: "في 23 يناير [1817م]، كان الامبراطور يعمل مع المارشال الكبير وموتولون؛ فمع الأول في "وصف مصر"[51]، ومع الثاني في موضوع المحايدين". وبعد عدة أيام (في 28 يناير)، أملى رب العمل ثلاث فقرات عن حصار طولون، وفي اليوم التالي أملى فصلاً عن الحرب الإيطالية، وفي الوقت نفسه كان يتحدث في أثناء الليل عن نقض اتفاقية سلام أميان (Amiens)".

ومع تنظيم العمل بهذا الشكل، كان من الصعب معرفة من تلقى الإملاء، وما الذي أملاه بونابرت. فقد كان يتنقل بين واحد وآخر من رفاقه، تبعًا لوجودهم من حوله. وقد تؤل كتابة الصيغة الأولى إلى لاس كاز، وتئول الثانية إلى جورجو، أو إلى آخرين أيضًا. وفي ترتيب آخر كان الامبراطور يكلف أحدهم ليصحح ملاحظات آخر. لا يهم، فالمذكرات في حقيقة الأمر هي مذكرات بونابرت؛ فلم يكن الجنرالات، ومستشار الدولة وابنه، والمملوك أمين المكتبة، أو خادم الغرفة، إلا أدوات في خدمة الهدف العظيم(52).

وقد استمر هذا النظام طوال فترة الحبس، ولم يتوقف إلا عندما تغلب المرض على الإمبراطور في بداية عام 1821م(53).

وقد استدعى نابليون مونتولون في 16 أبريل 1821م، وتحدث معه - ضمن موضوعات أخرى - عن مصير مذكراته قائلاً: "سوف تنشر ما أمليته، وتدفع ابني لقراءته والتفكير فيه"(54). وتحدث مرة أخرى عن الموضوع مع برتران، وجدد عليه طلب النشر والإهداء إلى ملك روما. واقترح نشر نصوص حروب إيطاليا ومصر، مع إلحاق مناظر المعارك التي رسمها دينون (Denon) وبكلير دالب (Bacler d'Albe). وطلب أيضًا تكليف أرنو (Arnault) بمراجعة الأسلوب [...]، وتصحيح أخطاء اللغة الفرنسية الطفيفة"(55). ولم يتم تنفيذ تلك الوصايا الأخيرة.

وبعد وفاة الإمبراطور، حمل آخر الرفقاء المخطوطات إلى أوروبا، وخاصة برتران الذي تسلم من موتولون بعض المخطوطات التي كانت بحوزته حينئذ(56). وعلى الرغم من أن جزءًا من المطبوعات نشرها جورجو (1818م)، وأوميارا (1820م)، ولاس كاز (1823م) (57)، فإنه تم نشر المذكرات - في الحقيقة - كما هي في مرحلتين كبيريين:

1. من 1823م إلى 1825م: صدرت ثمانية أجزاء عند فيرمان ديدو (Firman Didot)، وبوسانج (Bossange) في فرنسا، وكلبورن (Colburn) وبوسانج في إنجلترا(58) ، بعنوان:

Mémoires pour servir à l'histoire de France sous Napoléon Ier écrits à Sainte-Hélène par les généraux qui ont partagé sa captivité et publiés sur les manuscrits entièrement corrigés de la main de Napoléon.

ومونتولون الأجزاء (من I إلى VI)، وجورجو الجزءان (VII)، و(VIII). كانت هذه الأجزاء في أصل المنشور الذي عرف طبعة ثانية في عام 1830م، عند بوسانج وحده في تسعة أجزاء. وفي هذه المرة تم الأخذ تقريبًا بالترتيب التاريخي على خلاف ما كان في البداية. ثم تبع ذلك ترجمة كاملة أو جزئية إلى اللغة الإسبانية (1825-1826م)(59)، والسويدية (1825-1823م)، والنرويجية (1824-1823م)، والألمانية(60) (1825 -

1823م). وفي الموجة الأولى خلط الجنرالان بين عدة مواد مختلفة في طبيعتها، وهي : روايات حصار طولون، والحملة الإيطالية الأولى، وانقلاب برومير (Brumaire)، والسنوات الأولى للقنصلية، وأحداث عام 1815م، وخواطر عن سياسة حكومة الإدارة، وملاحظات قراءة عن مؤلفات ظهرت في أثناء الأسر، وكانت قد وصلت إلى سانت - هيلانة.

(2) ولم تشمل هذه الإصدارات إلا أطرافا لفصول خصصها نابليون عن الحملة المصرية [61]، ولم يتم نشرها كاملاً إلا عام 1847م، في جزأين عند الناشر كومون (Comon) أولاً، ثم في نفس السنة في مؤسسة الناشرين المتحدين تحت عنوان:

Guerres d'Orient. Campagnes d'Egypte et de Syrie (1798-1799) Mémoires pour servir à l'histoire de Napoléon, dictés par lui-même à Sainte-Hélène et publiés par le général Bertrand [62].

وأخيرًا جمع أنسيلم بتيتان (Anselme Petetin) كل ذلك في ستة مجلدات (المطبعة الوطنية، 1867م)، قبل أن يشكل الأجزاء الأربعة الأخيرة (من XXIX إلى XXXII) (1868-1870) من مراسلات نابليون الأولى الصادرة بأمر الامبراطور الثالث، بعنوان "مؤلفات نابليون في سانت - هيلانة"[63]. وقد رأى المسئولون عن هذا المشروع الضخم أن "الطبعات السابقة" [...] أكثرها غير صحيحة"، وانكبوا - قدر المستطاع - على نشر الأعمال التي استطاعوا العثور عليها من المخطوطات الأصلية التي صححها نابليون. وقد حصلوا على هذه الوثائق من عائلات برتران، ومونتولون، ومرشان أيضًا، ونابليون الثالث الذي امتلك بعضها. ولما كانوا مضطرين أحيانًا لاستبدال بعض ما ينقصهم من هذه المخطوطات، فقد رجعوا إلى "مذكرات تفيد تاريخ نابليون":

Mémoires pour servir à l'histoire de Napoléon [64]

واستطاع المندوبون في سنة 1860م، الابتهاج شرعًا بهذه النتيجة. كما كتب رئيس اللجنة، الأمير نابليون جيروم (Napoléon-Jérôme)[65] بكل فخر: "لم تظهر أعمال سانت - هيلانة أبدًا بشكل كامل وأصيل".

وفي الرسائل (*Correspondance*)، تم نشر المذكرات، بكل معنى الكلمة، وبعض الإملاءات عن الأحداث الهامة، وإملاءات عن التاريخ وفن الحرب، وملاحظات للقراءة، نحو:

(1) المذكرات، مثل: حصار طولون، 13 فانديميار (Vendémiaire)، وحروب إيطاليا (1796-1797م)، وحروب مصر وسوريا، و18 بريمير (Brumaire)، والقنصلية المؤقتة، ومارنجو (Marengo)، وجزيرة ألبا، والمئة يوم، ومعركة 1815م.

(2) الإملاءات عن الأحداث المهمة، مثل: عمليات جيش إيطاليا خلال الأعوام (1792-1795م)، وثورة هولندا، والإدارة الداخلية لحكومة الإدارة، وموجز الأعمال الحربية التي حدثت عام 1798م، وموجز للأعمال الحربية التي وقعت في الشهور الستة الأولى عام 1799م، ودراسة عن دفاع مسينا (Massena)، وعن جنوه

(1800م)، وحملات في ألمانيا من 1795 إلى 1800م، والأحداث الدبلوماسية والحربية بعد مارينجو (Marengo)، في ألمانيا، وإيطاليا، ودراسة عن مسألة المحايدين (Neutres).

(3) التاريخ وفن الحروب: موجز عن حروب يوليوس قيصر، وموجز عن حروب المارشال دي تورين (Turenne)، وموجز عن حروب فريدرك (Frédéric) الثاني، وملاحظة عن مقدمة تاريخ الحرب في ألمانيا عام 1756م، ومشروع عن التنظيم الجديد للجيش، ومقالة عن اختبار التحصينات الحربية.

(4) مدونات القراءة: ملاحظة عن كتاب:

Précis des événements militaires ou Essai historique sur les campagnes de 1799 à 1814 du général Mathieu Dumas (inachevéè). (66)

وأربع ملاحظات عن كتاب:

Mémoires pour servir à l'histoire de la Révolution de Saint-Domingue

كتبه الجنرال فيكونت ب. دي لا كروه (P. de Lacroix)، وست ملاحظات عن كتاب: (*Les Quatre Concordats*)، لصاحب السيادة دي برادت (Pradt)، أسقف مالينس (Malines) السابق، وملاحظة عن الرسائل التي كتبها الإنجليزي ج. هوبهاوس (Hobhouse) من باريس في أثناء المئة يوم، وملاحظة عن: المخطوط الذي وصل بطريقة غير معروفة إلى سانت - هيلانة (*Le Manuscrit venu de Sainte-Hélène de manière inconnue*)، وثماني عشرة ملاحظة قصيرة عن فن الحرب عن كتاب الجنرال بارون رونيا (Rognat) "*Considérations sur l'art de la guerre*"(67).

مع أنه في نهاية المجلد (الثاني والثلاثين)، أبرزت لجنة النشر بالإمبراطورية الثانية مقتطفات عريضة من كتابة المذكرات التذكارية (*Mémoriaux*)، إلا أنها لم تـأخذ في الاعتبار - كجزء من مذكرات نابليون - نصين من المذكرات التذكارية لسانت - هيلانة (*Mémorial de Sainte-Hélène*)؛ وهما: كتاب لاس كاز: إملاءات عن شباب بونابرت (27-31 أغسطس 1815م)، وعن اتفاقية (La Convention) (12 يونيو 1816م). وقد عرف نفس المصير ملاحظات مختلفة نشرها مونتولون في روايات الاعتقال بعنوان: (*Récits de captivité*)، وهي: ملاحظات عن سان دومينغو (Saint-Domingue) (24 أبريل 1816م)، والسياسة تجاه روسيا (10 فبراير 1818م)، والسياسة الدينية، و(15 مايو 1818م) لافاليت (Lavalette) (8 فبراير 1820م)، والسياسة الداخلية (20 أغسطس 1820م)، وشئون قضايا إسبانيا (21 نوفمبر 1820م)، ومفاوضات دريسد (Dresde) في عام 1813م (23 مارس1821م).

وقد حظيت "مؤلفات نابليون في سانت - هيلانة" على شيء من النجاح المؤكد، وإن كان أقل من نجاح كتب المذكرات التذكارية (*Mémoriaux*). وفي السنوات الأولى التي تبعت ظهور هذه المؤلفات، تم إعادة نشرها كاملة

أو مقتطفات منها، في مطبوعات مختلفة، نشرتها "مكتبة الجيش الفرنسي" التي كان يديرها المؤرخ كامي روسيه (Camille Rousset) - وذلك على سبيل المثال - في خمسة مجلدات عام 1872م[68]. وعرفت إعادة طبعها كاملة من جديد منذ 106 سنة تحت إدارة وملاحظات ديزيره لاكروه (Désiré Lacroix)[69].

وتشكل كل النصوص الموجودة في هذه المجموعات معًا ما يمكن أن نسميه "مذكرات وأعمال نابليون التاريخية في سانت - هيلانة"، ولم تكن كل هذه المذكرات "ذاتية"، وعلاوة على ذلك فإنها إذا جمعت متلاصقة الأطراف فلن تتيح إعادة تشكيل "حياة نابليون نفسه". وفي الحقيقة أنه لم يتطرق لأكبر جزء من تاريخ القنصلية والامبراطورية. ومع ذلك كان هدف الأسير أن يشد الرحال، كما لاحظ برتران ذلك [إذ يقول]: "قرأ أعداد جريدة المونيتير (المرشد) (*Les Moniteurs*) عام 1800م، ليكتب تاريخ القنصلية، ولكن لم يكتب أية ملاحظة، بل شعر بسعادة عندما قرأ تاريخ فترة مرموقة من مسيرته. وكان دائمًا ما يأخذ منها من جديد ذكريات لكتابة تاريخه"[70]. ولكن إصدارات المراجع من (الجراند، ونشرات الجيش العظيم، والخرائط، إلخ"، كان ينقصها معظم الموضوعات. ونفس الملاحظة لعصر الإمبراطور؛ حيث اشتكى نابليون إلى جورجو عندما اقترح عليه في إبريل 1817م أن يكتب عن الحرب الروسية عام 1812م[71]. وبوفاته، ستظل المذكرات ناقصة بمعنى الكلمة: "أقام نابليون جناحين في مبنى ذكرياته، الفترة 1793-1801م، وعام 1815م، تاركًا الجزء المركزي يكاد يكون فارغًا"، هذا ما كتبه فيليب جونار (Philippe Gonnard)[72].

* * *

إن أكبر عدد من مختارات مذكرات نابليون التي حققتها وأعطتها لجنة الإمبراطورية الثانية[73] الصفة الرسمية، هي التي تقدمها اليوم إصدارات تالانديه (Tallandier) إلى الجمهور من جديد. ومن المتوقع إصدار دُفعة من ثلاثة مجلدات تتناول النصوص المنتهية والكاملة من جديد:

- الحرب الإيطالية الأولى.
- الحملة على مصر.
- جزيرة إلبا والمئة يوم.

ويعتبر كل مجلد من هذه المجموعة مستقلا، ويبدأ بهذه المقدمة العامة، ويتبع ذلك مقدمة خاصة لكل مجلد. وقد استند اختيار نص الرواية إلى مخطوطات صححها الإمبراطور واللجنة. وقمنا أحيانًا بتحديث بعض أسماء الأشخاص، وتصحيح الأسماء التي لحّنها الإمبراطور أو الناشرون الأصليون. ولم نعلق على النصوص التي نعيد نشرها حتى لا نجعل قراءتها غير سهلة، ولم نعلق على أي من الأحداث المعنية حتى في أقل التفاصيل، وهو ما كان يجعلنا نعيد كتابة جزء كبير من حياة نابليون. ومع ذلك لا نستطيع اتهام نابليون بالكذب في كتاباته؛ فإنه كلن

يقدم حقيقته بجلاء، ويدلي برأيه وبأسلوبه، ويخص بامتياز اتساق مسيرته، ويحفظ لنفسه الدور الرائع؛ فهو لا يغير الأحداث ولا ترتيب تاريخها وتسلسلها. أما تفسيراته فلا يجب المبالغة في التنديد بها؛ فلماذا نرفض أن يعطي الممثل الرئيسي رأيه وروايته، بينما نتقبلها من شهادة آخرين، بل الأكثر من ذلك [أننا نقبلها] من بعض مؤرخي العصر.

وحتى لا نترك القارئ وحده أمام النص، فقد تم إضافة خرائط وتأريخ الأحداث، وأعدت شنتال لهريه بريفو (Chantal Lheureux–Prévot) فهرسًا لأسماء الأشخاص، وتم الإشارة بمعقوفتين إلى تدخلنا النادر في النص، خاصة عند تصحيح كتابة أسماء الأعلام.

وتمثل هذه المذكرات شهادة نابليون نفسه، وهو إنتاج جاهز من مصنع تاريخ سانت - هيلانة. وهي تتميز بمنهج صارم، وتبويب على نسق واحد (فصل رئيس، فصول فرعية)، وتسلسل تاريخي، وأسلوب بسيط، موجز ودون هوى، ومضمون ثري ومختصر. ويتحدث نابليون آخذًا وضع المؤرخ باسم الغائب (وهو على كل حال لم يكن راصدًا محايدًا أبدًا)، ويعلن أنه "بونابرت"، أو "نابليون"، أو "الإمبراطور"[74]. ويمزج ببراعة معلومات تاريخية وثائقية بالتفصيل، وتفسيرات تبدو مملة أحيانًا (دون أن تفقد شيئًا من أهميتها)، وتبريرات لاختياراته وسلوكه. ويمكن بالتأكيد أن نفتقد المشاهد الحميمة، وبكل بساطة تلك المشاهد الشخصية التي لم يتم التطرق إليها. ونشارك قول أوجين لاكروه (Eugène Lacroix) أن: "العظماء الذين يكتبون مذكراتهم لا يتحدثون بما فيه الكفاية عن أثر عشاء رائع على سجيتهم"[75]. ولا جدوى من مثل هذا الندم، فإن الأمر قد يُحوّل رجلاً من رجال دولة إلى مستوى العامة لدرجة بسط مشاكله العائلية، ولم يكن نابليون بحاجة إلى ذلك. وقد قام آخرون به من قبل في مطبوعات جادة إلى حد ما. ولم يكن الحال نفسه؛ فلقد كان يريد الحديث إلى التاريخ، وشرح ذلك أمام لاس كاز في حديث منفرد يستحق الذكر بإطناب هنا؛ بوصفه تمهيدًا من الإمبراطور لمذكراته الذاتية، [حيث يقول]: "إن من الصعب يا عزيزي الحصول على الحقائق الصحيحة للتاريخ. [...] هناك حقائق إلى حد كبير. [...]. وهذه الحقيقة التاريخية التي يسعى الشخص إليها ونتعجلها ليست دائمًا إلا كلمة؛ هي مستحيلة في وقت الأحداث وفي حرارة المشاعر المتصلبة. وإذا اتفقنا فيما بعد؛ فذلك لأن المعنيين والمعارضين لا وجود لهم. ولكن ما هي إذن الحقيقة التاريخية في أغلب الأحيان؟ أسطورة متفق عليها، هكذا قالها بكل بساطة. وفي كل هذه الأمور يوجد غرضان أساسيان مختلفان: الأحداث المادية، والأغراض المعنوية. وقد يبدو أن الأحداث المادية لا يمكن المجادلة فيها، ومع ذلك لاحظ إن كان هناك روايتان متشابهتان، فهناك ما يبقى منهما دعاوى دائمة". "أما فيما يتعلق بالأغراض المعنوية، فما الوسيلة إلى الاهتداء إلى سبيلها، أيكون بافتراض حسن النية في الرواة؟ وما الذي سيكون لو كان دافعهم سوء النية، أو المصلحة أو العاطفة؟ ولكن إذا ما أصدرت أمرًا، فمن ذا الذي يستطيع قراءة حقيقة فكري، أو هدفي الحقيقي؟ ومع ذلك فإنّ كلاً سوف يتلقى الأمر، ويقيسه بميزانه، ويخضعه لخطته وطريقته

الفردية [...]. وقد شاهدت من ينتزع مني فكرة معركتي، وينافس نية أوامري، ويحكم ضدي. أليس ذلك تكذيبًا للمخلوق أمام خالقه؟ لا يهم، وسوف يجد من يعارضني ويخالفني مؤيدين له. وكذلك هل الذي غيَّر مجرى كتابة مذكراتي الخاصة، والتعبير عن مشاعري الشخصية [...] أيضًا، فكرت عدم الإملاء عليكم هنا إلا الأعمال العامة. وأعرف أيضًا جيدًا أن هذه الروايات يمكن أن تتم مهاجمتها؛ فمن هو ذلك الإنسان في هذه الدنيا الذي لا يهاجمه أو يستنكره الفريق المعارض، مهما كان صاحب الحق والقوة ومهما كانت سلطة هذا الحق. ولكن أمام نظر الحكيم والمحايد والرزين والعاقل، فإن صوتي يساوي في النهاية صوت غيري، ولا أخشى القرار النهائي إلا قليلا"[76].

لم يبق هناك ما يقال.

تيري لينتز

(Thierry Lentz).

الحملة على مصر

مقدمة

تعتبر رواية الحملة على مصر، والتي أملاها الإمبراطور في سانت - هيلانة، من أكثر مختارات "مذكرات نابليون" التي تم الرجوع إليها والنظر فيها من جديد. وعلى الرغم من "أسلوب التبرير ودفاع نابليون الواضح"، فإن هذه المذكرات تشكل في رأي واحد من أعظم المتخصصين في "ملحمة الرمال" رؤية موجزة وثابتة للأحداث، و"شهادة من الطراز الأول"[1]. وقد تم الاتفاق على النص النهائي في سانت - هيلانة بعد أبحاث عديدة وقراءات ومناقشات تحضيرية، وبعد مرات عديدة من موجات الإملاء واستدراك الأخطاء والضبط. ويمكننا أن نضيف - كما قال المارشال برتران - أن مشروع رواية هذا المشهد الأسطوري كان قد داعب الإمبراطور في أوج حكمه، وربما كان قد قام بإملاء خطط العمل، ولم يكن الوقت كافيًا لينكب الإمبراطور على عمله كمؤرخ. ولكن كان لديه فائض من الوقت بعد سقوطه لأداء المهمة على نحو متواصل. وقد كانت حالة اختمار التأليف في سانت - هيلانة بطيئة، وكانت تخضع لمراحل وصول الوثائق اللازمة، والتي كانت ثرية منذ إقلاع نورثهمبرلاند (*Northumberland*). وكان مما ألمَّ بالعمل على وجه التقريب[2]، رواية الجنرال برتييه: "رواية حروب الجنرال بونابرت في مصر وسوريا"

(La Relation des campagnes du général Bonaparte en Égypte et en Syrie)

وكتاب روبير ويلسون (Robert Wilson): "تاريخ الحملة البريطانية في مصر"

(Histoire de l'expédition britannique en Égypte)،

واللذان حصل عليهما - في الغالب - من مكتبة قصر رامبوييه (Rambouillet). ويشكل هذان الكتابان جزءًا من المؤلفات التي جاءت بها السفينة الإنجليزية التي قادت الإمبراطور ورفاقه إلى مكان الحبس[3]. بعد ذلك وصلت مجموعات أخرى إلى سانت - هيلانة، نذكر منها الكتاب الشهير "وصف مصر"[4]، تم تسليمها إلى لونجوود (Longwood) في يونيو 1816م[5]. وفي نفس الوقت وصل كتاب فيفان دينون : "رحلة إلى الدلتا ومصر العليا"، والذي كان كتابًا معاصرًا من الدرجة الأولى. وندرك تأثير هذين الكتابين الرائعين عند قراءة مذكرات نابليون، و(ليس فحسب) في الفصل الثاني بعنوان "وصف مصر" (*Description de l'Egypte*) بصفة

خاصة. وبعد وصول هذين الكتابين المرجعيين بقليل، رأى أوميارا (O'Meara) "نابليون مشغولاً بقراءة كتاب دينون عن مصر، ونقل منه فقرات بيده"[6].

وفي الوقت ذاته أو بعده بقليل، ومن الصعب قطع القول [في ذلك]، دخلت كتب أخرى في المكتبة التي كان يديرها علي؛ مثل مذكرات جاك مييو (Jacques Miot) الهامة، والتي كان نابليون - دون شك - يعرفها منذ ظهورها عام 1805م، لكنه لم يتحصل عليها في بداية منفاه[8]. وهناك معاجم، ومؤلفات دينية، وأعداد من "المونيتير" التي لم يكن غنًى عنها، ومجموعات الأوامر، تمت قراءتها ودراستها والتعليق عليها. وعلى الرغم من جهود الجميع، فلم يكن باستطاعتهم إعادة تشكيل بيان القوة العددية للجيش بدقة: فإنَّ ما ورد في المذكرات غير صحيح، فعُهد إلى "جورجو"، و"برتران" و"مونتولون" بصياغة الملاحظات البينية. فعلى سبيل المثال، وفي أثناء الشتاء الجنوبي عام 1816م، اضطر "مونتولون" لدراسة قناة الأهرام، والموقع المفترض لمدينة بيرنيس (Bérénice)[9]. وقد قام نابليون بنفسه بالعمل عندما تفرقت وثائق برتران، حيث تم بيع قسمين على الأقل كانا يتضمنان عشرات الأوراق المكتوبة بخط يد المؤلف[10].

وحسب "دفاتر" برتران، لم تتم الموافقة على الفصل الأول حتى شهر يونيو1816، أي بعد ستة أشهر من بداية أعمال الكتابة التي كانت في الحقيقة تسير حينئذ في عدة "جهات" لأن نابليون كان يملي – حينئذ - عن اللحظات الكبرى في حياته. وفيما يتعلق بالمغامرة المصرية، كان التعمق في مضمون الفترة من يوليو حتى سبتمبر، قبل أن يترك الأمر حتى بداية 1817م، ليعود بجهد جديد - بعد راحةٍ - لبضع شهور، ويتبع ذلك بوقت من الراحة، ثم يتم استئناف التصحيحات والإضافات في بداية 1818م. وقد تقدم النص كثيرًا في ربيع عام 1819م، تقريبًا في نفس الوقت الذي خصص للحرب الإيطالية[11]، ثم تم تناول النص مرة أخرى قبل أن يتم تحريره نهائيًا. "وفي منتصف عام 1820م، رتب الإمبراطور وأمر بإعادة نسخ العديد من مخطوطاته، ومن بينها مخطوط الحرب على مصر"، كما ذكر المملوك علي[12]. وكان لا بد من ثلاثة أعوام ونصف العام للتوصل للصيغة النهائية، ولم يكن الفصلان الأخيران الخاصان بأعمال كليبر ومينو (خلفاء بونابرت على رأس الحملة) موضوعًا لقراءة نهائية من الأسير الذي كانت صحته آخذة في التدهور.

وقد احتاج هذا الجزء من المذكرات إلى تعبئة كل العاملين في ورشة التاريخ في سانت - هيلانة. وكان لاس كاز هو المعاون الرئيس في تحرير المقدمات على متن السفينة نورثهمبرلاند (*Northumberland*). وقد بدأ الامبراطور الإملاء فعلاً عندما استقر في بريار (Briars)، وعندئذ شارك جورجو ومرشان في تسجيل أقوال نابليون وتبييضها[13]. وقام عليّ - أمين المكتبة والناسخ - بإدخال عدد من التصويبات[14]، وقام مونتولون، حسب قوله، بتصحيح التفاصيل الأخيرة، وقد يكون قد انتهز فرصة أن برتران "مغضوب عليه" ليفرض نفسه محاورًا

وحيدًا. كانت ميول الجنرال المغامر [نابليون] القيام بالدور الرئيس في روايات أسره (*Récits de captivité*). وإنّ مقارنة مذكراته - التي شارك في تحريرها ألكسندر دوماس (Alexandre Dumas) - مع دفاتر (*Cahiers*) الجنرال برتران، تجعلنا نعتقد أن المارشال الكبير لم يكن مستبعدًا من عمل كان قد قدم له الكثير فيما مضى.

وفي الواقع أن برتران كان إلى جانب نابليون كأحد الفاعلين في تلك الحملة الرائعة التي شهدت رحيل جيش فرنسي لغزو أرض الفراعنة. وعندما نستعيد ذكرى مصر في سانت - هيلانة، فإن برتران لم يكن بعيدًا أبدًا، فقد كان يُدعى لتحديد أمر ما، بل ليكتب وينسخ أيضًا، أو ليعيد القراءة مع الإمبراطور، وأحيانًا كان يذكره بقصة قصيرة نساها[15]. وعلاوة على ذلك فإنه لم يتردد في أن يتجادل معه، كما كان ذات مساء حين دافع عن كليبر معاتبًا رئيسه بأنه عامل خليفته كأنه "ملازم"، ولم يطلعه بعودته إلى فرنسا[16]. ونشير في هذه المناسبة أن برتران لم يكن يتردد أبدًا عن الاعتراض والوقوف في وجه رئيسه، ولم يكن حزمه يفتر أبدًا عن التنفيذ والتفاني. لقد كان يعرف كيف يتعامل مع الإمبراطور، وكتب عنه [قائلاً]: "نستطيع أن نقول له كل شيء بطريقة ملائمة"[17].

ومن بين المقيمين في سانت - هيلانة، كان المارشال الكبير قد خدم نابليون من زمن طويل. وكان في الماضي من بين رؤساء الأركان في الجزء الثاني من الحرب الإيطالية بين عامي 1796-1797م. وقد تم تعيينه عندما عاد إلى فرنسا في الفريق الصغير المكلف بإعداد الحملة على مصر بكل حذر. ثم شارك بعد ذلك في غزو واحتلال مصر، وتمت ترقيته رائد كتيبة (مكافأة لما قام به في معركة الأهرام)، ونائبًا لمدير التحصينات، وعاش سنتين بكل الهمة والنشاط في الحملة التي لم تكن غزوًا فحسب، بل كانت - إلى جانب ذلك - إعادة لتنظيم بلد بأكمله. وقد ضحى بنفسه وجرح في رأسه في بداية معركة أبو قير البرية، واستمر في القتال من أجل الاستيلاء على إحدى القلاع مخاطرًا بحياته، وجُرح هذه المرة في فخذه. ومنذ ذلك الوقت راقب الجنرال بونابرت هذا الضابط الذكي المخلص، الكتوم والشجاع. وبعد عودة بونابرت إلى فرنسا، ظل برتران قريبًا من كليبر، ثم مينو، وأصبح رئيسًا للفرقة في أغسطس 1799م، ثم جنرال فرقة في سبتمبر 1800م. وقد شعر أن الاستسلام النهائي مأساة، رافضًا الانتماء إليها.

وعلى ذلك فقد كان المارشال الكبير يعرف أشياء كثيرة عن كل الأحداث المصرية، وكان من الطبيعي أن يستعين به نابليون ليذكره ويقارب ذكرياته الشخصية معه. إن وجود شاهد مباشر وله مكانة عالية يسم الحملة على مصر بطابع يؤدي في النهاية للحكم بمصداقية تفوق أكثر أجزاء الذكريات الأخرى في حال عدم وجود دليل على "الحقيقة". وقد شهد على أهمية هذا التعاون رفقاء الأسر الآخرون، بما فيهم مونتولون. وقد حصل برتران

في الواقع على مخطوطات هذه الحملة في 29 أبريل 1821م، وذلك قبل وفاة نابليون بأسبوع[18]، مع إملاءات عديدة أخرى كان مؤتمنًا عليها بناء على طلب الامبراطور نفسه، فقام بإعادتها إلى أوروبا[19].

إن أكثر من مئة عالم رفعوا من شأن الحملة على مصر؛ [تلك الحملة] التي تم إعدادها بأكبر قدر من السرية، والتي لجأت إلى وسائل حربية استثنائية، وحوالي 350 سفينة لنقل 38000 (ثمانية وثلاثين ألفا) جندي. وتدهشنا هذه الحملة وتسلبنا اللب، كما أدهشت وأسرت ألباب المعاصرين. وعلاوة على ذلك فقد تحول الواقع - أكثر من إيطاليا - إلى أسطورة، وذلك بمجرد عودة الفاتح. وبعد ثلاثين عامًا كتب فيكتور هوجو (Victor Hugo)، محدثًا عن بونابرت: "قاهر متحمس، متألق النفوذ، وإعجاز أدهش العالم بالمعجزات"[20]. وحتى عندما أعاد المستشرقون - على أثره - حقائق حروب المغامرة التي أخذوا عنها كمصدر لجزء مهم من إلهاماتهم، فقد قاموا بتمجيدها. واتبعت الأجيال اللاحقة نفس المسار، وإنَّ مغريات الشرق المؤثر (الشرق الذي جعلوه مثاليًا)، والأحداث العلمية التي صاحبت أو لحقت المعركة الحربية واحتلال البلاد[21]، أدت إلى إغفال الفشل النهائي للحملة. وفي هذا السياق تبدو مذكرات نابليون دعوى وسط، رغم أن كاتبها لم يسترسل بوضوح في مسألة الهزيمة التي لا نزاع في أنها هي التي أنهت الحرب.

وبما أنه لم يتوسع في إملاء الأسباب التي دفعت حكومة الإدارة للشروع في هذه الحملة، فسنذكر عنها – هنا- بضع كلمات في بادئ الأمر، حيث ينبغي إبراز التباين بين فرضيتين شهيرتين.

تتعلق الفرضية الأولى بشخصية بونابرت ذاته؛ فكثيرًا ما نتحدث عن "حلم الشرق" عند بونابرت، وربما كان يفكر في الإسكندر الأكبر عندما اقترح على الحكومة القيام بالعملية العسكرية على مصر. وربما كانت الرغبة غير المؤكدة في السير على خطى الغازي الأسطوري هي التي قد ساعدته على الاقتناع بأن القدر سوف يفتح أمامه آفاقا جديدة. وفي ذلك لم يكن إلا رجل عصره، وفي نظر ورثة عصر التنوير، فإن الغزاة الفرنسيين قاموا بتقليد اليونان. وعندما تحدث روبرت موريسي (Robert Morissy) عن مقالة ديدرو (Diderot) "فلسفة اليونان" في: "دائرة المعارف"، فقد شهد [بقوله]: "أدى انتصار الفلسفة إلى غزوات الإسكندر". وفي نهاية المقال ترك ديدرو الحديث إلى بلوتارخ (Plutarque) – الذي عرفه نابليون جيدًا- ليؤكد فكرة أن الإسكندر استعمل أفكار زينون (Zénon): "يأخذ الناس عامة على أنهم مواطنو العالم، وتتعدى مصلحتهم تقسيم البشر عن طريق المدن والشعوب والأمم. وهكذا نتجت انتصارات الإسكندر مباشرة عن انتصارات الفلسفة"[22]. ولقد انغمس بونابرت - وهو رجل عصر التنوير- في هذا الجو، وكان واحدًا من بين من كانوا أكثر كمالاً، دون أن يكون حالة فريدة. وقد كان عشق الفرنسيين لأرض الفراعنة مصدرًا آخر "لإغراء الشرق"[23]، والذي يرجع - على الأقل - إلى النصف الأول من القرن الثامن عشر، وشجعته الاكتشافات الأثرية، وظهور الكتب العلمية،

وتعدد روايات الرحالة. ألم يخضع الملوك "المستنيرون" لهذا الرواج عندما دأبوا على إقامة تماثيل أبي الهول والمسلات، أو إعادة تصميم بعض الديكورات[24] في قصورهم؟ لقد هيمن نوعٌ من "الحالة المصرية" على العقول، الأمر الذي لم يغب بالطبع عن القارئ الكبير بونابرت. ومن غير شك جذبته الحضارة القديمة والشرقية، إلا أنه على الرغم من ذلك سياسيًا بارعًا لا يقع تحت تأثير ميوله، ولا تأثير حلمه. وإن كان اهتمامه بالشرق قد قام بدور ما، فلم يكن إلا دورًا ثانويًا وغير حاسم - بكل تأكيد - في قرار اقتراحه حملة عام 1798م. وقد تجنب على أي حال أن يبرز هذه الرغبة في مقدمة إملاءاته للأجيال القادمة، محتفظًا بأسراره لبقاء الأسطورة لأحاديث بعد العشاء، ولا نجرؤ أن نقول (off the record) ذلك، على نحو ما صرح إلى جورجو في مارس 1816م أنه: "لو انتصر في عكا" كان يمكن الوصول إلى الهند، وقد سيطر عليها دون شك لأن الشرق - كما كان يؤكد - لم يكن ينتظر إلا رجلاً"[25]. كانت هذه التصريحات بغير مبرر البتة، ولكنها تحفظ مجد المغامرة المصرية... مسجلة أعمال نابليون بأكملها في عصر التنوير، وقد تجاوز هؤلاء الفرنسيون أمجاد القدماء، ولم يكن لمثل هذه الاعتبارات موضع في المذكرات.

وأما الفرضية الثانية المرفوضة فترى أن حكومة الإدارة قد قبلت الحملة على مصر للتخلص من بونابرت، الجنرال المزعج المتطلع إلى الحكم. وإن كان هناك تقليد تاريخي قديم وغير منصف أحيانًا يتهم حُكم العام الجمهوري الثالث بكل الكوارث، فيكون من المبالغ فيه اتهام بارا (Barras) والمتواطئين معه بالتضحية بأسطول وجيش في غاية الأهمية، دون مراعاة المصلحة الوطنية... بدلاً من استخدام الخنجر والسم أو - ولم لا؟، المقصلة أو النفي إلى المستعمرات، فقد اعتادت الثورة على ذلك! ولم يشر نابليون في مذكراته - في أية لحظة - إلى ذلك الافتراض الذي كان يمكن - رغم ذلك - أن يخدم شهرته كرجل مرسل من السماء.

وبشكل موجز، فإنه تمسك بالنص الذي بني على أسس متينة؛ حيث كان لا بد من البحث عن أهداف الحملة المصرية في استراتيجية الجغرافيا السياسية[26]. ولقد كان مشروع الحملة قديمًا، ويعبر عن رغبة فرنسا في السيطرة على البحر المتوسط، وتهديد طريق الهند. وتظهر هذه العناصر بوضوح في التعليمات الصادرة إلى بونابرت من حكومة الإدارة، وتكرر الحديث عنها عدة مرات منذ بداية الثورة. وحين أصبح تاليران (Talleyrand) وزيرًا للعلاقات الخارجية (في يوليو1797م)، قام بعد شهر بمخاطبة الحكومة لتجنب الانزلاق في مشروع الحرب ضد إنجلترا، والذي كانت حكومة الإدارة قد طلبت منه دراسته. وكتب بونابرت إلى الحكومة [قائلاً]: "ليس ببعيد [ذلك] الزمن الذي يُستشف فيه أنه لا بد من الاستيلاء على مصر لتدمير إنجلترا فعليًا". وقد التقت رؤية تاليران الاستراتيجية مع إرادة الجنرال الطموح في أن يواصل مسيرته بعيدًا عن زمرة فتنة باريس. وقد أعطت حكومة الإدارة موافقتها.

ولقد كُرس شتاء (1797-1798م) لإعداد الحملة، رغم أن الاستعدادات للقتال لم تكن لتظل سرًا، فلم يكن أحد يتخيل إلى أين يتجه عشرات الآلاف من الرجال الذين تم جمعهم من مناطق موانى المتوسط الكبرى. ولم يعرف الجنرالات، ولا الفرق نفسها، إلا بعد مناورات الإبحار من طولون، وأجاكسيو (Ajaccio)، وجنوة، وتشفيتافيكا (Civitavecchia) (في مايو 1798م)، فقط عندما تجمع الأسطول الكبير في عرض البحر، وأطلق على "الجناح الأيسر لجيش إنجلترا" اسم "جيش الشرق"، والذي استولى على مالطة (11-12 يونيو)، وأقام فيها أسبوعًا، ثم استأنف الطريق إلى مصر. ونجا أسطول بونابرت بمعجزة من مراقبة البحرية الإنجليزية، والتي كانت قد انطلقت لمطاردته بقيادة الأميرال نيلسون.

كانت بداية الغزو نزهة حربية، وكان يحكم مصر مماليك مغرورون، وهم فرسان متألقون لكنهم غير مدربين على الحرب الحديثة. وفي أول يوليو تم الاستيلاء على الإسكندرية، وبعد عبور الصحراء سحق بونابرت أعداءه عند الأهرام، ودخل القاهرة يوم 23 يوليو، وسيطر على شمال البلاد. واتجه قسم صغير من الجيش إلى الصعيد تحت قيادة الجنرال ديزيه (Desaix)، الذي وصفه نابليون في سانت - هيلانة بأنه "ضابط مميز، نشيط، مستنير، وعاشق المجد لذاته". وقد استولى جيش الشرق على معظم الأراضي المصرية في بضعة أسابيع.

وسريعًا كان الجيش أسيرًا على أرض مصر، ففي أول أغسطس أغرق نيلسون أكبر جزء من الأسطول في ميناء أبو قير. وفي ذلك الوقت لم يعد المقصود هو مسألة الطريق إلى الهند، فكان لا مناص من الصمود ومقاومة الهجوم المعاكس للجيش العثماني الذي عارض أخيرًا اغتصاب أرض تحت السيادة الاسمية للباب العالي. وقد أدى هذا الغزو إلى دخول تركيا الحرب، وهي قوة ظلت بعيدة عن الصراعات الثورية حتى ذلك الوقت. وقد كان ذلك أول فشل دبلوماسي لتلك المغامرة، وليس من المستبعد أن يكون تاليران هو المسئول عن ذلك لأنه لم يرسل إلى القسطنطينية الحملة الضرورية التي وعد بها، وهو الأمر الذي لم ينسه نابليون في الحقيقة.

وقد وجد بونابرت نفسه للمرة الثانية رئيسًا لبلد ينبغي عليه حكمه، فاستمر يتعلم السلطة. وقد احترم الإسلام لكي يفرض نفسه، وشكّل ديوانًا من أهالي البلاد، وسيطر على المدن وغيرها. كما اضطر أيضًا إلى العقاب بشدة؛ فتم قمع ثورة أهالي القاهرة (21-22 أكتوبر) بالدماء، وإحراق القرى المتمردة، وإعدام الثوار رميًا بالرصاص. وأحيانًا استطاعت الأسطورة النابليونية نسيان أن جيش الشرق قد جاء إلى هنا ليغزو ويحارب. على أنه كان مما يخفف من هذه الحقائق دون أن يحجبها هو إنشاء المعهد المصري، والجرائد المحلية، وبداية الاكتشافات الأثرية، وابتكار لجنة العلوم والفنون بالجيش.

وإن بونابرت المنظم الدقيق، والقائد العام الحازم، قد سيطر نوعًا ما (ولنقل جيدًا) على موقف جعله حرجًا بشأن أبو قير والتهديد التركي، وشرع في تحديث مصر، ودعم تقسيم البلاد إلى أقاليم، وإنشاء مؤسسات تشجع التجارة والتموين، ووضع إدارة مالية ماهرة (كانت في حالةٍ عديمة الفاعلية تمامًا)، وأشرك الأقباط والعرب الأقل تعصبًا ضد مشروعاته. وإذ طلب من العلماء العمل، فلم يكن لرفع أنقاض المعابد، ولكن لصناعة البارود، وتحسين البنية التحتية للطرق والأنهار، وتطوير الزراعة، وتوسيع المحاجر الصحية (حيث ظهر الطاعون في الإسكندرية في 15 ديسمبر عام 1798)، وتشييد الحصون[27]. وقد قام كليبر، خاصة بعد رحيل رئيسه، بتكليفهم في أعمال "علم الآثار المصرية"... وذلك ليُشغلهم.

وبعد أجل قريب قام جيش السلطان، والمتمركز في الشمال الشرقي، بتهديد القلعة المصرية بأمر من الباشا أحمد الجزار، المسمى "الجزار"، فقرر بونابرت أن يهاجمه بسرعة؛ فكانت معركة سوريا. فترك القاهرة في 10 فبراير 1799م، ومعه عشرون ألف رجل، فاستولى على حصن العريش، مزلاج فلسطين، ودخل غزة بعد أسبوعين من دخول الحرب. ولم يقترب من القدس إلا عدة جماعات استكشاف تحت سلطة أوجين دي بوهرنيه (Eugène Beauharnais) ابن جوزيفين. وتم إعلان "الجهاد"، ولم يكن هناك حاجة لمنح فرصة لإعلان أن جيش الشرق يقوم بحملة صليبية جديدة. ولم تكن هناك فائدة استراتيجية من الاستيلاء على المدينة المقدسة ثلاث مرات، فاكتفى بونابرت بوعد السلطات المحلية بالتحالف، ولكن فقط بعد هزيمة الجزار.

وعلى العكس كان موقع يافا أساسيًا، وهي ثاني مواني فلسطين التي تتيح إنزال المئونة ومدفعية الحصار. وعلى ذلك تم حصار الموقع في الأيام الأولى من شهر مارس. وفي فجر يوم 7 [مارس] أرسل بونابرت اثنين من البرلمان اقترحا الاستسلام المشرف على الجنرال عبد الله، قائد الميدان. ولم يتأخر رد المُحاصرين؛ فقد تم إلقاء البرلمانيين من الأسوار مقطوعي الرؤوس، فأمر بونابرت بإطلاق النار، وبعد عدة ساعات من إعداد المدفعية، دفع برجاله للهجوم وهم في غاية الهياج، وبعد ثلاث ساعات قُضِي الأمر، ولم يستطع المدافعون مزيدًا من المقاومة. تبع هذا النصر العسكري ثلاثة أيام من المشاهد المذهلة؛ نهبًا، واغتيالاً للنساء والشيوخ والأطفال، والإعدام بغير محاكمات لما يتراوح بين 1600 أو 2000 (ألف وستمئة أو ألفين) من الأسرى. ولقد تم العثور على أمر موقع عليه من يد بونابرت بقتل الأسرى[28].

وقد أحدثت إعدامات يافا صدًى كبيرًا في ذلك الوقت؛ فقد استولت عليها الدعاية الإنجليزية واستغلتها لعشرات السنين. ولم يتجنب الإمبراطور الموضوع في مذكراته دون إطناب في التفاصيل، حيث تحمّل المسئولية وشرح ذلك. فمن جانبٍ كان إعدام البرلمانيين، ومن جانب آخر أن الأسرى الذين تم إعدامهم كانوا جنودًا تم

القبض عليهم في العريش ولم يحترموا "التعهد"[29] بعدم الرجوع للقتال واستخدام السلاح. ونضيف إلى ذلك أن رجال جيش الشرق كانوا يعيشون قبل ستة أشهر محنة قاسية في مناطق لا يعرفونها، وفي جو وطبيعة غير معروفة، عانوا فيها من المرض وعدم الرفاهية. وقد تركهم قادتهم في البداية يُنفِّسُون عن انفعالاتهم بعمليات السلب والنهب. ويرجع إعدام الأسرى لمنطق آخر، فإذا كان لا بد من الانتقام للبرلمانيين، وإذا كان قد تم فعلاً اكتشاف عدم احترام الاتفاق، فإن نابليون لم يشرح الفكرة التي عبر عنها المؤرخون فيما بعد من أنه كان يريد أن يُروِّع خصومه حين كان على وشك محاصرة عكا تحت سيطرة الجزار شخصيًا. ولا ريب في أنه كان يتذكر ما قرأه في [كتاب] "رحلة إلى مصر وسوريا" لفولني (Volney)؛ من أن أحداثًا مماثلة قد وقعت بالفعل بنفس الطريقة وفي نفس المكان قبل حوالي عشرين عامًا؛ حيث قام أبو الدهب - فاتح فلسطين عام 1776م - بقتل الأسرى، وهو ما تسبب في هروب عدوه ضاهر (Dàhr) فزعًا من تلك الفظائع[30].

ولا يكفي هذا "المثال"، فقد انكسر جيش الشرق في عكا، وبعد عدة هجمات فاشلة اضطر بونابرت إلى رفع الحصار (في 17 مايو 1799)، واتخاذ الطريق إلى القاهرة، حينئذ تفشَّى وباء الطاعون الذي تمت السيطرة عليه حتى ذلك الوقت. وفي 24 مايو عاد القائد العام إلى يافا، وترك فيها بضع عشرات من المصابين بالطاعون قبل أن يستأنف انسحابه. وهناك حادثة أخرى كان يستحق المؤاخذة عليها طويلاً، ولم يتجنبها الإمبراطور المخلوع في مذكراته، ولكن دون خوض في التفاصيل. وندرك أن الدعاية البريطانية قد استغلت هذا الأمر بنفس قدر استغلالها للمذابح، ولم تكن سوى واقعة في حياة الجنرال بونابرت.

وفي 14 يونيو عاد بونابرت إلى العاصمة المصرية، ومع ذلك لم تكن الحرب قد انتهت. فقد نزل الجيش التركي بمساعدة الإنجليز بالقرب من دلتا النيل، فذهب بونابرت لملاقاته وهزمه يوم 25 يوليو في معركة أطلق عليها "معركة أبو قير البرية"، وذلك لإغفال الكارثة البحرية، وانتهى الجزء "النابوليوني" من الحرب المصرية، وبدت البلاد آمنة. وكان القائد العام يستطيع - إذا جاز القول - أن ينتقل إلى شيء آخر؛ فقد كان قد علم أن الأحداث تتداعى في فرنسا، وأن حكومة الإدارة تواجه صعوبات كبيرة. وكانت "الفرصة مواتية" هذه المرة، ولينتهزها قرر نابليون الرجوع إلى باريس، فأبحر في 23 أغسطس، وترك الحكم لكليبر الذي ثار على "هروبه من الجندية". ومرة أخرى نجا [بونابرت] بمعجزة من البحرية الإنجليزية، وتوقف في كورسيك، ونزل من السفينة في سان رفائيل (Saint-Raphaël) يوم 9 أكتوبر، وعاد إلى العاصمة وسط الهتافات. وبعد شهر نجح الانقلاب في اليومين التاسع والعاشر من نوفمبر، وصار نابليون بونابرت قنصلاً، ثم القنصل الأول للجمهورية.

وعلى الجانب الآخر من البحر المتوسط، كان تاريخ جيش الشرق لا يزال مستمرًا. وقد كرس نابليون فصلين من مذكراته عن أعمال خلفائه، وأولهم كليبر الذي قمع ثورة القاهرة الثانية، وانتصرعلى الأتراك في

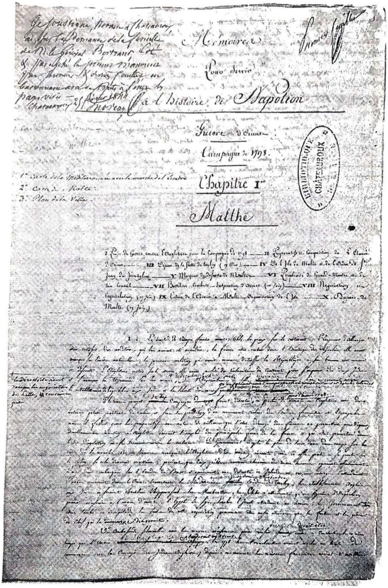
معركة هيليوبوليس، ثم تم اغتياله على يد أحد المتطرفين يوم 14 يونيو 1800م، في نفس يوم معركة مارنجو (Marengo). وجاء بعده الجنرال مينو، ولم يستطع إنقاذ الحملة، واضطر للاستسلام يوم 31 أغسطس 1801م، فعاد الجيش إلى وطنه بعد ثلاث سنوات من انطلاقها، وأسفرت الحملة على مصر عن الفشل. وعلى الرغم من الانتصار العسكري في البداية، فإن الجيش الفرنسي قد اضطر للاستسلام.

وعلى الصعيد الدبلوماسي أدت الحرب ضد تركيا إلى تعقيد الوضع؛ حيث إن قطع تحالف فرنسا التقليدي مع الباب العالي قد حرم الجمهورية من حليف ضد النمسا وروسيا وإنجلترا.

ولكن من وراء الحقائق المخيبة للآمال، أن مصر قد احتلت باستمرار مكانة فريدة في الأسطورة، وأدت الأعمال العلمية التي صاحبتها إلى التغاضي عن قسوة الحملة. وقد لعب نابليون في مذكراته على هذين العاملين، كما يشير في أكثر الأحيان لأبطال العصور القديمة، لا ليقارن نفسه بهم، وإنما ليذكر أنه كان خليفة لهم بعد ألفي عام. وإن مستهل كتاب "راهبة برما" (*La Charreuse de Pame*)، والذي وصف دخول بونابرت إلى ميلانو، أشار إلى أنه خليفة قيصر والإسكندر[31]، وأنه كان يمكن أن يكون أيضًا موضوعًا لرواية عظيمة عن المغامرة المصرية.

* * *

بعد أن تم التنقيح، تم وضع مخطوطات الحملة على مصر في حوزة برتران، ولم تكن ضمن "مذكرات لخدمة تاريخ نابليون": *(Mémoires pour servir à l'histoire de Napoléon)* التي نشرها مونتولون وجورجو. ولا يوجد فيها سوى عدد قليل من مقتطفات مختلفة كثيرة عن النسخة النهائية التي نشرها جورجو، والذي احتفظ ببعض المسودات الأصلية. وكتب برتران فيما بعد يقول: "كان من الممكن طباعة "مذكرات الحملة على مصر وسوريا" بعد العودة من سانت ـ هيلانة، ولكن كان المقصود أحداثًا تبعد لما يقرب من ربع القرن، ولا ينبغي أن تكون روايتها أقل أهمية لو ظهرت بعد سنوات قليلة". كان التفسير غير كامل... ولكن المارشال الكبير لم يقدم عنها تفسيرًا أكثر من ذلك. ويمكن أن نفترض أنه كان شديد الانشغال بشئونه الخاصة وشئون المنفذ لوصايا الامبراطور، فضلًا عن العديد من الوصايا الخاصة لتوزيعها. وقرر أن نشر المذكرات لم يكن من الأولويات، وخاصة لأن الوفاق مع جنرالات المنفى لم يكن مثاليًا، بل كان على العكس من ذلك.



Mémoires pour servir à l'histoire de Napoléon

Guerre d'Orient

Campagne de 1798.

Chapitre I^er

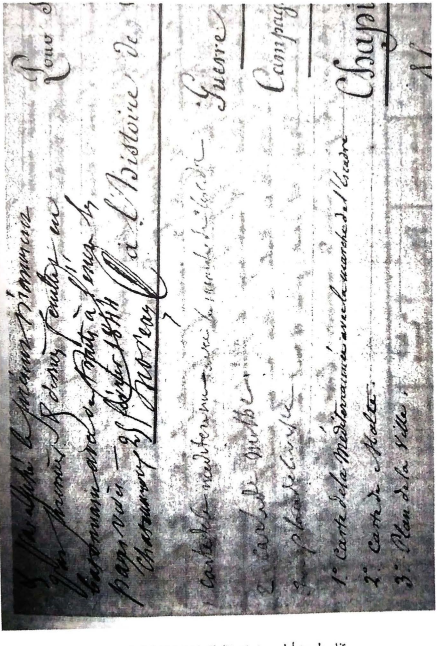
Malthe

1° Carte de la Méditerranée avec la marche de l'Escadre
2° Carte de Malte
3° Plan de la Ville

BIBLIOTHÈQUE CHATEAUROUX

الصفحة الأولى من مخطوطات مذكرات نابليون عن الحملة على مصر، والمحفوظة بمكتبة "شاتورو".

النص الأصلي كتبه علي، وكتب نابليون التصويبات بالقلم الرصاص، والكتابة بالحبر من خط برتران الذي "ترجم" كتابة الإمبراطور غير المقروءة. وتوضح هذه الوثيقة بإيجاز مناهج العمل في مصنع تاريخ سانت - هيلانة. (مكتبة بلدية شاتورو) ...



L'Histoire de
Guerre
Campagne
Chapitre

1° Carte de la Méditerranée avec la marche de l'Escadre
2° Carte de Malte
3° Plan de la Ville

تفاصيل من أولى صفحات "المذكرات" (مكتبة بلدية شاتورو) .

وبعد أيام قليلة من وفاة المارشال الكبير في 31 يناير 1844م، أعلنت أسرته عن رغبة الفقيد في إيداع المخطوط الخاص بمصر في مكتبة شاتورو. وتم تسليم الوثيقة في يوليو1847م[32]، بعد إعادة نسخ 515 صفحة مرة أخرى، وهي الصفحات المعينة لأجل الطباعة[33]. وما زالت هذه الشهادة المؤثرة عن العمل في سانت ـ هيلانة محفوظة في مسقط رأس ووفاة برتران[34].

وقد كتب "علي" مخطوطات شاتورو "كتابة جميلة في سطور ضيقة وهوامش صغيرة، ولذلك يصعب تصحيحها، ومع ذلك كان [نابليون] يقوم دائمًا بهذا العمل بصبر". هكذا كتب برتران تلك الملاحظة في مقدمة كتبها عام 1842م لافتتاحية نص النسخة المقبلة، واتخذ الوسائل وتفانى لإعدادها... ولم يستطع استكمالها. وبعد ثلاث سنوات من وفاته، وخمسة وعشرين عامًا بعد المذكرات الأخرى، كان ظهور "الحملة على مصر"، والذي أملاه نابليون في مجلدين في نهاية المطاف بعنوان: (*Campagnes d'Egypte et de Syrie*)، "الحملة على مصر وسوريا"، ومذكرات لخدمة تاريخ فرنسا في عهد نابليون أملاها بنفسه في سانت ـ هيلانة ونشرها الجنرال برتران

Mémoires pour servir à l'histoire de France sous Napoléon dictés par lui-même à Sainte-Hélène et publiés par le général Bertrand.

وفي المجلد الأول تم إدراج عدة نصوص تمهيدية؛ كان النص الأول تحذيرًا من أبناء برتران وهم يدافعون عن والدهم نتيجة لهجمات كانت ضده من قِبل موتولون في كتابه "روايات الأسر" (*Récits de captivité*). وتلا ذلك كلمة موجزة كتبها المارشال الكبير بنفسه بعنوان: "إلى الشعب الفرنسي" (*Au peuple français*)؛ إذ ذكر أن نابليون قد قال في التعليمات التي تركها لمنفذي التوصيات: "عند طباعة حملاتي على إيطاليا ومصر، وكذلك المخطوطات التي ستتم طباعتها، فإنني أهديها إلى ولدي". إلا أنه لم يستطع الوفاء بنوايا الإمبراطور [35]، فأهدى هذه المذكرات عن حملات مصر وسوريا: "إلى الشعب الفرنسي، ذلك الشعب الذي أحبه كثيرًا، الشعب الذكي الشجاع الذي ساهم بقدر كبير في انتصار أسلحتنا". وفي آخر الأمر جاءت مقدمة طويلة لأكثر من خمسين صفحة، أوضح فيها برتران بصفة خاصة ـ وباختصار ـ الظروفَ التي كتب فيها النص النهائي عام 1842م، قبل أن يقدم على السفر إلى جزر الهند الغربية (Antilles)[36]. وقد حظي في ذلك بمساعدة كلود فرانسوا مينفال (Claude- François Méneval)، سكرتير الإمبراطور السابق، في تدوين الإضافات التي كتبها نابليون على مخطوطات "علي". وكتب المارشال الكبير: "يرجع ضمان دقة عمل مينفال لطريقة قراءته لكتابة نابليون المعتادة، والاحترام الذي أولاه لذكراه". وبالإضافة إلى ذلك، ولتحسين الطبعة الأولى، طلب برتران من الجنرال بيليت (Pelet)، مدير مستودع الحرب، ومن الجغرافي العقيد لابي (Lapie): "برجاء اختيار لوحات لتشكيل

أطلس صغير من ثماني عشرة خريطة". كما ساهم آدم - فرنسوا جومار (Edme-François Jomard)، عضو معهد مصر الأسبق، في تصويب الهجاء الفرنسي للأسماء العربية[37]. وأخيرًا تم استدعاء ابن لاس كاز للمساعدة، وتم بإشرافه استكمال إعداد نسخة 1847م، حيث كان برتران قد توفي في غضون ذلك الوقت[38].

وعند نشر "مؤلفات نابليون في سانت - هيلانة"، استطاعت اللجنة المكلفة بإعدادها الحصول على الأوراق التي أودعت في شاتورو، وهي التي تم حفظها أخيرًا لتشكيل القسم المصري من مذكرات نابليون، والتي ننشرها هنا.

T.L.

(تييري لينتز)

الفصل الأول

الاستيلاء على مالطة

أولا: مشروع الحرب ضد إنجلترا، معركة 1798م. ثانيًا: استعدادات وتكوين جيش الشرق. ثالثا: رحيل الأسطول من طولون (19 مايو). رابعًا: جزيرة مالطة وفرسان القديس يوحنا في القدس. خامسًا: وسائل الدفاع عن مالطة. سادسًا: ارتباك الكاهن الكبير ومجلسه. سابعًا: العداء- الحروب ، وقف القتال مؤقتًا (11 يونيو)، ثامنًا: التفاوض والاستسلام (12 يونيو). تاسعًا: دخول الجيش مالطة، تنظيم الجزيرة. عاشرًا: رحيل الجيش (19 يونيو).

أولاً: أعادت معاهدة كامبو فورميو (Campo-Formio) السلام إلى القارة، وكان إمبراطور ألمانيا راضيًا عن الشروط التي حصل عليها. وعادت فرنسا إلى تراث الغاليين (Gaulois)؛ إذ كانت قد استعادت حدودها الطبيعية. وهُزم وانحل التحالف الأول الذي كان يهدد بوأد الجمهورية في مهدها، فظلت إنجلترا مُسلحة وحدها، وكانت قد استفادت من كوارث القارة للاستيلاء على الهند واستأثرت بالسيطرة على البحار. ونقضت حكومة الإدارة مفاوضات ليل (Lille)، مقتنعة بعدم إمكانية استعادة التوازن في الهند وحرية البحار إلا بحملة ناجحة في البحر وفي المستعمرات.

وقد تمت مناقشة العديد من المشروعات الحربية لعام 1798م، وكان هناك حديث عن غزو إنجلترا بواسطة مراكب مسطحة القعر تغادر كاليه (Calais) تحت حماية حركة مشتركة من العمارات البحرية الفرنسية والإسبانية. ولكن كان من الضروري إعداد مئة مليون، لكن الحالة المالية السيئة لم تكن تسمح بالأمل في ذلك. وبالإضافة إلى ذلك كان غزو إنجلترا يتطلب استخدام القوات الرئيسية في فرنسا، وهو ما كان سابقًا لأوانه بسبب حالة الاضطراب التي كانت لا تزال في القارة.

وقد اعتمدت الحكومة خطة لإبقاء مئة وخمسين ألف رجل في معسكرات على سواحل المانش، كانوا يهددون انجلترا بغزو وشيك الحدوث، لكنهم كانوا - في الواقع - مستعدين للانتقال إلى الراين (le Rhin) إذا لزم الأمر، بينما كان يوجد جيشان صغيران، يتألف كل منهما من ثلاثين ألف رجل للقيام بالهجوم؛ أحدهما يركب سفن العمارة برست (Brest)، ويقوم بعملية إنزال في إيرلندا، حيث ينتظره مئة ألف ثائر، والجيش الثاني يقوم بعملية في الشرق، عابرًا البحر المتوسط حيث تسيطر العمارة طولون (Toulon). وسوف تهتز المستوطنات الإنجليزية

في الهند [الشرقية]، ولم يكن ينتظر السلطان "طيبو الصاحب" (Tippoo Sahib)، والماراثيون (Marathas)، والسيخ، سوى الإشارة. وبدا أن نابليون لا غنى عنه لجيش الشرق، وأنَّ كلاً من مصر وسوريا واليمن والعراق ينتظرون رجلاً. وقد انهارت الحكومة التركية، ويمكن أيضًا أن تمتد النتائج المترتبة على هذه الحملة بقدر حظ وعبقرية القائد الذي يديرها.

وكان يجب إرسال حملة رسمية إلى القسطنطينية مدعمة بكل وسائل النجاح في نفس وقت وصول الجيش إلى الشرق. وفي عام 1775م أبرم المماليك معاهدة تجارية مع شركة الهند الإنجليزية، ومنذ ذلك الوقت تعرضت الشركات الفرنسية للهوان وغرقت في الديون. وبناء على شكاوى محكمة فرساي، قام الباب العالي - عام 1786م - بإرسال القبطان حسن باشا ضد البكوات، ولكن بعد الثورة عاد تعرض التجارة الفرنسية من جديد لسوء المعاملة. وأعلن الباب العالي عن عدم القدرة على عمل شيء، وأن البكوات "رجال جشعون، غير لا دين لهم، ومتمردون". ولمح بأنه سوف يتغاضى عن الحملة على مصر كما حدث إزاء الجزائر وتونس وطرابلس.

ثانيًا: غادرت العمارات الإنجليزية البحر المتوسط في نهاية عام 1796م، بعد أن عقد ملك نابولي الصلح، ورفرف العلم الفرنسي بألوانه الثلاثة - منذ ذلك الحين- على الأدرياتيك وفي الشرق حتى مضيق جبل طارق. وقد اعتمد نجاح سير جيش الشرق على سر عمليات الاستعداد، وفي البداية قام نابليون - بصفته القائد العام لجيش إنجلترا- بزيارة معسكرات المانش ليظهر انشغاله بها وحدها، لكنه لم يكن مشغولاً إلا بجيش الشرق. وبعث برسائل من المدن التي أقام فيها؛ وهي مدن فلندرا وبلجيكا، لحمل أوامره إلى سواحل البحر المتوسط، وكان مسئولاً عن قيادة كل الاستعدادات للحرب البرية والبحرية. وفي غضون بضعة أسابيع كان الأسطول والقوافل والجيش وكل شيء جاهزًا، وكان يراسل الجنرالات كفاريلي (Caffarelli) في طولون، ورينييه (Reynier) في مارسليا، وبارجويه دي هيليه (Baraguey d'Hilliers) في جنوه، وديزييه (Desaix) في تشيفيتا - فيكيا (Cività-Vecchia)، وفوبوهه (Vaubois) في كورسيكا (Corse). وأشرف خمسة مفوضين من الضباط على إعداد الطعام، وجمع وتسليح السفن بكل همة لإبحار الفرق من الموانئ الخمس يوم 15 إبريل، ولم يكن القادة ينتظرون غير أوامر الرحيل.

وكانت حالة هذه الحملات على النحو التالي:

مواني الابحار	سفن حربية	فرقاطات	سفن تجارية	سفن نقل	عدد الرجال	خيول
طولون	13	7	6	106	20500	470
مارسيليا			2	30	3200	60
كورسيكا			1	20	1200	
جنوه		1	1	35	3100	70
تشيفيتافيكيا		1	1	41	4300	80
الإجمالي:	13	9	11	232	32300	680

ومن بين السفن الحربية الثلاث عشرة التي كانت تشكل العمارة، كان على سفينة الأميرال مئة وعشرون مدفعًا، وكان ثمانون مدفعًا على سفن ثلاث، وأربعة وسبعون مدفعًا على تسع سفن، منها: المحارب (*Le Guerrier*)، والفاتح (*Le Conquérant*)، وكانت سفينتان قديمتان في حالة سيئة، فلم يكن بهما سوى ثمانية عشر مدفعًا. ومن بين سفن نقل العتاد سفينتان كانتا من صنع البندقية بهما أربعة وستون مدفعًا، وأربع فرقاطات بها أربعون مدفعًا، وعشر سفن تجارية ترافقها. وأما برييه (Bruyes)، نائب الأميرال، وكان ضابطًا سابقًا في البحرية، فقد كان في العام السابق قائدًا في البحر الأدرياتيكي، وكان يعدُّ واحدًا من أفضل بحارة الجمهورية. وقد كانت قيادة ثلثي السفن جيدة، لكن الثلث الأخير كان تحت قيادة ضباط غير أكفاء. وتم تزويد العمارة والجيش بأطعمة تكفي لمدة مئة يوم، وبماء يكفي لأربعين يومًا.

وكانت القوات البرية تتألف من خمسة عشر لواء من المشاة المختلطة، وسبعة أفواج من الفرسان، وثماني وعشرين فرقة من المدفعية والعمال والنقابين وزراعي الألغام؛ أي الفرق:2 و4 و21 و22 وألوية المشاة المختلطة الخفيفة، من الفرق: 9 و18 و19 و25 و32 و61 و69 و71 و80 و85 و88. وكان كل [لواء] يتألف من ثلاث كتائب، وكل كتيبة تتألف من تسع فرق، ومن الفرقة 7 جنود سلاح الفرسان الخفيف الفرقة 22 مطاردون و الفرق 3 و14 و15 و18 و20 من فرسان دراجون، وست عشرة فرقة مدفعية، وثماني فرق من العمال وجنود سلاح المهندسين وزارعي الألغام، وأربع فرق من سلاح المدفعية. وكان سلاح الفرسان يملك السروج واللجام، وثلاثمئة حصان فقط. وتم تموين المدفعية بثلاث دفعات، وكثير من القذائف الكروية والبارود،

وأدوات ومعدات الحصار، وكل ما يخص تسليح ساحل كبير، واثنتي عشر ألف بندقية احتياطية، ومعدات وأسرجة لستة آلاف حصان.

وكانت لجنة العلوم والفنون لها عمال ومكتبات، ومطابع فرنسية وعربية وتركية ويونانية، ومترجمون لكل هذه اللغات. وكان عدد رجال المشاة أربعة وعشرين ألفا وثلاثمئة (24300)، ورجال الفرسان أربعة آلاف (4000)، والمدفعية ثلاثة آلاف (3000)، وألفا (1000) من غير المحاربين. وكان المجموع اثنين وثلاثين ألفا وثلاثمئة (32300) رجل.

وكان الجنرال برتييه رئيسًا لأركان الجيش، والجنرال كفاريللي دي فالجا (Caffarelli du Falga) قائدًا لسلاح المهندسين، وكان تحت إمرته عدد كبير من من ضباط الجيش المتميزين في هذا السلاح. وقاد المدفعية الجنرال دومرتان (Dommartin)، وتحت إمرته الجنرالات سونجي (Songis)، وفولتريه (Faultrier). وكان برتبة "فريق" بالجيش كل من الجنرالات ديزيه (Desaix)، وكليبر (Kléber)، ومينو (Menou)، ورينييه (Reynier)، وبون (Bon)، ودوجا (Dugua). ونذكر من بين الماريشالات (Maréchaux de camp)، الجنرالات: مورا (Murat)، لآن (Lannes)، لانوس (Lanusse)، فيال (Vial)، فو (Veaux)، رامبون (Rampon)، جينو (Junot)، مارمون (Marmont)، دافو (Davout)، فريان (Friant)، بليار (Belliard)، لاكليرك (Leclerc)، فرديه (Verdier)، وأندروسي (Andréossy).

وقد كان ديزيه من أكثر الضابط المتميزين في الجيش نشاطًا واستنارة، وعشقًا للمجد لذاته. كان في هيئته قصير القامة، وظاهريًا قليل المجاملة، لكنه كان قادرًا على تنسيق إحدى العمليات وإدارة تنفيذها بكل دقة، وكان يستطيع قيادة جيش كجيش الطليعة. وقد وهبته الطبيعة دورًا مميزًا في الحرب وفي الحياة المدنية على السواء، إذ كان في استطاعته حكم مقاطعة، كما كان في استطاعته الاستيلاء عليها أو الدفاع عنها.

وكان كليبر الرجل الأكثر وسامة في الجيش، وكانت له مكانة مرموقة. كان عمره خمسة وأربعين عامًا. وكانت لهجته وعاداته ألمانية، فقد خدم ثماني سنوات في جيش النمسا كضابط مشاة، وعُين عام 1790م قائدًا لكتيبة المتطوعين في موطنه في الألزاس (Alsace). وقد تميز في حصار مايانس (Mayence)، وانتقل بحامية الميدان إلى فانديه (Vendée) حيث خدم هناك عامًا، واشترك في حملات عسكرية في جيش سامبر والميز (Sambre-et-Meuse) أعوام 1794، 1795، 1796م، حيث (قاد الفرقة الرئيسية) بجدارة، وقام بتقديم خدمات جليلة فاكتسب شهرة بوصفه جنرالاً ماهرًا، لكن روحه الساخرة جعلت له مناهضين. وقد ترك الجيش بسبب

العصيان، وأحيل إلى نصف مُرَتب، فأقام في شايوه (Chaillot) خلال عامي 1796-1797م، فضاق به الحال وقل ماله. وعندما وصل نابليون إلى باريس في نوفمبر 1797م، ألقى [كليبر] بنفسه بين ذراعيه، وتلقاه [بونابرت] بكل تقدير. وقد كانت كراهية حكومة الإدارة له كبيرة، وكان يبادلها نفس الشعور تمامًا. كان في طابعه شيء ما من عدم المبالاة مما جعله بسهولة ضحية للمخادعين. وكان له عدد من المقربين، وكان يعشق المجد طريقًا للذة. وقد كان رجل فكر، كما كان شجاعًا يعرف فن الحرب، ويمتلك القدرة على تحقيق إنجازات عظيمة، ولكن فقط عندما تضطره الظروف إلى ذلك بعيدًا عن آراء الاستهتار والمقربين.

وأما الجنرال بون (Bon)، فهو من مدينة فالانس (Valence) في الدوفينيه (Dauphiné)، أدى الخدمة العسكرية في جيش بيرينيه الشرقية (Pyrenées-Orientales) وحصل فيها على كل رتبه. وقد كان جنديًا جسورًا، تميز في حملات سابقة في جيش إيطاليا، كما كان قائد الميسرة في الجيش في معركة سان جورج.

وكان الجنرال كفاريللي (Caffarelli) على درجة كبيرة من النشاط، ولم يكن أحد يُلاحظ أنه يفقد إحدى ساقيه. كان يدرك تمامًا تفاصيل سلاحه، وعلاوة على ذلك كان يتميز بصفات معنوية، وباتساع معارفه في كل أقسام الإدارة العامة. كان رجلاً بارًا، وجنديًا شجاعًا، وصديقًا مخلصًا، ومواطنًا صالحًا. وقد توفي في حصار عكا بشكل رائع، وألقى وهو في سرير الموت حديثًا بليغًا عن التعليم العام. وقد كُلف بإدارة لجنة العلماء والفنانين التي رافقت الجيش، وكان أكثر كفاءة من أي شخص لاحتوائهم وإدارتهم والاستفادة منهم وجعلهم يساهمون في تحقيق هدف القائد. وقد تكونت تلك اللجنة من الأكاديميين: مونج (Monge)، بيرتولو (Bertollet)، دولوميه (Dolomieu)، ودينون (Denon)؛ ومن المهندسين المشرفين على الطرق والجسور: لوبير (Le Père) (جان ماري)، وجيرار (Girard)؛ وعلماء الرياضيات: فورية (Fourier)، كوستاز (Costaz)، وكورانسيه (Corancez)؛ ومن علماء الفلك: نويه (Nouet)، وبوشان (Beauchamp) و[ميشان] (Méchain)؛ ومن علماء الطبيعة: جوفروه سانت هيلار (Geffroy Saint-Hilaire)، سافيني (Savigny)؛ ومن علماء الكيمياء: ديكوتيل (Descotiles)، شامبي (Champy)، رافيرو ديليل [Raffereau- Delille]؛ ومن الرسامين: ديترتر (Detertre)، ريدوته (Redouté)؛ والموسيقي: فيلوتو (Villoteau)؛ والشاعر: برسيفال (Parseval)؛ ومن المهندسين المعماريين: لوبير (Le Père)، بوتان (Protain)، نوري (Norry). وأخيرًا دي كونته (Conté) الذي كان رئيس كتيبة راكبي المنطاد، وهو رجل شامل الثقافة، يمتلك الذوق والمعرفة وعبقرية الفن، فكانت له أهمية كبرى في بلد بعيد، حيث كان بارعًا في كل شيء، وقادرًا على ابتكار فنون فرنسا في وسط صحراء الجزيرة العربية. وإلى جانب هذه اللجنة التحق عشرون طالبًا من المدرسة متعددة التقنيات (البوليتكنيك) (polytechnique)، أو مدرسة

المناجم (Mines). وقد برز بامتياز من بينهم جومار (Jomard)، ودوبوه - أيمه [Dubois-Aymé]، لانكريه (Lancret)، شابرول (Chabrol)، روزيار (Rozière)، كورديه (Cordier)، رينوا (Regnault)، وغيرهم.

ثالثًا: لما تم الانتهاء من كل الاستعدادات، كانت حادثة "برنادوت" (Bernadotte) في فيينا، والتي كادت تهدد باندلاع الحرب الأوربية من جديد. وقد تأخر رحيل الجيش عشرين يومًا مما كان سيعرضه للخطر، وانكشف السر وكل الاستعدادات التي تمت في إيطاليا؛ فكان لدى بريطانيا الوقت لمعرفتها. ومع ذلك لم يرسل مركز القيادة البحرية العمارة "التاميز" (Tamise) إلى البحر المتوسط إلا في 16 مايو، ووصلت أمام طولون يوم 12 يونيو، وكان الأسطول الفرنسي قد غادرها يوم 19 مايو، قبل الموعد بخمسة وعشرين يومًا، وكان يمكن أن يكون ذلك السبق خمسة وأربعين يومًا، لولا سقطة برنادوت الهوجاء. (*)

ووصل نابليون إلى طولون 9 مايو، واستعرض الجيش وقال له باختصار في أمر اليوم:

"أيها الجنود، أنتم أحد أجنحة جيش إنجلترا... قلدتم الفرق الرومانية، ولكن لم تساووهم بعد، فقد كانت قرطاج تحارب على نفس البحر وفي سهول "زاما" (Zama...) بالتناوب... إنَّ أوروبا تتطلع إليكم... عليكم القيام بواجبات مصيرية... أيها الجنود والبحارة لكم عناية الجمهورية الكبرى، ستكونون جديرين بالجيش الذي أنتم جزء منه...".

أبحر الموكب من مرسيليا تحت حماية فرقاطتين، ورسا يوم 15 [مايو] في ساحل طولون. وصعد نابليون على السفينة لوريان (*L'Orient*) وعليها مئة وعشرون مدفعًا، وكانت واحدة من أرقى السفن وبها كل المزايا المرجوة. وفي يوم 18، أعطى صليب السابلت (Sablettes) إشارة بوجود السفن الإنجليزية؛ حيث مجموعة نيلسون [المكونة من] من ثلاث سفن حربية خفيفة. وفي اليوم التاسع عشر أبحر الأسطول وجاوز رأس كورسيكا بين ليلتي 20 و21 [مايو]، وقاسى فيهما هبوب الرياح. وفي اليوم التالي انضمت قافلة جنوه، وقافلة كورسيكا يوم 26 [مايو] بجانب مضيق بنيفاسيو (Bonifacio). وفي يوم 2 يونيو اكتشف رأس كربونارا (Carbonara) في نهاية سردينيا. وهنالك علمت إحدى الحراقات التي أرسلت إلى كاجلياري (Cagliari) أن مجموعة (corvette) من ثلاث أو أربع سفن حربية إنجليزية بقيادة نيلسون قد تعطلت وتم إصلاح الضرر في مرسى سان بيير (-Saint Pierre). وكان يمكن للأميرال الهجوم، لكن البريك (brick) [سفينة شراعية ذات صاريين] كانت تلاحق السميرية [سفينة حربية صغيرة مهمتها خفر القوافل البحرية] الكورسير (*Le Corcyre*)، فاضطرت إلى الرسو على شاطئ سردينيا، وتم أسر طاقمها. ووصل الخبر أن نيلسون كان ينتظر عشر سفن من إنجلترا، وتجول الأسطول ثلاثة أيام في انتظار وصول الموكب من سيفيتافيكيا، والذي تخلف عن الموعد الأول، واستأنف السير في اليوم الرا بع (من يونيو)

(*) في أحداث العنف المعادية لفرنسا، في 13 إبريل 1798م اضطر السفير الفرنسي برنادوت أن يحتمي بالسفارة، وأن يرسل استغاثتين حتى يتحرك وزير خارجية إمبراطور النمسا لإرسال قوات لحماية السفارة.

ووصل جزيرة مارتينو (Maretino). وفي اليوم الخامس اتصلت إحدى المراكب بصقلية، وطمأنت الحاكم الذي كان القلق قد استبد به. وتم إرسال فرقاطة إلى نابولي، وأخرى إلى تونس، وثالثة إلى طرابلس، ورابعة أمام ميسين (Messine).

وأبحرت العمارة في أحسن نظام، على ثلاثة طوابير، اثنان من أربع سفن، وفي الوسط خمس سفن. وكان القبطان ديكريس (Decrès) يرشد السير بعمارة خفيفة مكونة من فرقاطات وسفن حربية (حراقات) تسير بجدية. وكانت القافلة تحرسها سفينتان من صنع البندقية عليهما أربعة وستون مدفعًا، وأربع فرقاطات، وعدد كبير من السفن الصغيرة التي تضيء من جانبها كل الاتجاهات. وكان الأمر بأن تلجأ العمارة إلى أحد الموانئ الصديقة إذا ما تعرضت لهجوم من أسطول العدو. وتم توزيع القوات المدربة على جميع السفن الحربية، وكانت تمارس التدريب ثلاث مرات في اليوم على استعمال المدافع.

كان نابليون مسئولاً عن قيادة القوات البرية والبحرية، ولم يكن أي عمل يتم دون أوامره. كان يقود المسيرة، وكثيرًا ما اشتكى من بُعد السفن دائمًا عن بعضها بعضًا، ولكنه لم يكن يتدخل أبدًا في التفاصيل التي تتطلب معلومات وخبرات في البحرية. وفي يوم 3 يونيو، وعلى مستوى رأس كربونارا (Carbonara)، عرض عليه الأميرال برييه (Bruyes) الموافقة على فصل أربع سفن وثلاث فرقاطات لمواجهة موكب سيفيتافيكيا، وكتب على الهامش: "لو بعد أربع وعشرين ساعة من هذا الانفصال تم تبليغ إشارة عن عشر سفن إنجليزية، فلن يتبقى لي غير تسع سفن بدلاً من ثلاث عشرة سفينة".

ولم يجد الأميرال أية إجابة. وفي فجر يوم 5 يونيو جاءت إشارة بظهور جوزو (Gozzo) وقافلة سيفيتافيكيا، وهكذا تجمع كل الجيش.

رابعًا: إنَّ من بين الأوطان السبعة التي تشكل نظام فرسان معبد سان جان بأورشليم، كانت ثلاثة منها فرنسية. ولم تكن الجمهورية تعترف بوجود مواطنة تتميز على أساس المنشأ، فقد ألغت هذا النظام وضمت ممتلكاته لأملاك هيئات الأديان الأخرى، ومنحت الفرسان إعانة التقاعد. وانتقامًا لذلك رفض كبير الرهبان روهان (Rohan) استقبال مندوب الأعمال الفرنسي. ولم يكن مسموحًا بمرور سفن التجار الفرنسيين في الميناء إلا بعد إخفاء العلم بألوانه الثلاثة. ولم تكن هناك أية علاقة دبلوماسية بين الجمهورية وجمعية الفرسان. وكان يتم استقبال الإنجليز في الميناء بكل الترحاب، مع تقديم المؤن لهم بغير حساب. وكانت السلطات الشرعية تحرص على تعيين وتموين سراياهم؛ فقد تم التزود بعشرين ألف من البارود من مخازن السلف الأكبر إيليوت (Elliott)، نائب رئيس كورسيكا. ولكن الذي حدد مصير هذه الطائفة هو خضوعها لحماية الإمبراطور بولس (Paul) عدو

فرنسا، وإقامة كنيسة دير يونانية، وهو ما أساء إلى الدين الروماني وفعالياته. وسعت روسيا إلى السيطرة على هذه الجزيرة ذات الأهمية الكبرى لموقعها وسلامتها وأمانة مينائها وصلابة أسوارها، عندما سعت طائفة إلى الحماية من الشمال، فتجاهلت وأساءت إلى مصالح قوى الجنوب. فصمم نابليون على الاستيلاء على الجزيرة لو أمكن ذلك، دون أن يكون ضرر بالهدف الرئيسي.

وتقع مالطة على مسافة عشرين فرسخًا [80 مترًا] من جزيرة صقلية، وستين فرسخًا [240 مترًا] من سواحل إفريقيا. وطول هذه الجزيرة ستة أو سبعة فراسخ، وعرضها أربعة فراسخ، ومحيطها عشرون فرسخًا. والسواحل الغربية والجنوبية شديدة الانحدار، والسواحل الشمالية والشرقية ذات عدد كبير من الأرصفة والمراسي المتميزة للغاية. ويبلغ محيط جزيرة كومينو (Cumino) ثلاثمئة قامة [القامة: قياس بحري يساوي ستة أقدام] أي 600 مترًا، وتقع بين مالطة وجوزو (Gozzo). ويبلغ طول جزيرة جوزو أربعة فراسخ، وعرضها فرسخان، ومحيط دائرتها عشرة فراسخ. ويبلغ عدد سكان الجز الثلاثة 100000 (مئة الف) نسمة وأرض مالطة صخرية تغطيها نباتات [ترتفع] ما بين ثماني وعشر بوصات، ويعد القطن هو الإنتاج الرئيس، وهو الأحسن في بلاد المشرق (الشام). وكانت مدينة نوبل (Noble-Ville) عاصمة مالطة القديمة، أو سيفيتافيكيا في وسط الجزيرة. وشيدت مدينة فاليت (La Valette) عام 1566م، وحاصرها الأتراك مرات عديدة، وتمتلك أعظم ميناء في البحر المتوسط. وعدد سكانها 30000 (ثلاثون ألفًا) نسمة، ومنازلها جميلة، وأرصفتها صالحة، ومخازن القمح رائعة، والينابيع بهيجة. وقد بنيت الحصون بالطبع من الحجر، وبنيت المخازن في مكان آمن من القنابل. وكانت المنشآت الدفاعية والبطاريات والقلاع عديدة، ومكدسة بعضها فوق بعض. وقد قال الجنرال كفاريللي مازحًا عند زيارتها بعد الاستسلام: "من حسن الحظ أنه كان هناك بالداخل من يفتح لنا الأبواب"، كان يشير إلى وجود عدد كبير من الخنادق والمنحدرات ومقدمات الخنادق التي كان ينبغي تجاوزها لو بقيت الأبواب مغلقة.

وفي عام 1789م، كان النظام يحصل على إيراد يتراوح بين ثمانية عشر إلى عشرين مليونًا من مختلف البلاد المسيحية، وسبعة ملايين إيرادًا من فرنسا. فقد ورث النظام - في القرن الرابع عشر- أملاك فرسان المعبد. وترك له شارل الخامس، بعد طرده من رودس، ثلاث جزر؛ هي مالطة، وكومينو (Cumino)، وجوزو، وذلك بشرط حماية سواحل إسبانيا وإيطاليا ضد القرصنة الهمجية للبرابرة. وكان الأمر سهلاً بالنسبة له؛ إذ كان بواسطة ست أو سبع سفن حربية ذات أربعة وسبعين مدفعًا، وعدد مماثل من الفرقاطات، وضعف السفن الصغيرة، وبقاء الثلث باستمرار في عرض البحر المتوسط أمام الجزائر وتونس وطرابلس كان بإمكانه أن يصدَّ قرصنة البرابرة الهمجية التي كانت ستضطر إلى العيش في سلام. وبناء عليه كان النظام يستطيع أن ينال تقدير العالم المسيحي، وكان نصف إيراده سيكفيه لتحقيق تلك النتيجة الرائعة والمفيدة. لكن الفرسان كانوا مثلهم مثل رهبان آخرين يستولون على الأموال التي يحصلون عليها للمنفعة العامة ولخدمة المسيحية. وقد أثار بذخ رؤساء

الدير والقضاة والقادة استنكار كلٍّ أوروبا: "على الأقل يؤدي الكهنة الطقوس كما يقال، وهم في خدمة السلطة الروحية، لكن هؤلاء الفرسان لا جدوى منهم، فهم لا يفعلون شيئًا، ولا يقدمون أية خدمة". كانوا يضطرون إلى إعداد قوافلهم، حيث يذهبون كل عام إلى نزهة في البحر المتوسط بواسطة أربعة أو خمسة قوارب. وكانت المهرجانات تعد لاستقبالهم في مواني إيطاليا وإسبانيا وفرنسا. وكانوا يتجنبون البربر بكل حذر، وكانوا محقين في ذلك، حيث كانوا يركبون سفنًا غير مؤهلة لمواجهة الفرقاطات الجزائرية. وكان البربر بغير رادع يُخضِعون صقلية وسردينيا وسواحل إيطاليا، ويُخربون الشواطئ المقابلة لروما. وقد أصبح النظام لا طائل منه، وعندما انتقل إلى أوروبا الفرسان المعينون لحراسة معبد أورشليم ومرافقة الحجاج على طرق أنطاكية وبطليموس وجوبا إلى كنيسة (Saint-Sélpucre)، لم يعد هناك هدف من جماعة الفرسان، فانهار النظام وكان لا بد له من أن يسقط.

خامسًا: حل الكاهن الكبير هومبش (Hompesch) منذ أشهر قليلة محل كبير الكهنة روهان (Rohan)، الذي كان رجلاً مسنًا ومريضًا ومترددًا. وكان القضاة والقادة ووزراء العدل، وضباط الجماعة من الشيوخ، فلم يمارسوا الحرب، وكانوا عزابًا كبار السن، قضوا حياتهم في المجتمعات المحببة إلى النفس. وقد وجدوا أنفسهم في مالطة وكأنهم في منفى، ويودون الموت في بلد نشأتهم. ولم يكن لديهم أي باعث يدفع الرجال إلى أن يعرضوا أنفسهم لأخطار عظمى، فما الذي كان يمكن أن يدفعهم ليخاطروا بحياتهم للحفاظ على صخرة جرداء وسط البحار؟ أهي المشاعر الدينية؟ إنَّ لديهم منها القليل من الوعي بأهميتها. أم هو هذا الشعور بالكبرياء الذي يدفع الإنسان إلى التضحية لحماية وطنه وذويه؟ لقد كانوا لا يعملون شيئًا، ولم يكن يستفيد منهم أحد.

وقد كان يدافع عن مالطة ثمانمئة أو تسعمئة فارس غير مؤهلين للحرب إلا قليلاً، كانوا منقسمين فيما بينهم مثل عادات ومصالح الأمم التي ينتمون إليها. وما بين ألف وخمسمئة إلى ألف وثمانمئة رجل - من إيطاليا وألمانيا وفرنسا وإسبانيا - كانوا من أسوأ الجنود، معظمهم هاربون من الجندية أو مغامرون، ويرون - بفرحة خفية - فرصة لربط مصائرهم باسم أعظم جنود أوروبا. ومن الجيش الشعبي (الميلشيات) ثمانمئة أو تسعمئة رجل. كان هؤلاء الجنود متكبرين مثل سكان الجزيرة، يعانون من غطرسة وتعالي نبلاء الفرسان، وكانوا يشكون من أنهم غرباء في وطنهم، بعيدون عن كل المواقع الفخرية والمربحة، فبذلك لم يكونوا مخلصين للنظام، وكانوا يرون في الفرنسيين مدافعين عن حقوقهم. ولدرجة أن خدمة الميلشيات كانت قد أهملت منذ زمن طويل لأن النظام لم يعد يخشى غزو الأتراك منذ فترة طويلة، بل على العكس كان يهاب تفوق أهل مالطة. وحين تكون التحصينات ووسائل المقاومة المادية لا حد لها، فإن الدوافع المعنوية تجعلها عديمة الفائدة. وكان حاضرًا في كل الأذهان استسلام مانتو (Mantoue)، والمعاملة المشرفة التي لاقاها ويرميسر (Wurmser). وإذا كانت ساعة الاستسلام قد حانت، فقد كانوا يفضلون أن يسلموا أنفسهم لمحارب قدّم فكرة عظيمة عن خلقه الكريم. ولم تستطع "الافاليتا" (La

Valette) - ولم ترغب ولم تكن مضطرة - لأن تدافع عن نفسها، ولم تكن تستطيع مقاومة قذف القنابل طوال أربعة وعشرين ساعة، واطمأن نابليون إلى أنه يمكن أن يتجاسر واجترأ.

سادسًا: عندما ظهرت قافلة سيفيتافيكيا يوم 8 يونيو أمام جوزو (Gozzo)، شعر كبير الكهنة بالمخاطر التي تهدد النظام، وجمع المجلس الكبير للتشاور بشأن تلك الظروف بالغة الأهمية [قائلاً]: "احتشد السرب الفرنسي قرب سواحلنا، وإذا طلب دخول الميناء فما القرار الذي ينبغي علينا اتخاذه؟". انقسمت الآراء؛ فرأى البعض أنه:

"يجب إعطاء إشارة إنذار، وشد السلسلة، واللجوء إلى السلاح، وإعلان أن الجزيرة في حالة حرب، وأن هذا النظام سوف يفرض على القائد الفرنسي خشية أن يتورط مع أقوى موقع في أوروبا، وأنه يجب في نفس الوقت ألا يدخر شيئًا فيما يجعل القائد وكبار ضباطه متجاوبين مع النظام، وهي الوسيلة الوحيدة لتدارك هذه العاصفة". وعلى العكس قال آخرون: "كانت غاية النظام محاربة الأتراك، ولا يجب إظهار عدم ثقة من اقتراب أسطول مسيحي، وأن إعطاء إشارة إنذار عند رؤيته - وهو ما لم نعتده إلا عند ظهور الهلال - كان سيثير ويفجر على المدينة العاصفة التي نريد تداركها. ربما لا يكون في نية القائد الفرنسي أي عداء، ولو لم نظهر له عدم الثقة، فربما يستأنف طريقه دون أن يزعجنا".

وفي أثناء هذه المداولات، وصلت كل الاسطول وتقدم في اليوم التاسع ظهرًا، عند مدخل الميناء على مرمى المدفع، وطلب أحد المرافقين العسكريين الفرنسيين الدخول للتزود بالماء.

وأما أعضاء المجلس الذين كان رأيهم ضرورة الدفاع عن أنفسهم، فقد نبهوا عندئذ بحماس جديد إلى:

"هو التهور لو هاجمنا، والأيدي مكبلة، قوة أجنبية لا نعرف نواياها، فلا يمكن أن يصيبنا شيء أسوأ من ذلك. وسوف يحين دائمًا وقت الاستسلام بمحض إرادتنا، فليس لدينا علاقة دبلوماسية مع الجمهورية، ولا نعرف حتى إذا ما كنا في حرب أم في سلام. وأخيرًا إذا كان لا بد من الموت فالأفضل الموت والسلاح في اليد على الموت من الجبن".

وأشار الحزب المعارض قائلاً:

"ليس لدينا وسائل للدفاع عن أنفسنا، وإنه لمن التهور إثارة هذا الجيش الرهيب الذي كان على مرمى المدافع، وبعد بضع ساعات من إعلان الاعتداء سيكون قد سيطر على معارك مالطة وجوزو، ولن يكون لنا مصدر آخر إلا إغلاق أبواب العاصمة، ولن تستطيع العاصمة المحاصرة من البر والبحر الدفاع عن نفسها بسبب نقص المواد الغذائية. وصحيح أنَّ لدينا قمحًا، لكننا نفتقر إلى كل المواد الاستهلاكية الأخرى. كما أنَّ أقل من أربع وعشرين ساعة تكفي الفرنسيين لإقامة عدة بطاريات لقذائف الهاون، وتفجير الموقع الحصين برًا وبحرًا. وينبغي أن نتوقع ثورة الميليشيات الذين كانوا مضطربي المزاج، ولن يبقوا متفرجين غير مكترثين إزاء حرق بيوتهم. كما أن الأعمال الحربية سوف تبرز شدة ضعف النظام، وسنفقد كل شيء بدلاً من أن نكون في وضع مناسب. وإذا ما لزم الأمر فستكون حتمية التفاوض بامتياز، وعرض شروط مشرفة لصالح النظام، ومفيدة لصالح الأفراد".

كانت المناقشات حادة، فاتخذ معظم المجلس قرار الحرب.

وقام سيد الفرسان العظيم باستدعاء كاروسون (Caruson)، وهو تاجر من المدينة كان يدير شئون الفرنسيين، وكلفه بإعلان هذا القرار إلى القائد الأعلى. وفي نفس الوقت أعطى إشارة الإنذار، فتم إغلاق الأبواب، وإشعال نيران القذائف الكروية الحمراء، وتوزيع القيادات. وحملت كل الميليشيات السلاح، واتجهت إلى البطاريات. وقد اعترض على هذه الإجراءات الفارس بوسريدون دي رانسيجات (Bosredon de Ransijact) من أهل أوفرني (Auvergne)، وصرح بأنه فرنسي ولن يحمل السلاح أبدًا ضد فرنسا. وانضم كثير من الفرسان إلى رأيه، فتم القبض عليهم وسجنهم. وتولى الأمير كامي دي روهان (Camille de Rohan) قيادة ميليشيات الجزيرة، وتحت إمرته قاضي كلوني (Cluny). وتوجه قائد ميسجريني (Mesgrigny) إلى جزيرة جوزو (Gozzo)، وتوجه الفارس فالين (Vallin) إلى جزيرة كومينو (Cumino) وتم توزيع الفرسان على البطاريات المختلفة والأبراج التي تحيط بالجزيرة. وقد تجاوزت الاضطرابات الحد على مدى الليل والنهار.

وفي العاشرة من مساء اليوم التاسع، قدم السيد كاروسون (Caruson) تقريرًا عن مهمته إلى القائد الأعلى، وتلقى الأمر بالرد على الرئيس الأعلى لفرسان مالطة بالعبارة التالية:

"استاء القائد العام لعدم السماح بتزويد الماء إلا لأربع سفن في نفس الوقت. وفي الواقع كم يلزم من الوقت بهذه الطريقة لأربعمئة أو خمسمئة مركب شراعي للحصول على الماء وعلى أشياء أخرى في حاجة ماسة إليها؟ لقد أذهل القائد هذا الرفض بقدر ما علم بالامتياز الذي حصل عليه الإنجليز والتصريح الذي أعلنه سلفكم. وقد قرر الجنرال الحصول بالقوة على ما كان يمكن أن الحصول عليه تبعًا لقواعد الضيافة التي هي أساس نظامكم. لقد شاهدت القوات الهائلة التي تحت إمرته، وأتوقع في هذه الحالة استحالة مقاومة الجزيرة. ولم يرغب الجنرال في أن أعود إلى مدينة يعتقد أنه مضطر لأن يعاملها كعدو من الآن فصاعدًا. وأعطى الأوامر بمراعاة الدين والعادات والممتلكات المالطية".

وفي نفس الوقت أعطت السفينة لوريان (*L'Orient*) إشارة العدوان، وتحرك الجنرال رينيه (Reynier) مع قافلة مرسيليا للنزول فجرًا عند جزيرة جوزو. ورسا الجنرال ديزيه (Desaix) مع قافلة تشيفيتافيكيا تحت حراسة مساعد الأميرال بلانكيه دي شايلا (Blanquet du Chayla) عند رصيف مرسى شيروكو (Marsa-Scirocco)، ورست قافلة جنوة عند رصيف سان بول (Saint-Paul).

وانتظرنا طوال الليل بفارغ الصبر في مالطة لوصول القنصل، وكان الذهول العام عندما علمنا بأنه ظل على ظهر السفينة، وكانت الأعمال العدوانية قد بدأت، وسيطر شعور على كل الأذهان: الاستحالة ومخاطر الدفاع.

سابعًا: عند فجر اليوم العاشر، أعطت السفينة لوريان (*L'Orient*) إشارة الإنزال؛ فنزل نابليون إلى الشاطئ مع ثلاثة آلاف رجل بين المدينة ورصيف سان بول. وقام موتار (Motard) – قبطان الفرقاطة - بقيادة قوارب الإنزال. وبادرت الفرقاطة بإطلاق النيران بمجرد الاقتراب من الأبراج والبطاريات. وردت عليها بعض الزوارق المسلحة وعليها أربعة وعشرون مدفعًا، وواصلت الزوارق الكبيرة (chaloupes) المضي قدمًا في أروع نظام. كان البحر هادئًا وكان ذلك ضروريًا لأن عملية الإنزال تمت فوق الصخور. وقامت قوات مشاة العدو باعتراض الإنزال، وبدأ القناصة المعركة. وفي ظرف ساعة من الزمن تم الاستيلاء على البطاريات والأبراج، وتم طرد العدو من المدينة. واستولى الجنرال باراجوي دي هيليه (Baraguey d'Hilliers) على أرصفة سان بول ومالطة، وبعد مقاومة خفيفة سيطر على البطاريات والأبراج وجنوب كل الجزيرة، واعتقل مئة وخمسين أسيرًا، وقُتِل ثلاثة من رجاله. وقام الجنرال ديزيه بإنزال الجنرال بيليار (Belliard) مع الفرقة 21 الخفيفة، واستولى على كل بطاريات مرسى شيروكو. وتم حصار "لفاليتا" ظهرًا من كل الجهات، وكانت القوات الفرنسية أسفل أسوارها الشامخة. وعلى منتصف مرمى المدفع، أطلق الموقع المحصن النيران على من يقترب كثيرًا من المناوشين. وانتقل الجنرال فوبوا (Vaubois) إلى لافيل نوبل (la Ville-Noble) ذات الأسوار، وسيطر عليها دون مقاومة. واستولى الجنرال رينيه (Reynier) على كل جزيرة جوزو التي كان يدافع عنها 2500 (ألفان وخمسمئة) رجل، كان معظمهم من المواطنين، كما اعتقل كل الفرسان المدافعين عنها. وفي الساعة الواحدة بدأت الزوارق الحربية عملية إنزال اثني عشر مدفعًا، وكل ما هو ضروري لإقامة ثلاث منصات لمدافع الهاون. وكانت ستة مدافع قديمة، واثنا عشر زورقًا من الزوارق الحربية المسلحة أو الترتان [مركب شراعي صغير وحيد الصاري] ذوات الـ (24) مدفعًا قد اتخذت موقعًا أمام الميناء. وفي مساء اليوم الحادي عشر، تعرضت المدينة للقصف بأربعة وعشرين مدفع هاون من خمس جهات في نفس الوقت. وذهب القائد العام بصحبة الجنرال كافاريللي، رئيس سلاح المهندسين، للتعرف على موقع البطاريات التي خططها أمام عينيه. وخرج المحاصرون بين الساعتين الرابعة والخامسة. وقد ردهم المرافق العسكري مارمون (Marmont)، وتم اعتقال بعضهم، وعُيّن على إثر ذلك جنرال لواء. وفي الساعة السابعة مساء، وقبل حلول الظلام بقليل، تقدم جمع غفير من الشعب للخروج: وكان ما هو متوقع، حيث تم رفض مرورهم. وعند إشارة مدفع الإنذار، هرع جزء كبير من سكان الجزيرة مع عائلاتهم وحيواناتهم لاجئين إلى أسوار العاصمة، مما زاد الاضطراب.

وعاد القائد العام إلى السفينة لوريان في المساء، وبعد ساعة استلم الرسالة القادمة من القنصل الهولندي:

"... لقد كلفني كل من الرئيس الأعلى ومجلسه بأن أوضح، أيها المواطن الجنرال، أنه عندما رفضوا دخولكم في الميناء، فإنهم كانوا يريدون معرفة ما الذي تريدون من مخالفة القوانين التي يفرضها حيادهم ليطلب كبير الرهبان والمجلس وقف

الأعمال العدوانية، وأن توضحوا ما هي نواياكم التي ستكون دون شك وفق كرم الأمة الفرنسية والمشاعر المعروفة عن القائد المشهور الذي يمثلها".

وكان الجنرال جينو (Junot)، ياور نابليون، قد رحل في نفس الوقت إلى فاليتا، وفي الساعة الثانية صباحًا وقع وقف القتال مؤقتًا كما يلي:

"تم الاتفاق بين جيش الجمهورية الفرنسية بقيادة الجنرال نابليون، ويمثله جينو، قائد لواء الجنرال، وسان جان كبير رهبان أورشليم، بوقف القتال لمدة أربع وعشرين ساعة، من الساعة السادسة من مساء يوم 11 يونيو 1798م، وحتى الساعة السادسة من مساء الغد، الثاني عشر من ذات الشهر"

"التوقيع: جينو- وهومبيش".

ثامنًا: في فجر اليوم الحادي عشر، توجه المفوضون عن كبير الرهبان إلى السفينة لوريان، ومعهم كل الصلاحيات الضرورية للتفاوض على استسلام الموقع. وكان على رأس المفاوضين الأمير بوسريدون دي رانسيجات الذي أخرجوه من السجن وحمله الشعب على الأكتاف، واستقبله كبير الرهبان. وطوال اليوم العاشر ازداد الإضراب في فاليتا، وعندما وصل الخبر عن الاستيلاء على الأبراج والبطاريات، وعن تقدم المحاصرين، انصرف السكان إلى أعمال شغب كبرى. وقد كان إعداد المدفعية قد أثار غضب الميليشيات، وتم قتل كثير من الفرسان في الشوارع، واندلعت دون خشية خميرة الحقد المتأججة في قلوب السكان منذ مدة طويلة. وكان أعضاء المجلس الأكثر حماسًا للمقاومة هم أكثر الذين التمسوا حماية القائد الفرنسي؛ لأنهم كانوا هم الأكثر عرضة لغضب الشعب. وفي الساعة الثانية من صباح يوم 12 يونيو تم التوقيع على الاستسلام على متن السفينة لوريان [على النحو التالي]:

"المادة (1): يُسلم فرسان سان جان أورشليم مدينة وقلاع فاليتا إلى الجيش الفرنسي، ويتنازلون لصالح الجمهورية الفرنسية عن حقوق السيادة والممتلكات سواء بالمدينة، أو بجزر مالطة، وجوزو، وكومينو.

المادة (2): تستخدم الجمهورية نفوذها في مؤتمر راستادت (Rastadt) ليحصل الكاهن الكبير طوال حياته على إمارة مماثلة لتلك التي خسرها، وفي هذه الفي أثناء تتعهد [الجمهورية] بأن يحصل على معاش قدره ثلاثمئة ألف فرنك. وسوف

يحصل - إضافة إلى ذلك - على قيمة عامين من هذا المعاش تعويضًا عن أثاث منزله، ويحتفظ طوال إقامته في مالطة بمراتب الشرف التي كان يتمتع بها.

المادة (3): إن فرسان سان جان أورشليم الفرنسيين المقيمين حاليًا في مالطة، والذين سوف يقيم القائد العام وضعهم، سوف يستطيعون العودة إلى وطنهم. ويتم اعتبار مدة إقامتهم بمالطة إقامة في فرنسا.

وتقدم الجمهورية الفرنسية كل مساعيها الحميدة لحث الجمهوريات الألبية والليغورية والرومانية والسويسرية على إعلان أن هذه المادة تشمل كل الفرسان في مختلف هذه الأمم.

المادة (4): تضمن الجمهورية الفرنسية معاشًا قدره سبعمئة فرنك لصالح الفرسان الفرنسيين الحالين بمالطة طوال حياتهم. ويصبح المعاش ألف فرنك لمن هم في سن الستين وما فوق.

وتقدم الجمهورية مساعيها الحميدة قبل الجمهوريات الألبية والليغورية والرومانية والسويسرية لمنح نفس الدعم لفرسان كل هذه الأمم.

المادة (5): تقدم الجمهورية الفرنسية كل مساعيها الحميدة إلى سلطات دول أوروبا الأخرى لاحتفاظ فرسان أمتهم بممارسة حقوقهم على ممتلكات فرسان مالطة الموجودة في ولايتهم.

المادة (6): يحتفظ الفرسان بأملاكهم في جزيرتي مالطة وجوزو بصفتها أملاكًا شخصية.

المادة (7): يتمتع سكان جزيرتي مالطة وجوزو - كما كان في الماضي - بحرية ممارسة الديانة الكاثوليكية والرسولية والرومانية، ويحتفظون بما كانوا يملكون من مزايا، ولن تضاف أية مساهمة طارئة.

المادة (8): تظل كل العقود المدنية التي وقعت في ظل حكومة نظام الفرسان قانونية وصالحة للتنفيذ".

ولتطبيق المواد المتفق عليها في 12 يونيو (24 بريريال) بين الجمهورية الفرنسية وفرسان مالطة، تم اتخاذ الإجراءات التالية:

"المادة الأولى: يسلم إلى القوات الفرنسية - ظهر اليوم الموافق 12 يونيو- حصن مانويل (Manoël)، وحصن تينيه (Tigné)، وقصر سانت أنجيلو (Saint-Ange)، وحصون بورمولا (Burmola)، وكوتونيرا (Cotonera)، ومدينة النصر (Cité-Victorieuse).

المادة الثانية: ويُسلَّم إلى القوات الفرنسية - ظهر الغد الموافق 13 يونيو- حصن ريكازولي (Ricasoli)، وقلعة سانت-إلمو (Saint-Elme)، وتحصينات مدينة فاليتا، وكذلك تحصينات فلورينا (Floriana).

المادة الثالثة: في الساعة العاشرة من صباح اليوم، يتوجه بعض الضباط إلى الكاهن الكبير ليأخذوا هنالك الأوامر للحكام الذين يديرون مختلف الحصون والتحصينات الحربية التي يجب تسليمها إلى القوات الفرنسية. وسيرافقهم ضابط من مالطة، وسيكون هناك عدد من الضباط بقدر عدد الحصون التي سيتم تسليمها.

المادة الرابعة: يتم اتخاذ ذات الإجراءات الواردة أعلاه بالنسبة للقلاع والتحصينات الحربية التي يتم تسليمها للسلطة الفرنسية غدًا الموافق 13 يونيو.

المادة الخامسة: وفي نفس الوقت الذي يتم فيه تسليم التحصينات، يتم التحفظ على المدفعية والمخازن والأوراق الهندسية.

المادة السادسة: من الممكن الإبقاء على قوات جزيرة فرسان مالطة في الثكنات التي يشغلونها لحين صدور أوامر أخرى.

المادة السابعة: يعين الأميرال قائد الأسطول الفرنسي ضابطًا لاستلام السفن والقوارب والمباني والمخازن وممتلكات البحرية الأخرى من أملاك فرسان مالطة اليوم".

وقد كان إعلان هذا الاستسلام سيطمئن النفوس، ويهدئ التمرد، فيستقر النظام من جديد.

وكتب نابليون إلى أسقف مالطة، مولاي لابيني (Labini)، لتهدئة توتر الكهنة قائلاً:

"علمت ببالغ السرور، يا سيادة الأسقف، بحسن استقبالكم وترحيبكم بدخول القوات الفرنسية في مدينة سيتا نوبيل (Città-Nobile)، ويمكن أن تطمئن كهنة الأبرشية أن الديانات الكاثوليكية والرسولية والرومانية لن تُحترم فحسب، وإنما سيتم كذلك حماية المبشرين بالإنجيل. ولست أعرف شخصية تستحق التبجيل والتقدير أكثر من الراهب المؤمن بروح الإنجيل، والذي تتطلب واجباته منه أن يطيع السلطة المدنية، وأن يحافظ على السلام والهدوء والوحدة بين رعاياه. وأرجو يا سيادة الأسقف أن تتوجه فورًا إلى مدينة فاليتا، وتساهم بتأثيرك الشخصي على الهدوء بين الناس. وسوف أذهب هذا المساء بنفسي إلى هناك، ولتُقدم لي عند وصولي كل الكهنة وقادة الجماعات الدينية. وأرجو أن تتأكد يا سيادة المطران من رغبتي في أن أثبت لك تقديري واحترامي لشخصكم".

تاسعًا: وفي الساعة الثامنة من صباح يوم 12 [يونيو]، تم تسليم أبواب وحصون فاليتا إلى القوات الفرنسية، وتم الإعلان عن دخول القائد العام في اليوم التالي. ولكن في الساعة الواحدة بعد الظهر نزل نابليون فجأة متنكرًا، وقام بجولة حول الأسوار، وأطلع على كل التحصينات، وذهب لزيارة الكاهن الذي أدهشته كثيرًا تلك الزيارة المفاجأة.

وفي فجر يوم 13، دخلت العمارة، وكان المنظر رائعًا؛ حيث انتظمت ثلاثمئة سفينة دون ارتباك. وكان يمكن دخول ثلاثة أمثالها في هذا الميناء الرائع. وكانت متاجر فاليتا مزودة بوفرة. وقد كان النظام يمتلك سفينة حربية عليها أربعة وستون مدفعًا، كانت راسية في الميناء، وسفينة أخرى كانت في الورشة. أخذ الأميرال الاثنتين

من السفن الحربية النصف شراعية ذات المجاديف (demi-galères)، واثنتين من مراكب "الشباك" (chébecs) [مراكب ذوات أشرعة ثلاثة]، لزيادة أسطول السفن الخفيفة. وأبحر الملاحون لخدمة الفرسان على هذه السفن. وتم تزويد ثمانمئة بالألبسة من أسرى الأتراك الذين كانوا بالسجن، وتوزيعهم على السفن الحربية. ونحقت بالجيش فرقة كتائب تدعى "مالطية"، وتشكلت من جنود كانوا يخدمون في تنظيم الفرسان. واستلم الخدمة رمة القنابل من حرس الرئيس الأعلى، وكثير من الفرسان. وتم ضم السكان الناطقين باللغة العربية إلى القادة والإدارات. وتم إرسال ثلاث سرايا من المحاربين القدامى من الجنود كبار السن إلى كورفو وكورسيكا. وكان يوجد في الميدان ألف ومائتا مدفع، و40000 (أربعون ألفا) بندقية، ومليون طلقة باروث. وتم شحن المنفعية بكل ما يُرى ضروريًا من هذه المعدات لاستكمال وزيادة العتاد. وتم تزويد العمارة بالمياه والأغذية؛ فقد كانت مخازن القمح ضخمة للغاية، وبها ما يكفي لإمداد غذاء المدينة على مدى ثلاث سنوات.

وحملت الفرقاطة سنسيبل (*La Sensible*) إلى فرنسا تذكار غنائم النصر، وكثيرًا من الأشياء النادرة التي أرسلها القائد العام إلى الحكومة. ورغب الجنرال بارجواي دي هيليار (Baraguey d'Hilliers)، بطابعة المتقلب، في العودة إلى باريس، وسمح له وكُلف بأن يحمل معه راية تنظيم الفرسان الكبيرة.

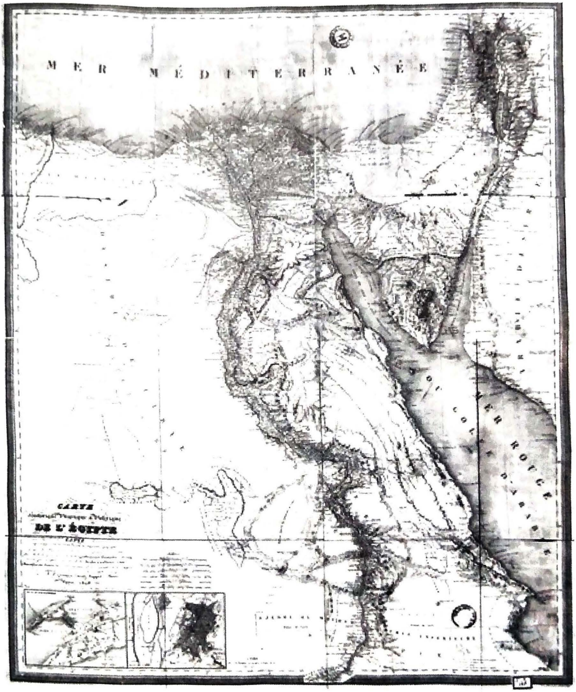
واستلم كل فرسان مالطة من الفرنسيين والإيطاليين جوازات للسفر إلى فرنسا وإيطاليا. ووفقًا لتوقيع الاستسلام تم إجلاء كل الفرسان الأخرين من الجزيرة. وفي يوم 18 يونيو لم يبق هناك فارس في مالطة، وسافر الكاهن الأكبر يوم 17 يونيو إلى تريستا (Trieste)، ووجد بالخزينة مليونا من الفضيات التي استخدمت فيما بعد لتزويد أموال القاهرة.

وتولى الجنرال فوبوا (Vaubois) قيادة الجزيرة مع أربعة آلاف من رجال الحامية، وكان يلزم 8000 (ثمانية آلاف) رجل للدفاع عنها. وأصدر الجنرال برتييه الأوامر بإرسال 6000 (ستة آلاف) رجل من مستودعات الجيش كانوا في طولون، وإرسال ألف رجل من كورسيكا، وألف وخمسمئة من تشيفيتا فيكيا، وألف وخمسمئة من جنوه. وقام بإخبار الإدارة البحرية في طولون بضرورة استكمال المواد الغذائية، حيث كان هناك نقص في اللحوم المملحة والأدوية. وأوضح نابليون إلى حكومة الإدارة ضرورة إرسال هذه الإمدادات والمؤن الناقصة إلى فاليتا لضمان خدمة الموقع الهام: حيث يستطيع ثمانية آلاف رجل فرض السيادة على الجزيرة، وعندئذ يصبحون في حالة تمكنهم من تلقي المرطبات. وقد كان البحر سالكًا في أثناء شهور يونيو ويوليو وأغسطس وسبتمبر، ولكن لم توفر حكومة الإدارة شيئًا كعادتها. وظل فوبوا (Vaubois) وحيدًا مع قواته الخاصة

عاشرًا: أثار غزو مالطة حماسًا بالغ الشدة في فرنسا، وكثيرًا من الدهشة في أوروبا، حيث فقد الجيش أربعة آلاف رجل، لكنما تمت تقويته بألفي رجل من الفرقة المالطية.

وأعطت السفينة الأميرال (لوريان) إشارة الرحيل يوم 19 يونيو، بعد شهر بالتمام منذ مغادرة شاطئ طولون. ولم يؤخر الاستيلاء على فاليتا مسيرة الجيش إلا عشرة أيام.

وقد كان المعروف أن الاتجاه سيكون أولاً إلى "كاندي" (Candie)، وانقسمت الآراء فيما بعد حول الهدف المقصود. فهل كان الهدف من الذهاب هو النهوض بأثينا أو إسبرطة (Sparte)، وهل سيرفرف العلم الفرنسي بألوانه الثلاثة على القصر، أم على الأهرام وأطلال طيبة القديمة؟ أم سنذهب من حلب قاصدين إلى الهند؟ ولقد كانت هذه الشكوك تغذي شكوك نيلسون.



1- خريطة مصر – من رسم المهندسين الذين رافقوا الحملة على مصر.

لوحة رقم 48 من طبغرافية مصر - الجمعية الجغرافية المصرية

الفصل الثاني

وصف مصر

أولا: مصر. ثانيًا: وادي النيل. ثالثًا: الفيضان. رابعًا: الواحات. خامسًا: صحراء مصر: (1) من البحيرة، (2) من الواحة الصغرى، (3) من الواحة الكبرى، (4) طبرية، (5) من الناسك، (6) من خليج السويس: أعراب – مزارعون - مرابطون- بدو. سادسًا: سواحل البحر المتوسط – الإسكندرية - ترعة الإسكندرية. سابعًا: البحر الأحمر، قناة البحرين. ثامنًا: العواصم: طيبة - ممفيس- الإسكندرية- القاهرة. تاسعًا: الدول المجاورة: في الجنوب، سنار، الحبشة، دارفور. من الغرب، طرابلس، فزان، بورنو. ومن الشرق، سوريا، الجزيرة العربية. عاشرًا: شعوب قديمة، حديثة. أجناس البشر: أقباط، عرب، مماليك، عثمانيون، سوريون، يونانيون، إلخ. أحد عشر: الزراعة. ثاني عشر: التجارة. ثالث عشر: الملكية، المالية. رابع عشر: ما عساها تكون مصر تحت السيطرة الفرنسية، سير جيش مصر إلى الهند.

أولاً: تعتبر مصر جزءًا من إفريقيا، وتقع في وسط القارة القديمة بين البحر المتوسط والمحيط الهندي. وهي مستودع طبيعي لتجارة الهند، وواحة كبيرة محاطة من كل الجهات بالصحراء والبحر. وتقع بين خطي عرض 24 إلى 32 شمالاً، وبين خطي طول 26 و32 إلى الشرق من باريس. ويحدها شمالاً البحر المتوسط، وغربًا الصحراء الليبية، ومن الجنوب صحراء النوبة، ومن الشرق البحر الأحمر وخليج السويس الذي يفصلها عن سوريا. وليست مصر في حاجة للدفاع عن حدودها بإقامة تحصينات، فالصحراء تحل محلها، حيث لا يمكن الهجوم عليها إلا عن طريق البحر، أو عن طريق خليج السويس.

ونادرًا ما تسقط الأمطار على مصر، لكن المطر يسقط على السواحل أكثر منه على القاهرة، وتمطر على القاهرة أكثر من الصعيد. وفي عام 1798، نزل المطر على القاهرة مرة واحدة ولمدة نصف ساعة. ونجد الرطوبة كبيرة جدًا، وتنخفض درجة الحرارة في فصل الشتاء في مصرالسفلى درجتين ريومور (Reaumur) فوق الصفر، وتصل إلى عشر درجات فوق الصفر في مصر العليا. وفي الصيف ترتفع درجة الحرارة إلى 26، و28 درجة في الدلتا، وإلى 35، و36 درجة في مصر العليا. ولا ينبعث بخار غير صحي من المياه الراكدة والمستنقعات، ولا يؤدي إلى الإصابة بأمراض نتيجة شدة الهواء الجاف، فتجف اللحوم المعرضة للشمس بدلاً من أن تفسد. وخلال أشهر يونيو ويوليو وأغسطس تهب رياح منتظمة شمالية وشمالية غربية. وفي هذا الفصل تستغرق السفن من عشرة أيام إلى اثني عشر يومًا للوصول من مارسيليا إلى الإسكندرية، ومن ستين إلى سبعين

يومًا للوصول من السويس إلى الهند. وفي أشهر يناير وفبراير ومارس تسود رياح جنوبية شرقية؛ حيث موسم العودة من الهند، وعودة الرحلات البحرية من الإسكندرية إلى أوروبا. والخماسين رياح موسمية [تأتي] من الشرق ومن الجنوب، وهي رياح "الشيروكو" (sirocco) العاتية في البلاد، وهي رياح مزعجة ومرهقة ومحفوفة بالمخاطر في بعض أجزاء الصحراء، وتكون ضارة بالمحاصيل والمنتجات الزراعية.

ومصر من أجمل وأكثر الدول إنتاجًا وأهمية بين دول العالم، وهي مهد الفنون والعلوم، حيث نشاهد فيها أعظم وأقدم الآثار التي صنعتها أيدي البشر. وإذا كان لدينا مفتاح سر الهيروغليفية التي تغطي تلك الآثار، لكان لنا أن نعرف ما نجهله عن عصور المجتمع الأولى.

وتتكون مصر من: (1) وادي النيل، و(2) ثلاث واحات، و(3) وست صحاري. ووادي النيل هو الجزء الوحيد الذي له قيمة؛ ولو كان النيل قد تحول إلى البحر الأحمر أو إلى ليبيا قبل شلال أسوان، لكانت مصر قد أصبحت صحراء غير آهلة بالسكان؛ لأن النيل يقوم مقام الأمطار والثلوج؛ ذلك أن النيل هو رب هذه المناطق، فهو عبقرية الخير، والمنظم لكل أنواع الإنتاج؛ فهو أوزيريس مثل تيفون (Typhon) إعصار الصحاري.

وقد كان القدماء يقسمون مصر إلى ثلاثة وخمسين إقليمًا أو مقاطعة، أي: أربعة عشر [إقليمًا] في طيبة، وسبعة أقاليم في مصر الوسطى من القاهرة إلى أسيوط، وتسعة وعشرون إقليمًا في الدلتا، وثلاثة أقاليم في الواحات. واليوم هناك ستة عشر إقليمًا: اثنان منها في الصعيد أو طيبة؛ وهي: طيبة وجرجا، وأربعة أقاليم في الوسط؛ وهي: أسيوط، والمنيا، وبني سويف، والفيوم، وعشرة أقاليم في البحيرة أو مصر السفلى؛ وهي: العاطفية، والجيزة، وقليوب، والشرقية، والمنصورة، ومنوف، والغربية، ودمياط، ورشيد، والبحيرة. وتمتد حدود مصر قبل وفي عهد سيزوستريس [سنوسرت] حتى الشلال الكبير الجنادل، ووضع أغسطس حدود الإمبراطورية حتى شلالات أسوان، ووصلت حدود مصر في عهد الخلفاء الفاطميين إلى الشلالات الكبرى، وعادت إلى أسوان في عهد سليم الذي مد الحدود غربًا في نفس الوقت حتى برقة (الباريتون)، وشرقًا حتى خان يونس. فبالإضافة إلى مصر استولى البطالمة على ليبيا حتى سرت العظمى، وعلى فلسطين وسوريا العميقة. واحتل سلاطين أكوبات (akoubates) على ثلاثة سوريا، وكانت حدودها إلى الشرق طوروس (Taurus)، وبعدها الفرات.

ثانيًا: يتكون النيل من التقاء النهر الأزرق والنهر الأبيض، ويأخذ الأول مصدره من بحيرة دامبيا (Dembea)، ويستقبل عند 14 درجة نهر داندير (Dander) الذي يفصل النوبة عن الحبشة. ويأخذ النيل الأبيض منبعه عند درجة 8 غرب النيل الأزرق، ويعبر نفس سلسلة الجبال، لكننا لا نعرف عدد شلالاته. ويلتقي النيلان عند 16 درجة، ويعبر عند 11 درجة سلسلة جبال، حيث تتكون ستة شلالات، مسقط كل منها يتراوح بين ثلاثين

إلى أربعين قدمًا، وتستقبل عند 18 درجة ثالثة تسمى تاكزيه (Taccazé). ومن هنا يتدفق النيل حتى 31 درجة ونصف درجة، حيث يصب في البحر دون أن يتلقى نهرًا ولا سيلاً. وطول مجرى النيل إذن 23 درجة ونصف الدرجة، مما يشكل تقريبًا ستمئة فرسخ، وتسعمئة فرسخ إذا اتبعنا تعرجات المياه. ونعرف ثمانية شلالات، منها ستة أسفل النيل الأزرق، وشلال الجنادل (Genâdil)، أو الشلال الكبير الذي عند 22 درجة ومسقطه اثنان وثلاثون قدمًا، وأخيرًا شلال أسوان عند 24 درجة، ومسقطه اثنان وثلاثون قدمًا. ومن هذا الشلال يتدفق النيل بين سلسلتين صغيرتين من الجبال؛ هما السلسلة العربية التي تتبع الضفة الشرقية حتى القاهرة، والسلسلة الليبية التي تتبع الضفة الشمالية حتى الأهرامات. وهذا الوادي طوله أكثر من مائتي فرسخ، وعرضه أقل من ستة فراسخ، ويغمره فيضان النيل، وينقسم إلى ست مناطق. ويندفع النيل في مصر موازيًا للبحر الأحمر، وأقرب نقاطه من البحر تبعد اثنين وعشرين فرسخًا، والنقطة الأبعد بنحو 50 فرسخًا. وتوجد ثلاث واحات غربًا بعد التلال الليبية، وتبعد عن النيل من خمسة أيام إلى خمسة عشر يومًا في اتجاه الجنوب في الشمال الغربي.

وتقع مدينة أسوان على خط عرض «21 ' 5 °24 وعند خط طول " 49 ' 34 ° 3 " من باريس، أربعة عشر فرسخًا من الاستوائية. ويعبر خط الطول البحر الأحمر، ويترك السويس غربًا، ويقطع ساحل البحر المتوسط ثمانية فراسخ إلى الشرق أم - فرج (Omm-Fâreg)، و160، و18 فرسخًا من أسوان مسافة فلكية. ودمياط على خط عرض ' 25 ° 31 وخط طول " 45'29 °29 على بعد مئة وخمسة وثمانين فرسخًا من أسوان مسافة فلكية. ولكن بمتابعة تعرجات النيل يوجد مئة وستون فرسخًا. والخط المباشر بين النقطتين يمر وسط الصحراء من السويس إلى القاهرة. وتقع رشيد على خط عرض "34'24 ° 31، وخط طول "35 '8 ° 28، وعلى بعد 191 فرسخًا من أسوان مسافة فلكية، 261 من أسوان متابعة النهر والخط الأيمن يمر بين النيل وبحيرة النطرون. وهذا الجزء من محيط الدائرة الكبرى ساعد علماء الفلك بالإسكندرية على قياس خط الاستواء.

وقد كانت المنطقة الأولى كلها من الجرانيت، وتمتد من أسوان إلى الجبلين، وطولها أربعون فرسخًا من أحد الجوانب عرضها، وسطحها أربعون فرسخًا مربعًا. وتمتد عند الجبلين السلاسل الليبية والعربية كائنتين من الرؤوس المرتفعة في البحر، كل واحدة منهما في مقابل الأخرى لمسافة مائتين وخمسين قامة. وعلى بعد ستة عشر فرسخًا من أسوان - عند جبل يسمى السلسلة - نرى الكهوف والمحاجر التي استخرجت منها أحجار الجرانيت التي تم استخدامها في بناء طيبة. وتعتبر كلاً من إدفو وإسنا هي المدن الرئيسية في هذه المنطقة. ويتسع الوادي عند النزول، وتكون المنطقة أكثر خصوبة. ويقطع مسار السلسلة الليبية اثنان من الأخاديد باتجاه هاتين المدينتين يؤديان إلى داخل ليبيا. ويقطع مسار السلسلة العربية على الضفة الشرقية أخدودان آخران (مضيقان). ويمر عند مضيق رديسيه (Redesyeh) أحد الطرق من النيل إلى القصير. وكانت مدينة إسنا مقرًا للبكوات المغضوب عليهم، وكانت بمثابة عاصمة. وآثار تلك المنطقة الأولى هي آثار مدينة فيله (Philae)، وإلفنتين

(Elphantinc)، وأمبوس (Ombos) كوم أمبو (Ombou-Koum)، وأبولينوبوليس (Apollinopolis-Magna)، وإلتيا (Elcthia)، وهيراكونبوليس (Hiercompolis)، ولاتوبوليس (Latopolis).

والمنطقة الثانية طولها أربعة وثلاثون فرسخًا، ولها جبلان عند فرشوط (Farchout) على عرض فرسخين، ومساحتها ثمانية وستون فرسخًا مربعًا. ويشكل النيل منعطفًا يقربه من البحر الأحمر، ويطلق عليه برزخ قفط (Copotos). وقد كانت طيبة ذات المئة باب، وقفط وقوص، مستودعًا لتجارة البحر الأحمر ونهر النيل، وتتمتع اليوم مدينة قنا بهذه الميزة. ويبلغ عرض برزخ قفط ما بين ثمانية وعشرين إلى ثلاثين فرسخًا من النيل إلى البحر. وتضم طيبة ودندرة آثارًا نالت إعجاب البشر منذ قرون. وهذه المنطقة بالإضافة إلى المناطق الأربعة الأخرى من الحجر الجيري.

والمنطقة الثالثة طولها ثمانية وخمسون فرسخًا، وعرضها خمسة فراسخ، ومساحتها مائتان وتسعون فرسخًا مربعًا، وتبدأ عند فرشوط (Farchout)، وتنتهي عند ديروط الشريف (Dârout el-Cherif). وتقوم ترعة عند فرشوط بتغيير اتجاه مياه النيل أسفل السلسلة الليبية، وتسير الترعة موازية للنيل حتى داخل البحيرة (Bahyreh)، مما يوسع الوادي. ولا يوجد مثل ذلك على الضفة الشرقية. وجرجا وأسيوط مدينتان جميلتان؛ الأولى عاصمة الصعيد، والثانية أكثر المدن ازدحامًا بالسكان في مصر العليا، ويعتبر هذا البلد بلد رخاء. ومن هذه المدينة طريق يؤدي إلى الواحة الكبرى. وعند الضفة اليمنى أخدود يؤدي إلى البحر الأحمر.

والمنطقة الرابعة من ديروط الشريف إلى بني سويف، طولها ثمانية وأربعون فرسخًا، وعرضها ستة فراسخ، ومساحتها مائتان وثمانية وثمانون فرسخًا مربعًا. ويبدأ عند ديروط الشريف ماء بحر يوسف التي توصل النيل بالفيوم. وهنا يبدأ النظام المعروف بترعة موريس (Mocris). وتعتبر المنيا (Minyet)، وأبو جرجا (Abou-Girgch)، وبني سويف مدنًا كبيرة، على أن القرى الغنية تزداد على ضفاف النيل وعلى شواطئ الترع والكفور الضخمة. وتقع الفيوم على بعد خمسة فراسخ إلى اليسار من بني سويف. وعلى الضفة اليمنى للنيل أخدود يؤدي إلى البحر الأحمر ودير سان أنطون (Saint-Antoine)، وفي صحراء شاريوت (Chariot)، ومن بني سويف نشاهد جبل سيناء على الضفة الأخرى من البحر الأحمر، ولكن على بعد ستين فرسخًا.

والمنطقة الخامسة هي الفيوم. والتي تواجه بني سويف على بُعد أربعة فراسخ. وتمتد السلسلة الليبية جهتي اليمين واليسار، وتحيط بلدًا من حوالي مئة فرسخ مربع، وهو امتداد وادي النيل حيث كانت ترعة موريس. وعند الفيوم يؤدي إلى وادٍ يسمى "وادي النهر" بلا ماء يصب في البحر غرب الإسكندرية.

والمنطقة السادسة من بني سويف إلى القاهرة طولها اثنان وثلاثون فرسخًا، على خمسة فراسخ، وعلى مساحة مئة وستين فرسخًا مربعًا. وتقع منف على بعد ثلاثة فراسخ من الهرم الأكبر بالقرب من الجبال الليبية.

هذه المناطق الستة الأولى من أسوان إلى القاهرة، من أسوان إلى الهرم الأكبر، يبلغ طولها مئة وأربعة وخمسين فرسخًا مسافة فلكية، وعلى طول النيل مائتان واثنا عشر فرسخًا، ومساحتها حوالي ألف فرسخ مربع.

وتبدأ مصر السفلى عند القاهرة والهرم الأكبر. ولم يعد النيل يتدفق في الوادي الضيق، ولكنه يروي سهلاً فسيحًا على شكل شبه منحرف، قاعدته العليا ستة وعشرون فرسخًا من الهرم الأكبر حتى البحيرات المرة، والقاعدة السفلى مئة فرسخ من انحدار الربوة الليبية الواقعة على بعد خمسة وعشرين فرسخًا غرب الإسكندرية حتى جبل رأس القصرون (Casius) على بعد اثنين وأربعين فرسخًا شرق الفرما (بيلوز). وارتفاع المنحرف اثنان وأربعون فرسخًا من القاهرة إلى البرلس. ويسمح مستوى هذا السهل بأن يتدفق النيل فيه. وتبلغ هذه المساحة ألفين وستمئة وأربعين فرسخًا مربعًا.

وتبلغ مساحة وادي النيل 3640 فرسخًا مربعًا، وكانت الفيضانات تغطي نصف هذه المساحة.

وعلى بعد أربعة فراسخ شمال القاهرة، ينقسم النيل إلى فرعين؛ الفرع الغربي ويصب في البحر عند رشيد على مسافة واحد وأربعين فرسخًا فلكيًا من الهرم، وعلى بعد ستين فرسخًا باتباع تعرجات النيل، ويصب الفرع الشرقي في دمياط على بعد ثلاثين فرسخًا من الفرع الأول. ويقال إن النيل كان في عصور ما قبل التاريخ يتدفق من الفيوم في بحر بلا ماء، ويصب في البحر مخترقًا صحراء ليبيا بين الإسكندرية والبريتون (El-Baretoun)، وأن النيل في عهد البطالمة كان يتفرع أسفل القاهرة إلى سبعة مصبات، ويصب بواسطتها في البحر، وهي: الفرع الكانوبي غربًا، ويصب في كانوب الواقعة على شاطئ ساحل أبو قير، ومنها تصل المياه إلى الإسكندرية بواسطة ترعة، ونجد آثارًا لهذا الفرع. وفوق الرحمانية نجد ترعة كبيرة تسمى مرقس (Marqûs) تمر إلى الجنوب من قرية فيشد (Fyched)، ونجدها من جديد قرب قرية البركة (Bireket)، في اتجاه رشيد، ونتتبعه بواسطة المرجاس في ترعة المعدية. والفرع الثاني البولبيتي، والذي يعبر رشيد حاليًا، ولم يكن سوى ترعة حفرتها الأيدي البشرية، واستوعب الفرع الكانوبي والفرع السبنيتي. والفرع الثالث، وهو السبنيتي، كان مجرى النهر الطبيعي، وكان يصب بعد ذلك - وكما نرى الآن الأثر - في بحيرة البرلس. والفرع الرابع الفاطمي وهو فرع دمياط، ولم يكن إلا ترعة حفرتها الأيدي البشرية. والفرع الخامس هو الفرع المنديسي، وهو ترعة أشمون الحالية، والتي كانت تصب في البحر عند مصب نهر الديبة (Dybeh). والفرع السادس، وهو التانيسي أو السايتي، وهو ترعة مويس (Moueys) الحالية، وتلقي في البحر عند مصب أم فارج (Omm-Fâreg). والفرع السابع هو البيلوزي أو البوبساطي، ويصب في البحر عند الفرما (بيلوز). وهذا الأخير كان صالحًا للملاحة في عهد الإسكندر. وتصب الترع الثلاث الأخيرة اليوم في بحيرة المنزلة، ونجد صعوبة لمعرفة أثرها بقياس العمق.

وبحيرة المعدية وبحيرة البرلس، وبحيرة المنزلة، هي بحيرات حديثة. وقد أهملت الإدارة السيئة التي حكمت مصر القنوات والجسور، وكان النيل يتدفق بوفرة أقل في عدة فروع، مما أفقد التوازن، فدخلت المياه إليها. وماء

هذه البحيرات مالح، لكنه أقل ملوحة بكثير من ماء البحر الذي يدخل في البحيرات في أثناء انخفاض المياه، ولكن بسرعة أقل. وتدخل مياه البحيرات في البحر بسرعة أكثر كثيرًا. وطول بحيرة المنزلة ثلاث وأربعون ألف (43000) قامة (86000 متر) من دمياط إلى بيلوز، وعرضها تسعة آلاف (9000) قامة (18000 مترا). ويبلغ عدد سكان دمياط عشرون ألف نسمة. وجزيرة المطرية مزدحمة جدًا بالسكان. والترعة مليئة بأنقاض المدن القديمة. ومتوسط ارتفاع المياه ثلاثة أقدام، وتغطي سفن الصيادين البحيرة. والبرزخ الذي يفصلها عن البحر ضيق ومهمل، ويفصله ثلاثة مصبات؛ هي الديبة (Dybeh)، وأم فارج، وبيلوز. و"بيلوز" معناها "مستنقع".

والملاحة على النيل سهلة وسريعة، ولا تستغرق الملاحة في موسم الرياح الشمالية أكثر من ست وثلاثين ساعة للوصول من دمياط أو رشيد إلى القاهرة، وثمانية أو عشرة أيام إلى أسوان.

ثالثًا: يزداد النيل بانتظام كل عام في يوليو وأغسطس وسبتمبر وأكتوبر، وينخفض في نوفمبر وديسمبر وفبراير ليعود إلى مجراه، وينخفض بشدة في مارس وأبريل ومايو ويونيو. وعندما ترتفع المياه في مقياس جزيرة الروضة إلى 14 ذراعًا، أو 23 قدمًا و4 بوصات، مما يسبب فيضانًا فوق المياه المنخفضة 17 قدمًا و8 بوصات فيغطي أراضي مصر السفلى، ويرتفع جسر قناة أمير المؤمنين للسماح بدخول المياه، ويقام احتفال كبير. والذراع عبارة عن 20 بوصة، وينقسم إلى 24 إصبعًا. وفي عام 1798، تم قطع السد يوم 18 أغسطس؛ فوصل المقياس إلى 14 ذراعًا. وفي 7 أكتوبر بلغ النيل أقصاه وسجل 17 ذراعًا و10 أصابع (29 قدمًا و7 خطوط). ولما كان انخفاض الماء قد وصل إلى ثلاثة أذرع وعشرة أصابع، أو خمسة أقدام وثماني بوصات، فقد كان فيضان النيل 23 قدمًا و4 بوصة. وفي عام 1799 قطع سد قناة أمير المؤمنين في 21 أغسطس، وأشار مقياس الروضة إلى 13 ذراعًا ونصف. وفي 23 سبتمبر وصل النيل إلى الذروة، وأشار إلى 16 ذراعًا وأصبعين (26 قدمًا و9 بوصات وثمانية خطوط)، وزادت مياه الفيضان إلى 21 قدمًا و5 بوصات و4 خطوط. وفي 16 أغسطس عام 1800 انقطع سد ترعة أمير المؤمنين؛ وأعلن المقياس 16 ذراعًا. ووصلت المياه إلى الذروة في 3 أكتوبر، وأشار المقياس إلى 18 ذراعًا و3 أصابع (30 قدمًا، و2 بوصة، و6 خطوط) وكان الفيضان 24 قدمًا و4 بوصات.

وينحدر الوادي من الجنوب إلى الشمال، وفي المناطق الأولى والثانية والثالثة يكون النيل في المياه المنخفضة ما بين 30 إلى 35 قدمًا تحت مستوى الأرض. ويجب عندئذ أن يرتفع إلى ما يزيد عن 20 و21 ذراعًا (34 إلى 36 قدمًا) ليخرج من مجراه. ويجب عند ذروته أن يصل إلى ما بين 24 إلى 26 ذراعًا (40 أو 44 قدمًا) ليوفر فيضانًا معقولاً. وفي المنطقة السادسة تكون المياه منخفضة من 20 إلى 25 قدمًا تحت مستوى التربة، ويجب أن يشير مقياس القاهرة إلى 14 ذراعًا (23 قدمًا، و4 بوصات) ليخرج من مجراه، ولكن يجب أن يوضح

ما بين 17 إلى 22 ذراعًا (28 إلى 36 قدمًا) عند ذروته ليشكل فيضانًا جيدًا. وفي أسفل الدلتا لا تكون مياهه المنخفضة تحت مستوى التربة إلا بمقدار ثلاثة أو أربعة أذرع (5 أو 6 أقدام). وسطح شاطئ النيل أكثر ارتفاعًا عن مستوى طرفي الوادي، لدرجة أن الحقول القريبة من الصحراء، والتي أسفل السلاسل العربية والليبية، تصلها المياه قبل الحقول القريبة من مجرى النهر.

وفي أثناء المياه المنخفضة يكون النيل مائلاً حوالي بوصة و6 خطوط بنسبة 1000 قامة (2000مترا). وتبلغ المسافة من القاهرة إلى بوغاز رشيد 135000 قامة (270000 مترا). والنيل قرب القاهرة 16 قدمًا و10 بوصات فوق مستوى البحر المتوسط، وعند أسوان 70 قدمًا، وعند سنار 200 قدم، مع الأخذ في الاعتبار 32 قدمًا لمساقط الشلال الكبير، و8 أقدام عند أسوان. وفي عام 1798 وصل الفيضان إلى 23 قدمًا و4 بوصات، والنيل من المقياس إلى البحر ميلاً قدره 39 قدمًا و7 بوصات، أو 3 بوصات و6 خطوط لكل 1000 قامة (2000 متر).

ويصرف النيل من ثمانية إلى عشرة ملايين قامة مكعبة من الماء في 24 ساعة من المياه المنخفضة، ومن سبعين إلى ثمانين مليونًا في مياهه العليا، ويفقد في البحر كل عام ما يقرب من ثمانية إلى عشرة مليارات قامة مكعبة من الماء من مصباته. ويوجد مقياس للنيل في جزيرة إلفنتين أمام أسوان، تم اكتشافه عام 1798، وكان يشير إلى 24 ذراعًا بحد أقصى، ولكن أضفنا إليه ثلاثة أذرع تم رسمها بصورة مخالفة للأصل.

ويقع مقياس القاهرة جنوب جزيرة الروضة على بعد فرسخ من القاهرة، وهو عبارة عن عمود من الرخام يشير إلى 18 ذراعًا و7 أصابع، بما في ذلك كعب تاج العمود. وهو مقياس النيل الوحيد المستعمل الذي يحدد حالة النيل. ولا بد من أن يكون هناك خمسة مقاييس: الأول في أسوان، والثاني في بني سويف، والثالث في الروضة، والرابع في الرحمانية، والخامس في المنصورة. وفي عهد الملك موريس كانت ثمانية أذرع كافية لخصوبة البلد. وبعد تسعمئة سنة في زمن هيرودوت، كان لا بد من 15 ذراعًا، و16 ذراعًا في عهد الرومان، و17 ذراعًا تحت حكم العرب. وعند ارتفاع مستوى النيل تغرق بلدان كثيرة، والكثير من الأراضي الزراعية. وعندما يكون الفيضان ضعيفًا تغرق مقادير قليلة من البلاد، وتكون سنة متواضعة أو سيئة. وعلى العكس عندما تكون الفيضانات قوية، تبقى المياه مدة طويلة في التربة، ويمر الموسم المناسب، فلا نجد وقتًا للزراعة، ويكون الجو أكثر رطوبة، ويحدث القحط والمجاعة.

ولا يوجد بلد فيه تأثير للإدارة على الرخاء العام مثل مصر، فإذا حسنت الإدارة تم حفر القنوات وصيانتها جيدًا، وطبقت قواعد الري بإنصاف، وانتشرت مياه الفيضان بوفرة. وإذا ساءت الإدارة وكانت فاسدة وضعيفة، فإن الوحل يسد القنوات، وتصبح الجسور دون صيانة، ويتم انتهاك نظام الري، وتتعرض مبادئ تنظيم الفيضان إلى التحريض على التمرد لصالح أفراد من العامة والأقاليم. وليس للحكومة [في فرنسا] أي تأثير على المطر أو

الجليد الذي يسقط على إقليم البوس (Beauce) أو إقليم البري (Bric)، ولكن للحكومة في مصر تأثير مباشر على امتداد الفيضان الذي يصل إليها، وهو ما يبرز الاختلاف في إدارة مصر تحت حكم البطالمة، وانحطاط مصر في عهد الرومان، وإفلاس مصر في عهد الأتراك. وبناء عليه، ولكي يكون المحصول جيدًا، فيجب ألا يكون الفيضان منخفضًا جدًا، ولا مرتفعًا جدًا.

وقد وجد الملك موريس حلاً لهذه الأضرار الكبرى، حيث أنشأ بحيرة [بحيرة قارون]، التي كانت تعرف فيما مضى باسم "بحيرة موريس"، وهي عبارة عن خزان كبير يصب فيه النيل حين يكون الفيضان شديد الارتفاع، ويتم فتح البحيرة لمساعدة النيل في سنوات الانخفاض الشديد للفيضان، وهكذا كان يصب [النيل] أحيانًا في بحيرة موريس عن طريق بحر يوسف، وأحيانًا تصب مياه بحيرة موريس في النيل من نفس البحر. ولم يتبق من هذا الأسلوب الجيد والعظيم سوى آثار. وفي أثناء انخفاض المياه كان يتم أخذ المياه من الخزان لتزويد البلاد بما تحتاج إليه من الماء بنسب دقيقة، مما جعل هيرودوت يقول إن مياه النيل تجري ستة أشهر عبر بحر يوسف في بحيرة موريس، وستة أشهر من البحيرة إلى النيل بواسطة نفس القناة.

ويقول هذا المؤرخ أيضًا أن تربة أرض مصر ترتفع بمقدار قدم واحد كل قرن، وأن النيل قد استولى على الدلتا من البحر. وتم حساب المعطيات التي تم الحصول عليها من مقياس جزيرة إلفنتين أن الأرض ارتفعت خلال ألف وستمئة سنة [بمقدار] ستة أقدام وبوصتين، وهو ما يعطي ارتفاعًا للتربة [بمقدار] أربع بوصات وثماني خطوط في القرن. ولم نجد اختلافًا واضحًا في ارتفاع الدلتا منذ ثلاثة آلاف سنة. وكل هذه المسائل شغلت بشدة المتخصصين في الآثار والمساحة، ولقد تغيرت البلاد للغاية منذ أربعة آلاف سنة، لدرجة عدم تصديق أي من الآراء. وإن إقامة بحيرة موريس، والأعمال التي جاءت بالنيل في الوادي الحالي، ووجود سبعة أفرع تصب منه في البحر، والتي تقلصت اليوم إلى فرعين، وتشكيل بحيرات المعدية والبرلس والمنزلة، كل ذلك يزيد عناصر الحساب، ويُعقد المشكلة إلى ما لا نهاية. وقد تحرك القدماء بشدة لتعيين سبب الفيضانات الموسمية التي تأتي من الأمطار الدورية الاستوائية، هذه الأمطار وفيرة الإنتاج والخصب، لأنها تنزل من الجبال وتعبر غابات الحبشة وسهول سنار والنوبة، وتأتي بالطمي الذي تتركه، والذي يستخدم كسماد للأراضي.

وقد اتضح من تحليل هذه المياه أنها خفيفة حلوة المذاق، وبالغة النقاء، ولا تحتوي على أشياء غريبة مثل نهر السين بفرنسا. وهي ممتازة لإعداد الطعام، وكذلك للفنون الكيمائية، حيث تحل بامتياز محل مياه المطر والماء المقطر.

رابعًا: الواحة هي أرض نباتية تقع وسط الصحراء كأنها الجزيرة وسط البحر. وفي مصر ثلاث واحات كبيرة؛ وهي: الكبيرة، والصغيرة، وواحة آمون، وتقع الثلاثة في صحراء ليبيا غرب النيل. والواحات الثلاث على نفس الخط المتجه من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي. والواحة الكبرى في أقصى الجنوب، وتقع على بعد ثلاثة أيام من أسيوط. ونتبع مضيق يعبر الصحراء طوال ثلاثين فرسخًا دون العثور على ماء، قبل الوصول إلى

أول قرى الواحة، وتسمى عين الديسه (Ayné-Diseh)، ننزل مدة ساعة. ونعتقد أن مستوى الواحة تحت منسوب النيل. وطول الواحة الكبيرة 50 فرسخًا، وهي عبارة عن مجموعة من عدد كبير من الواحات الصغيرة. وتوجد حدائق مروية وغابات من النخيل، وثماني أو تسع قرى، وقصر به حامية صغيرة. وهي تشكل أحد أقاليم مصر القديمة. وفي القرن الخامس كان فيها عدد كبير من الكهنة. وفي القرن العاشر كان لها حكام مخصوصون، ويتولى الحكم فيها أحد الشيوخ، وتحت إمرته عدة آلاف من الفرسان. وفي الواحة الكبيرة نجد الأرز والقمح والعلف، وفيها تتناول قوافل دارفور المرطبات.

وتقع الواحة الصغيرة شمال غرب الواحة الكبيرة، وتقع على مستوى ارتفاع الفيوم على بعد خمسة أيام من هذا الإقليم، وسبعة أيام من واحة آمون. وفي القرن السابع استقرت بها الكتيبة الثانية من أرمينيا. ويوجد بها عدد كبير من النخيل، فتنتشر تجارة البلح والأرز والخوص بشكل واسع، كما يوجد العشب والقش. والواحة الصغيرة أكثر امتدادًا من الكبيرة، وهي في نفس المستوى، وتلتقيان لتشكلا واديًا يؤدي إلى البهنسا (Behnesé).

ويطلق اسم سيوه على الواحة الثالثة، وهناك يوجد معبد جوبيتر - آمون، وهي في شمال غرب الواحة الصغيرة، وتبعد اثني عشر يومًا عن القاهرة، وستة أيام عن الباريتون، و12 يومًا عن الإسكندرية، و14 يومًا من ديرنه (Derne) على شاطئ البحر، وأربعين يومًا من مملكة فزان، وبها خمسون فرسخًا من الأبراج والأنقاض. وقد كان اليونانيون الذين يذهبون لاستشارة الإله جوبيتر- آمون ينزلون في الباريتون، ومنها لا يتبقى سوى اثنين وسبعين فرسخًا، وبعبورها يصلون إلى المعبد. وعدد سكان هذه الواحة ما بين عشرة آلاف إلى اثني عشر ألف نسمة. وهي ليست عربية، ويحكمها مجلس مكون من اثني عشر شيخًا. ويوجد في البلدة القمح والشعير والقش والزيتون، والأرز والبلح والتفاح والخوخ، والبلح فيها ممتاز. وفيها مياه غزيرة وجارية. وكانت الواحة تشكل أحد أقاليم مصر القديمة. والباريتون، واسمها بارويتونيوم (Paroetonium)، كانت مدينة كبيرة أقام فيها أنطونيو بعد معركة أكتيوم، وكان يأمل في أن يلحق به إلى هناك أربع فرق كانت معه في السيرانياك (Cyrénaïque).

وقد عرفت الواحات الثلاثة بعض الرخاء، وهي اليوم في حالة بؤس، ولا تستخدم إلا للقوافل، أو ملاذًا للمنبوذين والمنفيين. ومنذ عام 1798، وحتى عام 1799، كانت هي غاية الفائدة لمراد بك والألفي بك والمماليك في مصائبهم. ويرجع انحطاط هذه الواحات إلى تدفق البرابرة من داخل إفريقيا، ويحفظ التاريخ آثار غزوات هذه الشعوب القادمة من وسط إفريقيا. وقد جددوا اجتياحهم لها مرات عديدة، ودمروا المنازل والزراعات، وقتلوا السكان أو اقتادوهم عبيدًا.

وخلاف هذه الواحات يوجد في الصحاري التابعة لمصر عدد كبير أصغر منها، حيثما نجد واحة في أي مكان يوجد فيه بئر ماء، عذبًا كان أم أجاجًا، حيث ينمو بعض النخيل. ويمكن بذر بعض حبوب الشعير. وسوف نعود للحديث عنها عندما نصف الصحاري التي توجد بها.

خامسًا: نجد الماء والعشب والأشجار في صحاري أمريكا، ونجد الماء والعشب في صحاري بلاد التتار، ولا نجد ماء ولا عشبًا ولا شجرًا في صحراء أفريقيا والجزيرة العربية، فإنَّ تلك الصحاري قاحلة جرداء. وصحاري مصر لا يفصلها أي خط طبيعي عن صحاري الجزيرة العربية والنوبة وليبيا، فهي جزء من الصحاري الموجودة في حدود مصر، والتي تملكها بعض القبائل التي تعيش على فيضان النيل. ومساحتها بين أربعين ألف إلى اثنين وأربعين ألف فرسخ مربعًا، ويبلغ عدد السكان ما بين مئة وخمسين ألفًا إلى مئة وستين ألف نسمة، مما يشكل أربع نسماتٍ على الفرسخ المربع الواحد.

وكان يمكن ألا تصبح صحراء أفريقيا آهلة بالسكان لو لم تكن تتكاثر بها الإبل. والجمل على هيئة الصحراء، كبير ومهزول ومشوه، وهو على ذات المنوال صبور، غير أنه ذو طابع وحشي وشرير حينما يُستثار غيظه. ويتغذى الجمل بنبات الإفسنتين (Absinthe) والنباتات الشوكية، ويكفيه نصف كيلو من هذا الغذاء اليومي، أو نفس القدر من الفول والشعير ونوى البلح، ونصف لتر من الماء. ويبقى الجمل ثلاثة أو خمسة أيام دون أن يشرب، وأحيانا ستة أو سبعة أيام. وعلى هذه الحال فإنه كان يتألم، ويقضي عدة أيام دون غذاء. ويتغذى العرب من لبنه وجبنه ولحمه، ويصنعون ملابسهم وخيامهم من شعره وجلده. والجمل دابة لا تستخدم في الجر، ويحمل الجمل قدر ما تحمله أحصنة ثلاثة، فهو سفينة الصحراء بما يحمل بخطواته الطبيعية، ليقطع 1850 قامة في الساعة. ويمشي الجمل ثمانية عشر ساعة، ويستريح ساعة واحدة. وإذا لزم الأمر يقطع ستة عشر فرسخًا في اليوم في [درجة حرارة] 25 درجة، لكنه يقطع اثني عشر فرسخًا بسهولة. ويقوم العرب بتأجيره للتجارة والزراعة، ويبيع الجمَّال منها إذا كان لديه مما يربيه ما يزيد عن حاجته. لقد خلقت هذه الدابة من أجل الصحراء، وفيها تتكاثر أعدادها وتزداد. ويحصل العربيّ من عائد تشغيل الجمل على القمح والشعير والملابس والأسلحة التي يحتاج إليها. وغالبا ما تمتلك القبيلة ما بين ألف وخمسمئة إلى ألفي شخص، وما بين ستمئة إلى سبعمئة فرس (أنثى الخيل)، وأولاد الأفراس والخيول، وما بين خمسة عشر ألف إلى عشرين ألف جمل كبير أو صغير من الذكور والإناث.

وتمتلك النعامة كل صفات ابن الصحراء، وهي كبيرة غير متناسبة ومجردة من اللحم، ولها في طبيعتها بعض الشبه من الجمل.

والغزالة صغيرة وجميلة ولطيفة ونشطة، ومتسقة ولطيفة في كل أبعادها، ويمكن أن تكون زينة لبساتين إيداليا (Idalie)، فكل ما فيها يتناقض مع الصحراء، ومع ذلك فهي تتواءم وتتكاثر فيها.

وهناك ست صحارٍ تابعة لمصر، ثلاثة كانت جزءًا من ليبيا، وواحدة [جزءًا] من النوبة، واثنتان كجزء من

الجزيرة العربية، أي صحراء البحيرة تمتد من الإسكندرية إلى الباريتون وإلى واحة آمون، ومساحتها عدة آلاف من الفراسخ المربعة. ويوجد فيها عدة واحات صغيرة. وبحيرة النطرون وبحيرة مريوط هما البحيرتان الرئيستان. وقد غطى الفيضان بحيرة مريوط وبحيرة النطرون وأخصبهما بالطمي المفيد. وفي القرن الخامس كان عدة آلاف من الرهبان يسكنون هذه الواحات. وفي بحيرة النطرون أربعة أديرة يونانية كانت عبارة عن أربع قلاع صغيرة يسكنها من سبعين إلى ثمانين راهبًا كانوا متعصبين وجهلة. وتقع مريوط على شاطئ بحيرة مريوط. كل هذه الواحة مغطى بأنقاض تشير إلى كثرة عدد السكان الذين عاشوا فيها في الماضي. ويقيم في هذه الصحراء سبع قبائل من العرب تشكل سكانًا بين خمسة عشر ألفًا إلى عشرين ألف نسمة، يمكنهم ركوب ألفين وخمسمئة حصان؛ وهم قبائل: (1) الهنادي، وهم بدو جوالون وأشرار، و(2) الجوماط، و(3) التروات، و(4) أولاد علي، و(5) الجوابي – المرابط، و(6) السمعالو- المرابط، و(7) بني عونوس. وتنتقل هذه القبائل عبر الصحراء من الإسكندرية إلى القاهرة والفيوم ومصر العليا وواحة آمون، فينقلون ملح النطرون إلى طرانه (Terrâneh)، ويبيعون في الدلتا نبات السمَّار (الخيزران) والبوص الموجود في وديان الصحراء على بعد أربعة أو خمسة أيام من النيل.

وتحيط صحراء الواحة الصغيرة بأهرامات الجيزة والفيوم والواحة الصغيرة وقناة يوسف. ويسكن الصحراء خمسة عشر أو عشرون قبيلة؛ وهي: (1) الفرجان، وهم من البدو، (2) والطراونة، (3) والفوايد، (4) وأبو الحر، (5) والبدرمان، (6) وجهميه، (7) ومحارب (8) وجبار، (9) وغزاية، (10) ودارعبسة و(11) الشوادي، و(12) الطاحوي، (13) أبو كرايم، (14) ابن وافي، (15) العطايات، الخ. ويصل عدد سكان هذه القبائل ما بين خمسة وعشرين ألف إلى ثلاثين ألف نسمة، وتعتمد وسائل معيشة هذه القبائل على الزراعة وإنتاج الواحة الصغيرة، ونقل البلح إلى القاهرة، ونقل السمار، والرحلات إلى مصر العليا، وأحيانا حتى بلدة الفزان.

وتبدأ الصحراء الثالثة، وهي الواحة الكبيرة، عند مستوى ارتفاع أسوان، وتشمل الجزء من ليبيا الواقع بين النيل والواحة الكبيرة. وعرب هذه الصحراء يزرعون الواحة الكبيرة، فيتزودون منها، وينقلون المنتجات إلى مصر، ويقومون برحلات من الفيوم داخل أجزاء مختلفة من مصر العليا عبر الصحراء. والقبائل الرئيسية هي: (1) طرفيه، (2) وبني واصل، (3) والزهرات، (4) ومحاز، (5) والحويطات، (6) والنفاحات، (7) والهناجر. وتحتل قبيلة بني واصل كل الصحراء المتجهة للضفة اليسرى من النيل أعلى أسوان، والواحة وصحراء سميله (Semela)، حيث تستريح القوافل في رحلاتها إلى دارفور.

وتشكل الصحراء الرابعة - أو صحراء طيبة - جزءًا من النوبة، وتمتد على الضفة اليمنى للنهر من شبه جزيرة قفط (Coptos) إلى البحر الأحمر، ومن القصير إلى قنش (Qench). ويوجد في هذه الصحراء عدد كبير من المضايق، وعدد كبير من الواحات التي توصل النيل بالبحر الأحمر. والعبابدة قبيلة كبيرة العدد، تمتلك عددًا قليلاً من الخيل، لكنها تمتلك الكثير من الجمال، ولا تقوم فحسب بالنقل من القصير إلى قنا، لكنها ترسل القوافل أيضًا حتى سنار، وفي هذه الصحراوات يتجول البشاريون.

وتقع الواحة [الصحراء] الخامسة، وهي صحراء الرهبان، بين النيل والبحر الأحمر، ويحدها من الشمال وادي التيه، ونقابل فيها واحات كثيرة نجد فيها صهاريج وأنقاض أديرة للرهبان، ومدارس راهبات، ونجد أيضًا مدنًا، وسهل البقرة، وسهل القطة، وسهل العربة، وكان يسكنها الرهبان. ونجد أنقاض أديرة سان أنطوان، وسان بول، وسان كليمك. وقبائل الأنطوني، والعزيزي، وهي قبائل عربية تتجول فيها بدون هدف.

والصحراء السادسة هي صحراء برزخ السويس، وهي جزء من الجزيرة العربية، وتمتد من القاهرة إلى السويس، ومن السويس إلى منتصف طريق جبل سيناء، ومن القدس وغزة. ونجد فيها واحة طملات، وواحة سبع لبيار، وواحتي قطية والعريش.

وقد غمر فيضان النيل واحة سبع بيار وواحة طملات ، وهناك كانت عاصمة الملوك الرعاة، وهي بلد جيسن (Gessen) حيث أقام يعقوب وعائلته. وفي عام 1800 غطى فيضان النيل هذه الواحة حتى البحيرات المرة. وتوجد أنقاض مدن كبيرة وعشب وماء وأخشاب، ويزرع العرب فيها قليلاً من الشعير. وبالإضافة إلى منتجات هذه الواحة، يعمل عرب هذه الصحراء في النقل من القاهرة إلى السويس، وهذه التجارة - التي تمثل ما بين 35 إلى 40 مليون ذهاب وعودة- تجلب رزقًا كثيرًا للقبائل التي توفر المرشدين وتؤجر الجمال للنقل. ويقوم عرب هذه الصحراء أيضًا بتزويد قوافل القدس ودمشق وغزة وأحيانا مكة وبغداد، مع أن قوافل القدس ودمشق وغزة قليلة العدد، لكن يكاد عبورها أن يكون يوميًا. والقبائل الرئيسية هي: (1) بلي، (2) طرابين، (3) طرابين الصغرى، (4) أوعيدات، (5) حاويات، (6) طملات، (7) العطايات، (8) العايدي، (9) طه، (10) الهناجر، (11) النفاحات، (12) قبائل عرب طور الثلاث.

وقد كان العرب في مصر مزارعين وبدوًا ومرابطين (أولياء مسلمين). ويسكن المزارع في الضيعة التي يحصل عليها أو يشتراها، لكنه يحفظ لها دائمًا ملامحها البدائية؛ فلا نرى فيها مسجدًا ولا منزلاً مميزًا، وإنما ليس إلا أكواخًا متشابهة دون أشجار. وكل شيء فيها يشف عن الصحراء وعقلية البدو الصلبة. والرجال فيها محاربون يرعون الخيول، ومتمردون يتحملون نير السلطة بفارغ الصبر، ويسددون الجزية بالكاد. وأحيانًا ما كانوا يعتدون على العرب البدو، ويعتقدون أنهم من جنس أرقى من الفلاحين الآخرين، وغالبًا ما كانوا يضايقونهم، ومع ذلك هم مهرة ونشطاء. ولا يقيم المماليك أبدًا بينهم. ويرى العرب، سواء المزارعون أو البدو، أن الفلاحين رعاياهم، وأن المماليك والأتراك مغتصبون.

والعرب المرابطون لا يتسلحون، ولا يملكون الخيل، وعليهم استضافة البدو وتوفير احتياجاتهم.

وأغلب أو معظم القبائل الرُحل أو البدو مزارعون، لكنهم يقيمون دائمًا في الخيام، فلا يسكنون المنازل ولا الأكواخ أبدًا، ويغيرون باستمرار أماكن إقامتهم، ويجوبون الصحراء التي يمتلكونها لرعاية جمالهم، ويستفيدون من مياه الأبار. والعرب البدو هم بلية مصر الكبرى، ولا ينبغي أن نستنتج من ذلك أن علينا القضاء عليهم، بل

على العكس ليس غِنى عنهم، فبدونهم لا يستطيع هذا البلد الجميل إقامة أية اتصالات مع سوريا والجزيرة العربية والواحات وممالك سنار ودارفور والحبشة وطرابلس ومملكة فزان. وبدونهم سيكون من المستحيل النقل من النيل إلى البحر الأحمر، ومن قنا إلى القصير، ومن القاهرة إلى السويس، فإنَّ نتيجة ذلك خسارة فادحة قد تتحملها البلاد. ويحتفظ البدو بكميات كبيرة من الجمال والخيول والحمير والغنم والبقر وغيرها، وهي التي تدخل في ميزان ثروة مصر. وسوف يضيع النطرون والسيني والصمغ والبوص والخيزران إذا ظلت عدة أيام في الصحراء فيكون من الممكن تدميرها. بل لقد تصل قبائل كثيرة من داخل إفريقيا والجزيرة العربية للاستيلاء على بلادهم التي يطمع فيها كل القبائل الرُحل. فعندما يرتفع النيل وتصل الفيضانات الغزيرة، مثل عام 1800، وينتشر الخبر شيئًا فشيئًا حتى وسط إفريقيا، تأتي قبائل كثيرة على بعد خمسمئة فرسخ ليعسكروا على مدى عدة أشهر عند هذا الجزء من الصحراء الذي غمرته المياه بشكل غير عادي، ليزرعوا ويقيموا فيها. وتعترض قبائل العرب في مصر على حضور هؤلاء الغرباء ليعيشوا في ضياعهم، وغالبًا ما تنشب المعارك فترد المقاومة قبائل الصحراء الكبرى. والقضاء على البدو يعني بالنسبة للجزيرة تدمير كل السفن التي يستخدم القراصنة منها عددًا كبيرًا للسباق. وعندما تكون حكومة مصر حازمة وعادلة، فإن العرب يمتثلون، وتضطر كل قبيلة لأن تكون مسئولة عن الصحراء وجزء الحدود المتاخمة لها، وتقضي سيادة العدالة على التجاوزات، وتضمن تلك القبائل، كالتوابع الصغيرة، الهدوء في البلاد بدلاً من البلبلة.

ويضمن استسلام العرب ازدهار مصر، وهو شرط أوليّ لا غنى عنه لكل إصلاح. وللسيطرة على العرب يجب: (1) الاستيلاء على الواحات والآبار، (2) تنظيم أفواج الجمال وتدريبها على الإقامة في الصحراء على امتداد أشهر كاملة وعدم دخول الوادي، (3) تشكيل قضاء ناجع ومحكمة لمحاكمتهم، ومراقبة وعقاب القبائل الرُحل. وقد تم وضع مبادئ هذا النظام عام 1799؛ فتم اعتماد في بادئ الأمر نموذجين من الأبراج؛ النموذج الأول ارتفاعه 24 قدمًا من طابقين، وعلى المنصة توضع قطعتان من المدافع، [وبه] سكن لحامية من أربعين رجلاً، وخندق ومقدمة للخندق، وطريق مغطى وميدان سلاح، ومقدمة حفرة لها سور ذو شرفات يشكل سياجًا طوله 200 قامة (400 متر)، تسلط عليه من الجانب شظايا البرج. ويضم مخزن الذخيرة حامية لمدة مئة يوم، ومخزنًا احتياطيًا لفوج من الإبل لمدة عشرة أيام. ويوجد في أحد ساحات العرض العسكري آبار جيدة البناء تحظى بعناية كبيرة، وصهاريج لتخزين مياه الأمطار. أما برج الطراز الثاني فارتفاعه 15 قدمًا، وهو ذو طابق واحد، وعلى المنصة قطعتان من المدافع، وحامية من خمسة عشر رجلاً، وطعام لغذاء خمسة عشر رجلاً لمدة مئة يوم، ومخزن احتياطي لفرقة من الإبل لعشرة أيام، وبئر أو عدة آبار، وصهريج، ومقدمة حفرة طولها 100 قامة (200 مترًا) من الجانب. وفي عامي 1800 و1801، كان لا بد من بناء عشرين برجًا من الطراز الأول، وأربعين برجًا من الطراز الثاني، أي: ثمانية في صحراء البحيرة، وثمانية في صحراء الواحة الصغيرة، وبرج

واحد عند سفح الأهرام، وبرج واحد في الفيوم، وبناء برجين في الواحة ذاتها، وعشرة أبراج في صحراء الواحة الكبيرة، وخمسة في ذات الواحة، وخمسة في الآبار على طريق إسنا وأسيوط، وثمانية أبراج في الصحراء الرابعة والخامسة وعلى طرق القصير الخمسة، واثني عشر برجًا في صحراء السويس، علاوة على حصون السويس والعريش وطينة (Tyneh). وكانت هذه الأبراج تشرف على اثني عشر بئرًا، منها: قطية (Qatych)، والمنصورة، وزواي (Zâouy)، ورفح (Reyfah)، وواحة طملات ، وواحة السبع بيار، وغيرها. وقد كان لا بد من أن تتكون حامية هذه الأبراج كما يلي: تتكون الأبراج الصغيرة من رئيس مدفعية برتبة رقيب، وتسعة جنود مدفعية، وعشرة رجال. وبالنسبة لأبراج النموذج الأول فتتكون من رئيس مدفعية برتبة رقيب، وعريف، وثلاثة عشر مدفعيًا، وخمسة عشر رجلاً، ومجموع سبعمئة جندي مدفعية. وكان يجب على قوافل الإبل توفير خمسة رجال لكل برج صغير، وخمسة وعشرين رجلاً لكل برج كبير. وتستخدم هذه الأبراج كمركز ونقطة حماية لعدد من القرى التي تكون تحت المدفع وداخل السور في مأمن من إساءة البدو. وهكذا كان الفلاحون - في ظل هذه الحماية - يستطيعون الزراعة واستضافة وتموين القوافل عند عبورها والتجارة معها.

وقد تم اتخاذ قرار بتشكيل ست كتائب من الجمال (وحيدة السنام)؛ ولكل صحراء كتيبة تقوم الأقاليم المجاورة بتغذيتها وسداد أجورها، وكل كتيبة [تتكون] من تسعمئة رجل، وسبعمئة وخمسين جملاً، ومائتين وخمسين حصانًا تحمل مئونة لمدة خمسين يومًا. ويحمل كل جمل أربعة قناطير، ويحمل كل حصان قنطارين:

750 جمل	3000	
250 حصان	500	3500 قنطارًا
وزن كل رجل 180 رطل وزن 900 رجل	1620	
غذاء 50 يومًا 900 رجل رطل يوميًا	450	
غذاء 250 حصان لمدة 25 يومًا 10 أرطال يوميًا	625	
غذاء 750 جمل لمدة 25 يومًا رطلان في اليوم	375	3340 قنطارًا
ماء 900 رجل لمدة 5 أيام 4 أرطال يوميًا	180	
ماء 250 حصان لمدة 3 أيام 12 رطلا يوميًا أي	90	

ويتسلح كل جندي برمح وبندقية وحربة، ويحمل جعبة ومئة خرطوش وحقيبة. ويقود كل كتيبة عقيد [برتبة] بك، وكيا [برتبة] رائد، واثنان من المساعدين، وأربعة نقباء [برتبة] كاشف، وأربعة بدرجة ملازم أول، وأربعة بدرجة ملازم، مما يشكل ثلاثة ضباط لكل كتيبة، وطبال، واثنين من النافخين في البوق، ومائتين وخمسة وعشرين رجلاً. ولكل كتيبة قطعتان من المدافع تجرها ستة جمال. وكان لا بد - إذن- من خمسة آلاف وأربعمئة رجل لاحتواء الصحراء، أو إنفاق أربعة ملايين. وهذا لا يتعدى عُشر ما تتحمله البلاد من اعتداءات البدو. وكان يقود الفرق الستة فضيلة شيخ الصحاري (قائدًا عامًا)، واثنان من الكيا (Kiâyas)، وقائدا ألوية généraux de (brigade)، وستة بكوات (برتبة عقيد colonels)، وأربعة وعشرون كاشفًا (ملازم- عقيد Lieutenants-colonels)، وكاشف مدفعية، وكاشف هندسة.

وإلى جانب فضيلة شيخ الصحاري، ديوان مكون من كيا (Kiâya)، وأربعة علماء، وكاتب عليه الحكم في دعاوي العرب القضائية مع الفلاحين وبين القبائل.

وتم تجنيد لواء من الجنود الفرنسيين يمتطون ألفًا وخمسمئة جمل، وكانت الأوامر [كالتالي]:

(1) تتعهد قبائل العرب الرُحل في الصحاري الست بأن تؤدي اليمين بواسطة شيخهم وستة من الوجهاء بين يدي فضيلة شيخ الصحاري.

(2) تتلقى منهم القبائل قرار تخصيص يحدد امتداد الصحراء التي تخصهم، ويحدد عدد الفرسان وعدد الجمال التي يجب عليهم تقديمها لسلطان مصر.

وقد قام بتبليغ القرار - الذي تم إعداده عن هذه الوحدات - خمسة آلاف فارس على ظهور الجياد، وألفا [رجل] على ظهور الجمال ذوات السنام، وسبعمئة [رجل على ظهور] الجمال ذوات السنامين، وسائق لثلاثة جمال ذوات سنامين.

(3) عند وفاة الشيخ يحل محله خلفه ولي العهد، ولكن في غضون ثلاثة أشهر يذهب للقاء فضيلة الشيخ ليؤدي اليمين ويتسلم القرار ويرتدي عباءة الشرف.

(4) يبقى في القاهرة شخص من القبائل العشر الرئيسية مع عائلته ليكون كفيلاً ويراسل ديوان الصحراء. وسوف يربى ستة أطفال عمرهم من عشرة إلى ثمانية عشر سنة في مسجد الأزهر على مبادئ القرآن، ويتعلمون كتابة اللغتين العربية والفرنسية والحساب.

(5) يقوم فضيلة شيخ الصحاري بحماية القبيلة التي تتعرض بلدها لغزو قبائل الصحراء الكبرى. وسوف يتولى الديوان التحكيم في أية منازعة بين قبيلتين، ويسلم قرار الحكم إلى نائب القبائل ليوصلها إلى رئيسه، بك الصحراء، للعمل على تنفيذه.

(6) يقوم الديوان بالحكم في كل المنازعات بين القبائل والفلاحين. ويسأل عرب القبائل عن كل إساءة إلى المصريين في الصحراء. وتعتبر كل إساءة صادرة من عربي على الحدود مسئولية القبيلة.

(7) القبيلة مسئولة عن حراسة قوافل المسافرين على امتداد كل الصحراء، وعن توفير الجمال، ويقوم الديوان بالحكم في كل خلاف.

(8) بعد مداولات الديوان يتم الحكم (من قبل الشيخ الكبير) على القبيلة بسداد غرامة من الخيول والجمال والبقر والغنم حسب القيمة عن القتلى أو الجرحى. وتتحمل القبيلة الضرر الذي يتعرض له الفلاحون، بالإضافة إلى دفع غرامة عن التعويضات والخسائر.

(9) في حالة قتل أو جرح أحد العلماء، ملتزمًا كان، أو إمامًا، أو شيخ بلد، أو أوروبيًا، فعلى القبيلة أن تقوم بتسليم الجاني إلى الديوان، أو بديلاً عنه فردًا من خمسين من شخصيات البلدة في القبيلة، وسوف يحاكم أمام الديوان ويصدر عليه الحكم بالموت أو الجلد أو السجن حسب طبيعة الجريمة المسئول عنها المتهم من القبيلة.

(10) وعند عصيان القبيلة تفقد الثقة فيها. ويقدم هذا التصريح إلى مندوبها الذي يخطر رئيسه بذلك، وعليها بعد شهر أن تسلم اثني عشر من شيوخها ضمانًا لولائها. وإذا كان الإعلان عن تمردها، فيتم إرسال هذا الحكم إلى كل البكوات، وأخيرًا إلى جميع الأبراج، فتُحرم من الماء والمرعى، وتلاحقها صفوف من الجمال للقضاء عليها، وتؤول الصحراء التي كانت فيها إلى قبيلة أخرى.

(11) لا يجوز أن يمتلك العرب مدافع، أو بنادق بحراب، أو بنادق واقية، أو إقامة تحصينات، وكذلك لا يجوز عمل فتحات في المغارات ولا في المنازل.

(12) كل عام يقوم الشيخ الكبير - أو يكلف أعوانه - بزيارة الصحاري المختلفة. ويتم تزويد الأبراج والحصون الأخرى بواسطة قوافل منتظمة وتحت رعاية الشيخ الكبير وبكوات الصحاري. ويرافق فوج من الجمال قوافل الحجاج والتجارة منذ دخولها في صحاري مصر، على أن تسدد رسوم المرافقة وفقًا للتعريفة.

سادسًا: وضع البحر المتوسط حدًا لمصر شمالاً من الباريتون حتى ريفه. وإن إقامة مستوطنة في الباريتون كانت لشيء هام؛ فقد كان يجب في البداية بناء حصن ليكون مستودعًا لتجارة واحة آمون مع الإسكندرية. ونجد الماء والمرعى على مدى الأيام من الباريتون حتى الإسكندرية. كان كل ساحل أفريقيا حتى طرابلس صحراء، وفيما مضى كان حافلاً بالمدن والقرى.

ومن الإسكندرية حتى رشيد ساحل طوله أربعة عشر فرسخًا. ومرسى أبو قير لا يُحتمل في الشتاء، ولكن يمكن أن يكون ملجأ لسرب من السفن الحربية في أثناء الصيف. ويوجد في مرفأ أبو قير مصب بحيرة معدية عرضه 200 متر (100 قامة)، وهذه البحيرة موجودة منذ ستين عامًا. ومن المهم غلق المصب واستعادة الأرض الصالحة للزراعة. وعلى بعد أربعة أميال من البر نجد مصبًا للنيل يطلق عليه بوغاز رشيد، وهو الأكثر خطورة

في النيل، فغالبًا ما كانت تحدث حوادث هناك، فلا يوجد سوى أربعة أو خمسة أقدام من العمق في الماء في أثناء المياه المنخفضة، وخمسة أو ستة أقدام عند ارتفاع المياه، إلا أنَّ السفن تجد الماء حين تدخل النيل. وعلى بعد أربعة عشر فرسخًا من بوغاز رشيد يوجد مصب بحيرة البرلس، وارتفاعه ثمانية أو تسعة أقدام من الماء. وهناك فيما مضى كان مصب فرع النيل الرئيسي. وتبقى الزوارق في أمان في البحيرة ما لم تغص لأكثر من أربعة أو خمسة أقدام في الماء. ومن مصب البرلس حتى بوغاز دمياط عشرون فرسخًا، وهو أقل خطرًا مقارنة ببوغاز رشيد، حيث توجد ستة أو سبعة أقدام من الماء في المياه المنخفضة، وثمانية أو تسعة أقدام في المياه المرتفعة. وتستخدم سفن أكبر من سفن رشيد للملاحة من دمياط إلى القاهرة، ويبعد مرفأ دمياط فرسخين عن رأس البغافه (Boghâfeh) شرقًا، وهو ليس آمنا، وغالبًا ما تضطر السفن بسبب الرياح للاندفاع خارج المرسى واللجوء إلى قبرص. وبعد تخطي البوغاز يكون النيل شديد العمق. [والمسافة] من بوغاز دمياط حتى مصب ديبه (Dybeh) ستة فراسخ. ومن ديبة حتى أم فراج عشرة فراسخ، ومن أم فراج حتى مصب الفرما (بيلوز) أربعة فراسخ، ومن الفرما حتى جبل رأس القصرون (Casius) اثنا عشر فرسخًا (رأس القصرون معناه باللغة العبرية "نهاية، طرف، حد"، واليوم يطلق عليه رأس القصرون) والمسافة من رأس القصرون إلى رفح خمسة وعشرون فرسخًا. وكانت رفح مدينة كبيرة مثل العريش وقاطية.

ولم تعد البوغاز مانعًا، وتسمح الحدود الثلاث لمصبات بحيرة المنزلة بدخول سفن بعمق خمسة أقدام، لكن بحيرة المنزلة عمقها ثلاثة أقدام في المعتاد. وقد اعتادت الزوارق التي تعمل في التجارة مع سوريا على اللجوء داخل حد الفرما في حالة سوء الأحوال الجوية.

وتضم مدن الإسكندرية ورشيد ودمياط وقرية البرلس والقرى الواقعة داخل وحول بحيرة المنزلة بحارة من عشرات الآلاف من السكان، على أنَّ كل مصر سكان ملاحون.

ولم تكن عملية الإنزال ممكنة فعليًا إلى البر على امتداد ساحل طوله مئة وسبعون فرسخًا، إلا في الإسكندرية، أو أبي قير، أو بحيرة البرلس، أو دمياط، أو بحيرة المنزلة. وتعتبر الإسكندرية هي المرسى الوحيد الآمن لحماية سرب في مواجهة الرياح الشمالية الغربية، وفي مواجهة هجمات قوات متفوقة.

وتقع الإسكندرية على خط عرض "5 '13 °30 شمالاً، وعلى خط طول " 30 ' 35 °27، وتبعد مئة وتسعين فرسخا من أسوان. والخط المباشر الذي يربط بين الموقعين يعبر الفيوم والواحة الصغيرة.

والمسافة من مقياس القاهرة إلى الإسكندرية واحد وأربعون فرسخًا على خط مستقيم مرورًا ببحيرة النطرون، وواحد وخمسون فرسخًا باتباع مسار الضفة اليسرى لنهر النيل حتى الرحمانية، ومنها إلى مياه ترعة الرحمانية. ومنها عن طريق دمنهور ستة وستون فرسخًا باتباع مياه النيل حتى الرحمانية، ومنها إلى ترعة الرحمانية. وليس هناك مرسى (مُكلا) مكشوف في الإسكندرية، ويحل محله مرسى أبو قير على بعد أحد عشر

ألف قامة (22000 متر)، ولكن لها مرسى داخليًا واسع الأرجاء، وله كل مميزات الميناء، ويمكن أن يستوعب أسرابًا عديدة، ويمتد من الفنار حتى المرابط، وقطره ستة فراسخ، وقوسه ثلاثة فراسخ. ويمتد على طول هذا الوتر رصيف من الصخور على وجه الماء، حيث لا يوجد إلا ثلاث ممرات عرضها قليل ولكن تسمح بدخول السفن الحربية من جميع الأحجام. وداخل المرسى مأمن من الرياح وهجوم أسراب الأعداء. ولكن بصرف النظر عن مدفعيات الساحل فيمكن أن تدافع عنها بما يكفي سفينة واحدة راسية قرب الممرات. ويسمى المرفأ بالميناء القديم، والميناء الجديد يقع شرق المدينة. ويفصله عن الميناء القديم خليج يربط شبه جزيرة الفنار بالقارة (البر الرئيسي). وإنَّ بناء رصيف (كاسر للأمواج) داخل البحر عند ممر الميناء القديم الرئيسي لم يكن يعد منشأةً غير عادية وغير مناسبة، وذلك بالنظر إلى فائدته ليسهل الدخول إليه، ومن أجل وضع بطاريات تقابل نيرانها حصن المرابط وقلعة الفنار، وليكون أيضًا فاصلاً عند الخليج ليفصل الميناء القديم عن الميناء الجديد من أجل إقامة اتصال بين الميناءين، وهو ما يجعل الخروج ممكنًا مهما كانت الرياح. ويعتبر ميناء الإسكندرية الوحيد الذي يصلح لإقامة منشأة بحرية على امتداد أربعمئة وخمسمئة فرسخ بطول سواحل إفريقيا وسوريا.

لقد وجُدت هذه المدينة منذ الأزل باسم [Medinah-Kharib] (مدينة الخرائب). وفي الواقع كيف لنا أن ندرك [ما كان] - منذ زمن سيزوستريس (سنوسرت) والفراعنة، وحتى أربعة قرون قبل العصر المسيحي- من تجاهل المصريين للميناء الوحيد الذي كان قائمًا على سواحلهم، ولم يستفيدوا منه. ولقد أعاد الإسكندر الأكبر بناءها، وفي عهد البطالمة الذين جاءوا من بعده وصلت المدينة إلى أعلى درجة من الرخاء، وكان عدد سكانها مليون نسمة. وكانت الإسكندرية في عهد الامبراطورية الرومانية ثاني مدن العالم من حيث عدد السكان، وتجارتها ومدارسها، والعلوم والفنون. وفي سنوات الهجرة الأولى استولى عليها عمرو [بن العاص] بعد حصار دام أربعة عشر شهرًا، وكتب إلى الخليفة عمر [بن الخطاب] أن طول السور 12000 قامة (24000 مترا)، وبها أربعة آلاف قصر، وأربعة آلاف حمام، وأربعة آلاف مسرح، واثني عشر حانوتًا، وخمسين ألف يهودي. وفي أثناء الحرب التي استمرت لفترة طويلة بين الامبراطورية الرومانية القسطنطينية والعرب، تم الاستيلاء على الإسكندرية عدة مرات. ولقد عانت الكثير عام 875، ودمرت جدرانها، وأقام العرب على أنقاضها سورًا آخر من 3000 قامة (6000 متر)، وما زال موجودًا ويسمى سور العرب. ولقد عرفت هذه المدينة الجديدة قدرًا كبيرًا من الازدهار، وتم تدميرها مثل المدينة الأولى، وبنيت المدينة الحالية على تربة من الغرين لتشكل الخليج الذي يربط شبه جزيرة الفنار بالقارة (بالبر).

وعلى موقع مدينة العرب القديمة تجد مسلة كليوباترا، وثلاثمئة من الصهاريج لاستقبال مياه النيل التي تستطيع إشباع سكان المدينة مدة ثمانية عشر شهرًا. وكان في وسط المدينة العمود المعروف باسم "بومبي" والذي أمرت بتشييده، ويقع عند 300 قامة خارج أسوار مدينة العرب. والعمود ارتفاعه ثمانية وثمانون قدمًا

وست بوصات، وأسفل قطره ثمانية أقدام وبوصتان وخطان. ومن أعلى سبعة أقدام وبوصتان وثماني خطوط، وارتفاع القاعدة عشرة أقدام، والقاعدة خمسة أقدام وست بوصات وثلاث خطوط، والتاج تسعة أقدام وعشر بوصات وستة خطوط. والعمود من جرانيت طيبة، وطرازه كورنثي.

ولا تزال الإسكندرية مدينة تجارية ذات أهمية، وتضم أسواقًا عديدة جميلة، وبها الكثير من المساجد الرائعة.

وكانت بحيرة مريوط قديمًا تغطي الجانب الجنوبي من الإسكندرية، وطول البحيرة خمسة عشر فرسخًا، وعرضها حوالي فرسخين، وعمق الماء بها ما بين أربعة وخمسة أقدام. وقد كانت القرى ومنازل الريف الجميلة تغطي جزرها وشواطئها، فمياهها عذبة، ولم تكن تتصل بالبحر إلا بواسطة قناة صغيرة طولها 300 قامة (600 متر) تستخدم للعبور إلى الميناء القديم. وفي عام 1798 كانت البحيرة قد جفت منذ عدة قرون، وتم التعرف على موقعها عن طريق المياه الضحلة ورطوبة التربة. وفي عام 1801 قطع الإنجليز جسر بحيرة المعدية، وأعادوا تشكيل البحيرة، وغمرت مياه البحر الموقع القديم في خلال شهرين، ووصلت المياه حتى برج العرب لدرجة أن الإسكندرية وأبو قير قد شكّلتا شبه جزيرة طولها 36000 قامة (72000 متر). ومنذ ذلك الحين جاء من القسطنطينية مهندس عام 1803، وتوصل - بعد أعمال هائلة ومصاريف ضخمة - إلى إعادة إقامة جسر بحيرة المعدية. وفي أشهر قليلة جفت بحيرة مريوط، وتركت قدمًا من الملح على الأرض. وفي عام 1807 قطع الإنجليز هذا السد من جديد، وأعادوا تشكيل البحيرة.

وقناة مصر العليا، والتي تنساب عند سفح السلسلة الليبية، تصب ماء النيل في بحيرة مريوط، ونرى آثار قناة ري تـأخذ المياه قرب العلقم (A'lqâm)، وتروي إقليم مريوط أحيانًا. وقد كانت ترعة ملاحة الإسكندرية تتلقى ماء النيل على بعد أربعة فراسخ من كانوب، وكانت صالحة للملاحة طوال العام. وتغطي الحدائق ومنازل الريف الساحل، لكن فرع رشيد أضعف وجفف فرع كانوب. وكان لا بد من تحديد بدء مياه تلك القناة عند مستوى الرحمانية تقريبًا. وقد ردمت هذه القناة وامتلأت بالوحل لدرجة أن ماء النيل لم يكن يدخلها إلا في وقت ارتفاع المياه. وقد تم إصلاحها ثلاث مرات كي تصبح صالحة للملاحة طوال العام؛ فقد أعادها سلطان القاهرة عام 1310، وتم زراعة مئة ألف فدان، وأقيمت منازل جميلة على أرضها. وقد أعاد هذا العمل العظيم الحياة إلى الإسكندرية، وتكلف مليون فرنك. وبعد ستين عامًا، وفي عام 1368، توقف وصول مياه النيل في أثناء انخفاض المياه، ولكن في عام 1423 أصبحت البحيرة من جديد صالحة للملاحة طوال العام.

ويمتد طول القناة الحالية منذ بداية وصول مياه النيل من الرحمانية لأكثر من 50000 قامة، رغم أن المسافة المباشرة من الرحمانية إلى الإسكندرية ليست إلا 38000 قامة. ويبدأ فيضان النيل عند الرحمانية بعد عشرة أيام من إشارة مقياس القاهرة. وينهار سد ترعة الإسكندرية عند الرحمانية عندما يصل فيضان النيل إلى ارتفاع تسعة أقدام. ويبلغ عمق ترعة الإسكندرية ثمانية أقدام وسبع بوصات فوق مياه الرحمانية المنخفضة. وقد انهار السد يوم

27 أغسطس عام 1798، ووصلت المياه إلى مورد السفن في الميناء القديم يوم 27 سبتمبر، واستغرقت ستة وثلاثين يومًا لعبور هذه المسافة. وفي عام 1800 قطع جسر الترعة يوم 10 أغسطس، وفي يوم 22 وصلت المياه إلى مورد سفن الإسكندرية. وفي هذه السنة لم تستغرق المياه سوى اثني عشر يومًا لعبور نفس المسافة؛ فقد كان الفيضان غزيرًا. وفي موسم المياه المنخفضة كان الانحدار من الرحمانية إلى بوغاز رشيد أربعة أقدام، وكانت المسافة من الرحمانية حتى البوغاز 34000 قامة [قامة تساوي 1,80 متر اي 6 أقدام] . وفي عام 1798 ارتفعت مياه النيل اثني عشر قدمًا وثلاث بوصات وسبع خطوط عند الرحمانية، بما يعنى [الارتفاع] ستة عشر قدمًا وثلاث بوصات وتسع خطوط عند المنحدر في أثناء ارتفاع المياه. ولكن المياه ارتفعت قدمين فوق بوغاز رشيد، ولم يكن اختلاف المستوى سوى أربعة عشر قدمًا وثلاث بوصات وتسع خطوط. وكان الانحدار [بمقدار] خمس بوصات لكل ألف قامة. ولم يكن لارتفاع مياه النيل تأثير على مستوى سطح البحر، وكان ميل منحدر قناة الرحمانية في الإسكندرية [بمقدار] خمس بوصات وثلثين لكل ألف قامة.

والملاحة في هذه الترعة قليلة الأهمية لأنها غير قادرة على استقبال الزوارق الصغيرة (djermes) في موسم الارتفاع الشديد لمياه النيل، حيث لا يدخلها سوى ثلاثة أقدام وست بوصات من الماء ولمدة شهر واحد فقط. وعندما يصل ماء النيل إلى الإسكندرية ويملأ كل الخزانات (الصهاريج)، يسمح للسكان من المزارعين على الضفة بالحصول على الماء لإغراق أراضيهم.

وقد تمت دراسة مشروع ترعة صالحة للملاحة طول العام ولكل أنواع المراكب، وتم التمهيد بعناية. واقترح المهندس شابرول تقسيم الترعة إلى ثلاثة مسارات؛ الأول من الرحمانية حتى البركة (Birket)، بمسافة 22500 قامة، ومن هناك يدخل في بحيرة المعدية، مما يعطيه منفذًا واتصالاً بمرسى أبو قير. والمسار الثاني من البركة إلى بحيرة مريوط، بمسافة 12500 قامة، حيث يدخل في البحيرة. والمسار الثالث قناة صناعية لتوصيل المياه عبر بحيرة مريوط بمسافة 6000 قامة. وتعتبر ترعة الإسكندرية أكبر عمل هيدروليكي في مصر من وجهة النظر التجارية، وكذلك من وجهة النظر العسكرية. وقد كان هدف الإدارة أن يمر بالإسكندرية أكبر فروع النيل لإخصاب جميع الأراضي كاملة، والاستفادة بأكبر قدر من ميناء الإسكندرية.

سابعًا: طول البحر الأحمر ستمئة فرسخ، ويتصل بالمحيط الهندي عن طريق باب المندب الذي يبلغ عرضه ما بين ستة وسبعة فراسخ. وتقسمه جزيرة بريم (Perim) إلى ممرين، أحدهما طوله فرسخان، ويوجد به ما بين ستة عشر وعشرين قامة بحرية(*)، والممر الثاني طوله ثلاثة فراسخ. وتحد الجزيرة العربية شرق البحر الأحمر ثلاثين قامة بحرية، وتحدها صحاري أثيوبيا غربًا، ولا يتلقى هذا البحر أي نهر. وتوجد مواني موكا (Moka)

(*) (Brasses= قامة بحرية): قياس بحري يساوي ستة أقدام.

وجدة وينبع (Yanbo) على الساحل العربي، ويستطيع مرسى ينبع احتواء العديد من الأسراب الحربية. ومن جهة مصر: يخدم ميناء مصوع (Massouah) التجارة مع الحبشة. ويبحر حجاج قافلة السودان المتجهة إلى مكة من ميناء سواكن (Saouâkyn)، وميناء القصير يربط الجزيرة العربية بمصر ومرسى ميوس- هورموس (Myos-Hormos) الواقع على بعد ستة وعشرين فرسخًا شمال غرب القصير، حيث كانت الحملات الرومانية تتجه منه إلى بلاد العرب السعيد والهند، وكان يستطيع احتواء الأساطيل الضخمة، وتغطيه ثلاثة جزر، ويصل عمق الماء إلى ثماني قامات بحرية. ويوجد على شاطئ البحر سهل على امتداد فرسخين يمكن تخصيبه. ويحتاج مرسى ميوس-هورموس إلى المياه ويمكن تزويده بها. إن ميناء البحر الأحمر هو الذي يجب أن يحتوي الأسراب المصرية، أما ميناء القصير الصغير فهو غير صالح، ومرسى طور (Thor) سيء أيضًا، ومرسى السويس جيد، ويمكن أن ترسو السفن به عند ست قامات، ويبعد فرسخًا ونصف الفرسخ عن المدينة، فالرسو فيه جيد.

وتعتمد التجارة في هذا البحر على مئات السفن التي يطلق عليها "زعيم" (zeïmes)، و"كرافيل" (وهي سفينة شراعية سريعة من القرنين الخامس عشر والسادس عشر). وسعة "الزعيم" أربعمئة طن، وسعة الكرافيل ألف ومائتا طن. وكان سيزوستريس يمتلك أربعمئة سفينة مسلحة على البحر الأحمر، وكان الملك سليمان (Salomon) يملك على البحر الأحمر أساطيل ضخمة إلى حد ما. وقد كان للبنادقة في عام 1538 - في البحر الأحمر- واحد وأربعون سفينة شراعية (قوادس galères). وفي عام 1783 كان أسطول جدة ثمانية وثلاثين سفينة، سعتها خمسمئة طن، وأربع سفن أو كرافيل على متنها ستون مدفعًا.

وتتغير الرياح من الشمال إلى الغرب في أثناء أربعة أشهر من السنة، من مايو حتى أكتوبر؛ وهو الوقت المناسب للذهاب إلى الهند. وفي هذا الموسم رحلت سفن من السويس فوصلت بعد خمسة عشر يومًا إلى مضيق باب المندب، ووصلت إلى مدراس (Madras) بعد خمسة وخمسين يومًا، حيث تكون الرياح - في أشهر يناير وفبراير ومارس -مواتية للإبحار نحو أعالي البحر الأحمر. ووصلت السفن من الهند إلى السويس بعد ستين يومًا، ووصل البريد الذي غادر مدراس إلى لندن عبر هذا الطريق بعد ثلاثة وثمانين يومًا. وهذا البحر غير معروف كثيرًا، ومع ذلك كان حجم تجارة السويس من الصادرات عشرين مليونًا في عام 1798، ومن الواردات نفس القدر. وكان مورد سفن السويس عند عيون موسى التي تقع على بعد ثلاثة فراسخ من السويس على شط العرب.

وليتجنب الملاحة في البحر الأحمر، فقد شيد بطلميوس ايفرجيت [مدينة] بيرينيس (Bérénice) في موقع لا يوجد فيه ميناء على الساحل، لكنه قريب من خليج قفط (Coptos)، حيث كانت طيبة. وكانت المخازن التي بناها فيه هامة للغاية، وبمجرد أن يتم تحميل أو تفريغ السفن كانت تضطر للذهاب إلى ميناء "ميوس- هورموس" لتكون آمنة وللتجمع في أسطول للسفر. وقد أقام دافيل (D'Aville) والجغرافيون الجدد موقع بيرينيس على خط طول 24° درجة، وعند مستوى ارتفاع أسوان، وقد أخطأوا؛ حيث كان موقع بيرينيس في القصير القديمة. وقد تم

العثور على أنقاض اثني عشرة مكانًا للمسرح، وكان بطلميوس قد أمر ببنائها من قفط حتى بيرينيس على الطريق من قفط إلى قصير القديمة. ويقع مرسى ميوس - هورموس شمال القصير، وقد اضطر بطلميوس لوضع بيرينيس عند نقطة من البحر الأحمر أقرب لخليج قفط.

وتقع هيروبوليس (Héroopolis) في الجزء السفلي من تجويف داخل السويس وأعطاها اسمه. وقد بنيت أرسينوى (Arsinoé) عند التقاء قناة البحرين على بعد ثلاثة أرباع فرسخ شمال السويس. وكانت كليوباتريس (Cléopatris) جزءًا من المدينة، وكانت كليسما (Clysma) من القلزوم (Qolzoum) في نفس موقع السويس.

وتقع السويس على خط عرض "37 '58 ° 29، وعلى خط طول"37 ' 15 ° 30 ومن السويس إلى الفرما سبعة وعشرون فرسخًا، ومن السويس إلى القاهرة تسعة وعشرون فرسخًا. ويرتفع البحر الأحمر في السويس فوق المياه القوية خمسة أقدام وست بوصات، وتصل مياه هذا البحر القوية لأعلى من ثلاثين قدمًا وست بوصات من مياه البحر المتوسط عند الفرما. وفي أثناء الفيضان عام 1798، وصل ارتفاع منسوب المياه من النيل في المقياس إلى تسعة أقدام وبوصة وثلاث خطوط فوق مياه البحر الأحمر القوية، ووصل إلى أربعة عشر قدمًا وسبع بوصات وثلاث خطوط فوق المياه المنخفضة لذلك البحر. ويبلغ ارتفاع منسوب المياه المرتفعة في البحر الأحمر أربعة عشر قدمًا وبوصتين وتسعة خطوط فوق المياه المنخفضة لنهر النيل في مقياس القاهرة.

وقد استخدمت قناة الملوك التي توصل مياه النيل إلى برزخ السويس كوسيلة اتصال بين البحرين، وتنقل مياه النيل من تل بسطة على الفرع البليوزي، وتعبر بلاد جيسن (Gessen) والبحيرات المرة وتصل إلى البحر الأحمر تحت أسوار أرسينوي. وتستغرق الملاحة في هذه القناة أربعة أيام، وكانت قناة واسعة وعميقة. وقد قام سيزوستريس وملوك مصر القدامى، والفرس بعد غزواتهم، والبطالمة، وتراجان (Trajan) وأدريان (Adrien) بتحسين القناة وإصلاحها واستخدامها. وبعد انتصار العرب في بداية الهجرة، أعاد عمرو وصل النيل بالبحر الأحمر عن طريق قناة أمير المؤمنين. وكانت هذه القناة تأخذ مياها تجاه جزيرة الروضة، أعلى القاهرة، وهي طريقة أفضل من الأولى لأن المياه تؤخذ عند نقطة أعلى من النيل. وقد استخدمت تلك القناة كثيرًا لنقل المواد الغذائية اللازمة لإمداد مدينتي المدينة ومكة.

وقد درس المهندسون الفرنسيون مشروعين لقناة تصل النيل بالبحر الأحمر. ويتكون المشروع الأول من أربعة مسارات؛ المسار الأول من 10000 قامة، ويتجه من تل بسطة إلى جسر السنيكاح "El-Senykah" حيث يتلقى مياه قناة أمير المؤمنين. ويبدأ المسار الثاني عند جسر السنيكاح ويعبر الواحة حتى أنقاض السرابيوم (Serapeum)، ويشمل مسافة 37000 قامة. والمسار الثالث يعبر البحيرات المرة لمسافة 20500 قامة، ويبقى عند مستوى مياه البحر الأحمر المنخفضة. والمسار الرابع بين البحيرات المرة والبحر الأحمر لمسافة 11000 قامة، ويستقبل ستة أقدام من مياه البحر الأحمر، ويستخدم كاهوسة (محابس) لحفر ميناء السويس. ولن يكون لهذا

القناة سوى أربعة أهوسة، وامتدادها سيكون لمسافة 78000 قامة، وستكون صالحة للملاحة ثمانية أشهر في السنة، من أغسطس حتى مارس. ولن يكون النيل نفسه صالحًا للملاحة إلا في هذا الموسم.

وقد كان المشروع الثاني لوصل البحرين من السويس إلى الفرما، والمساران الرابع والثالث كما هما، لكن من البحيرات المرة مسار يصل إلى الفرما على طول ساحل بحيرة المنزلة، وتستخدم البحيرات المرة - وهي عبارة عن خزان كبير غاية في الارتفاع عن البحر المتوسط - لإقامة ميناء الفرما.

ويمكن أن تقدم القناة الثانية مزايا كبيرة عن الأولى: 1- فهي صالحة للملاحة طوال العام، 2- والملاحة أقصر كثيرًا حيث في القناة الأولى يجب صعود النيل من الإسكندرية حتى نادير (Nàdir) والدخول في قناة فرعون وتصب في قناة بوباسطة (Bubaste)، الأمر الذي يتطلب عشرة أيام من الملاحة الداخلية والتعرض لكثير من الحوادث. وتتجه تلك القناة الثانية مباشرة من البحر المتوسط إلى النيل. وفي عام 1800 وصل الفيضان المرتفع إلى المسار الثالث عند أنقاض السيرابيوم، ودون بعض الصعاب البسيطة كان يمكن أن يصل حتى بداية المسار الرابع. ويصل قاع البحيرات المرة إلى خمسين قدمًا تحت مستوى البحر الأحمر. وهكذا يصل النيل بالطبع إلى مسافة أحد عشر ألف قامة من البحر الأحمر. وفي نفس العام وصلت مياه النيل حتى أربعة فراسخ من بحيرة المنزلة حتى رأس المويه (el-Moyeh) حالت دون الوصول إلى طريق الصالحية. وكان سيتم حفر قنوات ري على طول القناة التي كان من شأنها أن تسهل الزراعة على امتداد عدة فراسخ يمينًا ويسارًا، مما يمكن من سداد تكاليف بناء القناة، وتوفير المياه لمدينة السويس وبحريتها بكثرة بواسطة واحد من هذه الجداول.

وقد اقترح عدد آخر من المهندسين مرور البحر الأحمر في الخليج وإقامة مضيق، ولكن كان اختلاف مستوى البحر الأحمر عن البحر المتوسط في الفرما ثلاثين قدمًا في أثناء المياه القوية، وأربعة وعشرين قدمًا في المياه المنخفضة، مما يجعل أقل من قدم لكل فرسخ؛ وذلك يستلزم إذن فتح الدعامة المسار الرابع، وهي عملية قليلة الأهمية، إلا أنه سيتم إغراق وادي النيل حينئذ. وقد اقترحوا قيادة ذراع البحر الأحمر في بحيرات الملك بودوان (Baudoin). وتضمن مصر وصول المياه عن طريق التلال التي تنتشر من السويس إلى البحر بالقرب من شرق الفرما، ولا يبقى سوى عمل عدد قليل من الفتحات. وتستطيع السفن حينئذ الذهاب من مرسيليا إلى الهند دون نقل البضائع. ولما كانت القناة تمتد من الشمال إلى الجنوب، فإن السفن تعبر وأشرعتها مع اتجاه الريح.

ويمكن تحقيق وسائل الاتصال الثلاثة وهي سهلة التنفيذ، ويمكن الإبقاء عليها في نفس الوقت. وعند إقامة مضيق، يمكن وضع البلاد في مأمن من هجمات سوريا.

ثامنًا: كانت طيبة عاصمة مصر، ويرجع تأسيسها إلى الأزمنة السحيقة، وكان أوج ازدهارها في عهد سيزوستريس. وينشد هوميروس عن ثرواتها وعجائبها وأبوابها المئة التي يمكن أن يخرج من كل منها عشرة

الاف رجل مسلح. وتثير أنقاضها الإعجاب، وتنتشر في محيطها على مساحة ثلاثة آلاف قامة. كان طول سورها عشرة آلاف قامة، وكانت تقع على بعد ثلاثمئة ألف قامة من مصب أم فارج على البحر المتوسط، وتسعين ألف قامة من شلالات أسوان على خط عرض" 59 '48 °25 وعلى خط طول " 38 '19 °30 وقد استولى عليها الفرس وسرقوها ونهبوها في عهد قمبيز عام 500 قبل الميلاد، ومن هذا التاريخ كان عصر الانحطاط. وكانت من قبل قد سقطت في عهد أغسطس.

وتقع منف (Memphis) بالقرب من أهرامات سقارة على الضفة اليسرى من نهر النيل، على بعد ثلاثة أو أربعة فراسخ جنوب الهرم الأكبر. وقد حلت محل طيبة، ولا يكاد يتبقى منها أي أثر خلاب. كان محيطها ثمانية آلاف قامة. وعندما احتل الفرس مصر في عهد قمبيز شيدوا قلعة في جزيرة الروضة وأطلقوا عليها اسم بابليون (Babylone). كانت القلعة ذات منشآت على الضفة اليمنى من قناة الروضة لضمان الاتصالات مع بلاد فارس، وكانت إذا جاز القول تعتبر أحد ضواحي منف.

وقد جعل البطالمة الإسكندرية عاصمة مصر، فتفوقت بثرائها على كل من منف وطيبة. وقد بلغ طول أسوارها اثنتي عشر ألف قامة. وبعد غزو الإسكندرية بنى عمرو مدينة في المكان الذي أقام فيه خيمته في أثناء حصار بابليون، وهي اليوم القاهرة القديمة. وحضر وضع حجر أساس المسجد الكبير ثمانون من أصحاب الرسول الذين شاركوا في غزوة بدر (Bendir)، وأصبحت المدينة الجديدة عاصمة مصر، وأطلق عليها اسم "الفسطاط"، وهي كلمة معناها "الخيمة".

ويرجع ثراء طيبة إلى التجارة مع الهند بفضل موقعها على خليج قفط والأفكار الدينية في ذلك الزمن. فقد كانت مكانا مقدسًا للحجاج مثل مكة، وكان يفد إليها من كل أرجاء إفريقيا والجزيرة العربية وسوريا. وقد كان ملوك مصر هم ملوك النوبة وجزء من أثيوبيا إلى حد ما، فكان الأثيوبيون بدورهم سادة مصر. وكان يوجد بين جبال الجنادل (Genàdil) وجبال القمر سهول فسيحة جدًا يرويها النيل وروافده. وتوفر هذه السهول المعيشة لأمم كبيرة رعت الفنون وأقامت فيها الآثار التي بقيت أنقاضها، خاصة في جزيرة مروى (Méroé). وتوجد في جنوب الصحراء النوبية على ضفاف نهر تونار (Tonnerre) أثار شعب، هم النوبيون، على ضفاف النيل. ونجد البربر بين صحاري النوبة وليبيا، وبقايا أخرى من أمة قضى عليها سكان شرسون من داخل أفريقيا. ولقد حلت منف محل طيبة، وفي نفس الوقت الذي قضت غزوات الشعوب من الداخل على الشعوب الإثيوبية، فقد ازدهرت حضارات اليونان وإيطاليا وآسيا، وانتشرت المدن والقرى في الدلتا، وساهمت الأعمال التي تمت في منف على تدفق مياه النيل بين السلاسل الليبية والعربية.

وجعل البطالمة الإسكندرية عاصمة لهم لأنها كانت الأكثر أمانًا ضد غزوات سوريا والجزيرة العربية، وكانت قريبة من اليونان ومقدونيا، حيث كانت لهم فيها علاقات دبلوماسية. واضطر عمرو إلى إقامة عاصمته على الضفة اليمنى من النيل وكان الموقع على مرمى من الجزيرة العربية في منأى عن الخوف من الغزوات التي كانت تأتيه من الحدود الشرقية، واتخذ من هذا المكان نقطة يلجأ إليها، حيث يمكن أن ينتظر النجدة. وقد اضطر إلى مغادرة الإسكندرية التي تعرضت لهجمات من البحر شنتها امبراطورية القسطنطينية الرومانية، وفضلاً عن ذلك، دون اتصال بالجزيرة العربية. ترك عمرو منف حيث كان يمكن أن تحيط به الشعوب المصرية، لأنه كان منفصلاً عن الجزيرة العربية بحائل النيل، واستقر على ضفاف الصحراء في أقرب مكان من مكة والبحر الأحمر واتخذ من الصحراء بيئته.

وتقع القاهرة على خط عرض " 21 ' 2 ° 30 وخط طول " 30 ' 58 ° 28، وعلى بعد ستة آلاف ومائتي قامة من الهرم الأكبر، واثنين وأربعين فرسخًا من البحر، وسبعة عشر ونصف فرسخ من البحر الأحمر. وتحد الصحراء أسوار القاهرة، وتمتد الرمال الجدباء منها إلى مكة وإلى القدس والبصرة دون توقف. بنيت هذه المدينة عام 970 بواسطة الخلفاء الفاطميين، وتم نقل الأعمدة التي كانت تستخدم لتزيين منف، جزء منها إلى الإسكندرية، وجزء آخر إلى مدينة الفسطاط. وقد كان في القاهرة أربعون ألفًا من هذه الأعمدة الجرانيتية، تم استخدامها في بناء ثلاثمئة مسجد، وتجميل القصور الرئيسية التي تزين هذه المدينة. ويعتبر مسجد الأزهر من أعظم هذه المساجد (المسجد المزين بالزهور)، وبه مدرسة يتردد إليها ألف وأربعمئة طالب لدراسة الأدب وفلسفة أرسطو والقرآن. والمسجد منزل للحجاج، ويمكن أن يستضيف ثلاثة آلاف دون أن يؤثر ذلك على ممارسة شعائر العبادة. والمساجد الأخرى غاية في الجمال، رغم أنها أقل قيمة من جامع الأزهر، وهي مسجد الحسين حيث يحفظ رأس سيدي الحسين المشهور، ومسجد ستنا زينب وسميت باسم أخت سيدي الحسين، ومسجد سيدي حسن تحت القلعة، ومسجد السلطان قلاوون، ويتم فيه تجهيز غطاء الكعبة المشرفة، ويطلق عليها الكسوة. ويحيط بالقاهرة تلال من أطلال المدينة القديمة والأنقاض اليومية، ولا يُسمح بإلقاء هذه الأنقاض في النيل لحماية الزراعة، فيتم تكديسها حول المدينة، ويعتبر [ذلك] من أكبر المعضلات في جميع مدن مصر. وقد خصص السلطان سليم مبلغ ثلاثمئة ألف فرنك لتستخدم في نقل الأنقاض حتى بوغاز رشيد، ولم ينفذ العمل إلا بضع سنوات.

وقلعة القاهرة التي تطل على المدينة تهيمن عليها ثلاثمئة قامة من هضبة المقطم، والتي يفصلها عنها وادي. ولم يكن يمثل ذلك عائقًا في زمن صلاح الدين، واليوم جعل ضرورة إقامة قلعة على هذا الارتفاع. وقد بنى صلاح الدين القلعة على أحد روابي المقطم التي تطل على وادي النيل. ولما كان قد اعتاد على مناظر سوريا الرائعة، فقد بني عليها قصرًا يطل من نوافذه على مشهد الأهرامات، وطلب حفر بئر يوسف وعمقه 272 قدمًا.

وللقاهرة ميناءان على نهر النيل، ويقع ميناء بولاق على نصف فرسخ في الشمال الغربي، ويستخدم في كل ما يصدر ويصل إلى الدلتا (مصر السفلى). ويقع ميناء القاهرة القديمة على بعد نصف فرسخ جنوب بولاق، وهو

ميناء كل ما يصدر إلى صعيد مصر، وكل ما يصل إليها لاستهلاك القاهرة. وتؤخذ المياه عند القاهرة القديمة من القناطر التي تمتد ألفا وخمسمئة قامة، وتحمل المياه إلى القلعة. وتتصل المدينة بالنيل عن طريق قناة أمير المؤمنين التي تخترق المدينة لمسافة ألف وتسعمئة قامة. وقد كان هناك مشروع ليجعلها صالحًا للملاحة، ولكن كان لا بد من هدم عدد كبير من المنازل. وقدم المهندسون مشروع قناة تأخذ المياه من بولاق وتقودها إلى ميدان الأزبكية الذي يتحول إلى حوض وميناء تجاري لهذه العاصمة.

وتتحول كل ميادين القاهرة إلى بحيرات في زمن ارتفاع منسوب المياه، وتشكل مبالنظر خلابًا أضواءُ المنازل المنعكسة على الماء، وعدد القوارب التي تتنزه فيه، وجمال ليالي أشهر أغسطس وسبتمبر وأكتوبر.

والشوارع ضيقة للغاية، والمنازل مرتفعة، وفن العمارة أقرب ما يكون إلى العمارة الهندية مقارنة بالعمارة الأوروبية. وكل النوافذ لها قضبان حديدية، والأسقف على شكل الأسطح، وفيها يستجم وينام ويستحم الناس. ومنازل البكوات ومنازل الشيوخ جميلة وعلى طراز واحد في بنائها. ويوجد عدد كبير من الوكالات تديرها نقابة من التجار لهم فيها مخازن. وليس لهذه الوكالات نوافذ على الشوارع. ويشغل التجار فيها عددًا صغيرًا جدًا من الشرف من 10 إلى 12 قدمًا على الجانب، ويظلون قاعدين القرفصاء طوال اليوم ومن حولهم عينات من البضائع المختلفة يعرضونها للبيع. وتوجد حمامات البخار والمقاهي بكثرة وتضاء الشوارع بزجاج ملون يستخدمه الشرقيون. وتستخدم الأنوار ويتم إطلاق الأسهم النارية عند الترفيه وفي احتفالات الأعياد الرسمية.

وتقع الجبانة (مدينة الموتى) في الصحراء على بعد نصف فرسخ من القاهرة، ويوجد في هذه المدينة عدد ضخم من المساجد والمنازل والأجنحة والمحلات تشكل كتلة من المباني الضخمة كالمدينة. وتقوم كثير من العائلات بصيانة المصابيح التي تضيء هذه المقابر، وتم بناء بعض الأسبلة. ومن الشائع أن ترى في مصر تلالاً من الرمال، أو أنقاض ضريح صغير أو مصلى، أو مبنى أبيض مستدير له قبة، وهو عبارة عن مقام أو مقبرة لأحد الدراويش. ويوجد في القاهرة كنائس قبطية وسورية ويونانية، وأديرة قبطية وأرمينية وكاثوليكية.

وقد كانت القاهرة بالطبع عاصمة دولة ولاية الفاطميين، والتي تمتد إلى سوريا. وقد تصبح الإسكندرية عاصمة للفرنسيين لذات السبب الذي كان لملوك اليونان، فمن الإسكندرية إلى مدينة طولون ليس سوى عبور البحر. ومن المحتمل أن نجعل الإسكندرية مدينة قوية، ويجب أن تكون في الوقت ذاته العاصمة ومركز الدفاع، والملاذ والميناء، ومستودعًا لكل السيادة الأوروبية.

تاسعًا: يقيم شعب البربر على شاطئ النيل عند أعالي شلال أسوان حد مصر الحالي. وتنقسم البلاد إلى ثلاثة أجزاء؛ الجزء الأول من أسوان حتى الشلال الأعظم (الكبير) ستون فرسخًا، حيث إبريم، والدر هما البلدتان الرئيسيتان. والجزء الثاني مركزه الرئيسي دنقلة، وهي مدينة كبيرة على الضفتين، تقع على بعد خمسة عشر يومًا من أسوان. والجزء الثالث يصل حتى بربر (Berber) أمام جزيرة مروي (Méroé)، ويغطي فرعا النيل الخرائب

والآثار. وتوجد في دنقلة حيوانات كثيرة ذوات قرون. والسكان بشرتهم سوداء. وتوجد أطلال يونانية ومصرية. وكان يمكن أن يصير البربر أغنياء لو لم يدمرهم عرب النوبة وليبيا. وليست بشرة البربر سوداء وليسوا عربًا، ولا يتكلمون لغتهم، وهم غير محاربين، ونرى عددًا كبيرًا منهم في القاهرة، ويتميزون بوفائهم وعملهم وحبهم لبلدهم الذي يعودون إليه بعد أن يحصلوا على بعض الرفاهية.

وتقع على الضفة اليمنى من النيل أمام بلاد البربر وحتى الحبشة وحدة النوبة، وطولها ثلاثمئة فرسخ. وتعتبر جزيرة مروي جزءًا منها. ويقوم النوبيون بزراعة الجزء الجنوبي من هذه الوحدة لحساب العرب. وخلال موسم الأمطار لا يستطيعون الإقامة فيها لكثرة كميات الذباب والحشرات، فيعبرون النيل متجهين إلى صحاري ليبيا. ولما كانوا يأخذون طريق ملك سنار، فقد كانوا يسددون له حق عبور عن كل جمل يعبر النهر. إنهم من القبائل التي تمتلك 200000 جمل كبير وصغير من الذكور والإناث. وهؤلاء العرب هم العبايدة، بشعرين، حادوند، ولاد موت، ولاد أمزم، كواحلهه وشاكرم.

ونجد على الضفة اليسرى للنيل، تجاه بلاد البربر، صحاري بهيوده (Bahioudah)، وسليمه (Selimch)، وهما جزء من صحراء ليبيا. والعرب الذين يسكنون فيها هم الكبابيش (Kabâbych)، وبني - جرار(Beny-Gerâr)، وبني فيزورة (Beny-Fayzoura)، وشيقية (Chaykyé)، وهم من أنجولا.

وتقع ولاية سنار جنوب بلاد البرابرة، ويبلغ عدد سكانها ما بين ثلاثمئة ألف وأربعمئة ألف نسمة. ويبلغ جيش الملك عشرة آلاف رجل، منهم فرسان جيدون. ولا يملك الجيش مدفعية أو أسلحة نارية، ومعظم فرقه من النوبيين، ويبدو أنهم من هذه المناطق. وترسل سنار إلى مصر كل عام عددًا من القوافل، وتتجمع هذه القوافل في بربر (Berber)، ومنها ترحل إلى مصر.

وتبعد بربر عن سنار مسافة ثمانية عشر يومًا، وثمانية عشر يومًا غرب سواكن (Saouâkyn)، ميناء البحر الأحمر. وتخضع هذه المدينة الأخيرة لسيطرة شريف مكة، وعندها المياه العذبة والذرة والشمام وقصب السكر وذباب العسل والفواكه، والصمغ والبقر والزراف والزّباد، والفيلة والجمال والجراد لذيذ الطعم، والمحار الذي نجد فيه اللؤلؤ. ويقع جزء كبير من المدينة في جزيرة تطل عليها أربعة حصون، يقيم فيها تجار من القاهرة مناضدهم، وهي مركز تجارة كبير إلى حد ما. وينزل فيها ويبحر منها الحجاج من دارفور وسنار والسودان عند زيارتهم إلى مكة لأداء الحج وعند عودتهم منها، ويبيعون فيها الرقيق من دارفور وسنار والنوبة والجزيرة العربية، ويبيعون ريش النعام والمسك والمرجان والعاج، والقرن، والزنوج، وجلود البقر، وأقمشة الهند، والأقطان والحديد والأسلحة والدخان. ويوجد بها ثلاث مساجد. وهي أحد المواقع التي يمكن اختراقها للدخول إلى إفريقيا. وقد أقام مجموع العلماء المهتمين بدراسة حضارة هذا الجزء من العالم ليكونوا وكلاء لهم فيها.

وتقع غندار (Gondar) عاصمة الحبشة على بعد مئة فرسخ من سنار. وتستغرق القوافل المتجهة من البربر إلى أسوان خمسة وعشرين يومًا لعبور صحراء النوبة، وتجاور الحبشة مملكة سنار، وهي منطقة جبلية.

وتقع دارفور غربًا على بعد ستة وعشرين يومًا من سنار، والصحراء التي تفصل بين المملكتين قليلة الأهمية. وكان الأميران في كثير من الأحيان في حالة حرب. ويبلغ عدد سكان دارفور مائتي ألف نسمة، وتتم التجارة مع مصر عن طريق قافلة من 12000 إلى 15000 من الإبل، وسبعة آلاف أو ثمانية آلاف من العبيد تغادر أصونام (Assonam) آخر قرية في دارفور، وتصل بعد عشرة أيام إلى زغوا (Zaghaoua)، حيث يوجد الماء بكثرة، وتحمل ملح البحر والنطرون. ومن زغوا تتجه إلى الإجيه (El-Eguieh) بعد ثمانية أيام من السير، حيث تجد الماء فيها بوفرة، وقد تتعرض لمضايقات فرق مكونة من ثلاثمئة أو أربعمئة من العربان. وتتجه من الإجيه إلى سليمة (Selimeh) في ستة أيام، وفيها تجد الماء والنباتات. ولا تبعد سليمة كثيرًا عن الشلال الكبير، وتقع في نفس خط العرض، وتجد هناك آثارًا وبقايا قصر قديم جدًا. ومن سليمة تستغرق الرحلة ثلاثة أيام لتصل إلى عين شيب (Ayn Chebb)، حيث تجد كمية كبيرة من الماء. ثم من عين شيب تتجه إلى مصر عن طريق الواحة الكبيرة. وبذلك تكون القافلة قد سارت سبعة وعشرين يومًا في صحراء ليبيا الكبيرة، وقبل أن تدخل الواحة تقوم بإعلان وصولها إلى شيخ أسيوط. ومن عين شيب تصل إلى موغيه (Moughés) بعد ثمانية أيام، وهي قرية آهلة بالسكان في الصحراء الكبرى، والتمر والطمي فيها ممتازان. ومن موغيه إلى بيريس (Beyris) أربع ساعات سيرًا. وتقيم ثلاثين يومًا، وتستمر طوال خمسة أيام في اختراق محطات الواحة المختلفة، وتجد فيها الماء طوال الأيام. وتقيم عادة عشرين يومًا في الخارجة، وأخيرًا تخرج من الواحة الكبيرة وتصل بعد خمسة أيام إلى أسيوط دون أن تجد الماء. فتكون قد عبرت الصحاري سيرًا طوال اثنين وأربعين يومًا، وبذلك تكون قد استغرقت مئة يوم. وللسيطرة على الطريق من دارفور إلى النيل، وبصرف النظر عن الأبراج في الواحة وفي صحاري مصر، فيجب بناء واحد في زغوا (Zaghaoua)، وواحد في الإجيه (El-Eguieh)، وواحدة في سليمة؛ ثلاثة قرى ضخمة قد تتكون في هذه المناطق الهامة، ولتذهب القوافل حينئذ للسقاية في أغلب الأحيان، وتصبح هذه الصحراء متمدنة. ويعبر حجاج دارفور المتجهون إلى مكة النيل عند دنقلة (Dongolah).

وإذا جمع ملوك الحبشة وسنار ودارفور الثلاثة جيوشهم، بالإضافة إلى العرب الخاضعين لهم، لاستطاعوا أن يشكلوا ثمانين ألف رجل، ويكون موقع تجمعهم بربر (Berber) على النيل، دون أن يكونوا قد عبروا أية صحراء بعد. وسيكونون بعيدين عن مصر مئة وخمسين فرسخًا حسب أقصر مسافة، وسيجدون أمامهم ثلاث طرق للوصول إلى مصر. فعن طريق صحراء النوبة يلزمهم أربعون يومًا ومئة ألف من الإبل لحمل المئونة والماء؛ لأن آبار هذه الصحراء لن تكون ذات جدوى لنجدة جيش ضخم كجيشهم. والطريق بواسطة الضفة الشمالية وعبور الصحراء الليبية سيكون أكثر طولاً، إذ يجب اتباع الدائرة التي تشكل النيل. والطريق الذي يتبع ضفاف النيل قد يكون مائتي فرسخ، ويمكن تحميل المخازن والمئونة في السفن، وتصل إلى الشلال الكبير بعد أيام قليلة، وتعبر السفن بقوة الأيدي. ولكن هذه الشعوب نصف البربرية بعيدة عن تنفيذ مثل هذا المشروع؛ إذ يلزمها

المدفعية والإدارة، لكنها لا تملك شيئا. ومن المحتمل أن مثل هذه العملية قد قام بها الإثيوبيون عندما قاموا بغزو مصر. ويتطلب موقع الشلال الكبير الهام إقامة حصن دائم. وإن ستين سفينة مسلحة بالمدافع، وتحمل ثلاثة آلاف رجل، ومئونة وعدة قطع ميدان، وتلحق بها على الأرض كتيبة أو اثنتان من الجمال، وألف ومائتان أو ألف وخمسمئة رجل مدفعية، سوف يمدون تأثير ملك مصر على كل سنار، وعلى كل السهل حتى سفوح الجبال حيث ينزل النيل.

وما زالت شعوب الغرب أقل بشاعة وعدوانًا عن شعوب الجنوب. ويوجد غرب الإسكندرية جزء من الصحراء الليبية أطلق عليها القدامى المريوتيد (Maréotide)، وغربها مارماريك (Marmarique)، وفي أقصى الغرب ليبيا (Cyrénaïque). والخط الفاصل - بين مارمريك وليبيا - كتابتاموس (Catabathmos)، أو (السقوط الكبير) غرب بارايتونيوم (Paraetonium). ويصل أحد الأودية من هذه النقطة إلى النيل. وتبعد سيرين (Cyrène) مئة وثمانين فرسخًا عن الإسكندرية. وتتبع واحة أوجيله (Audjeleh) بك طرابلس، وتضم ستة آلاف أو سبعة آلاف نسمة ليسوا من العرب، وعندهم قمح ومواشي وأشجار وتمر. وهي تبعد عشرة أيام شمال غرب واحة آمون، واثني عشر يومًا جنوب درنه (Derne)، وأحد عشر يومًا من بني غازي، وهي ميناء على البحر المتوسط، وتبعد ثمانية وعشرين يومًا من مملكة فزان (Fezzân). وتفصل صحراء ليبيا الجرداء واحة أوجيله (Audjelah) عن كل هذه البلاد. وتضم مملكة فزان مئة ألف نسمة من السكان. وهي على بعد ثمانية وعشرين يومًا من طرابلس، وأربعة وعشرين من مصراته (Mesurata)، وهي ميناء على البحر المتوسط، وثمانية عشر يومًا من جنوب سرت (Sort)، وهي ميناء صغير في أعماق مدينة سرت الكبيرة (Syrte)، وثمانية وعشرين يومًا غرب أوجيلة، وثمانية وعشرين يومًا من واحة آمون، وأربعة وخمسين يومًا من القاهرة. وتستغرق القوافل ستين يومًا بما في ذلك الراحة اللازمة. وتقع فزان على بعد تسعة وثلاثين يومًا جنوب غرب امبراطورية بورنو (Bornou) عن طريقها تتصل بمدينة تومبوكتو (Tombouctou) على نهر النيجر. وتعد فزان مزروعة جيدًا، وتوجد مئة قرية ومدن كثيرة، وتضم العاصمة ثمانية عشر ألف نسمة. ويهتم الملك بالجيش.

ويحكم بك طرابلس ستة وستين ألف نسمة. وتبعد عاصمته ثلاثمئة وخمسة عشر فرسخًا عن الإسكندرية، ومحاطة بأسوار محصنة بستة معاقل، وقصرها مسلح بعشرين مدفع تحمي الميناء الذي يمكن أن تدخل فيه فرقاطات الصغيرة.

وتقع درنه (Derne) على بعد مئة وستين فرسخًا من الإسكندرية، وعدد سكانها ستة آلاف نسمة. وحول المدينة سور ضخم قديم، ويحمي القصر ثلاثمئة رجل، وتملك المدينة الكثير من المواشي.

وتقع بيرينيس (Bérénice) القديمة بين طرابلس ودرنه. وكانت حديقة الهسبيريد (Hespérides). ويبلغ عدد سكانها ستة آلاف نسمة. ويمكن أن يستوعب الميناء سفن حمولتها ستمئة برميل. وتشكل بعض الجزر الصغيرة ميناء بومبا (Bomba) الواقع بين درنه والباريتون (El-Bareton).

ولو أراد كل من بك طرابلس وملك فزان وملك بورنو الهجوم على مصر، لاختاروا أوجيله نقطة لتجمع جيوشهم. ولكنهم سوف يصلون إليها منهكين من التعب، فقد عبروا صحاري كبيرة وجرداء. وسوف تحتاج جيوشهم إلى الراحة شهرين على الأقل قبل أن يذهبوا لأبعد من ذلك؛ إذ تحتاج الجيوش إلى الراحة مرة ثانية عند واحة آمون، ويتبقى أمامهم أيضًا أربعة عشر أو خمسة عشر يومًا طويلة في الصحراء. وقبل الوصول إلى وادي النيل كم من العناء والمشقة التي عليهم أن يتغلبوا عليها! وإذا تعرض الجيش عند وصوله إلى هجوم من الجيش المصري فسوف يهزمه حفنة من الرجال. إن احتلال الباريتون وواحة آمون والواحة الصغيرة والكبيرة - كما كان القصد -سوف يكشف بما فيه الكفاية عن كل حدود غرب مصر.

•

وتقع كل من الجزيرة العربية وسوريا شرق مصر. ويخدم البحر الأحمر هذه الحدود فيحميها. وكانت مصر تتعرض دائمًا للهجوم عن طريق خليج السويس. ويسكن سوريا أمة عظيمة مجاورة لآسيا الصغرى وأرمينيا والفرس (إيران). إن وضع حصون العريش وقطية (Qatyeh)، ووجود أبراج لها آبار وسيطة، وموقع حصين في واحة طملات (Tomlât)، كل ذلك يجعل عبور هذه الحدود أمرًا في غاية الصعوبة.

وتستغرق الإبل من القاهرة إلى مكة ثلاثين يومًا أو أربعمئة اثني عشر ساعة مشيًا، وستجد الماء خمس عشرة مرة. وتستغرق من مكة إلى صنعاء ثلاثين يومًا، ومن مكة إلى المدينة عشرة أيام، ومن المدينة إلى البحرين ثلاثين يومًا، وإلى البصرة (Bassora) ثمانية وعشرين يومًا، وإلى الكوفة (Caffa) عشرين يومًا، وإلى داصل (Dasseul) عشرين يومًا، ومن صنعاء أو عدن إلى غزة خمسة وستين يومًا. وتصبح قناة البحرين حدًا طبيعيًا. وتعد الآبار والظل من الأمور الهامة في الصحراء، فإن الجيش القادم من الصحاري يهزمه جيشٌ أقل عددًا منه إذا سيطر على الآبار. ومن السهل عبور الصحراء من شهر نوفمبر حتى شهر أبريل، لكن عبورها أشد صعوبة وخطرًا من أبريل حتى نوفمبر؛ فإنَّ الظمأ يُضعف الشجاعة، ويحرم المرء من كل قدراته، ويحرمه الأمل كذلك، فيستسلم عندها ويترك نفسه للموت، حيث لم يعد له قدرة على الحياة.

ومصر هي البلد الذي يجب الانطلاق منه لاختراق قلب أفريقيا، حيث يتوفر ما هو ضروري من الإبل والقرب والأرز لهذه الرحلات الكبيرة والشاقة. وتبعد دارفور عن الإسكندرية على البحر المتوسط نفس المسافة عن خليج غينيا والبحر الأحمر. والطريق من الإسكندرية إلى دارفور معروف، حيث تمر به قافلة القاهرة الكبيرة مرتين كل عام، والطريق من دارفور إلى سنار وسواكن (Saouâkyn) دائم الاستخدام. وتذهب القوافل من دارفور إلى النيجر وبورنو. يأخذ بعض رحالة قافلة القاهرة المتجهة إلى دارفور ومنها إلى تومبوكتو ليصلوا إلى النيجر. ويكفي التفاهم مع ملك دارفور الذي كان في حاجة إلى مصر. وإذا أردنا الدخول بقوة في قلب إفريقيا فمن

غير المستبعد أن جيشًا من ستة آلاف رجل يمتطون خمسة آلاف جمل وألف حصان ومعهم ثمانية عشر مدفعًا سيفرض القانون على ملك دارفور ويدخل النيجر.

عاشرًا: مساحة مصر خمسة وأربعين ألف فرسخ مربع، منها أقل من أربعة آلاف فرسخ في وادي النيل، وأربعمئة في الواحات الثلاثة، وأربعون ألفًا في الصحاري. وعدد سكان وادي النيل أقل من ثلاثة ملايين، وعدد سكان الصحاري والواحات يتراوح بين مئة وستين ألفًا ومائتي ألف. وقد قدرها المؤرخ جوزيف بسبعة ملايين وخمسمئة ألف، وقدرها عمرو بستة وعشرين مليونًا تشكل ستة وعشرين ألف مدينة وقرية. وبعد ستة قرون قدرها الجغرافيون العرب بخمسة ملايين تضمهم أربعة آلاف وتسعمئة مدينة أو قرية. وهل يمكن لأربعة آلاف فرسخ مربع احتواء وغذاء سكان من عشرين مليون نسمة، مما يمثل خمسة آلاف شخص في الفرسخ المربع الواحد؟ وتحتوي لافلاندر (La Flandre) ألفين وأربعمئة، فإذن سيكون الضعف. ولكن لنأخذ في الاعتبار أن هذه الفراسخ المربعة يغطيها فيضان النيل، ولا يوجد هنالك خلنج ولا جبال ولا طرح أراض بائرة، فكل الأراضي صالحة، وغرين النيل لا يحتاج إلى استراحة الأراضي، ويسمح بثلاثة محاصيل في العام. وأخيرًا فإن الأرض أكثر خصوبة، وشعوب الجنوب أكثر قناعة. ويمكن إذن أن يكون السكان خمسة آلاف ساكن في الفرسخ الواحد المربع.

وقد خلط الأثيوبيون وملوك الرعاة الذين حكموا مصر دماء شعوب وسط إفريقيا والجزيرة العربية بدماء المصريين. خمسمئة سنة قبل الميلاد، الفرس ومائتا سنة بعد ذلك، ونقل إليها اليونانيون دماء الميدي (Médie) والعراق واليونان. وبعد ثلاثمئة سنة أصبحت مصر إقليمًا رومانيا، وأقام فيها كثير من الإيطاليين. وفي زمن فتوحات العرب، في القرن السابع الميلادي، كان المصريون كاثوليكيين، وبعد سنوات قليلة اعتنق القسم الأكبر من أهل البلاد الإسلام. ولا نستطيع التمييز اليوم بين المسلمين سلالة العائلات التي أقامت قبل أو بعد غزو العرب، وسلالة السكان القدامى المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام مع ذلك، باستثناء عائلات الشيخ بكري والسادات التي لها سلالة تاريخية. وما زال الأقباط مسيحيين، وهم قدامى أهل البلد، ويبلغ عددهم من تسعين ألف إلى مئة ألف، وهم ليسوا محاربين ولكن رجال أعمال، ومحصلون، ومصرفيون، وكتّاب. ولهم أساقفتهم وكنائسهم وأديرتهم، ولا يعترفون بالبابا.

وقد أقام المماليك في مصر في القرن العاشر الميلادي، وكان لهم سلاطين. وكان صلاح الدين العظيم مملوكًا. وقد حكموا مصر وسوريا حتى القرن السادس عشر، وقضى سليم امبراطور العثمانيين على سيطرتهم، وضم سوريا ومصر إلى إمبراطوريته. وترك أربعين ألف رجل للحفاظ على فتوحاته، قسمهم إلى سبعة فيالق من

الميليشيات؛ ستة منها مكونة من العثمانيين، والسابعة من المماليك، وجمع لهذا الغرض كل من نجوا من الهزيمة. وكلف باشا وأربعة وعشرين من البكوات، وفيلقا من الأفندية وديوانين لحكم البلد. ومن بين الأربعة وعشرين بك كان ثلاثة [برتبة] كيا [قاضي] أو ملازم الباشا، يحكمون مناطق الإسكندرية ودمياط والسويس، وكانوا يتلقون الأوامر مباشرة من القسطنطينية، والخامس كان أمينًا للصندوق، وكان السادس أميرًا للحج، والسابع كان مكلفا بتوصيل الضريبة إلى السلطان، وكان أربعة مكلفين بإدارة الأقاليم على الحدود، والثلاثة عشر الآخرون كانوا رهن إشارة الباشا. ويتكون الديوان الكبير من البك القاضي، وأمير الحج، وأمين الصندوق، والأفندي أول، وأربعة من رجال الفتوى، وأربعة من كبار الشيوخ، وسبعة مندوبين عن قوافل الميليشيات السبع. وكان أغا الإنكشاريين هو القائد الرئيس. ويتكون الفيلق السابع من المماليك من أفضل الرجال وأشجعهم، وصار هو الفيلق الأكثر عددًا. وقد ضعفت الفيالق الستة الأولى، ولم يعد سوى سبعة آلاف رجل، بينما كان المماليك وحدهم أكثر من ستة آلاف. وفي عام 1646، كانت الثورة الشاملة، وتم إبعاد الأتراك من الميادين، واستولى المماليك على كل شيء. وقد أطلق على زعيمهم في القاهرة لقب شيخ البلد، وسقطت هيبة الباشا. وفي عام 1767 أعلن علي بك - شيخ البلد - استقلاله، وأصدر النقود باسمه، واستولى على مكة، وأعلن الحرب على سوريا، وتحالف مع الروس. عندئذ أصبح كل البكوات مماليك كما كانوا قديمًا. وفي عام 1798 امتلك كل من الأربعة وعشرين بك عدد كبيرًا إلى حد ما من الخدم، وكان أضعفهم يملك مائتين من المماليك. وكان منزل مراد بك به ألف ومائتان. وشكل الأربعة وعشرون من البكوات دولة تخضع لأكثرهم نفوذًا، وتقاسموا كل الأملاك وكل المواقع.

وكان المماليك يولدون على الدين المسيحي، ويتم شراؤهم في سن السابعة أو الثامنة من جورجيا ومنغوليا (Mingolie) والقوقاز، يُحضرهم تجار القسطنطينية إلى القاهرة ويبيعونهم للبكوات. وكانوا بيض البشرة، حسني الطلعة. ومن الطبقات الأخيرة في البيت مَن كان يترقى تدريجيًا ويصبح ملتزمًا بالقرية، أو كاشفًا، أو حاكمًا لأحد الأقاليم، أو أخيرًا أحد البكوات.

ولا تخلد سلالتهم في مصر، فعادة ما كانوا يتزوجون من نساء من القوقاز واليونان أو الأجانب، ولا يكون لهم منهن أبناء، فقد كانوا يموتون قبل أن يصلوا إلى سن الرجولة، بينما يشيب الأبناء من أزواجهم من أهل البلاد، إلا أنه كان من النادر تكاثر السلالة حتى الجيل الثالث، وهو ما يضطرهم لاختيار أبناء من القوقاز. وقد اشترى علي بك كلا من مراد بك وإبراهيم بك من سوق القاهرة وعمرهما سبع سنوات.

وفي عام 1798، كان عدد المماليك خمسين ألفا من الرجال والنساء والأطفال، كان منهم اثنا عشر ألفا يستطيعون ركوب الخيل.

ويتكون العنصر العثماني من الأتراك أو العثمانيين أحفاد الأسر التي غزت البلاد في القرن السادس عشر، أو أولئك الذين استقروا هناك منذ ذلك الحين، جاءوا من تركيا بصفتهم أفندية أو قضاة أو أمراء يشغلون مناصب في ست فيالق من المليشيات أو بأعمال التجارة. وفي عام 1798 كان عدد هذا العنصر مع النساء والأطفال وكبار السن أربعين ألفا، كانوا يقيمون في القاهرة والإسكندرية ودمياط ورشيد.

والمغاربة هم أصلاً من المغرب وتونس والجزائر وطرابلس، كانوا يأتون ضمن حجاج مكة المكرمة الذين تزوجوا في رحلتهم من سيدات سود البشرة أو نساء من الحبشة، ومن سنار والبربر، أو بنات السوريين واليونانيين، والأرمن، واليهود وبنات الفرنسيين. وفي عام 1798 بلغ عدد سكانهم مئة ألف نسمة.

حادي عشر: تكون الأرض مغطاة بالمياه أشهر سبتمبر وأكتوبر ونوفمبر، فهو موسم الراحة حيث يتم وقف كل نشاط، ويمعن الناس النظر في النيل، ينتظرون لحظة دخوله في القنوات لينغمسوا في أشغال الريف. وقد كان من الضروري في منطقة تهيمن عليها مثل هذه الظروف أن يكون تحديد بداية العام في 21 سبتمبر، ويجيء الاعتدال الخريفي في وسط موسم الكساد، والفجوة بين العامين هي النقطة الفاصلة بين السنتين الماليتين، فتجد الوقت كافيًا لحساب نفقات السنة المنتهية وتحديد مشاريع السنة القادمة. ولا توجد نفس الظروف في أوروبا، فأعمال الزراعة والأعمال المدنية لا تنتهي في 21 سبتمبر؛ لأن شهري أكتوبر ونوفمبر هما استمرار لنفس السنة المالية. وسبب موسم الكساد هو سوء الطقس والجليد في فترة ديسمبر ويناير، وكان لا بد من أن تقع نهاية وبداية العام في الاعتدال الشتوي من عيد الميلاد حتى أول يناير.

وتتم زراعة الأرض في مصر دون استخدام سماد ودون مطر، ودون استخدام المحراث، ويحل محل كل ذلك فيضان النيل وطميه الذي يحقق وفرة المحصول. ويغطي الطمي الأراضي التي لا يصلها الفيضان، وهو كالسماد الذي يستعمل في أوروبا. ويتم ري الأراضي بوسائل صناعية. ويحتوي طمي النيل على نسب مئوية كما يلي:

كربون	%9
أكسيد الحديد	%6
سيليكا	%4
كربونات المغنسيوم	%4
كربونات الكلسيوم	%18
الألمونيوم	%48
الماء	%11
إجمالي	%100

ويجفف غائط البقر أو الروث في الشمس ويستخدم كوقود. وتحرك الثيران ماكينات عجلات رفع المياه (الساقية) وري الأراضي. ولا يمكن زراعة الحقول التي فوق مستوى الفيضان دون الري الصناعي، حيث لا يمكن الحصول على محصول ثان أو ثالث. ويستعمل نوعان من وسائل الري الصناعي؛ الوسيلة الأولى هي رفع المياه بواسطة أواني (الساقية) التي يجرها زوج من الثيران، وتكفي واحدة من هذه الآلات لري عشرة أفدنة، ولكن يجب - والحالة هذه - وجود عشرة أزواج من الثيران. والوسيلة الثانية هي الدلو؛ حيث يرفع الرجل الماء بواسطة الشادوف من ستة إلى تسعة أقدام، ويحتاج دلوين لري فدان من الأرض، كما يحتاج إلى رجلين يشتغلان باستمرار؛ واحد يستريح ويعمل في الجداول أو يعزق الحقل. يرفع دلوين، الواحد فوق الآخر يرفعان المياه حوالي ثمانية عشر قدمًا وثلاثة ترفعها إلى سبعة وعشرين قدمًا. ويمكن وضع عدد إلى ما لا نهاية، لكن التكلفة بعد ذلك ستتجاوز قيمة الإنتاج. وفي العادة كان يستخدم دلو واحد فوق الآخر.

وقد كان يقال في الماضي إنه إذا تم تحويل النيل قبل شلال أسوان فسوف تصبح مصر صحراء غير صالحة للسكن. وإذا توقفت الأسباب التي وراء حدوث الفيضان، فلن يجري النيل إلا كنهر عادي، فلا يمكن زراعة البلاد، ويمكن أن تسقى بوسائل صناعية، ولا يملك المرء إلا تسميد الأرض وحرثها كما يحدث في أوروبا. ويتكلف الري مصروفات زائدة. لن تكون ضفاف النيل صحراء، ولكن البلد سيكون أتعس بلاد العالم.

وتنتج هذه الأرض العديد من المحاصيل؛ ويكون الأول هو [المحصول] الرئيس ويشغل البلاد بأكملها. ويتم إنتاج المحصول الأول من زراعة تتكيف مع الأراضي الغارقة بمياه الفيضان، ويطلق عليها "البيادي"، أما الزراعة التي تتكيف مع الأرض فتسقى بشكل صناعي وتسمى "النباري". وفي الأراضي المغمورة يُزرع القمح، والشعير، والفول، والعدس، والحمص، والبازلاء، ونباتات الترمس، والبرسيم والحلبة والكتان وعباد الشمس. وفي نوفمبر أو ديسمبر، وبمجرد دخول المياه في القنوات، وكشف الأرض، ولكن في حالة من الوحل، يبذر المزارعون، ويجعل ثقل البذور أن تنغرز في الطين. ومن هذا الوقت حتى أشهر فبراير ومارس أو أبريل، ينبت الزرع، وينمو ويكبر وينضج ويصبح جاهزًا للحصاد. ويتم جمع القمح في مارس. وبسبب الفيضانات تحتفظ الأرض بالرطوبة الكافية ولا تحتاج إلى الري، فالندى أيضًا وفير جدًا. ويتلقى الفدان* [الفدان يساوي 5919 مترًا مربعًا، ما يقرب من ستة أعشار من الهكتار.] من الأرض نصف أردب من القمح، وأردبًا من الشعير، وأردبًا من الفول، ونصف أردب من العدس، ونصف أردب من الحمص. وينتج نبات الترمس تسعة أو عشرة أضعاف البذور. وننزع ساق القمح والشعير، ونقطع ساق الفول، وننشر ساق الحمص، ونباتات الترمس والعدس.

وتستخدم سيقان القمح والشعير لغذاء الخيول. وتستخدم سيقان العدس والفول والحمص لغذاء المواشي، كما تستخدم سيقان نباتات الترمس كوقود. ويفضل الفحم المستخرج منه في تصنيع بارود البنادق.

ويتم حصاد البرسيم بعد ثلاثين يومًا من البذر، ويتم الحصاد بعد فترة عشرين يومًا بين المرتين الثانية والثالثة. وتُحصد الحلبة بعد سبعين يومًا من البذر، وعباد الشمس بعد ستين يومًا ويستخدم غذاء للبقر. ويتم جمع الكتان في مارس، وتفصل البذور، ويتم حفظ الحزم مدة عشرين يومًا في حفر مربعة، جانبها عشرون قدمًا، وعمقها ثلاثة أقدام مملوءة بالماء. وينتج الفدان خمسمئة وستين رطلاً من الكتان، وإردبين [الإردب يقابل 184 لترًا.] من البذور. لوالقرطم نبات من مصر يعطى الزعفران الذي يستخدم في الصباغة. ويبدأ الحصاد في أبريل ويستمر شهرًا، وتسحق الزهور في المهراس، ويعطي الفدان ثلاث قناطير من الزعفران، وثلاث أرادب من البذور. ويبذر اللفت (selgam) بمقدار ثاني عُشر الإردب للفدان، وينتج ست أرادب. ويظل الخس ستة أشهر في الأرض، ويحقق عدة محاصيل ويبذر باستمرار مع العدس، وغالبًا ما يُجمع المحصولان في نفس الوقت بخلط العدس مع القرطم. ويُستخرج الزيت من بذور الكتان والقرطم واللفت والخس.

وفي أراضي الري الصناعي (أو النباري)، تُزرع الذرة الشامية (البيضاء)، والذرة والأرز وقصب السكر، والنيلة والقطن والحناء. وينتظر المزارع أن ترتفع مياه النيل حتى يمكن ري الحقل بواسطة الدلو. وإذا تأخر

كثيرًا يشكل السماد. والذرة عبارة عن ذرة بيضاء، وهو غذاء أهل النوبة والصعيد. وكلما اقتربنا من القاهرة تقل هذه أو كانت التربة مرتفعة جدًا يقوم المزارع بوضع دلوين الواحد فوق الآخر. ويغطي الأرض أحيانًا بطمي النيل الذي الزراعة، ونرى القليل منها في نهاية الدلتا. ويحرق المزارع الأعشاب الفاسدة التي تغطي حقله والتي لا تصلح إلا لغذاء الإبل. ويحفر في الأرض خطًا بالمحراث فيغمره الماء بمقدار بوصتين، ويقسم حقله إلى مربعات، ويبذر فيه واحدًا على أربعة وعشرين من الإردب من الذرة. ويروي لمدة عشرة أيام، ويتلقى مائتين وأربعين للواحد، أو عشر أرادب لكل فدان. وترتفع الساق إلى عشرة أو اثني عشر قدمًا، وقود ممتاز خاصة لأفران الجير أو القرميد. وتستخدم ساق القرطم ونبات الترمس والذرة البيضاء والذرة والخوص المتوفرة في مصر في نقل الخبز، وتعادل 20% من تكاليف قيمة الخشب وحزم الحطب لنفس الأمر في أوروبا. ويزرع الذرة بنفس أسلوب الذرة الشامية. ويزرع البصل إردبًا لكل فدان، وينتج ستة عشرة إردبًا، ويباع الإردب بنصف بتاك (pataque) [حوالي ثلاثة فرنكات، 21 سنتيم.]

ويُزرع الأرز في مناطق مختلفة من الدلتا وفي الفيوم، ويلزم اثنا عشر ثورًا لزراعة عشرة أفدنة من الأرز؛ حيث يقطع الحراث الأرض عدة مرات، ويغمرها بالمياه بوسائل صناعية، فتتدفق المياه، ولا يبذر الأرز إلا في نصف الأراضي الجاهزة، ويغرس نصف السيقان في الجزء الآخر. وينتج الأرز ثمانية عشر للواحد وخمسة أرادب لكل فدان.

وتزرع النيلة في شهر مايو، ويجمع أول محصول في أغسطس، والثاني بعد أربعين يومًا. وتستمر الشتلة أربع سنوات. وتسقى باستمرار، وإذا اخترق الفيضان حقل النيلة أتلفه.

ويزرع قصب السكر في أبريل، فتحرث الأرض على شكل عدة مسارات عمودية، ويسقى ويجمع القصب في يناير أو يستمر عامين، ويعطي نتاجًا منذ السنة الأولى.

ويزرع القطن في مايو، وتبقى الشتلة عشر سنوات.

والحناء شجيرة من الهند تزرع في مصر، عرفها القدماء من قبل باسم قبرص (Cyprus)، وكانوا يستخدمون الحناء لصباغة أغطية المومياوات. وكانوا يطحنون الأوراق ويصنعون عجينة تستخدم في تلوين الأظافر باللون الأحمر البرتقالي. وتعطي اللون البني عند استعمالها على الصوف.

وتتم زراعة الورود على بُعد مسافة قدمين من بعضها البعض. ولا تُعطي الورود إلا السنة الثانية، وتسقى كل خمسة عشر يوما، وتدوم الشتلة خمس سنوات. وماء ورد الفيوم مشهور جدًا.

ويمكن زراعة السكر والنيلة والأرز والقطن في أكبر جزء من أراضي وادي النيل، ولكن هذه المحاصيل مكلفة للغاية، فتحتاج إلى قروض كثيرة ورأسمال. وهذا السبب الواهي يحول دون المزيد من الاتساع في هذه الزراعة التي لا تقارن كثرة فائدتها بغيرها.

وتنتهي المحاصيل الأولى في الأراضي التي غمرتها مياه الفيضانات في مارس وأبريل، ويتم الحصول على محصول ثان، ولكن فقط من الأراضي التي أمكن ريها؛ حيث القمح والشعير والعدس والفول، والتي تمت زراعتها في المرة الثانية، والتي يطلق عليها الشتوي. وهذا المحصول أكثر وفرة بمقدار السدس، ولكن وفرة الإنتاج تمتص فائض تكاليف الري. وعلى العكس يوجد محصول ثان من الذرة والذرة الشامية وغيرها يطلق عليه البالي (el-baly) من الأراضي التي لم يكن ممكنًا غمرها بالمياه، وتنتج أقل بكثير من المحاصيل الأولى. والمحاصيل الثالثة هي: الخيار والخضراوات، والأعلاف، الخ، ويطلق عليها الوجر (el-ougr).

ولا يحقق الفدان المزروع من الشعير والفول ونباتات الترمس والبازلاء والذرة إلا نصف ما كان يحققه لو زرع قمحًا. أما الفدان المزروع برسيمًا، أو قرطمًا، فإنه يحقق ما يحققه الفدان المزروع قمحًا.

ويستخدم في مصر ما بين مئة وخمسين ألفًا إلى مائتي ألف من الثيران للطواحين بالعجلات. وتدار بعض مضخات النار وبعض الطواحين بالرياح أو المياه، ولها فائدة مضاعفة لرفع المياه إلى الارتفاع المطلوب، ولها نتائج اقتصادية كبيرة جدًا في تكاليف الزراعة.

وكان أردب القمح في القاهرة يساوي ثمانية فرنكات عام 1798. وغذاء الحصان يساوي اثني عشر باره (Paras)، وغذاء الثور عشر بارات، والجمل خمسة، ويومية الرجل عشر بارات. وثمن شراء الثور يساوي ستين بارتك، والجمل أربعين، والحصان العادي خمسين، والمعز واحد ونصف، والخروف اثنين.

وطول الفدان بالقاهرة 1560 قامة مربعة، وهو ما يعادل جريب و73 سنتيم تقريبًا في باريس. وفدان الأقباط أصغر كثيرًا، وفدان دمياط 1810 قامة. ويعادل إردب القمح مقياس أربعة عشر صاعًا فرنسيًا وسدس الصاع [مكيال سعته حوالي 13 لترا] ، والوزن العادي من 250 إلى 260 رطلا [يزن الرطل 444 جرام و7 سنتجرام القنطار يساوي 100 رطل] ويستخدم الإردب للأرز: ويزن 1131 رطلاً. ووزن الأقة رطلان. والبره أو المديني 1/ 28 من الفرنك. والباتك تساوي 90 ميدان. وترجع قيمة قيمة النقود عام 1798 إلى 10%، وتباع الأراضي بعشرة أمثال دخلها.

وبمصر ثمانية أو تسعة ملايين فدان من الأراضي، ودخل الفدان خمسون جنيهًا، بما يحقق دخلاً ما بين أربعمئة إلى خمسمئة مليون جنيه. ويقدر دخل الفدان بخمسين جنيهًا حسب قيمة المواد الغذائية الأدنى سعرًا.

ويكثر النخيل، ويبدأ إنتاجه بعد أربعة سنوات، وبصرف النظر عن قيمة الخشب الذي يستخدم في البناء، فإن الأوراق تستعمل في صنع القفف والأقفاص، فعندما يتعرض الخشب للهواء، فإنه يجف من الداخل. والبلح غذاء جيد للغاية. وشجر الجميز في مصر غاية في الجمال، ويزدهر شجر التوت، والسنط من نوع متميز، ولا يكثر شجر البرتقال كما يجب أن يكون. وتوجد بعض أشجار الزيتون في الفيوم. كل هذه الأشجار بكميات صغيرة ما عدا النخيل، وما يتم قطعه منها لا يُزرع مكانه. وبذلك يتم تراكم الأنقاض ولا يعاد إصلاحها أبدًا. ويمكن أن يزدهر الحرير والقرمز والعنب في هذا البلد الجميل.

وأجناس الخيل والحمير والبغال أصيلة، وقد تحسنت واكتملت باختلاط أجناس الصحراء مع أجناس وادي النيل. ولا يستخدم الحصان في الزراعة، ولكن يقتصر أساسًا على الركوب. ويفضل العرب الأفراس (أنثى الخيل) لأنها لا تصهل، ولا يبيعونها إلا نادرًا. وتبقى الخيول غير خصية، وهي جنس جميل من أصل عربي صرف، وليس لها سوى سرعتين هما الخطوة المضاعفة والعدو، وليس الخبب أبدًا. ولا يشرب الحصان إلا مرة في اليوم، وغذاؤه الشعير أو التبن المهروس. ويستخدم البغل لركوب الشيوخ والعلماء ورجال القانون والدين. ويحمل الحمار قدر ما يحمله البغل، وهو كبير وقوي جدًا، ويستخدم لجر عربات أجرة القاهرة (الحنطور)، وفائدته بالنسبة لمصر لا تعد ولا تحصى. ويوجد منه عدد وفير.

ويركع الجمل بالإشارة ليتلقى الحمل على ركبتيه، ويحمل من أربعة إلى ستة قناطير. واللجام عبارة عن طوق يعبر المنخر من خلال فتحة الأنف، ويمسكه الفارس بواسطة حبل. ويُرسل الفارس الساقين متربعًا حول قربوس السرج. والجمل وحيد السنام هو جمل خفيف وسريع، لكنه لا يستطيع أن يضارع سرعة الحصان. وهرولة الجمل العربي، والتي هي سرعته المعتادة، هي أسرع من عدو الحصان، فالحصان في عدوه القصير أكثر سرعة. والحركة التي يشعر بها الفارس على الجمل هي حركة تأرجح، ويسير بخطوة مزدوجة طوال اليوم، ويقطع بسهولة من عشرة إلى عشرين فرسخًا في اليوم، ومئة فرسخ في خمسة أيام من السير الحثيث عبر الصحراء.

والثيران عددها وفير، وهي من الأنواع الجميلة، ونرى في كثير من الأحيان الرجال يعبرون القنوات جالسين على ثيران تعوم. ويوجد العديد من الجاموس. والكلاب كثيرة العدد وليس لها أصحاب، وتهيم على وجوهها في المدن والقرى، مما يسبب الكثير من المضايقات. وعند المسلمين في هذا الصدد أحكام سابقة غير معقولة للغاية. والأغنام كبيرة وصوفها كثير. وتوجد كميات من الماعز وبعض الخنازير البرية، والقليل من الثعالب، ولا ذئاب على الإطلاق. ونجد فقط الخنازير عند المسيحيين.

والدجاج لا يعد ولا يحصى. وهناك مئة مصنع في مصر لحضانة البيض وأفراخ الدجاج. وتسمى هذه المصانع بالمعامل. وكل معمل يشتمل على عشرة أو خمسة عشر فرنًا، يحتوي كل منها على عشرين ألف بيضة. ويتم تسخين الفرن بواسطة البوص، حتى تصل إلى 32 درجة من مقياس الحرارة الريوموري. وبعد واحد وعشرين يومًا يتم تفقيس الدجاج، وتخرج الأفراخ (الكتاكيت) من قشر البيض. ويشتغل المعمل في القاهرة في الفترة من مارس حتى يونيو، وفي صعيد مصر خلال الفترة من يناير حتى مارس. وتتم أربعة تفريخات، ويفرخ كل معمل مئة وعشرين ألف دجاجة، أي أربعة وعشرين مليون دجاجة للمائتين. ويقدم السكان بيضتين إلى المعمل، وبعد واحد وعشرين يومًا يحصلون على دجاجة، والباقي هو مكسب المعمل. وسدس البيض غير مخصب، ومنذ اليوم الحادي والعشرين تبدأ الأفراخ في الخروج من قشر البيض، وتتحرك كلها في اليوم الحادي والعشرين، ويتم بيع المئة مقابل ثمانين ميديني (Médins).

وبعض النساء يقمن بمهمة تربية هذه الأفراخ دون الدجاج، ويربين منها خمسمئة في نفس الوقت. وبعد شهر يتركهم في فناء الدواجن. ولا يستعين مدير المعمل بالترمومتر، ومع ذلك يحافظ على 5 أو 6 درجات حرارة في مصنعه، ويلزمه خبرة تامة مما يجعل المهنة تتوارث، لذلك لا يدربون إلا أبناءهم وأولاد أخواتهم. ويوجد البط والديك الرومي وكل دواجن الفناء بكميات كبيرة.

ويوفر البحر المتوسط والبحر الأحمر وبحيرة المنزلة وبحيرة البرلس والنيل عددًا كبيرًا من الأسماك، لكن أسماك النيل لها طعم الوحل مما يجعلها غير سائغة. ويُؤجر المصيد في بحيرة المنزلة بمبالغ ضخمة، وينشغل ستمئة مركب وألفان أو ثلاثة آلاف من البحارة. وبحيرة مريوط - حسب هيرودوت - كانت تُؤجر بمبلغ يساوي ثمانية عشر مليون فرنك. ولا نشاهد تماسيح في مصر السفلى، لكن عددهم قليل في الصعيد، وهي قليلة الشراسة حسب ما يذكره قدامى علماء الطبيعة، فقد كان الجنود يسبحون دائمًا على مرأى منهم. ولم تحدث إصابات إلا قليلاً.

وأبراج الحمام تغطي مصر، فيبدو الجو غائمًا بأسراب الحمام. وقد كانت بداية استخدام الحمام الزاجل (لحمل البرقيات) في الموصل، ولاقت هذه التجارب نجاحًا كبيرًا في مصر. وأطلق على هذه الرسل "ملائكة الملوك". وكانت أبراج الحمام تغطي مصر وسوريا؛ حيث يذهب الحمام الزاجل من الإسكندرية إلى حلب في ... ساعة. ويوجد 235 فرسخًا في .... الساعة من بغداد إلى حلب. وإقامة مبنى البرج مكلفة ولكنها مفيدة. وعندما وصل الفاطميون إلى الحكم في مصر وجدوا كل الأبراج منظمة، وأدخلوا عليها التحسينات. وفي عام 1450، كانت الأبراج قد شيدت على النحو التالي: على طريق الإسكندرية برج في قصر القاهرة، والثاني في منوف،

والثالث في دمنهور، والرابع في الإسكندرية. وعلى طريق دمياط كان البرج الأول في قصر القاهرة، والثاني في برج بني (Bcny)، والثالث في المنصورة، والرابع في دمياط. وعلى طريق غزة كان البرج الأول في القاهرة، والثاني في بلبيس، والثالث في الصالحية، والرابع في قطية (Qatych)، والخامس في وارا د (Ouarad)، والسادس في العريش، والسابع في غزة. وعلى تلك الحال كانت كل محطة تبعد ما بين عشرة فراسخ إلى ثمانية عشر فرسخًا. ويستغرق الحمام الزاجل ساعتين أو ثلاث ساعات لقضاء البريد الجوي. ومن غزة إلى القدس كان يوجد برجان، وثلاثة من غزة إلى الخليل (Hébron)، وسبعة من الخليل إلى دمشق، وخمسة أبراج من دمشق إلى طرابلس. ونرى من ذلك أن الحمام لا يستخدم فقط في الصحراء وفي السهول المسطحة، ولكن أيضًا في البلاد الجبلية. ولذلك يحمل الحمام في قفص مغطى إلى المحطة التي قبل محطة البرج، حيث يقيم عادة مع صغاره وعائلته. وتُربط الرسالة تحت جناحه، وعندما يخرج من البرج يتوجه ويتجه برفرفة سريعة إلى عائلته، ويحمله رجل من الحرس عند الحاكم أو إلى صاحب السلطة لينزع بنفسه الرسالة.

ومن بيروت - وهي ميناء جبل لبنان - يأتي الثلج إلى القاهرة لعمل المثلجات، وذلك على مراكب صغيرة تصل إلى بولاق، ومنها تنقله الجمال إلى القصر. وكان النقل يتم قديمًا بواسطة الجمال التي ترحل من دمشق، حيث تسافر خمسة جمال يقودها رجل واحد، وذلك كل ثمانية وأربعين ساعة. وقد أقيمت أربع عشرة محطة على الطريق للتناوب، ويصل الثلج إلى القاهرة بسرعة.

ثاني عشر: تمارس مصر التجارة عن طريق البحر المتوسط مع إسبانيا وفرنسا وايطاليا والقسطنطينية، وكل الشرق، وآسيا الصغرى، وسوريا، وسواحل طرابلس، وتونس والجزائر والمغرب، وعن طريق البحر الأحمر مع الجزيرة العربية؛ ميناء ينبع، جدة، مكة، والحبشة، وعن طريق قوافل الجنوب؛ حيث دارفور التي تتواصل مع السودان، وعن طريق قوافل الغرب، مع مملكة فزان التي تتصل مع امبراطورية بورنو، وتمبوكتو، وأخيرًا، عن طريق قوافل سوريا، مع غزة، والقدس، ودمشق، وبغداد، والبصرة، وداخل الجزيرة العربية. وتستقبل مصر بضائع من كل هذه البلاد، فهي سوق ومستودع عام لكل ما يتم تبادله بينها. وعلاوة على ذلك، فإنه يأتيها من المغرب، وتونس، وطرابلس، والجزائر، قوافل الحجاج المتجهين إلى مكة، ويمارسون التجارة. وتحصل [مصر] -من فرنسا وإنجلترا وليفورن والبندقية وتريستا - على الأقمشة والحرير والجواهر، وبعض الخردوات المعدنية، والعقادة والأسلحة والرصاص والحديد. وتعمل على نقل جزء من هذه البضائع إلى الجزيرة العربية، وإلى داخل إفريقيا، وتحتفظ بالجزء الباقي لاستهلاكها. ويصلها من القسطنطينية ومن اليونان وموانئ

الشرق الدخان والفحم والأخشاب والعبيد البيض من الرجال والنساء الذين يتم بيعهم في البلاد. ويصلها من الجزيرة العربية - عن طريق البحر الأحمر- البن من موكا (الجزيرة العربية)، والبخور والعطور والتوابل وبضائع من الهند تصلها من جدة، وتحتفظ بجزء من هذه البضائع، وترسل الأخرى إلى القسطنطينية، وإلى الشرق وإلى قبرص. ويصلها من قوافل الحبشة ودارفور وفزان وعن طريق قوافل حجاج المغرب وتونس وطرابلس العبيد السود من الذكور والنساء، والسنام والجمال، والصمغ وتراب الذهب وسن الفيل، والكركدن والتمر هندي، وريش النعام وبذور الشسمه (schismeh)، والقرب الكبيرة من الجلد، والببغاوات والزباد، وقرون الكرتيد (cartide). ويحفظ جزء من هذه الأشياء لاستهلاكها، ويُرسَل الباقي إلى الجزيرة العربية والقسطنطينية وأوروبا. وكل هذه الصادرات تتجاوز مبلغ مئة مليون فرنك، وتصل إلى الإسكندرية ودمياط والسويس والقصير، أو إلى القاهرة مباشرة.

وتصدر من إنتاجها لتسدد ما تحتفظ به من القمح والشعير والفول والحمص والعدس، ونبات الترمس والكتان والبلح والزعفران والحناء، والأرز والسكر والنيلة والسنا، والنطرون وحجر الشب، ونسيج غليظ يرسله التجار إلى أمريكا، والترياق الذي يصنع في البلاد سرًا. وقيمة هذه الصادرات تدل على وفرة محصول العام، ويكون الميزان في صالح البلاد في السنوات العادية. ودخل الأرز وحده ستة ملايين فرنك. وكانت مصر ترسل إلى مرسيليا، ولندن والبندقية أو تريستا البن والروائح والصمغ والسنا والنطرون، وحجر الشب، وريش النعام والتمر الهندي، وسن الفيل، والبلح والزعفران، والحناء، والترياق، والأقمشة.

وترسل مصر إلى القسطنطينية القمح والأرز والشعير وبعض الخضراوات من كل نوع، والكتان والأقمشة والبن والنيلة، وبضائع هندية، وريش النعام والصمغ وفرو الزباد. وترسل إلى الجزيرة العربية - عن طريق السويس والقصير- القمح والأرز والشعير والفول، والخضراوات من كل نوع، والحيوانات صغيرها وكبيرها، والجوخ والجواهر والأدوات المعدنية، والأسلحة والخردوات (تجارة نثريات الألبسة). وإلى داخل إفريقيا [ترسل مصر] القمح والأرز والأدوية والأقمشة الكثيرة والجوخ والحرائر، والأسلحة، والأدوات النحاسية والحديدية، وغيرها.

وتصل قيمة كمية تجارة مصر ذهابًا وإيابًا مع كل الجماعات إلى مائتي مليون فرنك، ويحقق البن وحده ثلاثين مليونًا حسب سعر البيع في أسواق مارسيليا، وليفورن، والقسطنطينية.

وتصل قوافل الصحراء دون انتظار إلى القاهرة مثل مواكب السفن التجارية التي تصل إلى الميناء. ويشار

إلى أن القافلة كانت تصل إلى الأهرام عن طريق صحاري ليبيا، فتطلب عبور النيل، ومكانًا للخيام؛ حيث تصل قافلة من فزان أو المغرب أو الجزائر أو طرابلس أو دارفور أو سنار، ويعلن عن وصول قافلة من صحراء السويس أو من سوريا؛ تصل من صور أو الجزيرة العربية أو القدس أو دمشق أو بغداد أو غزة. وتقيم القافلة خيامها بالقرب من المدينة، وفي الوسط يقام سوق. وتتشكل قوافل سوريا من خمسمئة جمل، وتحمل التبغ والصابون والزيت، وأحيانًا الفحم والفواكه والزبيب. أما قوافل سنار فتتكون من نحو خمسمئة إلى ثمانمئة جمل، ويصل منها الكثير في السنة. ولا يصل من دارفور إلا قافلة، ولكن بين ألف ومائتين إلى ألف وخمسمئة جمل، وما بين ثمانية آلاف إلى عشرة آلاف عبد. ويستخدم ثلث القافلة في حمل الماء، ويستخدم الربع لنقل المؤن، والثمن فقط يحمل البضائع.

وتُحصل رسوم الدخول والخروج في جمارك الإسكندرية والسويس والقصير والقاهرة وأسيوط وأسوان.

وإذا كانت حال التجارة في مصر تلك لا تزال، فما الذي كان ينبغي قبل اكتشاف رأس الرجاء الصالح! وفي زمن الرومان كانت تجارة الهند توفر 1%، وهو ما أدى إلى وصول الإسكندرية إلى درجة عالية من الرخاء بعد سنوات قليلة من وفاة الإسكندر.

وتأتي الزهرة من الصحراء النوبية على بعد عشرة أيام من أسوان، ويضطر العرب الذين ينقلونها إلى بيعها إلى شركة لها حق الامتياز حصريًا. ويأتي حجر الشب من صحراء سيلمه على طريق دارفور، والنطرون من بحيرات النطرون. أما السكر والنيلة فتستخدمها التجارة في القسطنطينية. واحتياجات مصر الأساسية هي الزيت والخشب والتبغ، وتصل عن طريق الجزيرة العربية وسوريا. وتعتبر تجارة الدخان من اللاذقية إلى دمياط مهمة.

ثالث عشر: كان الملتزمون هم أسياد وملاك القرى، ويعينون في كل مجالات البلدية، وينظمون الجباية (الضرائب) والشرطة والإدارة. ففي كل قرية يوجد: (1) شيخ البلد، وهو القاضي، ويتم تعيين عدد من الشيوخ لمساعدته. ولقد كانت هذه الوظائف تتوارث وتنتقل من الأب إلى الابن، (2) والشاهد أو النائب (القائمقام)، ويعينه الفلاحون فهو ممثلهم، ويمسك سجل كل ملكياتهم الغارقة، والضرائب التي يتم فرضها، والمدفوعات التي يسددها الفلاحون طوال العام، (3) والمشد وهو قاض مجوسي. (4) والصراف، وهو قبطي يرسله مدير الملتزم ليقيم عامًا في البلدية ويرأس تحديد الأدوار، ويحقق إيراد الضرائب: وهو المحصل، (5) والخولي أو المسّاح، وهو فلاح من القرية يقوم بمسح الأراضي الغارقة كل عام، (6) والخفراء وهم حراس القرية، ويحافظون على

المحاصيل والمياه والجسور، وينبهون القرية عند اقتراب البدو، (7) والإمام وهو شيخ الرعية، (8) وحلاق ونجار تتحمل البلدية نفقتهما وإعاشتهما.

ويقوم الملتزم ببيع ونقل الملكية، ورهن قريته، وعند وفاته تتحول إلى وريثه الطبيعي أو من له وصية. والأخير يحصل على أمر ترشيح من الحاكم، ويسدد له رسمًا يعادل ثلاث سنوات من عائد الأرض. وقد يكون الفلاح عاملاً كادحًا أو مالكًا، فإذا كان عاملاً فيعيش باليومية ويمارس مهنة أو يملك حانوتًا؛ ويمكن أن يملك أملاكًا من نوعين: (1) ملكية داره، وأثاثه، وحيواناته، وأمواله. (2) ملكية العطار، وهو حق زراعة الحقل لا ينتزع ملكه. هذا الحق يحوله ويرهنه وينقله إلى وريثه، ويزرع حقله كما يحلو له، ولا يقدم تقريرًا لأحد ما دام يسدد حق الملتزم. وعند موت الملتزم دون وريث تعود كل أملاكه من النوع الأول إلى الحكومة، ولكن العطار هو النوع الثاني من الملكية، وعندما يموت الفلاح دون وريث ترجع أملاكه من النوع الأول إلى الملتزم، ولكن [أراضي] العطار - أو النوع الثاني من الأملاك - فترجع إلى الملتزم الذي يضطر لبيعها إلى فلاح آخر. وتوجد أراضٍ يُقيمها الملتزم بنفسه أو يؤجرها لمدة عام أو عدة أعوام، أو يزرعها بالسخرة بواسطة فلاحي القرية، وهذه الأراضي يطلق عليها الوسيّة. ونسبة أراضي الوسيَّة إلى أراضي العطار عشرة في الألف. وفي الصعيد لا يوجد إلا أراضي عطار، ولا توجد أبدًا أراضي الوسية.

ويدفع الفلاح المال الحر، ومعناه الحق القانوني إلى الملتزم، ويضطر الملتزم لدفع الضريبة إلى الحاكم، وكل الحقوق للسلطات المحلية. ويدفع المال الحر حسب الفيضان والزراعة التي تتم، وحسب مقدار المحاصيل التي يتم جمعها. وعلى كل حال يتم سداد التعريفة المطلوبة عن كل فدان. والفدان المزروع بالنيله، أو قصب السكر، أو الكتان أو الأرز ...الخ، يُدفع عنه أكثر مما لو كان مزروعًا قمحًا. وقد وضع السلطان سليم التعريفة بالنسبة للمال الحر في القرن السادس عشر، ولكن الاختلاف الذي حدث في النقود وابتزاز الملتزمين، وهم أقوى من الفلاحين الفقراء منذ زمن، قد أدى إلى مضاعفتها، سواء عندما فرضوا ضرائب إضافية يُطلق عليها "حق الكاشف الجديد"، أو عن طريق البرّاني القديم أو البرّاني الجديد. وفي عام 1798 كانت كل هذه الضرائب تشكل المال الحر الذي كان أكثر من ضعف القديم.

ويسدد الملتزم عن المال الحر: (1) الميرة، أو الضريبة المستحقة للسلطان الكبير، وهي ضريبة لم تتغير منذ السلطان سليم عام 1520. (2) وحقوق الكاشف، والفائض الذي يطلق عليه "الفايظ"، وهو دخل الملتزم. ويوجد فارق بين ما يدفعه الملتزم من الميرة وبين حقوق الكاشف. ووفق الحسابات التي قدمها الأقباط، فإن المال الحر

يحقق في السنة العادية ثلاثين مليون فرنك، وحقوق الكاشف منها 20% أو الخُمس [بمقدار] ستة ملايين فرنك، والميرة ستة ملايين وأربعمئة ألف فرنك، وهو أكثر قليلاً من الخُمس؛ وبذلك يكون الفايظ أو دخل الملتزمين سبعة عشر مليونًا وستمئة ألف فرنك، أي حوالي ثلاثة أخماس.

وعلاوة على ذلك يدفع الفلاح مصاريف محلية ومتغيرة لا تدخل في المال الحر، وتقدر بستة ملايين. وعلى ذلك قد تصل كل الضرائب التي يتم تحصيلها على الأراضي في مصر إلى ستة وثلاثين مليون فرنك، ودون حساب محصول الوسية والرزاق، وكذلك أملاك المساجد والمستشفيات والمدينتين المقدستين (مكة والمدينة)، والتي لا تدفع [عنها] أية ضريبة. والأوقاف مؤسسات دينية معفاة من الضريبة، وتشمل الحدائق والوكالات والمنازل، وإيرادات الملتزمين لنفس الغاية.

ويُسدد جزء من المال الحر من القمح والشعير في أقاليم صعيد مصر، ويخص إقليم أسيوط والمنيا ونصف إقليم بني سويف، وتدفع هذه الأقاليم - عن حساب مالها الحر- ثمانية عشر مليون أردب من القمح والشعير، وهو ما يعادل زراعة تسعمئة ألف فدان. ويضم هذا الجزء من مصر حوالي مليون وسبعمئة ألف فدان، وهو ثلث كل مصر، ومساحته حوالي ألف وسبعمئة فرسخ مربع من مرتبة الأراضي الغارقة.

وفي عام 1798، حققت الضريبة الشخصية مليوني فرنك، وبلغت الضرائب على النفقات وعلى المسيحيين والجمارك ستة ملايين، ومجموع مختلف الضرائب الصغيرة مليونين، والجملة عشرة ملايين. وكان مليون فرنك يتم تسليمها لحساب السلطان الكبير باسم الميرة، إذ كان مجموع الضرائب في مصر ستة وأربعين مليون فرنك، بما فيها ستة عشر مليونًا تخص فايظ الملتزمين. وتشكل ميرة السلطان الكبير مجموع سبعة ملايين وأربعمئة ألف فرنك.

ويقوم الأقباط وحدهم بجمع المال الحر، ويقومون بالإدارة كمعاونين للملتزمين وكمديرين من قبل الحكام باعتبارهم صرافين من عدة طبقات. ويشكل الأقباط اتحادًا مهنيًا سريًا يتقاسم كل المكاسب، وهي مكاسب ضخمة للغاية، حيث: (1) يحددون إمدادات عينية يسددها الفلاح. (2) ويكسبون من المصاريف المحلية، (3) ومن فرق العملات: يحصلون البطاقة 82 بيتاك أو 83 مديني، وهي تساوي 90 مديني. وبذلك يخسر الفلاح 8% أو 9%. (4) وأخيرًا يحققون مكاسب غير مباحة بتفضيل الفلاح في إعداد الأدوار وتفضيله سواء عند مسح الأراضي أو تطبيق تعريفة أقل لقيمة الزراعة. ويقدر بعض الأشخاص المتعلمين مكاسب الأقباط الغير مباحة من تقدير مسح

الأراضي بثمانية ملايين فرنك. ثانيًا: ويحقق شيخ البلد أيضًا أرباحًا ضخمة، ويدفع إلى الملتزمين - الذين يعرفون الأمر- كل عام إيرادًا أو فدية قبل وقف حساباتهم. وتقدر الفوائد الغير مباحة التي يحصل عليها شيوخ البلد بستة ملايين فرنك. وثالثًا: يفرض المماليك حكام الأقاليم أو الدوائر - أيضًا - فدية من الخيل والجمال والأدوات والنقود تبلغ تسعة ملايين فرنك. وأخيرًا يطالب العرب بحقوق الحماية أو يفرضون بالأمر مساهمة قدرها تسعة ملايين. وخلاصة الأمر أنه يجب على الفلاح أن يدفع كل ذلك. وتشكل هذه المصائب الأربع الكبرى على الأرض عبئًا قدره سبعة وعشرون مليون فرنك. وإذا دخلت كل هذه المبالغ الخزينة، لوصلت الضريبة إلى ثلاثة وسبعين مليون فرنك، منها سبعة عشر مليونًا لصالح الفايظ، بما يحقق ستة وخمسين مليونًا لصالح الخزينة. ويساوي المليون في مصر ثلاثة ملايين في فرنسا، حيث أن قنطار القمح يساوي 3 فرنكات، ويومية الرجل 8 فلس، وغذاء الحصان 6 فلس، وقيمة كل المواد الغذائية الأخرى، دواجن ...الخ، تساوي خُمس ثمن بيعها في فرنسا. وتساوي خمسون مليونًا في مصر مئة وخمسين مليونًا في فرنسا.

وقد كانت الضرائب تحقق في زمن البطالمة مئة وثمانية وستين مليونًا. وعند فتح عمرو في القرن السابع، كانت الضرائب تحقق مئة وأربعة وأربعين مليونًا. وفي أثناء الأربعين شهرًا في عهد الإدارة الفرنسية، كان على البلاد أن تتحمل: (1) الحرب والغزو في عام 1798. (2) والحرب وغزو الصدر الأعظم في عام 1800. (3) وغزو الإنجليز عام 1801. ومع ذلك ففي أثناء الأربعين شهرًا حصلت الخزينة الفرنسية على ثمانين مليونًا.كما حصّل المماليك من جانبهم، وحصّل جيش الصدر الأعظم من جانبه، وكلف الجيش الإنجليزي البلاد كثيرًا، واستفاد العرب كثيرًا في أثناء الأزمة. ويمكن أن نقدر دخل مصر في الوضع الحالي بخمسين مليون فرنك. وقد قدر إستيف (Estève)، مدير المالية، دخل عام 1801 بمقدار ثمانية وأربعين مليون فرنك، وكانت البلاد في حالة حرب، وكانت تجارة البحر المتوسط قد أعاقتها جولات الأعداء البحرية.

رابع عشر: **تستطيع مصر أن تساهم من اليوم في إعالة جيش من خمسين ألف رجل، وعمارة بحرية من خمس عشرة سفينة، جزء منها في البحر المتوسط، وجزء في البحر الأحمر، وعدة أساطيل صغيرة في النيل وفي البحيرات. وتوفر مصر كل ما قد يكون ضروريًا ما عدا الخشب والحديد، واللذين تحصل عليهما من ألبانيا وسوريا وأوروبا مقابل منتجاتها الأخرى. وتصل مساهمتها إلى خمسين أو ستين مليونًا. ولكن إلى أية درجة من الرخاء يمكن أن يرقى هذا البلد الطيب إذا كان محظوظًا بما فيه الكفاية ليتمتع خلال عشر سنوات بالسلام ومنافع الإدارة الفرنسية! في هذه المدة من الزمن سيكون قد تم تحصين الإسكندرية، وتصبح هذه المدينة أقوى من المدن**

المحصنة في أوروبا، ويصبح شعبها هامًا جدًا. وستكون قد انتهت دار الصناعة البحرية، وسيصل النيل كل عام عن طريق ترعة الرحمانية إلى الميناء القديم ويتيح الملاحة لأكبر عدد من القوارب، وتتركز فيها كل تجارة رشيد، وأيضا كل تجارة دمياط تقريبًا. وكذلك كل المنشآت المدنية والحربية. وعندئذ ستصبح الإسكندرية مدينة غنية، ويخصب ماء النيل المنتشر حولها عددًا كبيرا من الحقول، وتصبح في نفس الوقت مكانا للإقامة الممتعة، المفيدة للصحة والأمنة. وسيتم فتح الاتصال بين البحرين، ويتم تشييد ورش السويس، وتحمي التحصينات المدينة والميناء، ويزود ري الترع والصهاريج الشاسعة المياه لزراعة ضواحي المدينة. وستقيم قبائل، وتشيّد تحصينات في ميوس - هورمس حيث ترسو عمارة البحر الأحمر، وتجفف بحيرات المعدية والبرلس والمنزلة أو تخفض كثيرًا، وتعاد زراعة أراضٍ ذات أهمية كبرى، وتكفي المواد الغذائية الخاصة بالمستعمرات، كالسكر والقطن والأرز والنيلة، حاجة كل الصعيد، وتحل محل منتجات سان دمينجو، وتنظم أسلوب الفيضان والري الكثير من السدود والعديد من مضخات الحريق.

ولكن كيف سيكون هذا البلد الطيب بعد خمسين عامًا من الرخاء في ظل حكومة عادلة؟ يجد الخيال متعة في هذه اللوحة الساحرة! حيث يسيطر ألف هويس يوزع الفيضان على كل أجزاء الإقليم، إذ كان يضيع في البحر كل عام ثمانية أو عشرة مليار قامة مكعبة من الماء، وسوف يتم توزيعها على كل الأجزاء المنخفضة في الصحراء، وفي بحيرة موريس وبحيرة مريوط، والنهر بلا ماء حتى الواحات بل وأبعد كثيرًا من ذلك من جهة الغرب وجهة الشرق، وفي البحيرات المرة وكل الأجزاء المنخفضة في خليج السويس والصحراء بين البحر الأحمر والنيل. وسوف يقوم عدد كبير من مضخات الحريق وطواحين الهواء برفع المياه إلى الخزانات، ومنها تستخدم للري. والكثير من الهجرة الخارجية من أعماق أفريقيا والجزيرة العربية وسوريا واليونان وفرنسا وإيطاليا وبولونيا وألمانيا يمكن أن تضاعف سكانها أربع مرات، وتستعيد تجارة الهند طريقها القديم بقوة قدرتها التي لا تقاوم، ولو سيطرت فرنسا على مصر فإنها ستصبح هندستان كذلك.

ولكنني أسمع من يقول إن مستعمرة في مثل هذه القوة لن تتوانى عن إعلان استقلالها. فإن أمة عظيمة، كما كانت زمن سيزوستريس والبطالمة، سوف تسيطر دون شك على هذه الأرض المقفرة، فتستند بيدها اليمنى على الهند، وبيدها اليسرى على أوروبا، ذلك لو وجب على الظروف المحلية وحدها أن تقرر رخاءها وعظمة مدنها، فالإسكندرية كان يمكن أن تكون على قمة العالم، مؤهلة لقيادة العالم أكثر من روما والقسطنطينية وباريس ولندن وأمستردام.

ويكون أيضًا بعيدًا من القاهرة إلى الهند، ومن مدينة بايون (Bayonne) إلى موسكو، جيش قوامه ستون ألف رجل يمتطون خمسين ألف جمل، وعشرة آلاف حصان، ويحمل معه مئونة تكفي لخمسين يومًا، وماء يكفي لمدة ستة أيام، جيش يصل إلى الفرات بعد أربعين يومًا، وبعد أربعة أشهر إلى الهندوس في وسط السيخ، والماراثيون وشعوب الهندستان على أحر من الجمر لإزاحة نير من يقهرهم.

وبعد خمسين عامًا من وضع اليد، سوف تنتشر الحضارة داخل إفريقيا عن طريق سنار والحبشة ودارفور وفزان، وستقبل عدة أمم كبيرة الدعوة للتمتع بمزايا الفنون والعلوم ودين الله الحقيقي؛ لأنه عن طريق مصر ستحقق شعوب قلب إفريقيا النور والسعادة.



2 - خريطة الإسكندرية.

(37)

الفصل الثالث

غزو مصر السفلى (الدلتا)

أولا: الإبحار من مالطة إلى سواحل مصر، الإنزال في المرابط، الزحف على الإسكندرية (أول يوليو 1798).- ثانيًا: الهجوم على الإسكندرية (2 يوليو) ، العرب - البدو، رسو الأسطول في أبو قير (5 يوليو).- ثالثا: زحف الجيش إلى القاهرة ، معركة الرحمانية (10 يوليو).- رابعًا: معركة شبراخيت (13 يوليو). - خامسًا: سير الجيش حتى إمبابة. سادسًا: معركة الأهرام (21 يوليو).- سابعًا: عبور النيل ، دخول القاهرة (23 يوليو).- ثامنًا: معركة الصالحية، طرد إبراهيم بك من مصر (11 أغسطس).- تاسعًا: عودة نابليون إلى القاهرة ، العلم بكارثة الأسطول. (15 أغسطس). - عاشرًا: لو حارب الفرنسيون عام 1250 كما فعلوا عام 1798 لكسبوا الحرب، ولو حاربوا مثل عام 1250 للقوا الهزيمة وطردوا من البلاد.

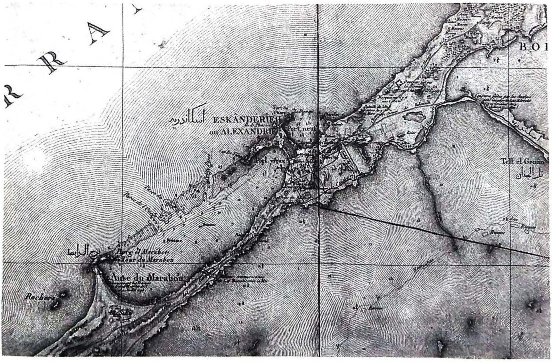
أولاً: بعد سبعة أيام من الإبحار في غاية الهدوء، وصلت العمارة إلى كاندي (Candie)، وأثارت جزيرة كريت المشهورة كل إعجاب وفضول الفرنسيين. وفي اليوم التالي لحقت العمارة - التي أرسلت إلى نابولي - بسفينة الأميرال، وجاءت بخبر أن نيلسون ظهر أمام تلك العاصمة في 20 يونيو، ومنها توجه إلى مالطة، ومعه ثلاث عشرة سفينة بها 74 مدفعًا كاملة. وعندما وصل الخبر إلى علم نابليون، أمر بالإبحار في طريقه ليهاجم إفريقيا على بعد ثلاثين فرسخًا من الغرب في اتجاه رأس داري (Deris) [الهيف] (El-hHeyf) في اتجاه رياح الإسكندرية حتى لا يصل أمام هذا الميناء إلا بعد وصول التقارير عما حدث. وأرسلت إليها فرقاطة لتحمل قنصل فرنسا، ولو أخطأت في السير لتعرضت للخطر. وفي يوم 29 يونيو أشارت الفرقاطة الخفيفة إلى رأس داري. جادلت سفينة (chebec) بحار خرج من الإسكندرية في 28 وأعلن أنه ليس هناك من جديد في المدينة. وفي يوم 31 دُل بالإشارة إلى برج العرب، وفي أول يوليو إلى عمود السواري والإسكندرية. وصرح قنصل فرنسا أن نيلسون قد ظهر يوم 28 يونيو أمام الإسكندرية، ومعه ثلاث عشرة سفينة بها 74 مدفعًا وفرقاطة، وأعلن أنه يبحث عن الجيش الفرنسي، وأنه استأنف الإبحار متجهًا إلى سواحل كراماني (Caramanie)، وكان الأتراك في غاية القلق فانشغلوا ليل نهار في ترميم فتحات أسوارهم، وكان المسيحيون في هلع. ولم يكن ضباط البحرية يخشون من مواجهة عمارة أقل قوة، ولكنهم كانوا يخشون هجومهم في أثناء إنزال القوات البرية، أو بعد نزولهم على الشاطئ. وقد اعتمدت ثقتهم بصفة خاصة على شجاعة المحاربين القدماء المتوجين بفخر انتصاراتهم.

أمر نابليون بإنزال الجنود على الشاطئ في نفس الليلة، واقتربت القافلة من البر في مستوى المرابط. واضطرت السفينة "الأميرال"، بعد أن اصطدمت بسفينة أخرى، أن ترسو على بعد ثلاثة فراسخ من الشاطئ (sic)،

كان البحر هائجًا، وقد شعر الجنود بصعوبة كبيرة في الوصول إلى القوارب وتجاوز الصخور التي تسد ساحل الإسكندرية، والتي كانت أمام الشاطئ حيث كان يتم الإنزال. فغرق تسعة عشر من الرجال، ومد الأميرال يده إلى القائد العام ليساعده لينزل في زورق الإنقاذ، وعندما رآه يبتعد صاح: "يتخلى الحظ عني"، وقد كانت كلمات تنبؤيه!

وقبل الإنزال أوصى بأمر اليوم:

"أيها الجنود... ستوجهون إلى إنجلترا ضربة مؤثرة في الصميم في انتظار الضربة القاضية عليها. وسوف تحققون النصر في كل مبادراتكم، فالأقدار في صالحكم، وبعد أيام قليلة سنقضي على المماليك الذين أهانوا فرنسا... إن أول أعراف العقيدة الدينية للشعب الذي ستعيشون معه هي شهادة "أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله"، فلا تخالفوهم، وتعاملوا معهم مثل فيالق الرومان التي حمت جميع الأديان... إن النهب يلحق العار بالجيوش ولا يثري إلا عددًا قليلاً من الرجال... إن المدينة التي أمامكم وسنقابلها غدًا قد بناها الإسكندر".



3- إنزال القوات في برج المرابط أول و2 يوليو 1798.

الخريطة (37)

وكان الجنرال مينو أول من نزل في الساعة التاسعة مساءً إلى شاطئ المرابط، وقاده مرشد بروفنسيّ عنده بالقرب من الولي سيدي البلابري (Sidi-el-Palabri). وبعد المعاناة من الإرهاق والمخاطر، ترجّل القائد العام في الساعة الواحدة صباحًا وفي الساعة الثالثة، أعطى القائد إشارة التجمع واستعرض ما تم إنزاله، وكان هناك 4500 (أربعة آلاف وخمسمئة) رجل من كل الأفواج. كان بريق القمر يتلألأ ونشاهد أرض إفريقيا الجرداء ضاربة في البياض كما لو كان عز النهار. وبعد رحلة بحرية طويلة محفوفة بالمخاطر وجدنا أنفسنا على شاطئ مصر العريقة الآهلة بأجناس شرقية غريبة عن تقاليدنا وعاداتنا وديننا. ورغم ذلك، كان على حفنة من الرجال الهجوم بدون مدفعية وبدون خيالة، والاستيلاء على مدينة محصّنة يدافع عنها سكان مسلحون ومتحمسون. كم كان من المخاطر، وكم كان من أحداث، وكم كان من احتمالات، وفضلاً عن ذلك كم من المشقات التي كان يجب علينا أن نتحملها!

وقد بقي ديزيه مع ستة من رجال فرقته عند رصيف الإنزال ليحمي وينظم فرق الجنود بمجرد أن يطأوا الأرض. سار الجيش الصغير في ثلاثة طوابير؛ حيث مينو على اليسار ومعه ألف وثمانمئة رجل؛ وكليبر في الوسط ومعه 900 (تسعمئة) رجل، والجنرال بون على اليمين ومعه 1200 (ألف ومائتا) رجل، وكان المجموع 3900 (ثلاثة آلاف وتسعمئة) رجل. وسار القائد العام على الأقدام حيث لم يتم إنزال حصان واحد.

وكانت رؤية أسطول من زُهاء ثلاثمئة شراع، ومن بينها عدد كبير من الصف الأمامي، لها تأثير بالغ على سكان الإسكندرية طوال ليلة أول يوليو، فقد كان السكان يتوقعون رسو الجيش الذي قرر الاستيلاء على مدينتهم في مرسى أبو قير، وكان الوقت الذي قد يحتاجون إليه لتنفيذ الإنزال سيعطيهم مهلة عدة أيام. ولكن بعد ساعة من منتصف الليل قام أحد العرب من البدو بإخبار الشريف كُريم [السيد محمد كريم] أن الكفار قد استولوا على قلعة المرابط، وأن زوارقهم قد غطت البحر، وأن الشاطئ قد أصبح شديد السواد من الرجال الذين تم إنزالهم. فامتطى [كُريم] ظهر حصانه وتولى قيادة عشرين من المماليك، وتقابل مع فريق من الرماة الفرنسيين كانوا في حماية الجوانب، وهجم عليهم، وقطع رأس قائدهم وطاف بها في مظاهرة نصر في شوارع الإسكندرية. وقد أشعل هذا المشهد حماس الأهالي، وفي الساعة الخامسة لوحظ أول البدو على جناحي الجيش. وبعد ذلك بقليل رأينا منهم أربعمئة أو خمسمئة كانوا من قبيلة الهنادي، وهم الأكثر شراسة من عرب هذه الصحاري. وكانوا شبه عراه، سود البشرة، ونحيلي الأجسام، وتبدو خيولهم هزيلة، وكأنهم - مع اختلاف الخوذة - "دون كيشوت" كما يظهر في الصور المحفورة. ولكن كانت هذه الجياد الرديئة تتحرك بسرعة البرق إذا انطلقت على عجل، ثم تتوقف فجأة، وهي صفة تتميز بها الخيول في هذه البلاد. وقد تجرأ العرب عندما لاحظوا الجيش من دون فرسان، واندفعوا في الثغرات الفاصلة بين خطوط الطوابير الثلاثة وخلفها. وكانت لحظة الإنذار بالخطر، فقد تم قطع الاتصال مع

رصيف الإنزال والاستعداد لتشكيل الصفوف. ومن جانبه أقام ديزيه مراكز للقتال وحمل السلاح. ولو كان الخمسمئة عربي مثل المماليك لاستطاعوا تحقيق انتصارات عظيمة في اللحظة الأولى التي كان فيها خيال الجندي يقظًا وعلى استعداد لقبول كل التأثيرات، لكن هؤلاء العرب كانوا جبناء كالمماليك الذين قاموا بإطلاق النار قبيل ساعة. وقد تجمع الرماة الفرنسيون أربعة أربعة، واندفعوا ضد الفرسان بغير تردد، وصار زحف الجيش بطيئًا حيث كان يخشى من الكمائن. وعند بزوغ الشمس كانت الحرارة لا تُحتمل، ولم تهب الرياح الجنوبية الغربية المنعشة في هذا الموسم إلا في الساعة التاسعة. وأخذ العرب اثني عشرة أسيرًا أثاروا فضولهم بشدة، فقد أعجبهم بياض بشرتهم، وقام كثير من هؤلاء الأسرى الذين تم إطلاق سراحهم بعد بضعة أيام بتقديم تفاصيل غريبة ومروعة عن أخلاق وطباع رجال الصحراء.

ثانيًا: لاحظ نابليون عمود السواري في الساعة السادسة، وبعد قليل شاهد حائط سور مدينة العرب والذي كان به فتحات، ثم رأى مآذن المدينة وساريات السفينة التركية الراسية في الميناء. وفي الساعة الثامنة، كان في متناول المدفع، وصعد على قاعدة عمود السواري للتعرف على الموقع، لأن الأسوار كانت عالية شديدة الضخامة، وكان لا بد من مدفع عيار 24 لفتحها. وكان فيها عدة فتحات تم ترميمها في عجالة. وكان الشعب يقوم بحماية الأسوار، وقد بدا مضطربًا، وكان يتألف من فرسان وجنود مشاة ومسلحين بالبنادق والرماح، ونساء وأطفال وشيوخ، وغيرهم. فأصدر نابليون أوامره فهجم مينو على يمين السور بالقرب من القلعة الثلاثية، واندفع كليبر في الوسط إلى طريق أبو قير ليدخل من باب رشيد. وعلى الرغم من سوء استعمال المحاصَرين للمدافع، إلا أنه كان لها بعض التأثير على المُحاصِرين الذين لم يتأثروا؛ إذ أنّ القناصة الفرنسيين - بما يتميزون به من الذكاء - أخذوا مكانًا فوق تلال الرمال. وقد نجحت الهجمات الثلاث وتم اختراق السور، وقفزوا فوق الحائط الضخم. وجُرح الجنرالان كليبر ومينو في مقدمة رماة القنابل اليدوية في أثناء الهجوم. ورغم أن حامية الجنرال بون كانت أكثر بعدًا إلا أنها لم تجد صعوبة في أن تصل الأولى إلى سور المدينة الثاني الذي يغلق البرزخ، حيث توجد المدينة الحالية، واستولت الحامية عليه بخطوات الهجوم. ودخل رماة القنابل في بداية الشوارع التي تشرف عليها المنازل، وبدأ التراشق بالقنابل، فاتجه القائد العام إلى قمة قلعة كفاريللي، وأرسل قبطان السفينة الكرافيل التركية، والذي لحق به لتقديم عروض تسوية. شرح القبطان أمام الشيوخ والعلماء والأعيان أن المدينة تتعرض لخطر التدمير تمامًا، فقاموا بالاستسلام.

وقد دخل نابليون المدينة من بينهم، ونزل في دار القنصل الفرنسي. كانت الساعة العاشرة ظهرًا، وعندما عبر أحد الشوارع، أطلقت عليه رصاصة من نافذة مست حذاء ساقه اليسرى مسًا خفيفًا، فصعد حراسه من القناصة إلى سطح البيت ودخلوه، فوجدوا فيه أحد الأتراك وحده، وقد أقام متراسًا وهو حبيس غرفته، ومن حوله

ست بنادق، فتم قتله في بيته. بلغت خسائر الفرنسيين ثلاثمئة رجل بين قتيل وجريح، وكانت خسائرالأتراك سبعمئة أوثمانمئة رجل. وانسحب القائد كُريِّم إلى الفنار مع رجال بيته الأكثر شجاعة، وتم حصاره في الفنار. دارت المفاوضات طوال الليل، وانتهت بنتيجة سارة؛ إذ استسلم كُريم وتعلق بالجنرال الفرنسي وأقر بأنه أسيره، وحلف اليمين، وكُلف بمهمة مراقبة أهالي البلدة لأن الفوضى هي العدو الأكبر الذي يخشاه الغزاة، وخاصة في بلد مختلف في اللغة والتقاليد والدين. فأعاد كُريم النظام، وساهم في نزع السلاح، وزود الجيش بكل ما يحتاج إليه.

واستمال نابليون شخصية أخرى كانت تتمتع بمنزلة ونفوذ؛ وهو الشيخ المسيري الشريف، وهو من العلماء، وكان كبير رجال الدين في المدينة، كان مشهورًا بإخلاصه على الدوام، وبعلمة وورعه، وكان الأكثر استنارة بين مواطنيه، إذ تتميز أفكاره عن رفقائه بشأن العدالة والحكم. ولقد كان كُريم ذا تأثير بجسارته وشجاعة خدمه الأساسيين، وثرواته الضخمة، أما المسيري فقد عُرف بالاستقامة والورع والعدالة التي تقود كل أعماله.



4 - تحصينات الإسكندرية.

خريطة (37)

ومساء يوم 2 يوليو دخلت القافلة إلى الميناء القديم، تحرسها في المقدمة سفينتان عليهما مدافع عيار 64، وفرقاطتان. واختار سلاح المدفعية وسلاح المهندسين والإدارة مخازنهم وأماكنهم، وانشغلوا طوال الليل في إنزال الخيل والأمتعة والمعدات. وفي ذات الليلة خرج الجنرال ديزيه من المدينة واختار موقعًا على بعد فرسخ ونصف على طريق دمنهور، وكانت الميسرة تستند إلى ترعة المعدية.

وأصدر برتييه الأمر بتعليق منشور في المدينة باللغة الفرنسية، وباللغتين العربية والتركية، كان يتضمن ما يلي:

"أيها القضاة والمشايخ والعلماء والأئمة والجربجية وشعب مصر!، منذ زمن طويل يسيء البكوات في حق الفرنسيين، وحان وقت حسابهم. ولقد قال الله - له الملك - أنّ حكم المماليك قد انتهى، وهم يقولون لكم أنني جئت للقضاء على دين الإسلام، وأنني ما أتيت لهذا البلد إلا بقصد إزالة دينكم؛ فقولوا إنني أحب الرسول والقرآن، وأنني جئت لأسترد لكم حقوقكم؛ فقد كنا خلال كل العصور أصدقاء الصدر الأعظم. طوبى ثم طوبى لأهل مصر الذين يتفقون معنا، وطوبى للذين لا ينحازون! وسيجدون الوقت الكافي ليعرفونا. لكن الويل للسفهاء الذين سيحملون السلاح ضدنا! فسوف يهلكون. وإنّ القرى التي تريد الحماية سوف ترفع أعلى مآذن الجامع الرئيس علم الصدر الأعظم وعلم الجيش [الفرنسي بألوانه الثلاثة الأبيض، والأزرق، والأحمر] .... وسيعامل سكان القرى الذين يعتدون على الجيش معاملة عسكرية، وسيُحرقون بالنار إذا لزم الأمر. وسيحتفظ شيوخ البلد والأئمة والمؤذنون بوظائفهم...".

وقد كتب القائد العام رسالة إلى الباشا وأرسلها إلى القاهرة مع ضابط الكرافيل التركي، يقول له:

"لقد تقدمت الحكومة الفرنسية عدة مرات إلى الباب العالي تطلب معاقبة البكوات حتى تتوقف الإهانة التي تتعرض لها الأمة في مصر، وقد صرح الباب العالي بأن المماليك جشعون وذوو نزوات وأهواء، ومن ثمَّ تم رفع حماية الامبراطورية عنهم... وسترسل الجمهورية الفرنسية جيشًا قويًا لعقاب بكوات مصر وقطاع الطرق، كما حدث عدة مرات ضد الجزائر وتونس. فأرجو الحضور لمقابلتي".

وتم ترحيل سبعمئة أسير تركي حررهم الفرنسيون في مالطة إلى بلادهم، كان منهم من طرابلس والجزائر وتونس والمغرب ودمشق وسوريا وأزمير، وكذلك من القسطنطينية. وقد أحسن غذاؤهم ولباسهم ومعاملتهم، ووزعت عليهم مبالغ من المال تكفي لسفرهم، ففاضت قلوبهم بالشكر والعرفان، ونشروا في كل الامبراطورية التركية خبر انتصار الفرنسيين، وأبرزوا رأيهم في قوة وحسن نوايا الفرنسيين تجاه المسلمين، ولم يبخلوا في الإطراء على كرم نابليون، وكانت لغتهم تكفي للتعبير عن كل المشاعر التي امتلأت بها قلوبهم، وأحدثت وقعًا طيبًا في الشرق كله.

وقد كان الجيش يحتاج إلى الخيل لركوب الفرسان، والإبل لحمل البضائع والمؤن، ولم تكن الإسكندرية تستطيع توفير الكثير من الموارد، لكن عرب البحيرة كانوا يستطيعون وحدهم الاستجابة لكل ما يلزم الجيش. وعلى أية حال كان لا بد من استمالتهم من أجل بقاء الاتصالات ومؤخرات الجيش حرة.

أرسل لهم كْريم إجازات المرور بواسطة الجمال، فقد كان يحميهم، فأسرعوا لندائه. وفي يوم 4 يوليو تقدم إلى مقر القيادة ثلاثون شيخًا من قبائل الهنادي، وأولاد علي، وبني أونوس (Beny-Aounous)، وأثارت رؤية رجال الصحراء فضول الجنود بشدة، وأثار حب استطلاعهم كل ما شاهدوه عن الجيش الفرنسي. ووقعوا معاهدة بالتزامهم ببقاء الطريق حرًا من الإسكندرية إلى دمنهور، وأيضًا بالنسبة للرجال العزل، وأن يقوموا - في غضون ثمانية وأربعين ساعة - بتسليم ثلاثمئة حصان مقابل مائتين وأربعين جنيهًا، وخمسمئة سنام، وتأجير ألف من الجمال مع سائقيها مقابل مئة وعشرين جنيهًا، وإعادة من قاموا بأسرهم من الفرنسيين. وقد أكل [الشيوخ] وشربوا مع الجنرال، واستلموا كرهان وهدية ألف لويس من الذهب. فرح الجيش بنجاح هذا الاتفاق الذي كان بمثابة بشرى طيبة. وفي اليوم التالي أعادوا اثني عشر أسيرًا من الجنود، وسلموا ثمانين حصانًا، ومئة جمل، ووعدوا بتسليم البقية في الأيام التالية.

ومع ذلك لم تكن العمارة البحرية قد دخلت الميناء بعد، فقد كانت تراقب البحر. ورفض المرشدون الأتراك قيادة السفن التي عليها مدفع عيار 74، وكذلك السفن التي عليها مدفع عيار 80. وتم تكليف القبطان باريه (Barré) باختبار وقياس عمق الممرات. وكانت العمارة محملة بكميات كبيرة من المدفعية ولوازم الجيش، وأراد الأميرال الذهاب ليرسو في مرسى أبو قير ليتخلص ويخفف الحمل، وعرض أنه يحتاج ثمانية أيام لإنجاز ذلك بالشراع، لكنه قد يستطيع عمل ذلك في ثلاثة أيام عند الإرساء. وفي هذه الفي أثناء أنجز القبطان باريه تقريره يوم 13 يوليو، وصرح بأن العمارة يمكنها الدخول دون خوف. فأرسل نابليون الأمر على الفور إلى الأميرال، إلا أنه انتقد تقرير القبطان باريه، فجمع الأميرال مجلسًا من جنرالات البحرية وربابنة السفن، وقرر المجلس البحري ضرورة التحقيق في الأمر. وفي ذلك الوقت غادر القائد العام الإسكندرية متجها إلى القاهرة، وعند سفره أعاد إلى الأميرال أمر الدخول إلى ميناء الإسكندرية، ولكن إذا ما تأكد من أن ذلك غير ممكن، فإنه يأمره بالتوجه إلى كورفو حيث يجد أوامر وزير فرنسا في القسطنطينية، وإذا لم يجده فيأخذ الطريق إلى طولون، ويأخذ معه القافلة المستعدة للرحيل تحت حراسته وعليها ستمئة رجل من كتائب الجيش التي بقيت في المؤخرة بسبب المرض أو الأجازة. وكان السير إلى طولون سرًا وسريعًا.

وقد احتاج الجنرال كليبر للراحة من أجل علاج جرحه، وكُلف بقيادة ميدان وإقليم الإسكندرية، ومعه حامية من ثمانية آلاف أو تسعة آلاف رجل.

وتلقى الجنرال كريتان (Crétin)، وهو من أفضل ضباط سلاح المهندسين، التعليمات لتحصين الميدان، وقابل صعوبات كثيرة تغلب عليها جميعًا. وبعد أشهر قليلة احتل المرتفعات الثلاث التي تشرف عليها القلاع، واستخدم من أجل إنجاز هذه العمليات كل أسرار مهارته. وقد زود قلعة المرابط والفنار والطرق المؤدية إلى الموانئ بمدفعيات عيار 36، ومدافع هاون بعيدة المدى. وقد ندم الانجليز في كل مرة حاولوا فيها الاقتراب.

ثالثًا: بدأ الجيش الزحف إلى القاهرة، وكان جيشًا قويًا يتألف من خمس فرق تحت قيادة الجنرالات ديزيه ورينيه وبون ودوجا وفيال، بالإضافة إلى احتياطي مكون من ألفين وستمئة رجل بقيادة الجنرال مورا، ولوائين من الفرسان المرتجلين، كل منهما يتألف من ألف وخمسمئة رجل تحت قيادة الجنرال زايونشك (Zayonchek) والجنرال أندروسي (Androssy). وكانت مدفعية المشاة ومدفعية الفرسان تتألف من اثنين وأربعين مدفعًا، وستة مصاهر حديد، وست عربات مدافع، وخمسين عربة ذخيرة، ويحمل الجميع خمسمئة حصان أو بغل، وبقية المؤن على ظهور البغال. وقد بلغت جميع القوات واحدًا وعشرين ألف رجل من كافة الأسلحة.

وتولى العميد البحري بيريه (Perrée)، وهو بحار باسل من ميناء سان فاليري سير- سوم (Saint-Valery-sur-Somme)، قيادة تشكيلة النيل البحرية (أسطول النيل الصغير)، والمكونة من سفينتين متوسطتين، وثلاث مراكب متوسطة، وأربع سفن لخفر القوافل البحرية، وست سفن ديجرم (djermes) مسلحة. وبلغ المجموع خمس عشرة سفينة، عليها ستمئة بحار فرنسي. ولم يكن لديه متسع من الوقت ليهدره للوصول إلى العاصمة منتهزًا لحظة البغتة الأولى، وحتى لا يتيح للأعداء حمل السلاح واللجوء لهذه المدينة الكبيرة. وسافر الجنرال دوجا إلى رشيد مع فرقته ولواءين من الفرسان المترجلين. واتجه الجنرال البحري بيريه مع تشكيلته إلى ترعة المعدية لتعبرها الفرق. وفي يوم 6 يوليو اتبع الجنرال دوجا شاطئ البحر ووصل إلى مصب النيل، واستولى على قلعة جوليان (Julien) في نفس الوقت الذي كان العميد البحري بيريه يعبر البوغاز ويرسو أمام رشيد.

وتولى الجنرال مينو قيادة إقليم رشيد، وكانت إصابته تحتاج إلى الراحة. وكان في الميدان كتيبة من المشاة وبطارية مدفعية غير مقطورة مكونة من خمسمئة فارس مترجل، كان لديهم سروج ويجب حصولهم على الخيول، وأخيرًا كانت ثمة سفينتان مسلحتان.

وقد جمع العميد البحري بيريه (Perrée) القوارب الضرورية لإبحار لواءي الفرسان المترجلين، والسروج والأمتعة والمئون وذخائر الحرب، وتولى حراسة القافلة. وفي يوم 9 (يوليو) تهيأ للإقلاع من رشيد، وسار نحو عالية النيل. وتبع الجنرال دوجا وفرقته حركته سائرًا نحو عالية الضفة الشمالية.

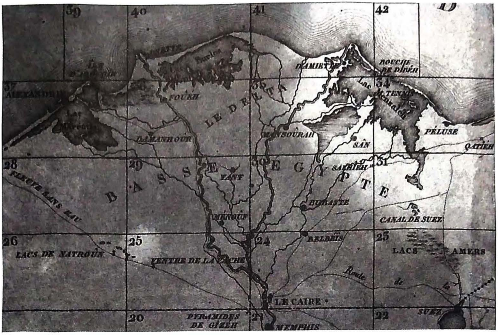
وسارت الفرق الأربع الأخرى والاحتياطية إلى دمنهور، وبدأ ديزيه السير يوم 4 يوليو، ووصل إليها يوم 6. وبدأ رينيه الزحف يوم 5 (يوليو)، وبون يوم 9، وفيال يوم 7 في الفجر. وفي نفس اليوم سافر القائد العام مع الاحتياطي في الساعة الخامسة بعد الظهر. وتبلغ المسافة من الإسكندرية حتى دمنهور خمسة عشر فرسخًا، وهي عبارة عن سهل خصب عادة بفضل فيضان النيل، ولم تكن كذلك عام 1797 بسبب أحداث مختلفة. ففي ذلك الوقت من تلك السنة كان النيل في أدنى مستويات الانخفاض، وجفت كل الخزانات (الصهاريج)، ولم يجد الجنود ماءً في الطريق من الإسكندرية حتى بئر البيضاء (El-Beydah)، ولم يكن الجيش معدًا لتحمل السير في مناخ

كمناح هذا البلد، فعانى الكثير من وهج الشمس وغياب الظل وندرة الماء، وكره الوحشة الهائلة، وبالأخص العرب - البدو.

وعندما بدأ عرب البدو التحرك لتوريد الجياد والجمال بناء على اتفاق الإسكندرية، وصلتهم فتوى من العلماء ومشايخ القاهرة تأمرهم بحمل السلاح دفاعًا عن دين محمد المهدد من الكفار. وقد غيرت الفتوى من حسن استعدادهم، وأبلغوا محمد كريم بأن دينهم يتعرض للخطر، وإنهم يعتبرون الاتفاق كأن لم يكن. وقامت خمسة من قبائلهم بتجهيز ألف وثمانمئة حصان، وبدأوا الأعمال العدوانية يوم 7 يوليو، فكان هؤلاء العرب يحومون باستمرار من أمام الجيش ومن خلفه، ويختفون بكل مهارة وراء طيات أرض، ثم يهجمون منها كالبرق على الجنود الذين يبتعدون عن صفوف الجيش. وقد كان عدد فرسان الجيش قليلاً، وكانت الجياد منهكة من التعب، وكانت أقل مهارة من الخيول العربية. وعندما كان يُطوقها البدو، كانت الطوابير الفرنسية تبدو وكأنها عمارات تطاردها كلاب البحر، أو كما قال أحد الجنود: "كان الدرك (القواس) يؤدي دور البوليس". وقد كان هذا البوليس صارمًا، لكنه ساهم في استتباب النظام، واعتاد الجندي على ذلك، فامتنع عن التسكع ومبارحة الصفوف، ولم يعد يتقدم دون أن يستكشف أجنحة الجيش. وسار حملة الأمتعة في نظام وسط الطوابير، وتم إعداد المعسكرات بعناية بالغة دون تجاهل قواعد إقامة الجند.

وقد ارتاح الفرنجة في الإسكندرية بتزويد الجند بمعلومات قدمت لهم صورة أكثر جاذبية؛ حيثما سيجدون في دمنهور كل جمال الشرق، ورغد العيش، وثراء مدينة تجارية ضخمة، عاصمة إقليم كبير، وهي شيء آخر غير الإسكندرية.

وسار نابليون طول الليل، واخترق مخيمات عدة فرق، وفي الساعة الثالثة صباحًا اختفى القمر واشتد الظلام، وتم إطفاء نار كبار حراس فرقة بون، فانصرف قناصة الحراسة إلى المخيمات، وأطلق الحراس النار، ودوت صيحة واحدة: "إلى السلاح!" تم إعداد كل الفرقة، وبدأ صفان في إطلاق النار الذي استمر وقتًا كافيًا، وأخيرًا عرف بعضهم بعضًا. وأصيب الجيش بنوع من الفزع هيج المخيلات بشدة، فقد كان شيء جديد ولكن لا يعجبه.



5 - دلتا النيل.
خريطة (49)

وفي الثامنة صباحًا، وبعد زحف استمر ست عشرة ساعة، لمح نابليون مدينة دمنهور تحيط بها غابة من أشجار النخيل، وبدت مساجد عديدة، وظهرت أناقة المآذن، وكثير من التلال المجاورة المغطاة بالأولياء، وظهرت المدينة بمزاياها؛ ولكن هل كانت مثل: مودينا (Modène)، أو كريمون (Crémone)، أو فيرار (Ferrare)، فخاب أملهم. وذهب ديزيه لملاقاة القائد الأعلى، وصحبه إلى مستودع دون شرفات ودون أبواب. وكان هناك اجتماع لشيوخ البلد، والشاهب والصراف والأئمة ورؤساء الشيوخ الذين قدموا له قصعة من اللبن وفطيرة رقاق استوت تحت الرماد. يا لها من وليمة لقادة جيش إيطاليا! فلم يلق نفس الحفاوة في ميلانو، وبرسيا (Brescia) وفيرونا في دوقة بولونيا (Bologne)، ولكن كان من الضروري الميل إلى ما يضحك. وأصبح الفرنسيون الذين لحقوا بالجيش، وخاصة ماجالون، موضع سخرية العسكر. يا لهم من بؤساء! لا يعرفون في مصر غير القاهرة ورشيد والإسكندرية. وعندما نزلوا من مراكب فوق النيل أمام أعين المماليك المتوجسة، لم يقتربوا من القرية، وشكلوا أفكارًا عن البلاد اعتمادًا على اللوحة الرائعة التي ظهرت لهم من أعلى السواري.

وقد أقامت القيادة العامة في مرج صناعي على أطراف غابة أقاقيا رائعة الجمال. كانت المياه عذبة ووفيرة، وأقيمت المخيمات في الظل، ولم ينقص القش والخضراوات واللحوم، ولا يزال بسكويت البحر موجودًا. وكان

القواد في حاجة إلى الراحة، والحيوانات أيضًا، وأقاموا يوم 9 يوليو. وفي أثناء انتقال قائد اللواء، مينير (Mineur)، من مخيم إلى آخر، وبالرغم من تنبيهات كبار الحرس، فاجأه أربعة من العرب في وادٍ صغير على بعد مئة خطوة، وأصابوه بطعنات الرماح، ففقد الجيش قائدًا مرموقًا. وبدأ الجيش زحفه يوم 10 يوليو قبل طلوع النهار، وفي التاسعة صباحًا واجه النيل عند الرحمانية، وأطلق صيحات الفرح عند رؤية هذا النهر العبقري، واندفع الجنرالات والجنود في النيل بملابسهم لينتعشوا. كانت الرحمانية بلدة ضخمة أصغر من دمنهور، لكنها أكثر خصوبة وثراء.

وفي يوم 5 يوليو، حين وصل الخبر إلى القاهرة بأن جيشًا من الكفار نزل إلى الأرض وهاجم الإسكندرية واستولى عليها، وكان مع الجيش عدد كبير من المشاة ولكن دون فرسان، قام البكوات وكشافتهم بإطلاق صيحات الفرح، وأضاءوا القاهرة قائلين: "سنقطعهم كالبطيخ". ولم يكن هناك مملوك واحد إلا وتوعد بقطع مئات الرؤوس: وحتى لو كان الجيش من مئة ألف رجل فسوف نقضي عليه ما دام مضطرًا إلى عبور الوديان التي تحيط بالنيل. يا لهم من تعساء! متحمسين بهذه الأوهام، فأعدوا المسيرة لملاقاة الجيش الفرنسي.

وفي مساء يوم 5 يوليو، سافر أحد البكوات ومعه ستمئة مملوك إلى دمنهور لضم عرب البحيرة وإعاقة سير الجيش، ووصل إلى دمنهور يوم 10 يوليو، في نفس الوقت الذي كانت فيه فرقة ديزيه التي تشكل خلفية الجيش تغادر مخيماتها. كان ديزيه يسير في تشكيلة فرق متراصة؛ حيث المدفعية في المقدمة وفي المؤخرة، وعتاده في الوسط بين لواءين. وعند رؤية العدو طلب [ديزيه] أن تبتعد الفصيلة وتستمر في السير مقاربةً ومناوشةً هؤلاء الفرسان الرائعون الذين قرروا إطلاق النار أخيرًا. وعلى الفور أمر ديزيه: "فصيلة على اليمين، وفصيلة على اليسار، تطلقان نيران المعركة، فتكون النار من الصفين"، وسيكون من الصعب تصور الدهشة وخيبة الأمل التي يشعر بها المماليك عندما يرون مشهد المشاة وهول نيران القذائف التي تنهال، والبنادق التي تصيبهم بالموت من بعيد ومن كل الاتجاهات. وقد مات بعض الشجعان تحت الحراب، وابتعد معظم المجموع عن فوهات المدافع، عندئذ أوقف ديزيه التشكيلة المربعة واستأنف سيره، ولم يفقد في هذه المعركة سوى أربعة رجال. وعندما علم مراد بك بهذا الحدث الغريب الذي لم يستطع تفسيره، ثار ضد البك وأتباعه من الكشافة، واتهمهم بالجبن لاستسلامهم مقابل الكثرة العددية، كما لو كان على المماليك ألا يأخذوا في الاعتبار المشاة في السهول.



6 – دمنهور 8 و9 يوليو 1798.
خريطة (36)

وفي أيام 10، 11، 12 يوليو، استقر الجيش في الرحمانية، ولحقت به التشكيلة البحرية وفرقة دوجا (Dugua) صباح يوم 12 يوليو. كانت التشكيلة البحرية الصغيرة ضرورية لأنها ستكون قادرة على المناورة على الشاطئين ومواجهة أسطول المماليك الكبير والمسلح جيدًا. وكان عدد البدو يتزايد كل يوم، ووجد الفرنسيون أنفسهم محاصرين في الرحمانية، واحتل البدو مواقع في متناول بنادق كبار الحراس، وتأكدوا من أن الخيول الفرنسية غير ذات قيمة، مما جعلهم يشعرون باحتقار كبير تجاه الفرسان الفرنسيين.

واتخذ الجيش آنذاك المواقع التالية: بقي كليبر في الإسكندرية ومعه القافلة والعمارة البحرية، والمفترض أنها دخلت الميناء (القديم)، وأقام حامية في قلعة أبو قير، ومعه كتيبة المشاة رقم 69، وألف من جنود المدفعية وجنود الإطفاء والعمال، وألفان من رجال مستودعات المشاة والفروسية المرتجلة، وقد بلغ المجموع ستة آلاف وخمسمئة رجل لخط الجبهة، وثلاثة آلاف وخمسمئة رجل يشكلون ملاحي سفن النقل من أعضاء الحرس الوطني، مما جعل له حامية من تسعة آلاف إلى عشرة آلاف رجل، علاوة على العمارة البحرية. وكان مينو في رشيد، ومعه ألف ومائتا رجل، وثلاث سفن حربية صغيرة (سميرية)، مهمتها خفر القوافل البحرية. وكان معسكر الرحمانية يتكون من عشرين ألف رجل. وقد ضرب سلاح المهندسين معسكرًا في مسجد يقع على مستوى دمنهور، ضم ثلاثمئة

رجل ومدفعين نقلاً من حامية الإسكندرية. وكان من الضروري بناء معقل لأجل ثلاثمئة رجل وثلاث مدافع، وترك فيه العميد البحري بيريه مركبًا مسلحًا لحماية النيل.

رابعًا: وفي يوم 6 (يوليو)، سافر مراد بك إلى القاهرة مع ثلاثة آلاف مملوك، وألفي جندي مشاة (إنكشارية)، وتشكيلة بحرية كثيرة العدد، مكونة من ستين سفينة، منها خمسة وعشرون سفينة مسلحة. وكان قد دعا كل عرب الفيوم على أمل أن يصلوا في موعده إلى دمنهور لمساندة حرس الطليعة. ولحق به ابراهيم بك ومعه كذلك قوة كانت أكثر عددًا، وعلم في طيرانه (Terraneh) بما حدث في الرحمانية والاستيلاء على رشيد، وزحف الجيش إلى القاهرة. فاتجه [مراد بك] إلى شبراخيت، وشيد فيها بطاريتين من تسع مدافع، وأشرف على تحصين القرية حيث أقام فيها جنوده من الإنكشاريين. وأخذ أسطوله الصغير موقعه، فكانت الميسرة تستند إلى القرية، و[تستند] الميمنة إلى الدلتا.

وفي الساعة السابعة من مساء يوم 12 (يوليو)، عسكر الجيش الفرنسي في قرية منية سلامة (-Minyet Salâmeh) على بعد فرسخ من الرحمانية. وفي الساعة الواحدة صباحًا تلقى الجيش الأمر بحمل السلاح. وقد كان من الضروري للغاية عدم إعطاء مراد بك الوقت لينتهي من إنشاء الخندق في ميدان القتال واستكمال جمع جنوده. وبمجرد أن بزغ نور القمر بدأ زحف الجيش، وفي الساعة الثامنة وجد أمامه مراد بك الذي كانت ميمنته مكونة من المماليك ومستندة إلى قرية شبراخيت، وكانت الميسرة مكونة من ألفي عربي، وتمد خط الجبهة حتى الصحراء. وقد أثار هذا المشهد الدهشة، فكان كل مملوك يستخدم ثلاثة أو أربعة من الرجال لمساعدته، وكان العرب في مناورات مستمرة، وبدا خط الهجوم وكأنه مكون مما بين خمسة عشر ألفًا إلى ثمانية عشر ألف رجل.

وكالعادة قطع بدو البحيرة الاتصالات مع الرحمانية، وداروا نصف دورة حول الصفوف الخلفية وحول الأجنحة، وكانوا أيضًا حول الإسكندرية ودمنهور ورشيد. فاصطف الجيش للمعركة، وتحرك في مساحة 1800 قامة، حيث كانت الميسرة مستندة إلى قرية صغيرة قرب النيل، وكانت الميمنة مستندة إلى قرية ضخمة قرب الصحراء. وقد شكل ديزيه الميمنة، وأقام متراسًا على هذه القرية التي استولى عليها فوج وثلاثة مدافع، ورتب فريقه في مربع طوله من الأمام 150 قامة، والجناح 25 قامة. وعلى بعد 100 قامة خلف القرية، أخذت نفس التنظيم الميسرة التي شكلها الجنرال فيال. واتخذت الفرق الثلاث الأخرى مكانها في الثغرات على بعد 300 قامة، كانت كل واحدة منها تحصن الأخرى فيما بينها، ويكون الوسط إلى الخلف قليلاً. وسلاح الفرسان تم توزيعه على خمس فصائل، اتخذت أماكنها وسط التشكيلات المربعة. وتم توزيع الاحتياطي على قريتين على بعد ألف قامة خلف الخط، وتبتعد عن بعضها ما بين 800 إلى 900 قامة. وقد أقامت كل قرية متراسًا، وبها نصف سرية

مدفعية. ولو كان الأعداء قد عرفوا تقدير هذه الترتيبات لبدت مرعبة بالنسبة لهم. ومن بين ستة وثلاثين مدفعًا في خط الهجوم كان ثمانية عشر منها تستطيع القتال في نفس النقطة.

وقد راقب كل من الجيشين الآخر على مدى عدة ساعات، وكان الفرنسيون ينتظرون أسطولهم الصغير، لكنه كان لا يزال راسيًا أمام الرحمانية، ولم يكن يستطيع الاتجاه لأعلى النهر إلا مع هبوب الرياح الشمالية التي لم تأت إلا في الساعة الثامنة. كانت الشمس تنعكس على خوذات وزرّد المماليك، فتجعل تلك الفرقة تتلألأ بكل روعتها. وحسب طريقة الشرقيين دارت كثير من المعارك الفردية بين أشجع المماليك وبعض القناصة البواسل من جبال الألب. وكان المملوك يبرز كل مهارته وشجاعته مما أثار إعجاب الفرنسيين، وكان موثوقًا بفرسه الذي كان يبدو وكأنما يشاركه كل انفعالاته. وبينما كان السيف يمتد في قبضة اليد، كان يطلق غدارته وطبنجته ومسدساته الأربعة، وبعد أن يطلق النار ست مرات على هذه الحال، يلتف حول فصيلة القناصين ويمر بينهم وبين خط النار بمهارة تثير الإعجاب. ولكننا رأينا الأشراف السبع مع فصائل القناصة الذين يحرسونهم، يجتمعون في نقطة مركزية على هضبة صغيرة حيث كان البكوات يعقدون مجلسهم. وبعد فترة انهارت هذه الفروسية الرائعة، وفي مقدمتها البكوات السبع. فقد اخترق [الفرسان] صفوف التشكيل المربعة بين تشكيلة الجنرال رينيه وتشكيلة دوجا، وكان القائد العام – من غير شك - أمل في أن يجدهم مكشوفين من الخلف فيهاجمهم من وراء ظهورهم. وتسببت الشظايا وطلقات البنادق في قتل وجرح عدد كبير من المربعات من الأمام، وبعد ذلك من الأجنحة، وأخيرًا من الخلف. وهجم بعض الشجعان [الفرنسيين] على مؤخرة التشكيلات المربعة، لكنهم قُتلوا على أسنة الحراب. إلا أنه حين أدرك مراد بك أن النيران تندلع بشدة من الخلف ومن الجبهة، ابتعد بسرعة وهجم على القريتين المحصنتين حيث كان قد تم وضع الاحتياطي. وقد تحمل وابل شظاياها ثم اتجه إلى اليسار وهو يعدو بسرعة، واتجه على بعد نصف فرسخ إلى يمين جناح الجيش. وظل ستون مملوكًا في ميدان القتال، أثلجت رؤية جثثهم صدور الجنود؛ ذلك لأنه كان من عادتهم أن يضعوا الذهب في أحزمتهم عندما يذهبون للحرب، وبالإضافة إلى ذلك كانت قيمة الفرس والملابس والسلاح ثمينة جدًا. ونستنتج من ذلك أن بلدًا يحميه رجال أغنياء إلى هذه الدرجة لا يستطيع أن يكون إلا أكثر بؤسًا مما كنا نعتقد.



7- الرحمانية 10 و11 يوليو 1798، منية سلامة 12 يوليو، وشبراخيت 13 يوليو 1798.

خريطة (36)

وقد ظل خط هجوم الجيش الفرنسي ثابتًا في انتظار هجوم ثان، ولاحظ أخيرًا صواري أسطوله الصغير، وكانت الساعة الواحدة بعد الظهر. وبعد ربع ساعة بدأ على النيل قصف مروع بالمدافع. كان العميد البحري في المقدمة يشكل خط المعركة، وتخطى قرية شبراخيت، وهجم بعدد كبير على وسط خط سفن الأعداء المنهكة، وتم الاستيلاء على إحدى السفن المتوسطة في أثناء التصادم البحري، وكان هو نفسه في خطر، لكنه أنقذ أسطوله بمناورات بارعة. وبمجرد أن لاحظ نابليون الخطر الذي تعرض له جيشه البحري، أمر خط سلاح المشاة بالسير إلى الأمام. فقامت فرقة الميسرة (مجموعة من ثلاث أو أربع سفن بحرية) بالاقتراب من قرية شبراخيت، وكانت المدفعية التركية مفككة. وبعد مقاومة محدودة، هرب ألفان من الشراكسة كان يهددهم الانفصال والتفاف الجيش من حولهم. وتملك الفزع المماليك غير مدركين لما يدور أمام أعينهم، وظلوا بعيدين عن مرمى المدفع، ويتراجعون كلما تقدم خط الهجوم. وقد غيّر مصير المعركة البحرية إطلاق نار القناصة من داخل منازل

شبراخيت التي كانت تنتشر على طول الجسر، وكذلك نار القذافين من المدافع عيار 12، 18، ونار القذافين المتجمعين حول شاطئ النيل. وأدرك البحارة الأتراك الأكثر براعة خطورة موقفهم، فغيّروا الاتجاه وانتهزوا وصول الرياح ليبتعدوا ضد التيار، وتبعهم بحارة أخرون فيما بعد. لكنهم اضطروا بعد فوات الوقت لإشعال النار في سفنهم؛ حيث كانت الرياح الشمالية عادةً ما تتوقف في هذا الفصل في الساعة الرابعة أو الخامسة بعد الظهر. وفضلاً عن ذلك فإن النيل يشكل مُنعطف قبل وصوله إلى شابور (Châbour)، فحينئذ يكون من الممكن الاستيلاء على بقية الأسطول. وبدأت فرق الجيش الخمسة تشكيل طوابير سارت في خمسة اتجاهات، وعلى مسافة من الانتشار عبر الحقول، أدرك مراد بك فزع وفتور همة رجاله، فابتعد عن مرأى الجيش، واتجه بكل سرعة إلى القاهرة.

وفي الساعة السادسة بعد الظهر، أقام الجيش معسكرًا في شابور، وعندما وجد الملاحون الأتراك انقطاع الاتصالات لجأوا إلى الدلتا بعد أن حرقوا سفنهم، واستطاع الفرنسيون إنقاذ بعضها. أقيم المعسكر في غابة الجميز (تين فرعون)، وعندما جاء الليل، رسا اللواء البحري بيريه عند مستوى القرية. وقد بلغت خسائر الفرنسيين في هذا اليوم من ثلاثمئة إلى أربعمئة رجل بين قتيل وجريح، ثلاثة أرباعهم من البحارة. وكان كل من مونج (Monge)، وبيرتوليه (Bertollet) والسكرتير بوريين (Bourrienne)، والذين أبحروا على الأسطول، يبدون رباطة الجأش، وبعض الخنوع في لحظات الخطر. وفقد المماليك ثلاثمئة من فرسانهم البواسل بين قتيل وجريح وأسير، وأربعمئة أو خمسمئة جريح من جنود سلاح المشاة أو بحارة الأسطول، وتسعة مدافع رديئة من الحديد على عربات البحرية كانوا يضعونها في بطارية في شبراخيت، وفقدوا كل أسطولهم.

ومنذ تلك اللحظة فقد مراد بك الأمل في نجاته، وأدرك عدم التكافؤ في السلاح، وأن الشجاعة لا تكفي لتحقيق النصر، وأن سلاح المشاة الفرنسي لا يستهان به كما كان يتخيل من قبل، ففي الواقع لم يكن عشرة آلاف مملوك يخشون مواجهة خمسين ألف عثماني. وقد نشروا ألف إشاعة في القاهرة، ولكن كل ما شاهدوه وكل ما وصل إلى سمعهم من روايات قد انقلب رأسًا على عقب، وكذلك ما اكتسبوا من الخبرات، ما جعلهم يعتقدون في السحر، وأن السلطان الحاكم يربط جنوده بحبل أبيض سميك يجرهم من جهة أو أخرى فيتجهون كتلة واحدة يمينًا ويسارًا، فأطلقوا عليه اسم "أبو النار" ليعبروا عن حيوية الشظايا وطلقات نيران سلاح المشاة.

ومع ذلك فقد أزعج العربُ زحف الجيش، فحالوا دون ابتعاد مفرزة المشاة عن بعضها البعض، مما جعل وصول المواد الغذائية غاية في الصعوبة. وتم إنزال الجنرال زايونشك (Zayonchek) والجنرال أندروسي (Androssy) إلى الأرض مع ألويتهم في الدلتا، وسارا محاذين للجيش على الضفة اليمنى، ولم يكن هناك عرب أو أعداء لمحاربتهم، وكان لديهم مواد غذائية زودوا بها الجيش بوفرة. وبعد أيام قليلة حصلوا على مئة حصان مما جعلهم يسترشدون بهم.



8- شابور14 يوليو، طبرية 15، وعلقم 16 يوليو 1798.

خريطة (36)

وقد حقق الجيش الفرنسي انتصارًا مجيدًا في معركة شبراخيت، وكان [كأنه] يمتلك - في الحقيقة - عشرين ألف رجل، واثنين وأربعين مدفعًا في الميدان، [بينما] لم يكن العدد - في الواقع – سوى ثمانية آلاف محارب، ولكن كانت تلك هي المرة الأولى التي يواجه فيها هذه الفروسية الرائعة والمروعة.

خامسًا: وفي يوم 13 يوليو، أهلك التعب الجيش الذي قطع سبعة فراسخ، فضلاً عن تحولات المعركة. فقد كان الطقس شديد الحرارة، وكان الزحف عبر الأراضي المتشققة غاية في الصعوبة. ولم يستطع الأسطول الصغير الإقلاع قبل الساعة التاسعة، وهي ساعة قيام الرياح الشمالية؛ ولذلك كان لا بد من توافق السير لبقاء الاتصالات مع الضفة اليمنى، وتبادل المساندة والدعم المشترك. وفي ساعة متأخرة من يوم 14 [يوليو]، غادر الجيش، ووصل في الليل إلى كوم شريك (Koum-Cheryk) عند مصب ترعة توصل المياه إلى إقليم مريوط، ووجد الجنود البطيخ والشمام بوفرة، وفاكهة منعشة بشكل غير مألوف، ومهما أكلوا منها بنهم لم يشعروا بضرر. وفي يوم 15 يوليو عسكر الجيش في العلقم (A'lqâm)، وهي إحدى القرى العربية، ولم يسر الجيش في هذا اليوم إلا ثلاثة فراسخ ونصف الفرسخ. وفي يوم 16 يوليو وصل الجيش إلى أبو نشابه، وقطع أربعة فراسخ ونصف، وهناك كانت صحراء قريبة من النيل، وفي يوم 17 يوليو أقام الجيش المعسكر في وردان (Ouârdàn) تحت ظل غابة من أشجار النخيل، وتسلم الجيش قافلة المؤن من الضفة اليمنى. كان الجيش يمشي أيامًا قصيرة، ويرحل في الساعة الثانية صباحًا، ويقيم المعسكر في الساعة التاسعة، والسبب الحرارة الشديدة جدًا، وصعوبة الحصول على المواد الغذائية، ومضايقة العرب الذين يرغمون صفوف الجيش للسير ببطء حتى يستطيع كل الجنود المتابعة، وضرورة انتظار الأسطول الصغير الذي يحمل المرضى والرجال المُرهقين، وهو ما يحول دون التوقف في وسط الطريق، ويضعف الجيش. وأخيرًا كان يجب أن يكون الجيش على استعداد للحرب كل ساعة، فقد كانت الأخبار تصلنا كل يوم عن استعدادات هائلة تتم في القاهرة، وأن البكوات والجنود والعرب وفرق المقاومة الشعبية (الميليشيا) قد تركوا المدينة سيرًا لملاقاة الكفار.

وقد اتخذ الجنرال زايونشك موقعًا حيث ينقسم النيل إلى فرعين يشكلان الدلتا، وهي نقطة يطلق عليها "بطن البقر". وكانوا يقولون: تحسر العبريون (اليهود) في صحراء التيه على أواني (طناجر) المصريين المليئة باللحم والبصل وكل أصناف الخضراوات، حيث كانوا يأكلون منها قدر ما يشتهون. ولم يتوقف الفرنسيون عن ذكر ملذات ايطاليا، وكان سخطهم قد ازداد قبل خمسة عشر يوما، وهم يقارنون الشعب الهمجي الذي لايستطيعون التفاهم معه، وبيوت الفلاحين البؤساء والمرهقين كالجاموس، والسهول القاحلة المكشوفة دون ظلال، وهذا النيل

الذي يجلب ماءه العكر كثير الوحل، وأخيرًا رجال الصحراء الغاية في القبح والوحشية، وأيضا نساؤهم الأكثر منهم قذارة. كانوا يقارنونهم بسهول اللومبردي (Lombardie) المزدهرة والغنية، وبالشعب الاجتماعي اللطيف المستنير في ولايات البندقية. وكانوا يشتكون من وجودهم في بلد لا يستطيعون فيه الحصول على الخبز ولا النبيذ، وكانوا يردون على شكواهم بأن هذا البلد التعس أغنى بلد في العالم، وأنهم سيجدون الخبز والنبيذ بمجرد وصولهم إلى القاهرة، وأن هذا البلد كان مخزن غلال روما، والقسطنطينية أيضًا. ولكن لم يكن هناك شيء يستطيع أن يهدئ من روع رؤياهم. وعندما يصور الفرنجة جمال ورخاء القاهرة، كان الجنود يردون بأسى: "قلتم لنا الشيء نفسه عن دمنهور، وربما تكون القاهرة أكبر مرتين أو ثلاثة، لكنها عبارة عن كوم من الأكواخ المجردة من كل ما يجعل الحياة ممكنة". وكان نابليون دائمًا ما يتقرب من جنوده، ويقول لهم: "إن النيل الذي لا يُظهر اليوم كل عظمته، قد بدأ الفيضان، وسيكشف قريبًا كل ما كانوا يسمعون من حكاياته، وسوف يقيمون معسكرهم على كومة من القمح، وبعد أيام قليلة يكون لديهم طواحين وأفران، وأن هذه التربة الجرداء الخالية والرتيبة والغاية في الكآبة، والتي كانوا يسيرون عليها بصعوبة بالغة، ستكون عما قريب مغطاة بالمحاصيل والمزروعات الوفيرة التي تقدم لهم خيرات وخصوبة كضفاف نهر بو (Pô)، وسيكون لديهم العدس والفول والدجاج والحمام، وأن شكواهم مبالغ فيها، وأن الحرارة شديدة دون شك، لكنها ستكون محتملة عندما يجدون الراحة وينتظمون، ولقد كان مُرهقًا كذلك الزحف في شهري يوليو وأغسطس في أثناء حروب إيطاليا". ولكن لم يكن لهذه الأحاديث غير تأثير عابر، وكان تذمر الجنرالات والضباط أعلى من همهمة الجنود، فقد كانت هذه الحروب كبيرة المشقة بالنسبة لهم أيضًا، والأكثر [من ذلك] أنها كانت تتعارض مع منتديات قصور وملاهي إيطاليا.

لقد أصاب الجيش موجة من الاكتئاب الغامض، ولم يكن بوسع شيء أن يقهره، وغلب عليه الحنين، وألقى عدد من الجنود بأنفسهم في النيل حتى يجدون فيه موتًا عاجلاً. وعلى مدار أيام بعد الاستيلاء على المخيمات، كان الرجال في حاجة للسباحة، وبعد الخروج من النيل يبدأ الجنود الانشغال بالسياسة والإعراب عن سخطهم، ويرثون لحال أوضاعهم المؤسفة، فيقولون: "لماذا جئنا إلى هنا؟ لقد حكمت علينا حكومة الإدارة بالنفي!" وكانوا يشفقون أحيانًا على حال قائدهم الذي يخيم بشكل متواصل على ضفاف النيل، والمحروم من كل شيء شأنه شأن آخر جندي، وكان عشاء رئيس الأركان يقتصر على طبق من العدس. وكانوا يقولون: "لقد أرادوا التخلص منه، ولكنه بدلاً من أن يقودنا إلى هنا، كانت تكفينا إشارة منه لطرد أعدائه من القصر كما طردنا الكليشيين [اتباع الملوك والدستوريين، انهزموا في 18 فريكتيدو] من قبل". وقد لاحظوا أن العلماء عندما يجدون بعض بقايا الآثار القديمة في مكان ما، فإنهم يتوقفون أمامها وينقبون، فيعتقدون أنهم هم الذين أوعزوا بقيام الحملة للبحث عن الآثار، وهو ما كان يثير الاستياء ضدهم، فيسمون العلماء "الحمير". وقد رأس كفاريللي اللجنة، وكانت ساق هذا الجنرال الشجاع من

الخشب. كان كثير الحركة، ويخترق الصفوف ليرشد الجنود، ولم يكن يتحدث إلا عن جمال البلاد، والنتائج العظيمة للحملة. وبعد الاستماع إليه وهو يهمس للجنود أحيانا، كانت الفكاهة الفرنسية تتغلب عليهم، ويومًا قال له أحد رماة القنابل اليدوية: "طبعًا! أكيد! أنت تسخر من ذلك أيها الجنرال، وأنت تركت ساقا بفرنسا!". وترددت تلك العبارة من معسكر إلى آخر، فأدخلت البهجة على جميع المخيمات. ورغم ذلك لم يخل الجنود أبدًا بأعضاء لجنة [العلوم و] الفنون، وكانوا يقدرونهم في حقيقة الأمر، وبعد رد الفعل الأول، أصبح كفاريللي والعلماء موضع احترام الجنود. وقد ساهمت الصناعة الفرنسية كذلك في دعم الوضع، فكان البعض يطحن القمح للحصول على الدقيق، والبعض الآخر يُحمص البذور في المقلى، وبعد قليل يغلونها ويحصلون على غذاء صحي وكاف.

وفي يوم 19 يوليو، وصل الجيش إلى أم دينار (Oum-Dynâr) أمام رأس الدلتا، على بعد خمسة فراسخ من القاهرة، وشاهد الأهرام لأول مرة؛ فتسلطت كل الأنظار على أعظم وأقدم الآثار التي صنعتها أيدي الرجال. وتحيط الأهرامات الثلاثة بأفق الصحراء، فتبدو كأنها ثلاث صخور ضخمة، لكن بإنعام النظر فيها يكشف انتظام الزوايا عن يد البشر. وكانوا يلاحظون كذلك مسجد المقطم، حيث كانت القاهرة عند سفح الجبل. أقام الجيش يوم 20 (يوليو)، وتلقى الأوامر ليستعد للمعركة.

اتخذ العدو موقعًا على الضفة اليسرى للنيل أمام القاهرة، بين إمبابة والأهرام. وكانت أعدادهم كبيرة من المشاة والمدفعية والفرسان. وكان يحمى معسكرهم أسطول ضخم يضم فرقاطة أيضًا. وظل الأسطول الفرنسي في الخلف، وعلاوة على ذلك كان أقل [منهم] عددًا. ولما كان النيل في غاية الانخفاض، كان لا بد من التخلي عن أي شكل من الإغاثة والخدمات التي كان يمكن أن يقدمها الأسطول. وقد دفع الحماس والثقة كلاً من المماليك والأغوات والبحارة المتباهين بأعدادهم، وحسن الموقع الذي احتلوه، وتشجيع نظرات الآباء والأمهات والنساء والأولاد، فكانوا يقولون أنه: "عند سفح هذه الأهرامات التي بناها أجدادهم سيجد الفرنسيون مقابرهم ونهاية مصائرهم".



9- معركة إمبابة الأهرام - 21 يوليو 1798.
خريطة (24)

سادسًا: في الساعة الثانية من صباح يوم 21 يوليو، بدأ زحف الجيش، وفي النهار قابل طليعة من المماليك اختفت بعد أن منيت بوابل من طلقات المدافع. وفي الساعة الثامنة أطلق الجنود ألف صيحة تهليل عندما شاهدوا أربعمئة مئذنة في القاهرة، وهو ما برهن لهم عن وجود مدينة كبيرة لا يمكن مقارنتها بما شاهدوه منذ الإنزال. وفي الساعة التاسعة اكتشفوا خط هجوم جيش العدو، حيث كانت ميمنته تتكون من عشرين ألف جندي إنكشاري وعرب وميليشيا من القاهرة، كانوا في معسكر محصّن أمام قرية إمبابة، وعلى الضفة اليسرى من النيل أمام بولاق، وكان هذا المعسكر المحصّن مسلحًا بأربعين مدفعًا. وكانت الوسطى والميسرة مكونتين من طواقم من الفرسان من اثني عشر ألف مملوك وأغا، وشيوخ وأعيان آخرين من مصر، كل منهم على ظهر حصان ويخدمه ثلاثة أو أربعة من الرجال على الأقدام، مما شكل جبهة من خمسين ألف رجل. وضمت الميسرة ثمانية آلاف من عرب البدو على ظهور الخيل، ويستندون إلى الأهرام. وقد امتدت هذه الجبهة على طول ثلاثة فراسخ. وكان النيل من إمبابة حتى بولاق وإلى القاهرة، يكاد أن يكون كافيًا لاحتواء هذا الأسطول الذي كانت صواريه تبدو على شكل غابة، والذي كان يتكون من ثلاثمئة شراع. وغطى الضفة اليمنى رجال ونساء وأطفال من جميع أهالي القاهرة، أسرعوا لمشاهدة تلك المعركة التي كان مصيرهم يتوقف عليها، فعلقوا عليها أهمية كبرى، لأنهم إذا انهزموا سيصبحون أسرى لدى الكفار.

وقد اتخذ الجيش نفس نظام المعركة، والذي نجح في شبراخيت، ولكن كان موازيًا للنيل الذي سيطر عليه العدو. تعرف ضباط الأركان على المعسكر المحصّن الذي يتكون من مجرد خنادق يمكن أن يكون لها تأثير على سلاح الفرسان، ولكن لم يكن لها تأثير على سلاح المشاة. ولم يكن تصميم الخطوط جيدًا، لكنه كان أوليًا، كان قد بدأ منذ يومين فقط. كانت المدفعية القوية على حاضنات بحرية، ثابتة لا تستطيع أن تتحرك. وبدا سلاح المشاة غير منتظم وغير قادر على الحرب في السهول. كان يشرع القتال وراء الخنادق. ولم يكن رهيبًا وكان مثل العرب، لا يصلح لشيء يوم المعركة. وكان يُخشى من فيلق المماليك وحده، ولكنه كان غير قادر على المقاومة. سار ديزيه، في المقدمة، متجهًا نحو اليمين، ومر على مرمى في متناول مدفعية المعسكر المحصّن، تاركًا له الجناح الشمالي، وارتكز على وسط خط المماليك. ولحق به رينيه ودوجا وفيال وبون عن بعد. كانت هناك قرية أمام موقع خط العدو المراد اختراقه، وكان هناك مركز الإدارة. وقبل نصف ساعة كان الجيش يتقدم في هذا الترتيب، وفي سكون تام، وعندما اكتشف مراد بك وهو القائد، مقصد الجنرال الفرنسي، ورغم أنه لا يمتلك خبرة عن مناورات القتال، ولكن وهبته الطبيعة شخصية عظيمة وشجاعة باهرة ونظرة ثاقبة، فأدار المعركة بمهارة تشرف الجنرال شديد البراعة. فقد أدرك مراد بك الخسارة لو أنه ترك الجيش الفرنسي يكمل مناوراته، وبفضل عدد فرسانه الضخم اضطر للهجوم على سلاح المشاة الفرنسي في أثناء السير. فانطلق بسرعة البرق مع سبعة

آلاف أو ثمانية آلاف حصان، ومر بين فرقتي ديزيه ورينيه، وطوقهما. تمت هذه العملية بسرعة فائقة، وخشى الفرنسيون للحظة أن الجنرال ديزيه لن يجد الوقت الكافي ليحتل موقعه، فقد وقفت غابة من أشجار النخيل عائقًا أمام سير المدفعية، ولكن أول المماليك الذين هاجموه كان عددهم قليلاً. وقد ألقت نيران المدفعية بنصفهم أرضًا، ووجد الجنرال ديزيه الوقت لتشكيل مربعه. بدأت الشظايا وإطلاق النار على الجهات الأربع، ولم يتوان الجنرال رينيه عن اتخاذ موقع، وبدأ بإطلاق النار من كل الجهات. وغيرت الاتجاه فرقة دوجا التي تضم القائد الأعلى، وانتقلت بين النيل. والجنرال ديزيه قاطعه العدو من معسكر إمبابه بهذه المناورة، فوقف دون الوصول إلى النهر، وكانت في عجلة في متناول بدء القصف بالمدافع على مؤخرة المماليك. مات خمسة وأربعون أو خمسون من أكثر الرجال شجاعة من البكوات والكشاف والمماليك في المربعات، وغطى موتاهم وجرحاهم ميدان القتال. لقد كابروا مدة نصف ساعة بالدوران نصف دورة في متناول الشظايا مرورًا من ثغرة إلى أخرى وسط الأتربة والخيل والدخان والشظايا وطلقات البنادق وصيحات الرجال المحتضرين. ولكنهم لم يحققوا في آخر الأمر أية مكاسب، وابتعدوا واتخذوا موقعًا بعيدًا. وانسحب مراد بك ومعه ثلاثة آلاف حصان إلى الجيزة نحو طريق مصر العليا. وظل الباقون خلف المربعات مستندين إلى الموقع المحصّن، في الوقت الذي هجمت عليهم الفرقة. احتل الجنرال رامبون (Rampon) ومعه كتيبتان خندقًا وجسرًا كانا يحولان دون الاتصال بين امبابة والجيزة. وحاولت [فرقة] الفرسان الموجودة في المعسكر، والتي ردتها فرقة بون، الوصول إلى الجيزة، ولكن أوقفتها فرقة رامبون، وفرقة دوجا التي كانت تساعده. وترددت [فرقة] الفرسان وتطايرت عدة مرات، وأخيرًا اتكأت بطبيعة الحال على الجبهة الأقل مقاومة، وألقت بنفسها في النيل الذي ابتلع عدة آلاف منهم. ولم يستطع أحد منهم الوصول إلى الضفة الأخرى، ولم يبرز المعسكر المحصّن أية مقاومة. وعندما شاهد سلاح المشاة هزيمة [فرقة] الفرسان، ترك المعركة واندفع في القوارب الصغيرة أو سباحة. نزل أكبر عدد في النيل على طول الضفة الشمالية، ونجا بنفسه في الريف تحت جنح الظلام. واستولى الفرنسيون على المدافع والجمال والأمتعة.

وقام مراد بك بعدة هجمات على أمل إعادة الاتصالات مع معسكره وليسهل له الانسحاب، ولكن فشلت كل الهجمات. وعند الليل انسحب وأعطى إشارة بحرق الأسطول، وعلى الفور غطت النيران النيل. وقد كانت توجد ثروات مصرية على هذه السفن التي تلاشت، وأعرب الجيش عن بالغ أسفه. ومن بين ألف ومائتي مملوك، انسحب ثلاثة آلاف مع مراد بك إلى الصعيد، وتبقى ألف ومائتان مع إبراهيم بك لحماية القاهرة، وانسحبوا منذ ذلك الحين إلى سوريا. وقد مات سبعة آلاف في هذه المعركة التي قضت على هذه الميليشيات الباسلة، والتي لن تقوم لها قائمة. وبعد أيام قليلة، حملت جثث المماليك إلى دمياط ورشيد خبر انتصار الجيش الفرنسي إلى قرى مصر السفلى.

وفي أثناء المعركة خاطب نابليون قواته وهو يشير إلى الأهرام قائلا: "أيها الجنود، إنَّ أربعين قرنا تطل عليكم...".

وعندما رأى العرب أنهم قد خسروا المعركة، ابتعدوا وتشتتوا كعادتهم في الصحراء.

لو استطاع الأسطول الوصول لكان اليوم أكثر حزمًا. كان قد أخذ بعض الأسرى وأنقذ الأمتعة، وسمع طوال الليل قصف مدافع المعركة. كان هبوب الرياح الشمالية قد تخفف صوته، ولكن عندما هدأت الرياح في المساء أصبح صوت المدافع أكثر قوة، وبدت النيران أكثر قربًا. اعتقد الملاحون أن المعركة قد انتهت، ولكن لم يكذبهم إلا كثرة عدد جثث الأتراك التي يجرفها النيل.

وفي التاسعة مساءً وصل المقر العام إلى الجيزة، ولم يبق خادم في بيت مراد بك الريفي الجميل الذي لم يكن في تنسيقه يشبه قصور أوروبا. ومع ذلك فقد شاهد الضباط بكل سرور بيتًا مفروشًا بشكل رائع، وأرائك (دواوين) من أجمل المنسوجات الحريرية من مدينة ليون، مزينة بأهداب مذهبة وقطع أثرية من فنون أوروبا. كانت الحديقة غنية بأجمل الأشجار، ولكن لا يشقها ممر. وكانت هناك ثروة ثمينة داخل قبة (عريشة) على شكل سلة كبيرة مغطاة بالكروم، ومحملة بعناقيد العنب الفاخر. انتشر الخبر في المعسكر، فاندفع الجنود كتلة واحدة يسارعون لقطف العنب.

ووجدت الفرق - التي استولت على معسكر إمبابة - خيرات، منها أمتعة البكوات والكاشف، ومطاعم مملوءة بالمربى والحلويات. كما وجدت السجاجيد وأواني الصيني والفضيات بوفرة كبيرة. وطوال الليل لاحت مآذن القاهرة من خلال لهب حريق الثلاثمئة سفينة مصرية، وانعكس الضوء على سطح الأهرام، وفي أثناء الأيام التي لحقت المعركة انشغل الجنود بانتشال الجثث، وكان بالكثير منها مائتان أو ثلاثمئة من العملة الذهبية.

وفقد الجيش الفرنسي ثلاثمئة رجل بين قتيل وجريح، أما خسارة العدو فقد بلغت عشرة آلاف من المماليك والعرب والشراكسة، ما بين قتيل وجريح وغريق أو أسير... الخ.

سابعًا: وعند الفجر، وصلت فرقة فيال إلى جزيرة الروضة، وأقامت كتيبة عند المقياس. وعبر القناصة الترعة، وأقاموا في المنزل الريفي لإبراهيم بك. وهبت الرياح الشمالية بشدة، بينما لم يصل الأسطول الصغير، وأكد اللواء البحري بيريه أنه لا يجب الاعتماد عليه، فقد جنحت السفن، ولن يستطيع الوصول إلا عندما يرتفع ماء النيل قدمًا. بلغ الغيظ منتهاه، وكانت القاهرة غاية في الاضطراب، فقد قام بعض السكان بسرقة بيوت البكوات، والتي أصبحت من الآن فصاعدًا أملاكًا فرنسية. والبعض الآخر استمالهم إبراهيم بك الذي عمل على تشجيع السكان على الدفاع. ولكن انهزمت مليشيات القاهرة كما حدث للمماليك في معركة الأهرام. وكل من كان

قادرًا من الرجال في المدينة على حمل السلاح شارك فيها، وقد أصابهم الهلع وفقدوا الشجاعة، وبدا لهم الفرنسيون فوق البشر.

ووُزعت في المدينة الرسالة التي وجهت إلى الباشا من الاسكندرية وتم ترجمتها إلى العربية. وتم إيفاد تُرجمان إلى العلماء وشيوخ جامع الأزهر الذين اجتمعوا وأخذوا على مسئوليتهم إدارة المدينة، وقرروا الاستسلام، وانسحب إبراهيم بك والباشا إلى بركة الحاجي (Birket el-hâggy). ذهب وفد من الشيوخ إلى الجيزة برئاسة قاضي (Kiâya) الباشا مطمئنين في رأفة المنتصر، وكانت المدينة تنتظر عودة الوفد بقلق بالغ، وأبدى الوفد رضاه عن حسن الاستقبال الذي تلقاه، والاستعداد الطيب الذي أبداه بونابرت "السلطان الكبير". [اسم أطلقه العرب على الجنرال بونابرت].

وقد دخل الجنرال ديبوي (Dupuy) القاهرة، واستولى على القلعة وبعض المواقع الرئيسية، وعلق نداء القائد العام كالتالي:

"يا أهل القاهرة، إنني راض عن مسلككم... ولقد جئت للقضاء على جنس المماليك وحماية التجارة وأهالي البلاد. فليطمئن كل من انتابه الفزع، وليرجع كل من رحل إلى بيته. ولتقام الصلاة اليوم كالمعتاد... لا تخافوا من شيء على عائلاتكم وبيوتكم وممتلكاتكم، وبصفة خاصة لا تخافوا على دين النبي الذي أحبه... سوف يكون هناك ديوان من سبعة أشخاص سيجتمعون في الجامع الأزهر".

وفي أثناء يومي 23 و24 (يوليو)، عبر النيل بعض أعيان القاهرة، واتجهوا إلى الجيزة لمشاهدة السلطان الكبير، وعبروا له عن خضوعهم. ولم يهمل نابليون شيئًا يطمئنهم ويُوحي إليهم بالثقة والمشاعر الطيبة. وبمنتهى الأمانة ساعده الترجمان المواطن فينتور (Venture)، الذي قضى أربعين عامًا في القسطنطينية وفي مختلف بلاد المسلمين. لقد كان أول المستشرقين في أوروبا، وترجم كل الأحاديث بأناقة وسهولة، وبأسلوب كان له تأثير بالغ.

وفي يوم 25 (يوليو)، دخل القائد العام القاهرة، وأقام في قصر محمد بك الألفي، الواقع في ساحة الأوزبكية على طرف المدينة. وكان للقصر حديقة بالغة الجمال، ويربط الريف بينه وبين بولاق ومصر العتيقة. وشاركت منازل الفرنسيين ومنازل أهل البندقية والإنجليز في تزويد المقر العام بما يحتاج إليه الأوروبيون من فراش وكراسي ومناضد وغيرها من الأثاث، وأقام المهندس لي بير (Le Père) سلمًا رائعًا غيّر من ترتيب المنزل ليتمشى مع تقاليد وعادات الفرنسيين.

وقد انتاب الخوف نساء المماليك، واهتم القائد العام في البداية بإدخال الطمأنينة على قلوبهن، واستعان بتأثير زوجة مراد بك، والتي كانت الشخصية الرئيسية. وقد كانت من حريم علي بك، وتحظى في المدينة بكل احترام وتقدير. أرسل لها نابليون صهره الملازم بوهارنيه (Beauharnais) ليقدم لها تحياته، وليحمل لها فرمانًا يؤكد لها حق ملكية كل ديارها. فقد كانت غاية في الثراء والترف، وكانت تدير سرايا يضم خمسين امرأة من كل البلاد

والألوان، وقد وجد ضباط قصرها صعوبة كبيرة في السيطرة عليهن عندما أردن رؤية هذا الشاب الفرنسي الجميل. وقد استقبلت الست نفيسة مبعوث السلطان الكبير بكل ترحيب ولطف، وأدخلته السراي، وقدمت له بكل كرم وجبة طعام خفيفة وراقية، وأهدته خاتمًا ثمينًا من الذهب. ولما كانت ثروات المماليك في أيدي زوجاتهم، وكانت خزينة الجيش تعاني من صعوبات جمة لمواجهة احتياجات الجنود، فقد كان لا بد، حسب عرف البلد، أن يُطلب منهن شراء ثروات الأزواج من جديد، وخضوعها لمساهمة تتناسب مع ثرواتهم.

وبعد أن أمن السكان على أنفسهم وممتلكاتهم، اطمأنوا فيما بعد على دينهم، وهو الموضوع الجوهري. واستمر الأئمة في القراءة في المساجد، والمؤذنون في أداء الآذان من أعلى المآذن طوال ساعات الليل. وكان العلماء والشيوخ موضع اهتمام خاص وملاينة من نابليون الذي أقر لهم ملكية قراهم وكل امتيازاتهم، وأحاطهم بتقدير أعظم مما كانوا يحظون به من قبل، وشكل منهم الديوان، واستعان بهم في حكم البلاد.

ورغم صدور الأوامر بتسليم السلاح، فما زال عدد كبير من البنادق داخل أجنحة الحريم. وكان الباشا أو البك لا يجد صعوبة، بدون أي إجراء رسمي، في القبض أو الضرب بالعصا كل من لا يعجبه من أهل البلد، أو حتى أن يطلب قطع رقبته، ولكنه لا ينتهك أبدًا مجلس الحريم. ويعتبر المملوك خادمًا لسيده داخل وخارج بيته حيث لا يُمس، وكان هذا العرف محترمًا. وتوطدت الثقة. وقد كان مراد بك شديد الحساسية نحو احترام ومراعاة حريمه، ومن ذلك يستشف أنّ لديه ميولاً سلمية.

وقد انتشر خبر النصر في معركة الأهرام بسرعة فائقة في كل الصحاري وكل مصر السفلى، وتم قراءة وتعليق منشورات علماء القاهرة ورؤساء الدين في كل المساجد، وعادت الاتصالات إلى مؤخرات الجيش مع الإسكندرية ورشيد. وتسلم الأركان أخبارًا من الجنرال كليبر، حاكم الإسكندرية، والجنرال مينو حاكم رشيد، والأميرال برييه قائد العمارة البحرية، والتي كانت لا تزال راسية في أبو قير، مما أثار دهشة وغضب القائد الأعلى.

ثامنًا: ظل الجيش عشرة أيام في القاهرة ولم يتحرك، فأعاد مراد بك تشكيل فلول جيشه في مصر العليا، ومارس إبراهيم بك تأثيره من بلبيس على كل مصر السفلى، وكان يسيطر على الشرقية وعلى جزء من قليوب ودمياط وجزء من الدلتا. وكان يدعم قواه كل يوم برفع ضرائب جديدة، وكان طرده إلى ما وراء الصحراء من أكثر الأمور أهمية لإمكانية التمتع بحياة هادئة في مصر السفلى، ولكن كان الجنود لا يألفون البلاد بسهولة، رغم تحسن أوضاعهم كثيرًا.

وفي يوم 2 أغسطس اتجه الجنرال ليكلارك (Leclerc) إلى الخانقة ليراقب إبراهيم بك عن قرب. وتقع الخانقة على بعد ستة فراسخ من القاهرة. وقد تلقى الأمر بأن ينظم فيها مستودع (نقل وتفريغ ومخبز). وسار

الجنرال مورا (Murat) إلى القليوبية لإخضاع هذا الجزء والاستيلاء على الخيل. وعسكر الجنرال رينيه في القبة (قبة العزب) (Qobbet el-A'zeb)، وفي 5 أغسطس سافر إبراهيم بك من بلبيس في المساء، وأحاط الطليعة في الخانقة ، وأوقفته عند حده طلقات البنادق والبارود. وسار الجنرال مورا والجنرال رينيه مع دوي المدافع دون تضييع الوقت إلى الخانقة ، ووصلا في حينه لجمع الطليعة التي كانت تتراجع. وتم طرد إبراهيم بك ودفعه إلى بلبيس. وسلم بونابرت للجنرال ديزيه قيادة القاهرة، وأوصاه بتعجيل استعدادات الحملة على الصعيد، والبدء فورًا بالعمليات العسكرية. وبمجرد أن عرف الجيش أنه سوف يغادر القاهرة، أخذ يعبر عن تذمره، وقد اتخذ السخط لونًا من العصيان والتآمر الذي لم يكن معروفا حتى ذلك الحين، وشكلت الكتائب مندوبين عنهم، وتشاور عدد كبير من الجنرالات فيما بينهم: "لم نسمع بأن تُطالب القوات بالسير في الصحراء في شدة القيظ بلا ماء، وأن تتعرض لشمس الاستواء الحارقة دون ظل". ومع ذلك، فقد حملت الفرق السلاح فجر يوم 7 أغسطس، وكانت الفرقة التاسعة تتقدم المسير، والتي كانت في أسوأ الحالات المعنوية.

وانتقل القائد العام إلى الجبهة، وعبر عن استيائه، وأمر العقيد بالدوران إلى اليمين والرجوع إلى المدينة قائلاً بكل عنف: "يا جنود الفرقة التاسعة، لست بحاجة لكم". وأصدر الأمر إلى الفرقة 32 بأن تنصرف على شكل فصائل وتتولى مقدمة السير. وكان ذلك كافيًا لإحباط المؤامرة. وبعد التماسات ومداولات طويلة، عادت الفصيلة التاسعة إلى المشاركة في الحملة، وسارت في المؤخرة. وقضى الجيش ليلة 7 أغسطس في الخانقة، وليلة 8 في بلبيس. وتبع الجيش حافة الصحراء، ولكن كان على يساره الأراضي المزروعة، وعدد كبير من القرى، وغابة ممتدة من أشجار النخيل. كانت بلبيس عبارة عن كفر كبير به عدة آلاف نسمة، وهو مركز رئيسي غادره إبراهيم بك منذ اثني عشرة ساعة، وكان قد انسحب إلى الصالحية. وفي يوم 9 أغسطس أقام الجيش معسكره في غابة من أشجار نخيل في كُريّم (Korâym).

وكانت قافلة مكة قد وصلت إلى حدود مصر منذ عدة أيام، ولحق الأمير- أغا مع مرافقيه بإبراهيم بك. واعتقد عرب وي وبيلي (Billy et W) إمكان انتهاز الفرصة وسلب القافلة دون أدنى مخاطرة، واستولوا على كل البضائع. وجاء المروقي (El-Marouki)، وهو أحد أهم التجار، مع اثنين من نسائه، وارتمى عند قدمي القائد العام يلتمس حمايته، فقد اختطفوا اثنين من خدمه، ومئة ألف ريال (فرنسي قديم). تم استقبال الأسرة التعسة التي تأثرت مشاعرها من الرعاية والمجاملة الفرنسية. وقد كانت النساء، كما وصفهن الجنود، حسنة السلوك، ناعمة الأيدي، ورشيقة الخطى، وكما وصفوا جمال نبرات أصواتهن، وسواد أعينهن الواسعة الجميلة. وتمت التحقيقات بكل عناية وهمة، وعُثر على جميع السلع، وأعيد تنظيم القافلة، ورحلت الى القاهرة تحت حراسة مشددة، مما أثار بحرارة الاعتراف بجميل المدينة والتجارة.

وفي الساعة الثانية بعد ظهر يوم 10 (أغسطس)، دخلت طليعة الجيش في غابة أشجار النخيل بالصالحية، ووصل سلاح الفرسان المكون من ثلاثمئة وخمسين حصانًا قرب المسجد، ووجد فيه أن إبراهيم ما زال مع أهل بيته. كان الإنذار قد وصله، وكان مشغولاً بتحميل الجمال التي تنقل نسائه وثرواته. برز حسن المظهر، فقد كان عنده ألف ومائتا مملوك وخمسمئة عربي ما زالت المشاة على بعد فرسخين، ولحق بسلاح الفرسان مدفعان على حصان، وستون ضابطًا من راكبي الخيل. وقد كانت الحرارة خانقة، ووجد سلاح المشاة صعوبة في السير في الرمال المتحركة. ومع ذلك بدأ قصف المدافع بعد قليل، وعندئذ نفذ سلاح الفرسان الفرنسي بعض الهجمات، واستولى على جملين يحملان مدفعين خفيفين، ومئة وخمسين جملاً محملة بأمتعة زهيدة القيمة، تركها إبراهيم بك ليرحل بسرعة. ويائسًا لضياع هذه القافلة منه، قام العقيد لاسال (Lassale) بهجوم جديد فقد فيه ثلاثين رجلاً بين قتيل وجريح، ودون أن يستطيع قهر مؤخرة جيش العدو المكون من ستمئة مملوك. واستمر إبراهيم بك في الانسحاب متواريًا داخل الصحراء. أقام في قطية (Qatyeh)، ومنها وصل إلى العريش وسوريا، واستقبله الجزار باشا. وفي أثناء معركة الصالحية انفصل خمسمئة عربي عن إبراهيم بك، وأخذوا موقعًا على جناحيه، وأرسلوا وفدًا إلى الفرنسيين يطلبون منهم السماح بالتواطؤ بالهجوم مع سلاح الفرسان الفرنسي. ولكنهم يمتنعون عن مواجهة المماليك المرعبين، وساعد واحد منهم على هروب عشرين من العرب. وقد تميز في هذا الهجوم المرافقون العسكريون سيلكوفسكي (Sulkowski)، وديروك (Duroc)، وبوهارنيه (Beauharnais)، والعقيد ديتريس (Detrès) الذي أصيب بجرح خطير.

وتقع الصالحية على بعد ثلاثين فرسخًا من القاهرة، وسبعة وستين فرسخًا من غزة، وهي آخر نقطة يصلها الفيضان اليوم. وبعد أشجار نخيل الصالحية تبدأ الصحراء الجرداء التي تفصل إفريقيا عن آسيا. وقد كان من الضروري إقامة قلعة تكون في نفس الوقت زورقًا حربيًا لمراقبة الصحراء، ومركز ايداع للجيش الذي سوف يضطر للمواجهة على هذه الحدود، أو حتى لو أراد الزحف إلى سوريا. فوجّه الجنرال كفاريللي دي فالجا بالتعليمات المناسبة لطريقة التحصين الواجب اتباعها.

وفي يوم 12 أغسطس زحفت فرقة دوجا إلى دمياط، واستولت على المدينة دون صعوبة. ودمياط هي المدينة الأولى بعد القاهرة في مصر السفلى، وكانت مركزًا تجاريًا كبيرًا. ويحقق جمرك دمياط موردًا مماثلاً لما تحققه الإسكندرية. ووجد الجنرال دوجا مخازن هائلة من الأرز يملكها البكوات، وشيد مدفعًا (بطارية) لحماية البوغاز، واستولى على بحيرة المنزلة وقصر طينه (Tyneh).

وفي الصالحية تمركزت كتيبة من ضباط سلاح المهندسين، وطليعة من ثلاث كتائب؛ مشاة، وسرية خيالة، وبطارية ومدفعية. وسافرت بقية الجيش من جديد إلى القاهرة. وفي يوم 12 أغسطس ليلاً تحدث بعض الرجال

القادمين من دمياط بشكل مبهم عن معركة بحرية كبيرة وقعت في الإسكندرية، انتصر فيها الفرنسيون، وتم حرق عدد كبير من السفن، ولكن لم يكن ثمة اهتمام بهذا الخبر.

تاسعًا: وفي منتصف الطريق بين كُريم وبلبيس، وصل بريد من الإسكندرية تسلمه الجنرال برتيه، كان يحمل أخبارًا من فرنسا نقلتها سميرية [سفينة حربية صغيرة مهمتها خفر السواحل]، كانت قد دخلت الميناء في أمان. كانت الرسالة من وزير الحربية تخبر [الجنرال برتيه] بقانون 22 فلوريال، وتأمر بأن يكون في جدول أعمال اليوم [أنه]: ألغت حكومة الإدارة والمجلس التشريعي جزءًا من الانتخابات التي أجرتها، مما يعتبر تعديًا على سيادة الشعب، وكان له أثر سيء داخل الجيش". إنهم في باريس - كما قيل - حفنة من المدعين لا يكفون عن الحديث عن المبادئ، لكنهم لا يريدون إلا الاستيلاء على الحكم، إنهم يسخرون منا".

وقد جاء هذا البريد بخبر أكثر أهمية بالنسبة للجيش، وهو: أن كليبر قد قدم تقريرًا عن القضاء على الأسطول. وأن هذه الكارثة وقعت في أبو قير في أول أغسطس. وقد استغرق البريد اثني عشرة يومًا مضطرًا للسير مع خفر المشاة. قال نابليون:

"عندما وصلت أمام الإسكندرية، طلبت من القدر أن يحمي الأسطول لمدة خمسة أيام، وقد منحنى القدر شهرًا، ولم يرغب الأميرال برسو سفنه في الميناء بأمان، مع أنه لم يكن يحتاج لأجل ذلك سوى ست ساعات. إن القوات البحرية يلاحقها قدر محتوم لا يرحم، وسوف يكون لهذه الكارثة الكبرى تأثيرها من الآن هنا، وإلى أمد بعيد".

وقد عبّر سكان القاهرة عن رضاهم الحقيقي عند عوده الجيش، وجاء علماء الجامع الأزهر في المقدمة، ورؤساء التجار الذين عبروا عن عرفانهم لحماية القافلة وعن رغبتهم في أن يتم احتلال مصر العليا عن قريب، لأنها ضرورية من أجل تموين ورخاء القاهرة.

وصرع الفرنسيين خبر كارثة الأسطول، وكانوا يقولون: "ها نحن إذن مُتخلي عنا في بلد همجي، دون اتصالات، ودون أمل في العودة إلى ديارنا". وخاطب القائد العام الضباط والجنود قائلاً:

"حسنًا، إن ما حدث سوف يضطرنا إلى أن نقوم بأعمال عظيمة، وسوف نقوم بها، وتأسيس امبراطورية عظمى، وسوف نؤسسها. إن بحارًا لا نهيمن عليها تفصلنا عن الوطن، ولكن لن يفصلنا أي بحر عن إفريقيا ولا عن آسيا. إن عددنا كبير، ولن نحتاج إلى رجال لاختيار رؤساء لنا. ولا تنقصنا الذخائر، فلدينا منها الكثير، وعند الحاجة سينتجها لنا شامبي (Champy) وكونتيه (Conté)"

وقد تحمست النفوس فتوقفوا عن الشكوى، واهتموا بالاستقرار بجدية، وحث كل الفرنسيين بعضهم البعض للولاء لصيتهم. وكان أكبر عائق يعانون منه هو ندرة المال وصعوبة الحصول عليه.

وتم تنظيم الإدارة في كل أقاليم مصر السفلى، ووصلت خيول عديدة لتزويد الجيش في مستودع القاهرة المركزي. وتم تحصيل الضرائب، وفي ورش القاهرة تم تصنيع ثلاث زوارق مسلحة، قاعها مسطح ويحمل كل منها مدفعًا عيار 24، وأربعة مدافع عيار 4، وكمية الماء التي تسحبها حين تغطس قدمين. ونزل منها زورق في بحيرة البرلس، ونزل الزورقان الأخران في بحيرة المنزلة. ويستطيع كل زورق حمل مائتي رجل، وكان لها أربعة زوارق لا يتعدى مسحوب الماء سوى قدم، ويحمل مدفعًا عيار 3. ومن هنا تمت السيطرة على هاتين البحيرتين تمامًا. وقد عمل ضباط سلاح المهندسين بنشاط في إصلاح ترعة الإسكندرية، فدخلها ماء النيل، وتم تزويد الميدان بالماء، فامتلأ ثلاثمئة خزان. كما أتاحت الملاحة - التي استمرت ستة أسابيع - ملأ المخازن بالقمح والأرز ومواد غذائية أخرى كانت ضرورية في هذه المنطقة الهامة. وكُلف ضباط قيادة الأقاليم بقمع الانتفاضات التي أثارها الشغب، مما نتج عنه بضع معارك قليلة الأهمية بعد أن استقر في عقول الشرقيين تفوق الجيش الفرنسي.

وفي يوم 28 أغسطس، سافر ديزيه أخيرًا إلى مصر العليا ومعه أربعة آلاف أو خمسة آلاف رجل من كل الأسلحة، كان من بينهم خمسمئة رجل من سلاح الفرسان يركبون خيولاً ممتازة، وكذلك أسطول بحري صغير يضمن له السيطرة على النيل. وغادر مراد بك كلاً من إقليمي الجيزة وبني سويف، وبعد أيام قليلة، رفرف العلم الفرنسي بألوانه الثلاث على الضفتين على مسافة تصل إلى امتداد أربعين فرسخًا من القاهرة.

وتم تجميع الترسانة والقاعات النارية ومخازن المدفعية في الجيزة، وتم تحصين السور، وهو عبارة عن حائط ضخم، وذلك بوضع متاريس ونبال وبطاريات جيدة. وأصبحت قلعة القاهرة في أمان، ولم تجد الاتصالات مع الإسكندرية ورشيد ودمياط أدنى صعوبة. والمنزل الريفي لإبراهيم بك، والواقع على الضفة اليمنى من النيل، كان قد تحول إلى رأس حربة لجزيرة الروضة، وتحول إلى مستشفى يضم ستمئة مريض. وتم تخصيص منزلين من أكبر منازل القاهرة لنفس المهمة. وفي أثناء شهري أغسطس وسبتمبر تم تنظيم كل أقسام الإدارة بنشاط فريد، وأقام المعهد مكتباته وآلات الطباعة والآلات الميكانيكية ومقر الطبيعة في واحد من أجمل قصور المدينة.

عاشرًا: في عام 1798، وصل الأسطول الفرنسي الإسكندرية في أول يوليو في الساعة العاشرة صباحًا، وتم إنزال الجيش في نفس اليوم، واستولى على الإسكندرية في اليوم التالي. وفي يوم 10 يوليو وصل الجيش إلى الرحمانية على النيل، وفي يوم 13 شن معركة، وشنَّ معركة أخرى يوم 21، وفي يوم 23 دخل الجيش القاهرة وقضى على المماليك، وخضعت كل مصر السفلى والعاصمة في 23 يومًا.

وكان سان لويس قد ظهر أمام دمياط يوم 5 يونيو عام 1250، وتم الانزال في نفس اليوم، فانسحب العدو من مدينة دمياط، ودخلها في نفس اليوم. ومن يوم 6 يونيو حتى 6 ديسمبر، أي طوال ستة أشهر، لم يحرك ساكنًا،

وبدأ الزحف في بداية شهر ديسمبر، فوصل يوم 17 أمام المنصورة على شواطئ ترعة أشمون، حيث كانت هذه الترعة قديمًا ذراعًا للنيل، وهي ترعة عريضة جدًا ومملوءة بالماء في هذا الموسم. وقد أقام معسكرًا قضى به شهرين، وفي يوم 12 فبراير 1251 كانت المياه منخفضة، فعبر البحيرة وشن الهجوم بعد الإنزال في دمياط بثمانية أشهر.

ولو قام الفرنسيون بالمناورات في 6 يونيو عام 1250، كما فعلوا في 1798، لكانوا قد وصلوا يوم 12 يونيو أمام المنصورة، ولوجدوا ترعة أشمون جافة لأن مياه النيل تكون في غاية الانخفاض في هذه الفترة، ولكانوا قد وصلوا إلى القَاهرة يوم 25 يونيو. وفي هذه الحقبة لم يكن بذراع النيل سوى خمسة أقدام من الماء، ولكانوا قد احتلوا مصر السفلى والعاصمة في نفس شهر وصولهم. وعندما وصل إلى القاهرة خبر إنزال قوات سان لويس في دمياط، كان الذهول عامًا، ولم نر أية وسيلة للمقاومة. وقد أسالت قراءة البرقية في المساجد سيولاً من الدموع، وفي كل لحظة كان انتظار خبر وصول الفرنسيين إلي المنصورة وأمام أبواب القاهرة. ولكن في خلال الشهور الثمانية كان عند المسلمين الوقت الكافي ليفيقوا من دهشتهم ويطلبوا النجدة، فأسرعت الجيوش من مصر العليا والجزيرة العربية وسوريا، وانهزم سان لويس، وتم أسره وطرده من مصر.

وإذا كان الفرنسيون في 1798 قد حاربوا مثل سان لويس، لكانوا سيقضون شهور يوليو، وأغسطس، وسبتمبر، وأكتوبر، ونوفمبر، وديسمبر، دون أن يتركوا ضواحي الإسكندرية. ولوجدوا في شهر يناير صعوبات لا يمكنهم التغلب عليها. فقد كانت دمنهور والرحمانية ورشيد محصنة، وكانت تغطيها المدافع والجيوش. وكذلك القاهرة والجيزة اثنا عشر ألف مملوك، وخمسة عشر ألف أو عشرين ألف من العرب راكبي الخيول، وأربعين ألف أو خمسين ألف إنكشاري وعزب (Azabs) أو ميليشيات كانوا قد تجمعوا وحصنوا مواقعهم. وكان باشا القدس وباشا عكا ودمشق وبك طرابلس قد أرسلوا النجدة إلى المؤمنين. ومهما كانت الانتصارات التي كان الجيش الفرنسي يحققها في هذه المواجهات، فقد كان الغزو مستحيلاً، وكان لا بد من أن يبحر الجيش من جديد. وقد كانت مصر عام 1250 في حالة دفاع أقل، وكانت دون مدافعين مقارنة بعام 1798، ولكن لم يعرف سان لويس كيف يستفيد من حالة الضعف، وقضى ثمانية أشهر في الصلاة، في الوقت الذي كان ينبغي عليه أن يقضيه في الزحف والحرب والاستقرار في البلاد.

الفصل الرابع

معركة أبو قير البحرية

أولا: حركة العمارات الإنجليزية في البحر الأبيض المتوسط في مايو ويونيو ويوليو 1798م. ثانيًا: الأسطول الفرنسي يتلقى الأمر بالدخول إلى ميناء الإسكندرية القديم، كان يستطيع ذلك ولكن لم ينفذ الأمر. ثالثًا: رسو الأميرال في خليج أبو قير- استياء نابليون. رابعًا: المعركة البحرية (أول أغسطس). خامسًا: أثر الكارثة على الشعب المصري. سادسًا: أثر هزيمة الأسطول الفرنسي على السياسة الأوروبية.

أولاً: وصل إلى علم الوزارة الانجليزية في فبراير خبر تجهيز سفن هائلة في مواني برست (Brest)، وروشفور (Rochefort)، وطولون، وجنوة، وفيرول (Ferrol)، وكاديس (Cadix)؛ حيث أقام مئة وخمسون ألف رجل معسكرًا في مواني النورماندي (Normandie) وفلاندر (Flandre)، وأن نابليون، القائد العام لجيش انجلترا، وحوله عدد كبير من ضباط البحرية القديمة البارزين، يتجول في مواني المحيط. واعتقدت الوزارة أن فرنسا تريد انتهاز فرصة السلام الذي تم توقيعه مع القارة لإنهاء نزاعها مع انجلترا في صراع جسمًا بجسم، وأن عمارات كاديس وبريست مجتمعة سوف تنقل جيوشًا إلى انجلترا وأيرلندا. وعلمت الوزارة يوم 12 مايو أن نابليون كان قد غادر طولون يوم 4 (مايو)، وأصدرت على الفور الأمر إلى الأميرال روجيه لأن يتجه مع عشر سفن حربية أمام كاديس ليدعم قوة أسطول الأميرال سان فنسان (Saint-Vincent) الموجود أمام هذا الميناء.

غادر الأميرال سواحل انجلترا في 16 مايو، ووصل إلى كاديس يوم 24. وأرسل لورد سان فانسان على الفور عشر سفن لدعم فرقة نيلسون الخفيفة، وتشمل ثلاث سفن كانت تتجول في البحر المتوسط. وصل نيلسون ومعه ثلاث عشرة سفينة وفرقاطتان يوم 12 يونيو أمام طولون، وهناك علم أن الأسطول غادرها منذ مدة طويلة، واتجه بعدها أمام مرسى تالامون (Talamone) وإلى سواحل توسكان (Toscane) وأمام نابولي حيث وصل يوم 18 يونيو. وقد بقي اللورد سان فانسان ومعه عشرون سفينة أمام كاديس، معتقدًا أن الأسطول الفرنسي سيصل إليها ليجتمع مع الأسطول الإسباني. وصدر الأمر إلى نيلسون ألا يحترم حياد أية قوة، سواء اتجه الأسطول الفرنسي إلى القسطنطينية في البحر الأسود، أم إلى البرازيل، ومهاجمته أينما يرى الانتصار في صالحه. ولم يُذكر اسم

مصر في هذه التعليمات التي تم طباعتها. وعلم نيلسون في نابولي أن الجيش الفرنسي يحاصر مالطة، وأبحر إلى ميسين (Messine). وبعد أن علم أن الأسطول الفرنسي قد استولى على مالطة وغادرها، وبدا أنه يتجه إلى كاندي (Candie)، وعبر مضيق ميسين يوم 22 يونيو، اتجه إلى الإسكندرية ووصلها يوم 28، في نفس الوقت الذي اكتشف الأسطول الفرنسي رأس ديرس (Deris) على بعد ثلاثين فرسخًا غربًا في اتجاه الريح. وعندما وصل إلى الإسكندرية لم يجد أية معلومات، اتجه إلى الإسكندرية وتعرف على الدردنيل (Dardanelles) ومدخل البحر الأدرياتيكي، ورسا يوم 18 يوليو في سيراكوزي (Syracuse) وفي صقلية (Sicile) للتزود بالماء، معتقدًا أن الأسطول الفرنسي قد عبر المحيط. إلا أنه رحل يوم 24 يوليو إلى كورون (Coron) في المورة (Morée)، وسأل سفينة يونانية جاءت من الإسكندرية، وعلم منها أن الأسطول الفرنسي قد وصل بعد ثلاثة أيام من مجيء الأسطول الإنجليزي إلى الميناء. وتم إنزال جيش ضخم استولى على المدينة يوم 2 يوليو، وبعد ذلك زحف إلى القاهرة، ورسا الأسطول في الميناء القديم، وأبحر إلى سواحل مصر حيث وصل أول أغسطس.

ثانيًا: سبق القول أن الأميرال بريبه (Bruyes) أراد الرسو في أبو قير ليكمل إنزال أمتعة الجيش بسرعة، بينما كان اللواء باريه (Barré) يقوم بمعاينة الميناء القديم. وانتهى الاستطلاع يوم 12 يوليو. وكتب الكابتن باريه تقريره كما يلي:

الإسكندرية، في العام الرابع. إلى الجنرال بونابرت.

بناء على تكليفكم وتكليف الأميرال بريبه، قمت برفع رسم وقياس أعماق الميناء القديم. دخلت يوم 19 مسيدور (7 يوليو) في مرسى هذا الميناء، وبدأت العمل الذي استمر حتى يوم 24 من هذا الشهر (12 يوليو)، ومن هناك وجهت تقريرًا يوضح نتيجة ما قمت به إلى الجنرال بريبه وقائد الفرقة ديمانوار (Dumanoir)، والذي وافق على الإجراءات التي اتخذتها بشأن دخول الأسطول، وأخبر الأميرال رسميًا بذلك، والذي أجابني يوم 2 تيرميدور (20 يوليو). وأرسل لكم طيه صورة من رسالته ردًا على تقريري.

توقيع: باريه".

[وكان] تقرير الكابتن باري إلى الأميرال بريبه [كما يلي]:

الإسكندرية، في 25 مسيدور - العام السادس (13 يوليو 1798)

"يمكن الوصول إلى عمق ممرات الإسكندرية الثلاث عن طريق كسر بعض الصخور الموجودة في الوسط وعلى الجانبين، وهو ما نستطيع تنفيذه بسهولة لأن هذه الصخور هشة وتفتيتها سهل. علاوة على ذلك، لا يوجد في الممر الكبير إلا مكان واحد يتطلب استخدام هذه الوسيلة لوجود الصخرة في وسط الممر. ومهما كان الأمر يوجد ممر عرضه ستة أذرع على ميمنة وميسرة السفينة، وهو واسع بشكل يكفي لعبور سفن خطوط من الصف الأول.

إنَّ عرض ممر المرابط 300 قامة، وطوله 500 قامة، وهو مثير للمشاكل بسبب عدم استواء أعماقه التي لا تتعدى أربع قامات وأربع قامات ونصف. ولكن ممر الوسط، وهو الأفضل، يحتوي على مياه أكثر، فعرضه 200 قامة في أضيق مكان، وطوله 660 قامة، ويتيح على طول امتداده 6 و7 قامات (القامة: قياس بحري يساوي ستة أقدام).، باستثناء المدخل فليس سوى 5 قامات، والوسط خمس قامات ونصف. وأود أن أشير إلى وجود ممر على كل جانب من الأعماق الضحلة [الغير صالحة للملاحة]. بينما لا يوجد إلا الوسط الذي يضمن 5 قامات ونصف وقت المياه المنخفضة. ويجلب المد والجزر طوال الأيام قدمين ونصف القدم وأكثر من ذلك في ليالي القمر الكاملة، وخاصة وقت فيضان النيل.

ويوجد تعاكس في الممرين عند سير السفينة إلى ممر المرابط، وأيضًا في غرب الشط، حيث فُقدت سفينة البتريوت (le Patriote). وعندما نقابل الممر الكبير حينئذ نجد أننا في اتجاه الشاطئ بعيدًا عن كل خطر. ولا بد من اتخاذ علامة على الأرض. وعند الخروج يكون قد اختفى القصر عند طرف جزيرة الفنار، وحينئذ نكون بعيدين عن كل شيء ويوضح المقياس 10 و12 قامة.

وقد تعرفت على هذه الممرات، وأغرقت براميل طليت بالقطران، وربطت بحبل بمرساة في الممرين الرئيسين ووضعت أعلامًا حمراء على ميمنة السفينة عند الدخول، وأعلامًا صفراء على الميسرة. كان من الضروري لأن الماء كان أكثر على يمين السفينة، أن نضع العوامة الحمراء في الأول، ووضح العمق 6 قامات ونستمر في القيادة حسب الريح الموضح في الرسم محافظًا دائمًا وسط العوامات. وبعد أستدير لتجنب الرصيف الصخري في الجنوب الغربي. علاوة على ذلك يمكن الاقتراب من أرض الإسكندرية، والعمق 9 و10 قامة حتى جانب جزيرة التين.

والممر الثالث شرق رأس التين يمكنه استقبال السفن التجارية 3 و4 قامة على امتداد الممر، وفي حال الاستعجال يمكن استقبال مراكب حربية ضخمة وفرقاطات صغيرة.

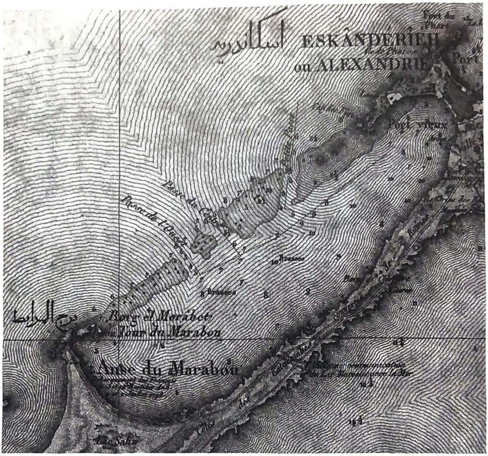
والميناء آمن، ويسهل التحقق منه في الرسم المرسل لكم، وإذا تم تطهيره يمكن أن يستقبل أيضًا سفنًا أكبر وأضخم، غير أن كل مقاييس الأعماق توضح 9 و10 و11 قامة.

وأعتقد أيضًا إمكانية استخدام ممر من الميناء القديم إلى الميناء الجديد وهو ما يُسهِّل الدخول والخروج من الميناءين، ولكن من غير الممكن تنفيذه بعد، وبناء عليه لا يجب التفكير في ذلك.

ويجب أيضًا أن أشير إلى ضرورة إصدار الأمر بصنع منصات من الحديد لإقامة علامات لا يغير ترتيبها شيء، لأن العوامات تنزاح عندما يكون البحر عاليًا.

أرجو أيها الجنرال أن أكون قد أديت مهمتي استجابة لطلبكم وطلب القائد الأعلى، وأرى في نهاية الدراسة أن السفن تستطيع العبور مع اتخاذ الاحتياطات المعتادة والتي تعرفونها أفضل مني.

توقيع: باريه".



10- ممرات الميناء القديمة.
خريطة (37)

ولم يكن هناك إذا ما يحول دون تنفيذ الأمر المحدد الذي أصدره نابليون إلى الأميرال برييه بدخول الأسطول ميناء الإسكندرية القديم، ولكن الأميرال صمم على البقاء في خليج أبو قير.

ومع ذلك أراد أن يؤمّن مسئوليته لأن أمر نابليون بالدخول دون تردد في الميناء القديم إيجابي وكرره أكثر من مرة، وتظاهر بأنه لم يصدق باريه، وأرسل له الرسالة الآتية:

رسالة الأميرال برييه إلى المواطن باريه قائد السفينة "ألسست" (*L'Alceste*)

في يوم 2 تيرميدور، العام السادس.

" لقد استلمت، أيها المواطن، رسالتك بتاريخ 30 مسيدور، ولا يمكنني إلا تقديم كل الثناء لما بذلت من عناية وجهد بحثًا عن ممر وسط الصخور التي تشكل مدخل الميناء القديم ليتيح للسفن الحربية الدخول والرسو دون التعرض لأدنى خطر. ولا يبدو لي مُرضيًا ما قدمته حتى الآن لأننا سنضطر للمرور في قاع من 25 قدمًا، وأن سفننا التي تحمل أربعة وسبعين مدفعًا تُسحب على الأقل 22 [قدمًا]. وبناء عليه لا بد من ريح خاصة وبحر هادئ للمجازفة بالعبور فيه دون التعرض لمخاطر كبيرة وخسارة سفينة، حيث أن الممر ضيق، وأن تأثير دفة السفينة أقل سرعة عندما يكون الماء قليل تحت صالب القاعدة.

وربما تتيح لك أبحاثك أن تجد شيئًا أكثر نفعًا، وأحثك بعدم ترك البحث إلا بعد أن تتأكد من أن المسافة بين برج المرابط والساحل الشرقي لا تقدم شيئًا أفضل من المكان الذي وضعت فيه العوامات. ولتكن متأكدا أنني لن أتجاهل إبراز الدليل الجديد عن الهمة التي أظهرتها في هذه المناسبة، بالإضافة إلى الخدمات المميزة التي قدمتها سابقًا، وهو ما يجب أن يكون ضمانًا أكيدًا لما ستتلقاه من تقدير ومكافأة من الحكومة.

وعندما تنتهي مهامك فمن الضروري أن تقدمها إلى القائد العام، وأن ترسل له رسمًا دقيقًا للمقاييس، وأن تشرح له طريقة تقديرك عن حالة السفن التي يمكننا إدخالها في الميناء القديم بشكل أكيد، ودون أن نعرضها للخطر.

توقيع: برييه ".

ثالثًا: إنَّ معركة الأهرام، واستسلام القاهرة، بالإضافة إلى النشرات التي وجّهت إلى العلماء، [كل ذلك] أعاد السلام إلى مصر السفلى كلها. وتمت الاتصالات مع رشيد والإسكندرية من جديد. وتلقى المقر العام في 30 يوليو، ولأول مرة، أخبارًا منذ الرحيل من دمنهور، أي منذ عشرين يومًا. ومن بين ثلاث رسائل كتبها الأميرال، كانت واحدة بتاريخ 10 يوليو تقول إن اللجنة المكلفة بمراجعة عمل الكابتن باريه قد انشغلت بدراسة أعماق ممر جديد بدا أفضل من الممر العادي. والرسالة الثانية بتاريخ 15 يوليو تقدم تقريرًا عن المناوشات المختلفة التي حدثت بين البحارة والعرب في بئر أبو قير، وقتل فيها بعض البحارة، وانقطعت الاتصالات البرية بين الإسكندرية ورشيد. والرسالة الثالثة بتاريخ 20 يوليو، تحتوي أخبارًا عن نيلسون، حيث لاحظته سفن يونانية دخلت الإسكندرية، تقول [الرسالة]:

"يبدو أن الأسطول الإنجليزي يتجول بين كورفو (Corfou) وصقلية (Sicile)، وأن قوته أقل من قوة الأسطول الفرنسي، ولا يجرؤ على الاقتراب منه. ومع ذلك، ولأخذ احتياطات أكثر، فقد تحقق من الرسو، واحتل موقعًا منيعًا. وإن جزيرة أبو قير تغطي ميسرته المتقدمة في البحر على بعد 600 قامة من الميناء، وأنه استولى على هذه الجزيرة بواسطة خمسين جنديًا من المشاة، ومدفعي معركة عيار 12، وأرى أن من الحذر حمايتها من محاولات العدو. وإن أسوأ سفينتين، وهما: لي جيريه (*Le Guerrier*) والكونكيران (*Le Conquérant*) تشكلان يسار خط الرسو، وتحميهما الجزيرة، بعيدًا عن أي ضرر. ووضع في الوسط فرنكلان (*Franklin*) ولوريان (*L'Orient*)، وتونان (*Tonnant*)، وسفينة عليها مدفع عيار 120، وسفينتنا مدفع عيار 80، وبعض السفن عليها مدفع عيار 74 لن تتخذ مكانًا بلا عقاب تحت هذه البطارية المرعبة. وأن الميمنة في فوضى وبعيدة جدًا عن الأرض، ولكن كان من المستحيل أن يدور العدو حولها دون أن

يفقد الرياح الشمالية الغربية في هذا الفصل، وإذا حدث ذلك فقد كان عليه أن يستعد مع ميسرته، والوسط، ويهاجم العدو بالقلوع".

وقد اندهش القائد العام واستاء من إجراءات الأميرال، وأرسل له على الفور ياوره الكابتن جوليان (Julien) ليأمر برحيل السفينة لوريان وعدم الإنزال ما لم يشاهد كل الأسطول الراسي في الميناء القديم. وكتب إلى الأميرال أنه منذ عشرين يومًا كان لديه الوقت ليتأكد من أن الأسطول قد يستطيع أو لا يستطيع الدخول للميناء القديم. لماذا إذن لم يُدخله؟ ولماذا لم ينفذ أوامره بالرحيل إلى كورفو أو إلى طولون؟ وأعاد عليه الأمر لعدم البقاء في هذا الوضع السيء ورفع مرساه مباشرة، حيث أن أبو قير ملجأ غير آمن لا يمكن حماية جناحه الأيمن من البر، وإن تفكيره قد يكون مقبولاً لو هاجمته قوات متكافئة. ولكن مناورات الأميرال الانجليزي منذ شهر تدل بما فيه الكفاية على أنه ينتظر دعمًا من كاديس (Cadix)، وأنه بمجرد وصول الدعم فسوف يتقدم أمام أبو قير ومعه ربما ثمانية عشر، أو عشرين، أو خمسة وعشرين سفينة، وأنه من الضروري أن يتجنب خوض معركة بحرية وأن يضع كل ثقته في الميناء القديم بالإسكندرية. ولكن تعرضت سفينة القبطان جوليان إلى هجوم من مجموعة من العرب قرب العلقم (A'lqâm)، استولوا على كل ما في السفينة، وقتلوا هذا الضابط الشجاع وهو يدافع عن برقياته. وعلاوة على ذلك لم يستطع الوصول إلا في اليوم التالي للكارثة التي كان مكلفًا بتداركها.

وتحتوي كل التقارير الواردة من الإسكندرية على شكاوى ضد الأسطول الذي لم يكن منظمًا، وبحارته يتجولون في أرض البلد وعلى الشواطئ. كما كانت مواني الإسكندرية ورشيد مزدحمة بقوارب السفن، وتوقفت التدريبات البحرية على السفن، ولم يقوموا أبدًا بالاستعدادات للقتال، ولا بإقلاع سرب خفيف، ولا حتى فرقاطة واحدة. وظهرت في الأفق سفن مشبوهة طوال أيام، ولكن لم تتم مطاردتها. وبالنظر لأسلوب الخدمة فقد كان متوقعًا مفاجأة الأسطول بين لحظة وأخرى. وقد كتب القائد العام إلى الأميرال ليعبر له عن استيائه من كل هذا التقصير، ولم يكن يتخيل لماذا لم تتم الاستفادة من حماية ميناء الإسكندرية القديم، فالجزيرة التي تسند شمال خط الرسو لم يكن يشغلها ثلاثون مدفعًا كانت بلا فائدة بالنسبة له، وكان لا بد من إقامة اثني عشر مدفعًا عيار 36 من الحديد، وأربعة مدافع عيار 16 أو 18 من البرونز، وشواية الكرات الحمراء، وسبعة أو ثمانية مدافع هاون جومير عيار 12 قدم، وعندئذ تكون الميسرة في أمان تام. ولا يمكن فهم الأسباب التي دفعت الأميرال إلى ترك سفينتين مدفع عيار 64 في ميناء الإسكندرية. كانت السفينتان جديدتين وجيدتي الصنع، وكانتا تسحبان ماء أقل بكثير مقارنة بسفن المدفع عيار 74، وكان يمكن وضعهما بفائدة أكبر بين الميسرة والجزيرة. وقد كانت أفضل من الكونكيران (*le Conquérant*)، السفينة القديمة التي هُلكت منذ زمن طويل ولم يتم تسليحها في طولون إلا بمدافع عيار 18. وكان ممكنًا تدعيم كل خط الإرساء بفرقاطة لكل سفينة، وكان عند الأميرال تسعة [منها] فقط.

وكانت فرقاطات البندقية جيدة جدًا وأكبر وأوسع من الفرقاطات الفرنسية مدافع عيار 44، وكانت تحمل مدفعًا عيار 24، وكان مسحوب الماء أقل، وهو ما يعد غير ملائم للسير، ولكنه أفضل بالنسبة لخط الإرساء. وأخيرًا ستة مدافع قديمة (bombardes) وعشر زوارق مدفعية (chaloupes) (أكبر قارب تحمله السفينة)، أو ترتان (tartane) [مركب شراعي صغير وحيد الصاري] مسلحة بمدفع عيار 24 كانت ضمن القافلة، لماذا لم تستعمل لتقوية ميمنة خط الارساء؟ وكان يوجد ألف وخمسمئة بحار في ميناء الإسكندرية مع القافلة، وكان الأميرال يستطيع دعم طاقم البحارة مما يصل إلى زيادة العدد مئة رجل زيادة على كامل الطاقم.

وقد نتج عن كل هذه الأفكار آراء مؤلمة للغاية أصابت القائد العام بحزن شديد. ولكنه كان قد اطمأن - في مساء يوم 2 أغسطس - حين وصلته رسالة كتبت بتاريخ 30 يوليو، حيث كتب له الأميرال بأنه علم رسميًا بخبر معركة الأهرام والاستيلاء على القاهرة، وكان لذلك تأثير كبير على العرب الذين استسلموا على الفور. وقال إنه عثر على ممر ليدخل إلى الميناء القديم ويضع العوامات، وأن الأسطول سيصبح في أمان خلال أيام قلائل. وطلب السماح له بعد ذلك مباشرة بالذهاب إلى القاهرة، وأن يتحقق من البطاريات التي تدافع عن الميناء القديم. ولم يتردد عن إغداق الثناء على ضباط المدفعية وسلاح المهندسين، حيث أصبحت كل المواقع مؤمنة تمامًا، وأنه يستطيع النوم مطمئنًا بمجرد إرساء الأسطول في الميناء القديم.

رابعًا: في أول أغسطس، وفي الساعة الثانية والنصف بعد الظهر، ظهر الأسطول الانجليزي في أفق أبو قير، حيث كانت كل الأشرعة منشورة، وكانت الرياح الشمالية الغربية باردة، وكان الأميرال حول الطاولة مع الضباط. وكان جزء من طاقم البحارة والزوارق في الاسكندرية ورشيد أو على أرض شاطئ أبو قير. وقد أمرت أول إشارة منه بالاستعداد للقتال، وكانت الإشارة الثانية توجيه الأمر إلى القوارب الموجودة بالإسكندرية ورشيد والأرض للحاق بسفنها. والأمر الثالث كان موجهًا لبحارة سفن النقل الموجودة بالإسكندرية للرجوع من البر إلى متن السفن لدعم طاقم البحارة. وكانت الإشارة الرابعة هي الأمر بالاستعداد للقتال. والأمر الخامس كان التهيؤ للإقلاع. وفي الساعة الخامسة وعشر دقائق كانت الإشارة السادسة الأمر ببدء إطلاق النيران. ووصل الأسطول الانجليزي بأقصى سرعة، ولم يظهر منه إلا إحدى عشرة سفينة بمدافع عيار 74، وواحدة بمدفع عيار 50، وحراقة (corvette) [مركب حربي]. كانت الساعة الخامسة بعد الظهر، ولم يكن يبدو أن الأميرال الانجليزي يريد الهجوم بقوات قليلة، ولكن كانت هناك سفينتان أخريان غرب الإسكندرية، كانتا بعيدتين عن الرؤية، ولم تصلا إلى ميدان القتال إلا الساعة الثامنة مساءً.

كان خط رسو الجيش الفرنسي يتكون من: [سفن] الميسرة، الجيريه (*le Guerrier*)، والكونكيران (*le Conquérant*)، والسبرتيت (*le Spartiate*)، ولاكيليون (*l'Aquiléon*). وكانت الأربعة مجهزة بمدافع عيار 74، والسيريز (*la Sérieuse*)، وفرقاطة بها مدفع عيار 36 كانت خلف الجيريه. و[سفن] الوسط: ليبيل- سوفران (*le Peuple-Souverain*) مدفع عيار74، والفرنكلان (*le Franklin*) مدفع عيار 80، ولوريان (*l'Orient*) مدفع عيار 120، ولتونان (*le Tonnant*) مدفع عيار 80، وأرتيميز (*l'Arthémise*) فرقاطة مدفع عيار 40. وكانت الحراقتان: لا ألرت ولكستور (*l'Alerte et le Castor*) راسيتين خلف الأورليان. و[سفن] الميمنة مكونة من لهيريه (*L'Heureux*) مدفع عيار 74، والتموليون (*le Timoléon*) مدفع عيار 74، ولجيوم-تل (*le Guillaume-Tel*) مدفع عيار 80، كان عليها الأميرال فيلنيف، والمركير (*le Mercure*) مدفع عيار 74، والجينيريه (*le Généreux*) مدفع عيار 74. وخلف [سفينة] الجينيريه كانت ترسو الفرقاطتان: لاديان والجيستس (*La Diane et la Justice*)، وكل منهما بمدفع عيار44، وكانتا أفضل ما في الأسطول.

سار الأسطول الانجليزي بالنظام التالي: (1) لي كولودن (*le Culloden*)، (2) لي جوليت (*le Goliath*)، (3) ليزيله (*le Zélé*)، (4) لوريون (*l'Orion*)،(5) لوداسيز (*l'Audacieuse*)، (6) لي تيزيه (*le Thésée*)، (7) لي فنجورد (*le Vanguard*) سفينة أميرال، (8) لي مينوتور (*le Minotaure*)، (9) بيليروفون (*le Bellérophon*)، (10) لاديفانس (*La Défense*)، (11) لي ماجيستيه (*le Majestueux*)، وكلها مدافع عيار 74، (12) لي ليآندر (*le Léandre*) مدفع عيار 50، (13) لاموتين (*la Mutine*) (حراقة)، (14) الألكسندر (*l'Alexandre*)، (15) لي سويفتشور (*le Swiftsure*). وكانت السفينتان بعيدتين عن الرؤية، غرب الإسكندرية.

كان الرأي الغالب في الأسطول الفرنسي أن المعركة قد تأجلت لليوم التالي لو لم تصل سفن أخرى لدعم قوات العدو في الليل، لأنه لا يبدو ممكنًا أن يخاطر نيلسون بالقتال بما بدا من قواته. لقد كان الاستعداد للقتال سيئًا للغاية، فقد تركت على السفينة لوريان الكبائن التي شيدت من أجل الركاب، ولم تطلق السفينتان "الجيريه والكونكيران" سوى مدفعية واحدة وعاقا المدفعية جانب الأرض. ويبدو أن برييه كان ينوي الإقلاع، لكنه كان ينتظر وصول البحارة من الإسكندرية، والذين لم يصلوا إلا الساعة التاسعة مساء. وعلاوة على ذلك كان الأسطول الإنجليزي في متناول المدافع، وكانت دهشة الجيشين شديدة لأن الأميرال لم يعط الإشارة ببدء القتال.
وكان أمر نيلسون الهجوم على سفينة بعد الأخرى، وكل سفينة تلقي المرساة وتأخذ على الجانب الأمامي من السفينة الفرنسية. وكان هدف [السفينة] كولودين (*le Culloden*) هو الهجوم على السفينة لجيريه التي تشكل أقصى شمال الجيش الفرنسي، رغبة منها في العبور بين السفينة الجيريه وجزيرة أبو قير، فأصابت وجنحت. ولو

كانت هذه الجزيرة مسلحة ومجهزة بمدافع ضخمة لكانت ستضطر لأن تخفض الشراع، والذى كان على الأقل كان غير مفيد في أثناء كل المعركة. وقد مرت سفينة الجوليات (Le Goliat) التي تتبعها بينها والصف الفرنسي وأرادت أن تلقي المرساة وترسو في الجانب الأمامي من السفينة الجيريه، والتي جرفتها الرياح والتيار. وتخطت السفينة الجيريه التي كان مدفعها الأيمن مرتبكا، والذي لم يستطع استعماله. اندهش كابتن الجوليات من عدم تلقي طلقة من السفينة الجيريه، ولا الكونكيران، بينما كان العلم الفرنسي يرفرف ولم يعرف منذ ذلك الوقت سبب هذا التناقض إلا بالدهشة. لو كانت السفينة البحرية الجيريه راسية على أربع خطافات بالقرب من الجزيرة، فقد كان من المستحيل تخطيها. وقلدت زيليه (zélé) مناورة جوليات، وتبعتها السفينة أوريون (*Orion*)، ولكن هاجمتها الفرقاطة الفرنسية سيريز (*la Sérieuse*). وقد أخرت هذه الهجمة الجريئة حركتها ورست بين فرنكلان وبيبل-سوفيران. وألقت لي فانجورد (*le Vanguard*)، وهي سفينة الأميرال الإنجليزي، ألقت مرساها على جانب [السفينة] لسبرتيت (*le Spartiate*)، ثالث سفينة في الصف الفرنسي، وتبع تحركَها السفنُ الأربعة: لادفانس (*la Défense*)، بيليروفون (*le Bellérophon*)، ولماجيستيه (*le Majestueux*)، ولمنيتور (*le Minotaure*). ووجدت كل [سفن] الميسرة و[سفن] وسط الصف الفرنسي في المعركة حتى السفينة الثامنة لاتونان (*le Tonnant*). ولم تشارك سفن الميمنة الخمس في الحدث. وقام الأميرال الفرنسي وملاحاه الاثنان بأعمال مجيدة تثير الإعجاب، متفوقين بنماذج سفنهم بالنسبة لسفن الأعداء. ونزعت معدات السفينة الانجليزية بيليروفون (*le Bellérophon*)، وفقدت الصواري، واضطرت إلى إنزال الشراع. وفقدت صواريها سفينتان أخريان بمدفعين عيار 74، واضطرتا لأن تبتعدا. ولو أقلع العميد البحري فيلنيف (Villeneuve) في هذه اللحظة مع الميمنة وهجم على خط الانجليز مع خمس سفن وفرقاطتين تحت قيادته، لكان النصر حليف الفرنسيين. كانت السفينة كولوتين (*le Culloden*) قد جنحت، وانشغلت السفينة ليآندر (*le Léandre*) برفعها. و[السفينتان] الاسكندر (*l'Alexandre*)، وسويتشور (*le Swiftsure*) - في الحقيقة - قد ظهرتا، ولكن كانتا بعيدتين عن ميدان القتال. والسفينة بيليروفون (*le Bellérophon*) أنزلت الشراع. وقاد نيلسون المعركة بخمس سفن فقط. وعندما شاهد الخطر الذي يتعرض له الأسطول الانجليزي، ترك قائد ليآندر (*le Léandre*) السفينة، وألقى بنفسه وسط النيران. وأخيرًا وصلت كل من [السفينتين] الاسكندر وسوفتشور، وهجمتا على [سفينتي] الفرنكلان (*le Franklin*) والأوريان (*l'Orient*). وكانت المعركة قد حسمت واستمرت بشكل متكافئ. ومن جانب الفرنسيين توقفت [السفينتان] الجيريه (*le Guerrier*) والكونكيران (*le Conquérant*) عن إطلاق النار، فقد كانتا من أسوأ سفنهم. ومن جانب الإنجليز كان [السفينتان] كولودن (*le Culloden*) وبيليروفون (*le Bellérophon*) خارج المعركة أيضًا. وقد عانت السفن الانجليزية أكثر من السفن الفرنسية بفضل تفوق نار السفينة لوريان (*l'Orient*) والفرنكلان (*Franklin*) والتونان (*le Tonnant*). وكان من المحتمل أن تستمر النيران هكذا طوال الليل، وأن

يشارك الأميرال فيلنيف في المعركة، ولكن في حوالي الساعة التاسعة مساءً اشتعلت النيران في السفينة لوريان، وانفجرت في العاشرة، وهو ما حسم النصر في صالح الانجليز. كان الانفجار مريعًا، وتوقف القتال مدة نصف ساعة، وبدأت الصفوف الفرنسية إطلاق النار من جديد. ودافعت خمس سفن: سبرتيت، وأكليون، وليبيل سوفيران، والفرنكلان، والتونان، عن شرف صواريهم. واستمرت ضربات المدافع مدوية حتى الساعة الثالثة صباحًا، ومن الساعة الثالثة حتى الخامسة بدأت تهدأ من الجانبين، ثم في الساعة الخامسة عادت من جديد بعنف شديد. فماذا لو كانت السفينة لوريان قد شاركت فيها؟ وعند ظهر يوم 2 أغسطس، كان لا يزال إطلاق المدافع مدويًا، وفي الساعة الثانية بعد الظهر كان حكم القدر. عندئذ فقط بدا أن الأميرال قد لاحظ أن المعركة تدور منذ 18 ساعة، فقطع الحبال ووصل إلى عرض البحر ومعه [السفينة] جيروم - تل (مدفع عيار 80)، و[السفينة] الجينيريه (*le Généreux*)، والفرقاطتان ديان وجيستيس (*la Diane et la Justice*)، وعلى يمينه كانت ثلاث سفن أخرى تندفع إلى الشاطئ دون أن تدخل الحرب.

وصلت الخسائر والفوضى لدرجة أنه بعد أربعة وعشرين ساعة بعد بدء المعركة كان العلم ثلاثي الألوان يرفرف على [سفينة] التونان (*le Tonnant*)، ولم يكن لدى نيلسون سفينة قادرة على الهجوم بالنظر لحالة الخراب وتلف الأسطول. وشاهد بكل سرور نجاة [سفينتي] الجيوم – تل والجينيريه، ولم يحاول ملاحقتهما. ويرجع انتصاره إلى حماقة وإهمال قادة السفينة لجيريه والكونكيران، وإلى إصابة السفينة لوريان، وسوء تصرف اللواء البحري فيلنيف. وقد بذل برييه أكبر قدر من الشجاعة، وجرح أكثر من مرة ورفض الإسعاف ومات على مقعد النوبة، وكان آخر ما لفظه الأمر بالقتال. ومات بشرف كل من كزابينكا (Casabianca)، قائد سفينة لوريان، وتيفينار (Thevenard)، وبتي- تووا (Petit-Thouars)، وهم من الضباط المتميزين. وكان مع كازابينكا ابنه، وعندما شاهد النار تصل إلى السفينة حاول أن ينقذه، وربطه على سارية علم منصة الصاري العائم، ولكن الانفجار ابتلع الابن المهم. وقفز كزابينكا مع انفجار السفينة لوريان، وكان ممسكًا بيده العلم الوطني الكبير.

وقد أجمع رأي بحارة الأسطولين على ما يلي: كان فيلنيف يستطيع أن يقضي لمصلحة انتصار الفرنسيين، وكان يمكنه ذلك في الساعة الثامنة مساء، وأيضًا في منتصف الليل بعد هلاك السفينة لوريان، وكذلك عند الفجر. وقد برر هذا العميد البحري موقفه قائلاً إنه كان ينتظر إشارة من الأميرال (برييه)، ولكن لم تظهر الإشارة وسط عاصفة الدخان. فهل كان لا بد من إشارة لإنقاذ الرفقاء والاشتراك في القتال؟ مع العلم أن السفينة لوريان كانت قد انفجرت في الساعة العاشرة مساء، وانتهت المعركة في اليوم التالي ظهرًا؛ أي كان فيلنيف قائدًا للأسطول طوال أربعة عشر ساعة. إن هذا الضابط الجنرال لم تكن تنقصه الخبرة البحرية، ولكن كان ينقصه التصميم والحزم والثبات والعزيمة. كان له كفاءة القبطان، ولكن كان ينقصه صفات الجندي. وعند مستوى كاندي (Candie)

افترقت السفينتان جيوم - تل (*Guillaume-Tel*) ولجينيريه (*le Généreux*)، ودخلت جيوم - تل إلى مالطة ومعها الفرقاطتان. وكانت السفينة لجينيريه بقيادة ليجوال (Lejoille) قد دخلت إلى البحر الأدرياتيكي، وطاردت السفينة ليأندر (*Léandre*) بمدفع عيار 50، وسبق أن شاركت في معركة أبو قير. وذهب في مهمة، واستولى عليها بعد معركة لأربع ساعات، وصحبها إلى كورفو.

فقد الانجليز في هذه المعركة ثمانمئة رجل بين قتيل وجريح، واستولوا على سبع سفن، وجنحت سفينتان وفرقاطة. وقبض عليهما. وجنحت سفينة وفرقاطة، وقام البحارة بحرقهما على الشاطئ. وانفجرت سفينة في الجو، ونجت سفينتان وفرقاطتان. وبلغ عدد الأسرى والقتلى ما يقرب من ثلاثة آلاف رجل، ودخل الإسكندرية ثلاثة آلاف وخمسمئة رجل، من بينهم تسعمئة جريح سلمهم الإنجليز.

لقد أصاب العار ربان سفينة الجيريه (*le Guerrier*)، والكونكيران (*le Conquérant*)، وليهيريه (*l'Heureux*)، وميركير (*Mercure*)، وتيموليون (*le Timoléon*). واستحق كل التقدير ربابنة الفرقاطة السيريز (*la Sérieuse*)، وسبرتيات، ولاكيليون (*l'Aquiléon*)، والبيبل - سوفيران (*le Peuple-Souverain*)، والفرنكلان (*Franklin*)، والتونان (*le Tonnant*) [*].

خامسًا: تم تجنيد ألف رجل من جنود البحرية والملاحين الذين تم إنقاذهم من الأسطول، في سلاح المدفعية والمشاة في الجيش. وشكل ألف وخمسمئة رجل فرقة بحرية مكونة من ثلاث كتائب (أفواج)، وأكمل ألف رجل طاقم ملاّحي سفينتي مدفع عيار 64، وسبع فرقاطات وسفن شراعية ذات صاريتين، والحراقات أو السميريات الموجودة بالإسكندرية. وقد سعى منسق البحرية ليروه (Leroy) في عمليات الإنقاذ بكل نشاط، وأنقذ مدافع وقذائف كروية وساريات وألواحًا من الخشب. ووصل إلى الشاطئ القبطان جانتوم، رئيس قيادة الأسطول، بعد أن ألقى بنفسه في البحر عندما رأى السفينة لوريان تحترق، وتم تعيينه لواء بحريًا، وتولى قيادة البحرية في الجيش.

(*) (*La Sérieuse*): الكابتن مرتان.

(*Le Spartiate*): القائد أميريود (*Emeriaud*): رئيس فرقه – جرح.

(*L'Aquiléon*): القائد تيفينار (Thevenard): رئيس فرقة - قتل..

(*le Peuple-Souverain*): القائد ركورد (Racord): كابتن سفينة - جرح.

(*Franklin*): اللواء بلانكيه دي شيلا (Blanquet du Chayla)، وجيليه (Gillet): كابتن سفينة - جرح الاثنان.

(*le Tonnant*): القائد بتي توأر (Petit-Thouars): قائد كتيبة - قتل.

وتدارك الأميرال برييه ببسالة وشجاعة، قدر ما استطاع، نتائج أخطائه التي ارتكبها، وهي: (1) عدم تنفيذ أوامر رئيسه، ولم يدخل ميناء الإسكندرية القديم، وكان باستطاعته ذلك منذ يوم 8 يوليو. (2) ألقى مرساة في أبو قير دون أن يأخذ الاحتياطات الملائمة. ولو قاد أسطولاً خفيفًا بالشراع لكان قد تدارك عند الفجر اقتراب العدو ولم يتعرض للهجوم المفاجئ. ولو كان قد سلح جزيرة أبوقير واستخدم سفينتين مدفع عيار 64، وسبع فرقاطات ومدافع (زمارة) وزوارق مسلحة موجودة في ميناء الإسكندرية وبحارة رهن إشارته، لكان قد منح لنفسه فرصًا لانتصار عظيم. ولو كان قد حافظ على النظام السليم، وأجرى الاستعداد للقتال كل يوم، ومارس تدريبات المدافع مرتين يوميًا، واستعرض السفن بنفسه مرتين في الأسبوع على الأقل، وتفقد السفينتين ليجريه والكونكيران مرتين في الأسبوع على الأقل، ولم يثقل على اليمين مدافعهما. ومع ذلك، ورغم كل هذه الأخطاء، ولو لم تنفجر السفينة لوريان، ولو أراد الأميرال فيلنيف الاشتراك في المعركة ولم يبق متفرجًا سلبيًا، لكان الفرنسيون قد تمكنوا من الأمل في تحقيق النصر.

كان هجوم نيلسون عملية يائسة، لا يمكن أن تعتبر نموذجًا، ولكن في الوقت الذي بذل فيه والبحارة الانجليزية كل ما يستطيعون من مهارة وحزم، فقد أظهر نصف الأسطول الفرنسي قدر ذلك من الحماقة والجبن.

وبعد أيام من المعركة، غادر نيلسون جوار مصر وأقلع باتجاه نابولي، وترك في عرض البحر أمام الإسكندرية طرادات من ثلاث سفن حربية. وكان ضمن القافلة أربعون سفينة من نابولي طلبت العودة إلى نابولي، وقامت ببعض المفاوضات مع البحرية الانجليزية، وسمح لها بالخروج. ولكن عند خروجها من الميناء قُبض عليها، واستبدل ملاحو السفن بآخرين لتسييرها. وتم إحراقها وأسر طاقم البحارة، وكان لهذا الحدث أثرًا طيبًا عند الجيش، وأثار لدرجة قصوى استياء أهل جنوه والبحارة الآخرين في سواحل إيطاليا الذين كانوا ضمن القافلة، وتضامنوا مع الجيش وخدموه بهمة قدر ما استطاعوا.

وبعد معركة الصالحية، بدأ القائد العام المفاوضات مع إبراهيم بك الذي أدرك تمامًا أن موقفه يُرثى له. فقد كان رهن إشارة الجزار باشا. ورغم شهرة ثروته الهائلة فقد كان يجد نفسه محاطًا بمخاطر. وقد اقتُرح عليه بأن يترك له وحده ولكل من معه من المماليك ملكية كل قراهم وديارهم واعتبارها من رصيد الجمهورية، وإعطاء البكوات درجة جنرالات، والكشاف درجة ملازم، ومنحهم لقب وشرف الأمير. وتم الاستماع إلى هذا الاقتراح، وذهب كاشف من أهل الثقة إلى القاهرة، ولكن بعد عشرة أيام من وصوله استلم رسالة من إبراهيم بك يستدعيه. قال له إبراهيم أن القضاء على الأسطول قد غيَّر الأوضاع بما أنه لن يستطيع استقبال النجدة ومن حوله الأعداء من جانب، وسوف ينتهي الأمر بهزيمة الفرنسيين.

وبعد عدة أيام من معركة الأهرام، كتب القائد العام إلى مراد بك وأرسل له التاجر روزيتي (Rosetti)، وهو رجل ماهر وصديق للمماليك وقنصل البندقية، وعرض عليه نفس الاقتراحات التي سبق أن عرضها على إبراهيم

بك، وأضاف إلى ذلك عرض حكم أحد عواصم الصعيد، إلى أن يتولى السيادة على سوريا. كان مراد بك يقدر الجيش الفرنسي تقديرًا عظيمًا قبل هذه الاقتراحات، وقال إنه يثق تمامًا في كرم الجنرال الفرنسي الذي يعرف ويقدر أمته، وأنه سوف ينسحب إلى إسنا ويتمتع بملكية الوادي من الجبلين حتى أسوان بلقب أمير، ويعتبر نفسه مواطنًا فرنسيًا، ويقدم فرقة من ثمانمئة مملوك رهن إشارة الجنرال لاستخدامهم عند الضرورة كما يشاء، وأن كل ما يملك من قرى وأملاك وأيضًا المماليك الذين معه سوف يتم تثبيتهم له. ولو امتدت سلطة الجنرال على سوريا فإنه يقبل العرض الذي قدمه له، ولكن سوف يتفاهم مع الجنرال بشأن هذه المسألة، ويتمنى أن يراه بكل شوق. سافر روزيتي بهذه البرقية وتعطل كثيرًا في مدينة بني سويف، وقبل أن يغادر هذه المدينة تسلم رسالة جديدة من مراد بك الذي أفهمه أنه علم توًا من قائد الطرادة الانجليزية عن حادثة الأسطول الفرنسي في أبو قير، وأنه لا يستطيع أخذ أي تعهد، ولو كان قد وقع عليه فإنه كان سيلتزم به، ولكنه ما يزال حرًا، ويريد أن يجرب حظه في الفرص السانحة.

و[محمد] كُريم، قائد الإسكندرية، وأول من خضع للسلاح الفرنسي، قام بتقديم خدمات جليلة، لكنه أقام علاقات مع قائد البحرية الانجليزية، وتمت محاكمته أمام لجنة حربية، وحكم عليه بالموت. وخلال عدة أيام تردد القائد العام، ولكنه أمام ضرورة الظروف - لمن ينشد العِبرة - ضحَّى بالاعتزاز الخاص الذي كان يكنه لهذا الرجل.

تم إنزال وكلاء الانجليز في غزة، وأقاموا اتصالات مع إبراهيم بك والجزار، وعرب صحراء السويس. وتم إنزال آخرين ناحية برج العرب، وهيجوا قبائل عرب البحيرة وصحراء الواحة الكبيرة والصغيرة، وتبادلوا الرسائل مع مراد بك وقدموا الأموال والمؤن والأسلحة للعرب. وفي خلال شهر نوفمبر، وجدت كتيبة فرنسية من الفرسان وسط عرب مسلحين بالبنادق الإنجليزية ومعهم الحراب.

وقد كان وقع معركة أبو قير ذا تأثير سيء في القاهرة، حيث بالغ أصدقاء الانجليز في نشر نتائج انتصارهم، لكن الأسطول الانجليزي كان قد غادر السواحل المصرية. ونجح الفرنسيون في إقناع الشيوخ أن هناك أسطولاً فرنسيًا آخر يلاحقه. ومن جهة أخرى، انتصر الجيش بلمح البصر. وعاد من جديد سلاح الفروسية إلى نشاط ركوب الخيل الرائع، وبعد أن استراح سلاح المشاة، تأقلم على الحياة في البلد، وأصبح بعد قليل شيئًا آخرًا بمجرد انتهاء فترة الحر الشديد. كانت جياد عربات المدفعية المجرورة وفيرة بما فيه الكفاية، وأكدت الاستعراضات المستمرة والتدريبات اليومية زيادة القوة الفرنسية في نظر العرب. وبعد أسابيع قليلة لم يعد هناك أثر لكارثة أبو قير.

سادسًا: اتجه نيلسون إلى ميناء نابولي، واسُتقبل بحفاوة المنتصر. وكشف الملك، والملكة خاصة، عما يكنونه من الكراهية إزاء الأمة الفرنسية. كانت الحرب نتيجة لذلك، فدخل ملك نابولي إلى روما على رأس ستين ألف رجل في نوفمبر عام 1778، ولكنه انهزم ودُحر وطرد من نابولي، واضطر للجوء إلى صقلية. وانضمت روسيا والنمسا إلى انجلترا، وبدأتا من جديد حرب التحالف الثاني في مارس 1799.

وبمجرد أن علم الباب العالي بغزو مصر، عبّر عن استيائه ولكن باعتدال. وأرسل الجزار باشا مرة بعد أخرى ليطلب النجدة والقوات، ولكن طلب منه أن يدافع عن نفسه في سوريا إذا ما تعرض للهجوم، وألا يبادر بأي عدوان، وأن يلتزم الهدوء لأن الصدر الأعظم ينتظر إيضاحات من باريس. ولا ينسى أن الفرنسيين هم أقدم حلفاء الامبراطورية. وقد اتخذت كل من انجلترا والنمسا وروسيا ونابولي معًا خطوات لدفع الباب العالي إلى الحرب ضد الجمهورية، ولكن الأمير سليم رفض ذلك باستمرار، وكان ينتظر إيضاحاتٍ كما قال. ولكنه في الحقيقة قد أخذ حذره من الدخول في حرب ضد فرنسا عدوة أعدائه الأصليين روسيا والنمسا؛ فقد أدرك تمامًا أنه إذا دخل جنوده في صحاري الجزيرة العربية فسوف تتعرض القسطنطينية إلى كراهية وطمع الروس.

ووصل ضابط من السراي كان يتمتع بثقة خاصة من الأمير سليم إلى القاهرة عن طريق درنه، مع قافلة من الحجاج، وقابل القائد العام وعرض عليه مواقف الباب العالي الحقيقية، وحصل فورًا على ما طلب، وهو أن يثبّت له ملكية مدينة مكة، وأن يتم انتخاب عثماني أمير أغا، وأن يجند طاقمًا من الفرق المسلمة لخفر قافلة مكة، وأخيرًا أن يقدم الجنرال توضيحات بشأن مشروعاته، مؤكدًا له قرار الباب العالي بعدم اتخاذ إجراء في عجالة، وأنه لن يستسلم لأي انفعال. وقد أقام هذا الضابط أكثر من أربعين يومًا في مقر القيادة، وكان راضيًا عما قاله شيوخ القاهرة عن استعدادات السلطان الكبير (بونابرت) والفرنسيين، وأبحر عن طريق البحر الأحمر بحجة الذهاب إلى مكة، ووصل إلى القسطنطينية خلال شهر ديسمبر. ولكن عندئذ استحوذ على الباب العالي لأن انهيار أسطول أبو قير جعله تحت رحمة الأساطيل الإنجليزية والروسية. واحتجزت البحرية رسائل الضباط الفرنسيين وسلمتها بواسطة الوزراء الانجليز إلى الباب العالي، وكان لها أثر على ترتيباته. وقد أظهر الضباط كثيرًا من الاستياء، ووصفوا وضع الجيش بأنه غاية في الحرج، واعتقد الديوان أنّ من السهل على الحلفاء الاستيلاء على مصر من جديد، وخشي أنه بمجرد استيلاء الانجليز على هذا البلد فسوف يحتفظون به كما كانوا يهددون بذلك. ولقد كان هذا الباعث خاصة ما جعله يتخذ قرار الحرب ضد الجمهورية.

الفصل الخامس

شئون إسلامية

أولا: عن الدين الإسلامي. ثانيًا: علماء الجامع الأزهر. ثالثًا: الفتوى. رابعًا: عيد النيل، عيد المولد النبوي. خامسًا: إمام مكة. سادسًا: الفنون والعلوم والآداب في عهد الخلفاء. سابعًا: عن تعدد الزوجات. ثامنًا: التقاليد والعادات.

أولاً: كشف موسى عن وجود الله لقومه، وعيسى للامبراطورية الرومانية، ومحمد للقارة القديمة. ونزع موسى أحفاد يعقوب من الأسر في مصر، واحتجزهم في الصحراء أربعين عامًا ومنحهم القوانين. "كانوا يشتاقون بلا انقطاع لتلك الأواني المليئة باللحم الذي يتناولونه كما يشاءون". وحاول ليحارب روح العودة أن يلهمهم صفة استثنائية وأن يعزلهم وسط كل الأمم. وقد عرف العبرانيون الإله الحقَّ قبل غيرهم بألف عام.

ورغم أنه من سلالة داود إلا أن المسيح لم يطالب بعرش آبائه، بل قام بالتبشير وأمر بطاعة كل حكومة قائمة: "لا قوة إلا بالربِّ، فليس لي مُلكٌ في هذه الدنيا. رُدَّ ما لقيصر إلى قيصر". لم يكن له إلا هدف في مهمته الإلهية؛ هو ترتيب الضمائر وتوجيه الأرواح في هذه الحياة ليتحقق لهم السلام في الآخرة. ولا يقدم الإنجيل قاعدة لإدارة أمور الدنيا، ولم يثر الدينُ المسيحي غِيرةَ القياصرة، ولكن بنفس المبدأ كان ملائمًا للغاية للامبراطوريات التي نشأت فوق أنقاض الامبراطورية الرومانية، ولكنه أضفى عليها الشرعية، ولم يصبح كلوفيس (Clovis) ملكًا فعليًا إلا بعد تتويجه.

والدين المسيحي دين شعب متحضر، يرفع الإنسان وينادي بسمو الروح على المادة والروح على الجسد، نشأ في المدارس اليونانية، وكان انتصارًا لأتباع سقراط وأفلاطون وأرسطو على كل من أريستيد (Aristide)، وفلامنيوس (Flaminius)، وسكيبيو (Scipion)، وبول إميل (Paul-Emile). وقد انتصر الرومان على اليونانيين بقوة السلاح، ولكنهم انبهروا شيئًا فشيئًا بالتأثير الذي لا يقاوم للعقل، وبفنون وعلوم المنهزمين. وقد تم تداول الكتب السماوية الأساسية للكنيسة، وصدرت بها مراسيم في المعهدالمسكوني في في أثناء القرون الثماني الأولى في نيقيه (Nicée) والإسكندرية وأنطاكية والقسطنطينية وخلقدونية (Chalcédoine) والقيصرية (Césarée) وأثينا. ومثل كل ما يقوم بتأثير قوة الإقناع فحسب، وبكل ما كان نتيجة لتزايد التنوير، فقد عرفت الديانة المسيحية تقدمًا بطيئًا فاحتاجت إلى أربعة قرون لتتبوأ العرش. وقد تبع تأليه قيصر وأغسطس تمجيد أحقر الطغاة، فكرهت الأمم

ديئا كان تيبيريوس (Tibère)، وكاليجولا (Caligula)، وهليوجبل (Héliogabale) لهم كنائس وقساوسة، وبحثت تعويضًا عن ذلك عن عقيدة إله واحد دائم لم يلد، خالقٍ ورزّاق وربٌ للعالمين.

وقد وعدت الكنيسة المسيحية جزاءَ الأبرار برؤية وجه الله، والمتعة الروحية، في الوقت الذي كانت تنذر المغضوب عليهم بالهلاك الجسدي، وأنهم سيصلون سعير نار ذات لهب. ويتضح هذا التناقض؛ إذ لو كان عقاب الأشرار مقتصرًا على العقوبات الروحية لاستخفوا بها؛ ذلك لأن الوازع ضعيف جدًا لعقاب الميول السيئة. وعلى الجانب الآخر فإن الجنة التي يتمتع فيها المختارون بنعيم الدنيا قد أعلت من شأن الجسد، بينما تضع الأخلاق المسيحية نصب أعينها خاصة قمع الجسد وتقشفه. وهكذا تكون التوبة الناقصة وسيلة الخلاص مثل التوبة الخالصة.

وقد كانت الجزيرة العربية تعبد الأصنام عندما أدخل [النبي] محمد إليها ديانة إبراهيم وإسماعيل وموسى والمسيح عيسى. وقد حدث اضطراب في الشرق، عندما أثار أتباع آريوس (الآريين-Ariens) وملل أخرى، مسائلَ طبيعة الأب والابن والروح القدس، وأعلن محمد أنه لا إلا إله واحد ليس له أب ولا ولد، وأن فكرة الثالوث تتضمن عبادة الأوثان، وكُتب على عنوان القرآن "لا إله إلا الله".

ولقد خاطب محمد شعوبًا بدائية فقيرة تفتقد كل شيء وفي جهل مطبق، ولو أنه كان قد خاطب عقولهم لما استمعوا إليه. ولقد كان التأمل متعة ضرورية وسط [نعيم] خيرات اليونان، ولكن في وسط الصحراء كان العربي على الدوام يبحث عن منبع للماء، وعن ظل نخلة تقيه أشعة الشمس الحارقة، لذلك فقد كان ضروريًا وعد المصطفين [الأخيار] جزاء يوفر لهم أنهارًا من اللبن لا تنضب، وغابة جميلة صغيرة زكية الرائحة يستريحون فيها في ظلال دائمة بين أذرع حوريات ربانيات بيض الجلود سوداوات العيون. ويميل البدو إلى مثل هذه النزل الخلابة، فيُعرضون أنفسهم للخطر لينالوا بغيتهم ويصبحوا أبطالاً.

كان محمد أميرًا جمّع حوله عشيرته، وخلال سنوات قليلة احتل المسلمون نصف دول العالم، وانتزعوا أرواحًا كثيرة من عباد الآلهة المزيفة، ونكسوا كثيرًا من الأصنام، وهدَّموا من المعابد الوثنية في خمسة عشر عامًا أكثر مما حققه أتباع موسى وعيسى في خمسة عشر قرنًا. كان محمد رجلاً عظيمًا، وكان يمكن أن يكون إلهًا فعلاً إلولا أن الثورة التي قام بها لم تتهيأ لها الظروف. وعندما جاء كان العرب متمرسين بالحروب الأهلية منذ سنوات طويلة. إنَّ كل ما حققته الشعوب من أعمال عظيمة على مسرح الدنيا، قد قامت به بعد الخلاص من هذه الأزمات التي كان ينغمس فيها الروح والجسد. وقد أتاحت معارك القادسية و.... للمسلمين الشجعان رفع راية النبي على أوكسوس (Oxus) وحدود الصين. ولو كانت معارك عز الدين واليرموك التي انتصرت وسيطرت على سوريا ومصر قد انقلبت عليهم، ولو انهزم حلفاء خالد، والدرار (Derar)، وعمرو، وألقى بهم في

صحراواتهم الشاسعة، لبقي العرب رُحَّلاً هائمين على وجوههم، ولعاشوا مثل آبائهم فقراء بؤساء، ولما عرف العالم أسماء محمد ولا على وعمر.

وعلى العكس لم يعتمد ارتقاء المسيحية على نجاح أي حدث ثانوي، فلقد انتشرت هذه الديانة وسُجلت باقتدار كعقيدة تستهوي وتقنع، ولم يكن هناك ما يحول دون انتشارها. وقد عجل قسطنطين (Constantin) بانتصارها، ولكنه لم يطلب التعميد، لكنَّ واحدًا ممن جاءوا بعده لم يتوانَ عن طلب التعميد. وقد كان عيسى مبشرًا ومنح رسله هبة الخطابة، وكان موسى ومحمد قادة شعوب وضعوا قوانين وأداروا شئون هذه الدنيا. قال الرسول: "السيف مفتاح السماء، ومن مات في الحرب كفر عن ذنوبه، وتستبدل أجنحة الملائكة الأعضاء المفقودة في القتال، ولا تنفصل مجمرة البخور عن السيف "(*). كان متشددًا ومتمسكا بالرأي، فإن القتل أو إخضاع الملحدين لدفع الجزية، والقضاءُ على عبادة الأصنام لأنها مخالفة لله ، ذلك مكتوبٌ في كل صفحات القرآن، وألا يدين المسلمون أبدًا بالولاء لسلطة حاكم وثني.

ثانياً: ظهرت الأديان الثلاثة في الجزيرة العربية، ودعت إلى معرفة الله الواحد خالق الناس الذي لا يموت ولم يلد. وقد كان موسى وعيسى ومحمد عربًا ولدوا في منف والناصرة ومكة. وإن قارات أوروبا وآسيا وإفريقيا وأمريكا التي تضم معتزلات واسعة الأرجاء، وجبالاً شامخة، وبحارًا واسعة، وسهولاً غنَّاء، ومدنًا عظيمة، [كلها] تتضرع إلى موسى أو عيسى أو إلى محمد، وتهتدي بالكتب المقدسة، الإنجيل أو القرآن، وتتجه الأعين نحو الجزيرة العربية والقدس والناصرة أو مكة. وإذا كانت روما عاصمة المسيحية فذلك لأن سكيبيو (Scipions) والقياصرة وتراجان احتلوا جزءًا من الدنيا، وتعتبر قوة روما الجديدة بقية قوة روما القديمة، لكن لماذا تتبع القدس والناصرة ومكة نفس المنطقة [من العالم]؟

ولقد كانت الأفكار الدينية - دائمًا ومنذ الأزل - مهيمنة عند أهل مصر، ولم يستطع الفرس الإقامة فيها لأن المجوس أرادوا عبادة آلهتهم وطرد إله النيل، فقامت المنافسة الأصنام والشعائر والكهنة بين الشعبين، مما جعلهما أعداء متشددين لا شيء يقدر على التوفيق بينهما. وقد ثار المصريون دائمًا على هزيمتهم أمام أسلحة الفرس، ولكن عندما اقترب الاسكندر الأكبر من حدودهم أسرعوا لاستقبال القائد العظيم الذي سيحررهم. وحين عبر الصحراء على مدى خمسة عشر يومًا سائرًا من الإسكندرية إلى معبد آمون، وجعل الكاهنة تصرح بأنه ابن جوبيتر، كان الاسكندر يعرف جيدًا عقلية هذه الشعوب، ويشيد بمعتقداتهم السائدة، وعمل كثيرًا لضمان تأمين انتصاره وكأنه شيّد عشرين موقعًا عسكريًا محصنًا، واستدعى مئة ألف مقدوني.

(*) هذا الحديث المنسوب للنبي (صلى الله عليه وسلم)، غير واضح ولا يتناسب مع الأحاديث الصحيحة للنبي، فنقله المترجم كما حكاه المؤلف.

ويعتبر أفضل رجال السياسة الذين درسوا عبقرية الشعب المصري، فالدين هو العقبة الأساسية أمام إقامة سلطة فرنسية.

"من أجل احتلال مصر - قال فولني - في عام 1788م، لا بد من خوض ثلاثة حروب: الأولى ضد انجلترا، والثانية ضد الباب العالي، ولكن الثالثة - وهي أصعب ما عداها - ضد المسلمين الذين يُكوّنون سكان البلاد. وسوف تؤدي هذه الحرب الثالثة إلى خسائر كثيرة، ويمكن اعتبارها عقبة لا يمكن التغلب عليها".

وبعد السيطرة على الإسكندرية والقاهرة، والانتصار في شبراخيت والأهرام، كانت الأوضاع غير مستقرة، ولم يتسامح المؤمنون الذين أذهلتهم سرعة الأحداث وخضعوا أمام القوة، وكانوا يرثون علانية لحالهم بعد انتصار الكفار ووجودهم الذي يدنس المياه المباركة، ويتألمون من العار الذي انعكس على مفتاح الكعبة الشريفة، ويتلو الأئمة بانفعالٍ آيات القرآن الأشد عداوة وتنديدًا بالكفار.

لقد كان لا بد من الوقوف أمام هذه الأفكار الدينية التي تربك الجيش رغم انتصاراته، كان الجيش ضعيفًا ويكره أن يضطر لخوض حرب دينية. وفي القرنين الحادي عشر والثاني عشر حكم الصليبيون إنطاكية والقدس وحمص والمنشاة (Ptolémaïs) وكانوا متعصبين أيضًا كالمسلمين. ولا يقدم تاريخ العالم مثلاً يشبه الجهود التي بذلتها أوروبا حينئذ، وقد مات عدة ملايين في ميادين سوريا، ومع ذلك فبعد بضعة انتصارات عابرة انهزم الصليب وانتصر المسلمون. وقد كانت نبوءة فولني ستتحقق، وكان لا بد من الرحيل من جديد أو التصالح مع الأفكار الدينية والابتعاد عن مهاجمة الرسول حتى لا يعتبر الفرنسيون أعداءً للإسلام. كان من الضروري إقناع وكسب رجال الإفتاء والعلماء والشرفاء والأئمة لتأويل القرآن في صالح الجيش.

وقد كان صلاح الدين قد أنشأ مدرسة أو سربون الجامع الأزهر الشهير في الشرق، يتحاور فيه ستون من العلماء حول المسائل الدينية ويفسرون الكتب السماوية، وكانت هذه الجامعة وحدها تعطي المثل وتقود الرأي العام في الشرق، والمذاهب الأربعة التي تشترك فيه. والمذاهب الأربعة، الشافعية والمالكية والحنبلية والحنفية، لا تختلف فيما بينها إلا في نظم التعليم؛ فلكل مذهب رئيس، وفي القاهرة مفتي. ولم يدخر نابليون وُسعًا لمراوغتهم والثناء عليهم. وهؤلاء الشيوخ يفرضون الاحترام بتقاليدهم وعلمهم وثرواتهم، وحتى بسبب مولدهم. وقد اعتاد علماء الجامع الأزهر - يوميًا مع شروق الشمس - الذهاب إلى القصر قبل ساعة الصلاة، فيزدحم ميدان الأزبكية بموكبهم عندما يصلون على ظهور البغال وثيرة الأسرجة، يحيط بهم الخدم وعدد كبير من الحراس، فيحمل رجال الحرس الفرنسي السلاح ويقدمون لهم التحية والتكريم عند وصولهم إلى القاعات، ويستقبلهم مساعدو المعسكر والمترجمون بكل الاحترام ومراتب الشرف، وتُقدَّم لهم المشروبات والقهوة. وبعد قليل يدخل الجنرال ويجلس بينهم على نفس الأريكة ويعمل على بث الثقة فيهم عن طريق مناقشات حول القرآن، ويطلب تفسير بعض

الفقرات الرئيسية، ويعبر عن إعجابه بالنبي. وبعد الخروج من هذا المكان يذهبون إلى المساجد حيث يجتمع الناس. وهناك يتحدث الشيوخ إليه عن كل آمالهم، ويجهرون بعدم ثقتهم، وسوء تصرفات الأهالي كثيرًا، وكانوا يقدمون خدمات فعلية للجيش.

وقد كانت الإدارة الفرنسية تراعي خصوصية المساجد والأعمال الدينية، بل وتحميها بكل تجرد، وهو دليل على الميول المخلصة للرئيس تجاه الدين الإسلامي.

وكان مبدأ الأتراك والمماليك السياسي الجوهري هو إبعاد الشيوخ عن القضاء والحكم خشية أن يصبحوا قوة حقيقية، وكانت مفاجأة سارة عندما وجد الشيوخ تكليفهم بالقضاء المدني والجنائي وكل دعاوي الإدارة القضائية، ونتيجة لذلك فقد ازدادت ثقة الشعب فيهم بسرعة. وبعد حوالي شهر من دخول الجيش الفرنسي إلى القاهرة تغيرت مشاعر الشيوخ وارتبطوا بالسلطان الكبير بكل الإخلاص. وقد اندهشوا من أن انتصار الكفار - وهو ما كانوا يخشونه - قد ضمن لهم النجاح الباهر، وأن انتصار الفرنسيين في موقعة الأهرام كان لصالحهم! لقد تم الحفاظ على كل قراهم وكل ملكياتهم الخاصة ببالغ الاهتمام، ولم يعرف أبدًا هؤلاء الرجال - الذين كانوا في نفس الوقت رؤساء الدين ورؤساء الأشراف والعدالة - مثل هذا القدر من الاعتبار، ومن قبلُ لم يكن يوجد أي توجه لحمايتهم، ليس فحسب من المسلمين، وإنما أيضًا من المسيحيين والأقباط واليونانيين والأرمن المقيمين في البلاد، والذين انتهزوا فرصة وصول الجيش لخلع نير العبودية وتحدي المسلمين. ولكن بمجرد أن علم القائد العام بذلك قمع التجاوزات، وعادت المياه لمجاريها، فأعاد النظام القديم، وهو ما أغدق الفرح على قلوب المسلمين وألهمهم ثقة تامة.

ومنذ بداية الثورة لم يمارس الجيش أية شعائر، ولم يتردد على الكنائس في إيطاليا، ولم يتردد أيضًا عليها في مصر. ولم تغب عن أعين العلماء الثاقبة هذه الملاحظة، فهم يغارون جدًا على دينهم، ويصيبهم القلق من كل ما يمسه، وقد كان لذلك أحسن تأثير. فإن لم يكن الفرنسيون مسلمين فقد أثبتوا على الأقل أنهم ليسوا وثنيين كذلك، وقد كان السلطان الكبير في حماية النبي بصورة واضحة. وبكل فخر كان يعتز به الرجال، وكان يُسعد الشيوخ الحديث عن الرعاية التامة التي يحظون بها والتكريم الذي يُقدم لهم، كل ما قالوه أو افترضوا قوله. كان انحيازهم إلى نابليون واضحًا، ومن قبل تم تداول الشهادة:

"لا ينتصر الفرنسيون على المسلمين إن لم يكن رئيسهم – بخاصةٍ - في حماية الرسول". كان جيش المماليك لا يقهر، فهو أشجع جيوش الشرق، وإن لم يبذل أية مقاومة فذلك لأنه كان كافرًا وظالمًا وقد ذكرت هذه الثورة العظيمة في عدة آيات قرآنية. "

وفيما بعد، مسَّ السلطان الكبير وتر القومية العربية [قائلاً]:

"لماذا تخضع الأمة العربية للأتراك؟ كيف تخضع مصر الخصبة والجزيرة العربية المقدسة لشعوب جاءت من القوقاز؟ إذا نزل محمد اليوم من السماء إلى الأرض، أين كان سيذهب؟ أليس إلى مكة؟ ألن يكون في وسط الامبراطورية المسلمة، أم سيكون في القسطنطينية؟ ولكن هذه المدينة دنيوية بها عدد من الكفار أكثر من المؤمنين، فهل سيضع نفسه وسط أعدائه. كلا بل سيفضل ماء النيل المبارك، وسوف يأتي ليسكن في مسجد الجامع الأزهر، أول مفتاح الكعبة المقدسة"!

وأمام هذا الحديث تهللت وجوه الشيوخ المبجلين، ومالت أجسامهم وبسط كُلٌّ ذراعيه وصاحوا:

"نعم. نعم، إن هذا لهو الحق"!

وعندما طُرد مراد بك إلى عزلة تامة، قال لهم نابليون:

"أريد أن أشيد الجزيرة العربية من جديد، من يمنعني؟ لقد قضيت على المماليك، ميليشيا الشرق الأكثر جسارة. وعندما نتفاهم، وعندما تدرك شعوب مصر كل ما أريد لها من خير، فسوف يتمسكون بي بإخلاص، وسوف أعيد مجد أزمنة الفاطميين".

كان هذا الحديث موضوع مناقشات بين كبار شخصيات القاهرة، وكان ما شاهدوه في معركة الأهرام قد جعلهم يصدقون أنه لا يستحيل شيء على الجيش الفرنسي، وأحاطوا الرئيس بعواطفهم فقد كانوا يعتقدون أنه مختار منذ الأزل. وكان الشيخ المهدي، الأكثر بلاغة والأكثر علمًا، والأكثر شبابًا بين مشايخ الجامع الأزهر، وكان أيضًا الأكثر أهلاً للثقة. كان يترجم المنشورات في أبيات شعرية تُحفظ المقاطع منها عن ظهر قلب، وما زالت تُنشد في أعماق صحراء إفريقيا والجزيرة العربية.

ومنذ أن شكل العلماء الديوان المكلف بالحكم، أصبحوا يتلقون تقارير من كل الأقاليم تشير إلى الفوضى التي يسببها سوء الفهم وأسماء من يسببها من الكفار. وبدأ السلطان الكبير يشتكي مر الشكوى في مداخلاته من الخطب المغرضة لأئمة المساجد يوم الجمعة. ولكن لم يكن التأنيب والنصائح التي يوجهها الشيوخ إلى الأئمة المشاغبين كافية. أخيرًا عندما رأى أن اللحظة سانحة، قال لعشرة من الشيوخ المهمين والمقربين إليه:

"يجب وضع حد لتلك الاضطرابات، لا بد من إصدار فتوى من الجامع الأزهر تأمر الشعب بأن يؤدي اليمين بالطاعة".

أثار هذا الاقتراح الخوف بين الشيوخ، وظهر على وجوههم الفزع، وغلب عليهم الذهول والحزن. وأخذ الشيخ الشرقاوي - رئيس علماء الجامع الأزهر- الكلمة وقال بعد أن استجمع أفكاره:

"إذا أردت حماية الرسول الذي يحبك، وإذا أردت أن يسرع العرب المسلمون إلى الخدمة الفعلية، فاعتنق الإسلام، وسوف يأتي مئة ألف مصري ومئة ألف عربي من الجزيرة العربية ومن المدينة ومن مكة ليصطفوا حولك، مرافقين ومنتظمين على نهجك، وسوف تستطيع غزو الشرق وتعيد كل أمجاد أمة النبي".

وفي نفس الوقت انشرحت الوجوه المسنة، وسجدوا جميعًا يرجون عناية السماء. اندهش القائد العام بدوره، وكان رأيه الثابت أن كل إنسان يموت وهو على دينه، ولكنه أدرك بسرعة أن كل ما هو نقاش أو حديث في هذه الموضوعات سيكون له أثر طيب، وأجابهم:

"هناك عقبتان أساسيتان تحولان دون اعتناقي وجيشي للإسلام؛ الأولى هي الختان، والثانية شرب الخمر، فقد اعتاد جنودي منذ الطفولة على شرب الخمر، ولن أستطيع أبدًا أن أقنعهم بالامتناع عنه".

وهنا اقترح الشيخ المهدي عرض الأمر على ستين شيخًا من الجامع الأزهر لطرح السؤال عليهم والتشاور في الأمر.

انتشر الخبر بعد قليل في كل المساجد بأن كبار المشايخ ينشغلون ليل نهار في تعليم مبادئ الشريعة للسلطان الكبير والجنرالات، وأنهم أيضا يناقشون فتوى للتيسير قدر الإمكان لواقعة غاية في الأهمية، مما تملق كبرياء كل المسلمين. وقد كانت الفرحة عامة، وانتشر خبر أن الفرنسيين معجبون بمحمد، وأن قائدهم حفظ القرآن عن ظهر قلب، واقتنع بأن القرآن هو كتاب الحكمة الكاملة، ويتضمن الماضي والحاضر والمستقبل، لولا أن هناك عقبتين هما الطهارة وتحريم الرسول شرب الخمر. واستمر الأئمة والمؤذنون في كل المساجد طوال أربعين يومًا في حماس لصالح الفرنسيين الذين لم يُعدوا من الكفار، فما قاله النبي لا ينطبق على الفرنسيين المنتصرين الذين جاءوا ليضعوا أمجادهم رهن الدين الإسلامي. وقد انتشرت ألف إشاعة بين الشعب، وقال البعض أن محمدًا ظهر للسلطان الكبير وقال له:

"حكم المماليكُ وفق هواهم وقد خلصتُك منهم، أنت تعرف القرآن وتحب القرآن، وقد سلمت الحكم إلى الشيوخ والعلماء، وكان النجاح حليفك في كل شيء، ولكن لا بد من أن تكمل ما بدأت، فتشكر وتدرّس شريعتي فإنها نفس شريعة الله، ولا ينتظر العرب منك إلا الإشارة، فسأحقق لك الانتصار على كل آسيا".

تنوعت الأقوال والإجابات التي أسندوها إلى السلطان الكبير، وانتشرت بأساليب مختلفة. وانتهز القائد العام الفرصة بالتلميح بأنه طلب من النبي أن يمنحه عامًا لإعادة إعداد جيشه، وهو ما وافق عليه، ووعد محمدًا بإنشاء مسجد كبير واعتناق كل الجيش للإسلام، وهو ما صدقه كل من الشيخ السادات والبكري في ذلك الحين.

ثالثًا: حمل أربعة من رجال الإفتاء الفتوى المكتوبة والموقع عليها من قبلهم، قيل فيها إن الختان عبارة عن إتمام الكمال بالطهارة، ولم يفرضه النبي ولكن أوصى به فقط، وبناء عليه يمكن أن يكون الإنسان مسلمًا بغير الختان. وفيما يتعلق بالسؤال الثاني فيستطيع المسلم أن يشرب الخمر، ولكنه في هذه الحالة إنما يرتكب إثمًا دون رجاء في الحصول على الجزاء الذي وعد به الأخيار. وقد عبّر نابليون عن ارتياحه فيما يتعلق بجواب السؤال الأول، وبدت فرحته خالصة وشاركه كل الشيوخ هذه الفرحة، ولكنه عبر عن حزنه بشأن الجزء الثاني من الفتوى؛ فكيف يمكن إقناع رجال الجيش باعتناق الدين بينما هم أنفسهم مذنبون يخالفون وصايا السماء؟ وصرح الشيوخ بأن ذلك من الصعب، وقالوا إنه منذ عرضت هذه المسائل للحل فقد كانت الدعوات في صلاتهم دائمًا هي طلب مساعدة ربِّ إسماعيل. وبعد نقاش طويل لم يصل رجال الإفتاء الأربعة إلى قرار حاسم، ورأى البعض أنه لا سبيل إلى تسوية، وعلى العكس رأى آخرون أنه يمكن إجراء بعض التعديلات. واقترح الشيخ المهدي أن يخص بالفتوى الجزء الأول الذي سيكون له أثر طيب في البلاد، وسوف يقوم بنفسه بتنوير المعارضين، ويطرح الجزء الثاني إلى الدراسة من جديد، وربما يمكن استشارة شيوخ وشرفاء مكة فهم على ما يبدو على قدر كبير من العلم، ولهم تأثير على الشرق. تمت الموافقة على هذا الرأي، وأعلنت الفتوى بعد صلاة الجمعة في كل المساجد، وشرحها الأئمة وتحدثوا بحماس بإجماع الآراء في صالح الجيش الفرنسي.

وكانت الفتوى الثانية موضوع مناقشات طويلة وساخنة بالإضافة إلى المراسلات مع مكة، وأخيرًا لعدم استطاعة إقناع كل المعارضين أو التوفيق بين النص وأمر النبي الواضح، نادي رجال الفتوى بأن الذين اعتنقوا الإسلام حديثًا يمكنهم شرب الخمر ويكونوا مسلمين، ولكن بشرط أن يكفروا عن الإثم بأعمال البر والإحسان، وأن القرآن يوصي بإيتاء الصدقة، وتقديم أعمال خيرية، ولكن بألا يقل عن عُشر دخلهم. أما المسلمون الذين يشربون الخمر فتُرفع نسبة هذه الصدقات إلى خُمس دخلهم. وقد تم قبول هذه الفتوى وبدت جديرة بالتوفيق بين جميع الشيوخ الذين اطمأنوا تمامًا واستسلموا لخدمة السلطان الكبير، وأدركوا أنه يحتاج عامًا على الأقل لتنوير العقول والتغلب على المقاومة. وتم وضع الرسومات والخطط والمواصفات لمسجد كبير يكفي لاحتواء كل الجيش عندما يعتنق الإسلام. وفي ذلك الوقت اعتنق الجنرال مينو الدين الاسلامي، وذهب مسلمًا إلى مسجد رشيد ولم يطلب أي قيد أو شرط. فرح المسلمون بهذا الخبر ولم يترك مينو أدنى شك في صدق اعتناقه، وأعلن الشيوخ في كل مكان أن نابليون مسلم ويحب القرآن، وأنه مكلف من الرسول بمهمة خدمة الكعبة المشرفة الحقيقي. كان نتيجة

هذه الثورة المعنوية ثورة في الإدارة، وأصبح سهلاً كل ما كان مستحيلا، وكل ما كان يحصل عليه بقوة السلاح تم الحصول عليه بعزيمة صادقة ودون عناء. ومنذ ذلك الوقت، لم يبخل الحجاج حتى أكثرهم تعصبًا بأداء نفس مراسم الأمير المسلم للسلطان الكبير، الذي لم يعد يظهر في المدينة إلا وينحني أمامه المؤمنون كما كانت عادتهم مع السلطان.

رابعًا: في 18 أغسطس، وصل مقياس الروضة إلى أربعة عشر ذراعًا، وأزال الديوان والقاضي سد قناة أمير المؤمنين، ويشارك معظم أهالي القاهرة في هذه الاحتفالية، وقبل شروق الشمس احتل 200000 (مائتي ألف) مشاهد ضفتي النيل عند القاهرة القديمة وجزيرة الروضة، وانتظرت لحظة الدخول إلى النيل عدة آلاف من الزوارق الخفيفة وزوارق أخرى تغطيها الرايات والأعلام. وارتدى جزء من الجيش الفرنسي كان مجندًا الكسوة الرسمية، وأحاط بالسلطان الكبير جنرالات الأركان الفرنسية وأربعة من رجال الإفتاء وبعض العلماء وكبار الشيوخ والشرفاء وأعضاء الديوان. وكان البكري من سلالة النبي إلى جانبه على اليمين، وعلى يساره السادات من ذرية الحسن، وكان قد غادر القصر واخترق كل المدينة ووصل إلى كشك بالقرب من مصب القناة، فاستقبله القاضي وشيوخ المقياس. تمت قراءة المذكرة التي تؤكد قراءة الذروة وتم تسجيلها والتحقق منها على الملأ، وتم إعلان واجب أداء المال الطوعي. وبعد توقيع وإعلان هذا العقد، اندفعت طلقات المدفعية، ودوت صيحات فرح الأعداد الهائلة من المتفرجين. قام القاضي بقطع السد كما هي العادة في هذه الاحتفالات، واستغرق جرف الجسر ساعة من الزمن. اندفع النيل لأعلى ثمانية عشر قدمًا في القناة، وبعد فترة وجيزة دخل في البداية الزورق الخفيف الذي يحمل شيخ المقياس، وتبعته جميع القوارب التي غطت النيل، وسار العرض طوال اليوم. وقام الجنرال استيف (Estève) مدير المالية بتوزيع مبالغ كبيرة من العملات الفضية الصغيرة على الشعب. وكانت الوجبة التي تم تقديمها في شرفة المراقبة رائعة، وشارك السلطان الكبير بكل إخلاص في أداء المراسم التي تفرضها التقاليد لتكريم حاكم البلاد.

وقد ظهر الإعلان بأن فيضان النيل أعلى بكثير مما كان عليه في السنوات السابقة، واحتفلت المدينة المزينة بالأنوار طوال الليل، واستمر الاحتفال ثمانية ليال. وبعد فترة أصبحت الميادين العامة بالقاهرة بحيرات، وغطت المياه بعض الشوارع والقنوات والحدائق والسهول التي ظهرت منها بعض الأشجار. وفي غضون شهر سبتمبر ظهرت كل مصر في شكل بحر من أعلى الأهرام أو المقطم أو من قصر صلاح الدين. وكان هذا المشهد ساحرًا، حيث تطفو المدن والقرى والأشجار والمزارات والمآذن وقباب المقابر فوق منسوب المياه، وتقاطعها في كل الاتجاهات آلاف الأشرعة البيضاء الكبيرة والصغيرة التي تساهم في خدمة النقل والاتصالات واحتياجات السكان، وشهد الجنود أن النيل جدير بسمعته، ولم يرددوا أنه نهر يجرف المياه الوحلة والعكرة، فقد كان يحمل

بين ذراعيه سبعة وعشرين وثمانية وعشرين قدمًا من الماء وفي معظم القنوات ثمانية، وعشرة واثني عشر قدمًا، وعلى سطح الأرض أربعة وخمسة وستة أقدام. وفي ديسمبر يعود النيل إلى مجراه أو يصب في القنوات، وتعود الأرض تدريجيًا إلى الظهور، ويغطيها آلاف المزارعين من أجل حرثها وزراعتها، ويقومون بزرع جميع أنواع البذور والخضراوات. وأخيرًا وبعد عدة أسابيع يتم حصاد أول المحاصيل. ويبدو منظر هذه السهول المنمقة والمغطاة بالمحاصيل الغنية ساحرًا، ويظن الجندي أنه عاد إلى إيطاليا البديعة. فقد كان متناقضا مع قساوة هذه السهول الجرداء والقاحلة في شهري يونيو ويوليو منذ ست شهور مضت تقريبًا.

وكان الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ذلك العام (1798) في نهاية شهر أغسطس، وشارك الجيشُ فيه فرحة وسرور الأهالي. وكانت إضاءة المدينة بزجاج ملون، وتميز كل جامع وكل قصر وكل سوق وكل وكالة بألوان رسم الأنوار. وأطلقت الألعاب النارية، وارتدى الجيش الملابس الرسمية، وقدمت عدة استعراضات أسفل نوافذ الشيخ البكري الذي قام بزيارته القائد العام وكل موظفي الأركان. وكان هناك كل العلماء ورجال الإفتاء، ورتلوا سلسلة من الدعوات للنبي وهم يجلسون على وسائد فوق الأرض. وقضى الشيوخ الأجلاء ساعة في قراءة قصائد الشعر العربي في مديح محمد، وفي نفس الوقت كانوا يقومون بحركات من أعلى إلى أسفل وبحيوية. وفي الموعد المحدد للصلاة أطلقت المدافع مئة طلقة من قلعة الجيزة والأسطول الصغير، ومن كل البطاريات لتعظيم الآية التي صاحبت دخول الرسول المدينة المنورة حيث بداية الهجرة. وأعد الشيخ (البكري) خمسين منضدة صغيرة للعشاء، وجلس حول كل منضدة خمسة مدعوين. كانت طاولة السلطان الكبير والبكري في الوسط، وشارك الجيش في المهرجانات بحفلات موسيقية بالتناوب مع الأغاني. وامتلأت ساحات المدينة بالأهالي الذين لا عدد لهم ولا حصر، اجتمعوا في دوائر من ستين إلى مئة شخص يمسكون بعضهم البعض، ويلقون بأيديهم وراء ظهورهم، وينشدون الشعر في مديح النبي، وفي خلال ذلك الوقت يدورون أحيانًا ويندفعون إلى الأمام أو إلى الخلف بعنف شديد لدرجة سقوط الكثيرين منهم في الغياب عن الوعي. ولقد أثار الأولياء المنتشرون في هذه الحلقات فضول الشعب وتقديره بشدة. وكشفت الحرية والمرح الصاخب في هذه الاحتفالات الصراحة والفرحة والأخوة التي سادت بين المسلمين والجنود بما فيه الكفاية للتقدم الذي حدث في الرأي العام، وكم كان التقارب عظيمًا.

وقد شارك المسلمون بدون تحفظ في عيد الجمهورية، أول فينديمير، امتنانًا لمساهمة الجيش في عيد النيل وفي عيد المولد النبوي. تم تشييد بناء على شكل هرم في ميدان الأزبكية، وجلس رجال الإفتاء والقضاة والعلماء وكبار الشيوخ على الدرابزين الذي يحيط بالقاعدة. وبعد أن استمعوا إلى كلمة القائد العام، وبعد القيام ببعض التحركات، تم استعراض الجيش. وقد أثارت المكانة المشرفة التي احتلها كل كبار البلد في هذا العيد الارتياح

الكبير بين الناس. قدم القائد العام عشاءً لمئة مدعو، مستخدمًا كل ما يمكن أن تقدمه باريس من فخامة. وفي المساء تم تنظيم سباق على الأقدام، وألعاب من كل نوع أدخلت البهجة في نفوس الشعب والجنود. وكان الفرنسيون ينتظرون نتيجة عظيمة من مشهد جديد حين أطلق كونته (Conté) منطادًا ارتفع ثم اختفى في الصحراء الكبرى في ليبيا. ولم يكن معروفًا أين سقط، ولكن لم يكن به أحد، وإنما كان به أبيات من الشعر باللغات التركية والعربية والفرنسية. لم يثر هذا الحدث فضول المسلمين، ولم تتحقق النتيجة المرجوة، وكان سببًا في إشاعات مختلفة، وقال بعض المؤمنين أنه وسيلة اتصال من السلطان الكبير إلى محمد. وضحك الشيخ المهدي كثيرًا من هذه الإشاعة الشعبية، وصاغ عن هذا الموضوع عدة أبيات جميلة من الشعر باللغة العربية انتشرت في كل الشرق.

خامسا: كتب علماء القاهرة إلى الشريف غالب، حاكم مكة، ليخبروه بوصول الجيش الفرنسي وحمايته للدين الإسلامي، وأجاب كرجل يريد المحافظة على مصالحه في مصر. ولما كان يحكم بلدًا فقيرًا، فإن قمح وشعير وخضروات مصر توفر دون سواها إعاشة بلاده. وبالرغم من أن مكة فقدت ازدهارها في الماضي، إلا أنها كانت لا تزال تحتفظ ببعض البقايا نتيجة مرور قوافل الشرق والغرب، حيث تجتمع قوافل الشرق في سوريا وترحل عنها، أما قوافل الغرب فترحل من القاهرة. كتب الشريف إلى السلطان الكبير وأعطاه لقب "خادم الكعبة الشريفة"، وهذا ما تم معرفته ونشره في كل المساجد، وكان له تأثير طيب. ويعتبر شريف مكة ملكًا له السيادة وله قوات جنوده، ولكن جدة الميناء تتبع الصدر الأعظم وله فيها حامية، ويرسل إليها باشا يسمح لنفسه بممارسة السلطة في نفس المدينة. وكانت سياسة القسطنطينية تهدف للحد من التأثير الديني لشريف مكة، السلاطين هم خلفاء تمكنوا فعلاً من إلغائها. وكانت سياسة الجنرال الفرنسي متعارضة، فكان من صالحه رفع الاعتبار الديني لهذا الأمير الصغير الذي كان يعتمد على مصر في احتياجاته. ضعف هذا التأثير قدر ما ضعف تأثير رجال إفتاء القسطنطينية. لم يسمح فقط بل أثار بكل الوسائل تواصل العلماء مع الشريف الذي لم يتأخر في إدراك كل ما تقدمه هذه السياسة من ميزات لتقديره ومصالحه. تمنى الشريف توطيد السلطة الفرنسية في مصر، وكان باستمرار متجاوبًا ومؤيدًا في كل ما يتعلق بها.

وتم تعيين الكيا باشا أمير أغا، واندهش الجميع من هذا الاختيار، ولكن كان تأثير رأي الباب العالي الذي عبر عن رغبته بتعيين عثماني في هذا الموقع المهم بالنسبة للدين. واستحوذ الأمير- أغا على كل الممتلكات والحقوق المرتبطة بهذا الموقع، وجند مجموعة من القوات من ستمئة جندي لمرافقة القافلة، وسرعان ما أصبح شخصية هامة ولها تأثير حقيقي. وقد صنعت السجادة التي تحملها قافلة الحجاج من الحرير، وكان يغطيها تطريز ثمين من الذهب، وتصنع في مسجد السلطان قلاوون. وقد صدرت الأوامر بأن تكون السجادة أكثر روعة، وأن تحمل عددًا أكبر من الحكم المعتادة عما كانت عليه في الماضي.

وقد هدم ضباط سلاح المهندسين بعض المقابر عندما كانوا يعملون في بعض التحصينات، فانتشر الخبر وأثار غضبًا شديد، وفي الساعة السادسة من بعد الظهر قام فوج من الشعب باحتلال ميدان الأزبكية وأحدثوا نوعًا من الاضطرابات تحت نوافذ السلطان الكبير. فأغلق الحرس الحواجز ولجأوا إلى رفع السلاح. كان القائد العام يتناول العشاء وظهر من خلال النافذة ومعه المترجم فانتور الذي شرح له أن هذه المظاهرة دليل على الثقة، وهو أسلوب معتاد لتقديم شكوى إلى الحاكم. نزل فنتور ورفع الحواجز وهدأ من روع الحرس، وعين وفدًا من عشرين شخصًا، وصعد المندوبون إلى القاعات وتم استقبالهم بكل حفاوة، وتمت معاملتهم ككبار الشيوخ، وقدمت لهم القهوة والمشروبات. وبعد ذلك دخلوا عند القائد العام، وقدموا له شكواهم بشأن انتهاك حرمة المقابر، وأن الفرنسيين تصرفوا كالكفار والوثنيين. كان الوفد معظمه من الأئمة والمؤذنين، وهم عادة جنس غاية في التعصب، وكانوا يتحدثون بانفعال. وقد قُبلت شكواهم، وتم توجيه اللوم للمهندسين الفرنسيين، وصدر الأمر بإيقاف العمل على الفور، وأملى رجال الإفتاء جميع الإجراءات الضرورية المنصوص عليها في الشعائر في مثل هذه الظروف. وعبر النواب لكل الناس عن ارتياحهم وفرحتهم، وقدموا بكل فخر تقريرًا عن مهمتهم. وتم استقبال التقرير بصيحات الفرح، وذهبوا إلى المقابر المدنسة وكانت الأشغال قد توقفت، فخورين بانتصارهم، واطمأنت ضمائرهم، فتجولوا في المدينة يرتلون آيات القرآن، وأخيرًا دخلوا الجامع الأزهر حيث قام أحد الأئمة بالقراءة وصلى من أجل السلطان الكبير، ودعا النبي أن يجعل مشاعره مؤيدة دائمًا لدين الإسلام.

وتمتلك المساجد كمية كبيرة من الأراضي والمؤسسات، ولكن في كثير من الأحيان يقوم أعضاء مجلس إدارة المساجد باختلاس الإيرادات، وأراد السلطان الكبير أن يظهر اهتمامه بكل ما يتعلق بالدين فوافق على كل الهبات المرصودة للمساجد والأضرحة والشئون الدينية. وكان قد وصل إلى علمه سوء إدارة مسجد الحسين، وذهب يومًا في ساعة الصلاة وخرج الناس وأحاطوا به مندهشين من هذا المشهد الجديد للغاية، واستدعى الأئمة المكلفين بصيانة المسجد وقال لهم: "لماذا بيت الله سيء الإدارة؟ ماذا فعلتم بإيرادات المسجد؟ هل أدى المؤمنون هذه الإيرادات والأراضي لصالحكم وصالح عائلاتكم أم لصيانة وخدمة الدين؟ وتم على الفور اختيار ستة من رؤساء الحي، وأمر أن يقدم لهم تقرير عن أموال المسجد. وقد وافق الرأي العام بشدة، ونتج عن الحسابات أن الإداريين عليهم أموال كثيرة، واستردها الملاك والعاملون في تجميل المسجد. وكرر نابليون نفس المشهد بالنسبة للمساجد التي عرفت تجاوزات كثيرة وفي السفر، أبرز نفس الاهتمام، واستطاع في كل مكان تحقيق عدد كبير من عمليات الاسترداد، ما أدى إلى العمل وإصلاح الأماكن الدينية المخصصة للعبادة في كل مكان. وقد وصلت إليه التنديدات ضد الذين يهدرون موارد المساجد في رسائل موقعة أو مجهولة، فأعطى عناية كبيرة حتى تصل إليه التقارير وإعادة كل ما يخص المساجد، وهو ما نال بشكل فريد إعجاب الأهالي من أجل الدين والسعادة التي تغمره دائمًا عند إعادة الأموال المسروقة كرهًا من الأشخاص المكلفين بالأموال العامة.

سادسًا: إنَّ عمر الامبراطوريات في آسيا أقل منه في أوروبا لأن آسيا تحيط بها، وكذلك تخترقها صحاري شاسعة تسكنها شعوب شرسة وفقيرة تُطعم أعدادًا كبيرة من الخيل. وعندما تدفع حركة ما هذه القبائل البربرية نحو الأراضي الزراعية فإنها تطيح بالأسر المالكة، وتقضي على الامبراطوريات وتقيم دولا جديدة. وقد كان البارثيون (Parthes) والسيثيون (Scythes) والمغول والتتار والأتراك بشكل عام أعداء للعلوم والفنون، ولكن هذا النقد لا يمكن أن يوجه إلى العرب وبالأحرى إلى محمد؛ فقد كان معاوية أول الخلفاء شاعرًا، وعفا عن حاخام كتب يطلب منه العفو بأربعة أبيات جميلة من الشعر. وكان ابنه يزيد (Yezid) شاعرًا أيضًا، فلقد أولى المسلمون قيمة كبيرة لهذه المزية [مزية الشِّعر] التي كانت تعادل الشجاعة. واهتم المنصور، وهارون الرشيد، والمأمون، بالفنون والعلوم، وعشقوا الأدب والكيمياء والرياضيات، وعاشوا مع العلماء وترجموا لكُتَّاب الإغريق واللاتينيين إلى اللغة العربية، والإلياذة والأوديسة وإقليدس وغيرهم، وأنشأوا المدارس وأكاديميات الطب وعلم الفلك والأخلاق. وقد قام أحمد بتصحيح جداول البطالمة، وكان عباس رياضيًا مرموقًا، وقام كل من كوستا، وأليكود (Alicude) وتابد (Thabed)، وأحمد، بقياس خط الزوال من صنعاء إلى الكوفة (Caffa). وقد كانت اختراعات الكيمياء ومعامل التقطير(الإنبيق)، والساعات الشمسية والمزولة، وأرقام الأعداد الحالية، [كلها] اختراعات عربية. وليس هناك ما هو أكثر أناقة من الحكايات الأخلاقية، فأشعارها عامرة بالدفء. ولقد أوصى محمد أينما كان بالعلماء والرجال الذين شاركوا في البحث التجريدي واهتموا بالآداب. وإذا أهمل العرب التشريح فيرجع ذلك إلى التحامل الديني. وكان في مكتبة القاهرة ستة آلاف مجلد عن الفلك، وأكثر من مئة ألف آخرين، وفي مكتبة قرطبة يوجد ثلاثمئة ألف مجلد. وقد ازدهرت العلوم والفنون مدة خمسمئة عام في عهد الخلفاء وحققت تقدمًا عظيمًا، إلى أن وضعت غزوة المغول حدًا لهذا الازدهار.

سابعا: قلل محمد عدد النساء اللائي كان يمكن الاقتران بهن، ومن قبله كان عدد النساء غير محدد، فكان الغني يستطيع أن يتزوج عددًا كبيرًا من النساء، وبذلك فقد حدَّ من تعدد الزوجات. إنه لا يولد نساء أكثر من الرجال، فلم السماح إذن للرجل بأن يتزوج بأكثر من امرأة، ولماذا لم يطبق محمد بهذا الشأن قانون يسوع المسيح؟ وفي أوروبا؛ في بلاد اليونان والألمان والرومان والإغريق والإسبان أو البريطانيين لم يسمح المشرعون إلا بامرأة واحدة. ففي الغرب لم يكن مسموحًا بتاتًا بتعدد الزوجات، وعلى العكس كان تعدد الزوجات في الشرق مسموحًا به دائمًا. ومن قديم الأزل كان يستطيع رجل يهودي أو آشوري، أو عربي أو فارسي، أو تتاري أو أفريقي، أن يمتلك أكثر من امرأة، وكان هذا الاختلاف يُعزى إلى الظروف الجغرافية. ويسكن آسيا وأفريقيا ألوان كثيرة من الرجال؛ وكان تعدد الزوجات هو الوسيلة الوحيدة الفعالة للاختلاط بينهم حتى لا يضطهد الأبيضُ

الأسود، أو يضهد الأسودُ الأبيض، فقد كان تعدد الزوجات يجعلهم مولودين من أم واحدة ومن أب واحد، فيكون الأبيض والأسود أخوة يجلسون ويتقابلون على نفس المائدة. وأيضًا في الشرق لا يتظاهر لون بالتفوق على الآخر، ولتحقيق هذا الهدف رأى محمد أن أربع نساء تكفي. ويتساءل المرء كيف السماح بأربع نساء، بينما لم يعد عدد النساء أكثر من الرجال. وفي الواقع لا يكون تعدد الزوجات إلا في الطبقة الغنية؛ لأن هذه الطبقة هي التي تشكل الرأي، وهكذا يحافظ اختلاط الألوان في هذه العائلات على الوحدة بينها.

ولو أردنا في مستعمراتنا إعطاء الحرية للسود، وإنهاء تحامل اللون، فسوف يسمح المشرِّع بتعدد الزوجات.

وفي الشرق لم يكن الاستعباد له نفس الخاصية في الغرب، فعبودية الشرق هي ما نراه في الكتاب المقدس؛ حيث يرث العبد من مولاه ويتزوج ابنته. وكان معظم الباشوات عبيدًا، وعدد ضخم من كبار الوزراء وكل المماليك؛ وكان كذلك علي بك ومراد بك، فلقد بدءوا حياتهم بشغل أدنى الوظائف في بيوت أسيادهم، وارتقوا بجدارتهم أو بمحاباتهم. وفي الغرب على العكس، حيث كان العبد تحت مستوى الخادم وكان يشغل أدنى مكانة. وقد حرر الرومان مواليهم، ولم يعتبروا العبد مساويًا للمواطن الحر أبدًا. إنَّ الأفكار بين الشرق والغرب غاية الاختلاف، وقد لزم كثير من الوقت ليدرك المصريون أن كل الجيش لا يشكل عبيد السلطان الكبير. ويعتبر رب الأسرة الحاكم الأول لبيته، له الحقوق على النساء والأولاد والعبيد. ولا تتدخل الإدارة العامة فيما يجري داخل الأسرة حتى لا تضطرب سلطة الأب. وكان يتم تكريم واحترام زوجاته حتى في زمن الحروب الأهلية. وقد احتفظت نساء المماليك بمنازلهن في القاهرة، ولم يكن يُظن إمكان إزعاجهن، حيث كانت [بيوتهن] مصونة، وكن يعشن فيها حياةً مستقلة.

ثامنًا: كانت نساء البكوات والكشاف يطلبن أحيانًا مقابلة السلطان الكبير، وكن يأتين وحولهن حاشية كبيرة، وقد غطين وجوههن وفقًا لتقاليد البلاد. وكان لا يمكن معرفة درجة الجمال، فكانت الأيادي الصغيرة، وحُسن القوام، والصوت الرخيم، والأسلوب مما يدل على الترف والتعليم الجيد، ومما يوضح المرتبة والشخصية. كانت [الواحدة منهن] تقبل يد السلطان الكبير، ثم تحملها إلى جبينها ثم إلى قلبها. وكانت تجلس على نسيج ذي مربعات مذهبة، وتبدأ الحديث فتبرز قدرًا كبيرًا من الدلال والفطنة كما تفعل نساء أوروبا؛ في غاية الرقة حتى تحقق ما جاءت من أجله. لقد كُنَّ مستعبدات من أزواجهن، ولكن كان لهن حقوق تحميهن أمام الرأي العام، وعلى سبيل المثال الذهاب إلى الحمام، حيث يتم توثيق المغامرات وتتم معظم الزيجات. وذات يوم جاء أغا الإنكشاريين في القاهرة والمسئول عن الشرطة، وكان قد قدم للجيش خدمات جليلة، وطلب من السلطان الكبير مكافأته بأن يوافق على زواجه من أرملة رغب في نكاحها، وكانت أرملة غنية؛

- ولكن كيف عرفت أنها جميلة؟

- هل رأيتها؟

- كلا.

- وكيف تريد مني أن أطلبها لك، هل هي تريدك؟

- دون شك لو أمرتها بذلك.

وفي الواقع امتثلت المرأة للأمر بعد أن علمت مقصد القائد العام، على الرغم من أنه لم يسبق للزوجين أن رأى أحدهما الآخر ولا تعارفا من قبل. وهكذا كان يتم عدد كبير من الزيجات.

وعندما تذهب المرأة إلى مكة كانت ترقد على أريكة من الخوص مغطاة ومغلقة بستائر [هودج]، ويحملها جمل بالعرض. وتكون هذه السلال أحيانًا مرتبة على السرج من كل الجوانب، وتجلس امرأتان جنبًا إلى جنب على نفس الجمل.

وقد استمرت امرأة مينو [المصرية] بعد زواجها في التردد إلى حمامات رشيد، وكانت كل النساء يتوددن إليها، ويردن بفضولهن أن يعرفن ما بداخلها، وكانت تحكي لهن عن مدى الرعاية الفائقة التي يقدمها لها زوجها. فقد كان في البداية يقدم لها الطعام على المائدة، ويختار لها أفضل الأشياء، ويأخذ بيدها لتنتقل من منزل إلى آخر، ويهتم دائمًا بخدمتها وإشباع كل رغباتها وكل ما تحتاج إليه. وكانت نتيجة هذه الأحاديث أن أثرت في نساء رشيد اللواتي قدمن عريضة إلى السلطان الكبير، قمن بإرسالها إلى القاهرة يرجون منه أن يصدر أمرًا إلى المصريين في كل مصر ليحسنوا التصرف مع زوجاتهم كما يفعل الفرنسيون عادة.

ولقد بدأ المعهد يثير اهتمام الأهالي؛ المكتبة وكل أدوات الرياضيات والفيزياء والأحجار والنباتات وأشياء أخرى من التاريخ الطبيعي، تم جمعها في القصر أو الحديقة. واحتاج السكان إلى وقت طويل لفهم ما هو هذا التجمع من الناس الجادين والمجتهدين، فهم لا يحكمون ولا يقومون بأعمال إدارية، ولم يكن الدين هدفًا لهم. وقد ظنوا أنهم يصنعون الذهب، وفي النهاية توصلوا إلى فكرة حقيقية؛ فهؤلاء الرجال لا يحترمون القضاة وأعيان البلاد فحسب، ولكنهم يحترمون أيضًا أدنى الفئات من الشعب. فلقد كان لهم علاقات متكررة مع العمال، فيقدمون لهم التوجيهات سواء فيما يخص شئون الميكانيكا أو الكيمياء لإدارة أعمالهم، فنالوا التقدير والاحترام بين أهالي البلاد.

وعندما حضر الشيخ المهدي إحدى الجلسات في المعهد، طلب أن يشرح له المترجم ما يقال، وكان الموضوع تقريرًا قدمه جيفروه (Geoffroy) عن أسماك النيل. طلب الشيخ المهدي الكلمة وقال:

"صرح الرسول أنه يوجد ثلاثون ألف نوع من الحيوانات من المخلوقات، منها عشرة آلاف على الأرض وفي الجو، وعشرون ألفا في المياه".

وعلاوة على ذلك فقد كان الشيخ أكثر من غيره علمًا وثقافة، فقد كان متعلمًا.

وذات يوم، وبينما كان كبار الشيوخ عند القائد العام، وكان قد جاءه من قليوب، فقدّم له أحد الضباط تقريرًا بشأن عرب بيلي (Bily) الذين فرضوا إهانة على إحدى القرى الفقيرة وقتلوا فلاحًا. غضب نابليون وعبر عن استيائه، وأمر ضابطًا من الأركان بالذهاب مع ثلاثمئة حصان لعقاب وردع قطاع الطريق. ولما كان يتحدث بانفعال شديد، قال له أحد المشايخ:

-" لماذا تغضب؟ هل كأنّ الفلاح الذي قتل أخوك؟

قال السلطان الكبير: نعم، إنّ كل من يطيعني فهو من أبنائي.

قال الشيخ الشرقاوي: نعم نعم. ما قاله حق، أنت تتحدث مثل النبي!"

ولم تمض نصف ساعة حتى وصلت حكاية هذا الحديث إلى المسجد الكبير وسط عدد غفير، وأدخل السعادة على نفوس الناس الذين قالوا:

"الله أكبر، الله العادل، كل شيء من عند الله، وإنا إليه راجعون".

الفصل السادس

ثورة القاهرة

أولا: اجتماع الديوان الكبير (أول أكتوبر 1799). ثانيًا: إعلان الباب العالي الحرب على فرنسا. ثالثا: اضطرابات القاهرة (22 أكتوبر). رابعًا: انتفاضة المدينة. خامسًا: تصرف نابليون الحكيم تجاه الشيوخ، إعادة الكتب المقدسة. سادسًا: إقامة التحصينات في القاهرة. سابعًا: وصول نابليون إلى السويس (ديسمبر). تاسعًا: قناة البحرين. عاشرًا: موضوعات متنوعة.

أولاً: أصبحت ثلاثة أرباع القرى بدون ملتزمين بعد موتهم في معركة الأهرام، وبدت الظروف مناسبة لتغيير نظام إدارة الملكيات، وتطبيق القوانين الغربية، ولكن الآراء كانت منقسمة.

قال الذين لا يريدون أي تجديد: أنه لا يجب ان نحرم أنفسنا من إمكانية مكافأة ضباط الجيش ومن زيادة عدد المؤيدين لفرنسا، كما أن طبيعة ظروف مصر الخاصة لا تسمح بفرض ضرائب إلا على صافي الإنتاج، وأن إنتاج الأرض يتغير كل عام حسب زيادة أو نقص الفيضان، مما يستوجب المعاينة السنوية من خلال سجل عقاري (مساحي)، فإنتاج نفس الحقل يختلف حسب طبيعة الزراعة، ويجب عند كل حصاد عمل سجلٍ للمحاصيل، ولا غنى عن التدخُّل وسلطة الملتزمين لإدارة ومراقبة هذه العمليات بسبب طبيعتها ذات الحساسية الكبيرة. وعلاوة على ذلك، فمن الضروري التمسك بالطبقة الوسطى الأكثر امتنانًا مقارنة بالجمهور الغفير الأكثر جهلاً وسذاجة، والأكثر جحودًا في الشرق عنه في الغرب. وأخيرًا كان من الضروري عدم المساس - بصفة خاصة - بأية مكتسبات، وعدم السماح بأي شكل من أشكال الظلم التي تظل عواقبها تؤثر أمدًا طويلاً على ثقة وعقلية المجتمعات.

وفي الحقيقة كان كل ما يتعلق بالملكيات والضرائب لا يزال يكتنفه الغموض.

كما أشار آخرون لملاحظة أنه كان من بين الملايين الثلاثة الذين يسكنون مصر مليونان وستمئة ألف فلاح كانوا سيستشعرون تحسنًا كبيرًا لأحوالهم وبالرخاء نتيجة لإعفاء الأراضي التي يُطلق عليها العطار" (atar) [التي يملكها الفلاحون]، وهو ما سيجعلهم يتعلقون بفرنسا، وأن كل ما كان يقال عن ضرورة عدم فرض ضرائب إلا على صافي الإنتاج كان أمرًا صائبًا في كل الأحوال، وبغير شك في مصر بصفة خاصة. ولكن تدخل الملتزمين فيها لم يكن له جدوى في شيء، وأن إدارة جيدة للضرائب تشمل كل البلاد ستكون أفضل وأكثر عدالة.

وقد استبد المماليك بكل السلطات منذ ستين عامًا، وقاموا بإلغاء كل المؤسسات التي كانت تحمي الشعب. وكان الرأي يطالب ببعض القوانين والمحاكم المنتظمة لضمان تمتع السكان بمكتسبين اجتماعيين عظيمين؛ وهما: سلامة الأشخاص، وسلامة الممتلكات. وفي الوضع الذي كنا فيه كان هناك عدة مزايا لوضع شعب هذا البلد في موقع يكشف بنفسه عن طابعه وآراءه الخفية، مما يجعل الفرنسيين قادرين على الاطمئنان على ما يمكن أن يتمنوه أو يخشوه من تظاهر أحاسيسه، وهو ما أعطى فكرة اجتماع ديوان كبير مكون من كل الأعيان ومندوبي الأقاليم، يتشاورون حول كل هذه المسائل الهامة للصالح العام.

وقد اجتمع الديوان الكبير في جلسته الأولى في أول أكتوبر، وبدا في أفضل المشاعر من أجل تنظيم جديد للأمور. وقد كان أيضًا يكره المماليك والعثمانيين؛ حيث كان حكم البعض وغيرهم على السواء مخالفًا لتعاليم القرآن. فإنَّ المماليك قد وُلِدوا كفارًا ولم يهتدوا إلى الدين الاسلامي بإخلاص، وكان العثمانيون جشعين وأصحاب نزواتٍ ومتقلبين وجهلة. وكان المتعلمون يدركون تميز المبادئ التي تحكم البلاد الأوروبية، وكانت تأسرهم فكرة السعادة الناتجة عن الحكم الحقيقي، وعن العدالة المدنية والجنائية التي تستند إلى أفكار سليمة. وكان الجميع حريصين على مجد وسعادة الوطن العربي، وهو شعور يؤمل منه كل شيء في يومٍ ما.

كان سير المناقشات في الاجتماع بطيئًا للغاية، سواء بتأثير طابع الشرقيين الهادئ وقليل الصخب، أو بسبب قلة ممارستهم لها، أو بسبب اختلاف عادات الأقاليم، أو صعوبة الاطلاع على الماضي في بلد لا توجد فيه مطبوعات. ولكن الأمور انتظمت رويدًا رويدًا، وقل ضياع الوقت. وباستطلاع الديوان في المسألة الكبرى، وهل من الأفضل البقاء على القوانين والعادات التي تدير الملكيات، أم من الأفضل اتباع القوانين الغربية حيث لا تنتزع الملكيات ويتم نقلها إما بواسطة عقود الرغبات الأخيرة [قبل الموت] (الوصية)، أو وثائق الهبة بين الأحياء، أو البيع بحرية وبالتراضي، والكل بتطبيق القوانين والأشكال القائمة. ولم يتردد الديوان الكبير وأعلن بالإجماع أن قوانين الغرب موافقة لروح كتاب الحقيقة (القرآن)، وأن هذه المبادئ كانت تحكم الجزيرة العربية في عهد الخلفاء الأمويين والعباسيين والفاطميين، وأن المبدأ الإقطاعي أنَّ كل الأرض ملك السلطان جاء به المغول والتتار والأتراك، وأن أسلافهم لم يخضعوا لها إلا كُرهًا. وكذلك ناقش الديوان بجدية إلغاء الملتزمين وتحرير أرض العطار. وخاف الأئمة على أملاك المساجد، وحضر معظم الملتزمين الاجتماع، وألح شيوخ البلد الذين كانوا نوابًا للقرى على إعفائها وحدها. وتم تعويض الأئمة في البداية بقبول الموافقة على أن كل الأراضي التي تتبع المساجد مهما كانت طبيعتها سوف يتم تأجيرها بعقود حكرية لمدة تسعين عامًا. وتظلم الملتزمون من عدم العدالة بنزع هذه الأراضي، ولم يبق إلا القليل منها، وعرضوا عليهم الاحتفاظ بالأراضي المسماة بالوسيات التي يمتلكونها في قراهم، وتعويض خسارتهم عن تحرير أراضي العطار من أراضي الوسية في المناطق الأخرى. وفي هذا الوضع الجديد للأمور، ما عسى أن تكون نسبية الميرة؟ قال البعض يمكن رفعها إلى نصف الإنتاج الصافي، ورأى

آخرون أنه لا يمكن أن تتعدى الربع دون الإضرار بالزراعة. وتمت مناقشة موضوعات أخرى في هذا الاجتماع الذي استمر عشرين يومًا. وانتشرت المعارف عندما جاءت أحداث هامة واستثنائية لتغيير مجرى الأفكار العظيمة التي كان سيكون لها أثر على سعادة هذا الشعب وعقليته وارتباطه على الدوام بالغرب.

ثانيًا: ألغت الحكومة الفرنسية الحملة على إيرلندا، وانتفض الأيرلنديون الذين وعدوهم بمساعدات قوية، واستسلموا بعد أن قاوموا القوات الانجليزية طويلاً. ولم يتلق الباب العالي أي تفسير، ولم يحضر السفير الفرنسي الذي أعلن عنه من قبل، واستسلم لتحريض انجلترا وروسيا، وأعلن الحرب على الجمهورية. بينما تناست أو أهملت باريس ما تم الاتفاق عليه عند وضع خطة حملة 1798، مع أن نابليون كان قد نفذ ما وعد به بدقة. فعندما وصل إلى الإسكندرية استمال رضا ضباط سفينة الكرافيل التركية، وكتب إلى الباشا طالبًا منه البقاء في القاهرة، ولكنه كان مضطرًا للحاق بإبراهيم بك، وترك الكيا (Kiâya) هناك فقط. وأمر نابليون برفع راية الصدر الأعظم مع العلم الفرنسي، وباستمرار الصلاة في المساجد من أجل سلطان القسطنطينية، وأشبع رغبات الباب العالي عندما كلف أحد العثمانيين بمهام الأمير- أغا ومنح نفسه لقب الكيا. وتلقت القافلة الكرافيل الأمر من "القبودان باشا" بالعودة إلى القسطنطينية، والذي اهتم بإصلاح الأعطال، ووفر له الإعاشة على نفقته، وألحق بها العالم الفلكي بوشان (Beauchamp) الذي أقام مدة طويلة في القسطنطينية وفي البحر الأسود، وكلفه بمهمة دبلوماسية، وأقام أيضًا عدة اتصالات عن طريق دمشق مع الريس- أفندي (le reis-effendi) ولكن فشلت كل هذه العمليات بسبب صمت وجمود حكومة لوكسمبورج.

وكان الباب العالي قد بسط سلطة الجزار باشا على كل سوريا، وكانت حلب وطرابلس ودمشق والقدس ويافا رهن أوامره، وفي نهاية شهر أكتوبر عينه سر عسكر (Séraksier) وأرسل الجزار باشا إلى الشيخ السادات فرمانًا يتضمن تصريحًا بإعلان الحرب على الصدر الأعظم ضد فرنسا. وقد ذهب نابليون للعشاء عند الشيخ، وعندما انفرد به أمره بضرورة تسليمه أصل الفرمان. نفى السادات علمه به، وتردد وتناقض مع نفسه، ثم سلمه له أخيرًا. وفي أثناء ذلك انتشرت ألف إشاعة في المدينة. وقيل إن القبودان باشا كان قد رسا في يافا، وأنزل جيشًا من العثمانيين الذين يزداد عددهم بشكل كبير بانضمام جيش الجزار الذي جاء من حلب ودمشق والقدس، والذي استنزف كل آبار سوريا. وأثارت هذه الأحداث الجديدة غضب الديوان الذي فزع من رؤية جيوش الباب العالي تنضم إلى جيوش انجلترا وروسيا، وبدأ الشك في مصير الحرب. وقد وهنت عزيمة من كانوا أكثر حماسًا، وأصبح المترددون وغير المكترثين أعداء. ومن جانبهما، لم يبق إبراهيم بك في سوريا، ولم يبق مراد بك في مصر العليا دون تحركات، فأغرق المماليك الأقاليم بالتهديد ضد شيوخ البلد المؤيدين للفرنسيين، وتوقفوا عن سداد الفايظ (Fayz) لهم.

ثالثًا: بدأ المهندسون الفرنسيون عملهم بدون توقف في بناء التحصينات وتسليح القلعة. وفي البداية أصلحوا الجبهات المطلة على الريف، ولم يثر ذلك انتباه الشعب، ولكن عند استكمال برنامج عملهم والبدء في التحصين على الجبهات قرب المدينة، وهدم عدد كبير من الأكشاك والمنازل وجامع كان يحجب الأسوار، وإقامة بطاريات عسكرية قوية فوق الأنقاض، فقد عبر الأهالي عن شدة قلقهم؛

"فلماذا يوجهون المدافع ضدنا؟ ألسنا أصدقاء؟ هل تراودهم مقاصد شريرة ضدنا؟ "

وقد كانت المدينة مقسمة إلى خمسين حيًا، يحيط بكل منها سور له بوابة تفتح وتغلق حسب قرار رئيس الحي، ويؤدي أقل إهمال في الخدمة إلى قطع الاتصالات، فيسبب الكثير من المشاجرات مع الجنود. وكانت المتاريس الدائمة خطرًا على السلطة الفرنسية، وتثير ثقة الشعب وتطاوله عليها. وبدت حالة اجتماع الديوان الكبير، والذي كانت استعداداته طيبة، على الموافقة على هدم كل المتاريس، وبدأ المهندسون - الذين كانوا على استعداد - عملهم بنشاط كبير. وثار ملاك الوكالات وكل ذوي النوايا السيئة على هذه التجديدات؛

"فلماذا تغيّرون دائمًا ما هو موجود؟"

ولاحظوا تزامن هدم الأسوار مع تسليح القلعة ورفع الضرائب الاستثنائية. وزاد التوتر بين الناس، وخلال أيام قليلة أصبح الغليان واضحًا. وكانوا يقولون:

" يطلبون منا الأموال المبالغ الباهظة التي يمكننا سدادها، ولكنهم في نفس الوقت يقومون بهدم أسوارنا، ويوجهون المدافع ضدنا، فما الخطط التي يدبرها رجال الغرب؟ لقد جمعوا كبار عظماء مصر فيما أسموه الديوان، ولكن ألا يعتبر هؤلاء المصريون رهائن تحت إمرتهم ليتمكنوا بسرعة من هدم كل ما تملكه مصر من عظمة وقدرة على حشد الشعب؟"

وكان الجنرال ديبوي (Dupuy) قائد أحد الأسلحة العسكرية، وضابطًا جيدًا شجاعًا، لكنه كان حاد الطبع سريع الانفعال. وقد ولد في مدينة تولوز، ولكن مُتباه وله حدة طبع أهل غسقونيا (gascon) التي لا تتفق مع الشخصية الشرقية الحادة. ولم يكن يراعي نتائج أقواله، وكان ديبوي يهدد المواطنين أحيانًا بغير روية، ونعرف أن مثل هذه التهديدات في أوروبا لا تعني شيئًا لأنها تتعدى سلطة من يطلقها، حيث توجد أساليب عامة ضرورية لإنزال العقوبات البدنية، ولكن في ظل الحكم الاستبدادي يستطيع رجال السلطة تنفيذ ما يحلو لهم، وكل إنسان مهدد يعتبر نفسه ضائعًا، ويعيش تحت تأثير هموم التهديدات.

وفي السادس من أكتوبر 1798، وبعد رفع السلطان الكبير الجلسة، قال الشيخ الشرقاوي أن رجلاً جاء من سميرنا [أزمير](Smyrne) إلى الجامع الأزهر، ومكث فيه عشرة أيام، وتمت مراقبته، وتم انتزاع الاعتراف منه بأنه مكلف من الجزار بشن حرب مقدسة ضد قائد الفرنسيين. و[قال] أنه تعهد بعدم إثارة الموضوع حتى لا يمنع وسائل التحذير مرة أخرى عن مثل هذه الجرائم، فاكتفى بإبعاد هذا المتعصب إلى سوريا، وكلف اثنين من رفقائه باصطحابه، ولكن كان من الملائم أخذ مزيد من الاحتياطات لأنه قد يكون هنالك أشخاص راودتهم نفس المقاصد في مساجد أخرى.

رابعًا: قام الديوان الكبير بتقسيم مبلغ ستين مليونًا، في شكل قرض سلفة إجبارية على مختلف تجار القاهرة، وأثار هذا التقسيم كثيرًا من الاعتراضات التي شغلت جلسة مقابلة القاضي، مما جذب إليها عددًا كبيرًا من الأهالي. وأصبح الملتقى حسب ذوق العصر، حيث تبدأ الجلسة مع شروق الشمس، وتستمر جزءًا من الصباح. وفي يوم 22 أكتوبر زاد عدد الجماهير بشكل ضخم عن العادة، وامتلأت سلالم وقاعات القصر في بيت القاضي بالفضوليين جذبهم اتحاد مهني انتقد مأمور التفليسة. وتوجه أغا الشرطة إلى اللقاء ونبه [ديبوي]، قائد السلاح العسكري، أن عددًا من مثيري الشغب قد اندسوا بين المجتمعين وهيجوا العامة. ولما كان الجنرال ديبوي يعرف أن أهالي القاهرة يتحدثون كثيرًا، وأنهم متقلبون وفضوليون، وكان معتادًا على مثل هذه التحذيرات، فلم يعرها اهتمامًا، واتجه إلى القصر، لكنه وصل متأخرًا، وترك مفرزة جنود الخيالة في الفناء، ودخل على القاضي. وعندما رأى التوتر بين الناس نصح القاضي بأن يؤجل الاجتماع إلى اليوم التالي، وهو ما حدث. ولكن الجنرال ديبوي وجد صعوبة في الوصول إلى جواده وسط الجموع الغفيرة. وعندما استعجل جنودُ الخيالة السَّيرَ، قام فرس بدهس رجل من المغاربة قادم من مكة، وكان رجلاً شرسًا لم يتردد في إطلاق عيار من بندقيته، فقتل الفارس الفرنسي وركب حصانه. فأطلقت مفرزة الانقضاض النار وفرقت الأهالي. وعندما خرج الجنرال من اللقاء ودخل الشارع على رأس مفرزة الطوارئ، تلقى ضربة بحربة من رجل متربص في مخفر ثابت فقتله. وفورًا انتشر الخبر في المدينة بأن السلطان الكبير (نابليون) قد قُتل، وأن الفرنسيين انكشفوا على حقيقتهم وذبحوا المؤمنين، ودعا المؤذنون من أعلى المآذن كل المؤمنين المخلصين إلى الدفاع عن المساجد والمدينة. فأغلق التجار محلاتهم، وأسرع الجنود من كل جانب ليجتمعوا في مواقعهم، وأغلق الثوار أبواب الأحياء التي لم تتهدم بعد، وصعدت النساء فوق أسطح المنازل يصرخن صراخًا مروعًا. وتوجه المواطنون إلى منزل الجنرال كفاريللي دي فلجاء والذي كان يسكن - بغير حذر- بالقرب من الجامع الأكبر. كان الأهالي ثائرين على ضباط سلاح المهندسين لأنهم هدموا أسوارهم ويديرون أشغال تحصينات القلعة، ويدنسون المقابر أحيانًا لإقامة التحصينات. وفي لحظات، قاموا بتحطيم المنزل وسرقوا ما فيه من الكتب والأدوات، وذبحوا خمسة أو ستة أفراد كانوا داخل المنزل،

وطافوا برؤوسهم في الشوارع، ثم علقوها على باب الجامع الأكبر. وأدت رؤية الدماء إلى إثارة المتحمسين، وفزع الكبار واحتجبوا في منازلهم، ولكن الشعب أسرع ليخرجهم من سكنهم، وحملهم على الأكتاف بمظاهر النصر حتى الجامع الأزهر. وتم تشكيل ديوان الدفاع والميليشيات وتوزيع الأسلحة، ولم يتم إغفال شيء يضمن سلامة المتمردين.

وعند طلوع الفجر حدثت مصادفة حين عبر نابليون نهر النيل ليتفقد ترسانة الجيزة، ثم رجع إلى المدينة في الساعة التاسعة. وعند رؤية ازدحام سكان الحي الذي مر به، لم يكن من الصعب عليه ملاحظة ما حدث. فقام باستدعاء كبار العلماء، لكن الطرق كانت مقطوعة، حيث وقف حرس المتمردين في أركان الشوارع. بدأ وضع متاريس وسياجات، وحمل الجيش السلاح كلٌ في موقعه. وحاول كبار الشيوخ نصح الشعب بتجنب العواقب نتيجة موقفهم، لكنهم لم يستجيبوا لنصحهم، واضطروا للسكوت عنها واتباع حركة الثورة التي لم يكن من الممكن مقاومتها.

وتم اختيار الشيخ السادات لرئاسة ديوان الثوار، وكان التجمع من مئة إمام ومؤذن وبعض رؤساء المغاربة، وكلهم من طبقة متواضعة. وصدر منشور يتضمن:

"أن الباب العالي أعلن الحرب على فرنسا، وأن الجزار باشا تم تعيينه سرعسكر، ووصل إلى بلبيس ومعه جيشه. واستعد الفرنسيون للهرب، لكنهم هدموا المتاريس لسرقة المدينة عند رحيلهم".

وانطلقت أصوات المؤذنين تدوي في الفضاء من أعلى أربعمئة مئذنة في القاهرة، تدعو إلى مواجهة كل أعداء الله الكفار والوثنيين. وانقضى يوم 22، وطوال الليلة من 22 إلى 23 (أكتوبر) على نفس الحال. وقضى الثوار هذا الوقت في تنظيم أنفسهم، وكان هناك صدى طلقات بعض البنادق، لكنها لم تكن مدوية. وأخذت الأوضاع شكلاً جديًا يستدعي الاهتمام، فقد كان قمع القاهرة أمرًا بالغ الصعوبة.

ولكن ما كان يستدعي التفكير أيضًا هو ما سوف ينجم بالضرورة عن ذلك، فلا بد من إخضاع المدينة الكبيرة، مع تجنب كل ما يمكن أن يصعد الأمور لدرجة قصوى، حتى لا يصبح شعب مصر عدوًا لدودًا للجيش.

فتم نشر منشور كتب باللغتين التركية والعربية، ليوضح للأهالي الأخبار الخاطئة الصادرة عن المتمردين سيئي النوايا لتضليلهم؛

"إذ ليس صحيحًا أن الجزار قد عبر الصحراء، وأن هدم الأسوار يتمشى مع قواعد الشرطة، كما أن تسليم القلعة من جانب المدينة لم يكن إلا تنفيذًا لقاعدة عسكرية. وذكر المنشور الأهالي بمعركة الأهرام، وأسلوب السلطان الكبير (نابليون) نحوهم، وانتهى باقتراح الامتثال لقرار الديوان".

وقد كان لهذا المنشور تأثير سيء، فقد استخدمه الثوار لإقناع الشعب بأن الفرنسيين خائفين، مما جعلهم أكثر جرأة. وبدأ رجال الفتوى يرددون أنه لا أمل، وأنه يجب عدم التواني في استعمال القوة، وأن عرب الصحراء قد بدأوا الزحف، وأن القبائل القريبة سوف تصل خلال النهار. وبالفعل عُلم بعد ساعة أن البيلي (Bily) والترابين (Terrâbyn)، وكان عددهم سبعمئة أو ثمانمئة رجل، قد قاموا بعدد من الاعتداءات، وأنهم أغاروا على اتصالات بولاق. واتجه المرافق العسكري سولكوفسكي (Sulkowski) مع مائتي حصان، وعبر القناة فوق قنطرة صغيرة، وهجم على البدو وقتل بعضهم، ولاحقهم على امتداد عدة فراسخ. وطهر كل ضواحي المدينة، ولكنه جرح بعد فترة وقُتل فرسه فسقط واخترقته عشر ضربات من الرماح. كان سولكوفسكي بولندي الأصل، وكان ضابطًا ماهرًا وعضوًا في المعهد، وكان موته خسارة، وكان الحزن عليه شديدًا.

فقام دومرتان (Dommartin)، جنرال المدفعية، بمغادرة بولاق ليأخذ موقعًا فوق ارتفاع حصن ديبوي مع سرية مدفعية وأربع مدافع هاون وستة رماة. وفي الساعة الواحدة بعد الظهر، أعطى إشارة الهجوم إلى ثلاثين مدفع هاون، وإلى الرماة بالقلعة، وسرية مدفعية حصن ديبوي. فانفجرت عدة قنابل في مسجد الجامع الأزهر، وظهرت النيران بعد ساعة في أحياء مختلفة من المدينة. وفي الساعة الثالثة خرج الثوار من باب النصر لانتزاع بطارية حصن ديبوي. كانوا بين سبعة آلاف أو ثمانية آلاف قناص، منهم سبعمئة أو ثمانمئة يمتطون الجياد. وامتلأت مآذن وقبة مسجد الحسين بالقناصة لإسكات مدافع القلعة، ولكن دون جدوى. وكان مع الجنرال دومرتان ثلاث كتائب وثلاثمئة حصان لحماية سراياه، وقام بالهجوم والحربة في فوهة البندقية. تم رد الثوار المتمردين، وقام سلاح الفروسية بأسر أربعمئة سجين منهم. وأصدر القائد العام الإشارة فورًا إلى الصفوف الأربعة التي أعدت الهجوم، وكان كل منها مكونًا من كتيبتين يقودهما أقباط وسوريون وانكشاريون من الأوفياء. وصلت الصفوف الأربعة كلها إلى الجامع الأزهر، ودخل إليه الهاربون من قلعة ديبوي في هلع، وتم الهجوم على المسجد والاستيلاء عليه.

وفي الساعة السابعة مساء عاد الهدوء، وتوقف إطلاق النيران، وقبض أغا الشرطة على ثمانين من مئة من أعضاء ديوان الدفاع، وتم سجنهم بالقلعة.

ظلت الليلة هادئة ومظلمة، وانسحب الكبار إلى حريمهم غاية في الخوف من وضعهم، لا يعلمون كيف سيتم الحكم على تصرفهم، وقد يحملونهم مسئولية ثورة الشعب. وقبل طلوع النهار، قام ما يقرب من أربعة آلاف رجل

باختراق الصحراء واللجوء إلى السويس. وقد احترقت ثلاثة منازل فقط، وتعرض عشرون منزلاً للخسائر، ولحق بعض الضرر بالجامع الأزهر.

ووصلت خسائر الفرنسيين إلى ثلاثمئة رجل، من بينهم مئة قتيل. ووصل من بلبيس ثلاثون مريضًا اخترقوا المدينة في فترة اندلاع الانتفاضة (حركة التمرد)، وتم ذبحهم. وكان من أهم الخسائر في بداية الثورة ذبح عشرين ضابطًا من الأركان وسلاح المهندسين ومن أعضاء لجنة الفنون، كانوا منعزلين داخل أحياء مختلفة. وقام رجال من شرفاء المدينة بإنقاذ عدد كبير من الفرنسيين. وظل كل من كان من الأثرياء والمتعلمين أوفياء، وقدموا خدمات جليلة للأوروبيين.

وفي الساعة السادسة من صباح يوم 24 (أكتوبر)، اكتشفت إحدى اللجان الحربية أن سجناء القلعة الثمانين كانوا من أعضاء ديوان الدفاع، وتم إعدامهم رميًا بالرصاص فقد كانوا رجالاً عنيفين لا يمكن التوفيق بينهم.

خامسًا: عند شروق الشمس ذهب إلى القصر ستون شيخًا وإمام من المسجد الكبير، لم يناموا طوال ثلاثة أيام، وكان مظهرهم يدل على أنهم مذنبون يستبد بهم القلق، ومع ذلك لم يكن هناك ما يلومون أنفسهم عليه، فقد كانوا مخلصين، غير أنهم لم يستطيعوا رد سيل الرأي العام.

واعتذر الشيخ السادات بحجة أنه مريض، وكان يمكن تجاهل سوء تصرفه الذي لو وصل إلى علمهم، فكان لا بد من قطع رقبته. ولكن، في نظر الناس، كان الضرر من قتله أكثر من نفعه، فقد كان اسمه مبجلاً في كل الشرق، ولأن قتله سيجعل منه شهيدًا. وقد وصلت رسالة من القائد العام أنه لا يندهش من أن يكون متوعكًا في مثل هذه الأحداث الغريبة، وأنه يود أن يراه في اليوم التالي إذا أمكنه ذلك.

استقبل نابليون الشيوخ كعادته وقال لهم:

"أعرف أن كثيرًا منكم ضعفاء، وأود ألا يكون من بينكم واحد من المجرمين، فإن أكثر ما يستنكره النبي خصوصًا نكران الجميل والعصيان... ولا أرغب في أن يمر يوم في القاهرة دون أن تقام الصلوات المعتادة. لقد تم الهجوم على الجامع الأزهر وسالت فيه الدماء؛ فاذهبوا وطهروه. وقد استولى جنودي على الكتب المقدسة، لكنهم اتفقوا مع رأيي وأعادوها إليّ، وأنا ذا أردّها إليكم. إنّ من ماتوا قد أشبعوا غليلي، فقولوا لأهالي القاهرة أني أود أن أستمر رءوفًا ورحيمًا، فقد أوليتهم حمايتي الخاصة، ويعرفون كم أحبهم، وليقدروا هم تصرفاتهم بأنفسهم. إنني أسامحهم كلهم، ولكن بلغوهم أن ما حدث ويحدث ما هو إلا قدر مكتوب، وليس باستطاعة أحد أن يعوق مسيرتي، فإن ذلك كمن يحاول وقف القدر. فكل ما حدث وما يحدث مكتوب في كتاب الحقيقة [أي القرآن الكريم]" !!.

فسجد هؤلاء الشيوخ وقبلوا كتب القرآن التي كان من بينها عدد كبير يرجع لأزمنة قديمة، ومن بينها نسخة قرآن كان يملكها الحسن (Hasn) ومصاحف أخرى لصلاح الدين. وعبر الشيوخ عن شكرهم بظاهر الحال أكثر مما عبروا عنه بالقول، واتجهوا إلى الجامع الأزهر، وكان المسجد قد امتلأ بالأهالي يرتعدون من الخوف، وقاموا بتطهيره ودفن الموتى، وبعد الوضوء والشعائر المألوفة أقيمت الصلوات المعتادة. وصعد الشيخ الشرقاوي إلى المنبر، وكرر ما قاله السلطان الكبير لهم. واطمأن الأهالي، ونادوا بشفاعة النبي والدعوات وبركات من الله لصالح هذا الأمير العظيم المتسامح. وخلال يوم 24 (أكتوبر) تم إزالة المتاريس، وتنظيف الشوارع، وإعادة النظام إلى المدينة.

وفي يوم 25، ذهب الشيخ السادات إلى اجتماع الديوان، وكان استقباله فيه كالمعتاد، ولم يكن من الصعب مطالعة الخوف على وجهه بوضوح، فأخذ يهذي وينطق بكلام غير متساوق، وعندما هنأ السلطان على الأخطار التي نجا منها، شكر الله الذي قضى على الفتنة ونصر العدالة. وكما لو كان يريد أن يضمن لنفسه العفو، أمسك بطريقة انفعالية بيد السلطان الكبير وقام بتقبيلها.

وقضي الأهالي طوال يوم 25 في الترقب، ولكن بدا أنهم قد اطمأنوا واستسلموا للفرحة، واعترفوا بأنهم جميعًا يستحقون الموت، ولو أن الأمير كان عديم الرحمة لكانت القاهرة قد شهدت نهايتها.

ولم يشارك الجيش فرح ولا رضى الأهالي، وإنما عبر الضباط والجنود عن غضبهم ولاموا هذا التسامح:

"لماذا ندلل ونحابي الشيوخ المُسنين، هؤلاء الصراصير؟ إنهم وراء كل ذلك، ولا بد من الانتقام لدماء الفرنسيين الذين اغتيلوا غدرًا. وماذا نريد أكثر من ذلك لمداعبتهم؟ لم يبق سوى إعطاء هؤلاء المنافقين جوائز لقيامهم بهذه التصرفات الشنعاء".

ولم يتأثر نابليون بغمغمة الجيش الذي لم يدرك إلا فيما بعد كم كان أسلوبه حكيمًا. وعندما كان كليبر قد حضر لتوه من الإسكندرية، وشاهد الشيخ السادات وهو يقبل يد الجنرال القائد العام، فقد بادر بسؤاله:

- "مَن هو هذا الشيخ العجوز الحيران والمضطرب الملامح لهذه الدرجة؟

أجابه نابليون: إنه زعيم الانتفاضة.

- ولماذا لا تأمر بقتله؟

- إن هذا الشعب يختلف عنا وعن عاداتنا، فهو يحتاج إلى قائد، وأفضل لنا أن يكون رئيسه مثل هذا الشيخ الذي لا يستطيع ركوب الخيل ولا استخدام السيف، من أن يكون قائده مثل مراد بك وعثمان بك. فلا فائدة من موت هذا الشيخ العجوز المهم، وقد يجلب [قتله] علينا عواقب أسوأ مما تتصور".

وقد برهنت الأحداث التي وقعت بعد فترة على هذا الحوار والتي تنبأ بها

قام العلماء بنشر الإعلانات بهدف تهدئة الثورات التي اندلعت في أماكن مختلفة، وتم إيفاد عدد كبير منهم في مهام إلى الأقاليم، فتحدثوا بحماس، وكانت قلوبهم تمتلئ بالعرفان نتيجة ما لاقوه من معاملة كريمة. وقد كانوا يعتقدون أن نابليون يحب القرآن والنبي، وأنه صادق في كل التصريحات التي عبر فيها عن رغبته في سعادة شعب الجزيرة العربية. وانتشرت ألف إشاعة في المدينة والأقاليم، وكانت إحداها تدَّعي أن محمدًا ظهر للسلطان الكبير في أثناء الثورة وقال له:

"أهالي القاهرة مذنبون، ولكنك كنت طيبًا معهم؛ لذلك سوف تنتصر وتدخل الجامع الأزهر بقواتك، ولكن عليك احترام المقدسات وكتب القانون، وإن لم تكن غفورًا بعد النصر فلن أقف بجانبك ولن تنال إلا الهزائم".

كل ذلك كان خليطًا من الخرافات والخيلاء بأن النبي هو الذي فعل كل شيء، وهو.الذي يواصل حمايتهم.

ولقد دعّم سلطة الفرنسيين في البلاد هذا الحدث الذي كان يمكن أن تكون عواقبه وخيمة، فمنذ ذلك الوقت لم يُقصر الأهالي أبدًا في تفانيهم، ولا تخلوا عن مشاعر العرفان اعترافًا بالجميل والتسامح. ومع ذلك أبطل نابليون الديوان، لكنه رأى ضرورة الإبقاء على الأعضاء في الأقاليم. وتم تأجيل تنفيذ بعض المشروعات - التي كان قد سبق الإعداد لها - إلى حين استعادة السلام من جديد مع سلطان القسطنطينية، أو إلى الوقت الذي تقوم فيه معارك حربية هامة تصد عاصفة التمرد الموعودة.

وخلال شهري أكتوبر ونوفمبر، وجزء من ديسمبر 1798، ظلت مدينة القاهرة دون ديوان، عقابًا لسكان القاهرة على ثورتهم. ولكن أمام إلحاح الأهالي وافق القائد العام أخيرًا على استرجاع الديوان، وصرح لهم قائلاً:

"كنت غير راض عنكم فحرمتكم من الديوان، واليوم يسرني أنكم ندمتم وأحسنتم التصرف، فالآن أرده إليكم. ليس هناك سلطة بشرية تستطيع الوقوف ضدي، فإنه مكتوب في أكثر من آية في القرآن أنني سأصل من الغرب إلى ضفاف النيل، وسوف يقتنع العالم بذلك يومًا ما".

وفي اجتماع اليوم التالي بالغ الشيوخ في التعظيم، وأخذ الشيخ الفيومي الكلمة وطلب العفو عن الأئمة والمؤذنين البؤساء المحجوزين في القلعة. فأجاب القائد العام دون أن تهتز مشاعره:

"لقد حُكم عليهم وقتلوا قبل طلوع الشمس بعد انتهاء الثورة".

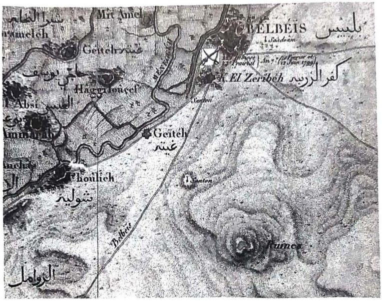
عندئذ نظر الشيوخ إلى السماء، وقاموا بأداء صلاة قصيرة، وقالوا:

"لقد نُفذ أمر الله، ولقد كانوا مذنبين حقا فاستحقوا العقاب. إن الله عادل وموجود في كل مكان، إنها إرادة الله، وإنا لله وإنا إليه راجعون. الله أكبر، الله أكبر كبيرًا. وكل ما يجري في الأرض وفي السماوات السبع هو من عند الله".

سادسًا: أقامت المدفعية بطارية الهاون والقذائف على التل، حيث شيد برتران، نقيب سلاح المهندسين، حصنًا من البناء الذي يسيطر على أكثر الأحياء تمردًا، ويقابل بناره نيران القلعة، ويجوب الطريق المؤدي إلى باب النصر، وكذلك المضيق الذي يفصل القلعة عن المقطم. أما المسجد الكبير بأسواره المرتفعة، والواقع على قناة أمير المؤمنين على طريق بلقيس، والذي كان يخفي سور المدينة من جهة الشمال، فقد تحول إلى حصن باسم سولكوفسكي، كان يستطيع احتواء عدة فرق ومخازن، ويكفي عددٌ قليل من الرجال لحمايته. وعلى الارتفاع الذي يسيطر على المدينة من الجانب الشمالي الغربي في منتصف طريق بولاق، أقيم برج أطلق عليه اسم حصن كامان (Camin) يحمي ميدان الأزبكية وشوارع المدينة العريضة. وتم تشييد حصن المعهد فوق التل قرب حديقة المعهد، ويجوب كل الساحة بين القاهرة والقاهرة القديمة والنيل، ويؤمن الاتصالات مع جزيرة الروضة، ويحمي المستشفى التي أنشأت في منزل إبراهيم بك. كانت هذه المستشفى مستورة بحاجز مثقوب قرني الشكل، وكان رأس جسر في مقدمة جزيرة الروضة. وأقيمت مدفعية في المقياس، وتم تحويل القناطر في القاهرة القديمة إلى قلعة. كما كانت توجد مجموعة من الخنادق من القاهرة حتى جزيرة الروضة والجيزة الواقعة على ضفة النيل اليسرى. وتم إحاطة المدينة الكبيرة بقلاع تضم مدفعيات حارقة تستطيع أن تُلقي القنابل والقذائف في آن واحد في كل الأحياء، وأن تدافع عن أطراف المداخل، ويستطيع حمايتها خمسمئة رجل. وتم ترتيب فرقة من أهل البلد لمساعدة أغوات الشرطة والتجار، لمراقبة المقاهي والتجمعات والميادين العامة والأسواق حسب عادات هذه المناطق. وكان إلغاء كل المتاريس الداخلية قد أعطى شكلاً مختلفا تمامًا لتلك المدينة، فأخذت الحوانيت والمقاهي والفنادق والمصانع الصغيرة التي أقامها الأوروبيون في التوسع، وحققت ملذات الحياة، ما جعل الجيش يتحمل الاغتراب عن أوروبا.

سابعًا: لقد كدّر راحة البلاد [هؤلاء] المتمردون الذين هربوا من القاهرة وأقاموا في مدينة السويس، وقاموا بالوساطة في الاتصالات بين إبراهيم بك المقيم في سوريا، ومراد بك في الصعيد. وبهذه الاتصالات هيجوا كل قبائل الصحراء. وعلى ذلك فقد كان من الضروري احتلال هذه المدينة الهامة، وهو الأمر الذي كان مهملاً حتى ذلك الوقت. وللوصول إليها كان لا بد من اختراق الصحراء الجرداء، دون ماء ودون ظل، لمدة اثنتين وأربعين

ساعة على مدى مسيرة بالغة المشقة في فصل الصيف. ولكن كان لا بد من تجنب كل ما يمكن أن يثير غضب الجنود. على أن الحرارة المرهقة كانت قد انتهت بنهاية شهر أكتوبر، وأشاعت أيام الخريف الجميلة الرضا في داخل الجيش الذي اعتاد أخيرًا على البلد، فحصل على الخبز الطيب، والأرز والزبيب من قبرص، والعرق من التمر والبيرة، واللحم والدواجن والبيض، وكل أنواع البقول



11- بلبيس 10 فبراير و12 يونيو 1799.

خريطة (24)

وتم سداد مرتبات الضباط والجنود على قدر مرتبات فرنسا، وبذلك أصبحت تعادل أربعة أضعاف مرتبات فرنسا بالنظر لرخص أسعار المواد الغذائية في مصر. وكان المنسق "لور" (Laure) يقوم بانتظام بتوزيع البن موكا، ومنح كل جماعة صغيرة من المشاة إبريقًا من القهوة. ولتحل محل الشاحنات وعربات التجهيزات الحربية فقد أعطى لكل فرقة [أعدادًا] من الجمال بالقدر الكافي لحمل الماء والمئونة وعربات الإسعاف والتجهيزات. وأعد لعامة الضباط وكبار الضباط أسرة وخيامًا وجمالاً كانت كلها مُجهزة وفق أسلوب البلد. وعاد الجندي إلى طبيعته، وملأه الحماس والرغبة في المبادرة، وإن كان يشكو من شيء فمن البطالة التي يعيشها منذ عدة شهور. وقد أثر هذا التغير في ترتيباته كثيرًا في النظرة إلى البلاد، وأصبح مقتنعًا بخصوبة وخيرات البلد وسلامته من الأمراض، وكل ما يمكن أن تقدمه مؤسسة قوية من مزايا إلى الأفراد والجمهورية.

وسافر اللواء بون (Bon) يوم 8 نوفمبر، ومعه ألف ومائتا رجل من المشاة، ومائتا حصان ومدفعان، ووصل مع المعسكر إلى بركة الحاجي (Birket el-Hàggy) على شاطئ ترعة مياه على النيل على بعد خمسة فراسخ من القاهرة على طريق قناة السويس. ولحق به كل ما يلزمه لعبور الصحراء، فحمل جملاً بقربتين مملوءتين بالماء تكفيان السقاية لأربعمئة رجل في اليوم، أو لأربعين حصانًا، وكان من الضروري نقل الأخشاب لإعداد الأكل (الشربة). وبالرغم من أن عبور الصحراء حتى السويس لم يكن يحتاج سوى ثلاثة أيام، فقد كان من الحذر نقل مؤن تكفي لمدة عشرين يومًا من الماء والحطب، وهو ما تطلب ألف بعير. ولم يجد الجنرال بون أية صعوبة عند دخول السويس، وبدأ على الفور عمل التحصينات لتغطية الحامية الصغيرة التي كان يريد تركها هناك. وقد كان مهندسو البحرية قد شيدوا في ورشة بالقاهرة أربعة زوارق مدفعية مجهزة بمدافع عيار 24، وتم فكها وحملتها الجمال إلى السويس، حيث تم تركيبها وجلفنتها من جديد. ورفعت الراية ثلاثية الألوان على البحر الأحمر، وأبحرت شمال هذا البحر حتى القصير وينبع.



1

12- معركة هليوبوليس 20 مارس 1800، وبركة الحاجي 13 يونيو1799.

خريطة (24)

وينقسم البحر الأحمر في الشمال إلى ذراعين (فرعين)، الأول يسمى بحر السويس، وعرضه من خمسة إلى عشرة فراسخ، وطوله خمسون فرسخًا. والفرع الثاني هو [خليج] العقبة، الذي يدخل في الأراضي ثلاثين فرسخًا، وعرضه من ثلاثة إلى خمسة فراسخ. وفي النهاية مدينة عيلانه (AElana)، أو عيلب (Aïlab)، وتقع على بعد ستين فرسخًا من السويس، على طريق قوافل مكة. ويوجد عند عيلب حصن حاميتهى الصغيرة تركية، وبها آبار ماء عذبة ووفيرة. هذا الميناء كان ملكًا للأدوميين (Iduméens) الذين كانوا ينافسون صور (Tyr)، وكانت ميناء القدس. وتقع صحراء الطور (Thor) بين السويس وبحر العقبة وجبل سيناء، ويسكنها ثلاث قبائل من عرب الطور، من أربعة إلى خمسة آلاف نسمة. ونجد هناك أنقاضًا تدل بغير شك على المدن التي كانوا يقيمون فيها. ويوجد في وادي فيران (Faran) أخشاب وأرغال يستخدمها العرب لعمل الفحم.

وفي نهاية شهر ديسمبر، سافر القائد العام إلى القاهرة، ومعه الأكاديميون: مونج، وبرتوليه، ومهندس الطرق والكباري لي بير (Le Père)، والأركان، ومائتان من فرسان الحرس، وأربعمئة جمل وحيد السنام. فقد أراد أن يزور بنفسه شاطئ البحر الأحمر، وأن يتعرف على آثار قناة البحرين. ولأنه لم يغب منذ ثورة القاهرة، فقد كان يسعده أن تعتاد هذه المدينة الكبيرة على غيابه.

وهناك ثلاث طرق للذهاب من القاهرة إلى السويس، الطريق الأول يمر بقرية البساتين على بعد فرسخين جنوب القاهرة، ومنها يتجه شرقًا ويدخل إلى وادي التيه، وعلى بعد ثمانية فراسخ توجد آبار جندالي (Gandely)، وعددها ثمانية، والمياه فيها كريه. وتقيم القوافل المتجهة من سوريا إلى الصعيد قرب هذه الآبار، ومن آبار جندالي يمكن السير طوال ستة عشر فرسخًا حتى شاطئ البحر الأحمر، ومن هناك نسير طوال تسعة فراسخ ونصل إلى السويس؛ حيث جملة المسافة من القاهرة إلى السويس خمسة وثلاثون فرسخًا، وفقط ستة وعشرون فرسخًا حتى البحر الأحمر. ويسقط المطر في هذه الصحراء، وكان من السهل بناء صهاريج كل أربعة فراسخ لحاجة الرحالة وتنظيم موارد السفن (مكان تموين السفن بالماء) على شاطئ البحر. وكان أهالي منف يستعملون هذا الطريق كثيرًا. والطريق الثاني من القاهرة حتى بحيرة بركة الحاجي، وطوله خمسة فراسخ. ومن بركة الحاجي حيث ندخل في الصحراء، والتي نخترقها حتى قصر عجرود (Ageroud) دون العثور على ماء، توجد ثالث محطة لقافلة مكة على بعد ثلاثة وعشرين فرسخًا. ومن عجرود إلى السويس خمسة فراسخ، والمجموع ثلاثة وثلاثون فرسخًا. والطريق الثالث يمر ببلبيس. ومن القاهرة إلى بلبيس اثنا عشر فرسخًا، وعن طريق الصحراء حتى عجرود تسعة عشر فرسخًا، وإلى السويس خمسة فراسخ، حيث يكون المجموع ستة وثلاثين فرسخًا، ولكن منها تسعة عشر فرسخًا فقط في الصحراء. والمسافة الفلكية من السويس إلى القاهرة 5 ,27 فرسخًا، ومن السويس إلى الهرم الأكبر بالجيزة واحد وثلاثون فرسخًا، وكل هذه الطرق على 25 درجة.

وفي 24 ديسمبر، أقيم المعسكر على شاطئ بحيرة بركة الحاجي، ووصل إليها عدد من التجار كان لهم مصالح في السويس. وفي الساعة الثانية يوم 25، وذلك قبل طلوع النهار، بدأ المعسكر في التحرك، وسارت القافلة طوال اليوم وسط رمال قاحلة. كان الجو جميلاً، ولم تكن حرارة الشمس غير محتملة. كان السير في الصحراء مملاً ومثيرًا لبعض الحنين. وكان المرشدون العرب يسيرون دون حاجة إلى دليل يتبعون أثره، وتتوقف القافلة للراحة مرتين، كل مرة مدتها نصف ساعة. وتخيم القافلة في الليل عند شجرة الحمراء [(Hamrà) جماعة الشراميط Djamaât Echaramît] على بعد أربعة عشر فرسخًا من بركة الحاجي. وتعتبر الحمراء موضع عبادة عند العرب، وتقع اللعنة والحرمان من المغفرة على الكفار ممن أساءوا إلى معجزة الصحراء. وسيعاني من البرد ذلك الجندي الذي لم يقم بحمل الخشب معه إلى المعسكر، ولن ينعم إلا قليلا بالنار مَن يحاول إشعالها ببعض العظام أو النباتات الجافة التي يبلغ طولها سبع أو ثماني بوصات، والتي يجدها في الوادي بالقرب من المعسكر مما كان غذاءً للجمال. وفي الساعة الثانية قبل طلوع نهار اليوم السادس والعشرين، بدأت القافلة السير، ولم يكن النهار قد ظهر بعد عندما مرت قرب بئر البطار (El-Batar) حفرة واسعة للغاية بعمق خمسين قامة، حفرها العرب بهدف العثور على الماء، لكنهم اضطروا إلى صرف النظر. وبالقرب من هناك لوحظت - ولكن فقط في ضوء القمر- شجرة أكاسيا قديمة وعليها كتابات... وشهادات عبادة أخرى للحجاج عند عودتهم من مكة، يكرمون هذه النباتات التي تبشر بقرب ماء النيل. وفي الساعة الثانية بعد الظهر وصل نابليون إلى عجرود، ووصل الطريق إلى 500 قامة. وعجرود هي قلعة صغيرة فوق ربوة صغيرة تشرف على بعد، بها سوران مبنيان وبئر عميقة للغاية، بها مياه وفيرة لكن كريهة، وتقل رائحتها إذا تعرضت للجو فتصبح حسنة وصالحة للخيل والجمال والحيوانات، ولا يستعملها الناس إلا في حالة الضرورة القصوى. ويوجد في هذه القلعة مسجد، ونزل (خان) للقوافل ومسكن من أجل مئة وخمسين رجلا، عين فيه نابليون قائد سلاح، وخمسة عشر رجلاً من الحامية، ومدفعين. كان الوصول إلى السويس في ليلة مظلمة، وفضل القائد العام البقاء في خيمته، ورفض بيتًا كان قد أعد له.

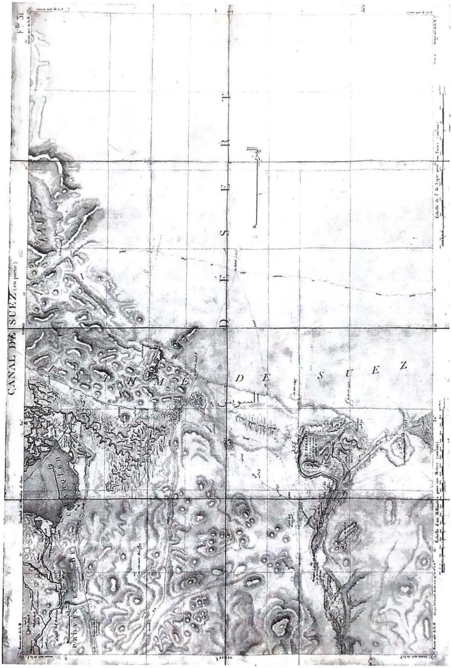
وتقع السويس على شاطئ البحر الأحمر على 2600 قامة من نهاية الخليج، وعلى 400 أو500 قامة عند مصب القناة القديمة. وقد عرفت المدينة رخاء كبيرًا، ووصفها الجغرافيون العرب بأنها واحة، ومن المحتمل أن الماء من القناة، حيث لا يصلها المطر إلا قليلاً لدرجة أن الماء المحفوظ في الصهاريج يمكن توفيره بالقدر الكافي ليس فحسب لاحتياجات المدينة، ولكن أيضًا للزراعة. واليوم لا يوجد شيء، فسعة الخزانات قليلة، وهي دون صيانة، ويأتي الرجال لشرب الماء من عيون موسى، وللخيل والجمال من ينبع السويس الواقعة على بعد فرسخ على طريق قلعة عجرود. وفي المدينة سوق جميلة، وبعض المساجد الفاخرة، وبقايا أرصفة جميلة، وثلاثون محلاً ومنازل تكفي لما بين ألفين إلى ثلاثة آلاف نسمة. وتستوعب السويس في الواقع كل هؤلاء الأهالي في فترة

إقامة القوافل والسفن من جدة، ولكن عندما تنتهي أشغالهم لا يتبقى من السكان سوى مائتين أو ثلاثة من البائسين. والشاطئ على بعد فرسخ من المدينة، وترسو السفن فيه بعمق ثمانية أذرع، وتبعد فرسخًا عن البرج، وتتصل بالمدينة عن طريق ممر مائي ضيق، عرضه ستون أو ثمانون قامة، وعمق الماء عشرة أقدام، ما يجعل خمسة عشر أو ستة عشر في حالة المياه المرتفعة. والأعماق سليمة يستقر فيها إلقاء المرساة، وهي قعر من الرمال الموحلة. ويغطي المرساة أرصفة صخور وشط رملي. والرياح العكسية جنوبية شرقية، لا تسيطر إلا نادرًا في هذه الضواحي.

ثامنًا: كرس نابليون اليوم السابع والعشرين لزيارة المدينة، وأصدر بعض الأوامر بإقامة بطارية مدفعية تستطيع حماية الممر المائي والميناء. وفي اليوم الثامن والعشرين سافر على متن جواد متجهًا إلى عيون موسى. وفي الساعة الثالثة صباحًا عبر المعدية، وهي ذراع صالح للعبور عند المياه المنخفضة، عرضها ثلاثة أرباع فرسخ. وقام جانتوم - نائب الأميرال - بركوب مركب مدفعية، ومعه بعض النقابين والمهندسين، وعدد كبير من العلماء، ووصل إليها عن طريق البحر. وتقع عيون موسى على بعد ثلاثة فراسخ من السويس.

وعددها تسع عيون، وهي عبارة عن منابع للماء تخرج من ربوات مرتفعة لبضع قامات فوق سطح الأرض. وتأتي من جبال تقع على بعد أربعة فراسخ من هناك. وهذه الينابيع على بعد 700 قامة من البحر، ونرى فيها بقايا قناة صناعية وعدة مخازن بناها البنادقة في القرن الخامس عشر عندما أرادوا قطع طريق الهند على البرتغال. وكان الجنود قد بدأوا التنقيب واستمروا حتى حلول الليل، فركب القائد العام على فرسه للعودة إلى السويس، وأبحر من جاءوا عن طريق البحر على الزوارق المسلحة. وفي الساعة التاسعة مساء، صاح قناصو الطليعة أنهم انغرزوا، ونادوا على المرشدين الذين أثملهم الجنود بشرب ماء الحياة، وكان من غير الممكن الاستفادة منهم، فقد كانوا خارج الطريق. واهتدى القناصة بنار ظنوا أنها أنوار السويس، ولكنها كانت مصباح غرفة زورق المدفعية، وهو ما تم إدراكه في الحال، فقد كان مكان الضوء يتغير في كل لحظة. توجه القناصة وحددوا موقع السويس وساروا الواحد على بعد 50 قدمًا من الآخر، ولكن بعد مسافة 200 قامة صاح أحد القناصة في المقدمة أنه انغرز في الوحل، ويلزم التراجع عن هذا المكان. وبالمحاولات في عدة اتجاهات ساعدهم الحظ بالوقوع على الطريق الصحيح.

وفي الساعة العاشرة مساءً، استعدت كتيبة مطاردة للمعركة وسط الجيوب، ووصل الماء إلى مستوى بطن الخيل. كان الجو مظلمًا، ولم يظهر القمر في هذه الليلة إلا في منتصف الليل. وكان البحر هائجًا بعض الشيء، وبدا الهواء منعشًا، والموج عاليًا، وكان من الخطر التقدم أو التأخر، وأصبح الوضع حرجًا لدرجة أن قال نابليون: "هل جئنا هنا لنموت مثل فرعون؟ "سوف يصبح نصًا جميلاً لداعية المبشرين بروما!".



13- قناة السويس.

خريطة (31)

كانت القافلة مكونة من جنود ذوي خبرة تمتد لثماني أو عشر سنوات، وفي غاية الذكاء، وهم لويس (Louis) رقيب مدفعية الخيالة، والعريف كربونيل (Carbonncl)، اكتشفا الممر. عاد لويس إلى اللقاء وكان قد لمس الشاطئ ولم يكن هناك وقت لضياعه، فقد كان الماء يصعد في كل لحظة. وعانى كفاريللي دي فلجا أكثر من غيره بسبب ساقه المصنوعة من الخشب، فسبح رجلان شجاعان كانا جديرين بكل الثقة، وكان طولهما خمسة أقدام وعشر بوصات، فقاما بإنقاذه. وحين اطمأن القائد العام أسرع للوصول إلى البر. وعندما كان عكس التيار سمع صوت شجار وصياح شديد، واعتقد أن الضابطين قد تركا دي فالجا. ورجع على أعقابه، ولكن على العكس كان دي فالجا هو الذي يأمر الضابطين بتركه قائلا:

"لا أريد أن أكون السبب في موت ضابطين شجاعين، لا أمل في نجاتي، أنتما خلف الجميع، فإذا كان لا بد من الموت فأريد الموت وحدي".

وقد أنهى وجود القائد العام هذا الخلاف، فأسرعوا ووصلوا إلى البر، ولم يصب كفاريللي سوى ساقه الخشبية، وهو ما عانى منه على مدى أسابيع. وقد كانت الخسائر خفيفة، منها بعض الغدارات [بنادق صغيرة للفرسان]، وبعض المعاطف.

ولما كان الإنذار بالخطر في المعسكر، فقد فكر بعض الضباط في إشعال النار على الشاطئ، لكنهم لم يجدوا خشبًا، فقاموا بهدم أحد المنازل مما استلزم بعض الوقت. وبدأوا إشعال أول نار على الشاطئ بمجرد أن وطأوا الأرض. وبدأ كبار السن من الجنود الذين درسوا علم الدين المسيحي حكاية هروب موسى ومأساة فرعون، وكان ذلك موضوع الحديث لمدة طويلة.

وفي اليوم التاسع والعشرين، علم عرب الطور (Thor) - بعد وصول زوارق المدفعية الفرنسية - بوصول السلطان الكبير في الضواحي، وجاءوا يطلبون حمايته. وتقع الطور على شاطئ البحر، وهي ميناء جبل سيناء. وهؤلاء العرب ينقلون الفحم والفواكه اللذيذة إلى القاهرة، ويأخذون منها كل ما يحتاجون إليه. وقد قدم رهبان سيناء إلى الجنرال العام الكتاب الذي يحمل توقيعات محمد وصلاح الدين وسليم، من أجل أن يوصي بحماية الدير. وبناء على طلبهم قام بتقديم نفس التعليمات للدوريات الفرنسية من أجل حمايتهم.

تاسعًا: وفي يوم 30 (ديسمبر) غادر ضباط الأركان السويس، واتجهت الخيام والأمتعة والحرس إلى عجرود حيث تمت إقامة المعسكر. وفي الساعة الرابعة بعد الظهر سافر نابليون ومعه الأكاديمي مونج وعدة جنرالات وضباط الأركان على طول البحر الأحمر، ودار حول الجيب، ورجع على أثر خطواته في اتجاه

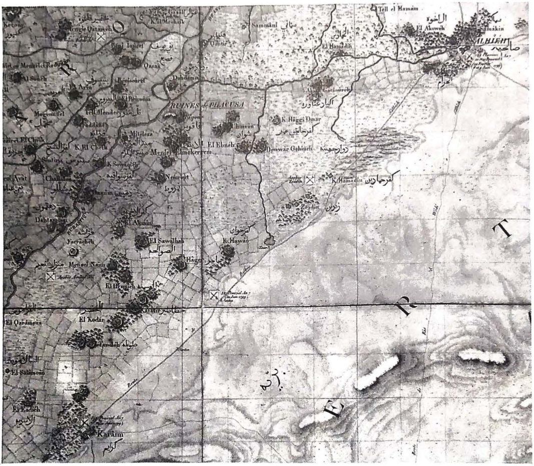
السويس عندما اكتشف - على بعد 400 أو 500 قامة من هذه المدينة - بعض البقايا من المباني التي أثارت انتباهه، فمشى في هذا الاتجاه موازيًا البحر لمسافة 60 أو 80 قامة، ووجد نفسه وسط آثار القناة القديمة، وتبعها على مدى خمس ساعات. ومع اقتراب الليل بقيت سبعة فراسخ ليصل إلى المعسكر عبر الصحراء، فأسرع للوصول إليه، وبعد لحق به، ولم يكن معه سوى ثلاثة أو أربعة أشخاص ركبوا الخيول المجهزة، وكان الباقون خلفه. وتم إشعال نار ضخمة على تل وعلى مئذنة مسجد قلعة عجرود، وكان يتم كل ثلاثة أرباع ساعة إطلاق مدفع حتى الساعة الحادية عشرة مساءً، وهي اللحظة التي وصل فيها الجميع ولم يتخلف أحد.

وظهرت بوضوح بقايا قناة البحرين، وكانت المسافة بين الضفتين 25 قامة. وكان مدفونًا وسط القناة رجل يركب حصانًا.

وفي يوم 31 (ديسمبر)، أقيم المعسكر في الوادي على بعد عشرة فراسخ من عجرود، حيث توجد النباتات الشوكية الصغيرة بوفرة غذاءً للجمال، وبها ترعى بضع مئات من الحيوانات الصغيرة دون حاجة للحراسة. وفي أول يناير 1799، أقيم معسكر على مرمى بنادق تحصينات بلبيس، حيث كانت أعمال التحصينات في بلبيس قد تقدمت كثيرًا. وبالنظر لعدم وجود أحجار فقد استخدم ضباط سلاح المهندسين القرميد المصنوع من طمي النيل المجفف في الشمس، وكان صالحًا للاستعمال. وفي يوم 3 يناير سافر القائد العام ومعه مائتا سنام وحصان في اتجاه وادي طملات. وفي الرابعة بعد الظهر، وصل وسط الصحراء عند بئر السبع بيار. كانت الحرارة شديدة وماء البئر غير وفير، ومذاقه كمذاق مياه باريج (Baréges). وفي أثناء توزيع تلك المياه الكريهة، شاهد أحد القناصة وصول سنام، أراد فيما بعد أن يبتعد عندما لاحظ الفرقة الفرنسية متأخرًا، فقد كان يحمل برقيات من إبراهيم بك والجزار باشا إلى مصر العليا. وأدلى بخبر أن العداءات قد بدأت على حدود سوريا، وأن جيش الجزار باشا قد دخل أرض مصر، وأن طليعته احتلت واحة العريش واهتمت بوضع القلعة في حالة دفاع. وفي الليل أقيم المعسكر في الواحة وسط غابة صغيرة، وكانت الليلة باردة. وعند سماع صياح ابن آوى، وهو نوع من ذئاب الصحراء، يشبه صياحه صياح البشر، اضطرت عدة زوارق حربية لأن تنادي بحمل السلاح، معتقدة أن هناك هجومًا من البدو.

وفي اليوم التالي عثر برتييه (Berthier) على آثار الترعة التي تعبر الوادي لتأخذ مياه النيل عند بوباسطة على الفرع البيلوزي، وبقايا هذه القناة لها نفس المقاييس من ناحية السويس.

وفي غضون ذلك الوقت، كان أسطول جدة قد وصل إلى السويس حاملاً كميات كبيرة من البن وبضائع من الهند، وعبر نابليون الصحراء وعاد إلى هذه المدينة. كانت السفن تحمل بين أربعمئة إلى خمسمئة طن. ووصلت قافلة من القاهرة، فدبت الحياة في السويس، وأخذت شكل مدينة هندية، استقبل فيها نابليون وكلاء عادوا من الهند.

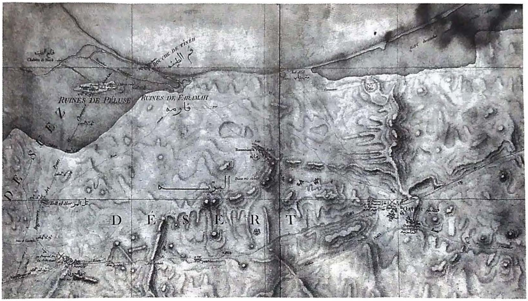


14 - الصالحية 8 و9 يونيو 1799، طريق بلبيس 10يونيو 99 ، كرايم 12 يونيو 1799.

خريطة (30)

ومن هناك اخترق الخليج في اتجاه آخر ورحل إلى الصالحية. وقد كانت التحصينات في مكان آمن من كل عدوان، وكان بالمخازن مؤن وفيرة من الشعير والأرز والفول وذخائر الحرب. وأرسل نابليون كتيبتين مع المدفعية إلى قطيه (Qatyeh). وكانت الآبار بحالة طيبة. وشيد ضباط سلاح المهندسين معقلاً جيدًا من سياخ جانبها 50 قامة، ووضعوا فيها منصات مدفعية. وقد أصابت المدفعية كل الآبار التي تم تطهيرها بعد أسابيع قليلة. وتم إعداد حصون صغيرة في القاهرة ركبت على منصات المدفعية تستخدم كمخازن. ومن القاهرة ومن دمياط جاءت قوافل من الجمال محملة بالأرز والدقيق والشعير والفول لتموين مخازن هذه الواحة. وعندما علم الجزار

أن قوات المشاة الفرنسية قد وصلت قطية (Qatyeh)، وأنه تم بناء متاريس فيها منصات مدفعية، قام بالتراجع عن مزيد من التقدم خشية توريط جنوده. وأرسل الجنرال رينيه - الذي كان مقره العام في بلبيس- طليعة قوية إلى الصالحية لتساند موقع القطية.



15- بير دودار 2 يونيو 1799، قطية 14 فبراير و5 يونيو 1799.
خريطة (34)

وبعد خمسة عشر يومًا من رحيله، وصل القائد العام إلى القاهرة ووجد كل شيء على ما يرام. وقد علم بتحرك الجزار للقاهرة، لكنه لم ينزعج، فقد كانت ثقته كاملة. وظهر الانجليز مع بعض سفن النقل وبعض الزوارق المسلحة من أمام الإسكندرية، ولكن لم يكن لها أثر أكثر من ذلك. وتم تدمير عدة مدافع زمارة بواسطة بطاريات الإسكندرية، وتم طرد مراد بك من الصعيد، ورفع العلم ثلاثي الألوان على شلال أسوان، فتمت السيطرة على كل البلاد، فكان مأوى المماليك الوحيد في مأساتهم هو الواحتين الصغيرة والكبيرة، وبلاد البرابرة.

وقد كان نابليون قد اتخذ قراره بإعلان الحرب على سوريا، وكانت الاستعدادات تتم بكل همة في كل المواقع.

وقبل أن يغادر مصر أراد الذهاب للمشاهدة عن قرب، وقياس الأهرامات الشهيرة، فعسكر فيها عدة أيام، وقام بسباق في الصحراء في اتجاه الواحة الصغيرة.

عرفت كل من مصر العليا والسفلى الهدوء، وكان الديوان في غاية الانشغال، ولم يعد أهل القاهرة يتذكرون من انتفاضتهم إلا ذكرى العفو الذي يدينون له بسلامتهم.

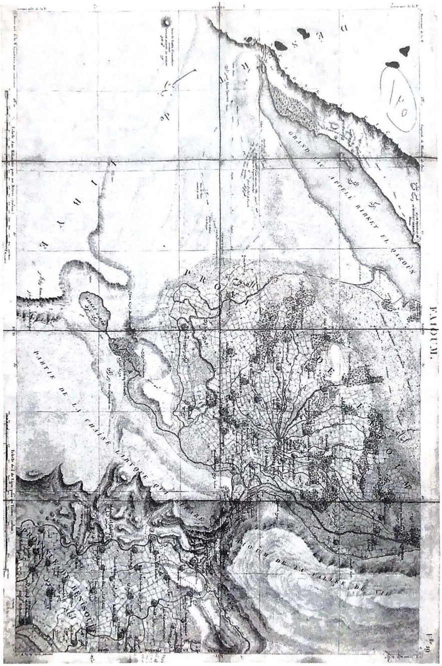
عاشرًا: لم يتحمل العرب نار المشاة الفرنسية قط، والمماليك - الذين كانوا في البداية يتحدونها - اعترفوا بعجزهم واستحالة تحطيمها. فقد علمتهم معارك شبراخيت والأهرام وسيدمنت ألا يستهينوا بقوات المشاة. فمنذ هذه الفترة استطاع مئة رجل من المشاة اجتياز البلاد في كل الاتجاهات، وسواء قابلهم سبعمئة أو ثمانمئة من المماليك فإنهم كانوا يمتنعون عن مهاجمتهم. ففي المعارك الثلاثة اصطفت المربعات الفرنسية على ارتفاع، وحمل كل جندي لمدة طويلة وتدًا طوله أربعة أقدام، ومحيطه بوصة، مزودًا بالحديد، وسلسلتين صغيرتين من ثماني بوصات من كل جانب، حيث كانت الأوتاد تستخدم لحماية المشاة. وقد تخلوا عن هذه الاستعدادات عندما فرضت تفوقها على الأعداء. ولم تعد المربعات تتشكل إلا على ثلاثة صفوف، وغالبًا ما يتخذ الجنود على ارتفاع اثنين. ويتلقى الضباط الأمر ببدء إطلاق النار من صفين عندما كانت الفروسية على 120 قامة، إذ لو هاجم عن قرب - كما كان يرى البعض- لكانت الخيول قد انطلقت حتى يصبح من الصعب إيقافها. ولو كان سلاح الفرسان جيدًا لا يستغرق إلا(*)، .. لقطع هذه المسافة، في هذه الفي أثناء لا يستطيع الجندي إطلاق إلا [...](*). يسير القناصة دائمًا ضد البدو والمماليك بأربعة، ويشكلون تجمعهم مربعات مما يربك الفرسان، وليس لأن هناك ما هو أكثر من أن يلقي أحد القناصة بثقة فارسًا أرضًا بطلقة بندقية، ولكن لا ينبغي اعتبار ذلك قاعدة.

ولم يكن يترقب العرب البتة سلاح الفروسية الفرنسي إلا في حالة أن يكون أربعة ضد واحد. وعلى العكس، كان المماليك يتظاهرون باحتقار هذا السلاح، ولكن عندما يركبون على خيول البلاد فإنها كانت تصمد أمامه. كان المملوك أقوى من الفرنسي، وكان أكثر منه مرانًا وأفضل تسليحًا. وكان المئة مملوك يحاربون باحتمال تفوقهم ضد مئة فارس فرنسي، ولكن إذا كان في المقابلة بين الفريقين عدد مائتي حصان، فإن النتيجة تكون في صالح الفرنسيين.

ويحارب المماليك دون ترتيب، ويشكلون زوبعة على الجناحين ليدوروا على الجوانب ويلقوا بأنفسهم خلف الخطوط. ويأخذ فريق من ثلاثمئة فرنسي مكانًا على ثلاثة خطوط، ويتجه فريق على يمين ويسار للصف الأول، ويتحرك فرسان العدو، ويلفون جوانب الصف الأول، يتوقف ليدور حول جوانب الخط الجديد، والثالث يؤدي نفس الحركة، وفي نفس الوقت يهاجم كل الخط وينهزم المماليك عندئذ ويتخلون عن المعركة. ويربط الفرسان الفرنسيون مسدساتهم كالمماليك في رمانة السرج بواسطة حزام، وتتدلى سيوفهم بالأيدي بواسطة علاقة السيف. وأحيانًا تكون نيران جندي من الخيالة فاعلة ولكن له عيوب عدة إذا لم تكن سرية الخيالة منفصلة عن العدو فتمنعه من الهجوم. وتتفوق المشاة والفروسية والمدفعية الفرنسية، ولا تسير المدفعية الفرنسية أبدًا كتلة دون أن تحميها

(*) [ناقص في المخطوط].

مدفعية فروسية. وقبل أن يقوم المماليك بالهجوم فإنهم كانوا يقومون بإطلاق النار من ستة أسلحة وبندقية وطبنجة وزوجين من المسدسات، يُحمل أحدها على درع السرج، والآخر على الصدر، أما الرمح فيحمله أحد الخدم (السايس) الذي يلحق به مشيًا على قدميه. لقد كانت ميليشيات المماليك شجاعة ورائعة.



16 – الفيوم.
خريطة (19)

الفصل السابع

غزو صعيد مصر

أولاً: خطة المعركة. ثانيًا: خضوع أقاليم بني سويف والفيوم، معركة سيدمنت (7 أكتوبر 1798)، حرب منية الفيوم (8 نوفمبر). ثالثًا: أسيوط وجرجا خضوع إقليمين من صعيد مصر، حرب السواقي (3 يناير 1799)، معركة طهطا (8 يناير). رابعًا: سيطرة ديزيه على أسوان، طرد المماليك من مصر، معركة سمهود (22 يناير)، معركة طيبة (12 فبراير)، معركة قنا (12 فبراير)، معركة أبو مناع (17 فبراير). خامسًا: سير مراد بك إلى القاهرة، معركة الصوامعة (5 مارس)، فقدان الأسطول الفرنسي الصغير (6 مارس) ، معركة قفط (8 مارس). سادسًا: محاصرة حسن بك في صحراء طيبة، معركة بئر البحر (2 أبريل)، معركة جرجا (6 أبريل). سابعًا: سلب وحريق بني عدي (18 أبريل)، معركة أسوان (16 مايو)، موت حسن بك. ثامنًا: احتلال القصير (29 مايو).

أولاً: لو كانت فرقة من الجيش الفرنسي غداة معركة الأهرام قد لحقت بمراد بك لما وجدت مقاومة في أي مكان، ولكانت قد احتلت كل صعيد مصر في خمسة عشر يومًا. ولكن كان لا بد من انتظار تجهيز سلاح الفروسية وارتفاع ماء النيل بالقدر الكافي لإمكانية الملاحة. وقد انتهز الأعداء هذه الفترة من الهدوء التي استمرت شهرين، وأفاق الأعداء من ذهولهم وضعف وقع تأثير المعركة، ووصلتهم مساعدات من قبائل مختلفة ووعود بالولاء من أقاليم متنوعة. ومنذ فقدان الأسطول الفرنسي وصلت الإعانات بواسطة البحرية الانجليزية أمام الإسكندرية، وجددت عندهم الأمل الدافع لكل مهمة وكل طاقة.

وفي سبتمبر 1798 كان مراد بك يملك جيشًا بريًا كبيرًا وأسطولاً عظيمًا. وعاد الرسل الذين كان قد أرسلهم إلى شبه الجزيرة العربية لاستنجاد المؤمنين واستعطاف الأشراف ذوي العمائم الخضراء، وقد نجحوا في مهمتهم وأخبروه بأن جماعات من عرب ينبُع المشهورين بشجاعتهم سوف يعبرون البحر الأحمر وينزلون من السفن في القصير.

وقبل ثمانية عشر سنة كان حسن بك منفيًا مع أهله إلى إسنا، ويعيش من دخله الهزيل في منطقة وادي النيل الأولى. وقد كان معدمًا إلا أنه اقترن بزيجات من قبيلتين من كبار عرب بلاد سنار(Sennar)، وحظي بثقة كبيرة عند قبائل عُزّل قرب مدينة طيبة وعند بدو صحراء الواحة الكبرى. وعلاوة على ذلك، فقد بقي مائتان وخمسون مملوكًا في حالةٍ تمكنهم من ركوب الخيل، وكانوا رجالاً ممتازين أضافوا إلى معرفتهم بالبلاد شجاعة مُجرَّبة، ونفوسًا شديدة البأس، وحيل المتقدمين في السن. ظل هذا العجوز حاقدًا، ولم يقلل من كراهيته احتلال الكفار

للقاهرة، ولا خضوع مراد بك وكان يرتاح لانتقام الفرنسيين وينتظر منهم تحسين وضعه لأنه يأمل في امتداد سيطرته على الصعيد كله.

غادر ديزيه القاهرة في 25 أغسطس، على رأس خمسة آلاف رجل، من بينهم ستمئة من سلاح الفرسان، وثلاثمئة من المدفعية، أو من النقابين، وأربعة آلاف وثلاثمئة من المشاة، وأسطول من ثماني سفن، ونصف قوادس، وسميريات، أو مراكب نصف شباك بقيادة ملاحين فرنسيين. وقد كانت عملية حربية هامة، وكانت في نفس الوقت رحلة علمية ذات أهمية كبرى؛ فلأول مرة منذ سقوط الامبراطورية الرومانية يهتم بلد متحضر بالعلوم والفنون فيجيء للزيارة والقياس والتنقيب في أطلال رائعة كانت قد شغلت اهتمام وفضول العالم العلمي منذ قرون عديدة.

ولم يكن هناك من هو أكثر كفاءة من ديزيه لإدارة مثل هذه العملية، ولا اشتعل أحد حماسًا بذلك أكثر منه، فقد كان مولعًا بالحرب في شبابه، تواقًا إلى المجد، ومدركًا لكل ما يتعلق بمجد اكتشاف مهد الفنون والعلوم. كان قلبه يخفق شوقًا عند سماع أسماء طيبة، وقفط، وفيله. وكان يرأس كلاً من الجنرالين فريان (Friant)، وبليار (Belliard)، والرائد المساعد دونزيلو (Donzelot)، وعقيد المدفعية لاتورنيري (La Tournerie). والوحدة 21 الخفيفة، والوحدتين 61 و88، وهي كتائب ممتازة أبحرت من سفيتافيكيا، وكانت تضم عددًا كبيرًا من الجيش، وأقامت في نفس المعسكر جنوب الجيزة قبل شهرين، وكان ديزيه قد أعدهم لهذه المعركة. وامتطى الفرسان خيولاً عربية جيدة مثل خيول المماليك، جاءت من إمداد الجيش بالخيل ومن الغنائم، غير أنها لم تكن كثيرة العدد. وقد تم إمداد الجيش بصعوبة لأن البلاد لم تكن قد خضعت بعد.

وكان العلماء والفنانون يودون مرافقة ديزيه، لكن كان هناك خطر مزدوج، فمن جانب قد يتعرض لمخاطر الحرب رجال ذوو أهمية كبرى، وقد يصبحون سببًا لتأخير العمليات الحربية. وقد حصل دينون (Denon) كمتطوع وحده على الإذن باللحاق بمقر عام الفرقة.

وقد أمضى ديزيه خمسة أشهر في غزو مصر العليا في سبتمبر، وأكتوبر، ونوفمبر وديسمبر عام 1798، ويناير عام 1799. وفي يوم 2 فبراير سيطر على أسوان، ثم كرس خمسة أشهر أخرى للقضاء على الانتفاضات وتوطيد غزواته. وتنقسم حملته إلى ثماني عمليات؛ استمرت الأولى مئة يوم. وكانت معركة سيدمنت أهم عملية حربية، وكانت النتيجة غزو إقليم بني سويف والفيوم. واستغرقت المعركة الثانية خمسين يومًا من ديسمبر ويناير، واقتصرت العمليات الحربية على السواقي وطهطا واستولى على أقاليم المنيا وأسيوط وجرجا. والعملية الثالثة استمرت ثلاثين يومًا من يناير وفبراير 1799، وأهم أحداثها معركة سمهود. وتم طرد المماليك من الوادي وفقدوا كل ما عندهم، ولجأوا إلى الواحات في بلاد البربر من وراء الشلالات، وفي صحاري طيبة، ورفرف العلم ثلاثي الألوان على كل مصر. وقد استغرقت هذه العملية العسكرية أربعين يومًا من فبراير ومارس 1799، وقام مراد

بك، والألفي بك، وحسن بك، وحسن من "ينبع" بانتهاز [فرصة] زحف الجيش إلى سوريا، فدخلوا الوادي وساروا إلى القاهرة بهدف التجمع هناك، والقيام على الفور بإعادة الاستيلاء ثانية على مصر العليا والسفلى. إلا أنهم فشلوا في محاولتهم، وكان القضاء على جزء من الأسطول الفرنسي في مصر العليا، ومعركة قفط أحداثًا حربية هامة. وفي المرحلة الخامسة، أغارت فلول أشراف ينبع على إقليمي أسيوط وجرجا وتم ملاحقتهم. وأما العملية السادسة فقد استمرت في شهري مايو ويونيو، ومكّنت من السيطرة الكاملة على مصر العليا. وقد أصبح مراد بك والألفي من دون مرافقين لهما، فأخذا يهيمان على وجهيهما في الصحراء. وقضت معركة بني عدي على هذه المدينة الجميلة، واحتل الجنرال بليار القُصير، وعاد جيش سوريا إلى القاهرة، وأصبحت مصر العليا والسفلى كلها هادئة تمامًا.

وقد أصدر نابليون الأمر للجنرال ديزيه بالسير على إثر مراد بك لقتاله وانتهاز الفرصة لهزيمته واقتفاء أثره وتضييق الخناق عليه، ودفعه وراء الشلالات وفي الواحات. وكان [ديزيه] كلما تقدم في الأماكن الهامة يقوم بعمل تحصينات للمساجد التي تطل على النيل لحماية الملاحة. وكلما حدثت ثورة ثانوية - كما هو متوقع بعد انتصار الزحف - كان عليه قمعها في معارك خاصة تؤدي لاستسلام البلدة. ولكن في البداية كان يجب [احتلال كل قرى الوادي]، لتكون جاهزة بعد قليل لمساندته فيستخدمها احتياطيًا لتعويض الخسائر. وكانت فرقة الفرسان – المكونة من ألف ومائتي حصان - مشغولة باسترداد قوتها، وكذلك كان ألف وخمسمئة رجل من المشاة من الكتائب الثلاث التي ظلت بالقاهرة، وثماني مراكب أعدها مهندسو البحرية لتلك الحملة، على استعداد بعد قليل لمساندته وتكون احتياطية وتعوض خسائره.

ثانيًا: في الثلاثين من أغسطس وصل ديزيه إلى بني سويف، ولم يصادف أية مقاومة من المماليك، الذين كانوا يتركزون في الفيوم وكان عددهم 18000 (ثمانية عشر ألف) رجل من سلاح المشاة والفرسان، ومعهم أسطول صغير يتكون من مئة وثمانين سفينة، منها اثنتا عشر مجهزة بمدافع. وقد رسا الأسطول في ترعة بحر يوسف، وكان ديزيه يستطيع الزحف من بني سويف إلى الفيوم على بعد أربعة فراسخ على يمينه، ليحارب مراد بك، غير أنه فكر فيما لو استمر في صعود النيل فسوف يصل إلى ديروط الشريف، وهي بلدة صغيرة عند مدخل ترعة بحر يوسف، فيقابل أسطول العدو فيعترض سبيله في الترعة. وعند نزول الترعة مع جيشه وسفنه، فلقد يحصل بانتصاره الوحيد على الفيوم وثروات البكوات التي تحملها سفنهم، فتكون الضربة حاسمة، إلا إذا استبقه مراد بك وأسطوله وجيشه إلى أسيوط لتجنب هذه الكارثة، ولكن عندئذ يكون قد تم إخلاء الفيوم التي قد تسقط من نفسها ولا

تؤخر مسيرته. وبناء على هذه الخطة استمر ديزيه في صعود النيل ووصل إلى أبو جرجيوم 4 سبتمبر. وبعد أن أدرك مراد بك خطة عدوه، طلب من أسطوله صعود ترعة بحر يوسف والدخول في النيل عند ديروط الشريف، وأصدر الأمر برسو الأسطول أمام أسيوط. ولكنه ظل لا يتحرك في الفيوم مع جيشه، مسيطرًا على الضفة اليسرى من ترعة بحر يوسف، ونشر على طولها ميمنته، وهكذا كان على اتصال بأسيوط، ووجد متوازيًا من خلفه الواحة الصغيرة. وفي مساء 5 سبتمبر وصلت أخبار تحرك الأسطول إلى ديزيه في أبو جرج، وفي اليوم السادس رحل عند الفجر مع كتيبة الوحدة 21 الخفيفة، وسار على يمينها وقطع ثمانية فراسخ، ووصل إلى البهنسا، وعبر ترعة بحر يوسف، لكنه وصل متأخرًا. وكانت سفن الأعداء قد عبرت، ما عدا اثني عشر مركبًا محملة بالأمتعة التي استولى عليها بعد تبادل خفيف لإطلاق النار، وكان على أحد هذه المراكب سبع قطع مدفعية. وفي اليوم السابع دخل [ديزيه] إلى أبو جرج وأقام فيها عدة أيام. وتصوّر بما أن مراد بك عمل على إجلاء أسطوله، فسوف يتجه إلى مصر العليا عن طريق الصحراء. وقرر [ديزيه] أن يكمل سيره عابرًا النيل ومتجهًا مباشرة إلى أسيوط، حيث وصل يوم 14 سبتمبر. وعندما اقترب لتجنب الاشتباك، استمر أسطول العدو على النيل حتى جرجا. وظل مراد بك هادئًا في الفيوم، ولكن عندما وجد أن الفرنسيين على بعد ستين فرسخًا من أمامه، قام بقطع الاتصالات مع القاهرة، وأثار تمرد إقليمي المنيا وأسيوط، ما جعل موقف ديزيه حرجًا؛ فهو لا يستطيع المناورة على جناحي العدو الذي أبقى على اتصاله مع مصر العليا عن طريق الصحراء، فضلاً عن أن الواحة كانت من خلفه. فما العمل في هذه الحالة؟ أهو التصميم على مشروعه؟ كان يخاطر بكل شيء، لذلك فمنالحكمة الخضوع والانصياغ أمام ترتيبات عدوه، وهو ما فعله، فتراجع [ديزيه] إلى ديروط الشريف، ودخل في ترعة بحر يوسف، ونزل إلى الفيوم. ونزل أسطول العدو من جديد إلى ديروط الشريف، وإلى أبو جرج حتى أمام بني سويف، واستقبله أهالي البلدة بصيحات المنتصر، وحين تراجع الفرنسيون ظنوا أنهم قد انهزموا! ومع ذلك تحمل الجيش الفرنسي أكبر المصاعب؛ حيث غرزت السفن في الرمال وتوقفت في كل خطوة. وتغلب الجيش على كل الصعاب، وفي يوم 3 أكتوبر وصل إلى اللاهون عند مدخل الفيوم، وسيطر على الجسر من الحجر فوق الترعة، مما أتاح له المناورة على الضفتين. وبعد شهرين من الإرهاق قطع خلالها مائتي فرسخ من الأراضي، وجد الجيش نفسه لم يتقدم إلا قليلاً كالأيام الأولى.



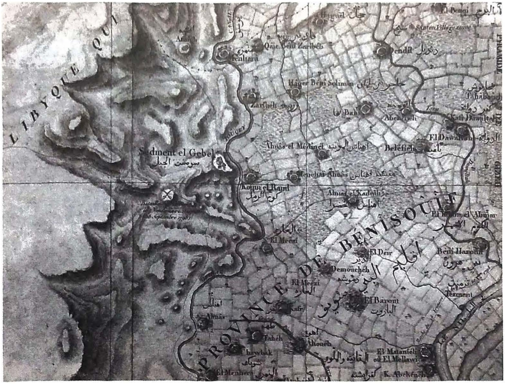
17 - ديروط الشريف - بحر يوسف - معسكر كريم.
خريطة (13)

وبعد عدة مناوشات خفيفة، وبعض السير والرجوع على الأعقاب، نفذ صبر ديزيه، فزحف مباشرة في اتجاه مراد بك الذي كان لديه نفس العزيمة. وتمت المواجهة بين الجيشين، واعتلى جيش المماليك كل مرتفعات سيدمنت وسط الصحراء على بعد فرسخ من ترعة بحر يوسف. كان الجيش يتألف من 2000 من المماليك بسيوفهم الرهيبة، و800 عربي من الفرسان والمشاة، وأربعة مدافع. وكان جيش الفرنسيين يتألف 3400 رجل من سلاح المشاة، و600 من سلاح الفرسان، وثمانية مدافع، والمجموع 4500 (أربعة آلاف وخمسمئة) رجل. وقد شكل ديزيه مربعًا واحدًا من المشاة والفرسان، وأقام مربعًا صغيرًا من ثلاث فرق من جنود المشاة للتدخل السريع. وابتعد مربع المشاة الصغير برعونة، وانتهز مراد بك الظرف المناسب وهاجمه، وأحاط الجيش الفرنسي بخمسة آلاف أو ستة آلاف حصان على الفور. وكان الكابتن فاليت (Valette)، قائد المربع الصغير، ضابطًا جسورًا،

فأمر جنود المشاة بالتدخل السريع وإطلاق النار عن كثب. ونفذوا هذا الأمر المتهور برباطة جأش. وقد قُتل أربعون من شجعان المماليك بأسنة الحراب، ولكن الخيول اندفعت وتم اختراق المربع وقتل الجنود بحد السيف،

وكان من الممكن قتلهم جميعًا لو لم يقترب المربع الكبير لحمايتهم. وقد ردعت الشظايا ونيران البنادق المماليك واضطرتهم للابتعاد عن القذائف الكروية. ومع ذلك تقدمت مدفعية العدو بمساندة المشاة واتخذت موقعًا أزعج الفرنسيين. وللتخلص من هذا الوضع لجأوا إلى المدافع مباشرة، مما اضطر مشاة العرب إلى التراجع بعد تبادل طلقات نارية حامية ولكن قصيرة، وتم الاستيلاء على المدافع. وقد انزعج مراد بك وذهب سريعًا ليأخذ مدفعه من جديد، وتم صده مرة ثانية، وفرَّ العرب إلى الصحراء وانتصر الفرنسيون في المعركة. ولكن خسائر ديزيه كانت فادحة، أربعمئة بين قتيل وجريح وأسير، وذلك بنسبة واحد إلى تسعة. وفقد المماليك خمسمئة رجل من المميزين، بينهم ثلاث بكوات، وعدد من الكشافين، وفقد العرب نفس العدد. وبعد أن خاب أملهم، ترك عرب البدو مراد بك الذي لجأ خلف ترعة جراح (Garâh) بدافع اللجوء إلى الواحة الصغيرة إذا تمت مطاردته. وتوقف ديزيه في قرية سيدمنت واستولى على جزء من عتاد العدو، وتراجع في اليوم التالي إلى الفيوم، وبعد أيام قليلة استسلم أهل هذا الإقليم. وقد يأس مراد بك من خيبة آماله، وعندما نجح الهجوم على المربع الصغير، اعتقد للحظة عودة الحظ، وكان أملاً زائفا! ولقد هجره الحظ الغادر الى الا بد.

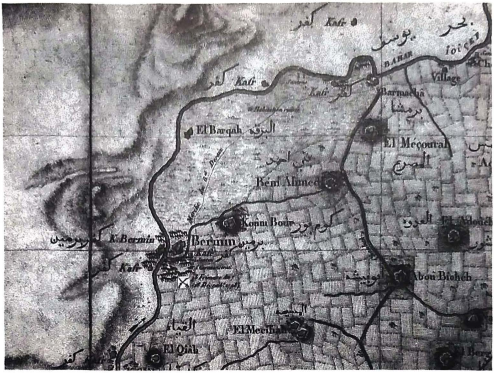
قضى ديزيه كل شهر أكتوبر في تنظيم إدارة الفيوم، وشحن للقاهرة عددًا كبيرًا من المراكب المحملة بالقمح والخضراوات والأعشاب، وتسلم بدلاً منها ذخائر حربية وملابس. وكان لديه كثير من مرضى التهاب العين (الرمد)، فقام بتسريح كل المرضى إلى مستشفى إبراهيم بك. وقد حصلت هذه الكتائب من الفصائل في الراحة على نفس العدد من الرجال الأصحاء، غير أنه لم يلاحق المماليك وتركهم يتنفسون. وبعد أن أفاقوا من ذهولهم، اتجهوا إلى البهنسا على ترعة بحر يوسف، وكان على اليسار أسطولهم الذي كان يرسو في أبو جرج، وبذلك أصبحوا يسيطرون على مصر العليا من بني سويف وكل ترعة بحر يوسف من البهنسا. واحتل ديزيه على اليسار بني سويف، وعن يمينه الفيوم.



18- معركة سيدمنت، 26 سبتمبر1798.
خريطة (19)



19- بني عدي 17 سبتمبر، بني سند 24 أكتوبر، أسيوط 25 ديسمبر 1798
خريطة (12)



20- كفربرنيم 18 ديسمبر 1798
خريطة (16)



21- الغنايم 26 مارس 1798
خريطة (12)



-22 جرجا بالصفورة 28 ديسمبر 1798، والسواقي 3 يناير 1799.

خريطة (11)



23- نزلة طهطا 8 يناير 1799.

خريطة (11)

وفي نهاية شهر أكتوبر 1798، وصل الخبر إلى مصر العليا أن الباب العالي قد أعلن الحرب على فرنسا، وأن الجزار- سر عسكر- يتجه إلى القاهرة، وأن هذه المدينة الكبيرة قد ثارت، وأن كل الفرنسيين قد قتلوا. فاهتاجت النفوس، وكان مراد بك ماهرًا يستطيع أن يستغل كل شيء، فأرسل إلى العديد من المراكز بعض المماليك لإثارة أكبر جزء من الفيوم. وغادر ديزيه هذه العاصمة واتجه إلى القرى التي رفعت راية العصيان، وقابل في أثناء مسيرته المتمردين الذين حددوا من جانبهم مواعيد لقاءات في عدة مراكز في المنيا. وفي 8 نوفمبر استولوا على أول مساكن المدينة، وكانت هناك كتيبة من ثلاثمئة فرنسي، ومئة وخمسين مريضًا. كان الجنرال إبلير (Eppeler) قائد الميدان، وكان الجنرال روبان (Robin) في المستشفى. وقد كان من عادة المريض من جيش الشرق الاحتفاظ بسلاحه قرب سريره، وفي ذلك الوقت كان عدد كبير منهم مصابًا بالتهاب العين (الرمد) المتقدم لدرجة عدم قدرتهم على القتال. وقد احتل الأعداء المدينة دون مقاومة كبيرة، وانصرفوا إلى النهب، وتفرقوا دون نظام. وانتهز الجنرال روبان (Robin) الفرصة، فتجمع أولاً حوله كل من في المستشفى، ومن هناك خرج على العدو بهجوم من صفين، وقتل مائتين أو ثلاثمئة، واستولى الرعب على الباقين الذين لاذوا بالفرار. وانضم السكان إلى الفرنسيين للانتقام، ولما علم ديزيه أنه كان قد تقابل مع المتمردين رجع أدراجه وسار طوال الليل

على أثرهم، وكان منزعجًا بشدة بشأن موضوع مستشفى المنيا، ووصل إليها في اليوم التالي عند الفجر، وعلم بحسن تصرف الحامية والمرضى وما حققوه من نصر.

ومع ذلك، كان القائد العام مستاءً من تباطؤهم، وقال مخاطبا ديزيه: "هكذا تركت القاهرة منذ ما يقرب من ثلاثة أشهر وما زلت في الفيوم"

. ولم يكن لدي ديزيه من رجال سلاح الفرسان ما فيه الكفاية. وقد تقدم له معارك مثل معركة سيدمنت كنتيجة الضياع الكامل إذا انهزم، أما إذا انتصر فلم يكن يستطيع الاستفادة. كان وصول إمداد ألف ومائتي حصان مجهز، قد سافر أخيرًا من القاهرة مع بطارية مدفعية خفيفة، وست سفن حربية (bastingué) وشديدة التسليح، كل ذلك تحت قيادة الجنرال دافو (Davout)، ذلك الضابط الممتاز، ومنذ ذلك الوقت عُيّن فريقًا (maréchal)، وأمير إكمول (Eckmühl). وكان من بين السفن المسلحة السفينة إيطاليا (*L'Italie*)، والتي كانت تضم عدة قاعات مفروشة بالحرير من مدينة ليون لاستعمال المقر العام.

ثالثًا: عندما وصلت هذه الإمدادات أخذ ديزيه طريق الضفة اليمنى من ترعة بحر يوسف التي كانت تشبه في هذا الوقت أجمل أجزاء مجرى نهر السين. وكانت الأراضي تغطيها الفواكه، وتم بذر البازلاء والفول، وازدهرت أشجار البرتقال. كان منظر البلدة بين الترعة والنيل من أجمل ما يمكن رؤيته. وهناك العديد من القرى التي يتكشّف في مرمى العين ثلاثون أو أربعون [قرية] منها. وقد رفض مراد أن يخوض الحرب، ووصل في البداية إلى أسيوط، واتبع الفرنسيون أثره بكل همة، ووصلوا إلى المنيا في 20 ديسمبر، وتقع هذه المدينة على الضفة الغربية للنيل، وهي مدينة كبيرة ورائعة. وقد أخذوا منها أربع مراكب كانت قد غرزت فيها، أحدها تحمل مدفعًا عيار 12، ومدفع هاون، وخمسة عشر مدفعًا من حديد. وقضوا ليلة اليوم التالي في ملوي العريش، وهي مدينة أجمل من المنيا، يسكنها عشرة آلاف نسمة. وقد زارها تجار العاديات عند مرورهم بخرائب هيرموبوليس(Hermopolis) [الأشمونين]. وقد دخل ديزيه أسيوط في 24 ديسمبر، وفي يوم 29 دخل جرجا عاصمة الصعيد.

وإقليم أسيوط إقليم غني، يوجد به صهاريج من مبانٍ متينة وأنيقة تستخدم لتزويد الأهالي والخيول بالماء، كما يوجد هويس رائع هو الوحيد في مصر التي تحتاج إلى ألف من مثله. وقرية بني عدي آهلة بالسكان، وتقيم فيها قوافل دارفور، وسكانها متكبرون ومتحمسون، ويبدون للعدو في هيئة شخصيات متوعدة. كانت إمارة تنذر بالانتفاضة التي ستكون بعد بضع شهور سببًا لانهيارهم، ولم يتنبه التعساء إلى أنهم سيكونون عمّا قليل تحت رحمة نفس الجنود الذين يقابلونهم بكل وقاحة ودون ترحيب.



24 - ملوي العريش .
خريطة (48)

وتقع جرجا على نفس المسافة بين القاهرة وأسوان، وهي أصغر من أسيوط، ولكن أكبر من المنيا. ويسود في البلدة رخاء كبير، برغم إقامة واستهلاك الجيش، فيباع نصف كيلو الخبز فيها بمليم، وتباع الاثنتا عشرة بيضة بمليمين، والحمامتان بمليم، والبطة التي تزن ستة كيلوات بعشرة ملاليم.

ولقد كان مراد بك دائم الهروب، فكان فريسة للاكتئاب الأليم، وفي كل مرة يُقبض فيها على أحد الخقافين (جندي مشاة للتدخل السريع) كان يصيح:

"ماذا!، ها هم مَن انتصروا عليّ! ألا أستطيع أن أهزم هؤلاء الرجال الصغار؟"

وعندما كان يمر على موقع انتصير فيه [...] كان يتوقف على بعد فراسخ من جرجا ساعة ويبكي -كما يقال- على تقلبات ثروته الحالية. وفي نفس هذا المكان، في عام 1788، وعلى رأس خمسة آلاف مملوك، هزم حسن، قبودان باشا الباب العالي، الذي كان يقود ستة عشر ألف رجل من أفضل الجنود العثمانيين، يساندهم ألفان من المماليك من رجال حسن بك. وبفضل ذكائه ونظرته الثاقبة وجرأته، حقق مراد بك الفوز التام، وعاد بعد قليل منتصرًا إلى مصر. واليوم إذ يندفع إلى أقاصي الأراضي الآهلة، فلن يجد في القريب العاجل ملجأ إلا الصحراء مثل البدوي التعس، حيث الحياة المريعة! وقد تمنى الموت دون جدوى، على أن ساعته لم تحن بعد!

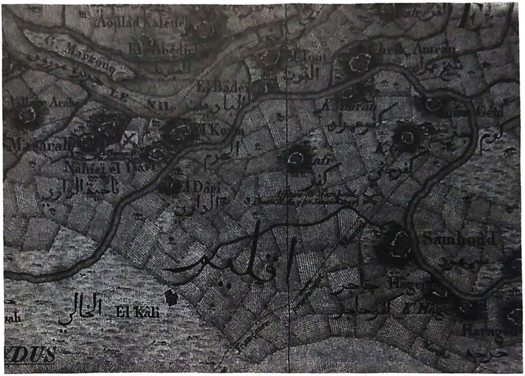
ولكن الرياح العكسية حجزت الأسطول على بعد عشرين فرسخًا من القوات خلفهم، وكان مكشوفًا، وكان يمكن إشعال الحريق فيه، وقد يسبب الفشل زحف ديزيه أو يؤخره لمدة طويلة. وقد كلف مراد بك بهذه العملية عثمان الذي غيَّر اتجاه سيره مع ثلاثمئة مملوك واتجه إلى الصحراء خلف الجيش الفرنسي، وقطع الاتصال بين أسيوط وجرجا، وأثار الأهالي واستنفرهم بأمل العثور على ثروات هائلة في هذه السفن. ونجح في قطع الاتصالات من جرجا مع الأسطول.

وقد أدخلت هذه الأخبار ديزيه في قلق شديد، فإذا فقد الأسطول فكان لا بد من العودة إلى القاهرة والجلاء عن كل الصعيد. وفكر إذا ترك جرجا لينزل بنفسه النيل ليقود معسكره تحت حماية مدافع سفنه. وقد تُضاعف حركة هذا التقهقر الانتفاضة التي قد يلحق بها مراد بك. فاتخذ [ديزيه] قرارًا أكثر حكمة بالبقاء في جرجا مع سلاح المشاة وإرسال الجنرال دافو مع ألف ومائتي فرس وستة مدافع لإعادة الاتصالات.

وفي 3 يناير وصل دافو عند أبواب قرية السواقي (Saouàqy)، حيث تم تشكيل أول تجمع من المتمردين (الثوار). وقام عدة آلاف من الرجال المسلحين بالدفاع عن طرق القرية التي أقيمت عليها المتاريس. وبعد المعركة -التي استمرت ساعة- اخترق الفرسان الفرنسيون خط الأعداء، وألقوا عددًا كبيرًا منهم في النيل، وقتلوا ثلاثمئة رجل من بينهم. وتم هدم المتاريس، ونزع سلاح الأهالي، كما تم إخضاع كل القرى المجاورة. ومن هناك اتجه [ديزيه] إلى قرية طهطا الضخمة، ووصلها في 8 يناير. وبعد بعض التدابير الأولية اخترق المتاريس، وألقى ببعض المدافعين في النهر، وقتل عددًا كبيرًا منهم. وفي نفس الوقت هاجمته مفرزة انقضاض من ألف من العرب والمماليك، فاستدار للوراء وهزمهم، واحتاج عدة أيام لنزع السلاح واستسلام كل قرى المنطقة، وإعادة إقامة الاتصالات مع الأسطول الذي انتهز رياحًا شمالية معتدلة يوم 17 يناير، ورسا في جرجا على يسار المعسكر. وتخلص ديزيه من القلق بفضل التقاء الجيشين، وأصبح قادرًا على مواصلة غزوته. ولكن هذا التأخير أضاع عليه ثمانية عشر يومًا، وضياع الوقت في أثناء الحرب خسارة لا تعوض.

رابعًا: علم مراد بك بهزيمة قواته، ولكنه تلقى في نفس الوقت خبر صلحه مع حسن بك، ووصول أشراف ينبع. وخضع حسن بك - أخيرًا- لتأثير أسيرة يونانية كان يعشقها، ووافق على أن ينسى الماضي ويضع داره وقواته من أجل محاربة الأعداء باسم الإسلام. وانضم إلى مراد بك ثلاثة آلاف رجل، من بينهم مائتان وخمسون مملوكًا. وقد كان هذا الشيخ يتمتع بثقة كبيرة في كل مصر العليا، وكان له تأثير عظيم في نفوس كل المنطقة. ووصل ألفان من أشراف ينبع بقيادة حسن، وكان معروفًا بكونه درويشًا محاربًا جسورًا أمام العدو، وكانت خطورته تتمثل في قدرته على إثارة حماس جنوده وأتباعه عندما يخاطبهم من أعلى منابر المساجد. وقد اشتهر أشراف ينبع بأنهم من أشجع جنود الفرسان في الجزيرة العربية. كان سلاحهم الغدارة (بندقية قصيرة للفرسان)، وزوجًا من المسدسات ورمحًا، وكانوا يضعون على رؤوسهم عمائم خضراء مثل قبيلة أتباع سلالة النبي. وكانوا يتعطشون لسفك الدماء وللنهب. وقد اعتبر مراد بك أن هزائمه السابقة ترجع إلى الحاجة إلى قيادة سليمة من المشاة تكون قُدوة، وقد اعتقد أخيرًا في أنه لا بد لتحقيق النصر من جمع ألفين آخرين من أشراف ينبع، ينتظرون السفن لعبور البحر الأحمر.

وقد وجد مراد بك نفسه على رأس ما بين 12000 إلى14000 رجل، وفكر في مشروع جريء وجديد؛ حيث كان يريد الذهاب إلى جرجا عندما يغادرها ديزيه، ليساند المتمردين ويحصنها، فيأخذ مكانه خلف ديزيه الذي سوف يضطر للرجوع على أعقابه فيدخل معركة في وسط المنازل يأمل مراد بك أن تحقق له نهاية سعيدة. ولهذا الغرض ظل في الصحراء على الشاطئ الشمالي من ترعة الصعيد. وقد غادر ديزيه جرجا يوم 20، وسار بين النيل والترعة، ولكن فجر يوم 22 (يناير) تقابل الجيشان عند مستوى سمهود سيرًا في اتجاه معاكس. كانت الترعة تفصل بين الجيشين وكانت جافة. وكانت قوة الجيش الفرنسي تتألف من خمسة آلاف رجل من سلاح المشاة والفرسان، وأربعة عشر مدفعًا، وكان على النيل أسطول كبير مسلح. وكان الجيش المصري مكونًا من ألف وثمانمئة مملوك، وسبعمئة فارس من العرب، وألفي شريف على الأقدام من ينبع، وثلاثة آلاف عربي على الأقدام دون مدفعية، وكان المجموع ما بين ثلاثة عشر ألفًا إلى أربعة عشر ألف رجل. وبدأ الجيشان القتال بمجرد أن تعارفا. شكل الجيش الأول ثلاثة مربعات، اثنين من المشاة على الأجنحة، ومربع من الفرسان في الوسط، والميسرة بجانب النيل تحت قيادة الجنرال بليار (Belliard)، والميمنة على يسار الترعة تحت قيادة الجنرال دافو. واتخذ المماليك نظام معركة معاكس، فسلاح الفرسان على الأجنحة، والمشاة في الوسط. وشكّل مراد بك مع المماليك الميمنة جانب النيل، والمشاة في الوسط في مواجهة سمهود. وشكل العرب الميسرة، وأخذوا أماكنهم في الصحراء. وقد وضع الفرنسيون ثقتهم في المشاة، ووضع المماليك ثقتهم في الفرسان.



25- ناحية الداري 21 يناير 1799، سمهود 22 يناير 1799.

خريطة (10)

وقد كان أشراف ينبع على أحر من الجمر، أما الشيخ حسن رئيسهم، ومعه ألف وخمسمئة شريف، وألف عربي على الأقدام، فقد ألقى بنفسه في وهدة (واد صغير) أمام المدينة، فهاجمه العقيد الجسور راب (Rapp) ومعه فرقة من جنود المشاة من الوحدة (21) الخفيفة، وخمسون فرسًا. ودفع في مجرى السيل ألفًا من الأشراف، لكنه جُرح، وتم طرد فصيلة الخيالة وأطلق الأشراف صيحات النصر. فوضع العقيد لاتورنيري (La Tournerie) مدفعين خفيفين في متناول الشظايا ترمي مجرى السيل، وفي نفس الوقت اندفعت كتيبة فرنسية بالحراب على الأشراف وقتلت عددًا كبيرًا منهم، فأخلى الباقون مجرى السيل بغير نظام، ولاذ مئة منهم بالمسجد وتم ذبحهم فيه. احتار مراد بك وظل يشاهد معركة المشاة، ولكن بعد قليل حصدت القذائف وكرات المدافع الموت بين صفوفه، ولم يكن لديه مدفعية ليرد العداء، وقال الشيخ حسن بك: "الماذا التشاور؟ ... من كان ذا نخوة يتبعني!"، واندفع إلى ميسرة الجيش الفرنسي، وأحاط بمربع الجنرال بليار، ودار حوله عدة مرات في مواجهة نيران الشظايا ورشق البندقيات المرعبة. ووجد حسن بك نفسه -لأول مرة - في معركة ضد الأوروبيين، وأدرك حينئذ أن الشجاعة أحد عناصر الانتصار. وقد اضطر لأن يبتعد عن متناول المدافع [حين] تقدمت البطاريات أمام سمهود، ودخلت إليها

ثلاث فرق من المشاة الخفيفة بالهجوم بسرعة، وفر الأشراف الباسلون مسرعين عندما أصابتهم أولى كرات المدافع، فابتعد العرب بددًا في الصحراء. عندئذ تزعزع دافو مع الفروسية وثلاثة مدافع خفيفة، وهجم على مراد بك وجره حتى قرب فرشوط. وقبل أن يصل إليها حسن ينبع أرغى وأزبد من الغضب، وتحصَّن في قرية، واضطر دافو لانتظار المشاة الذين غزوا القرية بالهجوم. لم يكن هناك لحظة شك في هذا اليوم، فقد بقي في ساحة القتال ثلاثمئة رجل من صفوة المماليك، وأربعمئة شريف من ينبع من بين أكثرهم شجاعة، ومائتان من العرب.



26 - ارمنت وطيبة 16 يناير 1799، طيبة 12 فبراير 1799
خريطة (5)

وكان شيخ بلدة فرشوط آخر أحفاد الأمير همام الذي كان يعتبر رئيس قبيلة من عرب المغاربة، والذي انتقل من تونس إلى فرشوط في القرن السادس عشر. وقد ازدهر فيها وبالتدريج أقام في جزء من الصعيد. كان اسم هذه القبيلة "الهوارية"، وسيطر شيخها كسلطان على كل البلاد من أسيوط حتى أسوان. وكان يسدد مائتين وخمسين

ألف إردب من القمح إلى باشا القاهرة وإلى البكوات. ولا يزال أمراء أهل البيت محبوبين، هؤلاء الذين حكموا بالتعاقب خلال مئة وخمسين عامًا، ولم تزل ذكراهم عزيزة في هذا البلد. وفي عام 1768 هاجم "علي بك" الأمير همام الذي راح لمقابلته مع خمسة وعشرين ألف فارس، وخسر همام المعركة قرب أسيوط، وتوفي في العام التالي في إسنا. وحصل أولاده على السلام والحياة بالتضحية بأكبر قدر من ثرواتهم، وكان آخرهم شيخ بلدة فرشوط. وكان قد اختفى عند اقتراب المماليك، فطلب مراد بك البحث عنه، وأحضروه إليه أخيرًا. وأثار شيخ البلدة والذي لم يستطع كتمان مشاعر الفرحة غضب المنتصر مراد بك عندما رأى هزيمة وسقوط أعداء أهله، ومن شدة غضبه أهوى مراد بك بالسيف على رأس آخر أبناء هذه السلالة العريقة. وبعد قليل من وصولهم رأى الفرنسيون أنه من الواجب تقديم مراسم العزاء.



27- قنا 12 فبراير، قفط، ودندره.

خريطة (48)



28 - أجفون 27 يناير، وإسنا 27 يناير، و25 فبراير 1799 ، الهلة 27 أبريل 1799.

خريطة (4)

استمر مراد بك في تقهقره صاعدًا النيل، أما حسن ينبع فقد عبر النهر متجهًا إلى قنا لينتظر هناك فرق الأشراف التي تم إنزالها في القصير. وقضى الجيش الفرنسي ليلة 22 يناير في "هُو" (Hoû)، ووصل يوم 23 إلى دندرة، وأقام معسكره في وسط هذه الأطلال الرائعة. وفي يوم 24، بعد أن تجاوز قمة السلسلة الليبية التي تمتد في وادي النيل، لاحظ أمامه الآثار الشهيرة لمدينة طيبة ذات المئة باب. وقد أثرت العظمة التي تميزها في

كل النفوس، فاستمروا يتأملونها لعدة ساعات. وقضى الجيش ليلة 25 يناير في مضيق بين الجبلين، ووصل يوم 26 إلى إسنا. كان المماليك قد هربوا أمام قاهريهم، وأشعلوا النار في أمتعتهم وخيامهم، وانقسموا إلى عدة فيالق. واندفع مراد بك وحسن بك وثمانية من البكوات مع مماليكهم إلى بلاد البربر، ولجأ الألفي بك إلى الواحة الكبيرة. واحتل ديزيهإسنا وشيد فيها بعض التحصينات، وأقام بها مستودع نقل وتفريغ، ومخازن ومستشفى كبيرة. ويضيق الوادي كلما صعدنا النيل وتصبح الملاحة أكثر صعوبة. وظل فريان (Friand) مع فرقته في إسنا لمراقبة الألفي وحسن ينبع. واخترق الجيش إدفو أو أبولينوبوليس الكبيرة (Apollinopolis Magna)، وهي بلدة ضخمة تقع على بعد عشرة فراسخ من إسنا، ثم أطلال معبد كبير يقع على ارتفاع يسيطر على مجرى النهر، ويسميه السكان "القلعة"(la citadelle) ولم يسمح الجنرال إلا بساعة واحدة لزيارة هذه الآثار، فقد كان على عجل ليلحق بالعدو، واخترق تلال النضيد (صخر بركاني رسوبي)، وهي تلال تلاصق النيل. وكان الجنود يزحفون بصعوبة، ويسيرون على أثر أرض رومانية قديمة لا تزال بقاياها مميزة. ونام في قرية بيبان (Bibân) أمام جزيرة جميلة بنفس الاسم.



29 - كوم أمبو، بيبان، وأبو شوارب 31 يناير 1799. -

خريطة (2)



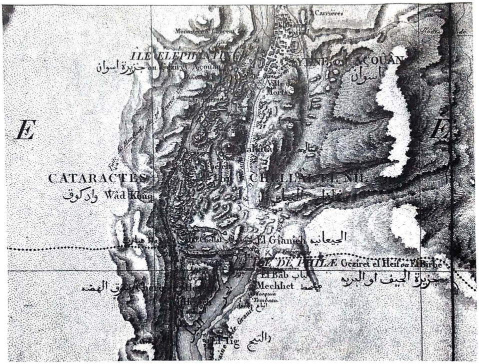
30- إدفو 30 مايو، رديسية البهيرة والفوصية 8و9 و10 أبريل 1799.

خريطة (3)

وفي 2 فبراير أقام معسكرًا على الضفة اليسرى أمام أسوان، وفي الثالث من فبراير عبر النهر أمام المدينة، وكان عرض النيل هناك 50 قامة. وغادر ديزيه الضفة اليسرى للمرة الأولى التي كان لا يزال المماليك فيها، لأن الوادي أكثر اتساعًا، وكان هذا الجانب أكثر خصوبة، وأقرب إلى الواحات لأنه لو تحرك إلى الضفة اليمنى فقد يحاصر من جهة البحر الأحمر.

وجزيرة إلفنتين -التي يسميها أهل البلدة "الجزيرة المزهرة"- جزيرة كبيرة وفيرة الإنتاج، تقع أمام أسوان على بعد 3500 قامة من جزيرة فيله، ويحد هذه المساحة سور قديم يشكل مثلثًا يمر النيل على جانبيه. ويقع الشلال بين جزيرة إلفنتين وجزيرة فيله. ويوجد من أسوان إلى الشلال -عند تعقب انعطافات النيل 3000 قامة.

وينقسم النيل أعلى الشلال ويشكل ثلاث جزر: جزيرة فيلة على بعد 300 قامة من الضفة اليمنى حيث يمر التيار الرئيسي، وجزيرة بيجه (Begeh)، وجزيرة الحصة (Hesseh)، ويشكلان معًا 1200 قامة. وتفصل ترعة ملاحة هذه الأخيرة عن الضفة اليسرى. وتوجد مقبرة أوزيريس في جزيرة فيله، والتي كانت مزارًا. وجزيرة فيله مليئة بالآثار، ولم تعرف أبدًا حياة المدينة، ولم تقم بها أبدًا زراعة، فهي خارج حدود مصر الحالية، وتقع في جنوب شلال أسوان.



31- أسوان، وفيلة.

خريطة (1)

ولا يتعدى طول الوادي في أعلى جزيرة فيلة 600 قامة، ويقترب الجبلان ولا يفصل بينهما سوى مجرى النهر الذي يصل متوازيًا على هذه الجزيرة من بعيد حيث يمتد النظر. وقد استولى الجنرال بليار على مئة وخمسين مركبًا بقيت من أسطول المماليك، حيث كان مستوى النيل منخفضًا جدًا ولم يكن ممكنًا عبورهم الشلال. وقام سكان القرى المجاورة بسرقتها واختفوا بغنائمهم في جزيرة فيلة على الاعتقاد بأنهم مُحصَّنون.

وفي اليوم الخامس من فبراير بدأ الجنرال الزحف مع ثلاثمئة رجل ليتعرف على طبيعة الحاجز الذي يفصله عن بلاد البربر التي لجأ إليها مراد بك، واضطر إلى تسلق عدة جبال عالية تطل رأسيًا على مجرى النيل وتفصل طريق الجر (السحب بالحبال) ووصل إلى أول قرية البرابرة، وأطلق المماليك الذين كانوا يعسكرون هنالك - إنذارًا بالخطر، وعند عودة [ديزيه] وجه - في أثناء مروره - الإنذار إلى جزيرة فيلة. وقد أجاب النهّابون التعساء بصيحات الاستهزاء وبتهديدات مثيرة للضحك تمامًا، وقالوا إنهم ليسوا من المماليك وأنهم لن يستسلموا أبدًا ولن يفروا أمام المسيحيين. وكان من الصعب محاولة إحضار مراكب لعبور النيل، ولكن استطاع النقابون (جنود الإطفاء) تشييد عوامة أبحر عليها أربعون من الخفافين (جنود مشاة) تحميهم بعض الطلقات من مدفع عيار 4. ووصلوا إلى شاطئ فيلة المشهور، ووجدوا هنالك جثثًا من مماليك الأسطول الصغير. وكان الفرنسيون يتلهفون لزيارة الآثار التي اشتهرت بها تلك الجزيرة الصغيرة. ونقل ديزيه مقره العام إلى إسنا تاركًا الجنرال بليار (Belliard) في أسوان لمراقبة بلاد البرابرة.

ومع ذلك فقد اضطرت المجاعة حسن بك وبيته وزوجاته وكنوزه إلى مغادرة بلاد البربر، وليترك مكانًا أكبر لمراد بك. فنزل الضفة اليمنى واتجه إلى خليج قفط، حيث كان له فيه جواسيس، وحيث يمتلك بعض القرى. وعلم الجنرال دافو بأنه يقترب من طيبة، فعبر النيل مع الوحدة (22) من القناصة، والوحدة (15) من جنود المشاة، وفاجأه يوم 12 فبراير. كان الفرنسيون أكثر عددًا، ولكن أحد المماليك تباهى بأنه يساوى جنديين من الخيالة. إلا أنَّ حسن قد عرقل سيره موكبُ نسائه والأمتعة الظاهرة للعيان. ولقد واجه هذا الشيخ العجوز كل ما تعرض له برباطة جأش تثير الإعجاب، وصارت المعركة مروعة، ونجت القافلة وأسرع بالهرب. كانت الخسائر متكافئة من الجانبين، وهجم البك على جندي خيالة وقع ميتًا تحت جواده، وجرح معاون عثمان بك. وانتقل حسن إلى الصحراء، فلم يكن قادرًا على إقامة معسكره في الوادي، فنصب معسكره قرب آبار الجيطة (El-Gytah).

وسافر العقيد كونرو (Conroux) من إسنا مع ثلاثمئة رجل من كتيبته، وعبر النيل وطرد حسن ينبع من قنا، وألقى به في الصحراء. وبعد أيام قليلة لحقت بالأخير فصيلة كانت قد رست في القصير، فاتجه ليلاً مع هذا الدعم ليفاجئ كونرو ويذبح فرقته. وفي الواقع، فإنه في الساعة الحادية عشر من مساء يوم 11 (فبراير)، قام كبار الحراس الفرنسيون بإعطاء الإنذار، وتحملوا أولى محاولات الأعداء الذين أرشدهم السكان فدخلوا المدينة من أربع جهات. وزحف كونرو بالهجوم على صف واحد وتحداهم جميعًا على التوالي، وطردهم من المدينة وجُرح. وحل محله دورسين (Dorsenne)، وهو عقيد رماة قنابل يدوية على الأقدام، والذي كان قد عُين منذ مدة كجنرال فرقة. فانزعج الأشراف وتجمعوا في غابة من النخيل على بعد فرسخ من قنا، وعند ظهور القمر هاجمهم دورسين وطردهم من موقعهم، وأزاحهم بعيدًا في الصحراء.

وعند ظهور النهار وصل الجنرال فريان مع الوحدة السابعة من جنود الخيالة، وبدأ اللحاق بالأشراف الذين تجمعوا قرب أبو مراح (Abou-Marrah)، وأحاطهم بثلاثة صفوف وطردهم من القرية وأكمل القضاء عليهم. وأخذ الجنرال سيلي (Sully) كتيبة الوحدة 88، وسار بها خمسة فراسخ في الصحراء دون ماء ودون جمال، ولو كانوا قد فشلوا في مهمتهم لكانوا قد ماتوا من العطش. ولحسن الحظ أوصلهم مرشدهم الشيخ إلى مخيم عرب ينبع عن طريق غير مباشر، فوصلوا على غير موعد واستولوا على كل الجمال المحملة بالماء والمؤن وكثير من غنم وأمتعة الأشراف المعروفين بكثرة السلب.

خامسًا: لم تكن هنالك أعشاب في بلاد البربر تستطع توفير استهلاك مراد بك. وكان على هذا الزعيم أن يستعد للذهاب إلى دنقلة عندما جاءته الأنباء بأن نابليون قد غادر القاهرة متجهًا إلى آسيا. واتخذ قراره فورًا؛ فماذا يضره؟ فانعطف نحو الصحراء وحف إلى القاهرة تاركًا ديزيه من خلفه. وقام بتحديد موعد في أسيوط مع الألفي بك الذي كان يقيم في الواحة الصغيرة. اجتمع حسن بك مع الأشراف ونزل عن طريق ضفة النهر اليمنى إلى أسيوط والقاهرة. هذا المشروع أدخل السرور على نفس الشيخ حسن الذي غاب سنوات طويلة عن منزله وعن هذه الأماكن العزيزة على طفولته. وقد أيقظت تعصبَ الأشرافِ فكرةُ تسليم أول مفتاح للكعبة المشرفة، والوضوء في المسْجد الأزهر الكبير.

واهتم ديزيه في إسنا بإقرار السلام في الأقاليم تحت قيادته، ونظم فيها الإدارة والعدالة عندما علم من الرسائل التي وصلته من جهات مختلفة في نفس الوقت بأن مراد بك قد غادر بلاد البربر وكسب ثلاث مسيرات، وظهر بين إسنا وأسيوط، وأن الألفي بك ترك الواحة، وأن الأشراف وحسن بك قد خرجوا من الصحراء ونزلوا الضفة اليمنى من النيل. فاكتشف [ديزيه] مشروع أعدائه، وأصدر الأمر للجنرال بليار بمغادرة أسوان والتوجه إلى إسنا مع كل قواته ليشكل مؤخرة الجيش لإخضاع الصعيد. وأمر فريان بجمع فرقة والاتجاه بخطى واسعة إلى أسيوط، وأمر أسطوله بنزول النيل واللحاق بفريان الذي رحل في 2 مارس.

وقد وصل الجنرال فريان يوم 5 مارس إلى "صوامع" [صوامعه] (Saouàmah)، ولما كانت الطليعة المكلفة بإعداد سكنه قد دخلت هذه البلدة، فقد تم استقباله بطلقات البنادق، فقد احتلها ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف فلاح وكانوا ثائرين. تراجعت الطليعة إلى الصفوف التي دخلت المدينة من ثلاثة جهات، وهاجمت وألقت بعدة مئات من المتمردين (الثوار) في النيل. وفي اليوم التالي استمر [فريان] في الزحف إلى جرجا وأسيوط، ولحق به الجنرال ديزيه. على أنَّ مراد بك والألفي بك نجحا في التجمع في أسيوط، وعلما هنالك أن نابليون قد احتل العريش ودخل سوريا، وأن الفرنسيين لا يزال منهم في القاهرة أكثر من مصر العليا، وأنهم احتلوا القلعة، وأن السكان يميلون إليهم، وأن شيوخ الجامع الأزهر وكل الزعماء قد صرحوا بأنهم سيقفون إلى جانب الفرنسيين إذا

اقترب المماليك من المدينة، حيث يريدون البقاء مطمئنين. ومن جانب آخر كان ديزيه يلاحقهم ويبعد عنهم يومين فقط، وأنهم سوف يجدون أنفسهم بين ديزيه الذي سيهاجمهم من الخلف، وبين الفرنسيين الذين في القاهرة، والذين سيستقبلونهم في المقدمة، فاتخذوا القرار بانتظار نتيجة حملة سوريا، ولجأ مراد بك إلى الواحة الكبيرة، ولجأ الألفي بك إلى الواحة الصغيرة، وانتشر كثير من المماليك في البلاد متنكرين في أزياء الفلاحين.



32- طهطا ، وصوامع 3 مارس 1799.

خريطة (11)

ومع ذلك، وبمجرد أن تجمع حسن بك والأشراف على الضفة اليمنى عند مستوى قنا، علموا أن الأسطول الفرنسي قد احتجزته الرياح العكسية في البارود (El-Bâroud)، فساروا لمهاجمته. وكان الأسطول مكونًا من اثني عشر سفينة مسلحة بالمدافع الضخمة، ومحملاً بأمتعة وودائع وصناديق حربية، وقطع موسيقى عسكرية، ويركب

عليه ثلاثمئة رجل هزيل أو أعرج. فقام حسن بتوزيع رجاله على الضفتين، ولحق به عشرة آلاف رجل يحدوهم الأمل في النهب. وبدأت المعركة، فاحتل الأعداء (المصريون) الجزر والمآذن، ولم يكن عندهم مدافع، وحملت مدفعية السفن الموت على الشاطئين، ولكن نقصت الذخيرة وجرح عدد كبير من رجال السفن، وغرقت السفينة "إيطاليا" وتعرضت لخطر الاستيلاء عليها، فأشعل القائد موران (Morand) فيها النار وفجرها، ولقي عليها موتًا مجيدًا. وتم الاستيلاء على السفن الأخرى، وذبح من على متنها من الملاحين والجنود. وأخذ الأشراف كل العتاد والصناديق الحربية تذكارًا للنصر. كانت خسائر الجيش في هذه المعركة مائتي بحار فرنسي، وثلاثمئة رجل هزيل كانوا يشكلون الحاميات، والمجموع خمسمئة فرنسي. وهي أكبر خسارة في المعركة، وقد أثرت هذه الكارثة التي سوف تظل ذكراها مدة طويلة عند الجنود الذين أدينوا بحق جنرالهم لعدم حماية الأسطول في أحد الحصون، فحيث ساد الاعتقاد الخاطئ بأن الأسطول قد يستطيع اللحاق بالجيش في الموسم الذي كان فيه النيل منخفضًا.

وعلم الجنرال بليار أن حسن نزل النيل وسافر إلى إسنا، ومر بالضفة اليمنى واتجه إلى قنا. وفي أثناء الطريق وصله ما أشيع من وقوع معركة كبيرة انهزم فيها الفرنسيون وخسروا عددًا كبيرًا من الرجال، وكنوزًا هائلة وأمتعة كثيرة. وعندما وصل إلى مستوى قفط قابل جيش العدو العائد منتصرًا تسبقه رؤوس الفرنسيين محمولة على أوتاد، علاوة على مجموعة من الأهالي الذين كانوا يرتدون الملابس الأوروبية، ويحملون سلاح الأوربيين، ويمشون على أنغام الآلات الموسيقية. لقد كان صخبًا مروِّعًا، وكانت الفوضى وسكرة هذا الجمع الغفير من الناس كأنها أعياد حقيقية للإله ساتورن (saturnale)، (وهي أعياد قصف ومرح وعربدة). وبلهجة تنبؤية أعلن حسن ينبع في كل مكان أن زمن القضاء على الفرنسيين قد حان أخيرًا، وأنهم من الآن فصاعدًا لن يعرفوا سوى الهزائم، وأن خطوات المؤمنين سوف تكلل بالنصر. وبعد قليل من الوقت بدأ القناصة الهجوم، وكان عدد الفرنسيين ألفًا وثمانمئة رجل، ومعهم مدفع عيار 4، كانت شظاياه قد خففت في البداية من حمية الأشراف، وحمت زحف الطابور الذي استمر في السير بمحاذاة النيل على اليمين، ويتبعه ويحيط به عدد غفير من المسلحين. وبعد أن سار الطابور فرسخًا استقبلته نيران بطارية من أربعة مدافع كانت تنطلق من الأسطول الذي أنزله عرب ينبع ووضعوه في موقعه. وعند إشارة المدفعية انقض الأشراف بحميتهم المعتادة على المربع الفرنسي، لكن الوحدة (15) من جنود الخيالة هاجمت أجنحتهم وضربت عددًا كبيرًا منهم بالسيوف، فغطت أجسادهم ساحة القتال. انتهز الجنرال [بليار] هذه اللحظة وهاجم البطارية التي تزعجه، وكاد أن يستولى على المدافع عندما هجم عليه حسن بك مع مماليكه. ولكن رجال مدفعية الوحدة (21) استداروا نصف دورة إلى اليمين وتلقوا الهجوم وصدوه، وتم توجيه المدافع التي تم الاستيلاء عليها ضد العدو. وقد غير نجاح هذين النصرين مصير اليوم؛ فاندفع الأشراف إلى مسجد كبير وقصر - في قرية أبنود (Abnoud) - جعلوا بهما شرفات. استمرت

المعركة طوال النهار والليل، واستخدمت المدافع التي حصلوا عليها من العدو بنجاح. وتم حرق القرية والاستيلاء على الجامع في الهجوم، وانقضت الليلة بين الحرائق والموتى وصيحات المحتضرين. وقد احتمى حسن ينبع في القصر، وصرح بأنه يريد أن يموت فيه موت الشهداء. لجأ الأعداء إلى القصر ليحتموا فيه، ولكنه انفجر بهم في الجو فغطى الجيشين بحطامه، واشتعلت النيران في براميل البارود الموجودة على السفن الفرنسية وتلك المحفوظة بالقصر، ومات فيه حسن ينبع، فأصاب الذهول العدو ولزم الفرار من جميع الجهات. خسر الأشراف في هذه المعركة الضارية ألفا ومائتي رجل، أما الفرنسيون فقد حاربوا بواسطة مدفع واحد عيار 4، وكان الجندي الواحد منهم ضد ستة جنود من الأعداء، فكان هذا اليوم مفخرة للجنرال بليار، فقد أنقذ - هكذا - قواته وأنقذ مصر العليا التي كان سيضطر لاحتلالها من جديد لو أن حسن قد انتصر. وقعت هذه المعركة يومي 5 و6 مارس 1799.

سادسًا: علم ديزيه في أسيوط بكارثة الأسطول والمعركة في قفط، وكذلك الموقف الحرج الذي كان فيه بليار، كما عرف أنه بدون ذخائر للحرب، فجمع السفن المسلحة الباقية لديه بسرعة، وصعد النيل من جديد. ولم يصل [ديزيه] إلى قنا بأسطوله إلا يوم 30 مارس. وبعد أن قام بتموين القوات، جهز كل شيء لحصار حسن بك الذي أقام معسكرًا أمام الجيطة (El-Gytah). ولم يكن بإمكان حسن البقاء فيها فترة طويلة، فقد كانت المئونة التي حملها على وشك الانتهاء، وكان لا بد من منع وصولها، حيث حاصره ديزيه في الصحراء. وتغطي صحاري خليج قفط تلالٌ وعرة وغير سالكة، ولا يمكن المرور إلا عن طريق المضايق بين الجبال، ويوجد منها ثلاثة؛ أحدها يطل على النيل عند بير البحر (Byr el-Bahr)، والثاني عند قرية حجازي، والمضيق الثالث في ريديسيه (Redesyeh) [شمال قرية الفواصية (El-Faouasyeh)] أمام إدفو. أقام ديزيه معسكره في "بير البحر" بنصف قواته، وأرسل الجنرال بليار يحتل قرية حجازيبالنصف الآخر. واعتبر أن منفذ ريديسيه منفذٌ غير سهل، حيث يحتاج إلى الدوران لأكثر من خمسة وأربعين فرسخًا في الصحراء دون ماء. وبناء عليه لم يكن حسن يستطيع استلام المئونة، ولا كان بإمكانه الخروج من دون معركة، فكان لا بد من أن يموت. وفي يوم 2 أبريل كاد حسن أن يموت جوعًا فترك مخيم الجيطة ليصل إلى الوادي في بئر البحر، وواجه العقيد ديبليسي (Duplessis) مع الوحدة السابعة من جنود الخيالة، وكان الاشتباك مروعًا، حيث كان المماليك هم الأكثر عددًا، وقبض عثمان بك على عنق العقيد ديبليسي فقتله. وبدا أن النصر قد تقرر لصالح المماليك، ولكن ديزيه وصل لنجدة طليعته. ووجد حسن أن المضيق قد تم احتلاله بالقوة، فعاد إلى الصحراء واستقر في معسكره في الجيطة. وبعد بضعة أيام غادره وانعطف مسافة خمسة وأربعين فراسخًا متجهًا نحو مضيق ريديسيه، وصعد النيل من جديد حتى أومبوس (Ombos) (كوم أمبو)، وأقام في جزيرة المنصورية (Mansouryeh)، ومنها اتجه إلى أسوان. وبمجرد أن علم بليار بذلك، لحق به ووصل إلى ريديسيه بعد ثلاثة أيام من مرور حسن، ووجد فيها آثار دماء المماليك؛ منها

العشرات من جثث كبار السن، وبينها جثث خمس وعشرين امرأة، وستين من الخيل بقوا في الصحراء وماتوا من شدة الحرارة ونقص المئونة والماء.

وفي غضون ذلك نزل بقية أشراف ينبع، ولم يكن لهم هدف سوى السرقة أو الفرار. ووصلوا إلى الحرجة (Hargeh)، وهي قرية على الضفة اليمنى، ومروا بالضفة اليسرى، ودخلوا إلى جرجا ولم يكن هناك من ينتظرهم، فدخلوا إلى السوق، وكان العقيد موران يتبعهم، ودخل المدينة في إثرهم، وقتل بعضهم بحد السيف. وقام لاسال (Lassale)، وهو عقيد بالوحدة (22)، وكان ضابطًا نشيطًا له مكانته المعتبرة قام بالهجوم عليهم بفرقته وكتيبة الوحدة (88)، واستطاع بمناوراته أن يحصرهم في حظيرة وينقض عليهم بحد السيف. وكان من بين الموتى جثة الشريف خليفة حسن. هكذا كان المصير الذي عرفه أربعة آلاف من أشراف ينبع، عاد منهم إلى وطنهم من جديد خمسمئة أو ستمئة رجل، كان معظمهم من المصابين.

ومع ذلك غضب شريف مكة من سلوك عرب ينبع، وكتب لهم ليدركوا نتائج ذلك. فأرسل وزيرًا من قبل السلطان العظيم إلى القاهرة يستنكر هذا العمل العدائي، وأرجعه إلى العلاقات الخاصة بين قبيلة ينبع ومراد بك، وقدم الضمانات بعدم تكرار مثل هذه الأفعال من أية قبيلة أخرى، وأن الهدوء سوف يسيطر على كل الجزيرة العربية. وكتب أيضًا مباشرة عن طريق القصير إلى الجنرال ديزيه بنفس المعنى. لقد خشي القائد الديني أن ما حدث قد يدفع الفرنسيين إلى هدم المساجد واضطهاد المسلمين ومصادرة العطاءات السخية التي تمتلكها مكة في مصر، وقطع الاتصالات بين مكة وكل أفريقيا. ولكن نابليون طمأنه، واستمرت العلاقات الودية مع خادم الكعبة المشرفة الذي لم يتوقف عن خطاب السلطان الفرنسي والتصريح بأن النبي يباركه.

سابعًا: طوال شهري فبراير ومارس كانت تصل إلى الصعيد أخبار نجاح الجيش في سوريا، والاستيلاء على العريش، ومعركة غزة، والهجوم على يافا. وكان من بين الأسرى في يافا مائتان وستون رجلاً من هذا الإقليم، تم طردهم منها، وتأكد فيها صيت الأسلحة الفرنسية، وكان لذلك أثر طيب على نفوس الأهالي. ولكن في شهر مايو انتشر خبر فشل المحاولات الأولى في عكا، مع التأكيد على أن جيش دمشق قام بحصار الجيش الفرنسي في معسكره في عكا، وهو ما أكده – كذلك - ثورة الأمير حاجي (Hadji) الناتجة عن هذه الإشاعات. وكان حسن بك في أسوان منذ منتصف شهر أبريل، وكانت قرية بني عدي(Beny-A'dyn) بالقرب من أسيوط، والتي يسكنها عشرون ألف نسمة، مستودعًا لتجارة دارفور مع مصر، ولكن كان أهلها أكثر تعصبًا وهمجية وشراسة، وكان لونهم أكثر سوادًا عن سائر أهل مناطق مصر الأخرى. وقد كان استقبالهم للفرنسيين - كما قلنا - سيئًا حينما دخلوها في المرة الأولى، ومنذ ذلك الوقت كانوا يتجنبون المبيت والإقامة فيها لأن نظرات الأهالي

ومظهرهم ولغتهم كانت متوعدة دائمًا. وقد كانوا فخورين بثرائهم، ويُحسب الموجود في السوق في أثناء إقامة القافلة الكبرى بما يقدر بستة ملايين من البضائع في المخازن لأجل دارفور والقاهرة والإسكندرية. وقد وصلت القافلة الكبيرة ذلك العام في شهر مارس، وكانت تشمل عشرة آلاف جمل، وستة آلاف من العبيد يحرسهم ألفا رجل مسلح ومغربي، وكل هؤلاء الناس شرسون مثل ما تنتجه الصحراء الكبرى، وكانوا يستنكرون رؤية هؤلاء الرجال الصغار غير الملونين النازحين من الغرب. واجتمع المماليك الثوار وباقي الأشراف في قرية بني عدي التي تحولت بسرعة إلى مركز الانتفاضة.

وفي البداية لم يمنح مراد بك الثقة في هذه الانتفاضة، ولكنه اهتم عندما شجعته أخبار سوريا المناهضة للفرنسيين. فأرسل [مراد بك] بعض البكوات والكشافين من أهل بيته ليرشدوا ويديروا ويساندوا هذا التجمع. وكان الجنرال دافو قلقاً من تضخم هذا التجمع، فقام بجمع قواته والزحف مع ألفي رجل من قوات الفرسان والمشاة والمدفعية. وبلغ عدد الثوار المتمردين ستة آلاف شخص تسلحوا واستعدوا تمامًا وكانوا في انتظار مراد بك. وتقابل الجنرالان، وهجم سلاح الفرسان الفرنسي على طليعة البك المكونة من ثلاثة آلاف فارس فقط، وطردهم إلى الصحراء. وفي نفس الوقت تم حصار بني عدي، وبعد تبادل شديد لإطلاق النار تم اختراق المتاريس، ودخل المنتصرون بالهجوم السريع واغتالوا كل من قابلوهم، واختفى العدو في المنازل التي اشتعلت فيها النيران. وفقد الجيش العقيد بينون (Pinon)، وكان واحدًا من أشجع ضباط سلاح الفرسان الفرنسي. وآثر النهبَ الجنديُّ الذي وجد هنالك أربعة أو خمسة آلاف امرأة من الإماء السود، وكثيرًا من الجمال، والقرب وريش النعام والصمغ والعاج، وصناديق كبيرة من تراب الذهب، والكثير من النقود الذهبية. وكان من بين الأسرى ابنة ملك دارفور.

ولم يبق في الصعيد سوى حسن بك الذي ظل ساكنًا منذ انسحب من صحاري القصير، فوضع يده على أسوان. سواء أكانت قوته غير معروفة أم كان من المفروض أنه عبر الشلالات ولم يبق له سوى خلفية الطليعة في أسوان. أرسل الجنرال القائد رينو (Renaud) من إسنا مع مائتي رجل فقط من سلاح المشاة لاحتلال هذه المدينة، وكان يجب هلاكهم. وعندما علم حسن بك بعددهم الصغير ابتسم على أمل أن يُشبع غليله دمُ هؤلاء الكفار، وسار مع مئة وثمانين مملوكًا، ومائتين من العربوجنود المشاة لمقابلة هذه الحفنة من الجنود المنفيين، ومن دون مدفع. وبحضور ذهنٍ مذهل، وبدون أن يندهش من حشد المحاصرين له، بادر القائد رينو بتشكيل مربع، واستدار نحو جنوده قائلاً: "أيها الرفاق. لم يحسب جنود إيطاليا عدد الأعداء، على كل واحد أن يقتل رجله. ركزوا، أنا مسئول عن كل شيء!". وفي الواقع، ومن أول هجمة من طلقات النار، تم طرح مئة مملوك أرضًا، وهرب الجميع. وبعد ساعات قليلة دخل رينو أسوان، وقام بالسطو على الأمتعة والجرحى. وقد حانت ساعة حسن

بك الذي جرح بضربة حربة، وكذلك عثمان بك، وتوفي الاثنان بعد عدة أيام من المعركة، ولم يفقد القائد رينو سوى أربعة قتلى، وخمسة جرحى، وكانت أحسن معركة في كل الحملة على مصر.

وقد جرجر مراد بك - ومعه أربعمئة رجل - حياته البائسة في قعر الصحراء، ومات مماليك بيته المُرعبون، ولم يبق إلا شريفٌ من ينبع.

وقد بذل ديزيه نفس المهارة في إدارة هذه الأقاليم قدر ما أظهر من بلاء في أثناء الحرب؛ فأقام العدالة والنظام الصحيح، فساد الهدوء تمامًا. ورغم إدارته القاسية، فقد أطلق عليه الأهالي لقب "السلطان العادل"، وجعل البلديات مسئولة عن كل ما يجري على أرضها. وكان الجندي الفرنسي يستطيع عبور الوادي سواء أكان مسلحًا أم بغير سلاح، دون أن يخشى شيئًا. وكانت تدفع الضرائب تمامًا.

وفي أثناء شهري أبريل ومايو، كان جيش الشرق قد احتل ثلاث زوايا من الإسكندرية وأسوان وعكا، وهو مثلث من ثلاثمئة فرسخ من الجانب، ومساحته قدرها ثلاثة آلاف فرسخ مربع. وكانت الاتصالات بين المقر العام للقيادة من عكا في سوريا، وبين الصعيد، تجري عن طريق الجمال التي تعبر صحراء غزة إلى السويس. وتم تشييد عدد من الحصون من أسوان حتى بني سويف، وكان حصن قنا هو الحصن الرئيس الذي يحمي مضايق القصير. وتم تزويد كل هذه الحصون بسرية مدفعية تسيطر على الملاحة في النيل، وتضم مخازن ومستشفيات صغيرة. ولكي يعبر نابليون عن رضاه عن جهود معاونه فقد أرسل - في البداية - سيفًا أخذ من أحد أسرى الإسكندرية، وكتب عليه: "معركة سيدمنت"، ثم أهدى إليه بعد ذلك خنجرًا مرصعًا بالماس كان ملك "محمد باشا" أسير معركة أبو قير، وكتب على واجهة السلاح: "من نابليون إلى ديزيه المنتصر غالبٍ الصعيد"، وعلى الجهة الأخرى "طيبة ذات المئة باب، سيزوستريس العظيم".

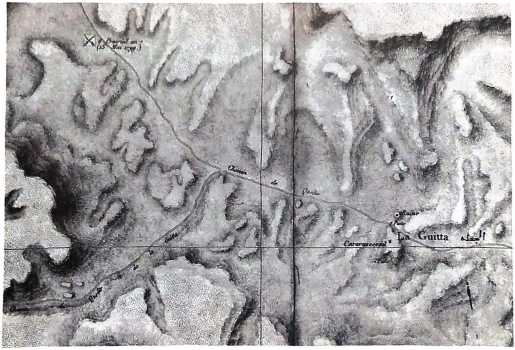
ثامنًا: لم يتبق سوى احتلال ميناء القصير والواحة الكبيرة والواحة الصغيرة. ولقد كانت الحرارة شديدة في شهر مايو، وكان عبور الصحراء مرهقًا للغاية، وكان لا بد من تأجيل حملة الواحات إلى شهر نوفمبر، غير أنَّ احتلال القصير لم يكن يحتمل التأخير. وتم الإعلان عن أن سفن الجزيرة العربية وجدة وينبع محملة بالبضائع، ويلزم تحميلها عند العودة بكميات الأرز والقمح ومحاصيل أخرى ضرورية لشبه الجزيرة العربية، وخاصة مكة والمدينة، فاتخذ الجنرال بليار كل الاستعدادات الملائمة لعبور هذه الصحراء واحتلال القصير وتسليحها.

ويعتبر خليج قفط جزءًا من الصحراء الواقعة بين النيل والبحر الأحمر في المكان الذي يكون فيه النهر أقرب ما يكون من البحر. وتبلغ المسافة من قنا إلى طيبة أحد عشر فرسخًا، تجعل ثنية النيل ومجراه تسعة فراسخ،

ويتدفق النهر عند خمسة وعشرين فرسخًا في المتوسط من البحر الأحمر، وتسمى هذه الفراسخ خليج قفط. وإذا سرنا من طيبة نحو أعالي النهر على امتداد خمسة فراسخ حتى أبو خلجان (Abou-Khilgân)، فإنَّ النهرَ، الذي يتجه غربًا، والبحر الأحمر أمامه، والذي يجري شرقًا في اتجاه معاكس، يبتعدان لتكون المسافة بين النقطتين أربعين فرسخًا. وإذا سرنا حتى أسوان فإن المسافة من أسوان إلى البحر تبلغ حوالي ستين فرسخًا، وإذا عدنا إلى جرجا نجد المسافة أربعين فرسخًا من البحر الأحمر، وتبعد أسيوط عنه خمسين فرسخًا. أما جزء النيل الذي يشكل الثنية فوق قنا، وطولها تسعة فراسخ، فإذن هو الوحيد الذي طوله خمسة وعشرين فرسخًا على خط مستقيم من البحر.

وللانتقال من شبه جزيرة قفط إلى البحر الأحمر يجب اتباع المضايق بين الجبال. وتوجد ستة مضايق مختلفة، متوسط طولها أربعة وثلاثون فرسخًا، أو اثنتان وأربعون ساعة من المشي بالنظر للانحرافات فيها. وهكذا يوجد اثنان من موانئ البحر الأحمر تتصل بالنيل؛ هما: القصير والسويس. وميناء القصير على خط مستقيم على بعد تسعة وعشرين فرسخًا من قنا، وعلى بعد أربعة وثلاثين أو خمسة وثلاثين فرسخًا باتباع المضايق. والسويس على بعد سبعة وعشرين فرسخًا من القاهرة. ومن بين الطرق الستة المؤدية من شبه جزيرة قفط إلى القصير توجد ثلاثة منها معروفة فقط. وتؤدي معظم هذه المضايق إلى واحة الجيطة (El-Gytah) الصغيرة، ومنها يوجد طريقان للوصول إلى النيل؛ فيتجه طريق إلى قنا ويلتقي بالأراضي المزروعة في بير البحر، وهي قرية صغيرة، وأما الطريق الثاني فيتجه إلى طيبة، ويسير نحو أعالي النيل حتى قرية حجازي الصغيرة. والمضيق الثالث المعروف يتجه مباشرة من القصير إلى وادي النيل، ويصب أمام إدفو في قرية ريديسيه، وهو طريق طوله أكثر قليلاً من خمسة وأربعين فرسخًا، وهو الذي كان يهرب منه حسن بك. ولو تم غلق كل مداخل النيل فلا بد من احتلال قرى بير البحر وحجازي وآبار الجيطة، وأخيرًا مضيق ريديسيه أمام إدفو.

أقيمت ثلاث مدن فوق الفراسخ التسعة لتعرج النيل، والتي تُشكّل أحد جوانب شبه جزيرة قفط، والتي كانت تمارس التجارة مع البحر الأحمر، وهي على التوالي: (1) قفط، المدينة المشهورة، وكانت مدينة قوية وغنية في القرن الرابع، وتظهر أطلالها على بعد فرسخ من النيل. (2) حلت قوص (Kous) محل قفط، وهي بعيدة قليلاً نحو الجنوب، وما زالت قوص مدينة كبيرة، ولكنها فقدت رونقها، ويسكنها الأقباط. (3) وأخيرًا المدينة الثالثة شمالاً على طرف الثنية، وهي مدينة قنا الصغيرة. وتعتبر قنا اليوم مستودعًا لتجارة النيل مع البحر الأحمر، لكنها لم تصل إلى رخاء قفط وقوص؛ لأن تجارة البحر الأحمر اليوم لا تقارن مع تجارتها قبل اكتشاف رأس الرجاء الصالح.

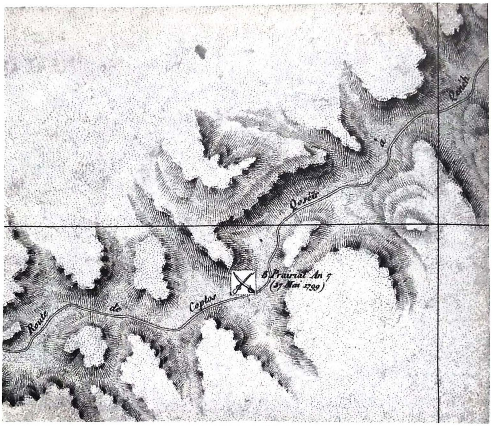


33-الجيطة 29 مايو 1799.

خريطة (5)

وقد غادر الجنرال بليار قنا يوم 25 مايو مع كتيبتين ومدفعين ومئة حصان، واستغرق ثلاث ساعات ليصل إلى بير البحر، وتوقف فيها ليكمل تزوده بالماء، واتجه للمبيت على بعد خمسة فراسخ داخل الصحراء. وظهر القمر في الساعة الواحدة صباحًا، ووصل مع بزوغ النهار إلى الجيطة، ووجد فيها ثلاثة آبار مكسوة بالطوب العريض جدًا، وبها منحدرات كبيرة تنزل عليها الحيوانات. وتوجد قلعة ونزل للقوافل، وهي إحدى المساكن الحربية التي بناها بطلميوس سوتير على طريق بيرينيس (Bérénice). استراح الجنرال عدة ساعات في الجيطة، وبات على بعد خمسة فراسخ من هناك في الصحراء. وفي يوم 27 بدأ السير مع طلوع القمر، ووصل بعد تسع ساعات من السير إلى بئر الحاوية (EL-Haoueh)، وعسكر في الصحراء. ووصل أخيرًا يوم 28 [مايو] إلى بئر لمبوجة (Lambogeh)، وهي واحة بها أشجار الأكاسيا، ونهر صغير مياهه كريهة، وعلى بعد ساعتين من القصير. وهكذا من قنا إلى الجيطة عن طريق بئر البحر ثلاث عشرة ساعة، ومن الجيطة إلى عيون الحاوية خمس عشرة

ساعة، ومن العيون إلى لمبوجة أحد عشرة ساعة، ومن لمبوجة إلى القصير ساعتان، والمجموع واحد وأربعون ساعة، والتي تقطع 1500 قامة في الساعة تساوي 75800 قامة أو حوالي ثلاثة وثلاثين فرسخًا من 25 درجة. ويجول عرب العبابدة في كل هذه الصحراء، ويفتخرون بتجنيد ألفي رجل، ويملكون قليلاً من الخيول، ولكن كثيرًا من الجمال لعبور النيل عند البحر الأحمر حتى سنار.



34- الطريق من قفط إلى القصي، والحاوية 27 مايو 1799.

خريطة (7)

وتقع مدينة القصير على شاطئ البحر الأحمر على بعد مئة فرسخ تقريبًا من جنوب السويس، بخط مباشر على خط طول ' 7 °25 شمالاً، و "36 ' 1 °32 خط طول من باريس، ومحيطها 400 أو 500 قامة. ويصلها الماء العذب من على بعد تسعة فراسخ. ويطل القصر على كل المدينة، ويوجد صهريج مياه صالحة للماشية.

وتحيط الصحراء بالمدينة من كل جانب، وتكون معمورة في فترة وصول السفن من جدة ومن ينبع، حيث نرى بالمدينة عرب ينبع وتجارًا من مصر. وقد استقبل الأهالي القوات الفرنسية فرحًا، وعقد عرب العبادة (Abâddah) الصلح، وقدموا الخدمات بهمَّةٍ للجيش الفرنسي. وبعد أن أقام فيها الجنرال بليار يومين، عاد



35- القصير على البحر الأحمر.
خريطة (7)

إلى قنا تاركًا قائدًا وحامية ومئونة ومدافع في حصن القصير. وميناء القصير في مأمن من الرياح الشرقية والغربية، ولكن يعاني من الرياح الغربية. ويعتقد البعض أن القصير القديمة التي تقع في الشمال هي بيرينيس القديمة. وفي 14 يونيو دخل نابليون منتصرًا إلى القاهرة على رأس الجيش العائد من سوريا، ووطّد الهدوء في كل مصر.



36- سوريا – فلسطين

خريطة (51)

الفصل الثامن

سوريا

أولاً: وصف سوريا. ثانيًا: سوريا القديمة. ثالثًا: سوريا الحديثة. رابعًا: الصحاري.

أولاً: تعتبر الجزيرة العربية شبه جزيرة، وتقع بين البحر المتوسط والبحر الأحمر، وبحر الهند والفرات. وتتصل بآسيا الصغرى عن طريق خليج جبل طوروس (Taurus)، وتتصل بإفريقيا عن طريق خليج السويس. وتتخذ [الجزيرة العربية] شكلاً خماسيًا غير منتظم، طول جانبه الغربي مئة وخمسون فرسخًا، ويحيطه البحر المتوسط من أليكساندريتا (Alexandrette) حتى رفح (Reyfah). وطول الجانب الجنوبي سبعمئة وعشرون فرسخًا من خليج السويس حتى مضيق باب المندب. ويشكل الجانب الثالث بحر الهند من هذا المضيق حتى رأس الحد (El-Had)، وطوله أربعمئة وخمسون فرسخًا. ويحيط به الخليج الفارسي والفرات شرقًا، ويفصله عن الفرس (إيران) وأرمينيا على امتداد ستمئة فرسخ. وأخيرًا يوجد خليج أليكساندريتا الذي يفصل البحر المتوسط عن الفرات، وطوله خمسة وثلاثون فرسخًا، وتحده جبال طوروس.

وتعتبر سوريا جزءًا من شبه الجزيرة الكبرى الواقعة على سواحل البحر المتوسط، وعرضها حوالي خمسين فرسخًا، ويطلق عرب مكة على سوريا بلاد اليسار، كما يسمون اليمن بلاد اليمين. وتقع سوريا بين خطي طول (32°)، و(37°) من باريس، و(31°)، و(38°) شمالاً، ومساحتها تسعة آلاف فرسخ مربع، منها خمسة آلاف أراضي زراعية.

ولولا النيل لكانت مصر صحراء، ولولا سلسلة الجبال التي تفصلها وتمتد موازية لسواحل البحر المتوسط لغمرت رمال الجزيرة العربية سوريا التي تبتعد إلى ما بين عشرة إلى خمسة عشر فرسخًا عن البحر. هذه السلسلة تحجز السحب وتحتفظ بمياه الأمطار، وتسمى لبنان في الشمال، وسلسلة جبال لبنان الشرق (anti-Liban) في الوسط، وجبال الشيخ في الجنوب. وتنفصل لبنان عن جبال طوروس، وتتجه للارتفاع طوال خمسين فرسخًا حتى مواجهة طرابلس. ويبلغ أقصى ارتفاع 1800 قامة فوق البحر، ومن هناك تنخفض هذه الجبال حتى بعد الخليل قرب البحر الميت. وتشكل الأمطار التي تسقط خلف غرب هذه السلسلة ستة وعشرين واديًا تصب من خلالها في البحر المتوسط. ويبلغ طولها ما بين عشرة إلى اثني عشر فرسخًا. وهذه الجداول نادرًا ما تجف،

وتحافظ على الخصوبة ونمو النباتات في كل هذه المنطقة. و[نهر] القاسمية (Qasmych) الذي ينبع من قمة جبل لبنان بالقرب من بعلبك ويصب في البحر بالقرب من صور، يفصل لبنان عن سبق- لبنان، وهو أضخم كل هذه الأنهار الصغيرة، وتتعرج على طول ثلاثين فرسخًا.

وتسقط من وراء شرق هذه السلسلة أمطار من الجبال يتلقاها نهر العاصي (Oronte) ونهر الأردن، اللذان يجريان أسفلها بالتوازي معها. ويجري نهر العاصي من الجنوب إلى الشمال، و[يجري] نهر الأردن من الشمال إلى الجنوب. وطول مجرى هذين النهرين ستون فرسخًا، ويصب نهر العاصي في البحر الأبيض المتوسط على بعد ستة فراسخ من أنطاكية (أنتيوخ). وقد قام بحفر مجرى عبر لبنان ليجعل له ممرًا حتى البحر عن طريق تعرج مواز لمجراه. ويعد طوله 20 قامة من عند مصبه، وكان ممكنًا ألا يكون قابلاً للعبور، فهو دائمًا بغير ماء، لولا العدد الكبير من السدود التي توقف مجراه. ويصب نهر الأردن في البحر الميت بعد أن يشكل بحيرتين، ترعة الحلو (Helou)، وبحر الجليل (طبرية) (Tibériade) وعرض نهر الأردن من 8 إلى 12 قامة، وهو غير قابل للعبور، وعميق بما فيه الكفاية، ولو سمحت تضاريس البلاد لنهر العاصي ونهر الأردن أن يصبا لمسافة خمسة عشر أو عشرين فرسخًا أكثر نحو الشرق، لازداد اتساع سوريا بنفس القدر.

ونهر بردى (Barader) الصغير، الذي يجري من جبل لبنان، يروي دمشق، ويسقط في ترعة المرجي (El-Margi) الصغيرة. ويساعد عدد كبير من منابع الماء على خصوبة هذه المدينة الكبيرة. ويتم ري سهول حلب عن طريق جداول تنزل من جبل طوروس. ونهر الفرات - الذي يجري شرقا على بعد أربع أو خمس درجات من حلب - هو نهر عريض وسريع وعميق.

كانت سوريا مكونة من سهول وتلال وجبال وصحاري، وتعرف درجات حرارة وطقوسًا مختلفة؛ فتغطي الثلوج أعالي الجبال في الشتاء، وتختفي في شهر مارس. ولا تنخفض درجة الحرارة في السهول أبدًا عن خمس أو ست درجات ريومير فوق الصفر، وترتفع حتى 28 درجة في الصيف، وإلى نحو 19 و20 درجة فقط على التلال المرتفعة. ومناظر سوريا متنوعة وممتعة ورائعة، حيث تغطي الجبال أشجار الصنوبر وأشجار الأرز وأشجار الفواكه والزيتون والتوت. وفي نفس الوقت نجد بكثرة فواكه الجو المعتدل والجو الحار؛ حيث القمح والذرة والعدس، والزيت والعنب والسمسم، والنيلة والقطن وقصب السكر، والدخان. وتكثر فيها المواشي بغزارة. وتتم التجارة مع مكة والفرات بواسطة القوافل، ومع القاهرة بواسطة القوافل، وأيضًا عن طريق البحر. وتستورد وتصدر حلب ودمشق برًا، [وتستورد وتصدر] يافا وعكا وبيروت واللاذقية بحرًا، من كل ما هو ضروري أو غير ضروري لاستهلاك البلاد.

وعلى امتداد ساحل طوله مئة وخمسون فرسخًا، لا تملك سوريا ميناءً أو مرسى آمنًا، ما عدا مرسى أليكساندريتا. وهو الميناء الوحيد الذي تثبت فيه المرساة ولا تزاح. وأما مرفأي يافا وطرابلس واللاذقية فغير صالحة، وخطيرة في الشتاء.

وتفصل سوريا عن آسيا الصغرى جبال طوروس، هذه الجبال الشامخة التي تحتاج ثلاثة أيام لعبورها، وبها ممرات جبلية بالغة الارتفاع، وممرات ضيقة، وبلد صعب.

ويسقط المطر في سوريا مثل أوروبا، وتقبل هذه المنطقة نباتات غريبة نتيجة درجة الحرارة وارتفاعها، وذلك على العكس من جارتها مصر في أشياء أخرى.

ثانيًا: تنقسم سوريا القديمة إلى ثلاثة أجزاء، هي: (1) سوريا بحصر المعنى، (2) وسوريا الداخلية أو سوريا السفلى، (3) وسوريا - فلسطين. وتنقسم سوريا بحصر المعنى إلى ثلاثة، هي: (1) سوريا الأولى وعاصمتها أنطاكية، (2) وسوريا الثانية وعاصمتها حلب، (3) وسوريا - الفرات وعاصمتها ساموسات الشمس (Samosate) على الفرات. وتنقسم سوريا الداخلية إلى اثنتين، هما: (1) فينيقيا بحصر المعنى، وعاصمتها صور (Tyr)، (2) وفينيقيا - لبنان وعاصمتها دمشق. وتنقسم فلسطين إلى ثلاثة، هي: (1) جوديا (جواد - يهودا) (Judée) وعاصمتها القدس، (2) والسامرة وعاصمتها ساموسات (Sébaste)، (3) والجليل وعاصمتها عكا. ويتراوح عدد سكان سوريا القديمة من عشرة ملايين إلى اثني عشر مليون نسمة، وهو ما يعادل ألفي نسمة في الفرسخ المربع.

وقد وصلت صور إلى أعلى درجة من الرخاء بفضل تجارة الهند، واشتهر الفينيقيون بأنهم أول الملاحين في العالم. وكانت صور عاصمة أوتيك (Utique) (وهو ميناء قديم بناه الفينيقيون). وقرطاج وقادش (كاديز في إسبانيا، و باليرمو بإيطاليا) تمارس تجارة الهند عن طريق الخليج الفارسي والبحر الأحمر، وكان لها مؤسسات فيها. وكانت تدمر (Palmyre) أحد المرافئ التجارية مع بابل.

وفلسطين، هذه الأرض المقدسة التي احتلها وسكنها اليهود أو شعب الله، ويتقاسمها اثنتا عشرة قبيلة من سلالة الاثني عشرة أولاد يعقوب: روبن، وغاد ومانسي: الأرض الواقعة على شاطئ الأردن الشمالي، من البحر الميت حتى منبع هذا النهر"، وسيميون، ودان: "أرض فلسطين الحالية من غزة حتى نهر يافا"، ويهوذا وبنيامين: "الضفة اليمنى لنهر الأردن من البحر الميت حتى الخليل"، وإفرايم: "بلاد نابلس، من البحر الميت إلى الجليل"، وإسحاق (ايساشار ثامن أبناء يعقوب)، وزايولون، وعازر، ونفتالي: "كل الخليج حتى أبواب صور". وقد بلغت شعوب فلسطين الثلاث في زمن الرومان من أربعة إلى خمسة ملايين نسمة، وتعيش على مساحة ألف وخمسمئة

فرسخ مربع في بلاد جبلية فقيرة تحيط بها الصحاري، أي ثلاثة آلاف شخص في الفرسخ المربع، وهي نسبة أعلى من نسبة سكان الفلاندر (la Flandre) واللمباردي (la Lombardie)، ويبدو ذلك مبالغًا فيه.

وكانت مدن أنطاكية وحمص (Ermèse) وصور والقدس مدنًا كبيرة جدًا وأهلة بالسكان، وقد كانت الأولى عاصمة الشرق. وقام ملوك بابل (Babylone) ونينوى (Ninive) والفرس وخلفاء بغداد والبصرة دائمًا بالحرب على سوريا وحكموها. وعندما فكر سيروس (Cyrus) في غزو مصر، قام بحماية اليهود وأعاد بناء معبدهم. وقد كانت القدس العاصمة الدينية للمسيحية، واليوم يُجلها اليهود والمسيحيون والمسلمون، أي الديانات الثلاث التي اعترف أهلها بوحدانية الله الخالق والمعجز، والذي تسع عبادته كل الكون. إنها المدينة الدينية الشريفة بالغة القداسة. وماذا تمثل روما إلى جانب القدس وجوديًا في نظر الدين؟ فهنالك عاش ومات إبراهيم وإسحق ويعقوب والأسباط، وهنالك عاش كل كتاب الأناجيل الأربعة، وهناك اكتشف محمد معرفة الإله الحق.

ثالثًا: في عام 1799، كانت سوريا مقسمة إلى أربع باشليك (pachaliks): وهي: حلب، وطرابلس، وعكا، ودمشق. وكانت فلسطين ذلك اللسان من الأرض على شاطئ البحر بين خان يونس وقيصرية، وكان يحكمها ثلاثة أغوات يقيمون في غزة ورام الله ويافا، والتي كانت مركزًا لإقطاعيات ثلاث. تنتمي أولى هذه الإقطاعيات إلى السلطنة الأم، وتدّر لها مئة وخمسين درهمًا (bourses)، وتنتمي الإقطاعيتان الأخيرتان إلى القبودان باشا (بجاح)، ويحصل منهما على مائتي درهم. وتدر ضرائب يافا دخلاً هامًا من الأرز من دمياط، ينزل به الحجاج المسيحيون المتجهون إلى القدس. والمرفأ مكشوف وكان يمكن في الماضي أن يحتوي ثلاثين سفينة يحمل كل منها ثلاثمئة قنطار، واليوم يكاد يكون مزدحمًا. وكان تعداد أهل فلسطين مئة ألف نسمة عام 1799. وتصل المسافة من غزة إلى يافا إلى ستة عشر فرسخًا، ومن يافا إلى عكا اثنين وعشرين فرسخًا، ومن يافا إلى القدس ستة عشر فرسخًا.

وتمتد ولاية دمشق من مراح (Marrah) إلى الجليل، وتضم جزءًا من فلسطين القديمة اليهودية، ومن السامرة (إسرائيل القديمة)، وكل فينيقيا (لبنان). وكان يحكم القدس العاصمة اليهودية ملتزمٌ، وعدد سكان المدينة عشرون ألف نسمة، ثلاثة أرباعهم من المسيحيين. وكان يسكن نابلس والسامرة (Sébaste)، عاصمة السامرة القديمة، شعبٌ محاربٌ ومتعصب ومتقلب. ويوجد جنوب دمشق سهل حوران (Hauran)، وطوله تسعة أيام، وكان [سهلاً] غنيًا، أما اليوم فتسكنه عدة قبائل عربية. وفي الشمال سهل حمص (Emèse) وفاميه (Famieh). وبعيدًا إلى الشرق نجد أطلال البتراء ب"تدمر" (Palmyre)، وتبعد سبعة أيام عن دمشق، وخمسة أيام عن الفرات. وقد كانت صور قديمًا ميناء دمشق، وعدد سكان هذه الولاية مليون وأربعمئة ألف نسمة، ويسكن المدينة تسعون ألف نسمة.

ويرعى الباشا تجنيد ثلاثة آلاف شخص، ثلثهم من الفرسان، يطلق عليهم "اللبش" (libaches). ولا يُعد الانكشاريون (جنود مشاة) ضمن بيت أهل الباشا، وهو أمير الحج الذي تكلفه قافلة مكة سبعة ملايين، ولكن تعود عليه بأكثر من هذا المبلغ. وتقضى القافلة أربعين يومًا على الطريق، وتتكون من عشرين إلى أربعين ألف حاج. ويموت من الجمال من تسعة آلاف إلى اثني عشر ألف جمل في كل رحلة.

وتمتد ولاية عكا من قيصيرية (Césarée) جنوبًا إلى نهر الكلب شمالاً، وعدد سكانها أربعمئة ألف نسمة، ويشكل الدروز جزءًا هائلاً. ويقوم الباشا برعاية ثلاثة آلاف جندي، من بينهم تسعمئة فارس أرناؤوطي. وتعتبر عكا، وصور القديمة، وصيدا، وبيروت، هي الأربعة مواني، وتُعد صفد، وطبرية، وبعلبك، هي الأماكن الرئيسية في الداخل، وتشمل هذه الولاية جزءًا من الجليل وجزءً من سوريا السفلى المسماة فينيقيا الأصلية، ويصل إنتاجها إلى خمسة عشر ألف محفظة نقود، وتضم هذه الولاية الكثير من المسيحيين، ونجد فيها دير الناصرة حيث ولد سيدنا عيسى، وهو دير رائع.

وكانت ولاية طرابلس تمتد من نهر الكلب إلى اللاذقية شمالاً، وعدد سكانها ثلاثمئة ألف نسمة، ويوجد فيها النصارى والمارونيون، وكثير من اليونانيين. وتورد ألفًا وخمسمئة محفظة نقود، ويعول الباشا تسعمئة رجل. وطرابلس واللاذقية مدينتان صغيرتان، بهما من خمسة آلاف إلى ستة آلاف نسمة، يمارسون تجارة الدخان مع مصر. وتشكل هذه الولاية جزءًا من سوريا الأولى.

وتقع ولاية حلب بين الفرات والبحر المتوسط وجبال طوروس، وهي سوريا القديمة الأولى والثانية. ويصل عدد سكانها أربعمئة ألف نسمة. وأليكساندريتا هي ميناء حلب على البحر المتوسط. وبيرهديشك (Byrehdjik) ميناؤها على الفرات. وسهل أنطاكية وسهل حلب مشهوران. ويسكن حلب مئة ألف نسمة، وتقدم ثمانمئة محفظة. ويتكون منزل الباشا من ألفي رجل، وجزء من الفرسان يسمى دليليت (delites)، وجزء من المشاة يطلق عليه اسم المغربين (Maghrébins).

وعدد أهالي سوريا الحالية (عام 1799) مليونان وأربعمئة ألف نسمة، والخُمس منهم من المسيحيين والدروز والمارونيين واليونانيين والكاثوليك، والسوريين أو الأرمن. وعُشر السكان من التركمان والأكراد والبدو. ولم تعد أنطاكية سوى ضيعة فقيرة يسكنها عدة مئات من البؤساء. وفوق أطلال صور بعض الأكواخ التي يسكنها ثمانمئة أو تسعمئة متولي (Motouàly). وتدفع سوريا 36000 (ستة وثلاثين ألف درهم)، منها 3145 (ثلاثة آلاف ومئة وخمسة وأربعين) درهم إلى خزانة القسطنطينية و6000 (ستة آلاف درهم)، من أجل مصاريف قافلة مكة، والباقي مكسب الباشوات. إن المدن تتدهور، وتزدحم الموانئ، وتتهّدم الطرق، وتجعل المستنقعات السهول غير صحية؛ فتغلب في كل الأنحاء التيفون (الوحش) على أوزيريس. ورغم ذلك ما زال هذا البلد يحتفظ بمظهره. قال كاتب عربي: "مصر مزرعة، ولكن سوريا بستان".

وتتكون الأمة العربية من شبه الجزيرة العربية والعراق، ومصر، وتتكلم لغة مختلفة، ولها عادات أخرى، وآراء مسبقة عن باقي الامبراطورية العثمانية. ويوجد في سوريا أربعة أمم مطالبة بدفع الجزية، وخاضعة للباشوات، ولكنها تمارس الحكم الذاتي، وهم: النصارى، والموارنة، والدروز، والمتوليون، وهؤلاء الآخرون أنصار "علي". ويبلغ عدد سكان الشعوب الأربعة خمسمئة وخمسة وستين ألف نسمة، وهم الدروز (مئة وعشرون ألف)، والمتوليون (خمسة آلاف)، والموارنة (مئة وعشرون ألف)، والنصارى (مئة وعشرون ألف). ويبلغ عدد المسيحيين المنتشرين في الولايات الخمس مائتي ألف، والمجموع خمسمئة وخمسة وستون ألف هم عدد السكان، وذلك غير المسلمين والعثمانيين. ويوجد ثلاث أمم رحالة؛ هم التركمان في أنطاكية، ويترددون بالتناوب على سهول أنطاكية وجبال الكرمانيين، وعددهم ضخم، ويمتلكون كثيرًا من المواشي. ويقيم الأكراد على شواطئ الفرات وصحاري العراق. ويسكن البدو على الأطراف في اتجاه مصر ومكة والبصرة (Bassora).

ويرتفع عدد سكان البحر في سوريا على امتداد مئة وخمسن فرسخًا إلى خمسة وأربعين ألف نسمة. وطول المسافة من الإسكندرية إلى أليكساندريتا بحرًا مائتان وخمسون فرسخًا. وأليكساندريتا هي المدينة الوحيدة التي يمكن أن ترسو بها عمارة، ولكن صعوبة الخروج وعدم ملاءمة الجو للصحة، يدفعان البحارة إلى تجنبها، بينما تقدم سواحل الأناضول وآسيا الصغرى العديد من المرافئ الصالحة للملاحة.

رابعًا: تحيط سوريا الصحاري من الشرق والجنوب، وتفصلها صحاري الشرق عن الفرات والعراق أو الرافدين. و[تفصلها] صحاري الجنوب عن البتراء العربية (l'Arabie Pétrée) والبحر الأحمر ومصر. وتعبر قوافل حلب ودمشق الصحراء، وتصل إلى بغداد والبصرة، وتقوم بالتجارة مع بلاد الفرس والهند. وتغادر قوافل الحجاج من دمشق لتتجه إلى مكة والمدينة، وقوافل أخرى تتبادل البضائع وتتجه إلى القاهرة، وتقابل الصحراء في غزة. وتذهب قوافل القدس إلى البحر الأحمر، وتتم تجارة هذا البحر عن طريق قلعة العقبة. وكانت هذه القوافل تعبر عن طريق الجليل، ستة فراسخ، وهي مدينة مشهورة، ونجد فيها قبر إبراهيم، ويطلق عليها "المحبوبة"، ومن الجليل حتى زوار (Zoar) عند نهاية البحر الميت خمسة وعشرون فرسخا، ومن زوار إلى كارك (Karak) خمسة عشر فرسخًا. وما زالت كارك آهلة بالسكان، وتدل الأطلال على أنها كانت مدينة مزدهرة. ومن كارك إلى قلعة العقبة على البحر الأحمر خمسة وثلاثون فرسخًا. ويوجد في قلعة العقبة بعض السكان، كما يوجد بها ماء، وتقيم فيها القوافل القادمة من القاهرة إلى مكة، ومن هناك كانت تتابع أساطيل سليمان البحر الأحمر حتى الهند. ويقع ميناء قلعة العقبة على بعد خمسة وأربعين فرسخًا شرق جنوب شرق السويس. وبين خليج قلعة العقبة وخليج السويس توجد صحاري التيه، وجبل سيناء، ووادي فيران (Faran)، وجبل حورب (Horeb)، ويعتبر طور ميناء جبل سيناء. وعندما خرج شعب الله من مصر، ظل أربعين سنة يهيم على وجهه في

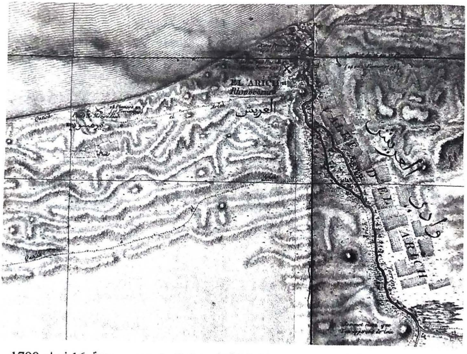
تلك المناطق. ودائمًا ما نجد فيها ينابيع غزيرة الماء، وأودية جميلة تختلط بالصحاري. وميناء الطور يبعد خمسة عشر فرسخًا عن جبل حورب، وعلى بعد تسعين فرسخًا من رفح على البحر المتوسط. وتبلغ المسافة من جبل سيناء إلى السويس خمسين فرسخًا.

وتمتد الصحراء التي تفصل سوريا عن مصر من غزة إلى الصالحية، وطولها سبعون فرسخًا. وتستغرق القوافل ثمانين ساعة لعبور هذه الصحراء. وتبعد غزة عن القاهرة مئة فرسخ. وتنقسم الصحراء إلى ثلاثة أجزاء: (1) من الصالحية إلى قطية (Qatyeh) يوجد ستة عشر فرسخًا من الرمال القاحلة، ولا يوجد ظل ولا ماء، ولا أي أثر لنبات، وتسير القوافل فيه عشرين ساعة، وقد أمضت القوات الفرنسية يومين في هذه المسيرة، ويلزم الإبل والعربات والمدفعية ثلاثة أيام. وتوجد على مقربة من قطية رمال متحركة مرهقة للغاية للنقل بالطُنبر (أجرة النقل). وقطية عبارة عن واحة يوجد بها بئر ماء قليل المرارة، إلا أنه يصلح للشرب رغم ذلك. وتوجد ألف نخلة تكفي لتوفير الظل لحماية أربعة آلاف أو خمسة آلاف رجل. ويعتقد أن قطية كانت معسكر الإسكندر، ويوجد خمس فراسخ منها إلى أطلال بيلوز (Péluse)، وقلعة طينة (Tyneh)، وأربعة فراسخ حتى شاطئ البحر. وهكذا يمكن تموين مؤسسات قطية من السفن التي تغادر دمياط وتتبع بحيرة المنزلة حتى طينة، أو عند الخروج من بوغاز دمياط، وتتبع سواحل البحر المتوسط، وتقوم بالنزول على الشاطئ أمام قطية.

ويمتد الجزء الثاني من واحة قطية حتى واحة العريش، خمسة وعشرين فرسخًا، حيث تسير القوافل اثنتين وثلاثين ساعة. وقد استغرق الجيش الفرنسي ثلاثة أيام ونصف في هذه المسيرة، وقابل الجيش على هذا الطريق ثلاثة آبار تمثل محطات، ولكن هذه الآبار لا توفر الماء إلا لكتيبة أو كتيبتين. والبئر الأول هو بئر العبد (ستة فراسخ ونصف الفرسخ)، والبئر الثاني بركة العيش (سبعة فراسخ ونصف)، والبئر الثالث مسودية (mesoudyeh)، ثمانية فراسخ، ويقع على بعد ثلاثة فراسخ من العريش. وباتباع هذا الاتجاه، نجد أننا على بعد فرسخين أو ثلاثة فراسخ من البحر المتوسط حتى مسودية حيث نسير على شط الجزر. وعلى بعد ثلاثة فراسخ شمال بئر العبد نجد جبل كيسون. وإذا تم نصب معسكرات في كل هذه المضطجعات كان من الممكن تزويدها بالماء والمؤن والعشب عن طريق البحر. والمراكب التي تغادر دمياط أو يافا تقوم بإنزالها على الشاطئ بعد ثلاثة فراسخ من الآبار، ولكن سيكون من الأفضل تحديد الليالي على شاطئ البحر نفسه، والسير على موقع بحيرات الملك بردوال وسوف تشكل هذه المخازن المحصنة حماية للملاحة. وتعتبر العريش واحة أكثر اتساعًا وأكثر إنتاجًا من واحة قطية، وتوجد بها ستة آبار تكفي احتياجات جيش من خمسة عشر ألف إلى عشرين ألف رجل، وعدة آلاف من النخيل تحميهم بظلها. وكانت توجد قرية ضخمة من الطوب تضم ما بين خمسمئة إلى ستمئة ساكن، وقلعة مبنية. وهذه القلعة والقرية على بعد نصف فرسخ من البحر، مما يجعل التموين من هذه المخازن

سهلاً. وعلى شاطئ البحر نشاهد أطلال مدينة العريش القديمة (Rhincocorura)، وكانت مكان العريش، وكان بها حاجز أمواج وميناء لسهولة الملاحة.

ويمتد الجزء الثالث من هذه الصحراء من العريش إلى غزة، وطوله تسعة عشر فرسخًا. وتقطعه القوافل سيرًا بين ثلاثة وعشرين وأربعة وعشرين ساعة. وقد استغرقت القوات الفرنسية ثلاثة أيام لعبوره. وعلى بعد أربعة فراسخ من العريش نجد تمثال خروب (Kharoub). وعلى أربعة فراسخ بعدها بئر زاوي (Zaouy). وعلى بعد أربعة فراسخ من زاوي بئر رفح (Reyfah)، وعلى بعد فرسخين قصر خان يونس، وهناك تبدأ سوريا. ومن خان يونس حتى غزة سبعة فراسخ، وتنتهي الصحراء، وهي جبال وسط بين الصحراء والبلد المزروع. وطوال هذا الطريق نحاذي شواطئ البحر على بعد فرسخ أو نصف فرسخ. وقد كانت رفح مدينة ضخمة، وما نزال نرى فيها أطلالاً. ويلزم لجيش كبير اثني عشر يومًا لعبور هذه الصحراء الشاسعة وخليج السويس، مع الإقامة يومًا في قطية، ويومًا في العريش.



37- العريش 18-21 فبراير، و1-2 يونيو، 14-16 فبراير ، 1و2 يونيو، بير مسودية 16 فبراير1799.
خريطة (32)

ونحن نرى في كل العصور أن الجنرالات تزحف من مصر إلى سوريا، ومن سوريا إلى مصر، وكانوا يعتبرون هذه الصحراء عائقًا كبيرًا كلما ازدادت أعداد الخيول. وكما قال قدامى المؤرخين: "عندما أراد قمبيز (Cambyse) اختراق مصر، تحالف مع ملك عربي شق له ترعة ماء في الصحراء، وهو ما معناه أن يغطي الصحراء بجمال تحمل الماء". وقد أراد الإسكندر أن يرضي اليهود ليساعدوه في عبور الصحراء. ومع ذلك فإن هذه الصعوبة في الأزمنة القديمة لم تكن ذات أهمية مثل اليوم، فإن هناك مدنًا وقرى، فقد نجحت مهارة الإنسان في التغلب على هذه الصعوبات. واليوم قد لا يكون هناك عائق من الصالحية حتى غزة، ويجب على الجيش عبورهما على التوالي، وأن يقيم معسكرات ومخازن في الصالحية وفي قطية والعريش. وإذا سافر هذا الجيش إلى سوريا، فلا بد في البداية من أن يقيم مخزنًا ضخمًا في العريش ثم ينقله إلى قطية، ولكن كل هذه العمليات البطيئة للغاية تتيح للعدو الوقت ليجهز استعداداته للدفاع.

وإن عبور الصحراء في فصل الصيف عملية في غاية الإرهاق وغاية الحساسية؛ حيث: (1) حرارة الرمال، (2) ونقص المياه، (3) وغياب الظل، حيث يمكن هلاك الجيش أو إرهاقه، وقد تهبط عزيمته أكثر مما يمكن تصوره. والشتاء عائق أقل بكثير، فليس هناك تعرض لحرارة الرمال، ولا شدة الشمس التي لا تحتمل، ونحتاج إلى كمية ماء أقل. إذن فإنَّ من السهل استيعاب أنَّ موقعًا حصينًا في العريش يعدُّ شيئا ثمينًا يحول دون أن يستخدم العدو الآبار وإقامة معسكر تحت ظل النخيل. ويقيم الجيش الذي يريد محاصرته معسكره تحت الشمس الحارقة، ويستلم من غزة المئونة، والصناعة (وهي حزمة من الأغصان توضع في مجرى الماء ليحتبس به ويمسكه حينًا)، والخشب، والعلف، والماء. وبعد احتلال العريش لا بد من قضاء عدة أسابيع لتموين المخزن بطريقة يمكن بها أن يكفي كل احتياجات الجيش في أثناء حصار قطية. ولمحاصرة قطية يجب الحصول على المئونة والصناعات والماء من العريش. وقبل أن يخاطر الجيش بترك قطية يجب إقامة مخزن كبير فيها يمكن أن يكفي احتياجات الجيش في عبوره حتى الصالحية. هذا الجيش الذي أرهقه عبور الصحراء من قطية إلى الصالحية، يمكن هزيمته بجيش أضعف منه، ولو انهزم قبل الوصول إلى القاهرة فلن يجد أمامه إلا خط انسحاب، ويرتبك بسبب كمية الجمال الهائلة التي تحمل الماء. فالجيش المنهزم والمنسحب في الصحراء لا يستطيع أن يتخذ موقفًا، ولا يستطع إلا اللجوء إلى غزة. والجيش الذي يدافع عن مصر يستطيع إما أن يجتمع في العريش، وذلك يقاوم احتلال الميدان، أو يجتمع في قطية لرفع حصار العريش، أو ينتظر العدو في قطية، أو ينتظره في الصالحية، كل هذه المواقف تقدم له بعض المزايا.

ومن كل العقبات التي يمكن أن تحمي حدود الامبراطوريات، فإنَّ صحراء مثل هذه الصحراء هي أكبر العقبات. وتوجد سلاسل جبال - مثل جبال الألب - تحتل الصف الثاني، والأنهار الصف الثالث، ولو كانت هناك

صعوبة في نقل مئونة الجيش فإنه من النادر أن نوفق في ذلك تمامًا، فإن هذه الصعوبة تصبح أكبر عشرين مرة عندما يلزم نقل الماء والعشب والخشب مع الجيش؛ إنها ثلاثة أشياء ذات وزن كبير، ومن الصعب نقلها، وعادة ما تجدها الجيوش في أماكنها.

الفصل التاسع

غزو فلسطين

أولاً: إقرار حرب سوريا (1799). ثانيًا: تقسيم الجيش إلى ثلاثة فيالق. ثالثًا: عبور صحراء خليج السويس معركة العريش (9 فبراير)، معركة الليل (15 فبراير)، الاستيلاء على القلعة (الحصن) (21 فبراير). رابعًا: تشرد الجيش في الصحراء (22 فبراير)، معركة غزة (26 فبراير). خامسًا: الزحف نحو يافا، محاصرة المدينة والاستيلاء عليها (6 مارس). سادسًا: الطاعون في يافا، عقد هدنة مع أغا القدس (10 مارس). سابعًا: معركة نابلس (15 مارس). ثامنًا: احتلال حيفا، الوصول أمام عكا (18 مارس).

أولاً: إنَّ ضياع مستعمرات فرنسا في الهند الغربية، وحصول الزنوج على الحرية، والأحداث التي استمرت ثماني سنوات وكانت سان دومينجو مسرحًا لها، [كان ذلك مما] لم يعد يترك الأمل في إعادة النظام الاستعماري القديم. وعلاوة على ذلك، أقيمت سلطة جديدة في سان دومينجو يديرها الزنوج في حماية الجمهورية، أدت إلى انهيار جاميكا والمستعمرات الإنجليزية. وفي هذه الظروف، كانت فرنسا في حاجة إلى مستعمرة جديدة وكبيرة تحل محل مستعمرات أمريكا منذ الصراع الأخير الذي قامت به فرنسا ضد انجلترا في الهندستان، والذي فقدت فيه كل مؤسساتها، ولم يبق لها سوى مستعمرة جزيرة فرنسا الرائعة والصغيرة.

وعلى العكس، فقد زاد وجود الإنجليز إلى حدٍّ كبير، ودعمت سيطرتها داخل الهند، مما جعل من الصعب الهجوم عليها مباشرة. فقد سيطروا على كل الموانئ، وأقاموا فيها مئة وخمسة وعشرين ألف رجل، من بينهم ثلاثون ألف أوروبي كانوا يشغلون في الحقيقة مساحة واسعة من البلاد. وشكلت شعوب طيبو- صاحب (Tippo-Sahib)، والمهراتية، والسيخ، وغيرها من الشعوب المتحاربة غير خاضعين يمثلون كتلة من قوات كانت على استعداد للانضمام إلى الجيش الفرنسي. ولكن لخوض حرب على أمل النجاح فوق مسرح بعيد للغاية، كان لا بد من السيطرة على موقع وسيط، يستخدم ساحة للعرض العسكري. وقد كانت مصر - التي تقع على بُعد ستمئة فرسخ من طولون، وعلى بُعد ألفين وخمسمئة فرسخ من ملابارن - هي ساحة العرض العسكري [تلك]، إذا ما استوطنت فرنسا بقوة في هذا البلد، حيثما تسيطر عاجلاً أو آجلاً على الهند، وتستعيد تجارة الشرق الغنية مسارها القديم عن طريق البحر الأحمر والبحر المتوسط. وبناء عليه، فمن جانب كانت مصر ستحل محل سان دومينجو وجزر الأنتيل (Les Antilles) (منطقة الكاريبي)، ومن جانب آخر تكون طريقًا إلى غزو الهند.

قد اخترق الإسكندر الهندستان، عابراً نهر السند في الجزء الأعلى لمجراه، وعاد عن طريق بابل بعبور صحراء الكدروزية أو مكران (Mékran)، وإن كان جيشه قد عانى فيها، ذلك لأنه لم يتزود بكل ما هو ضروري لمثل هذا العبور. وتم عبور المحيط بواسطة السفن، وتتوقف صعوبة عبور الصحراء بواسطة الجمال. ومن مصر يمكن لجيش على الجمال أن يصل إلى البصرة في خلال ثلاثين يومًا، أو خمسة وأربعين يوماً، ومن البصرة، يستطيع في أربعين يومًا أن ينتقل إلى حدود (أقاصي) مكران، وسيجد على طريقه شيراز مدينة كبيرة وجميلة. وكل الكرمان بلد غنية، حيث يتزود الجيش لعبور الصحاري حتى السند. هذه الصحاري أقل جفافًا من صحاري الجزيرة العربية. والجيش الذي يغادر مصر في شهر أكتوبر قد يصل إلى مقصده في مارس، وهناك يجد أنه وسط السيخ والمهرته.

لم تكن قوة الجيش إلا ثلاثون ألفا، ولكن كانت الملاكات (ضباط وصف ضباط) كافية ستون ألفًا. وفي الواقع كان في الجيش أربعمئة وثمانون فرقة مشاة، وستون فرقة فرسان، وأربعون فرقعة مدفعية، ونقابون (جنود إطفاء)، وصانعو ألغام، وعمال وعجلات مدفعية، وكان يستطيع عندئذ قبول ثلاثين ألف مجند من البلاد. وكان يمكن تحديد عددهم على النحو التالي: خمسة عشر ألف عبد أسود من سنار ودارفور، وخمسة عشر ألف يوناني وقبطي وسوري وصغار المماليك ومسلمون من الصعيد، اعتادوا جو الصحراء والمناطق شديدة الحرارة.

ويمكن أن توفر مصر كل شيء: عشرة آلاف حصان، وخمسة عشرة ألف بغل، وخمسون ألف جمل، والقِرب، والدقيق، والأرز، وكل الأشياء الضرورية لهذه المهمة. وإن إقامة صلبة في هذه المنطقة، كانت إذن هي أساس كل هذا الصرح.

حسب نابليون قبل أن يغادر فرنسا الزمن والوسائل لتحقيق غزو مصر، ما عدا الزحف إلى السند إن آجلا أو عاجلاً، وحسب ميول شعوب الشرق إلى حد ما، وحسب ما قد تكون الأحداث موفقة نوعًا ما. وقد تباهى بأن الخمسة عشر شهرًا الأولى، منذ شهر يوليو 1798، وحتى أكتوبر 1799، كانت تكفيه لاحتلال البلاد، وزيادة المجندين الجدد، والخيول، والجمال، وتجهيزهم وتسليحهم، وأنه في خريف 1799 وشتاء 1800، قد يستطيع الزحف إلى هدفه مع كل أو بعض جيشه، لأن أربعين ألف رجل، منهم ستة آلاف حصان، وأربعون ألف جمل، ومئة وعشرون مدفع معركة، كان يرى أنهم يكفون لإثارة الهندستان. وكان من المتفق عليه في فرنسا أن الحكومة سوف تتيح - في أكتوبر أو نوفمبر 1798- سفر ثلاثة سفن مدافع من عيار 74، وأربع فرقاطات، وخمس مراكب زمارة (Flûtes) تحمل ثلاثة آلاف رجل لتمّون جزيرة فرنسا، وتقابل في بحار الهند وأنه عندما يتقرر زمن زحف الجيش إلى نهر السند، فسوف تسافر من بريست (Brest) عمارة من خمس عشرة سفينة حربية وست فرقاطات،

وخمس عشرة مركب زمارة ضخمة، تحمل خمسة آلاف رجل، ومؤن، وذخائر حربية. وكان يجب على الأسطول الاتصال بالجيش البحري على سواحل المكران. بعد أن أعطى كل المعونات إلى الجيش لمساعدته للاستيلاء على موقع محصن، سورات (Surat) وبومباي وجوه (Goa)، يجب أن تنقسم إلى فرق صغيرة لتتقابل في البحار من نهر السند حتى الصين. وكان لا بد من رحيل ثلاثة فرق من جزيرة فرنسا لتُشكل مخازن في الموانئ الثلاثة لساحل مكران التي تم تعيينها، وثلاثة آلاف رجل من الفرق التي كانت موجودة بجزيرة فرنسا، لديها مِلاكات لأجل ستة آلاف رجل، لا بد من استكمالها بألف وخمسمئة مُستوطن (colons) أبيض، وألف وخمسمئة أسود. ويُخصص ستة آلاف رجل لحراسة هذه المخازن أو الإسكالات وتلحق بالجيش عند مروره.

إنَّ نجاح الهجوم على الإسكندرية، ومعارك شبراخيت والأهرام، وتفاهم العلماء الذين أزالوا الصعوبة الكبرى أي التعصب الديني، قد جلب الأمل في خضوع مراد بك وإبراهيم بك، ولكن انهيار الأسطول كان له وقع مزدوج بمنع المماليك من الخضوع، وإتاحة الفرصة للعدو لإقامة حصار شديد (مُحكم) على الشواطئ. لم تعد هناك اتصالات مع فرنسا، وكان ينتظر منها معونة ثانية من ستة آلاف رجل كانوا قد أبحروا من طولون، وكذلك التزود بالكسوة، وغير ذلك. وأخيرًا فإن ضياع الأسطول قد دفع الامبراطور سليم إلى إعلان الحرب على الجمهورية. وبعد معركة سيدمنت (Sédiman) انتفاضة القاهرة، تمت مفاوضات جديدة مع مراد بك وإبراهيم بك، وكانا على استعداد للخضوع وخدمة الأعلام الفرنسية، ولكنهما تلقيا الخبر أن الباب العالي جهز جيشين للحرب، وأرادا انتظار نتيجة هذه العملية. وكان [هذان] الجيشان كل منهما يتكون من خمسين ألف رجل، وقد اجتمع أحدهما في رودس (Rhodes)، والآخر في سوريا، وكان يجب عليهما التصرف في نفس الوقت خلال شهر يونيو 1799. وكان على الجيش الأول الإبحار من دمياط أو أبو قير، وكان على الثاني عبور الصحراء من غزة إلى الصالحية ويتجه إلى القاهرة، وينطلق المماليك والعرب وأتباعهم من الداخل في نفس الوقت. وفي الأيام الأولى من شهر يناير 1799، عُلم بوصول أربعين مدفع، ومائتي عربة ذخيرة من القسطنطينية إلى يافا. وقام باستخدام هذه المدافع ألف وخمسمئة مدفعي قام ضباط فرنسيون بتدريبهم. وتم تجميع مخازن هائلة من البسكويت والبارود، والقرب، في يافا ورام الله وغزة. وقد وصلت طليعة الجزار باشا وعددها أربعة آلاف رجل إلى العريش، وكان عبد الله قائدها في غزة، ومعه ثمانية آلاف آخرين، وكان ينتظر عشرة آلاف من دمشق، وثمانين ألفًا من القدس، وعشرة آلاف من حلب، ومثلهم من إقليم العراق. وقد تجمع، من قبل، ثمانية آلاف من رودس، وينتظرون عشرة آلاف من ألبانيا، وسبعة آلاف إنكشاري من القسطنطينية، وخمسة عشر ألفًا من آسيا الصغرى، وثمانية آلاف من اليونان، وفي القسطنطينية كانت تستعد عمارة تركية، ووسائل للنقل.

وقد تراجعت الروح المعنوية في مصر خشية هذا الغزو، ولم يكن مستحيلاً ألا يتم عمل شيء، ولو انضمت

فرقة إنجليزية إلى جيش رودس، فسيصبح هذا الاجتياح خطيرًا، فقرر نابليون اتخاذ المبادرة بالهجوم، وأن يعبر بنفسه الصحراء ويحارب جيش سوريا بمجرد أن تتجمع الفرق المختلفة، والاستيلاء على كل المخازن ومواقع العريش، وغزة ويافا وعكا. وقرر تسليح المسيحيين في سوريا، وتحريض الدروز والمارونيين، وبعد ذلك يتخذ قراره حسب الظروف. وكان يأمل - عند وصول خبر احتلال عكا - أن ينضم إليه المماليك وعرب مصر وأتباع بيت ضاهر (Daher)، فيصبح في شهر يونيو مُسيطرًا على دمشق وحلب، وتكون مواقعه المتقدمة على جبل طوروس وتحت أوامره المباشرة 26000 (ستة وعشرون ألف) فرنسي، وستة آلاف مملوك، وفرسان عرب من مصر، وثمانية عشر من الدروز والمارونيين، وفرق أخرى من سوريا. وقد يكون ديزيه في مصر مستعدًا لمعاونته على رأس قوة من 20000 (عشرين ألف) رجل، من بينهم 10000 (عشرة آلاف) فرنسي، و10000 أسود، محاطون بضباط وصف ضباط. وفي هذه الحالة، سيكون في موقف يفرض على الباب العالي ويضطره إلى الاستسلام، ويُقبل على موافقته على الزحف نحو الهند. ولو ساعد الحظ مشروعاته، لكان يستطيع أيضًا أن يصل إلى السند في شهر مارس 1800، ومعه أكثر من أربعين ألف رجل، رغم ضياع الأسطول. وكان لديه مخابرات في بلاد الفرس، وكان متأكدًا من أن الشاه لن يعترض على مرور الجيش من البصرة وشيراز ومهران، ولكن الأحداث قوضت حساباته. ومع ذلك، فقد حققت حرب سوريا أحد أهدافه، القضاء على جيوش الأتراك، وأنقذت مصر من أهوال الحرب، وعززت بريق هذا الغزو. وكان قد تحقق الهدف الثاني في عام 1801 بعد معاهدة لينفيل (Lunéville) لو بقي كليبر حيًا.

ثانياً: كان عدد أفراد جيش الشرق - في أول يناير 1799 - تسعة وعشرين ألف وسبعمئة رجل مُحارب وغير مُحارب، أي اثنان وعشرون ألفًا من سلاح المشاة، وثلاثة آلاف من سلاح الفرسان، واثنان وثلاثون ألفًا من سلاح المدفعية والهندسة، وستمئة مُرشد، وتسعمئة من غير المحاربين من العمال والموظفين المدنيين، والمجموع تسعة وعشرون ألفًا وسبعمئة رجل ينقسمون إلى ثلاث فيالق كما يلي:

	مصر العليا	مصر ا لسفلى	سوريا	المجموع
مشاة	5000	7000	10000	22000
فروسية	1200	1000	800	3000
مدفعية	300	1300	1600	3200
مرشدون			600	600
غير محاربين	50	700	150	900
	6550	10000	13150	29700

كان قادة مصر العليا هم الجنرالات: ديزيه، وفريان، وبليار، ودافو، ولاسال (Lassalle). وكان قادة مصر السُفلى (الدلتا)، الجنرالات: دوجا، ولآن، ومارموّن، وألميرا، وكان جيش سوريا يتكون من: كليبر، وبون، رينيه، لان، مورا، دومرتان، وكفاريللي دي فالجا، فيال، فو، جينو، فرديه، ولاجرانج.

وكانت كل فرقة من جيش سوريا تمتلك ستة مدافع معركة، وتمتلك الفروسية ستة مدافع على حصان، ويمتلك الحرس ستة مدافع على حصان، والمجموع ستة وثلاثون مدفعًا. والعربات (le parc)، أربعة مدافع من عيار 12، وأربعة من عيار 8، وأربعة قذافين، وأربعة مدافع هاون 8 بوصة، والمجموع ستة عشر مدفعًا، والإجمالي اثنان وخمسون مدفعًا، مع تموين مضاعف للآلات وطاقم ألغام، وطاقم حصار من أربع مدافع من عيار24، وأربعة من عيار 16، وأربعة مدافع هاون 8 بوصة، مع كل ما هو ضروري، تم إبحارها من دمياط على مراكب شباك (chébec) أو ترتان، وكان من المستحيل جرّ هذه المدافع الضخمة في رمال الصحراء المتحركة.

وكان طاقم الحصار الذي أبحر على ثلاث فرقاطات: لاجونون (*la Junon*)، والكوراجيز(*la Courageuse*)، وألسست (*l'Alceste*)، في مرفأ الإسكندرية تحت قيادة العميد البحري بيريه (Perrée). وقد اتخذ القائد العام هكذا الاحتياط المضاعف، حتى يضمن عدم نقص مدافع ضخمة، والتي كانت حسب التقدير ضرورية من أجل يافا وعكا.

وقد كانت مصالح أعيان القاهرة مع نابليون، فتلقوا بسرور العملية التي تبعد الحرب عن مساكنهم وتنقلها إلى سوريا. وكان يسرهم أن تخضع كل من مصر وسوريا والجزيرة العربية لنفس الامبراطور. وبعثوا وفدًا من خمسة شيوخ من الأكثر علمًا لحث المسلمين في المساجد لمصلحة الجيش، والدفاع عن قضية المسلمين عند الفرنسيين، وإثارة حماس الوطنية العربية. وكان من بين الوفد رجال أجلاء من كل الشرق. وكان انطلاق هذا الوفد من كبار الشيوخ له تأثير قوي على كل سكان مصر. وسعد أهالي البلاد لنجاحات الفرنسيين، وتيقظ عقلهم على تلك الأساليب الحساسة التي أدت إلى أفكار جديدة لم تكن من قبل معروفة لهم.

وقد مرض المنسق سوسي (Sucy)، وكانت جراحه لم تندمل بعد، فأراد العودة إلى فرنسا، وسافر وأبحر من الإسكندرية على مركب مع مائتي عاجز، أبتر وأعمى. كانت رحلته البحرية موفقة في البداية، ولكن بالنظر لنقص المياه فقد اضطرت السفينة للرسو في جزيرة صقلية للتزود بالماء، فهجم سكان الجزيرة الشرسون على السفينة، وذبحوا سوسي (Sucy) والجنود التُعساء الذين نجوا من مخاطر عدة، ومن أخطار معارك جمة. ولم تعاقب هذه الجريمة الشنعاء، وقيل إنها قد نالت مكافأة!

وقد احتاج جيش سوريا إلى ثلاث آلاف جمل، وثلاثة آلاف حمار لحمل المؤن والماء والأمتعة، أي: ألف جمل لمؤنة أربعة عشر ألف رجل لمدة خمسة عشر يومًا، وثلاثة آلاف حصان لحاجة الفروسية، وقيادة الأركان والمدفعية، وألفي جمل لحمل الماء ثلاثة أيام، بالنظر لإمكانية تجديد الماء في قطية والعريش. وتم توزيع الحمير واحدًا إلى عشرة رجال مشاة، مما يضع خمسة عشر رطلاً رهن إشارة كل جندي.

ثالثاً: في العشرين من ديسمبر عسكر في غزة عبد الله، وهو جنرال الجزار، ومعه جيش قوامه مئة وعشرون ألف رجل، وقام باحتلال العريش في 2 يناير 1799 بواسطة أربعة آلاف رجل. وقام الجنرال رينيه - الذي كانت له حامية في حصن قطية منذ بداية يناير - بنقل مقره العام إلى الصالحية، وفي 5 فبراير إلى قطية التي غادرها يوم 6، ووصل يوم 8 إلى آبار مسودية (Mesoudyah)، وحمل الإنذار بالخطر إلى معسكر العريش. تم القبض على ساع مملوك لإبراهيم بك، وتم سجنه، وأعطى معلومات مُبالغ فيها، ففزع الجنرال رينيه، وأرسل على الفور مراسلاً إلى القائد العام ليشرح له الوضع الحرج الذي كان سيقع فيه.

وعندما وصل في الساعة الثامنة صباحًا، على مرمى مدفع العريش، اتخذ موقعًا. كان الأتراك يحتلون القلعة وموقع في مقدمة قرية العريش التي بُنيت مساكنها من الطوب، وأقاموا فيها متراسًا وتحميهم مدفعية القلعة. وبمجرد أن اطمأن العدو لقلة سلاح الفروسية الفرنسية، وجه فرسانه على جانبها وخلفها. كان الأتراك يدافعون عن كل الآبار وغابة النخيل. وأقام الفرنسيون معسكرًا على تل من الرمال، دون ماء، ودون ظل، ودون علف، ودون خشب. وكان متوقعًا وصول عبد الله من غزة بين لحظة وأخرى مع بقية فرقه، واثني عشر مدفع مخصصة لتسليح القلعة، والتي لم يكن بها بعد إلا ثلاثة مدافع. كان وضع الأعداء هائلاً، واكتشفه رينيه لكنه أمر بالهجوم مدركًا أهمية الظروف، وأقام أفضل الاستعدادات الممكنة. وبعد إطلاق نار حامية لمدة نصف ساعة، استولت الكتيبة 85 بالهجوم على قرية العريش. وتم قتل وأسر خمسمئة تركي، واندفع الثلاثة آلاف وخمسمئة الآخرون إلى القلعة حيث انحصروا. وانسحبت الفروسية التركية، واتخذت موقعًا على بعد فرسخ ونصف من العريش،

يخفيها مجرى سيل كبير منبسط على طريق غزة. وقد خسر رينيه مائتين وخمسين رجلا بين قتيل وجريح، فتذمر الجيش ولامه على ذلك. كان هذا اللوم غير منصف، فقد عمل هذا الجنرال ما يتطلب الحذر والظروف.

ووصل عبد الله إلى غزة مع ثمانية آلاف من رجاله لنجدة العريش مساء يوم 11 [يناير]، واتخذ مكانه خلف الفروسية على الضفة اليُمنى لوادي مصر (Egyptus)، وأصبح موقف رينيه غاية في الحرج، ولكن فرقة كليبر التي كانت قد أبحرت من دمياط على بحيرة المنزلة، نزلت في قلعة طينه (Tyneh) بالقرب من أطلال بيلوز، على بُعد فرسخين من قاطية. واستمرت في طريقها بكل سرعة في يوم 6 فبراير إلى العريش، حيث وصلت صباح يوم 12.

وقد استولى الجنرال كليبر على حصن القلعة صباح يوم 12 [فبراير]، وجمع الجنرال رينيه فرقته في غابة النخيل على الشاطئ الشمالي لوادٍ صغير أمام فرقة عبد الله، وقضى يومي 13 و14 في التعرف على الطريق، وأخذ تدابيره وقام بتعيين مختلف الضباط المكلفين بقيادة الطوابير. وفي ليلة 14 و15 نفذ أحد أهم العمليات الحربية الممكن القيام بها، ونقل معسكره في الساعة الحادية عشرة مساء، وسار يمينا وصعد أعلى وادي مصر (Egyptus)، طوال فرسخ، وهناك تخطاه واستعد للقتال، وعلى يساره النهر، وعلى يمينه جهة جانب سوريا، ووجد بشكل حرف T (en potence) على يساره جيش الأعداء. وقام في سرية بالغة بترتيب فرقته في طوابير على هيئة فرق، وكوَّن هكذا ثلاث طوابير، وكل طابور على بعد الانتشار ومدفعيته في المسافات بينها. وبعد 200 قدم قام بجمع قاذفي المدافع من كل طابور، وضم إليهم خمسين رجلاً من سلاح الفروسية، مما جعل قوة كل فصيلة إلى مائتي رجل. وبهذا التكوين بدأ الزحف، وبمجرد أن قابل أول الحرس توقف وصحح موقعه. واندفعت الفرق الثلاث في ثلاثة اتجاهات مختلفة وسط معسكر العدو. وزودت كل فرقة بعدة فوانيس يمكن إخفاء ضوئها عند الضرورة وعلى ذراع كل جندي منديل أبيض، بالإضافة إلى فرق اللغة جعل التعارف أكثر سهولة. وفي لحظة ما، كان الإنذار بالخطر قد بلغ معسكر عبد الله، ووصل رينيه في طابور الوسط إلى خيمة الباشا الذي لم يجد إلا الوقت للهروب على قدميه، وتم القبض على عدد من كشافي إبراهيم بك. وترك العدو مائتين أو خمسمئة قتيل على ميدان القتال، وتسعمئة سجين، وكل جماله، وعددًا كبيرًا من الخيل، وكل خيامه وأمتعته. وفرَّ عبد الله فزعًا، ولم يلحق بفرقة إلا في خان يونس. وفقد رينيه ثلاثة قتلى، وخمسة عشر أو عشرين جريحًا، وعسكر في المكان الذي كان يشغله العدو، وحمى حصار العريش. لقد شهدت هذه العملية صلابة وحكمة استعدادات هذا الجنرال.



38- رفح 13 فبراير ، وخان يونس23 مايو 1799.
خريطة (32)

وظهرت أمام الإسكندرية في الأيام الأولى من شهر فبراير، سفينتان حربيتان إنجليزيتان، وخمس عشرة سفينة. وأطلقت المدافع على المدينة، ولكن بطاريات السواحل أطلقت عليهما النار بكل مهارة، إلى أن توقفت المدفعية خارج الخدمة. وقد ظهر واضحًا أن هدف العدو وقف حركة الجيش نحو سوريا، وهو يهدد الإسكندرية، ولم يكن جيش رودس (Rhodes) قد استعد بعد.

وسافر القائد العام من القاهرة مع فرق بون، ولان، وعسكر يوم 9 فبراير في الخانقاة، ويوم 10 في بلبيس. واتجه إلى معسكر بركة، حيث كان وفد الديوان يعسكر إلى الشرق تمامًا. وكان لكل من الخمسة عشر شيخًا ثلاث خيام، برزت فيها كل [مظاهر] الفخامة الآسيوية. وتناول الغذاء معهم، وزار معسكرهم، ورجع في المساء إلى مقر القيادة في بلبيس. وفي يوم 11 فبراير، أقام معسكره تحت نخيل كُريم (Koràym)، والذي كان قد أنهى نصب خيامه توًا عندما تلقى حامل البرقيات [رسالة] من الجنرال رينيه بتاريخ 9 فبراير صباحًا من بئر مسودية، كتب [فيها] عن معلومات وصلته، جعلته يعتقد بأن كل جيش الجزار يتحرك، وأن طاقمًا من الفرق الهائلة قد وصل إلى العريش، وأن موقفه سيصبح شديد الحساسية وسط هذه الصحراء الشاسعة، وهو ما جعل القائد العام يقرر الرحيل

على الفور، فامتطى جمله، وسار طوال الليل، ووصل إلى العريش فجر يوم 15 فبراير. ولما كانت معركة الليل قد انتهت، توجه إلى معسكر عبد الله، وعبر للفرق عن رضائه عن انتصارات المساء.

قضى مركز القيادة العامة ومجموعة معدات الاحتياطي وفرقتي بون ولان ليلة 12 فبراير في الصالحية، ويوم 13 في العاراس (El-A'ràs)، ويوم 14 في قطية، ويوم 15 في بئر العبد، ويوم 16 في بركة عيش، ويوم 17 في المسودية، وأيام 18 و19 و20 فبراير وصلوا إلى العريش.

ولم تؤثر هزيمة عبد الله على استعدادات حامية القلعة التي أظهرت تصميمًا وعنادًا في المقاومة. أقام الجنرال كفاريللي بطاريتين؛ واحدة من ثمانية مدافع عيار 8، وأربعة قذافين، يصيبون الهدف مباشرة على بعد 150 قامة، والثانية تهجم بالمدافع. وانتهز الفرصة لوضع البطارية الأخيرة بمخزن كبير من الطوب يقع على عشر قامات من الحصن، وجب تسليحه بأربعة مدافع عيار 12. وفي يوم 18 قامت بطارية الهجوم بالمدافع بضرب الحصن، وعطل المدفعية وأسكتها. ولم تصل المدافع من عيار 12 ومعها احتياطي المعدات قبل يوم 20، فعمل الجنرال دومرتان على مضاعفة العربات المجرورة. وفي صباح يوم 19، وصل مدفعان من هذه المدافع، فوضعهما مباشرة في بطارية، في خمس أو ست ساعات من الزمن. حدثت الثغرة في القلعة، وقام الجنرال برتييه بإنذار الحامية التي لم يكن على رأسها شخصية ذات شأن، وكان يدرب الحامية بأربعة أشخاص يستبسلون، وأوفدوا اثنين من بينهما لرد التهديد، وتلقوا الأمر بالدفاع عن القلعة حتى الموت، وصمموا على طاعة الأمر، ولم يريدوا الإذعان. وأخيرًا اقترحوا في بلاغهم النهائي أن يحصلوا على هُدنة مدتها خمسة عشر يومًا، وفي خلال هذه المدة صقلية مون القلعة إذا لم تصلهم الإغاثة. وقد تحدث هؤلاء القادة بكل عزيمة، وأظهروا عزمهم على المخاطرة بالهجوم. وبالقرب من القلعة كان يتم سماع خطب الأئمة للجنود، والدعوات التي يرددونها، وكان كل هؤلاء الرجال متشددين. وقد كان الهجوم المتوقع نجاحه ربما يكلف الجيش خسارة بين أربعمئة أو خمسمئة رجل، نتيجة لأن موقعه لم يكن يتيح له القيام به. ومع ذلك، لم يكن هنالك وقت لضياعه، فانضم عبد الله لرجاله في خان يونس، وتلقى إمدادات على مدى أيام، توضح سعة الحامية بما فيه الكفاية أنها تأمل أن يتم اغاثتها، فقد كانت مياه آبار العريش تستنزف، وكان من الضروري الانتهاء منه.

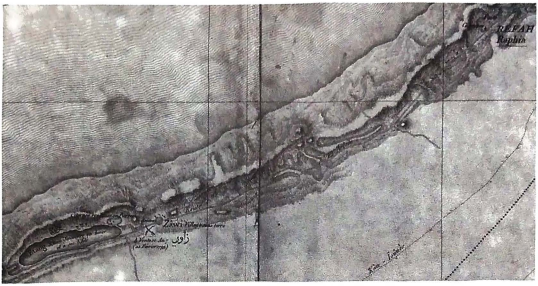
وفي صباح يوم 20 فبراير، جمع دومرتان القذافين في الفرق، وقاموا بقذف القلعة. وألقى جنود المدافع ثمانمئة أو تسعمئة قذيفة بكل مهارة، مما أثار الرعب والموت داخل الحامية، حيث كانت كل قذيفة تقتل أو تصيب كثيرًا من الناس، لأنها كانت تنفجر جميعًا في وسط حصن صغير تكدس فيها الرجال بعضهم فوق بعض. فتغير موقف الحامية فقامت بالاستسلام، وبعد مجادلات عقيمة وقع القادة الأربعة الاستسلام المعروض عليهم. وضعت

الحامية السلاح على الزلاقة (glacis)، وسلمت الخيول، وأقسمت بالذهاب إلى بغداد عن طريق الصحراء، وعدم رفع السلاح على الفرنسيين في أثناء الحرب الحالية، وعدم العودة قبل عام إلى مصر أو إلى سوريا. وتم مرافقتها واصطحابها على امتداد ستة فراسخ باتجاه بغداد. خسرت الحامية في معركة قرية العريش. وفقدت في معركة قرية العريش وفي الهجوم على القلعة سبعمئة قتيل وجريح أو أسير. وطلب ثلاثمئة من المغاربة المساعدة، كان في القلعة 250 حصانًا، ومئة جمل وثلاثة مدافع.

وتم إرسال الأسرى والأعلام والمدافع إلى وفد الديوان في الصالحية، ومنها إلى القاهرة، ودخلت باحتفال الانتصار من باب النصر. وقام المهندسون بإصلاح الثغرة (الفجوة)، وأعادوا القلعة إلى حالتها، وشيدوا أربعة نظارات، مما زاد من قُدرات القلعة، وإطلاق النيران في المنخفضات التي كانت قريبة جدًا.

رابعاً: سافر الجنرال كليبر، قائد الطليعة، في يوم 22 فبراير قبل النهار، كان يتجه إلى بئر زاوي (Zàouy) لقضاء الليلة، وليصل في اليوم التالي إلى خان يونس، صدر له الأمر ليدفع مركزًا أماميًا إلى خان يونس إذا أمكنه ذلك. وكانت المسافة من العريش حتى خان يونس أربعة عشر فرسخًا.

وسافر القائد العام في 23 (فبراير) في الساعة الواحدة بعد الظهر ومعه مئة جمل، ومائتا خفر خيل. وزحف بسرعة ليلحق الطليعة، ووصل إلى الشيخ خروب (Kharoub)، ووجد عددًا كبيرًا من الحفر، خزن العرب فيها القمح والخضراوات. ولم يتم تفتيش أحدها. وعندما وصل إلى بئر زاوي، لم يجد أثرًا للطليعة. كان الجو مُنعشًا، ويحدث غالبًا أن يفضل الجنود مضاعفة الزحف في الصحراء للوصول إلى بلد أفضل. وعندما وصل إلى بئر رفح (Reyfah)، كانت الشمس تغرب، ولم يجد هناك أيضًا أي أثر للفرقة، ثم وصل أخيرًا إلى مرتفع أمام خان يونس، وكانت القرية في المؤخرة، ولا يزال قليل من النهار. ولاحظ عددًا كبيرًا من الخيام، وكان المعسكر أكبر من اللازم حتى يمكن أن يكون معسكر كليبر. وبعد بضع لحظات، أطلقت مفرزة طوارئ الحراسة بعض الطلقات من البنادق ضد المخافر الأمامية للعدو، ووصل قناص بسرعة ليحذر أنه كان يطلق الغدارة مع مماليك إبراهيم بك، وأن هناك معسكرًا ضخمًا حمل السلاح وامتطى فرسانه الخيول. وبدت بسهولة دهشة القيادة العليا. ماذا أصبحت الطليعة إذن ؟ كانت الخيول مُنهكة جدًا، فقد قطعت اثني عشر فرسخًا في تسع ساعات، فلحق بهم فرسان مُرتاحون، فكان لا بد من التراجع سريعًا. وقد كانت آبار رفح قريبة جداً، وكان الوصول إلى بئر زاوي في الساعة الحادية عشرة مساءً، ولم تحصل الفرق التي كانت قد اتجهت عبر البحر والصحراء على أية أخبار.



39 - معركة بئر زاوي 22 فبراير 1799.
خريطة (32)

وفي الساعة الثالثة صباحًا، عادت مفرزة من اثني عشر جملاً من جايان (Gaïan)، وأتت بعربي وجدته في كوخ صغير، وكان يرعى قطيعًا من الإبل، فقال إن الفرنسيين على بُعد ثلاثة فراسخ من العريش، فقد غادروا طريق سوريا، وأخذوا طريق ممهدًا، واتجهوا ناحية جايان ((Gaïan)؛ حيث طريق الكرك (Karak). وغادر القائد العام في نفس الوقت يرشده هذا العربي، وفي الفجر قابل ثلاثة أو أربعة جنود من الخيالة من الطليعة، قدموا له أخبارًا غاية في السوء. لقد تاه كليبر، وكان قد سار خمس عشرة ساعة دون أن يُدرك خطأه، ولكن في الخامسة بعد الظهر، اندهش كثير من الجنود لعدم العثور على شيخ خروب، وقال لهم أناس من العريش أنهم لا بد من أن يجدوا هناك حُفر من الخضار، وعبَّروا عن قلقهم قبل ضباطهم الذين أخبروا الجنرال. وهكذا تنبه كليبر، وتوجه بعد أن اكتشف أنه قد ضل الطريق. ولم يلحق بالطليعة إلا عدة جمال مُحملة بالماء، كانت قد تناولت الغداء، وبعدها مباشرة، استأنفت الزحف عند ظهور القمر، لترجع على أثر خطاها وتعود إلى بئر زاوي، وعرفت أن القائد العام يتبعها، وكانت قلقة جدًا من ذلك إلى أن ظهر لها في الساعة العاشرة صباحًا. وبمجرد أن رأى الجنود [القائد العام] بردائه الرمادي، رحبوا به بصيحات الفرح البالغ. كان يأس الجنود قد وصل لدرجة أن كثيرًا منهم حطموا بنادقهم، فلملم نابليون شتات الفرقة وأقر النظام وقال للجنود أنه:

"ليس بالتمرد يمكن أن يعالجوا آلامهم، وفي أسوأ الأحوال كان من الأفضل لهم غرز الرأس في الرمال والموت بشرف خيرًا من القيام بالفوضى وخرق النظام"،

وأعلن لهم أنهم لم يكونوا بعيدين عن بئر زاوي، وأن الإبل المحملة بالماء كانت سوف تلحق بهم. ووصلت فرقة كليبر ظهرًا إلى بئر زاوي، في نفس الوقت الذي وصلت فيه بقية الجيش وجمال الاحتياطي من العريش. ولم ينقصهم سوى خمسة رجال ماتوا من العطش أو ضلوا الطريق. وتولى لان (Lannes) الطليعة، وبات نفس الليلة في خان يونس. وقال بعض الأسرى، أنه يوم أول البارحة، عندما رأوا حرس القائد العام، كان عبد الله قد ركب جواده واندفع حتى رفح (Reyfah) مع كل فرسانه، ولكن توقف عن ملاحقته عندما اشتد ظلام الليل خشية أن يقع في كمين. تم تجاوز الصحراء الكبيرة، وكان في خان يونس بساتين كبيرة، وكانت مياه الآبار عذبة ووفيرة بما فيه الكفاية، إذ لم تكن تكفي فقط احتياجات اليوم، وإنما أيضًا لملء القرب، حيث لا توجد آبار من هذه القرية حتى غزة.

تم عبور حدود إفريقيا وأصبح الجيش في آسيا، وكانت خان يونس أول قرية في سوريا، وكان الجنود على وشك عبور الأرض المقدسة، وانطلقوا إلى كل أشكال التكهنات. وفرح الجميع بالذهاب إلى القدس المشهورة والتي كانت تخاطب كل الخيالات، وتوقظ كل المشاعر المختلفة. وقد دلهم المسيحيون على بئر في الصحراء، جاءت إليه مريم العذراء من سوريا واستراحت مع ابنها عيسى. كان مع الجنرالات المترجمون والمعاونون والسكرتارية، كان عدد كبير منهم من الكاثوليك السوريين يتحدثون اللغة الفرنسية، والإيطالية برطانة، يشرحون للجنود كل الأساطير المحملة بالخرافات.

أقام الجيش يوم 24 فبراير بخان يونس، وسافر يوم 25 قبل طلوع النهار. وعلى بُعد ثلاثة فراسخ قابل طليعة عبد الله، وأخذ منهم بعض الأسرى. وكان هذا الجنرال قد سيطر على مدينة غزة، ووصلته مساعدات، وكان تحت إمرته اثنا عشر ألف رجل، منهم ستة آلاف من الفرسان، وينتظر في كل لحظة جيش أغا القدس، وكذلك أربعة عشر مدفعًا من أسطول يافا. فإذن كان سيكون معه جيش من عشرين ألف رجل، ولم يكن رجال المشاة منتظمين، ولا يمكن أن تكون لهم أهمية طالما ظلوا خلف أسوار غزة. وكان سلاح الفروسية يتكون من ثلاثة أصناف من الرجال، وهم: مماليك إبراهيم بك، وكانوا فرقًا مميزة، ولكن هذا البك حضر من سوريا مع ألف رجل، لم يكن منهم إلا خمسمئة أو ستمئة على الجياد، وكان عدد أرناؤوط (Arnautes) الجزار باشا ثلاثة آلاف جواد، وعدد الديتال (Detelhs) من دمشق ألفين. وكان العرب يزدادون ويتناقصون في المعسكر حسب الأحوال، وكان عددهم يُقدر وباستمرار بألف أسير.

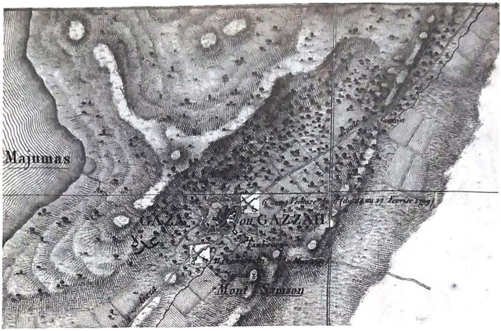
تقابل الجيشان في الساعة الثالثة بعد الظهر، وكان جيش عبد الله يستند على يمين تل ضخم يقال له الخليل (Hébron)، حيث رفع شمشون (Samson) أبواب غزة. ويقع هذا التل أمام غزة، ويفصله عنها وادٍ يُقدَّر طوله

بين سبعمئة وثمانمئة قامة. وكان كل رجال فرسانه على يساره (ميسرته)، ولم يكن قد استولى على مدينة غزة، إلا القلعة حيث يوجد بها قطع ضخمة من المدفعية. وأعطى نابليون الميسرة إلى كليبر، والوسط إلى الجنرال بون. وكل الفرسان تحت إمرة مورا (Murat) أخذت الميمنة، وكانوا أقل عددًا بكثير، وساندهم ثلاث مربعات من مشاة الجنرال لان (Lannes). وقد جاء الفرسان ببعض الأسرى الذين صرحوا بأن أغا القدس لم يصل بعد، وأن فرقة مدفعية أسطول يافا لم تخرج بعد من هذا الميدان لعدم وجود عربات. لم يكن عبد الله يمتلك حينئذ سوى ما بين عشرة آلاف واثني عشر ألف رجل، ومدفعين فقط، ولم يكن [ذلك] مخيفًا بحق. اندفع الجنرال كليبر بقوة في الوادي بين غزة وميمنة العدو، واندفع إلى مؤخرته، واستدار إلى يسار سلاح الفرسان، تدعمه مربعات الجنرال لان (Lannes)، بينما سار الجنرال بون (Bon) مع الوسط إلى الأمام (وجهًا لوجه). وبمجرد أن انكشفت هذه التحركات، بدأ الأتراك التراجع وغادروا كل مواقعهم. ولكن مماليك إبراهيم بك تصرَّفوا بشجاعة، وحطموا ثلاث كتائب من مقدمة الجنرال مورا، إلا أنه حين هاجمهم من الجانب تراجعوا. وقد كان الشوربجية أفضل بقليل من العرب، ومع ذلك كانوا أقل من المماليك، ولا يمكن تقديرهم حتى ثلاثة أضعاف بالنسبة لجنود الخيالة، الذين أزعجوا العدو طوال فرسخين بهجماتهم. ولكن كان الأتراك غاية في الرشاقة، ولم يكن لديهم عتاد، سوى مدفعين تركوهما فقط. أما مماليك إبراهيم بك فقد تراجعوا، وفقد عبد الله مائتين أو ثلاثمئة رجل، وفقد الجيش الفرنسي ستين رجلاً بين قتيل وجريح وأسير. وقد سلم شيوخ وعلماء غزة مفاتيح مدينتهم، وقد وفقت نشرات ديوان جامع الأزهر الذي كان يتابع الجيش، بينه وبين السكان الذين لم يناقضوا أنفسهم أبدًا خلال المعركة. وفي المساء تم حصار القلعة، وبالنظر لتأثير السكان فقد سلمها الأغا الذي كان يديرها عند الفجر. وكان يوجد بالقلعة مدفعان ومخازن ولوازم قرب جيش تركيا.

وتقع غزة على بعد نصف فرسخ من البحر، والإنزال على الشاطئ فيها غاية في الصعوبة، إذ ليس بها مرفأ ولا رصيف للرسو. وتقع المدينة على هضبة جميلة محيطها فرسخان، وكانت هذه المدينة قوية، وحاصرها الإسكندر، ووجد صعوبة في السيطرة عليها وجرح فيها جرحًا خطيرًا. ولكنها الآن ليست إلا مجموعة من ثلاث بلدات بائسة، يصل عدد سكانها إلى ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف نسمة. وسهل غزة رائع وغني، تغطيه غابة من أشجار الزيتون، يرويها عدد كبير من الجداول، ويوجد [به] عدد كبير جدًا من القرى الجميلة.

وقد عسكر الجيش في البساتين المحيطة بالمدينة، واستولى على المرتفعات بواسطة فرق قوية. واستيقظ الجيش وسط الليل بظاهرة لم يعتد عليها، فقد قصف الرّعد، واحترق الجو بالبرق، وسقط المطر كالسيل، فأطلق الجندي صيحات الفرح، فمنذ ما يقرب من عام لم تسقط نقطة مطر، فقال أحد الجنود: "إنه مناخ فرنسا"، ولكن بعد ساعة عانى من المطر حيث لم يجد أي مأوى، وغرق الوادي بعد قليل، وطلب القائد العام نقل خيامه على

ارتفاع الخليل. شعر الجيش بخصوبة التربة، واستراح أربعة أيام من تعب الصحراء، ووجد مئونة وفيرة وحالتها جيدة جدًا. فقد كانت الأرض خصبة، والجو مليء بالسحب، وبعد أيام ابتلت أحذية الجنود.



40 – غزة من 24 إلى27 فبراير – جبل سمسون 30 مايو 1799.

خريطة (43)

وانتهز رينيه وقت الراحة لإرسال نشرات إلى القدس والناصرة ولبنان، كانت نشرات من السلطان الكبير (نابليون) إلى الأتراك، وكانت خطب علماء جامع الأزهر إلى المسلمين المؤمنين. وأخيرًا منشورات إلى المسيحيين. وكانت هذه النشرات باللغة العربية، فقد كان هناك مطبعة في مقر القيادة. وتقع القدس على يمين الطريق، وكان الأمل تعيين عدد كبير من المسيحيين منها، والبحث فيها عن موارد هامة للجيش، ولكن كان الأغا قد أخذ تدابير للدفاع عن المدينة. وقد سعد الجيش كله بدخول القدس غاية في الشهرة، وأنشد بعض كبار الجنود في السن الذين تربوا في مدارس ومرثية "جيرمي" (Jérémie) التي تُتلى في الأسبوع المقدس في كنائس أوروبا.

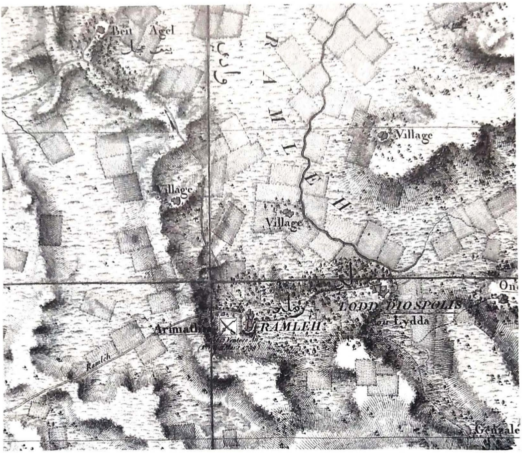
خامسًا: عندما خرج الجيش من غزة، استدار إلى اليسار، وسار وسط سهل عرضه ستة فراسخ، وجد على اليسار التلال التي تحيط البحر، وعلى اليمين أول ربوات جبال فلسطين التي يزداد ارتفاعها على امتداد أربعة أو خمسة فراسخ، ثم ينزل من الجانب الآخر حتى نهر الأردن. وفي أول مارس، وبعد انقضاء سبعة فراسخ في اليوم، عسكر الجيش في أشدود (Esdoud)، بعد أن اجتاز السيل الذي يسقط من القدس، ويصب في بحر عسقلان (Ascalon). وقد اشتهرت المدينة بحصارات ومعارك ذاع صيتها في الحروب الصليبية، وقد تهدمت اليوم ورُدم ميناؤها. واستغرق نابليون ثلاث ساعات لاختراق ساحة قتال عسقلان، حيث هزم جودفروه (Godafroy) جيش السودان ومصر ومغاربة أثيوبيا. وقد حققت هذه المعركة للمسيحية احتلال القدس لمدة مئة عام. وقد أنشد الشاعر لاتاس (La Tasse) عنها أجمل الأبيات عشية رأس السنة. لكن عقارب أشدود كانت مخيفة.

وعندما كان مونج (Monge) يقيم في المعسكر، على أنقاض هذه المدن القديمة، كان يقرأ الكتاب المقدس كل مساء بصوت عالٍ، تحت خيمة القائد العام. كان التشابه وصحة الوصف مدهشة وما زالت تلائم هذا البلد بعد قرون وتقلبات عدة.

وفي يوم 2 مارس، بعد السير سبعة فراسخ، عسكر الجيش في رام الله (Ramleh)، وهي مدينة مشهورة على بعد سبعة فراسخ من القدس، شعبها مسيحي، ويوجد بها عدة أديرة للرهبان، ويوجد بها مصانع للصابون، وأشجار زيتون كثيرة وضخمة للغاية.

وقد اقترب سعاة الجيش ثلاثة فراسخ من المدينة المقدسة، وكان الجيش يشتاق لرؤية جبل الجُلجلة، وهو اسم الجبل الذي صُلِب عليه السيد المسيح. وضريح وهضبة معبد سليمان، وشعر بالألم عندما تلقى الأمر للاتجاه إلى اليسار، ولكن كان مهمًا احتلال يافا، حيث كانت حامية تقوم بتحصينها. وتُعد يافا هي المرفأ الوحيد الذي وجدناه بعد دمياط، وكان احتلاله ضروريًا لفتح الاتصال بالبحر مع هذه المدينة الأخيرة، واستقبال السفن المحملة بالأرز والخبز (البسكويت)، وكذلك معدات الحصار؛ فإن الزحف إلى القدس من دون احتلال يافا يُخالف كل قواعد الحذر. وفي أثناء الخمسة عشر يومًا الأولى من شهر مارس، لم ينقطع المطر عن الهطول، ما أدى إلى نفوق كثير من الإبل؛ لأن هذه الحيوانات لا تحب الأراضي الموحلة، ولا البلاد الرطبة، ومن رام الله إلى يافا خمسة فراسخ.

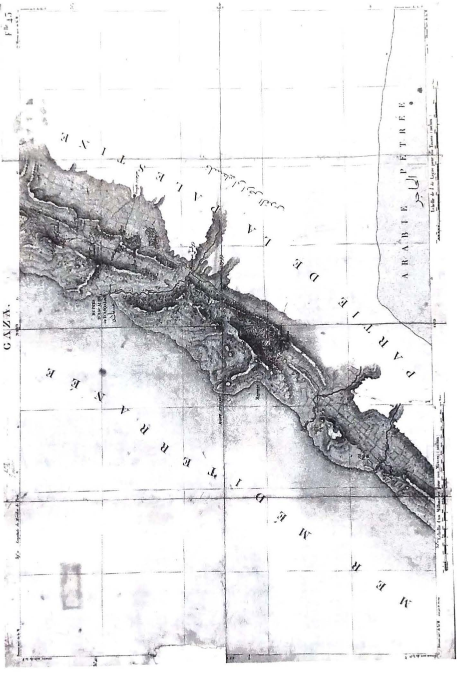
وقد عسكر الجيش أمام يافا، وكانت الحامية قابعة وراء أسوارها ومحاصرة، حيث أخذت فرقة "لان" يسار الحصار، و[أخذت فرقة] الجنرال "بون" اليمين، وانطلق كليبر للمراقبة على نهر الأوجه (Nahr el-Ougeh)، وهو نهر على بعد فرسخ من يافا على طريق عكا. ولم يصل رينيه إلى رام الله إلا يوم 5 [مارس]، وكان يشكل مؤخرة الحرس.



41- الرمله أول و2 مارس 1799.

خريطة (44)

وتقع يافا على بعد تسعين فرسخًا من دمياط التي تمارس معها تجارة كبيرة، وأرصفتها لا بأس بها، وعدد سكانها بين سبعة آلاف وثمانية آلاف نسمة، منهم بضع مئات من اليونانيين. وكان بها عدة أديرة، منها واحد يُدعى "آباء الأرض المقدسة". وتقع يافا على ربوة، وبها ينبوعان من المياه الممتازة والوفيرة. ومن جهة البر، يحيط بها نصف سداسي محاط بأبراج. كانت الأسوار عالية، ولكن دون خنادق، وكانت الأبراج مسلحة بالمدفعية. ويطل الجانب الجنوبي على غزة، والجانب الأوسط على نهر الأردن، ويطل الجانب الثالث على عكا. وجانب البحر الذي يشكل محيط السداسي مقعَّر قليلا، وتشكل الضواحي واديًا صغيرًا تغطيه حدائق وبساتين فواكه لأرض غير متساوية، مما يتيح [للجندي] الاقتراب إلى بعد نصف مرمى البندقية من الميدان دون أن ينكشف. وعلى مرمى



42 - فلسطين - عسقلان

خريطة (43)

كبير من المدفع، يوجد ستار (حاجز) يسيطر على الريف، وقد كان الموضع الطبيعي لإقامة معسكر الجيش، ولكن لما كانت هذه الستارة مكشوفة تمامًا وكنا فيها بعيدين عن الماء وعرضة لحرارة الشمس، فقد فضلنا الإقامة في الوادي ما بين المدينة والموقع، مع حماية الموقع بواسطة مراكز. وتقوم مخازن غزة ورام الله بتوفير الإعاشة، حيث توجد الخضراوات بوفرة في البلد. وقد أقام الجيش معسكره تحت أشجار البرتقال الذي كان ناضجًا، صغيْرا وأبيض، لكنه حلو المذاق، وكان كل الجنود يفضلونه.

وقد اندفع كل سلاح فروسية عبد الله بقيادته إلى يافا، وكان هناك كثير من المدفعية، وسلاح الشوربجية، ورجال مدفعية القسطنطينية بأكملها. وقام سلاح المهندسين والمدفعية، طول نهار يوم 4 [مارس] باستطلاع الميدان (الموقع)، وفي مساء اليومين الرابع والخامس فتحوا الخندق، وشيدوا ثلاث بطاريات، وكانت ميادين السلاح والخطوط المتوازية دون جدوى، إذ كان يكفيهم حفر بعض الممرات (Boyaux) لخدمة الاتصالات. وفي مساء يومي 5 و6 مارس، سلمت المدفعية ثلاث بطاريات (خمسة وعشرين مدفعًا)، اثنان الهدف مباشرة، وكل من الأربعة عيار 8، واثنان من القذافين، والبطارية. وهاجم بالمدفع وأربعة مدافع عيار 12، وأربعة قذافين. وخرجت الحامية مرتين تحت نار المدفعية ونيران بنادق خنادقها (أسوارها)، ولكن الواحدة تلو الأخرى لم تحصل إلا على نجاح مؤقت، وتم دحرهما بشدة. وقد كانت هذه الطلعات مشهدًا لم يخل من أهمية، قام بها رجال من عشرة أوطان، ملابسهم متنوعة؛ مغاربة، وألبانٌ، وأكرادٌ، ومن الأناضول، ومن كرمانيا، ومن دمشق، ومن حلب، وسود من تكرور (Takrour)، وكان من بين الأسرى ثلاثة ألبانيين من حامية العريش، والذين صرحوا بأن كل الحامية قد اتجهت إلى مدينة يافا، منتهكة معاهدة الاستسلام والوفاء بالعهد.

وفي 6 مارس، أطلقت المدفعية صلية من طلقتين، وبعد ذلك، أرسل الجنرال برتييه إلى قائد يافا مفاوضًا مكلفًا برسالة يقول له فيها:

"بسم الله الرحمن الرحيم، القائد العام بونابرت كلفني بإخطارك أن الجزار باشا بدأ الأعمال العدوانية على مصر عندما احتل قلعة العريش، وأن الله العادل قد منح الجيش الفرنسي النصر فاستولى على القلعة، وعلى إثر هذه العملية دخل القائد العام فلسطين، ومنها يود طرد قوات الجزار باشا والتي ما كان يجب عليها أبدًا الدخول إليها. كما أن الموقع مُحاط من جميع الجهات، وأنّ البطاريات التي تصيب الهدف مباشرة بالقنابل أو الهجوم بالمدافع سوف تقضي على الدفاع خلال ساعتين، وأنّ القائد العام بونابرت متأثر للأضرار التي قد تصيب المدينة بأكملها ما لو تم الهجوم عليها، وأنه يعرض حماية الحامية وحماية المدينة، وعلى ذلك فإنه يؤخر بداية إطلاق النيران حتى الساعة السابعة صباحًا".



43 - كليبر في يافا من 3 إلى 7 مارس 1799ومن 24 إلى 27 مايو .
خريطة (44)

وقد تم استقبال الضابط والبواق (النافخ في البوق)، ولكن بعد خمس عشرة دقيقة شاهد الجيش ببشاعة رؤوسهما وهي تعلو مفرزة طوارئ فوق اثنين من أكبر الأبراج، وتم إلقاء جثتيهما من أعلى الأسوار عند سفح بطاريات الخندق.

فبدأ إطلاق نيران البطاريات، وأسقطت بطارية الخندق جزءًا من حائط البرج المهاجم، وأصبحت الثغرة سهلة الاقتحام. وقام لازوفسكي (Lazowski)، قائد كتيبة الهندسة، ومعه خمسة وعشرون جنديًا مسلحًا بغدارات، وخمسة عشر رجلاً من النقابين، وخمسة عمال مدفعية، بإقامة السكن ورفع الأنقاض عن سفح الخندق، وكانت الكتيبة 22 مشاة الخفيفة طبور وراء طية أرض استخدمت ميدان سلاح، وكانت تنتظر الإشارة لاقتحام الثغرة. وكان القائد العام يقف على متراس البطارية، ويشير إلى العقيد ليجين (Lejeune) من هذا الفوج عما يجب عليه عمله، وذلك حين تم إطلاق رصاصة بندقية أوقعته على الأرض، ومرت على بُعد ثلاث بوصات من رأسه، وألقت العقيد ميتًا، وكان طوله خمسة أقدام وعشر بوصات. وفي المساء قال القائد العام: "هذه هي المرة الثانية التي أشارك في الحرب، وأدين فيها بحياتي إلى طولي [البالغ] خمسة أقدام وبوصتين".

وتولى الجنرال لان (Lannes) قيادة الفرقة 22، وتبعته أفواج الفرقة الأخرى، وعبر الفجوة، وعبر البرج، وامتد إلى اليمين وإلى اليسار، واستولى على كل الأبراج، ووصل بعد قليل إلى القلعة واحتلها. وكُلفت فرقة بون (Bon) بعمل هجوم زائف على اليمين، وصعدت الأسوار بواسطة سلالم. وبمجرد أن ساد الاضطراب بين المحاصرين، وصلت ثورة الجندي إلى قمتها، وكلٌ قُتل بحد السيف. شعرت المدينة بعد النهب بكل فظائع مدينة تم الاستيلاء عليها بالهجوم. وجاء المساء، وفي منتصف الليل تم إعلان العفو العام، ما عدا هؤلاء الذين كانوا أجزاءً من فرقة العريش. ومنعوا الجنود الإساءة، وهو ما حدث، وتوصلوا لوقف النار، وأقاموا حراسًا في المساجد حيث لجأ السكان، وفي المحلات والمباني العامة، وجمعوا الأسرى واحتجزوهم خارج الأسوار. ولكن استمر النهب، ولم يستتب النظام تمامًا إلا مع النهار.

وقد بلغ عدد الأسرى ألفين وخمسمئة سجين، من بينهم ثمانمئة أو تسعمئة رجل من فرقة العريش، والذين قضوا ثلاثة أيام في اتجاه بغداد بعد أن كانوا قد أقسموا على ألا يعودوا إلى سوريا قبل عام. ولكن حينئذ غيروا الطريق باتجاه يافا، وخالفوا العهد، فتم قتلهم، وإرسال بقية الأسرى إلى مصر مع الغنيمة وشارات النصر، وغير ذلك.

وكان قد اختفى عبد الله، فتنكر في زي أحد "آباء الأرض المقدسة"، وغادر يافا، فوصل إلى خيمة القائد العام وركع أمامه، وتمت معاملته كما كان يتمنى، وقدم بعض الخدمات، فتم إرساله إلى القاهرة.

وأعلن سبعمئة من راكبي الجمال والخدم والجنود من المصريين -بكل ثقة -أنهم شيوخ، فتم الحفاظ عليهم، وكانوا قد ألقوا بأنفسهم عند أقدام الجنود، فهتفوا "مصريين. مصريين"! كما لو أنهم يقولون: "فرنسيين! فرنسيين!". وعندما وصلوا إلى مصر أشادوا بالاحترام الذي لاقوه عندما عُرف أنهم مصريون. وقد استطاع خمسمئة جندي من الحامية تجنب غضب الجندي عندما ادعوا أنهم من السكان، ومنذ ذلك الوقت تسلموا تصاريح للذهاب إلى ما بعد نهر الأردن.

وفي اليوم التالي قام العلماء بتطهير المساجد، وأقيمت الصلوات كالمعتاد، فبدأت الاضطرابات في التباطؤ، وتم الاستيلاء على مدفعية المعركة من أربعين مدفع، وكانت معدات الجيش المتجمعة في سوريا، وكانت مكونة من أربعة مدافع عيار 4، وقذائف من ست بوصات، مع صناديق ذخيرة، وكلها من النماذج الفرنسية. وكانت المدافع الثلاثون التي استخدمت في تسليح الميدان من البرونز، ولكن من كل الأعيرة. وكان يوجد في المخازن خبز (Biscuit) على شكل متوازي السطوح، صنع منذ عشر سنوات، كان قد جاء من القسطنطينية، وكان يمكن تناوله. وتم تسليح ضباط الجيش بعدد كبير من الخناجر، وتسليح الخدم بكمية كبيرة من البنادق القصيرة والبنادق التركية الفاخرة. وقُدرت الخسائر التي عانت منها المدينة نتيجة النهب بعدة ملايين، ولكن الجنود باعوها كلّ بسعر زهيد، واشتروا من السكان المحليين أمتعتهم بعشر قيمتها. وقد حقق كثير من الجنود مكاسب هائلة في مثل ما يحدث في مثل هذه الظروف. وكان هذا المال مفيدًا في أثناء حصار عكا، ووجدوا أيضًا كثيرًا من القهوة والسكر والتبغ والمعاطف والشالات من جميع الأنواع. وقد غيّر ذلك قليلاً من ملابس الجنود الأوروبيين، حيث أخذت مزيجًا من الشرقية.

وفي اليوم التالي من الاستيلاء على المدينة، كانت قافلة من ست سفن مُحملة بالأرز والطحين والزيت والبارود والخراطيش، قد غادرت عكا قبل يومين وحين رست في المرفأ تم الاستيلاء عليها. فغيَّر نائب الأميرال جانتوم الطاقم، ووجهها إلى حيفا. وقد تميز في هذا الهجوم الجنرال أندروسي والعقيد ديروك (Duroc) وقائد الكتيبة إيميه (Aimé).

سادسًا: كان عبور الصحراء مرهقًا للغاية، وقد أثر على صحة الجيش هذا العبور من مناخ شديد الجفاف إلى مناخ رطب وممطر. ولم تعد تكفي المستشفى التي أقيمت في دير "آباء الأرض المقدسة"، ووصل عدد المرضى إلى سبعمئة مريض، فانسدت الممرات والصوامع والمهاجع (المنامات) والفناء. ولم يكتم الجرّاح الرئيس لاري (Larrey) كل مخاوفه، فقد مات عدة أشخاص بعد أربعة وعشرين ساعة من دخولهم المستشفى، وانتشر مرضهم بسرعة كبيرة. وتم التعارف على أعراض الطاعون، حيث كان المرض يبدأ بالقيء، وكانت الحمى عنيفة،

والهذيان في غاية القوة، وتظهر ودبيلات الطاعون من ثنايا الأربية، وبعد ذلك مباشرة يتوفى المريض بسهولة إن لم يظهر الطفح الجلدي. وقد اعتزل آباء الأرض المقدسة، ولم يرغبوا في الاتصال مع المرضى، وهرب كل الممرضين، وهجرت المستشفى، لدرجة نقص التوزيع. وتم إخطار ضباط الصحة لتلبية كل الاحتياجات، فكان الذين يتعرفون على أعراض الطاعون يعارضون دون جدوى، من كانوا يقولون أنها حُمّى خبيثة، أطلق عليها حمى دبيلة (Bubons). ودون جدوى كانوا يقدمون القُدوة بمضاعفة خدمة العناية والهمة، فدب الفزع والرعب في الجيش. وكانت أحد الظروف المتعلقة بالطاعون أكثر خطورة بالنسبة للأشخاص الذين كانوا يخشونه، والذين سيطر عليهم الخوف ماتوا جميعًا تقريبًا. وارتاب القائد العام من استباحة الأرض المقدسة، فأرسلهم إلى القدس وإلى الناصرة، وذهب بنفسه إلى المستشفى، وكان حضوره مواساة لهم.

وتم إجراء عمليات لعدة مرضى أمامه، وتم فتح الدبيلة لتسهيل الأزمة (النوبة)، ولمس من بينهم مَن فترت همته كثيرًا، وذلك ليثبت لهم أن المرض عادي وليس مُعديًا. ونتيجة لكل هذه الوسائل، بقي الجيش معتقدًا أنه غير الطاعون، ولم يقتنعوا بذلك إلا بعد بضع شهور. ومع ذلك لم يتم إهمال كل الاحتياطات اللازمة، وقام [الجيش]- بدون تمييز، وبشدة - بحرق كل ما تم الاستيلاء عليه من أسلاب المدينة، بل وأخذ بنفس تلك التدابير في المستشفيات كلما تفشت فيها الحُمّى الخبيثة.

وقد كتب برتييه (Berthier) إلى الجزار:

"منذ مجيئي إلى مصر، أخبرتك عدة مرات، أنه ليس في نيتي إعلان الحرب ضدك، وأن هدفي الوحيد هو طرد المماليك، ولم تستجب لأي من عروض الصلح التي قدمتها لك. وعبرت لك عن رغبتي في أن تبعد إبراهيم بك عن حدود مصر، بل وأبعد من ذلك، فأرسلتم بعض القوات إلى غزة، وشيدتم مخازن كبيرة، وأعلنتم في كل مكان أنكم ستدخلون مصر، وحققتم غزوتكم بدفع ألفي رجل من قواتكم إلى قلعة العريش، وتوغلتم لما يقرب من عشرة فراسخ من أرض مصر. وعندئذ اضطررت للسفر من القاهرة، وأعلنت بنفسي عليكم الحرب التي بدا أنكم دعوتم إليها. واليوم أسيطر على أقاليم غزة ورام الله ويافا، وعاملت بكل كرم قواتكم التي استسلمت، وكنت قاسيًا مع القوات التي خالفت قوانين الحرب، وسوف أزحف بعد أيام قليلة إلى عكا. ولكن ما هي الأسباب [التي تجعلني] أحرم شيخًا لا أعرفه من عدة سنوات؟ إن هي إلا عدة فراسخ زيادة على البلاد التي تم فتحتها، وبما أن الله يهبني النصر، فأود أن أكون مثله غفورًا رحيمًا، ليس فحسب نحو الشعب، ولكن أيضًا نحو الكبار... لتعد صديقًا لي، وعدوًا للمماليك والانجليز، وسوف أحسن معاملتك قدر ما فعلت، وقدر ما أصيبك بسوء... في يوم 8 مارس سوف أسير إلى عكا، ولا بد أن يصلني ردك قبل هذا التاريخ".

وقد كان الجزار قليل الإخلاص نحو الباب العالي، فبدأت المفاوضات مع أغا القدس في غزة، واستمرت في أثناء السير (الطريق) وحصار يافا. وبعد احتلال هذه المدينة، كان يجب على الجيش السير والذهاب بعد يومين إلى القدس، وكان كل سكانها مسيحيين، وبها موارد أكثر من أية مدينة في فلسطين. ولكن في يوم 10 مارس،

استقبل القائد العام وفدًا من المسيحيين [جاءوا] يتوسلون إليه لإنقاذهم، فقد كانوا مهددين إذ كان الأتراك قد قرروا ذبحهم قبل ترك المدينة وعبور نهر الأردن. وفي نفس الوقت اقترح الأغا، وكان رجلاً ماهرًا، إعلان الهدنة، وتعهد بإطلاق سراح وحماية المسيحيين، وعدم تقديم أي عون إلى الجزار. وبعد الاستيلاء على عكا، كان الخضوع أمام المنتصر. وكان ذلك ملائمًا، ولم يكن هذا تخليًا عن زيارة القدس، وإنما إرجاء الزيارة أسبوعًا أو أسبوعين.

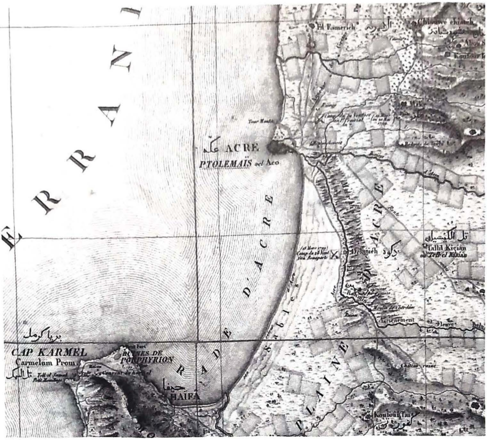
وأرسل العميد البحري جانتوم الأمر إلى الأسطول الصغير الراسي في دمياط بالتوجه إلى ميناء يافا، ووصل إليه يوم 12 مارس، وكان يحمل المعدات الضرورية لحصار عكا. كما أرسل هذا الأميرال بعض الجمال للإسكندرية إلى العميد البحري بيريه (Perrée)، مع الأمر بالإقلاع مع ثلاث فرقاطات والذهاب إلى يافا.

وكان الجنود عاطلين عن العمل منذ ثمانية أيام، وكان يمكن أن تكون الإقامة لأكثر من ذلك مُهلكة لصحتهم، فكانت تسليتهم وإشغالهم بعمليات عسكرية أفضل لهم من تركهم للتفكير في أمراض يافا، والأعراض التي يتم اكتشافها كل يوم. وعندما بدأ الجيش الزحف، وضعت الأمراض أوزارها.

سابعًا: في اليوم التالي لاحتلال يافا، ذهب كليبر إلى غابة مسكي (Mesky)، وقابل مختلف المرشدين الذين كان قد أرسلهم إلى الجبال، فكشفوا أحوالاً عنيفة للغاية عن وجود العدو. وفي أحد هذه اللقاءات، التحم الجنرال ديماس (Dumas) بشدة، وفقد بعض الرجال، وأصيب بجروح خطيرة. وصلت هيئة الأركان إلى مسكي يوم 14 مارس، وقد كانت مسكي الغابة المسحورة للشاعر الإيطالي تاس (Tasse)، وهي أكبر غابة في سوريا، واشتهرت بمعركة دامية بين ريتشارد قلب الأسد وصلاح الدين.

وتبلغ المسافة بين يافا وعكا أربعة وعشرين فرسخًا على الطريق المحاذي البحر، وستة وعشرين فرسخًا عن طريق عبور السهل. ومن الأفضل الدوران حول جبل الكرمل (Carmel) على الطريق الذي يتبع طرف سهل إسدريلون (Esdrelon)، بدلاً من الطريق يصل بامتداد البحر إلى مضيق حيفا (Hayfâ)، وهو ممر يصعب اختراقه إذا كان محميًا.

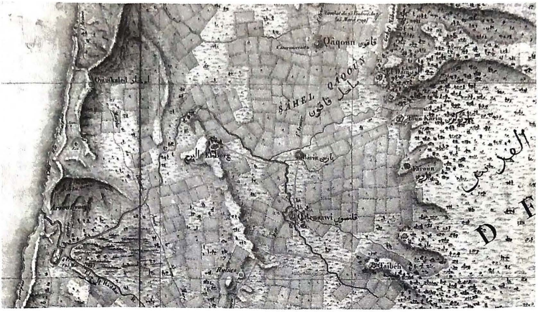
وفي ظهر يوم 15 مارس، وصلت الطليعة إلى قصر قاقون (Qàqoun). ولاحظوا فرسان عبد الله، يساندهم أربعة آلاف من نابلس في الحرب، يحاذون طريق عكا. فغيّر الجيش جبهة القتال والجناح الأيسر إلى الأمام. وشكل الجنرال كليبر الميسرة، وشكل الجنرال لان (Lannes) الميمنة، وشكل الجنرال بون (Bon) الاحتياطي، وتم طرد العدو من كل مواقعه، وسقطوا من المرتفعات، وتمت مطاردتهم بعيدًا قدر الإمكان حتى لا يمثلوا خطورة. واتجه فرسان الجزار نحو عكا عن طريق سهل إسدريلون، ولجأ أهل نابلس إلى مدينتهم. وفي المساء أقيم المعسكر في زيبله (Zeilah)، وقد خسر الجنرال لأن في الحرب خسارة كبيرة، وأصيب مائتان وخمسون بجراح، وقتل وجرح ألف رجل. وأهل نابلس هم من السامرة (السامريين) (Samaritains)، وكان من بينهم عدد من الشخصيات المرموقة، وقد أخضعهم هذا الدرس فترة طويلة.



44 - عكا – جبل كرمل.

خريطة (46)

وفي 17 مارس، عسكر الجيش في الحرتي (El-Harty)، ووصل إليها في ساعة مبكرة، وكان عند منفذ جبل الكرمل وسهل "إسدريلون" الذي كان يلاحظه على يمينه. ويشكل جبل الكرمل صخرة شاهقة ممتدة في البحر، على بعد ثلاثة فراسخ من عكا، وهو على نهاية شمال الخليج. ويعد طول هذا الجبل ثلاثة أو أربعة أقدام، ويتصل بجبال نابلس، ولكن يفصله عنه وادٍ كبير. وجبل الكرمل شديد الانحدار من كل الجوانب، ويمثل موقعًا حربيًا قويًا، وكان هناك في أعلى هذا الجبل دير وينابيع. وجبل الكرمل الذي يبلغ ارتفاعه 400 قامة يسيطر على كل الساحل، ويعد نقطة إرشاد للبحارة الذين يقتربون من سوريا، ويصب أسفله نهر كيسون (Keysoun)، ويبعد المصب 700 أو 800 قامة من حيفا، وهي مدينة صغيرة على شاطئ البحر، أسفل جبل الكرمل، ونهاية رأس حيفا. وعدد سكانها بين ألفين وثلاثة آلاف نسمة، ولها ميناء صغير، ويحيط بها سور أثري قديم له أبراج، ويطل عليها عن قرب تلال الكرمل الصغيرة.



45 - قاقون 15 مارس، وحدار 23 مايو 1799.
خريطة (45)

ثامنًا: أقام الجيش معسكرًا على شاطئ كيسون (Keysoun) الشمالي. وخلفه جبل الكرمل، وكانت حيفا على بعد ثلاثة فراسخ، وعلى بعد سبعة فراسخ من أمامها مدينة عكا. وقد كان من المهم الاستيلاء على حيفا، لإمكانية استقبال الأسطول الذي سافر من يافا. وقد دخل إليها القائد العام بعد مقاومة بسيطة في الساعة الخامسة مساء. وكان الجزار قد أمر بإخلاء الموقع، وبقي مخزن به مئة وخمسون ألف جراية (النصيب من الطعام المقرر) من الخبز والأرز والزيت، وغير ذلك.

وعند حيفا اكتشف القائد العام مرفأ عكا، ولاحظ سفينتين انجليزيتين بمدفع عيار 80، فقد رست فيهما التيجر (*Tigre*)، وتيزيه (*Thésée*) بقيادة العميد البحري سير سيدني سميث، وكانتا قد وصلتا إلى المرفأ منذ يومين قادمتين من القسطنطينية. واتجهت دورية فرسان نحو تنتورة (Tantourah) كي تخبر الأسطول الصغير بوجود الرحلة البحرية الإنجليزية، وتخبره بدخول الجيش في ميناء حيفا. وعلى بعد فرسخ من تنتورة، تم لقاء الأسطول وإنذاره، ودخلت المراكب الثمانية المحملة بالمئون، والقادمة من يافا، إلى الميناء يوم 19 مارس عند الفجر، ولكن ترددت السفن الفرنسية الستة عشر المحملة بعتاد الحصار، وظلت معطلة لبعض الوقت، وغيرت اتجاهها، واتجهت إلى عرض البحر، وطاردتها السفن الإنجليزية، وبعد قليل كان الكل بمنأى عن الأنظار.



46 - الحاتي 17 مارس ، تنتورة 21 مايو 1799.

خريطة (46)

وفي أثناء الليل أقيم جسران على شاطئ الكيسون، وبدأ الجيش الزحف ظهرًا إلى عكا، وما لبثت أن اكتشافها. ووصل الجيش ليلاً إلى طاحونة شيردام (Cherdâm)، ومرت بها قوات المشاة. وكانت الطاحونة في حال جيدة، فاستخدمت في الطحن طوال الحصار.

وبعد كيسون نجد نهر الرهمين [El-Rahmin] كان يطلق عليه قديمًا (le Bélus) ولم يكن يصلح للعُبور، فاتخذ الجيش مكانًا. وعبر الرائد بيسيار (Bessières) النهر ومعه مائتا مرشد ومدفعان، وأخذ، على شكل الطليعة، مكانًا على الضفة اليمنى. وطوال الليل اشتغل جنود بناء الجسور في إقامة جسرين، وتم نصب خيام القائد العام على بعد نصف فرسخ من البحر، على شمال نهر "الرهمين". وعند فجر يوم 19 مارس، توجهت الطليعة إلى جبل المسجد الذي يطل على سهل عكا، والمدينة من جهة البحر، ووجدت نفسها هكذا أمام عاصمة الجليل، على حدود سوريا الداخلية (Céle Syrie) أو سوريا الخالية (Syrie-Creuse).

الفصل العاشر

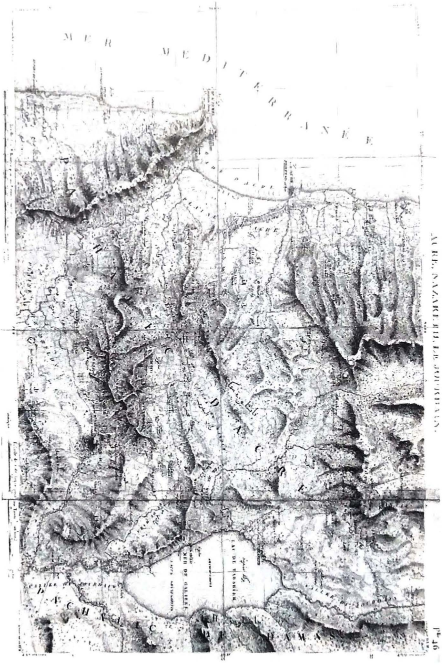
حصار عكا

أولا: حرب الجليل، وصف عكا. ثانيًا: خضوع سكان الجليل. ثالثا: الاستيلاء وتشتيت اثني عشر ترتان تحمل مدفع الحصار، شنون حيفا. رابعًا: اكتشاف عكا. خامسًا: أول فترة حصار عكا. سادسًا: معركة جبل طبور (16 أبريل 1799). سابعًا: معركة حربية، العميد البحري بيريه (Perrée). ثامنًا: الفترة الثانية لحصار عكا، تاسعًا: رفع الحصار عن عكا. عاشرًا: الزحف في سوريا وفي الصحراء، عودة الجيش إلى القاهرة (14 يونيو).

أولًا: تقع عكا على بعد ثلاثين فرسخًا شمال غرب القدس، وعلى بعد ستة وثلاثين فرسخًا جنوب غرب دمشق، وعلى بعد عشرة فراسخ جنوب أطلال صور (Tyr). وتقع على شمال خليج حيفا، على بعد ثلاثة فراسخ بحرًا من هذه المدينة الصغيرة، وأربعة فراسخ باتباع الساحل. ويحيط بعكا سهل طوله ثمانية فراسخ، يبدأ من الرأس الأبيض (Cap Blanc) حتى جبال سارون (Saron)، وينتهي عند جبل الكرمل. ويمتد هذا الساحل بعرضه من البحر إلى الغرب حتى أول تلال جبال الجليل شرقا لمسافة فرسخين. وتزداد هذه الجبال ارتفاعًا على امتداد ستة فراسخ حتى القمة العليا، ومنها تنخفض حتى نهر الأردن. ويوجد اثنا عشر أو خمسة عشر فرسخًا من عكا حتى هذا النهر. وتخترق سهل عكا ستة جداول، والثلاثة الرئيسية منها هي: في الشمال .... [1] الذي يجري أسفل جبل سارون (Saron)، ويخدم ثلاثة طواحين، نهر الرهمين الذي يصب في البحر على بعد 1200 قامة جنوب عكا، والكيسون (Keysoun) الذي ينزل من جبل طبور (Thabor) ويتجه في البحر على بعد 800 قامة شمال حيفا. ويبلغ طول تل تورون (Turon) 3000 قامة، ويقع على بعد 1200 قامة من المدينة في شمال شرق على نفس المسافة من البحر، و[على بعد] 4000 قامة من أول ربوات الجبال، ويتجه منحدرًا من ناحية البحر وجانب الجبال. ويسار هذا التل ربوة مرتفعة تطل على المدينة والبحر وكل السهل، ويسمى سهل جبل المسجد. وعند سفح الجانب الجنوبي يوجد مصب نهر الرهمين (Bélus).

---

[1] لم يكتب الاسم في المخطوط.



47 ـ عكا ، الناصرية – نهر الأردن.

خريطة (46)

وأقام الجيش معسكره على تلة تورون (Turon)، واحتل وتر المثلث القائم الزاوية الذي تشكل المدينة الزاوية المقابلة، ويشكل البحر الجانبين الآخرين. وكانت فرقة رينيه على اليسار، وكليبر على اليمين، ولان (Lannes) وبون (Bon) في الوسط، بينهم هيئة الأركان أمام متجر كبير استند على القناة. وشيد المنسق دور (Daure) مخبزًا في هذا المتجر، وعلى شاطئ نهر الرهمين (Bélus) يوجد عند سفح جبل المسجد منزل كبير مربع أقيم فيه مستشفى ميدان كبير، وأعدت المستشفيات في شفا عمر (Chafâ-A'mr) وحيفا ورام الله ويافا.

وكانت أشجار الزيتون والبلوط الأخضر (والسنديان) وغيرها -تغطي كل ظهر جبال الجليل، وكانت المدفعية وواضعو الألغام والفرق والمخبز يتزودون منها. وعلى الضفة اليمنى عند السير باتجاه أعلى نهر الكيسون، وعلى بعد 400 قامة من جبل المسجد، يوجد أول تل شمال جبال الجليل، يأخذ شكل قالب السكر أعلى من ربوة جبل المسجد، وكان يسيطر على كل الضفة اليمنى، وضفة نهر الرهمين اليسرى، و[كان هذا التل] يسمى جبل النبي. وكان من الجانب الشرقي يسند يسار معسكر واسع من عشرة فراسخ مربعة، تشكل جبال سارون الجانب الشمالي منه، ويشكل البحر الجانب الغربي، ويشكل الجانب الجنوبي الرهمين المحصور بين جبل المسجد وجبل النبي. وقد تم سدّ كل طرق الجبال بواسطة خنادق ومتاريس، وتم بناء ثلاثة كباري بأسهم على الرهمين لا يدخل غريب عن الجيش في هذا المخيم الكبير الذي توجد به مراعي غاية في الجمال، والقمح والحدائق والبساتين والأعشاب والماء والمطاحن وكل الأشياء اللازمة للحصار. وكان يقوم بحراسة المداخل المختلفة بعض كبار حرس الفرسان ومفارز طوارئ المشاة الفرنسية.

وفي أثناء حصار المسيحيين عكا عام (1191)، والذي استمر ثلاث سنوات، كان معسكر الصليبيين أيضًا فوق تلال تيرون (Turon)، ولكن يمتد شمالًا نحو جبل المسجد وعلى ضفة الرهمين اليسرى لم يكن لدى الجيوش مدافع، وكان يمكن أن تقترب المخيمات أكثر من المدن. فأقام الصليبيون صفين من الخنادق، الأول عند سفح نفس تلال تيرون (Turon)، والثاني استند يمينًا على ارتفاع النبي، ويسارًا على جبل تيرون، وكان الخندق الثاني إجباريًا، وهو ما كان يحدث غالبًا، حيث يعتصم المحاصرون خلف [الخندق] الأول. وقد كان صلاح الدين ومعه جيش النجدة يقيم معسكره أمام شفا عمر (Chafâ-A'mr) فوق مرتفعات قوقوبه، على بعد فرسخين جنوب شرق جبل النبي حاميًا (يغطي) طريق القدس ودمشق وسهل أسديرلون (Esderlon).

ولم يكن نابليون يريد السماح لدوريات العدو بالدخول من جهة نهر الأردن، فشكل أربعة فيالق لمراقبة الضفاف؛ الأول بقيادة قائد السرية، لامبار (Lambert)، لمراقبة الكرمل وسهل أسديرلون وشاطئ البحر وطرق نابلس، وأقام [لامبار] حاميته في حيفا وشفا عمر. و[الفيلق] الثاني بقيادة الجنرال جونو (Junot)، واحتل قلعة

الناصرية، وكان يراقب نهر الأردن أسفل بحر طبرية (Tibériade). وكان الفيلق الثالث بقيادة الجنرال مورا (Murat)، وشغل قلعة صفد ليراقب نهر الأردن من فوق بحيرة طبرية وجسر يعقوب. وأما الفيلق الرابع فكان بقيادة الجنرال ڤيال (Vial)، وكان يلاحظ مخارج جبل سارون، دافعًا المراكز إلى صور. وقد أضعفت الفيالق الأربعة المراقبة، حيث كان ينقص الجيش ألفان من الرجال، لكن الحصون التي استخدموها لم تكن تتطلب إلا عددًا قليلاً من الرجال، فالطوابير كانت دائمة الحركة من المعسكر إلى الحدود، ومن الحدود إلى المعسكر، ما جعلهم يبدون أعدادًا كبيرة. وقد كان الجيش يعيش [مما يلي]: (1) من بعض مخازن حيفا التي تتزود برًا وبحرًا من مخزن يافا. (2) ومن مخازن شفا عمر التي تتشكل من موارد البلد. (3) من مخازن صفد والتي كان يزودها الشيخ ضاهر. وبعد معركة جبل طبور(Tabor)، عاش الجيش من المخازن التي كونها العدو في طبرية على البحيرة التي تحمل نفس الاسم. وقد كان العلف وفيرًا في سهل عكا، وعند الضرورة كان يمكن الرعي بحش الكلأ في سهل أسديرلون.

ثانيًا: كان الشيخ ضاهر أكثر الجميع حماسًا للذهاب إلى المعسكر وتقديم خدماته. وصباح يوم 19 مارس، عبر الجيش نهر الرهمين (Bélus) واتخذ معسكره على تل تيرون (Turon). وقد كان تبادل الطلقات النارية والمدافع عنيفة بين فرقة رينيه المكلف بالحصار والحامية التي أقامت في الأطلال قبل المدينة، ولم تكن [الفرقة] تريد الدخول في الأسوار، عندما شوهدت مجموعة من ثلاثمئة أو أربعمئة فارس ناحية جبل النبي، فقد كان الشيخ ضاهر الذي كان ينتظر منذ يومين في شفا عمر لحظة وصول الجيش إلى عكا. وفي العاشرة صباحًا تقدم عند ارتفاع المسجد إلى نابليون، الذي ألبسه معطفًا مبطنًا بالفرو، علامة على توليه قيادة إقليم صفد. وفي أثناء تأدية اليمين، اجتاحت قذيفة كروية حصانه الذي كان على بعد عشر خطوات خلفه. وظل هذا الأمير يومين في المعسكر، وتلقى الوعد بالحصول على ميراث أبيه. وبعد أسابيع قليلة قام بالتوقيع على اتفاقية تتضمن تعهده بتوفير خمسة آلاف رجل من المشاة والفرسان لاتباع الجيش فما وراء نهر الأردن، والاحتفاظ بعكا والساحل من الجبل الأبيض حتى قيصرية، ودفع الجزية المتفق عليها، وتسحب على نصف الدخل الذي قد يحصل عليه من البلد الذي سيحصل عليه. لقد كان هذا الشيخ دائمًا مخلصًا، وحافظ على اتصالات مستمرة مع دمشق، وقدم أخبارًا صحيحة عما كان يحدث فيها، وأقام الصلح بين الفرنسيين والبدو الذين لم يسببوا أية مضايقات للجيش في سوريا، وقام بتزويد المعسكر بكل ما يمكن أن توفره البلاد.

وبعد بضعة أيام تقدم المتولون بشكل جماعي، رجالاً ونساءً وشيوخًا وأطفالاً وكان عددهم تسعمئة، منهم مائتان وستون فقط مسلحون، نصفهم من الفرسان، والنصف الثاني من المشاة. وأضفى القائد العام معطفًا على الرؤساء الثلاثة، وأعاد إليهم أملاك أجدادهم. وكان عدد هؤلاء المتولين قديمًا عشرة آلاف، قضى الجزار عليهم

تمامًا، وكانوا مسلمين (أوليد Olydes) يتميزون بالبسالة الشديدة. وعبر الجنرال ڤيال جبل سارون، ودخل صور، وهي"صور" القديمة، والتي كانت ملكًا لهؤلاء المسلمين [الذين] تكفلوا بإضاءة الساحل حتى أسفل الجبال، وضموا إليهم متطوعين، وتعهدوا بخمسمئة فرس مسلحين للزحف حتى سوريا في شهر مايو.

وقدم آباء الأرض المقدسة سكان الناصرية من الرجال والنساء، وكان عددهم عدة آلاف، وحقق سكان شفا عمر المسيحيين وصفد وغيرهما زيارتهم كلهم معًا. ولا يمكن وصف سعادة هؤلاء المسيحيين بعد عدة قرون من الاضطهاد، ورأوا رجالاً من ملتهم! كانت متعتهم الحديث عن الكتاب المقدس، والذي يعرفونه أفضل من الجنود الفرنسيين. وقد قرأوا نشرات القائد العام، والتي ذكر فيها أنه صديق للمسلمين، وأثنوا على هذا السلوك، ولم يكن هذا ليقلل من ثقتهم فيه. وألبس نابليون المعطف ثلاثة من رؤسائهم تجاوزت أعمارهم التسعين عامًا، وكان عمر واحد منهم عامًا بعد المئة، وقدّم له أربعة أجيال، ودعاه القائد العام للغذاء معه. ولم يكن هذا الكهل ينطق بثلاث كلمات إلا ويذكر بينها كلمة مأخوذة من الكتاب المقدس. ولم يتناقض إخلاص هؤلاء المسيحيين مع حسن ولا سوء حظ الجيش، فقد كانوا نافعين طوال مدة الحصار، وكان يوجد عدد كبير منهم في المعسكر. وكان الكثير من الناس يترددون على السوق ويجدون فيها الخيرات، فيُحضرون منها الدقيق والأرز والخضراوات واللبن والجبن والدواجن والفواكه والتين والزبيب والنبيذ. وكانوا يقدمون العناية للمرضى أكثر مما كان يستطيع الفرنسيون أنفسهم يستطيعون تقديمه.

وشارك مسلمو ولاية عكا أفراح وآمال المسيحيين، وكانوا يتقدمون إلى المعسكر على شكل وفود، وكانوا يشتكون بمرارة من قسوة الباشا. ولم نكن نقابل في كل الأوقات إلا رجالاً شوهوا بأمر الطاغية، وكم كان كريهًا قبيحًا هذا العدد الكبير من الرجال دون أنف.

وكان مناخ سوريا يشبه كثيرًا مناخ أوروبا أكثر من مناخ مصر، وكان السكان أكثر لطفًا، وكان المسلم نفسه أقل تعصبًا. فوجد الجنود فيها راحة أكثر. وكانت مصر على امتداد السنوات بلادًا للكهنة والآلهة.

ويوجد عد كبير من اليهود في سوريا، يحركهم أمل غامض، وجرت بينهم إشاعة أن نابليون سيتوجه للقدس بعد الاستيلاء على عكا، وأنه يريد تشييد معبد سليمان، وقد سرتهم هذه الفكرة.

وتم إرسال عملاء مسيحيون ويهود ومسلمون إلى دمشق ومصر، وحتى الأرمينيات (Arménies)، وصرحوا بأن وجود الجيش الفرنسي في سوريا كان يشغل الرؤوس. واستقبل القائد العام عملاء الخدمة السرية والاتصالات كبيرة الأهمية من كثير من أقاليم آسيا الصغرى، وأرسل بعض الشركاء إلى الفرس. ومن هنا بدأ تاريخ العلاقات مع بلاط طهران.

ثالثًا: في يوم 22 مارس، تم الإعلان من جبل المسجد عن رؤية سفينتين حربيتين انجليزيتين، وبعد ساعة لاحظوا ست أشرعة صغيرة تعرف عليها الأميرال جانتوم كونها ترتان من أسطول دمياط الصغير التي تحمل مدفع الحصار، وعلم منذ ذلك الحين أن سفينتي الحرب الإنجليزيتين قد طاردتهما لمدة ستة وثلاثين ساعة، وكانوا قد ساقوا ست سفن، وأن السفن الستة الأخرى ضلت الطريق، ووصلت إلى سواحل فرنسا. ولكن من هذه الأخيرة كانت سفينة قبطان الفرقاطة ستنديليه (Stendelet) قائد الفرقة. وهذه الخسارة نفسها لم تكن ذات قيمة، ولكن النتائج كانت أكثر سلبية، فلو كانت هذه السفن قد دخلت يوم 19 مارس كما كان يجب، وكانت تستطيع ذلك في حيفا، لكان يمكن الاستيلاء على عكا قبل أول أبريل، و[الاستيلاء على] دمشق قبل 15 أبريل، وحلب قبل أول مايو، ولكانت كل موارد سوريا قد استخدمت خلال ستة أشهر. وفي الخريف كان الجيش في حالة يفعل كل شيء. واختلفت الآراء على أسباب سوء تصرف القبطان "ستنديليه" قائد هذه القافلة الثمينة، فلقد ادعى البعض جهله وعدم شجاعته، و[ادعى] آخرون إلى الرغبة في العودة إلى فرنسا.

ولم يكن باستطاعة السفينتين الانجليزيتين الرسو قرب حيفا، وهو المرسى المحدد في هذا الخليج، وقطعت الشعاب المرجانية كابلات السفينة تيزيه (*Thésée*)، فانحرفت وغرقت بعد ربع ساعة، مما دفع السير سيدني سميث إلى الاستيلاء على حيفا لكي يستطيع الرسو في هذا الخليج، وكان أمامه عدة شهور يخشاها من سوء الجو. وأبحر عند فجر يوم 26 مارس أربعمئة رجل على عشر زوارق (Chaloupes). وكان رئيس السرب لامبار (Lambert) هو الذي يقود طاقم مراقبة هذا الميدان ...(*)، وترك الإنجليز يقومون بالإنزال بهدوء، ويتشكلون ويدخلون المدينة، ولكن عندما رآهم يدخلون المنازل، استقبلهم بإطلاق مدافع الرشاش من ثلاث قطع معركة، وتبادل إطلاق النار مع مئة رجل كانوا يقيمون في منزلين ذوي شرفات. في نفس الوقت هاجمهم من الجانب ومن الخلف بواسطة مفرزتي طوارئ، كل منهما من ثلاثين جندي من الخيالة. كان الهجوم على الإنجليز من كل الجهات فتم تشتيتهم، وكان فيهم مئة وخمسون بين قتيل وأسير وجريح. وسقط في يد المنتصر زورق التيجر (*Tigre*) المسلح بمدفع بحري عيار 35.

وقد صاحبت القذائف والشظايا الزوارق في تراجعها، ولم يكن [ذلك] من دون أن يُقتل ويُجرح عدد كبير منهم. وفي أول أبريل، قبيل النهار، جاءت من القسطنطينية (إسطنبول) فرقاطة تركية، ورست في متناول بندقية حيفا في المرسى العادي، فقام لامبار (Lambert) فورًا برفع العلم العثماني. وفي النهار نزل القبطان إلى الأرض من قارب كبير، وتم أسره مع ثلاثين مجدف و[والاستيلاء على] زورقه المسلح بمدفع بحري ضخم عيار 24. كان المدفعان مفيدين للحصار، ووضعوهما في بطارية اختراق، وكان لهما تأثير طيب.

(*) [فجوة في المخطوط].

رابعًا: كان الجنرال رينيه قد حاصر الميدان، ولقد حارب من أجل ذلك طوال النهار، ووضع في المساء زوارق حربية على مرمى المسدس الرشاش. وقام الجنرالان كفاريلي ودومرتان، والعقيد سانسون (Sanson)، والعقيد سونجي (Songis)، بقضاء ليلة من 19 إلى 20 مارس، ويوم 20، في استطلاع الميدان. وقد اكتشف العقيد سانسون الخندق، ولم يجد فيه حائطًا مائلاً بالخارج (زلاقة)، وكان هذا الاستطلاع محفوفًا بالمخاطر، فقد أصيب فيه بجرح خطير. وقد افتخر ضباط سلاح المهندسين وضباط المدفعية أنهم دخلوا عكا بسهولة مثل دخولهم يافا، وبدا لهم أن مدفعي معركة من عيار 12 يكفيان لإحداث ثغرة في السور.

والمساحة التي تشغلها مدينة عكا عبارة عن شبه منحرف، منه جانبان غارقان في البحر، ويشكل الجانبان الآخران أسوار الجانب الشرقي 300 قامة يحيطه خمس أبراج صغيرة والجانب الغربي بطول 500 قامة، ويدعمه سبعة أبراج صغيرة. وقصر الباشا هو عبارة عن قلعة. ويلتقي الجانبان ويشكلان زاوية مستقيمة. وفي القمة برج ضخم قديم يطل على المدينة وكل الأسوار، ويهيمن عليه نفسه ارتفاع المسجد، والذي يبعد عنه 500 قامة. وقد تم ردم الميناء القديم وكانت هناك جزيرة صغيرة يوجد بها فنار تحيط بالسور الشرقي. وتغطي ضواحي الأسوار - على بعد 300 قامة - أنقاض المدينة القديمة والتحصينات القديمة، وهي عبارة عن سرداب وأبراج وأجزاء من أسوار. وكانت قناة تدخل المدينة بالقرب من البرج الضخم من الجانب الشمالي، وطول هذه القناة الصناعية 6000 قامة، كانت تعبر السهل، وتنقل المياه من أسفل الجبال إلى صهاريج المدينة. وقد خلت عكا من السكان لسنوات طويلة، وأعادها ضاهر إلى ما كانت عليه وجمّلها وزادها الجزار الذي شيد فيها مسجدًا جميلًا وسوقًا ممتازًا.

وقد اقترح الجنرال كفاريللي، قائد سلاح المهندسين، الهجوم على الجبهة الشرقية: (1) لأن جبل المسجد يسيطر عليها بالرغم من أنه بعيد قليلاً؛ (2) لأن الجبهة الأخرى، وهي جبهة الشمال، تتعرض لمدفع قصر الباشا؛ (3) ولأن الأطراف كانت أسهل. وإذا تم فتح ثغرة في نافذة أو كان يجب الإقامة بين برجين، فإنه قد يكون صعبًا ومميتًا، أو إذا ما وجب الدخول في الميدان دون إقامة، فإنه قد يكون خطرًا. وأما إذا تم فتح ثغرة في البرج، فبمجرد أن يسيطر الجيش عليها، فسيحصل على منفذ آمن للدخول إلى المدينة. وقد اقترح عمل ثغرة في البرج الضخم لأنه: (1) الأبعد من البحر؛ (2) الأكبر والأعلى، فهو يسيطر على كل السور وعلى المدينة؛ (3) وهي الأقرب إلى القناة الصناعية التي يجب أن تستخدم كميدان للقتال على التوازي. وفي الحقيقة قد يكون شقها في بناء

في هذه البناية القديمة أكثر صعوبة، لكن المدافع من عيار 12 كانت تكفي لفتحها، وأنه في حال الاستيلاء على هذا البرج فسوف يسقط الميدان من نفسه، وأن الهدف ليس الحصول على عكا، ولكن السيطرة عليها دون أن يفقد الجيش سبعة آلاف أو ثمانية آلاف رجل قد يموتون بسرعة لو أن المخاطرة ضد الأتراك كانت في معارك المنازل والشوارع.

وقد استمر حصار عكا اثنين وستين يومًا، من 19 مارس حتى 21 مايو، وكان هناك فترتان؛ الفترة الأولى كانت ستة وثلاثين يومًا، من 19 مارس حتى 25 أبريل، والفترة الثانية كانت ستة وعشرين يومًا من 25 أبريل إلى 21 مايو. وفي الفترة الأولى عمل المحاصِرون على تفجير لغمين، وأقدموا على احتلال مسكنين وقاموا بالهجوم، وخرج المحاصَرون ست مرات، كانت كلها مُهلكة. وفي أثناء الفترة الثانية فجر المحاصِرون ثلاثة ألغام، وأقاموا في سبع منازل، وقاموا بهجومين كبيرين، ودخلوا في الميدان واستقروا فيه. وسار المحاصَرون بصفوف رد الهجوم، وقاموا بالخروج اثني عشر مرة، وفقدوا كثيرًا من الناس. ومع ذلك فقد كانت الإمدادات تصلهم باستمرار، والتي لم تعوِّض خسائرهم فحسب، وإنما ضاعفت قوتهم أيضًا. ومع ذلك فقد كان الجنرال الفرنسي سيحتل المدينة، على الرغم من وصول فرقة رودس، ودون الطاعون الذي سبب أضرارًا فادحة، وبدون أخبار أوروبا؛ حيث تكوَّن تحالف ثانٍ ضد الجمهورية، فبدأت الحرب من جديد، ودخل الجيش الفرنسي نابولي، وهو ما اعتبر خبرًا سيئًا؛ فقد كان ضعف الجيش عند أديجي (Adige) ينبئ بكوارث.

خامسًا: في أثناء الفترة الأولى من الحصار، كانت مدفعية المُحاصرين عبارة عن مدفعين بحريين من عيار 32 و24، تم الاستيلاء عليهما في حيفا، وأربعة مدافع هاون 6 بوصة، وستة وثلاثين مدفع تجهيزات المعركة. وبقي اثنا عشر مدفعًا لاستعمال فيلق المراقبة. ولم تكن هناك عربات للمدافع البحرية من عيار 32 و24، فصنع العمال بعضًا منها في أيام قليلة. ولم تمتلك المدفعية كرات مدفعية (قذائف كروية) من هذا العيار، وتم جمع كل ما كان مبعثرًا في الخنادق من الأسوار وبطارية سفينتي الإنجليز الكبيرة. وقد أعطى المصنع 5 مليمات لكل قذيفة مدفع، وتولى الجنود البحث وأحضروا ثلاثمئة من عيارين في أيام قليلة. ولما كان من الصعب إيجادها، فقد تدبروا وسائل مختلفة للحصول عليها، تقدموا إلى مشاعر قائد العمارة البرية الإنجليزي الجياشة، واستخدموا عدة حيل لحثه؛ فأحيانًا كانوا يطلقون فرسانًا على الشاطئ، وأحيانًا كانوا يحملون براميل وصنّاعات على تلال من الرمال ويباشرون العمل، ويحركون الأرض كما لو كانوا يشيدون بطارية، وأحيانًا كانوا يُرسون في المرفأ - بالقرب من الساحل - زورقًا جاءوا به من حيفا. وبمجرد أن يلاحظ السير سيدني سميث أن هنالك حركة تبدو تحت مدفعه، فإنه يرفع المرساة ويقترب من البر بكل سرعة ويغمر الشاطئ بالقذائف، فيجمعها الجنود وينقلونها إلى المعسكر الذي كان بعد قليل مزوّدًا بوفرة منها.

وفي يوم 21 مارس، قام ضباط سلاح المهندسين بشق خندق على بعد 150 قامة من المدينة، وكان الخندق يستند على القناة الاصطناعية، والتي تشكل خندقًا (متوازيًا) ضد نيران الميدان. وشيدت المدفعية ثماني بطاريات، اثنتان منها باتجاه الجزيرة الصغيرة، حيث يوجد الفنار الذي تم تسليحه، وكان منها ثلاث بطاريات في مواجهة الأبراج الثلاثة التي تضرب أطراف الثغرة. وتم تسليح هذه البطاريات الخمس بستة عشر مدفعًا من عيار 4، وأربعة مدافع من عيار 8. وكانت البطارية السادسة مسلحة بأربعة مدافع هاون 6 بوصة موجهة إلى البرج الضخم. وكانت البطاريتان السابعة والثامنة قد تلقيتا أربعة مدافع من عيار 12، وأربعة من عيار 8، واثنتين من القذائف، وذلك لهدم الواجهة والبرج الضخم. وفي أيام 22، 23، 24 [مارس]، سار جنود الإطفاء في ممرات ضيقة على بعد خمس قامات من الخندق، وجاهدوا لبناء قاعدة عريضة موازية، استخدمت في كل تحركات الحصار. وفي يوم 23، بدأ إطلاق النار، وفي خلال 48 ساعة، تم إرغام مدفعي الفنار على السكوت، وكذلك المدافع الضخمة التي كانت تدعم بالسلاح الأسوار على الجهة المعرضة للهجوم. وفي يوم 24، بدأت بطاريات الثغرة دورها، وفي أثناء الأربعة والعشرين ساعة الأولى، لم تُحدث أي تأثير ملحوظ، وهو ما يرجع على عدم قدرة عيار 12، وقد نسب ذلك إلى عدم فاعلية عيار 12، واتُّهم ضباط سلاح المهندسين علنًا بسبب تمسكهم ببناية قديمة. وبعيدًا عن عيار24 عندما في الساعة الرابعة بعد الظهر انهار كل الجزء الشرقي من البرج الضخم بضجيج مروِّع. وكانت صيحة فرح التي أطلقها الجيش وجاء ثلاثون ألف مشاهد مسرعين من مناطق مجاورة توّجوا المرتفعات. تقدم ضابط من سلاح المهندسين للتعرف على الثغرة، ولكن هجم عليه بعض القناصة الذين كانوا على امتداد الأسوار. وتم تكليف خمسة وعشرين رجلا لطردهم، وخمسة وعشرين جندي مطافئ للقيام بتسوية أسفل الثغرة من جديد. وكان الأمل على نحو ما حدث في يافا، أن يتم الاستيلاء على عكا في المساء، ولكن المزلاق أعاق جنود المطافئ الخمسة وعشرين. وقد كانت تلك أول مُعاكسة، وقضى الجزار كل الليلة على ظهر السفينة، وكان قد أبحر بشخصه، وكذلك أبحرت كنوزه ونساؤه. وكان السكان في كل لحظة يتوقعون الهجوم والاستيلاء على الميدان، ومع ذلك ظلت الأبراج والأسوار مغطاة بالجنود الذين كانوا طوال الليل يُطلقون نيران البنادق. وفي مساء يوم 26 [مارس] اطمأن الباشا وعاد إلى قصره، وخرج مرة لكنه لم يوفق فيها.

وقد شل هذا المزلاق المزعج جهود المحاصرين طوال أربعة أيام، وكانت وقتًا كافيًا لحبس عمال الألغام، وإعداد اللغم الذي تم شحنه يوم 28، وفجر المزلاق. وتم تكليف قبطان الأركان، ماييه (Mailly)، بإقامة خمسة عمال وعشرة جنود مطافئ وخمسة وعشرين من رُماة القنابل اليدوية. وقام الرائد المساعد لوچييه (Laugier)، ومعه ثمانمئة رجل، بالاصطفاف خلف القناة الاصطناعية على بعد 15 قامة من الثغرة، ليصعد إليها بمجرد أن يتلقى الإشارة من ماييه (Mailly) بسهولة تسلقها. واصطفت فرقة بون (Bon) في صفوف أفواج في ميدان

السلاح، وذلك بهدف مساعدة لوجييه (Laugier)، والاستيلاء على الميدان. وكان يجب على الأفواج الانتقال الواحد بعد الآخر إلى الثغرة، ولكن كان من الضروري ألا يتوقف أي جندي في الطريق رغم نيران طلقات البنادق من الأسوار.

وقد اندفع مايبه في حفرة اللغم، ومنها اندفع في الخندق، دون أن تعوقه عشرة أقدام من المزلاق لم تكن بعد قد تهدمت، ولم يكن واضع الألغام قد دخل فيه بالقدر الكافي. وعندما وصل أسفل البرج، وضع عليه ثلاثة سلالم، وصعد إلى الطابق الأول مع أربعين من رجاله، وعندئذ أعطى الإشارة إلى "الوجيه" الذي بدأ الهجوم، ووصل إلى حافة الخندق، كان يعتقد أن المزلاق قد تهدم، فبهتت فرقته حين وجدته يكاد يكون بكامله. واندفع لوجيه والفصيلة الأولى في الخندق، وأسرعوا إلى الثغرة، وفقدت الفصيلة الثانية قائدها على حافة المزلاق، فتوقف وقاس بالنظر عمق الخندق، وألقى بنفسه شمالًا باحثًا عن مكان أقل عمقًا. وقد انتشرت الكتيبة وتشتت مضطربة بسبب نيران الأسوار التي كان يتم إطلاقها بغير هدف، ورغم ذلك كان مايبه قد تسلق للمنصة ونزع منها الراية العثمانية. كان معه عشرة شجعان، وكان الآخرون بين قتيل وجريح. وقتل لوجيه وهو يخترق الحفرة، واندفع من لحق به إلى سلالم البرج، وانقلبوا [على أعقابهم] وتراجعوا ليبحثوا عن آخرين كانوا قد بقوا في حفرة اللغم. وقد اعتبر هذا التحرك هروبًا، ونزل في الخندق رجال مفرزة طوارئ مايبه (Mailly) الذين كانوا في الطابق الأول من البرج، ولم يبق سوى مايبه ومعه جندي إطفاء واثنان من قاذفي القنابل فوق المنصة. ونزل مايبه إلى الطابق الأول يطلب النجدة فأصابته رصاصة اخترقت رئتيه، وغرق في دمه، ونزل قاذفو البنادق لإنقاذه. وعلاوة على ذلك اتجه القائد العام إلى حفرة اللغم ليشاهد لماذا تردد طابور لوچيه، وتعرف على صعوبة اجتياز المزلاق، فلم يكن ثمة استعداد لذلك. وأرسل الأمر إلى الجنرال بون بعدم الخروج من الخندق، لأن الهجوم قد فشل.

وبمجرد أن رأى الباشا العلم العثماني قد انتزع من أعلى البرج، انتقل إلى البحرية وركب السفينة. وترك المدينة كل الحامية من السكان من النساء والأطفال والشيوخ وألقوا بأنفسهم في القوارب أو لجأوا إلى المساجد. وبدا أن كل شيء قد ضاع وأن المدينة تم احتلالها. وعندما لوحظ خمسة مماليك وثلاثة رجال من دارفور واثنان من الشراكسة، كانوا من شجعان بيت الجزار، يحرسون القصر لمنع السكان من النهب، لوحظ أنه لا يوجد غير اثنين أو ثلاثة فرنسيين على منصة البرج، وأن هذا العدد لا يزداد. فتسللوا على طول السور وصعدوا على المنصة وأطلقوا النار ولم يجدوا إلا جندي إطفاء قد نجا بنفسه. فنزل هؤلاء المسلمون الشجعان من المنصة إلى الطابق الأول، ووجدوا فيها مايبه (Mailly) وجنديين يموتان، فقطعوا رؤوسهم وصعدوا إلى المنصة ورفعوا العلم العثماني وطافوا بالرؤوس في المدينة. ودخل في البرج طاقم من خمسمئة مغربي وأرناؤوط، وأخذوا أماكنهم في

ركن جامع الجزار لحماية إبحار الباشا، وهكذا نجت المدينة. وقد كلف هذا الهجوم الجيش الفرنسي كثيرًا، فقد مات خمسة وَعشرون، وجرح سبعة وثمانون رجلاً، كان النصف من بينهم أربعون رجلاً من مفرزة جند الثكنات.

ودخلت في عرض البحر القافلة الإنجليزية بحجة تجنب سوء الجو والرياح، واختفت منذ يوم 26 مارس. وفي الحقيقة لم يكن يريد السير سيدني سميث أن يكون موجودًا في أثناء الاستيلاء على المدينة، والتي كان يعتقد أنها حتمية. ولكن عندما علم بفشل الهجوم عاد وظهر ثانيةً في المرفأ من 5 إلى 6 [أبريل]. وأنزل من المركب العقيد المهاجر فيلبو (Phélippeaux)، ودوجلاس (Douglas) ومئة ضابط وجندي مدفعية، أشجع وأمهر ملاحيه. واستخدم قطع المدفعية التي استولى عليها من الفرنسيين من عيار 24 و16، وأجمل مدافع الهاون 8 بوصة، كانت تدافع عن المدينة التي كانت تهدف دحرها واستسلامها. وقد ساهم كل شيء في اطمئنان الحامية التي كانت تتلقى كل يوم مساعدات من الرجال والمئون والذخائر من قبرص ونابولي.

وأمر الجنرال كفاريللي، الذي كان يدير الحصار، بلغم جديد، وفي أول أبريل أسقط المزلاق، ووضعت المدفعية المدفعين البحريين من عيار 32 و24، اللذين كان لهما تأثير كبير. ومن جانب آخر لم يضيع المحاصر وقته، فقد أصبحت الثغرة متعذرة التنفيذ، فتم ملؤها بالقنابل، وقذائف وقنابل يدوية محملة، وبراميل زفت (قطران) وصناعات (fascines)، وأخشاب مغطاة بالكبريت والمسامير الحديدية. وتم إصدار الأمر إلى خمسة وعشرين رجلاً لتجهيز السكن، فاستقروا وعبروا كل الصعوبات، ولكنهم كانوا بعد قليل وسط نار محرقة: تم حرق خمس رماة قنابل يدوية وجرح كثيرا منهم ولحق الباقي بسرعة على مسكن المنحدر. وعندئذ غلب الاقتناع بأن من المستحيل الاستيلاء على المدينة بعدد قليل من مدافع المعركة. وقد عبر العثمانيون عن انتصارهم فرحين، وكانوا يهللون طوال الليالي أمام رجال المدفعية الفرنسيين: "السلطان سليم، بان، بان، بان (pan)! بونابرت بن، بن، بن (pin)!"

ولم يعد هنالك أمل إلا في الحرب الخفية، فسيّر كفاريللي اللغم تحت الخندق ووجهه تحت البرج الكبير. ولجأ المحَاصر إلى اللغم المعاكس، ولكن أخمده واضعو الألغام الفرنسيين الأكثر مهارة.

وأعلن فيليبو أن الخطر وشيك الوقوع، ويمكن أن تسقط المدينة بين لحظة وأخرى. وجعل الباشا يقرر الخروج ليحبط حفرة اللغم، والقضاء على زارع اللغم. وفي يوم 7 أبريل، في أثناء الليل، كانت ثلاث طوابير، كل منها يتكون من ألف وخمسمئة رجل، أخذوا استعداداتهم، فكان واحد منها أمام قصر الباشا، والثاني عند مدخل البحر، والثالث في النهاية على طول شاطئ البحر. وفي الجنوب كان مئة وخمسون إنجليزيًا وخمسمئة تركي تحت قيادة العقيد دوجلاس، وكان الرائد توماس أولدفيلد (Oldfield) قد اتخذوا مكانًا خلف البرج الضخم لحجب

الثغرة. وعند الفجر بدأت الطوابير الثلاث الهجوم، وصار تبادل طلقات النار شديدًا، وكالمعتاد كسب العدو أراضي في البداية، ونزل الطابور الإنجليزي في الأول في الثغرة بخطى عاجلة. ولم يكن أمامه سوى اختراق 15 قامة ليستولي على البئر. كان الرائد الإنجليزي في البئر، وقد فُقد اللغم عندما سارت كتيبة حرس الاحتياطي الحربة إلى الأمام وقتلت وجرحت وقبضت على كل الطابور الذي تجاوزته جهة اليسار وجهة اليمين. وفي نفس الوقت تقريبًا تقدم احتياطيو الخندق، وتم طرد الأتراك بسرعة في الميدان، تم قطع والاستيلاء على عدة طوابير صغيرة. وقد خسر المحاصرون من هذا الخروج ثمانمئة رجل، كان من بينهم ستون إنجليزيًا. وقد تم علاج الجرحى من هذه الأمة مثل الفرنسيين، وأقام السجناء وسط الجيش، كما لو كانوا من أهل منطقة النورماندي (Normands) أو البيكاردي (Picardie) الفرنسيين. فلقد اختفى التنافس بين هاتين الأمتين بالنظر لبعد المسافة بين أوطانهم وهم بين شعوب بربرية. وقد أبدى الأتراك كثيرًا من الشجاعة الفردية والحمية والتفاني، ولكن لا فن ولا تكتل ولا نظام، مما جعل كل هجمات خروجهم مُهلكة بالنسبة لهم. وقُتل الرائد الإنجليزي أولدفيلد، وتم دفنه بكل شرف الحرب، وأصيب القبطان رايت (Wright) بجروح خطيرة. وفي هذه الفترة الأولى لم يكن الجيش أبدًا في حالة ليذهب لنجدة الخندق.

وأما علي، مملوك الجزار الأسود، وكان في نفس الوقت كاتم سره، ورجله الشجاع، وسيافه، فقد كان موضع كراهية المسيحيين الذين طلبوا الانتقام منه. وقام ضابط من المخفر باستجوابه، وأراد نابليون مقابلته، وقال له هذا المسلم الجريء:

"لقد أطعت سيدي طوال حياتي، وأول أمس قطعت رأس مملوكك وحملتها إلى المدينة التي أنقذتها، تفضل ها هي رأسي أيها السلطان فاقطعها، ولكن اقطعها بنفسك وسوف أموت سعيدًا. قال النبي لا ينبغي رفض آخر طلب لمن يحتضر".

فمد له القائد العام يده، وأمر بأن يقدم له الطعام. ومنذ ذلك الوقت كان عارفًا للجميل. ولكنه قُتل في هجوم في معركة أبو قير وهو يحارب على رأس فيلق من الفروسية الفرنسية.

سادسًا: كان باشا دمشق قد جمع في هذه المدينة الكبيرة ثلاثين ألف رجل مترجلين وعلى ظهور الخيل. وكان فرسان الجزار وفرسان إبراهيم بك على الضفة الشمالية لنهر الأردن، ويحافظون على الاتصالات مع نابلس، وقد جمع أهل نابلس ستة آلاف رجل، كانوا يتحرقون شوقًا للانتقام من العار الذي لحق بهم في معركة قاقون. وأصدر الباب العالي الأمر بأن يعبر جيش دمشق نهر الأردن بمجرد أن ينزل جيش رودس في عكا، ليضع الجيش الفرنسي بين نارين. ولكن الخطر الذي كان يتعرض له الميدان، والخوف خاصة من تأثير الحرب الخفية، جعلا

الجزار يقرر - بصفته ساري عسكر - أن يأمر باشا دمشق بعبور نهر الأردن دون تأخير، واللحاق بأهل نابلس في سهل أسدريلون، وقطع اتصالات معسكر عكا مع مصر.

وأعلن ابن ضاهر أن وكلاءه في دمشق قد أعلنوا له عن رحيل الجيش، وكان لا حصر له. وأصبح موقف الجيش الفرنسي دقيقًا، فمن بين ثلاثة عشر ألف رجل دخلوا سوريا، قتل ألف منهم أو جرحوا في معارك العريش وغزة ويافا. وفي أثناء الفترة الأولى من حصار عكا، كان ألف مريض بمستشفيات الناصرة وشفا عمر والرملة ويافا وغزة، ولزم ألفان منهم حامية في القطية والعريش وغزة ويافا، وكان خمسة آلاف ضروريين للحصار لحراسة المعدات والمواقع، ولم يبق إلا أربعة آلاف جاهزين لمراقبة ومحاربة جيش دمشق وأهل نابلس الذين بلغوا أربعين ألف رجل. وقد كان الجنرال برتييه يتوقع أحداثًا هامة، فعمل على إخلاء مستشفيات الناصرة وشفا عمر ومستشفيات ميدان عكا إلى يافا، وكذلك الأمتعة الضخمة والسجناء وكل ما يمكن أن يعوق الجيش، وحسب تعبير الملاحين، لم يكن إلا على مرساة.



48 - لوبيه - الناصرية 3 أبريل – قنا 11 أبريل وصفورة 13 أبريل 1799.
خريطة (46)

ووصل جيش باشا دمشق إلى نهر الأردن على شكل طابورين، طابور اليمين، تحت قيادة ابنه، وقوامه ثمانية آلاف رجل، احتلوا جسر يعقوب (Yakoub)، وأرسل طليعة لحصار بقلعة صفد، وحاول دون جدوى الاستيلاء عليها بالانقضاض، واجتاحت فرقه كل الجليل. وأقام الباشا معسكره على الضفة الشمالية لنهر الأردن أمام مِعبَر ...(*)، والذي سيطر عليه. وأرسل مقدمة طليعته لتأخذ مكانها على ارتفاعات لوبية (Loubyeh) على الضفة اليمنى من نهر الأردن، وأقام أهل نابلس في سهل أسدريلون.

ورحل الجنرال مورا (Murat) من المعسكر مع طابوره المتحرك، والذي اكتمل حتى ألف من كافة الأسلحة، وأنهى حصار صفد، واستولى بالقوة على جسر يعقوب، وسيطر على معسكر ابن الباشا، واعتقل عددًا كبيرًا من الأسرى، وسيطر المنتصر على الخيام والأمتعة والجمال والمدفعية، وكانت الغنيمة ضخمة. ولقد أخطأ ابن الباشا الشاب أن أرسل عددًا كبيرًا مُقسمًا، ولم يستطع جمع أكثر من ألفي رجل عندما تعرض للهجوم. وبمجرد أن علمت بقية فرقته أن جسر يعقوب قد تم الاستيلاء عليه، لحقوا بدمشق وانصرفوا عن منابع نهر الأردن. واتجه مورا من هناك إلى طبرية واحتلها، وكانت مخازن العدو في تلك المدنية، فوجد فيها من القمح والشعير والأرز والزيت والأعشاب ما يكفي لغذاء الجيش مدى ستة أشهر.

واحتل الجنرال جينو (Junot) الناصرة بواسطة طابور المراقبة، وبمجرد أن علم أن طليعة الباشا، وهي من ثلاثة آلاف رجل، قد عبرت نهر الأردن، قام بالزحف لمقابلتها، ووجدها في سهل كنعان (Chanaan)، وسيطر عليها، رغم أنه كان معه أربعمئة رجل فقط. وقد شرفته هذه المعركة كثيرًا، وغمرت بالنصر رائد الخيالة ديفينيه (Duvivien)، وهو واحد من أكثر بواسل ضباط سلاح الفروسية بالجيش الفرنسي. وأصدر القائد العام الأمر إلى الجنرال كليبر بأن يتجه ومعه فرقته لمساندة طابور الجنرال جينو (Junot)، ولحق به يوم 11 أبريل ومعه ألفان وخمسمئة رجل تحت إمرته. وزحف على مرتفعات لوبية، حيث دعّم باشا دمشق طليعته حتى سبعة آلاف رجل. ولم تكن المعركة غير مؤكدة، وهُزم العدو، لكن كليبر كان يخشى أن ينفصل عن عكا، فأخذ من جديد موقعه على مرتفعات الناصرية.

حينئذ احتل باشا دمشق مرتفعات لوبية من جديد، وزحف تحت حمايتها مع بقية جيشه على يساره، وأقام مخيمه في سهل أسدريلون، وتجمع مع فرقة نابلس. وعندما أنهى هذا التحرك تحولت مقدمة طليعته إلى مؤخرة الطليعة، وتبعت حركته، وترك مرتفعات لوبية والاتصالات المباشرة مع دمشق. وقرر كليبر عقاب الباشا على جسارة سيره على الجناح. وأخبر القائد العام بأنه سوف يسير بين نهر الأردن والعدو ليفصله عن دمشق، ودرس

(*) [الاسم محذوف من المخطوط].

زحفه بطريقة يفاجئ بها المعسكر التركي في الساعة الثانية صباحًا، وأنه يأمل في أن يحقق نفس النصر الذي كان قد حققه رينيه في العريش. وكانت خطة كليبر غير مرتبة، فقد كان يفترض أنه سوف يقطع خط عمليات نهر الأردن ليأخذ خط نابلس، ولكن حركاته لم تقرر. واستمر في الزحف إلى عكا، وكان الحصار سيكون على المكشوف وفي خطر. فالأمل في مفاجأة معسكر العدو بالهجوم ليلاً لم يكن تفكيرًا صائبًا. لقد نجح في العريش لأنه



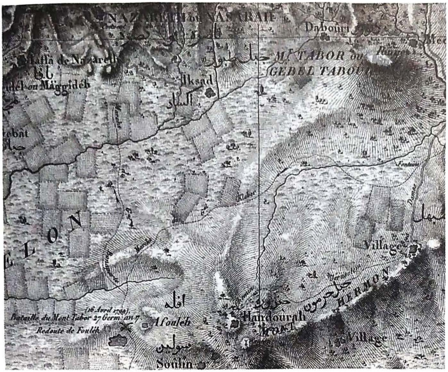
49 - صفد 31 مارس، الزلرية وفرهان أول أبريل، وجسر يعقوب 2 أبريل 1799

خريطة (46)

في خلال يومين متتاليين تعرف مع ضباطه على الطرق التي لطوابيره أن تأخذها في أثناء الليل، ولأن موقع معسكر عبد الله كان ثابتًا، ولكن كيف كان يستطيع أن يهاجم ليلًا على طريق لا يعرفه هو نفسه، ولا يعرفه ضباطه. وعندما دبر هذا الهجوم كان على بعد خمسة فراسخ من العدو، ولم يكن يعرف بالضبط أين سيقيم عدوه معسكره. وكان لا بد من أن يظل في مكانه على الأقل أربعة وعشرين ساعة للتعرف على نواحي المعسكر المسلم، وكان ذلك غير ممكن له أمام جيش يفوقه عددًا. وقد تنبه نابليون أنه لن يصل إلا الفجر إلى أرض لم يكن قد اختارها، وأنه كان سوف يحاط من كل هذا الجيش، ويتعرض إلى أعظم المخاطر، وأن الفرقة وجيش الحصار كانا أيضًا عرضة للخطر. وفي نفس الساعة (الواحدة من بعد ظهر يوم 15 أبريل) رحل مع فرقة المشاة، وكل الفروسية الموجودة بالمعسكر وبطارية احتياطية، وزحف حتى الليل، وعسكر على مرتفعات صفورة (Safoureh). وعند فجر يوم 16، بدأ السير إلى سولين (Soulyn) ويتبع الممرات التي تدور حول الجبال. وفي الساعة التاسعة صباحًا، اكتشف كل سهل إسدريلون على بعد ثلاثة فراسخ شمال شرق، وتبين له بمنظار جيد، أسفل جبل طبور (Thabor)، مربعان صغيران من قوات يحيط بها الدخان، وقد كانت بغير شك هي الفرقة الفرنسية التي هوجمت وأحاط بها جيش ضخم من كل الجهات. إن سهل إسدريلون شديد الخصوبة، وكانت تغطيه المحاصيل، وكان ارتفاع القمح ستة أقدام في ذلك الوقت. وشكل نابليون فرقته من ثلاثة طوابير، لكل منها كتيبة، وجعلها تسير الواحدة من الأخرى على بعد 400 قامة متجهة بشكل لقطع الانسحاب إلى نابلس عن جيش العدو. وكان القمح يخفي تمامًا الجندي وكان يقترب من مخيمات العدو دون أن يتعرف العدو عليه.

نفذ كليبر فكرته، وكان قد رحل في اتجاه نهر الأردن، وعاد من جديد إلى مؤخرات العدو، وطلع النهار قبل أن يستطيع اللحاق به. وفي الساعة السابعة صباحًا، وجد نفسه أمامه، ووقع على أول المواقع وذبحها. وبعد قليل وصل الإنذار إلى كل المعسكر، فركبت كل هذه الأعداد الخيول، وبعد أن تعرفوا على العدد الصغير من الفرنسيين، قاموا بالزحف عليهم. كان كليبر ضانعًا، ولأنه كان رجلاً شجاعًا وحصيفًا، فقد قام بكل ما ننتظره منه، فقاوم وصّد عدد كبير في الهجوم، ولكن الأتراك كانوا قد استولوا على كل أقسام سلسلة جبل طبور (Thabor)، وكل التلال التي تحيط بالفرنسيين. وقد أدرك قدامى المحاربين خطورة موقفهم تمامًا، وبدأ أكثرهم شجاعة يأملون أن تُسمّر المدفعية، وأن يهتدوا بمرتفعات الناصرية شديدة الانحدار. تشاور كليبر في اتخاذ القرار، وكان موقفه مؤلمًا حين صاح المحاربون: "ها هو العريف الصغير"، وجاء ضباط من هيئة الأركان يخطرون كليبر بهذه الضجة، وغضب وأثبت لهم أن الأمر مستحيل، وأمر باستمرار تشاور المجلس. ولكن جنود نابليون القدامى، الذين اعتادوا على هذه المناورات، أعادوا الاستنكار بشدة، وكانوا يعتقدون رؤية الحراب. عندئذ صعد كليبر على مكان مرتفع، وقام بتوجيه مناظره، وقام ضباط الأركان بالشيء نفسه، ولم يصلوا لشيء، واعتقد

المحاربون أنفسهم أنهم انخدعوا [قائلين]: "لقد تبدد بريق الأمل". فقرر كليبر بنفسه ترك مدفعيته وجرحاه، وأمر بتشكيل طابور للاستيلاء على الممر بالقوة. ومن المحتمل أن الجنود قد لاحظوا بريق الحراب، في الوقت الذي كانت فيه الطوابير على أرض مرتفعة قليلاً ومكشوفة كثيرًا. واهتم القائد العام باختفاء زحفه، حتى يتمكن من الاستيلاء على تل صغير يحول دون قطع طريق تراجع الأتراك. ولكن نظره وقع فجأة على حركة كل جيش العدو الذي يتقارب من مربعات كليبر، فنزل عدة ضباط من هيئة الأركان إلى الأرض، ووجهوا أنظارهم فلاحظوا بوضوح أن العدو يستعد لشن هجوم شامل، وأن مربعات كليبر قد بدأت تضطرب. كانت تشكيلة طابور الهجوم. وكانت اللحظات ذات أهمية كبرى، فقد وجد كليبر نفسه محاطًا بثلاثين ألف رجل، كان ما يزيد على نصفهم على ظهور الخيل، وأي تأخير قد يكون مُميتًا. فأمر القائد العام أحد المربعات بالصعود على سد. وبعد قليل ظهرت رؤوس الرجال والحراب للأصدقاء والأعداء. وفي نفس الوقت كشفت نيران مدفعيته الحركة. وبعد قليل لوحظت تحركات كليبر الذي أعاد تشكيل المربعات، والقبعات على أطراف الحراب رمزًا للابتهاج. وقد لحق بذلك صلية مدفعية للاستطلاع. توقف جيش العدو مندهشًا ومذهولًا، وجرى سريعًا مماليك إبراهيم الأكثر خفة، والذين كانوا على مقربة، ليتعرفوا على هذه القوات الجديدة. ولحق بهم كل أهل نابلس، والذين خافوا عند رؤية الطوابير وهي تغلق الطريق لبلادهم. وتوقفت الطوابير الفرنسية الثلاثة لحظة، ونظمت نفسها، وفاجأت مفرزة انقضاض تتكون من ثلاثمئة رجل، ونهبت المعسكر والأمتعة، وأخذت جرحى الجيش التركي، وأشعلت النار في الخيام، وهو مشهد أثار رعب الأعداء. واقتربت بعض طواقم الفروسية التركية من فوهات بنادق المربعات، ولكنها ابتعدت حين استقبلت بشظايا النار. وزحف كليبر من جانبه، ولم يتأخر التقاء الجيشين، ووصلت الفوضى والرعب عند العدو لآخر مدى، وهرب هذا الجيش، جزء منه إلى نابلس، والآخر إلى وادي الأردن. وقد نجد صعوبة في وصف مشاعر الإعجاب والعرفان عند المحاربين، فقد خسر الأعداء أعدادًا كبيرة في الهجمات المختلفة التي قام بها خلال الصباح، وفقدوا أكثر منهم في أثناء الانسحاب، وغرق عدة آلاف في نهر الأردن، ورفعت الأمطار المياه، وجعلت السد أكثر صعوبة، وفقد كليبر ما بين مائتين وخمسين إلى ثلاثمئة رجل بين قتيل وجريح، وفقد طابور القائد العام ثلاثة أو أربعة من الرجال. هكذا كانت معركة جبل طبور، وصعد نابليون على هذا الجبل المرفوع على شكل قالب سكر (طبرزَن) ليطل على جزء من فلسطين. وحسب بعض الأساطير أن الشيطان قد نقل المسيح عيسى إلى هناك، وعرض عليه كل البلد الذي أمامه لو أنه أراد أن يعبده.



50 - معركة جبل طبور.

خريطة (46)

وفي الليلة من يوم 16 إلى 17 [أبريل]، أقام كليبر في خيمة القائد العام وتركها في الثالثة صباحًا ليلحق بفرقته التي عسكرت على شاطئ نهر الأردن. وطوال يوم 17 لاحق بقايا جيش دمشق، وحصل المحاربون على غنائم ثمينة. وفي مساء يوم 17 أقام كليبر في المكان الذي كان فيه، وانتظر الأوامر بشأن يوم 18. فكر نابليون في موقفه؛ فلم يتبق سوى أربعة آلاف رجل في معسكر عكا لحصار حامية تتكون من ثمانية آلاف رجل، تدعمها سفينتان إنجليزيتان ذات قطع عيار 80، وكانت الإمدادات تصل لهذه الحامية في كل لحظة، وبين لحظة وأخرى يمكنها استقبال جيش رودس، والذي لا بد وأن حركته ستساعد حركة جيش دمشق، وعندئذ كان لا بد من إدخال كل القوات من جديد إلى معسكر الحصار. وعند اللزوم كان يمكن لكليبر صرف ألفين وخمسمئة رجل، وخمسمئة فرس، واثني عشر مدفعًا، وسيتبقى ستة آلاف في المعسكر، وهو ما كان كافيًا، ولكن هل كان منطقيًا إرسال كليبر مع ثلاثة آلاف رجل إلى عاصمة كبيرة عدد سكانها مئة ألف نسمة من أكثر الأشرار في الشرق؟ ألم تكن هنالك خشية من أنهم - بمجرد حصر العدد الصغير للفرنسيين- سيحيطون بهم من كل جانب؟ وعلاوة على ذلك، فإن الاستيلاء على دمشق كان يمكن أن يحدث في أقصى حد في صباح اليوم التالي لـ 18 أو 19 [أبريل]، وهو ما

كان مغريًا. ثمَّ ما هي المزايا التي لن يجنيها الجيش من هذا الغزو! قد تجد فيها بعض الخيول والجمال والبغال، والتي يحتاج إليها [الجيش] لتعويض خسائره، [وقد] تجد الجلود والجوخ والأقمشة ولوازم التزود بالكسوة، وبعض البارود والأسلحة والنقود. ويمكن الحصول على سبعة أو ثمانية ملايين من الضرائب، ومزايا أكثر من ذلك لجيش منتصر؛ فأي بريق قد يلقيه ذلك على الأسلحة الفرنسية! كانت معركة جبل طبور ستسترد صيتهم الذي شوهته قليلاً مقاومة عكا، ولكن كيف يكون ذلك في القاهرة وطرابلس وحلب وعكا، إذا تناهى لعِلمهم أن العلم الثلاثي يرفرف على [المدينة] الغنية، دمشق المقدسة القديمة! ألا يُحدث ذلك تأثيرًا معنويًا كان يُنتظَر من الاستيلاء على عكا؟ سوف يصطف تحت أعلام فرنسا المتوليون والعرب والدروز والمارونيون، وكل شعوب سوريا. ومهما كانت قوة كل هذه الاعتبارات، فقد كان من المستحيل المخاطرة بثلاثة آلاف رجل وحدهم، إلا أنه إذا أمكن التوصل لمساندتهم بستة آلاف من أهالي نابلس فقد يصبح الأمر مختلفًا. وقد تحدث القائد العام عن ذلك مع بعض نواب الدروز والمارونيين، الذي التحقوا بالجيش، وصرحوا بأنهم - بعد انتصار عظيم مثل انتصار جبل طبور - كانوا يعتبرون أن من المخول لهم أن يلزموا أمتهم، وهو الأمر الذي حصلوا عليه، ولكن لا يحق لهم تمثيل أمتهم إلا بعد الاستيلاء على عكا، على أنهم يحتاجون خمسة عشر يومًا على الأقل لجمع فيلق القوات. ولم يكن ضاهر يستطيع أن يوفر على الفور غير مائتي رجل، وأما البدو الذين يشكلون قواته فلم شاءوا الارتباط إلا الاستيلاء على عكا ووضعها بين يديه قبل كل شيء. ولكن لأن السيطرة على دمشق لم يكن مستحيلة قبل الاستيلاء على عكا، ألم يكن بإمكان كليبر أن يطلب مساهمتها، وهو ما كان يحتاج ثمانية وأربعين ساعة؟ إن طلب المشاركة وعبور نهر الأردن من جديد كان مهمة قليلة الفائدة، وقد تسيء إلى العمليات التالية، وقد تسبب ضياع ثمانية عشر من المسيحيين المقيمين في هذه المدينة، كان يمكن للجيش أن يستفيد بهم. وفي صباح يوم 17، تم حرق ونهب ثلاث قرى ضخمة في نابلس لعقابهم، وطلب نواب نابلس العفو عن المدينة، وقدموا رهائن. وتلقى كليبر الأمر بعبور نهر الأردن من جديد، والبقاء على هذا النهر للمراقبة.

وفي يوم 18 أبريل، قضى نابليون الليل في دير الناصرة، حيث كان الجيش في الأرض المقدسة، فكل هذه القرى اشتهرت بأحداث العهدين القديم والجديد. وحرص المحاربون بكل اهتمام على زيارة المكان، حيث تم قطع رأس (الهلوفيرن) (Holopherne)، وحيث المعجزة الخاصة بزواج قنا (Cana)، والتي كانت ذائعة الصيت. ولم يكن هناك نبيذ، وكان نهر الأردن يوصف بأنه نهر واسع وسريع، تقريبًا مثل نهر الراين (Rhin)، أو الرون (Rhône)، وكان مدهشًا أنه لا يوجد غير خيط من ماء أقل من نهر اللين (Aisne) أو الواز (L'Oise) في كومبيين (Compiègne). وعندما دخل الجيش دير الناصرة، ظنَّ أنه في كنيسة أوروبية، فقد كانت جميلة، وكانت كل الشموع مضاءة، ويُقدَّم القربان المقدس، وحضر الجيش قداسًا، وكان هنالك عازف أرغن رائع. كان الرهبان من

الإسبان والايطاليين، وكان أحدهم من الفرنسيين وحده، وقد أشاروا بشارة السيدة العذراء إلى أحد الكهوف، وفيه استقبلت السيدة (العذراء) زيارة الملاك جبرائيل. كان الدير جميلاً جدًا، وبه عدد كبير من المساكن والأسرة التي أقام فيها الجرحى، وقام بعض الآباء بالعناية بهم، وكانت الأقبية مليئة بالنبيذ الجيد. وفي يوم 19 أبريل دخل نابليون إلى معسكر عكا بعد أن غاب عنه خمسة أيام فقط.

لقد كان تأثير معركة طبور هو ما كان منتظرًا منها؛ فقد تكاثر في معسكر الفرنسيين الدروز والمارونيون، وأهالي سوريا من المسيحيين، وبعد عدة أسابيع تكاثر نواب المسيحيين من أرمينيا (Arménie). وبناء على اتفاقية سرية مع الدروز والمارونيين تم الاتفاق على أن يأخذ القائد العام في خدمته ستة آلاف دُرزي، وستة آلاف ماروني، وتحت قيادة ضباطهم ليلتحقوا بالجيش الفرنسي في دمشق.

سابعًا: بمجرد أن علم اللواء بحري بيريه (Perrée) أن الجيش قد دخل إلى سوريا، أقلع إلى الإسكندرية التي رفع عنها السير سيدني سميث الحصار، جاء مع الفرقاطات لاجنيون (*La Junon*)، والسيست (*l'Alceste*)، والكوراجيز (*La Courageuse*) إلى الرسو يوم 15 أبريل في مرفأ يافا. وقد تلقى الأوامر والتعليمات كي يقترب من عكا على ألا يلاحظه العميد بحري الإنجليزي. وتعرف بيريه على جبل الكرمل، وأنزل في شرم تنتورة (Tantourah) الصغير ستة مدافع من عيار ضخم، وأيضًا كثير من ذخائر الحرب والأغذية. وكانت هذه العملية الهامة تتم على بعد ثلاثة فراسخ من العمارة الإنجليزية. ومن هناك أقلع بيريه في عرض البحر، وأقام رحلته البحرية بين رودس وعكا، وذلك لكي يحول دون وصول السفن التي تتجه لهذا الميدان. هجم على قافلة جيش رودس، وأخذ سفينتين كان عليهما أربعمئة رجل من الجيش، ومعتمد عسكري، وست مدافع معركة، وكنز من مئة وخمسين ألف فرنك. وعاد إلى شواطئ سوريا وقام بإنزال أسراه، وبلّغ ما علم، وتلقى تعليمات جديدة. وقد حقق عدة غنائم في رحلته البحرية، ولحق بموكب من بعض السفن الصغيرة المحملة بأهالي نابلس الذين أرادوا دخول عكا وفرّقه. ولما كان على مرأى من العمارة الإنجليزية، فقد تبعه السير سيدني سميث، لكن دون أن يتمكن من الوصول إليه، ومع ذلك لم تكن مسيرة فرقاطاته جيدة. ولقد شرفت هذه الحملة البحرية هذا العميد البحري الشجاع، الذي سيطر على البحر ووضع عكا في حالة حصار، إذا جاز القول، على مدى شهر أمام عمارة إنجليزية وسفينتين بمدفع عيار 80، وفرقاطة، وثماني أو تسع سميريات. لأن العميد البحري سير سيدني سميث انشغل كثيرًا بتفاصيل شئون البر التي لا يفهمها أو يستطيع ذلك قليلاً، وأهمل شئون البحر، والتي يعرفها ويستطيع فيها كل شيء. ولو لم تصل العمارة البحرية الإنجليزية في شرم عكا، لكانت قد احتلت المدينة قبل أول أبريل؛ لأنه - في يوم 19 مارس - كانت اثنتا عشر ترتان تحمل معدات الحصار قد دخلت في حيفا، وسحقت هذه المدافع الضخمة أسوار عكا في 24 ساعة. ولما أخذ أو شتت العميد البحري الاثنتي عشرة ترتان الإنجليزية، فإذن

لقد أنقذ الجزار باشا. وكانت المساعدات والنصائح التي أعطاها للدفاع عن الميدان قليلة الأهمية. وبعد أن ألقى فيها فيليبو وخمسون رجل مدفع إنجليزي، كان من الأفضل كثيرًا عدم الاهتمام بأمور البر، والانشغال بالبقاء سيدًا للبحر، ومنع كل اتصالات المحَاصرين بحرًا مع دمياط، وأخذ الفرقاطات الثلاثة، أو على الأقل مطاردتها، إذ أن الذخائر والمدافع التي زودت بها المحَاصرين كانت هي السبب في ضياع عكا.

ثامنًا: فضلاً عن المدفعية التي كانت في الفترة الأولى، فقد ازدادت المعدات في الفترة الثانية بمدفعين عيار 24، وأربع مدافع عيار 18، ومدفعي هاون. وفي يوم 25 أبريل، تم تفجير اللغم أسفل البرج الضخم، ولم يحدث كامل الأثر الذي كان يتمناه صانع اللغم، فقد أضله في حساباته السرداب المتصل بالمباني القديمة. فقد تم هدم نصف البرج فقط، وحدث خلل في النصف الثاني، وكان يبدو وكأنه قُطع بموسى. وقد دحر في الحفرة ثلاثمئة تركي (عثماني)، وأربعة مدافع، وكل الحيل التي كانت قد أعدت للدفاع عن الثغرة. أقام ملازم أول هندسة في الأدوار السفلى، عشر جنود إطفاء، وعشرون من رماة قنابل يدوية، ولكن السلم المؤدي إلى الدور العلوي كان قد انقلب، فلم يستطع العدو أن يغادر مكانه. ونادى على فرق الجند في الثكنات، وفي ساعات قليلة أزاحت المدافع عيار 24 هذا الجزء من البرج. وقد أدار مهندس سلاح المهندسين ليدوه (Liédot) المسكن الذي أقامه على هذه الأنقاض. وهكذا تمت السيطرة على الموقع الرئيسي في السور، ثم فتح الميدان، ولكن العدو كان قد شيد خندقًا خلف البرج الضخم. وتم إقامة بطاريات على المساكن لمهاجمة الخندق والقضاء على دفاع قصر الجزار والمسجد، وفي نفس الوقت كان الهجوم على البرج الثاني في نفس الجبهة، وتم غرس الألغام لنسف المزلاق.

وقد تغلبت مدفعية المحاصَرين على مدفعية المحاصِرين، والذين كانت أسوارهم قد هُدمت تمامًا. ولم يقم بدفاع الميدان إلا بالعدد الضخم من الرجال الذين يشكلون الحامية، وبما كان لديهم من الأمل في وصول جيش رودس (Rhodes). وقد أصبحت الاتصالات به متاحة عن طريق البحر، وكان يستقبل مساعدات كل يوم وبدلاً من أن يضعف بسبب ما يفقده يوميًا، أصبحت الحامية أقوى بكثيرعما كانت عليه في بداية الحصار. وكان المحاصَرون غاية في الشجاعة، ويندفعون بجرأة نادرة في الخنادق، وينزعون صنّاعات سلال البطاريات، وهم يتحدون موتًا يكاد أن يتحقق. وقضى نحبه تسعة من بين عشرة كانوا يخاطرون كل يوم في هذه الحملات. أما العاشر الذي كان يرجع من الميدان ومعه السّل والصنّاعة، فكان يتم استقباله في الحامية بمظاهر النصر، وهو ما كان يكفي للبقاء على الحماس. كان التلاحم الجسدي عنيفًا في الممرات الضيقة وفي ميادين القتال، مما كان يضطر الجنود الفرنسيين إلى سنّ ثلاثة حدود حرابهم لمنع الأتراك من انتزاعها. ويتميز العثماني بوجه عام بأنه ماهر وقوي وشجاع وقنّاص، ويدافع بمنتهى الكمال من خلف الأسوار، ولكن غياب التكتل والنظام والتكتيك في الأرض المكشوفة يجعله أقل فظاعة. ولكن الجهود الفردية لا تستطيع شيئًا أمام حركة الجماعة، فقد كان كل

الهجوم الذي قامت به الحامية شديد الهلاك لها، وقد قامت بعشرين هجمة في أثناء الحصار، كان العديد منها معارك شرسة، وفقدت فيها تسعة آلاف رجل، تم أسر الثلثين من بينهم، وبمجرد خروجهم من الخنادق كانوا يستسلمون لرعونتهم الطبيعية، وكان من السهل على الضباط الفرنسيين جذبهم إلى الكمائن بتراجعهم أمامهم، مما يجعل استحالة عودتهم للميدان.

وفي نهاية شهر أبريل، فكر الجزار في الجلاء عن المدينة عندما فقد الأمل في الاحتفاظ بها. وقد تأخر وصول جيش رودس الذي كان قد أعلن عن وصوله منذ وقت طويل، ومع ذلك كان الجيش مهددًا بخطر الهزيمة بالانقضاض. وفي هذا الموقف الحرج لم يجد اللواء فيليبو - الذي كان يدير الدفاع - وسيلة غير مواصلة الدفاع لإتاحة المزيد من الوقت لوصول جيش رودس، بدلًا من التقدم بصفوف هجوم مضاد، وقال للباشا:

"أنك تتفوق على العدو بالمدفعية، وحاميتك أقوى بمقدار الثلث عن جيش المحاصرين، ويمكن أن تفقد عددًا كبيرًا من الناس دون أن تتورط، لأن قتل رجل سيكلفك ثلاثة رجال بالمقابل. لم يكن المحاصرون سوى ما بين ستة آلاف إلى سبعة آلاف رجل أمامك، وبما أن جزءًا من قواتهم للمراقبة على نهر الأردن، أو تبقى في حامية يافا وحيفا وغزة والعريش، أو تستخدم في مرافقة القوافل. وإذا كانت فرقتك منضبطة قدر شجاعتها، لكنت قد اقترحت عليك إبحار جزء كبير منها، وإنزالها في بحرية نابلس لتحارب مؤخرات الجيش، مما كان سيضطر العدو إلى رفع الحصار. ولكن النموذج الذي نراه كل يوم هو خروجهم للهجوم، وقتال جيش دمشق الذي انهزم في سهول أسدريلون من بضعة رجال، وهو ما يبرز ما نتيجة مثل هذه المغامرة. وتبقى وسيلة النجاة أمامك هي الزحف على العدو بصفوف هجوم مضاد، فإنَّ لديك سواعد وتملك المعدات الوفيرة، وبالات من القطن والصوف، وبراميل وخشب وأكياسًا من التراب، وستكون لك الغلبة في هذه الحرب، وسوف يفقد المحاصر الصبر ويفقد الكثير من الناس، وهو ما سوف يقوضه، لأنه لا يجد وسيلة للتجنيد، وعندما يصل جيش رودس سيكون باستطاعتك إجباره على رفع الحصار".

وتم اعتماد هذا المشروع. وفي آخر أسبوع من أبريل، شيد المحاصرون أمام باب البحر وأمام قصر الباشا تحصينات على شكل ميدان قتال، وقاموا بدعمها بالسلاح بمدافع من عيار 24، ومن هناك وجهوا خنادق ممرات تهاجم المحاصرين من الجانب ومن الخلف لثكنات إيواء جنود البرج الضخم. أما الذين اضطروا لإقامة بطاريات للهجوم المضاد لبطاريات التحصينات واجتيازها، فقد اتجهوا ضد خطوط العدو الجديدة، مما دفعهم للقيام بأعمال جديدة، وهو ما أخر سير كل الحصار. وبهذه الوسيلة كسب المحاصَر الخمسة عشر يومًا التي كان يحتاجها، وهو ما أعطى الوقت لوصول مساعدات رودس.

كانت نصيحة المهندس فيليبو آخر العنقود [تغريدة البجعة]، وقد جاهد بما فيه الكفاية في عمل تخطيط وقيادة الأشغال لدرجة أنه أصيب بضربة شمس ومات في أول مايو. كان فيليبو فرنسي المولد، وتدرب في المدارس الحربية بباريس، وكان في نفس السنة الدراسية لنابليون ومدرسة المعلم مونج. وقد امتحنهما في نفس اليوم الممتحن لابلاس (Laplace)، ودخلا قسم المدفعية في نفس السنة، وكان ذلك منذ أربعة عشر عامًا. وعند قيام الثورة رحل فيليبو وعاد إلى فرنسا في فترة رد فعل فروكتيدور (Fructidor) عام 1797، وقد ساهم في هروب السير سيدني سميث من المعبد الذي كان العميد البحري مسجونًا فيه. ونال لقب عقيد في خدمة انجلترا ليخدم في الشرق. كان طول هذا الرجل أربعة أقدام وعشر بوصات، لكنه كان قوي البنية، وقام بتقديم خدمات هامة في تلك الظروف، ومع ذلك كان مضطرب النفس، وكان في اللحظات الأخيرة فريسة للندم المرير، وقد وجد الفرصة للإفصاح عما بأعماق قلبه تجاه السجناء الفرنسيين، وسخط على نفسه حين قاد دفاع البرابرة ضد أهله [قائلا]:

" لن يفقد الوطن حقوقه تمامًا! وقد حل العميد دوجلاس محل فيليبو، لكنه لم يرث عنه ثقافته ولا معلوماته".

كان عمال الجيشين يسيرون بعضهم مقابل بعض، وحينما يسيرون معًا لم يكن يفصل بينهم إلا كتلة من الأرض طولها ما بين قامتين إلى ثلاث قامات. وعندما رأى المهندسون الفرنسيون أنهم وصلوا إلى جانب العدو، نخّر واضعو الألغام فتيل الإشعال، وقطعوا خندق العدو، وكل ما كان بعيدًا [منهم] تم قتله أو أسره. وبعد قليل عرف الأتراك القيام بنفس العملية، وتم الاستيلاء ثلاث مرات بقوة شديدة على منشآت العدو، وردم جزء منها، ولكن البقاء فيها كان مستحيلاً، لأنه كان يحتلها قناصة في الأبراج التي تسيطر على كل البلدة. وكان لا بد حينئذ من الاستمرار في أسلوب حرب المقاومة [من] خندق إلى خندق.

وفي يوم 4 مايو، انفتحت ثغرة البرج الثاني، وتم كسح الفتحة بين البرج الضخم والبرج الثاني، وأنهى اللغم الذي فجّر المزلاق. وفي صباح اليوم الخامس من مايو كان لا بد من إنجاز هجوم عام. وقد بدا النجاح أكيدًا، إلا أنّ المهندسين المحاصَرين قاموا ليلاً بقطع المزلاق، وزحفوا بكل نشاط إلى حُفرة اللغم عن طريق خندق ضيق يؤدي إلى المكان المُحاصر، بعدما كانوا عند الفجر قد اكتشفوا اللغم وخنق واضع اللغم، قبل أن يلاحظ ذلك ضابط الهندسة. وكان لا بد من حفر حفرة اللغم من جديد. وتأخر الأمر عدة أيام، لم يُدرك في البداية كل الأهمية. وعلى ذلك كان الهجوم – إذن - سيكون يوم 9. ولكن يوم 7 شاهدوا ثلاثين أو أربعين سفينة أقلعت باتجاه الشاطئ؛ وقد كان جيش النجدة الذي انتظره المحاصِرون بفارغ الصبر منذ مدة طويلة.

وبعد قليل أمر القائد العام بحمل السلاح، وأمر الجنرال لان بالهجوم والاستيلاء على الميدان. كان الجو هادئًا وجاءت الريح قليلاً من البر، ولم يكن من المحتمل وصول هذا الموكب للمدينة قبل أربعة وعشرين ساعة. وقد

شكل الجنرال لان ثلاث طوابير؛ الأول تحت إمرة رامبو (Rambcaud)، ودخل في الميدان عن طريق ثغرة النافذة (conrtinc)، والثاني بقيادة المساعد العام أسكال (Escalc) ونفذ من البرج الضخم، بينما قاد الجنرال لان الطابور الثالث الذي يشكل الاحتياطي. وقد اخترق الجنرال رامبو الثغرة بشدة، وطارد الأتراك في المدينة، واستولى على مدفعين ومدفعين هاون من العدو. وفي المساء تغير اتجاه الرياح، ووصلت السفن، وتم إنزال الإمدادات قبل النهار، وكان لان قد ترك جزءًا من المدينة التي استولى عليها الجيش، والاكتفاء باحتلال ثكنات البرج الضخم، وقتل الجنرال رامبو في هذا الهجوم.

وعند بزوغ النهار خرجت قوات جيش رودس مزهوة بتحقيق هذا النجاح الصغير التي حصلت عليه بعددها، فخرجت من ميداني السلاح من باب البحر ومن قصر الباشا. وافتخرت [القوات] بالحصول على بطاريات المحاصِرين وإجبارهم على فك الحصار. ولقد حققوا – في الواقع - انتصارات عظيمة في البداية، واستولت القوات على ثكنات البرج ونصف الخنادق والبطاريات، ولكن طاقمًا يتكون من ثلاثة آلاف رجل قام بالمناورة على جوانبهم بعد قليل، وانفصل عن الميدان، فأحيط من كل جانب، وقام بتسليم السلاح. وبقي ثلاثة آلاف آخرون بين قتيل وجريح في ميدان السلاح والخنادق. ودخل ألفان للميدان، فغيرت نتيجة تلك المعركة الأحوال من جديد، وساد الحزن بين المحاصرين، وكانت آمال جديدة أثارت حمية المحاصِرين الذين هاجموا واستولوا بالكامل على الجزء الذي كانوا قد احتلوه من المدينة من قبل، وأقاموا المتاريس، واستمرت المعركة عدة أيام من منزل إلى منزل.

كانت خسائر المحاصرين هائلة منذ بداية الحصار، وازدادت بشكل أكبر على مدى الأيام بسبب حرب هذه المناوشات، ولم يكن الاستيلاء على المدينة ممكنًا دون خسارة ألف رجل، وكان الطاعون قد حصد الرجال في الحامية بشكل مرعب، ولم تكن هناك وسيلة لحماية الجيش منها إذا واصل مهمته وهاجم المدينة، فلقد يفقد ألفًا من الرجال أيضًا بسبب الطاعون.

وقد شغلت هذه الاعتبارات القائد العام، لكن ما جعله يقرر رفع الحصار هو المعلومات الجديدة التي وصلته يوم 13 مايو عن الوضع الجديد من شئون الجمهورية.

ومنذ شهر أبريل، كان العقيد فيليبو قد أعلن في أثناء المحادثات التي جرت في الخندق أن تحالفًا ثانيًا هو أكثر خطرًا من الأول قد تشكل ضد فرنسا. كان العميد البحري بيريه قد رأى أن السفن التي خرجت من نابولي تخبره بأن الفرنسيين قد دخلوا هذه المدينة، وطردوا منها الملك، وأقاموا جمهورية. وأخيرًا، من الثابت أنه بالنظر لوضع . أسرى جيش رودس والأسرى الإنجليز، فقد تم إعلان الحرب في أوروبا، ودخل الجيش الفرنسي نابولي. وكان من السهل توقع العواقب الوخيمة من جرَّاء هذا الزحف في إيطاليا السفلى، وأن ثلاثين ألفا أو أربعين ألفا من

الفرنسيين - الذين كانوا على فيسوفيوس (Vésuve) - سوف يغيبون عن أديجي (Adige). وقد تم عرض أحوال جديدة على القائد العام: الأمة لا تقدر الإدارة، ربما تمت الاطاحة بحكومتها، وإذا تعرضت الجيوش للهزيمة، فإن عمليات جيش الشرق ستصبح ثانوية.

ولم يعد القائد العام يفكر إلا في وسيلة العودة إلى فرنسا، فلم تعد ثمة أهمية لكل من سوريا والجليل وفلسطين، ولا بد من عودة الجيش إلى مصر التي لم يكن يُقهر فيها، وعندئذ يمكن تركه وإلقاء نفسه في خضم هذا المحيط من الأحداث التي تعرض على أفكاره.

تاسعًا: تم حجب قرار رفع الحصار عن طريق مضاعفة النيران، فتم وضع كل مدفعية الحصار في بطارية، واستمر إطلاق النار لمدة ستة أيام، وسحقت كل دفاعات المسجد وقصور الجزار والخندق الداخلي. وخلال ذلك الوقت انصرف الجرحى والمرضى والأسرى والأمتعة الضخمة إلى يافا، وتم إخلاء مستشفيات رام الله وغزة والعريش إلى القاهرة. وفي في الساعة العاشرة من مساء يوم 20 مايو، خرجت فرقة رينيه التي كانت في الحفيرة، وزحف الجيش على امتداد البحر، وقام كليبر بتشكيل الحرس الخلفي. وجاء اثنا عشر مدفعًا من عيار 24 وعيار 18 أو من عيار أقل من يافا، وكذلك المدافع البحرية الإنجليزية التي توقفت عن الخدمة فتم إلقاؤها في البحر. ولم يلاحظ المحاصَرون أن الحصار قد رفع إلا نهار يوم 21 [مايو]، ولقد كانت فرحتهم عارمة، فقد كانوا يظنون أن وضعهم لا أمل فيه، ويتوقعون أن سوف يتم القضاء عليهم بالإنقضاض، لعدم وجود فروسية لدى الجزار، لم يستطع اللحاق بالجيش الفرنسي. وفي الساعة الثامنة صباح يوم 21، اتخذت طليعة الجيش موضعًا في قيصرية (Césarée)، وطاقم الجيش في تنتورة، ومؤخرة الجيش في حيفا.

وكان جدول عمل اليوم المقدم للجيش [على النحو التي]:

"أيها الجنود

لقد عبرتم الصحراء التي تفصل إفريقيا عن آسيا أسرع من جيش العرب، وتم تدمير الجيش الذي كان يزحف لاحتلال مصر، ولديكم قائده، ومعدات المعركة، وأمتعته وقربه وجماله.

لقد استوليتم على كل المواقع المحصنة التي تدافع عن آبار الصحراء، وفرقتم في ميدان جبل طبور هذه الحشد من الرجال الذين أسرعوا من كل أجزاء آسيا على أمل نهب مصر.

وكانت الثلاثون سفينة التي رأيتموها تصل أمام عكا منذ اثني عشر يومًا، تحمل الجيش الذي كان عليه حصار الإسكندرية، ولكنه اضطر للإسراع إلى عكا، فقد انتهى مصيره فيها، وإنَّ بعضًا من أعلامه ستزين عودتكم إلى مصر.

وأخيرًا، ببضعة رجال بعد أن غنمتم الحرب في أثناء ثلاثة شهور في قلب سوريا، وأخذتم اربعين قطعة معركة، وخمسين راية، وأسرتم ستة آلاف سجين، ودمرتم تحصينات غزة ويافا وحيفا وعكا. سنعود إلى مصر، وموسم الإنزال يدعوني إليها.

وخلال بضعة أيام مقبلة، سيكون لديكم أمل في القبض على الباشا نفسه داخل قصره، ولكن الاستيلاء على قصر عكا في ذلك الوقت لا يستحق ضياع عدة أيام. وفضلا عن ذلك فإنّ الرجال البواسل - الذين كان عليّ أن أفقدهم اليوم - ضروريين لإنجاز عمليات أكثر أهمية.

أيها الجنود، إن أمامنا مسيرة لمواجهة المشاق والأخطار، وبعد أن نجحت هذه الحملة في حرمان الشرق من القدرة على عمل شيء ضدنا، ربما يتعين علينا صد هجوم خصم من الغرب. عندئذ ستجدون فرصة جديدة للمجد، وإذا ما تميز كل يوم بين كل هذه المعارك، بمصرع مقاتل جسور، فلا بد أن ينهض مقاتلون جسورون جديدون ويأخذون مكانتهم بدورهم وسط ذلك العدد الصغير الذي يهب الحمية وسط الأخطار ويمسك بناصية النصر".

وقد استغرق حصار عكا اثنين وستين يومًا في الخندق المكشوف، وفقد الجيش الفرنسي فيه خمسمئة قتيل، ومن بينهم كثير من الضباط المتميزين، [منهم]: اللواء بون، والعميد رامبو، وأربعة مساعدون عموم، وعشرة ضباط من سلاح المهندسين، وثلاثون من كبار الضباط وضباط هيئة الأركان، والقبطان كروازيه (Croizier) مساعد ميدان القائد العام، واللواءات بوييه (Boyer) من الفرقة 18، وفيرنو (Vernoux) من الفرقة 25، وضباط متميزون. ولكن أكثر الخسارات أهمية كانت موت الجنرال كفاريللي دي فالجا، الذي ولد في منطقة لانجدوك (Languedoc) في عهد الثورة. وقد كان نقيبًا في قسم الهندسة، وكان يشجع الثورة، لكنه رفض - في 10 أغسطس - أن يؤدي اليمين الجديد، ويدل هذا الشاهد من الشجاعة على مبادئه وطباعه. وقد تم عزله ثم أعيد إلى وضعه، وتعرف على نابليون في نهاية عام 1797 عند عودته من إيطاليا، ولازمه في مصر. وقد جرح في 20 أبريل (عام 1799) في حرب الخندق من طلقة بندقية اخترقت مرفقه فكان لا بد من بتره، وكان قد فقد من قبل ساقًا في حرب سامبر والميز (Sambre et-Muse). تألم [كفاريللي كثيرًا طوال ستة أيام، ودائمًا ما غلب عليه الهذيان، ولكن عندما دخل القائد العام خيمته، أحس كفاريللي بانفعال شديد، وعاد إلى رشده، وتحدث معه بقدر من الإدراك لمدة خمسة عشر أو عشرين دقيقة. وتوفي يوم 25 أبريل وهو يلقي خطبة بالغة الفصاحة عن التعليم العام، وعن قلة التوفيق الذي يجب انتظاره من المدارس المركزية، والنظام الذي كان متبعًا في ذلك الحين.

وقد بلغ عدد الجرحى ألفين وخمسمئة، ولكن كان ثمانمئة من بينهم جروحهم بسيطة وتعافوا في المعسكر نفسه، ومن بين ألف وسبعمئة منهم تم بتر تسعين [حالة] ثم تم ترحيلهم إلى مصر. وكان هنالك خوف من عبورهم الصحراء في الموسم شديد الحرارة، وحيث كان من المتوقع فقدان نصفهم، لكن لم يفقد منهم إلا قليل لحسن الحظ

عند وصولهم إلى الصالحية، وهو ما يفسره الضباط الأطباء بجفاف الجو والرطوبة، وهما الأكثر ضررًا للجراح. وكان من بين الجرحى الجنرال لان، واللواء المساعد ديروك، والقبطان أوجين بوهارنيه.

ولقد جرح القائد العام جرحًا بسيطًا في هذا الحصار، وقُتل حصانه من تحته، و[ذلك] يوم 4 مايو، حين كان عند الخندق، فتم دفنه في حفرة قنبلة. وقد كان بالقرب منه المدعيان دومينيل (Daumesnil)، وكربونيل (Carbonel)، وهما عريفان من حرسه، قاما بحجبه بأجسادهما بطريقة تحميه من شظايا القنبلة التي انفجرت بعد قليل وجرحت كربونيل جرحًا طفيفًا. وأصابت النقيب أريجي (Arrighi) رصاصة مرت بالقرب من قبعة القائد العام، وأصابت هذا الضابط في فمه.

ودخل 15000 (خمسة عشر ألف) تركي على التوالي في عكا، ولكن كان لا يزال خمسة آلاف موجودين وقت رفع الحصار، وإذن كانت الخسائر عشرة آلاف رجل بين قتيل وجريح وأسير.

وفي 22 مايو، في لحظة الرحيل من تنتورة، تم إخطار القائد العام بأنه وفقًا لتقدير ضباط الصحة يمكن إخلاء مائتي جريح في البداية، [لكنهم] لن يستطيعوا السير أكثر من اليوم الأول. فوضع نابليون على الفور كل خيوله رهن إشارتهم، وأسرع ضباط هيئة الأركان بتقليد هذا المثل. وخشي أحد الجرحى من رماة القنابل اليدوية أن يلوث سرجًا جميلاً مُطرّزًا بالكامل؛ حيث كان يبدو مُترددًا فقال له القائد العام: "لا يوجد ما هو أجمل من ذلك لرجل شجاع". فارتبك ضباط الفروسية وأطلقوا كل خيولهم. وبعد أن تأكد من رحيل كل الجرحى، ركب الجنرال فرسًا من أفراسه.

عاشرًا: في يوم 22 مايو، امتد المعسكر إلى القيصرية، واستحم نابليون في الميناء الذي كان محفوفًا بقطع من أعمدة المرمر والجرانيت والسُماقي. وتعطي أنقاض هذه المدينة فكرة مناسبة عما كانت عليه المدينة. وفي يوم 23 [مايو]، أقام الجيش معسكره في مينا صبوره (Mynà-Sabourah) ملاحة النابلسيين، وفي يوم 24، عبر فم نهر الأوجة (Nahr el-Ougeh) على جسر مراكب، وبات في يافا حيث أقام عدة أيام، وذلك لتفجير التحصينات، والانتهاء من إخلاء المخازن والمستشفيات.

وقد صدر الأمر ببداية الزحف يوم 27، ولكن في الساعة الواحدة صباحًا كتب المرافق العسكري لافاليت (Lavalette) - الذي أشرف على زيارة المخازن والمستشفيات ليتأكد من تمام إخلائها - تقريرًا بوجود أحد عشر مريضًا بالمستشفى، وسأل الجراح المكلف بالخدمة عن سبب عدم ترحيلهم، فأجابه أنهم مصابون بالطاعون، وأن مجلس الترحيل رأى أنه لا يمكن نقلهم. وعلاوة على ذلك فأنهم لن يعيشوا أكثر من أربع وعشرين ساعة.



51 - قيصرية 22 مايو 1799 ، والهنية في 16 مارس 1799 - ميناء صبورة .
خريطة (45)

لكن هؤلاء التعساء حين لاحظوا أنه تم تركهم، طلبوا أن يتم قتلهم، فهو أفضل من تعرضهم لقسوة الأتراك. وأضاف المرافق العسكري أن الجراح طلب السماح له بوضع جرعة من الأفيون بالقرب منهم لاستعمالها عند الحاجة. وتم فورًا استدعاء رئيس الأطباء ديجينيت (Desgenettes)، والجراح الرئيسي لاري (Larrey)، وأكدا استحالة إخلاء المصابين بالطاعون، وكان النقاش فيما إذا كان من الملائم السماح للجراح بأن يضع الأفيون في متناول هؤلاء التعساء؛ فاعترض ديجينيت على ذلك قائلًا: "ليس في استطاعتي أن أقدم للمرضى إلا ما يساعد على علاجهم"، ورأى آخرون أنه من الملائم وضع الأفيون في متناول هؤلاء البؤساء، وأنه لا يمكننا أن نرفض للآخرين ما نريد عمله لأنفسنا. وقال نابليون: "سأكون دائمًا على استعداد لأن أعمل لجنودي ما أعمله لأجل ولدي، وبما أنه يجب أن يموتوا موتة طبيعية خلال أربعة وعشرين ساعة، فلن أسافر إلا هذه الليلة، ويبقى مورا مع خمسمئة حصان حتى الساعة الثانية بعد ظهر الغد". وأصدر الأمر إلى الجراح الذي بقي مع مؤخرة الجيش، وإذا لم يكونوا قد ماتوا عند رحيله، فليضع بعض الأفيون بالقرب منهم، ويوضح لهم أن استخدامه هو الوسيلة الوحيدة لتجنب وحشية الأتراك. وعندئذ كانت البحرية الإنجليزية قد ابتعدت في عرض البحر.

وفي يوم 28 مايو، اتجهت فرقة رينيه من يافا إلى الرملة، ومنها سارت بجانب أسفل جبال القدس. كانت التربة تغطيها أجمل المحاصيل، وأشعل الجيش الفرنسي النار فيها، ورأى أن هذا الإجراء ضروريًا، وفي صباح يوم 29، عسكر الجيش في غزة. إن الصحراء في شهر يونيو شديدة الهول، ولا تقارن أبدًا بالصحراء في شهر يناير، فقد كان كل شيء سهلاً وأصبح الآن صعبًا. فقد كانت الرمال حارقة، وأشعة الشمس لا تحتمل. عسكر الجيش في العريش يوم 2 يونيو، وكانت التحصينات بحالة جيدة، وتم تموين الحامية لمدة ستة أشهر، وترك سلاح المدفعية فيها عدة مدافع لزيادة تسليحها. وفي يوم 4 (يونيو) عسكر في قطية، وكان الحصن المشيد من خشب النخيل كافيًا لمقاومة العرب.

في 5 (يونيو) ذهب القائد العام لزيارة طينه وبيلوز، وتنزه على الشاطئ في المكان الذي قتل فيه بومبيه (Pompée) العظيم. وكانت الحرارة خانقة، وبعد أن دار حول السور القديم للمدينة، جلس في ظل جزء من السور باقٍ من باب نصر قديم.

وأخيرًا وصل الجيش إلى الصالحية يوم 7 [يونيو]. ولنا أن نتخيل المعاناة من غياب الظل، وخاصة العطش طوال تسعة أيام، وذلك لنصدق السعادة التي شعر بها الجندي حين عسكر في غابة النخيل، وله مُطلق الحرية في الشرب من ماء النيل الحلو. وأثبت النداء بعناية أن الحاضرين كانوا (11133) احدى عشر ألف ومئة وثلاثة وثلاثون رجلاً، وبذلك ينقص ألفا رجل؛ منهم خمسمئة قتيل في ميدان القتال، وسبعمئة ماتوا في المستشفيات، وستمئة كانوا في حاميتي العريش وقطية، ومائتان كانوا قد سبقوا الجيش. ومن بين أحد عشر ألفًا من الحضور، كان ألف وخمسمئة جرحى، منهم خمسة وثمانون مبتورًا، مات منهم في الصحراء خمسة مبتورين. ومن بين ألف وأربعمئة وخمسة عشر جريحًا، لحق ألف ومائتان بفرقهم في أثناء معركة أبو قير (البرية). وقد كانت خسارة حرب سوريا ألفًا وأربعمئة رجل ماتوا، وخمسة وثمانين بُتروا، والمجموع حوالي ألف وخمسمئة.

حادي عشر: ومن الصالحية تلقى كليبر الأمر بالتوجه بفرقته إلى دمياط ليتخذ معسكراته فيها، وواصل الجيش طريقه للقاهرة، حيث دخل فيها بموكب النصر يوم 14 يونيو. كان السكان قد خرجوا لملاقاته، وانتظروه في قبة العزب، وأعد كل من نواب المهن والتجار هدايا فاخرة، قدموها إلى السلطان الكبير؛ منها فرس جميل، أسرجته رائعة، وجمال جميلة اشتهرت بسرعتها، وأسلحة متميزة الصنع، ورقيق أسود جميل، وزنجيات جميلات، ورجال (من أهل) جورجيا، ونساء جميلات من جورجيا، وكذلك سجاجيد من الصوف والحرير، وعباءات من الكشمير وقفاطين، وقهوة موكا النادرة، وغليونات من فارس، ومجمرات مليئة بالبخور والعطور. ومن جانبهم أعد الفرنسيون الذين كانوا بالقاهرة وليمة في ميدان فسيح احتفالًا بوصول أصدقائهم، وتعانقوا

وقضوا عدة ساعات في الشراب. وكانت هناك إشاعات كثيرة عن انتكاسات الجيش في سوريا، ورغم أن فرقة كليبر غابت، فقد اتجهت مباشرة إلى دمياط، وكان الاندهاش من رؤية الجيش الكبير العدد يعود ولا يظهر عليه الضعف كثيرًا، حيث كان هنالك ثمانية آلاف رجل يحملون السلاح. وقد شعر الفرنسيون العائدون من سوريا عند رؤية القاهرة بنفس الرضا الذي يشعرون به عند رؤية وطنهم. وقد عبر السكان - الذين أحسوا بأنهم أحسنوا التصرف في أثناء غياب الجيش -عن فرحتهم على امتداد عدة أيام، احتفالا بهذه العودة السعيدة. وقد دخل القائد العام المدينة من باب النصر، يسبقه رؤساء الحرس الوطني والنقابات، وأربعة من رجال الإفتاء، وبعض علماء الجامع الأزهر. وخلال الشهور التي انقضت حتى معركة أبو قير، تم استقبال نواب الأقاليم والمدن المختلفة، والذين سارعوا بتهنئة السلطان الكبير، وعوضت الكتائب الخسائر بعدد كبير من الرجال الذين كانوا في ثكنات الراحة، والذين خرجوا من المستشفيات، وتم تشكيل أربعة مجموعات من المبتورين والمجروحين جرحًا خطرًا، وكلفوهم بالدفاع عن القلعة والأبراج. تزودت الفروسية بالخيل، وأكملت المدفعية معداتها، ومنذ الأيام الأولى لشهر يوليو كان الجيش قد استراح وأصبح في أحسن حال.

ووصلت أخبار جديدة من سوريا بأن الجزار باشا لم يغادر المدينة، ولم تخرج قواته من ولايته. وأرسلت حامية العريش دوريات في خان يونس دون مقابلة الأعداء. وتم القضاء على نصف جيش رودس في سوريا، ولكن مصطفى، وزير بثلاثة ضفائر (Queues)، باشا روميلي، قائد سراي عسكر الجيش، كان يقود ثلاث فرق تتكون من بين خمسة عشر ألفًا وعشرين ألف رجل، وكان ينتظر فرقة أخرى من الإنكشارية تشكلت في الدردنيل. ولقد كان ذلك قليل الفزع، ولا يمكنه إثارة أية مخاوف جادة. وقدم شيوخ الأزهر إعلانًا إلى الشعب مضمونه كالتالي:

"المجالس حسب أمر القانون... وصل إلى القاهرة المحترم رئيس الجيش الفرنسي، الجنرال بونابرت، الذي يقدر دين محمد. وتوقف مع جنوده في قبة العزب في صحة جيدة وسليمًا، شاكرًا لله ما منحه من الكرم، ودخل القاهرة من باب النصر مع الأتباع يوم الجمعة 10 من شهر محرم عام 1204، وفي موكب من أعظم الاحتفالات. لقد كانت فرصة رؤية الجنود في أحسن حال... كان يومًا من أعظم الأيام، لم نشهد مثله أبدًا". ولقد خرج كل سكان القاهرة لاستقباله، ورأوا وتأكدوا أنه القائد العام بونابرت بنفسه، واقتنعوا أن كل ما قيل عنه كان كذبًا... وتم طرد سكان مصر العليا المماليك من أجل سلامتهم وسلامة عائلاتهم وأبنائهم؛ لأن جزاء الأشرار يؤدي إلى خسارة الصالحين وجيرانهم ... نخبركم أن الجزار باشا - الذي سُمي هكذا بسبب أعماله الوحشية المروعة، ولم يكن يميز بين ضحاياه - قد جمع عددًا كبيرًا من رجال السوء، شجعهم بوعود النهب والاغتصاب، يريدون المجيء للاستيلاء على القاهرة وبعض أقاليم مصر... رحل القائد العام بونابرت وهزم جنود الجزار ... واستولى على قلعة العريش وكل المؤن التي كانت فيها... ثم اتجه بعد ذلك إلى غزة، وهزم كل من كان موجودًا من قوات الجزار التي لاذت بالفرار أمامه كالعصافير والفئران أمام القطط.. وعندما وصل إلى رام الله، استولى كذلك على إمدادات الجزار، وألفي قربة جميلة للغاية، كانت معدة لرحيله إلى مصر. ولقد حفظنا الله

منهم، ورحل بعد ذلك إلى يافا وحصارها خلال ثلاثة أيام... السكان، المُضللون لم يخضعوا له ورفضوا حمايته، فقد أسلمهم بثورة غضبه وقوة إرادته نهبًا للموت، حيث مات حوالي خمسة آلاف، وهدم الأسوار، وترك كل ما كان فيها للنهب. إنها إرادة الله، إذا قال لشيء كن فيكون... لقد قام بحماية المصريين الذين كانوا هناك، وكرمهم وأطعمهم وكساهم... وكان في يافا حوالي خمسة آلاف رجل من قوات الجزار، قضي عليهم كلهم، ولاذ عدد قليل منهم بالفرار. ومن يافا اتجه إلى جبل نابلس في مكان أطلق عليه قاقون (Qûqoun)، وحرق خمس قرى في الجبل. لقد حدث ما هو مكتوب في الأقدار، ويقضي رب العالمين دائمًا بذات القدر. وبعد ذلك تم هدم أسوار عكا، وقصر الجزار ... ولم يُترك في عكا غير حجر على حجر، تكوَّن منها كوم من الرديم، لدرجة أن نتساءل عما كان هنالك في ذلك المكان. ها هي نهاية بنايات الطغاة... ولقد عاد [القائد] بعد ذلك إلى مصر لسببين: الأول للوفاء بوعده الذي أخذه على نفسه أمام المصريين، وهو العودة إليهم بعد أربعة شهور، فإن وعوده عبارة عن تعهدات مقدسة، والسبب الثاني أنه كان قد علم بأن شخصيات سيئة مختلفة، مماليك وعربًا، قد أثاروا الاضطراب والفتن خلال غيابه... فشتتهم كلهم وصوله. إنْ كل أمانيه دائمًا القضاء على الأشرار، وإنَّ مراده الإحسان إلى الصالحين... فارجعوا عباد الله إلى الله، وأطيعوا أمره، فله ملك الأرض، فاتبعوا إرادته، واعلموا أنه قوي، ويعطي من يشاء، وهو من يأمرنا بالطاعة... وعندما وصل القائد العام إلى القاهرة، أخبر الديوان أنه يحب المسلمين ويعزُّ النبي، وأنه يتعلم من القرآن ويقرأه كل يوم بعناية ... ونعرف أنه ينوي تشييد مسجد لا مثيل له في الدنيا، و[ينوي] اعتناق الإسلام".

الفصل الحادي عشر

معركة أبو قير البرية

أولاً: أحداث مصر في أثناء شهور فبراير ومارس وأبريل ومايو 1799. ثانيًا: العمارة الفرنسية في بريست تهيمن على البحر المتوسط في أثناء أشهر مايو ويونيو ويوليو. ثالثًا: تحركات البكوات في مصر السفلى (يوليو). رابعًا: ظهور الأسطول الانجليزي التركي في أبو قير (12 يوليو). خامسًا: إنزال جيش رودس بقيادة الوزير مصطفى والاستيلاء على قلعة أبو قير (16 يوليو). سادسًا: وضع الجيشين يوم 24 يوليو. سابعًا: معركة أبو قير (25 يوليو)، أسر الوزير مصطفى. ثامنًا: حصار قلعة أبو قير والاستيلاء عليها (2 أغسطس 1799).

أولاً: بدا المصريون في أثناء حرب سوريا أهلاً للفرنسيين، يسعون لسماع الأخبار الطيبة ويرفضون صدق الأخبار السيئة. وقد أخضع الجنرال ديزيه الصعيد (مصر العليا)، كما حافظ الجنرال دوجا على الهدوء في مصر السفلى، وساهم الرجال الذين خرجوا من المستشفيات في دعم حاميتي القاهرة والإسكندرية، وتم التوسع في أشغال تحصين الميادين وبناء الأبراج بفاعلية لحماية الملاحة في النيل. كما تم قمع هجمات البدو دون معاناة ولم يصبح لها أثر. وأظهر علماء جامع الأزهر براعة، وبذلوا جهودًا موفقة لتنوير الشعب وتلافي أية فتنة بنجاح. ولم يحدث سوى واقعتين، الأولى كان سببها ثورة أمير الحج، فقد كانت الأملاك والامتيازات المرتبطة بمكانته في غاية الأهمية، وكان يحتاج إلى ستمئة رجل لمرافقة قافلة حجاج مكة، وطلب الإذن له بضم متطوعين من الشرقية، وحصل عليه. وظل مواليًا ما دامت الأسلحة الفرنسية موفقة في سوريا، ولكن عندما وصل إلى علمه أنها الهزيمة أمام عكا، أعار السمع إلى تلميح رجال الجزار، ورغب في الحصول على رضاه بالقيام ببعض الخدمات الباهرة. وفكر في الاستيلاء على دمياط، وفي يوم 18 أبريل، نشر نداء يعلن فيه أن السلطان الكبير (نابليون) قد قتل في عكا، وأن جيشه قد انهزم. وكان يتوقع له نجاح كبير، لكنه أحدث أثرًا ضعيفًا. انضمت إليه ثلاث قرى، وقدمت له قبيلة من البدو مساعدة من 200 فارسًا. رحل الجنرال لانوس على رأس طابور مختلط من الدلتا وعبر النيل ودخل الشرقية، وبعد مسيرات مختلفة وتراجع، أحاط بالجزار وقتل كل أتباعه، وأحرق القرى الثلاث التي تمردت، ولجأ أمير الحج إلى القدس.

وكان ثمة إمام من صحراء درنة، كان يتمتع بشهرة قدسية بين عرب قبيلته، تخيل أو أراد أن يعتقد الناس في أنه المهدي المنتظر. وكان هذا الرجل يتمتع بكل القدرات الذاتية لإثارة تعصب الجماهير؛ حيث كان بليغًا ومتعمقًا في دراسة القرآن، ويقضي كل وقته في الصلاة، ويعيش - كما كان يقول - بغير طعام. ففي كل صباح مع شروق

الشمس، وفي الوقت الذي يملأ فيه المؤمنون المسجد، كان يُقدّم له في احتفالية قصعة مليئة باللبن، يغمس فيها أصابعه بكل وقار ويمر بها على شفتيه، وكان هذا غذاءه الوحيد. وقد استمال مئة وعشرين رجلاً من قبيلته وقادهم إلى الواحة الصغيرة، ووجد فيها قافلة من ثلاثمئة مغربي كانوا قد جاءوا من فزّان، وألقى عليهم خطبة فصدقوه وانضموا تحت لوائه. وعندئذ انتقل إلى دمنهور، ففاجأ وذبح ستين فرنسيًا من فرقة البحارة، واستولى على بنادقهم ومدفع عيار 4. وضخم الذيوع هذا النجاح البسيط فأكسبه عددًا كبيرًا من الأتباع، وتسارع الفلاحون من كل أنحاء الأقاليم إلى مسجد دمنهور حيث كان يبشر ويؤكد بكل وضوح رسالته الإلهية:

"قال النبي أنه سوف يرسل المهدي لنجدة المؤمنين عندما يقعون في ظروف في غاية الخطورة. غير أن الجزيرة العربية لم تتعرض أبدًا إلى مخاطر أكثر من الآن؛ فقد كانت فريسة جيش لا يحصى من رجال الغرب الملحدين. وسوف يكون الذين يحاربون للدفاع عن الإسلام في منأى عن أي أذى، ولن تصيبهم القذائف الكروية، ولا الرصاص، ولا الرماح ولا السيوف".

فقام العقيد لوفيفر (Lefèvre)، قائد ميناء الرحمانية الصغير، والذي أزعجه ما حققه هذا الدجال من نجاح، بالزحف إلى دمنهور بصحبة أربعمئة رجل. وذهب الشيخ المهدي لملاقاته ومعه ألف من المسلحين بالبنادق، وثلاثة أو أربعة آلاف من المسلحين بالرماح والشوكات. وشكل العقيد الفرنسي، وهو محاط من كل الجهات، فرقة مربعة، وبعد أن قاوم على مدى عدة ساعات في معركة غير متكافئة، انسحب بشكل منتظم وعاد إلى حصنه. وصاح الأرامل والأيتام من الأطفال أو الذين جُرحوا يلومون المهدي بشدة؛ فإذا كان رصاص الفرنسيين لن يصيب المؤمنين، فلماذا إذن كل هذا العدد الكبير من الموتى والمصابين؟ أخمد الشيخ المهدي هذه الشكاوى مستندًا إلى عدة آيات من القرآن، ولم يتأثر أحد من الذين كانوا يصدقونه، وأما الذين أصيبوا فقد كان عقابهم بسبب عدم إيمانهم. وبناء عليه، توطدت الثقة به. وكان الخوف أن تتمرد البحيرة بأكملها، وقد جنب إعلان مشايخ القاهرة هذه المأساة، مما أتاح الوقت ليغادر الجنرال لانوس الشرقية ويهاجم دمنهور يوم 8 مايو، وأعدم كل من كان يريد المقاومة، وعثر على جثة الشيخ المهدي بين الموتى، رغم أن أنصاره ادعوا طويلاً أنه ما يزال حيًا، وأنه سيظهر عندما يحين الوقت. ولقد كان من السهل التأثير على المصريين في كل العصور باسم الأرباب، سواء أكان الحديث الموجه إليهم عن العجل أبيس، أم عن أوزيريس، أم عن محمد.

وتلقى الجنرال دومرتان، قائد المدفعية، الأمر بمعاينة موقع الإسكندرية والسواحل، والإسراع في تسليحها. وسافر يوم 17 يونيو من القاهرة على مركب مسلح، وقابل فلول جيش المهدي(*)... بالبنادق، واستمر السفر

(*) هذه الفقرة كتبها نابليون بيده بالقلم الرصاص، وفي الفراغ بضع كلمات ممسوحة من الصعب قراءتها.

بحرًا، وكان لديه نصف الطاقم بين قتيل وجريح، وتلقى أربع طلقات نارية، ومات في رشيد متأثرًا بجراحه. وقد كان ضابطًا شجاعًا، وحل محله الجنرال سونجي (Songis) في قيادة مدفعية الجيش.

ورست أمام السويس سفينة إنجليزية عليها خمسون مدفعًا، وفرقاطة، جاءتا من كلكتا (Calcutta)، وتظاهرتا بأنهما تريدان الاستيلاء على المدينة، ولكنهما وجدتا المدينة في حالة دفاع، فرحلتا في 5 مايو واختفيا وعادتا إلى الهندستان.

ثانيًا: غادرت العمارة بريست (Brest) بقوة خمسة وعشرين سفينة خط، منها أربع سفن لها ثلاثة جسور، وثماني فرقاطات بقيادة الأميرال برويكس (Bruix)، يوم 26 أبريل ميناء بريست، ولم يلاحظ الأميرال بريدبورت (Bridport) مغادرتها إلا بعد 36 ساعة من رحيلها، وكان يحاصر هذا الميناء بواسطة ست عشرة سفينة حربية. وقد اعتقد أنها تتجه إلى إيرلندا، وذهب إلى مستوى رأس كلير (Clear)، وبمجرد أن علم مركز القيادة البحرية في لندن بهذا الحدث، رحلت السفن الاحتياطية إلى مواني بحر المانش لدعم عمارات رأس كلير وتكسل (Texel). وفي نهاية شهر مايو وصلت قوة العمارة بريدبورت (Bridport) إلى ثلاثين سفينة، ووصلت العمارة دونكان (Duncan) في تكسل إلى اثنتين وعشرين سفينة، وشكلت هاتان العمارتان اثنتين وخمسين سفينة، وظلت باقية للمراقبة وحماية أيرلندا.

كان الأسطول الفرنسي قد اتجه نحو مصر وعبر مضيق جبل طارق يوم 4 مايو، ولكنه غيّر الطريق، ورسا في طولون يوم 9 مايو. ولو كان قد استمر في اتجاهه الأول لوصل يوم 16 مايو إلى سواحل سوريا، وكان يكفي وجوده وحده لإسقاط عكا والسيطرة على أساطيل سفن النقل التي جمعها الباب العالي في رودس. وليبرر خط سيره كعادة البحارة ادعى الأميرال سوء الجو والحاجة إلى الصيانة، وقال أيضًا أنه رأى أن من الملائم أن يجتمع مع العمارة الاسبانية، كما لو أن عمارته لم تكن كثيرة العدد من أجل رحلة بحرية إلى مصر، وكأن لم تكن العمارة إلا من سفينتين أو ثلاثة.

وقد أرجع البعض سوء التصرف لعدم اتخاذ القرار، وضعف شخصية الأميرال الذي استنفد كل ما لديه من الطاقة للعبور من بريست حتى المضيق، و[أسند] البعض الآخر [الأمر] إلى التعليمات التي تلقاها في كاديس بواسطة بريد وصله من باريس، إذ يُقال أن حكومة الإدارة قد ألغت أمر تحرك العمارة إلى مصر خشية أن يعلم نابليون بما حدث في أوروبا، فيعود إلى باريس ويستولي على السلطة منتهزًا موقف الحكومة الحرج الذي أضعفت الانتكاسات شعبيته.

وفي 20 مايو، لحق مزاريدو (Mazarredo) بالعمارة الفرنسية في طولون مع إحدى وعشرين سفينة إسبانية، وأقلع برويكس (Bruix) مع ست وأربعين سفينة في 27 مايو، وأبحر بين جنوة وليفورن (Livourne)، وأنزل فيها مئونة وفرقة. ويوم 9 يونيو مر من جديد أمام طولون، ودخل في قرطاجة وكاديس ورسا يوم 8 أغسطس في بريست. وبسبب الخوف الدائم على إيرلندا لم يجرؤ الإنجليز على التصرف في عمارتي الأميرال بريدبورت (Bridport) والأميرال دونكان (Duncan)، واكتفوا بتكليف عمارة اللورد سان فنسان، وثماني عشرة سفينة بمراقبة الأميرال برويكس (Bruix) الذي كان يسيطر على البحر المتوسط وذلك طوال أشهر مايو ويونيو ويوليو. وإذا كان قد أبحر إلى الإسكندرية يوم 27 مايو، وهو نفس يوم خروجه من طولون، لكان قد وصل إليها في منتصف يونيو، وقضى على كل استعدادات حملة أبو قير، ورفع الحصار وموَّن مالطة، ولكنه لم يحقق أيًّ واحدة من هذه العمليات. ومع ذلك، فإنه قد عرّض عمارته للضرر عندما أبحر عند سواحل إيطاليا، أكثر مما لو كان قد وجهها إلى مالطة أو مصر، وهو ما يدل على أن سلوكه كان قد خضع لأسباب سياسية، وأنه لم يرسل حتى عمارة خفيفة من خمس أو ست سفن جيدة السير لرفع الحصارعن مالطة، ومطاردة البحرية الإنجليزية من الإسكندرية، وحمل بعض الأخبار والمساعدات إلى جيش الشرق. ولم يتفضل حتى بإرسال فرقاطة إلى جيش من 30000 (ثلاثين ألف) فرنسي كانوا محتجزين في هذه البلاد النائية.

لقد كان برويكس بحارًا لا بأس به، ويتمتع بعقلية راجحة، إلا أنه كان ضعيف الشخصية، وكان عاجزًا على الدوام. ولا بد أن يكون الندم أبديًا على ضياع مثل هذه الفرصة الثمينة وضمان وضع اليد على مالطة ومصر.

ثالثًا: أثار رفع حصار عكا وانسحاب الجيش حماس العميد البحري الانجليزي سير سيدني سميث، والذي كان يعتقد إمكانية الاستيلاء على مصر بهجوم مفاجئ، وهو ما قد يضطر هذا الجيش الذي لا يقهر للاستسلام. وقد أسرَّ بقراره إلى بطرونة بك (Patrona-Bey)، نائب الأميرال التركي، وإلى سر عسكر جيش رودس، الوزير مصطفى الذي كان لا يزال لديه 18000 (ثمانية عشر ألف) رجل من بقية معسكره في رودس، و7000 (سبعة آلاف) من خيرة الإنكشاريين الذين كانوا رهن إشارته في الدردنيل. "ومع هؤلاء 25000 (الخمسة وعشرين ألف) رجل كان يمكن أن يحقق نصرًا خالدًا لأن الجيش الفرنسي كان قد فقد نصفه، وكان يائسًا وغير راض، وعلى استعداد للانتفاضة، فقد عانى من خسائر ضخمة أحدثتها البطاريات العالية والمنخفضة من سفن الإنجليز والفرقاطات، التي أطلقت أكثرمن 10000 (عشرة آلاف) قذيفة مدفعية، وأن خسائره عند عبور الصحراء في حرارة شهر يونيو لم تكن أقل هولا". ورغم قبول هذه المزاعم، إلا أن الجنرالات الأتراك نفروا من القيام بعملية في السهل دون خيالة، ودون أدنى عربات تجر المدفعية. ولكن المماليك وبدو الصحراء تلقوا الأمر بالتجمع: إبراهيم بك والألفي بك، مع العرب من ثلاثة صحاري: صحراء طبرية والمناسك، والسويس، في وادي طملات،

ومراد بك مع العرب من واحات سوريا حتى بحيرة النطرون. يزود سلاح الفروسية من هاتين الفرقتين مصطفي باشا ستة آلاف أو سبعة آلاف فارسًا، وربما كان لديه إذن جيش من ثلاثين ألف رجل على الأقل في شبه جزيرة أبو قير.

وفي الوقع نزل الألفي بك وعثمان بك مع ثلاثمئة فارس من منزليهما على ضفة النيل اليمنى، ولحق بهما ثلاثمئة أو أربعمئة من البدو، وعسكروا في 7 يوليو بالقرب من آبار السبع بيار. وفي الليلة من 9 إلى 10 يوليو حاصر المعسكر العميد لاجرانج (Lagrange) الذي كان قد انطلق لملاحقتهم، واستولى على الأمتعة والجمال وكل المؤن، وأسر ثلاثين من أكثر المماليك شجاعة. وبعد كثير من التحولات والمخاطر الشديدة استطاع (Beys) البيكان اللحاق بصحراء النوبة. وكان إبراهيم بك على بعد يومين من غزة عندما علم بهذه الهزيمة؛ فعاد إلى سوريا. وفي نفس الوقت ظهر مراد بك على حدود الفيوم، وضم إليه بضع مئات من البدو، واتخذ موقعًا في بحيرة النطرون. طارده الجنرال مورا ومعه بعض سرايا الخيالة والجمال، ولحق به وقبض على كاشف وخمسة عشر مملوكًا، وقتل الكثيرين منهم وفرّق الباقين في الصحراء. فتراجع مراد بك واتجه نحو الأهرامات وصعد إلى الهرم الأكبر، ومن هناك تحدث بالإشارة طوال يوم 13 [يوليو] مع زوجته، سيديم (Sidem)، التي صعدت إلى سطح منزلها. ولم يكن يرافق هذا الأمير، رئيس هذه الميليشيات الرائعة والشجاعة، إلا بضع مئات من الرجال خارت عزيمتهم وتجردوا من كل شيء، ولم يعد سيد هذا الوادي الخصيب يملك شيئًا يذكر. وبعد بضعة أيام ذهبت زوجته التي كانت قلقة بسبب تأثير الإشاعات التي انتشرت ضدها في المدينة بشأن استخبارات إجرامية، لمقابلة القائد العام والدفاع عن نفسها، وتم مقابلتها بكل ترحاب وأدركت أن مثل هذه الإشاعات لا تجد قبولاً بتاتًا عند شعب متحضر. وقال لها القائد:

"إذا أردت رؤية زوجك يمكن أن أوقف القتال مدة 24 ساعة لإرضائه وإرضائك".

مع ذلك فماذا كان يريده البيك إذن؟ لماذا كل هذا السير في الصحاري القاحلة، وفي هذا الموسم الحار؟ لماذا الاقتراب من القاهرة شرقًا وغربًا، متحديًا كل هذه الكمائن وكل هذه المخاطر؟ هذا يدل على بعض المخططات. تخيل نابليون في هذه المناسبة ترك القاهرة، وإقامة المعسكر يوم 14 يوليو أسفل الأهرامات مع لجنة العلوم والفنون، وقضى هؤلاء العلماء عدة أيام لتأمل وقياس ودراسة هذه الآثار التي كانت تثير اهتمام الأمم منذ أربعين قرنًا. لقد اختفى مراد بك في الصحراء ولجأ إلى الواحة الصغيرة دون التوصل إليه.

رابعًا: في الساعة الثانية بعد ظهر يوم 15 يوليو، تلقى نابليون في معسكر الأهرام الخبر بأن ثلاث عشرة سفينة مجهزة بمدفع عيار 80، 74، وتسع فرقاطات، وثلاثين زورق مدفعية، وتسعين سفينة نقل محملة بقوات تركية، قد رست مساء يوم 12 [يوليو] في مرسى أبو قير الطبيعي، وأن قلعة أبو قير لا بد وأنها كانت محاصرة. وقد تم تقدير أنه يمكنها الدفاع عن نفسها طوال خمسة عشر يومًا، ولا يجب إضاعة الوقت للزحف لنجدتها، لأن موقف العثمانيين في الخليج سيظل حرجًا ما لم يسيطروا على القلعة. واتجهت القيادة العامة إلى الجيزة، وفي الساعة العاشرة مساءً أصدر برتيبيه كل الأوامر ليتحرك الجيش من أسوان حتى دمياط، ومن العريش حتى الإسكندرية. وسافر مندوبون لإعداد المئونة على الطريق. وزحفت القيادة العامة قبل طلوع النهار دون العودة إلى القاهرة.

وكان واضحًا أن بقية جيش رودس التي كانت تنفذ الخطة التي تم التخلي عنها بسبب أحداث سوريا، لأنه أخيرا هل كان من الحكمة محاربة جيش الشرق بواسطة 20000 أو 30000 تركي؟ وتم عندئذ إدراك أن الهدف من تحركات البكوات هو اللحاق بهذا الجيش القادم من البحر، والذي ينقصه سلاح الخيالة. ومع ذلك، إن كان هناك رجاحة عقل في هذه التشكيلة الحربية، كان لا بد من افتراض انضمام فرقة إنجليزية إليها. وأصدر القائد العام أوامره متأكدًا كما لو كان الأمر كذلك. وتلقى ديزيه الأمر بالجلاء عن كل مصر العليا، والاتجاه نحو القاهرة، ورينيه الذي كان في بلبيس، أن يترك 300 (ثلاثمئة) رجل للمراقبة في الصالحية، وأن يتجه بسرعة إلى الرحمانية. أما كليبر الذي كان في دمياط، فقد تلقى نفس الأمر، وكان رجال فصيلة حاميته في الراحة وبعض المحاربين القدماء سوف يكونوا قادرين على حماية لسبيه (Lesbé) [عزبة البرج]. وفي الساعة الواحدة صباحًا زحفت إلى الرحمانية فرقة "لان" وفرقة "بون" السابقة، وسلاح الفروسية الذي كان موجودًا بالقاهرة. وبقي الجنرال دوجا لقيادة القاهرة مع بعض فرق من اليونانيين. وكان المحاربون القدامى وفصائل الحامية في الراحة يشكلون حاميتي القلعة والجيزة. وبذلك يكون كل الجيش قد تجمع في معسكر واحد بالقرب من الرحمانية. وبذلك يصبح هذا التجمع قوة من عشرين ألف رجل من المشاة، وثلاثة آلاف فرس، وستين قطعة مدفع مجرور. كانت هذه الفرق أفضل فرق في العالم، فقد كان يمكنهم تحقيق كل ما يستطيع الرجال القيام به. وفي 19 يوليو وصلت القيادة العامة إلى الرحمانية، وقطعت ستة وثلاثين فرسخًا في ثلاثة أيام.

ومن الرحمانية كتب القائد العام إلى شيوخ الجامع الأزهر يخبرهم أن أسطولاً عثمانيًا انجليزيًا رسا في أبو قير وأنزل جيشًا من الأرناؤوط والروس، وأنه سيهاجمه ويطوقه ويأسره تمامًا، وخلال أيام قليلة سيشاهدون دخول الأعلام والمدافع والأسرى إلى القاهرة من باب النصر، ويوصيهم بالحفاظ على الهدوء العام.

وقام شيوخ الجامع الأزهر بنشر إعلانات لإرشاد الأهالي وتحذيرهم من دسائس المغرضين. لم يقم الفرنسيون بالجلاء عن مصر، ولكن تركزوا للهجوم والقبض على جيش من الروس والأرناؤوط والإنجليز تم

إنزاله في أبو قير، وأمروا بإقامة الصلاة لأجل منْ هو في حماية الرسول [القائد العام] والذي يحارب لحماية البلاد من فظائع الحرب، وظل المصريون هادئين.

خامسًا: عندما وصلنا الرحمانية، علمنا أن مصطفى كان قد نزل إلى البر في 14 يوليو واستولى على قلعة أبو قير يوم 16، وكان هذا الحدث غير المنتظر نذير سوء.

تقع شبه جزيرة أبو قير بين البحر وبحيرة المعدية، من جانب البحر، والمسافة من معسكر الرومان إلى أبو قير 8000 قامة، وجانب بحيرة المعدية، من قلعة أبو قير حتى جسر قناة النيل، 9000 قامة، ويحيطها من الداخل مرفأ أبو قير وبحيرة المعدية. والخليج من معسكر الرومان حتى جسر بحيرة المعدية 1150 قامة. وتأخذ شبه الجزيرة شكل المثلث، ورأس الزاوية التي تقع عليها قلعة أبو قير حادة، وهي رملية ومغطاة بالنخيل، ويوجد في الوسط بئر مياه عذبة ووفيرة. وعند الحفر على شاطئ البحر غالبًا ما نجد مياه صالحة للشرب. وبين اسكندريتا وأبو قير عند نصف المسافة تقريبًا، يوجد شرم يمكن أن تقترب منه الزوارق. ويقع الساحل في مأمن من الرياح الشمالية الغربية التي تسود باستمرار تقريبًا في هذا الفصل. وتضم شبه الجزيرة عددًا من التلال المرتفعة. وتطرق قلعة أبو قير داخل المرفأ والمرسى، ويحيط بها صخور تجعل اقتراب السفن منها صعبًا جدًا. ومن جانب البر، يوجد على بعد 500 قامة، وعلى طول الساحل، جزيرة تستطيع مدافعها حماية رسو السفن الحربية. ومن جانب البر على بعد حوالي 500 قامة من القلعة، في اتجاه الإسكندرية، توجد قرية جميلة. وأسفل تل الوزير، وعلى بعد 100 قامة أمام هذا التل توجد بعض المنازل الضخمة التي يطلق عليها اسم "ضواحي أبو قير". وعلى بعد 700 قامة من تل الوزير، في الجنوب، يوجد منحدر صخري يسمى تل البئر، يقع على مسافة متساوية تقريبًا من القلعة ومصب بحيرة المعدية، ويسيطر على كل الشاطئ من جانب داخل المرفأ. وعلى بعد 800 قامة من تل الوزير في الجنوب الغربي، منحدر صخري ثان أطلق عليه اسم "جبل الشيخ"، يطل على جانب أعالي البحر. وتشكل التلال الثلاثة مثلثًا في وسطه سهل مكشوف مزروع بالنخيل.

وفي شهر فبراير، وقبل السفر إلى سوريا، أصدر الجنرال دي فالجا أمرًا إلى العقيد كريتان (Crétin)، مدير الهندسة في الإسكندرية، بإزالة القرية وضاحية أبو قير للكشف عن طرق القلعة، واستخدام المواد المستخرجة من الهدم في بناء حصن هلالي جميل من المباني، مع الخندق أمام القلعة، كي تتيح له إمكانية المقاومة خمسة عشر يومًا، ولكن العميد مارمون (Marmont)، حاكم الأقاليم، انتهز لحظة كانت القيادة العامة بعيدة، وأوقف تنفيذ هذا الأمر بحجة أن منازل القرية مفيدة لإقامة الفرق. واعتقد أن يحل محلها عندما أمر العقيد ببناء متراس من الطوب على ربوة الوزير بين القرية والضاحية، تسيطر على الاثنين.



52 – الإسكندرية - معركة أبوقير 25 يوليو 1799.
خريطة (37)

وقد نفذ مصطفي باشا الإنزال دون صعوبة في يوم 14 يوليو وكان قد عسكر على جبال البئر والشيخ وهاجم متراس الوزير. أقفل قائد القلعة على نفسه في متراس الوزير، حبس قائد القلعة نفسه في المعقل مع ثلاثمئة رجل، وترك نقيب سلاح الهندسة فيناش (Vinache) في القلعة ومعه ستون رجلاً. كان المتراس مسلحًا بواسطة خمس مدافع، وصمد طوال النهار. ولكن في الساعة الخامسة مساء دخل القناصة الأتراك في القرية وهددوا بفصل المتراس عن القلعة. تم محاصرة المتراس والاستيلاء عليه، وضرب الحامية بحد السيف. وفي يوم 17 ظهرًا، انخفض عدد رجال الذين كانوا في القلعة واستسلمت. منذ ذلك الوقت، لم يصدر أي تحرك من مصطفى، واتخذ لنفسه موقعًا واحتل ربوتي البئر والشيخ. وكان ينتظر وصول فروسيته وجياده المقرونة وفرقته من الشراكسة من الدردنيل. وكان قد جمع عدد مائتين فرسان الضباط استعان بهم لحمايته والقيام ببعض الدوريات.

ذهبت طليعة الجيش الفرنسي إلى بركة غطاس الذي تم تجهيز المعسكر فيها لتجمع كل الجيش. ومن هناك كانت في متناول الوقوع على الجانب الأيسر للجيش التركي إذا زحف إلى الإسكندرية، وعلى جانبه الأيمن إذا اتجه إلى النيل.

كانت أشغال الإسكندرية في حالة مرضية كما كان يؤمل منها، وقد لقي النشاط وحسن توجيهات العقيد كريتيان استحسان وتقدير القائد العام.

وبعد أيام قليلة تجمع ثمانية آلاف رجل في بركة غطاس، وتم إزالة هذا المعسكر وتم نقله إلى البئر في وسط شبه الجزيرة.

لم يكن مصطفي بك على اتصالات داخل مصر، فقد احتل سلاح فروسية حامية الإسكندرية كل منافذ الخليج وأغلقتها: ويمكن في هذه الحالة مفاجأته في معسكره. ولكن عقيدًا من سلاح الهندسة ومعه مجموعة من جنود الإطفاء وموكب من المعدات، كان قد غادر متأخرًا الإسكندرية، ضل الطريق ولم يجد المعسكر الفرنسي الذي كان مختفيًا خلف المنحدرات الصخرية، وألقى بنفسه وسط نيران الجيش التركي، وتم القبض على عشرة جنود إطفاء. وعلم الأتراك بدهشة بأن الجيش الفرنسي كان على بعد فرسخ منهم، وأمضوا طوال الليل يتسلحون ودبروا استعداداتهم لرد الهجوم الذي بدا لهم مؤكدا.

سادسا: في يوم 25 يوليو، قبل طلوع النهار، بدأ الجيش الزحف، وشكل الجنرال مورا طليعة مكونة من سلاح الفروسية، ومن كتيبة العقيد دستان، وأربعة مدافع، والمجموع ألفان وثلاثمئة رجل. وقاد الجنرال لان الميمنة من ألفين وسبعمئة رجل وخمسة مدافع، وقاد لان (Lannes) الاحتياطي وقوته ألفان وأربعمئة رجل وست مدافع، وكان الجنرال دافو قد وصل من القاهرة في الوقت الذي بدأ فيه الجيش يستعد للقتال، فقام بمهمة المراقبة مع ثلاثمئة حصان لمراقبة اتصالات الجيش مع الإسكندرية، ومنع دخول البدو إلى شبه الجزيرة. وأدخل بطرونة بك إلى ترعة المعدية اثني عشر زورق مدفعية كان تزعج جناح الجيش الأيمن. ودفع جنرال المدفعية، سونجي، إلى الأمام مدفعين عيار 24، وثلاثة مدافع عيار 12، وثلاثة من القذافين. وقد ابتعدت الزوارق المسلحة بعد أن أصابتها أضرار كبيرة إلى حد ما. ووصل الجنرال مينو في التاسعة صباحًا إلى الضفة من جانب رشيد مع قطعتي مدفع وكتيبة من سلاح المشاة. خافت سفن الأعداء أن تحاصر في هذه الترعة فغادرتها، ولم يعد الجيش قلقًا في مسيرته، واستراح في وجود جيش العدو الذي كان قد اصطف بالطريقة التالية؛ حيث انقسم الصف الأول من ثمانية آلاف رجل إلى ثلاث فيالق؛ الأول على اليمين وقد احتل تل الشيخ، والفيلق الثاني على اليسار واحتل تل البئر، والثالث يلامس بيوت الضاحية. وكانت قوة الصف الثاني ستة آلاف أو سبعة آلاف رجل افترشوا تل الوزير، وارتكز يمينه ويساره على البحر، ولم يكن طول واجهته إلا 450 قامة. وكان الاحتياطي من أربعة آلاف إلى خمسة آلاف رجل احتلوا قرية أبو قير والقلعة، وهناك كانت الأمتعة والمعدات ومعسكر الوزير. وكانت عدة زوارق مدفعية قد رست في عرض البحر، مستندة على يمين خط العدو، والأخرى كانت داخل المرفأ تستند إلى اليسار، ووزعت ثلاثون قطعة ميدان بين الصفين الأول والثاني. ودفع الجنرال سونجي البطاريات الضخمة إلى

الأمام، وبدأ الهجوم بالقصف بالمدافع بواسطة الزوارق من اليمين ومن اليسار واضطرها إلى التراجع. وغرق واحد من الزوارق التي كانت راسية في المرفأ، وتعرض معظمها لأضرار ضخمة. عندئذ انتشرت الفرق؛ حيث سلاح الفروسية إلى ثلاثة صفوف في الوسط، وكتيبة ديستان إلى اليسار، وفرقة لان على اليمين، ولانوس (Lanusse)• في الصف الثاني، مع المرشدين. وكان يظهر على تلي الشيخ والبئر أتربة قد نقلت حديثًا. وكان يبدو أن الشراكسة قد أظهروا الحزم. وكان الباشا بضفائره الثلاثة (queues) فوق تل الوزير، وكان بعض الضباط من الانجليز يدورون بالقرب من الصفوف الفرنسية، وبفضولهم المعتاد تقدموا بسرعة وبدأوا الحديث مع بعض ضباط سلاح الفروسية الفرنسي، مع استنكار واستغراب الأتراك الشديد. وعلى بعد فرسخ ونصف من البحر، ظهرت غابة من الأشرعة، كان الأسطول الحربي، وكانت المواصلات، وعدة مراكب قد امتلأت بضباط البحرية الأتراك والإنجليز، وظهر من بينهم مركب السير سيدني سميث الذي كان في البر يقوم بمهام مساعد الباشا، وكان يقدم له النصح، رغم أنه لم يكن له دراية بالتكتيك ولا أية خبرة بالحرب البرية. وكان الوزير مصطفى، سر عسكر الجيش، باشا بثلاث ضفائر، حامل لقب باشا روملي (Roumelie)، وتعتبر هذه الوظيفة الأخيرة أحد أهم وظائف الامبراطورية.

سابعًا: ظلت الجيوش في مواقعها طوال ساعتين في هذا الهدوء الذي يسبق الصاعقة. وبدأت البطارية الضخمة إطلاق النار على زوارق المدفعية التي غرق عدد كبير منها، وقطع بعضها الآخر الحبل وابتعدوا. وبدأ إطلاق النار أخيرًا من المدافع بين البطاريات التركية المنصوبة على الربوتين، وبطاريات قتال فرق لان ودستان. ودفع الجنرال مورا إلى الأمام طابورين من سلاح الفرسان من أربعة سرايا، على كل منها ثلاث قطع مدفعية خفيفة. واتجه طابور اليمين بين تل البئر وتل الوزير. وقد أخذ سلاح المشاة التركي حذره، حيث كان هجوم القناصين شديد العنف، ولكن عندما بدأت قذائف وكرات المدفع - من المدفعية الخفيفة الملحقة بطوابير الفروسية - تضرب من الخلف الأعداء، الذين كانوا يخشون الانسحاب وفقدوا رباطة جأشهم. وانتهز الجنرالان لان وديستان الفرصة، وتسلقا الارتفاعين بالهجوم، وسقط الأتراك وهم ينزلون بسرعة إلى السهل، حيث كان سلاح الفروسية في انتظارهم، ولم يستطيعوا تنفيذ الانسحاب ولجأوا إلى البحر، بعضهم داخل المرفأ، والآخر إلى عرض البحر، تطاردهم الشظايا وطلقات البنادق، وتهاجمهم الفروسية. وتحدى هؤلاء الهاربون الأمواج وحاولوا الوصول إلى سفنهم سباحة، ولكن غرق تسعة أعشارهم. وتقدم منتصف الصف التركي الأول للأمام لإنقاذ الأجنحة؛ فكانت هذه المبادرة بلا حذر، إذ أمر مورا (Murat) بسرية من الفرسان على اليمين وعلى اليسار وأحاط به. وسارت مشاة لانوس التي كشفتها حركة الفروسية الفرنسية، بخطي الهجوم في طابور بواسطة كتيبة عن بعد الانتشار. وبدأت الفوضى في هذا الوسط الذي ضيق عليه بين الفروسية والمشاة. ولم يبق أمام الأتراك العاجزين عن الانسحاب

وسيلةَ إلّاَ أن يَلقوا بأنفسهم في البحر هاربين يمينًا ويسارًا. وكان مصيرهم مثل من قبلهم؛ وهو الموت غرقًا. وبعد قليل لم يلاحظ على الأمواج سوى عدة آلاف من العمم والشالات التي ألقى بها البحر على الشاطئ، وكان هذا هو كل ما بقي من هؤلاء الشراكسة الشجعان، لأنهم يستحقون بجدارة صفة الشجعان! ولكن ماذا تستطيع المشاة دون تنظيم، ودون انضباط ودون استراتيجية؟ لقد بدأت المعركة منذ ساعة واختفى ثمانية آلاف رجل، وغرق خمسة آلاف وأربعمئة، وَمَاتَ أوْ جرح ألف وأربعمئة في ميدان القتال، واستسلم للأسر ألف ومائتا رجل. أما المنتصر فقد استولى على ثمانيةَ عشر قطعة مدفع، وثلاثين عربة ذخيرة، وخمسين راية.

عندئذ تم اكتشاف خط جيش العدو الثاني، وكان يحتل موقعًا هامًا؛ وقد استند يمينه ويساره إلى البحر، تدعمهما زوارق مدفعية الجوانب، ويحميهما سبعة عشر مدفع ميدان. وكان الوسط يحتل متراس جبل الوزير، وبدا من المستحيل الهجوم عليه رغم النجاح الذي حققه، ففكر القائد العام أن يأخذ موقعًا على الجبلين اللذين تم احتلالهما، لكنه لاحظ أن سفح منحدر البئر يتقدم الشاطئ على شكل أرض داخلة في البحر، وأن وضع بطارية عند مدخل هذا المكان يمكن أن تهاجم العدو من الخلف، وتضطره في الواقع لأن يتقلص بين المعقل والقرية بتغير الواجهة من اليسار إلى الخلف. ويترك هذا التحرك فراغًا بطول 200 قامة على يسار الخط بحيث يمكن اختراقه، وهو ما حدث بالفعل تحت قيادة العقيد كريتان الذي كان يطمع في شرف أن يكون أول من يدخل المعقل، ودخل مورا من هذه الثغرة مع ستمئة فرس. وفي نفس الوقت، قاوم لانوس وديستان قصف المدافع صوب وسط وميمنة الجيش، واندفعت الفرقة 18 بدون حذر، وتقهقرت في لحظة الاستيلاء على المعقل وتركت خمسين جريحًا على الزلاقة (glacis) عند مدخل الحصن. وخرج الأتراك كالمعتاد جماعة لقطع رؤوس البؤساء لينالوا جائزة الإبريق الفضي. استاءت الفرقة 69 من هذا المشهد القاسي واندفعت بالهجوم على المعقل ودخلت فيه. وبمرور الفروسية بين القرية وجبل الوزير، هاجمت جانب كل الخط الثاني والجأته إلى البحر. واتجه لان مباشرة إلى القرية واستقر فيها، ومن هناك اندفع إلى معسكر الباشا حيث كان الاحتياطي، ولم يعد طرف شبه الجزيرة إلا ساحة مذبحة واختلال نظام وفوضى. والباشا وفي يده الخنجر جمع حوله أكثر الشجعان، وقام بمعجزات هامة، وجرحه الجنرال مورا جرحًا خطيرًا في يده، وكان قد أصابه الباشا برصاصة من مسدسه، واضطر الباشا أخيرًا للاستسلام وتم أسره مع ألف من رجاله. وهرب الآخرون من الهول أمام الموت، ليجدوا النجاة في الأمواج، مفضلين الهاوية على رحمة المنتصر. وكاد أن يتم القبض على السير سيدني سميث الذي وجد صعوبة ليصل إلى مركبه. وبقي في الميدان الباشا بضفائره الثلاثة (toug)، ومئة علم، واثنان وثلاثون قطعة مدفعية ميدان، ومئة وعشرون صندوقًا، وكل الخيام والأمتعة، وأربعمئة فرس. وكان قد لجأ ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف هارب إلى القلعة؛ وأقاموا في القرية التي في المقدمة، وجعلوا في أسوارها شرفات، وقد كان بغير جدوى كل ما تم عمله لإخراجهم.

كان الانتصار كاملاً، وكان القائد العام في معقل جبل الشيخ عندما دوى انفجار غير متوقع من عدة قطع مدفعية، وتم سماع صيحة إنذار: "المعقل مفخخ!"، ولم يدم هذا الهلع سوى دقيقة.

وقُتل كريتان، عقيد سلاح الهندسة، بطلقة بندقية، وكان أفضل ضباط الجيش، كما قُتل العقيد ديفيفيه (Duvivier) من الفرقة 14 جنود الخيالة (دراجون) بضربة خنجر من أحد ضباط الباشا. وكان مجتلبًا للمجد، وكان جريئًا في نفس الوقت وشجاعًا ومتبصرًا، وكان واحدًا من أفضل ضباط الفروسية الفرنسية. وقد حظي الجنرال مورا الذي أصيب بجرح خطير بالنصيب الرئيسي من مجد هذا اليوم. وقال له القائد العام في ميدان القتال: "هل أقسم سلاح الفروسية على إنجاز كل شيء اليوم؟". واخترقت طلقة بندقية صدر المرافق العسكري جيبير (Guibert). وعندما كان [نابليون] يثني على شجاعته، أجابه هذا الشاب البطل: "لا أفتقر إلى الشجاعة، ولكن أتألم كثيرًا". كما فقد العقيد فوجيير (Fugière) من الفرقة 18 خط، ذراعيه إذ اجتاحتهما قذيفة مدفع. وقال للقائد العام: "سوف تفقد أحد جنودك الأكثر تفانيًا، وسوف تندم يومًا إن لم تجد الموت مثلي في ميدان الشجعان".

وتم اصطحاب الوزير مصطفى إلى المعسكر بالقرب من رصيف الركوب، ولقي كل مظاهر الكرم. وفي اليوم التالي صباحًا قام القائد العام بزيارته، وبعد هذه الزيارة أرسل الباشا مركب "ترتان" إلى القسطنطينية، ونصح ابنه وقاضيه اللذين كانا محبوسين في القلعة بالاستسلام والحصول على إذن الانسحاب مع الحامية إلى العمارة. وصلت الدعوة إلى القلعة، ولكن رفضها العثمانيون بالإجماع، وصمموا على الدفاع عن الموقع لأقصى درجة، وكان لا بد من فتح الخندق. وتم تكليف الجنرال لان بإدارة الحصار، وبرتران، قائد كتيبة الهندسة، بإدارة الأشغال، والعقيد فولتريه (Faultrier) بقيادة المدفعية، وتوجه القائد العام إلى الإسكندرية.

كانت خسائر الفرنسيين في هذه المعركة مائتي قتيل وخمسمئة وخمسين جريحًا، وفقد الأتراك فيها كل جيشهم تقريبًا؛ ألفي قتيل، وثلاثة آلاف أسير، وعشرة آلاف أو أحد عشر ألف غريق، ويكاد يكون قد نجا ألف ومائتا رجل (وهذا العدد يتضمن حامية القلعة). وتم تسليم قطعتي مدفع انجليزي كان ملك انجلترا قد أهداهما إلى السلطان سليم، تم تسليمهما إلى فرقة سلاح الفروسية، وحُفر عليها كلام القائد العام، وأسماء مورا وكريتان ودي فيفيه وفيالق الفروسية.

ثامنًا: استاء مصطفى باشا من عناد ابنه وكتب له من جديد ليدرك أنه كان على خطأ، وأنّ عليه تجنب إسالة الدم الغالي، وعليه أن يستفيد من موقعه لإنقاذ الشجعان تحت أوامره. وتوقف القتال عدة ساعات لحين تسليم هذه الرسالة، وانتهزها رئيس الكتيبة برتران للتعرف على القلعة، ولكنه بدأ إطلاق النار بعد قليل، واستولى المحاصرون على بعض المنازل التي كانت ضرورية لهم، فاستاء الجنرال لان، وأراد طردهم منها، لكن المهندس برتران أقنعه بالعدول عنها [قائلاً]:

"لماذا نضحي برجال في مواجهة رجال بانسين؟ لو افترضنا النجاح سوف نخسر في الأيام المقبلة من أجل البقاء في هذه القرية. لا بد من ترك المحاصرين ساكنين في أثناء يومين أو ثلاثة، وهو الوقت اللازم لشق الخندق، وسيصبح العدو عندئذ محاصرًا وراء أسوار هذه القلعة، ودون أن يفقد المُحاصرون رجلا".

وفي يوم 28 يوليو كان العدو فخورًا بانتصاره المحدود، وخرج واستولى أيضًا على بعض منازل القرية، وصار عندئذ شجاعًا وخرج وهو يهدد معقل جبل الشيخ. ولم يستطع لان (Lannes) التماسك فزحف نحوه وطرده، لكنه جرح بطلقة بندقية، ما اضطره إلى ترك الحصار. وحل محله الجنرال مينو في القيادة، وكان قد تم فتح الخندق منذ عدة أيام، وشيدت البطاريات، وكان سيتم كشفها حين خرج المحاصرون مرة أخرى واستولوا على ساحة القتال، وكان الجنرال دافو في الخندق وتصدَّر الاحتياط، واستولى من جديد على القرية، وألقى بالمحاصرين داخل القلعة. وبدأ إطلاق ثلاث بطاريات مدفع ضخم، واثنين من مدافع الهاون، وفي ليلة 30 يوليو اندفع زارع الألغام لإزالة المزلاق. ولكن عند بزوغ نهار يوم 2 أغسطس، ودون التسليم، خرج المحاصرون أفواجًا يطلبون الإيواء، فقد كان هؤلاء التعساء بحاجة إلى الماء، وكانت القلعة مزدحمة فيها ألف ومائتا جثة، وأكثر من ألف وثمانمئة رجل يحتضرون، وقد كان هذا العدد الكبير من جرحى الأتراك محيرًا، فأعادوهم لأسطولهم، وهو ما أدى إلى مداولات بين قيادات أركان الحرب.

وقد أعلن مصطفى باشا من قبل أن الحرب قد اندلعت منذ ستة أشهر في أوروبا، وانهزمت الجيوش الفرنسية في كل المواقع، وسلم العميد البحري الانجليزي حزمة من المجلات الانجليزية ومن فرانكفورت، تحتوي على أخبار أشهر أبريل ومايو ويونيو.

واستاء الباب العالي بحق، وعبَّر عن ذلك للعميد البحري السير سيدني سميث، واتهمه بهذه العملية المشؤومة، ولامه الجزار أيضًا لأنه ورطه في عدة عمليات غير حكيمة، واتهم شراكسة قبرص والطواقم نائب الأميرال بطرونة بيك بالمجاملة والخضوع لنصائح الكفار وقتلوه. ما الذي كان يأمل السير سيدني سميث من النصح بهذه العملية المضللة؟ غزو مصر بواسطة ثمانية عشر ألف رجل مشاة غير منضبطين، ودون سلاح فرسان، ودون قاطرات المدفعية؟ فرض أمر التفاوض على الجيش الفرنسي لعودته إلى أوروبا؟ ولكن كان يجب ألا ينسى أن نابليون هو الرئيس. هذا الأسلوب يجب أن يرجع إلى جهل هذا الضابط المطلق بأمور الدنيا. وقد ارتكب أكبر خطأ بعد عدة أشهر عندما ساق إلى الهلاك على شاطئ دمياط فرقة شراكسة الدردنيل الرائعة. ولو أنَّ سيدني سميث لم يحسن التقدير ولا التدبر في هذه الحرب، إلا انه استعمل الخديعة والمهارة والنشاط في مفاوضات العريش وفي الأمور التي تبعتها، وتفنن في أن يبدو مهمًا، وأن يسيطر على كليبر.

وقد حصل الجنرال مورا على رتبة قائد فرقة، والعقيد فولتيريه على رتبة قائد فرقة، وبرتران على درجة عقيد.

وأبرزت الجرائد التي سعى العميد الإنجليزي إلى تسليمها، كل المصائب التي تعاني منها الجمهورية، فقد انتصر التحالف الثاني، وهزمت جيوش روسيا والنمسا الجنرال جوردان على نهر الدانوب، وشيرار (Schérer) على أديجي، وموروا على لداه (Adda). وانهزمت جمهورية الألب، وتم محاصرة مانتو (Mantoue)، ووصل القوقازيون إلى حدود جبال الألب، وقاوم مآسينا (Masséna) بصعوبة في صخور سويسرا العالية.

وهناك مساس ثالث نال من الدستور، ورفع اليعقوبيون من مانيج (Manége) رؤوسهم، وأسوة بهم لجأ الفانديون إلى السلاح. وكان النداء في مجلس النواب الوطني بأعلى الصوت على جنرال إيطاليا لنجدة الوطن، وهدد بربري مستاءً من دماء البؤساء البولنديين بكل وقاحة الشعب الفرنسي. ولم يعد هنالك وقت لضياعه؛ فقرر نابليون العودة إلى فرنسا وإنقاذ الوطن من هوجة الأجانب ومن ثورة أبنائه، ولم يغب عنه أن كارثة الجيوش الفرنسية كانت بسبب سوء خطط المعارك التي اتخذتها باريس. ولو كانت جيوش الدانوب وسويسرا والراين السفلى لم تشكل إلا كتلة واحدة، ولو كان جيش نابولي وجيش إيطاليا قد تجمعا في شهر مارس عند أديج (Adige)، لما كانت الجمهورية قد عرفت الهزيمة. وقد ترك الجنرال الروسي الذي انتصر على أديج في شهر أبريل، ترك وصول جيش نابولي في يونيو إلى بو (Pô). وقد أدرك نابليون بهذا المشهد أن كل شيء سيتغير، وأن الأيام الثلاثة (من 18 فريكتيدور و22 فلوريال و30 بريريال) قد قضت على دستور 1795، وهو ما لن يقدم من الآن أيَّ ضمان لأحد، وأدرك أنَّ من السهل له أن يترأس الجمهورية، وقرر أن يجعل لها وجهًا جديدًا عند وصوله، وأن يرضي الرأي العام الذي كان ينادي به لرئاسة الحكومة منذ عام 1798. ولقد بدد قانون 22 فلوريال عنده كل هيبة الجمهورية.

الفصل الثاني عشر

عودة نابليون إلى فرنسا

أولاً: اتخاذ نابليون قرار العودة إلى فرنسا. ثانيًا: قيام نائب الجنرال جانتوم بتسليح مجموعة سفن خفيفة لهذا الغرض. ثالثًا: تعيين كليبر قائدًا لجيش الشرق، التعليمات التي تركها له نابليون للإدارة الداخلية، التحصينات. الدفاع عن الحدود والشئون السياسية. رابعًا: مغادرة نابليون مصر ووصوله إلى فريجيس (Frégus) في 9 أكتوبر 1799.

أولاً: لم تكن تستطيع فرنسا إرسال أية مساعدة إلى جيش الشرق ما دام التحالف الثاني لا يزال قائمًا، وكان عليها أن تساند الحرب على حدودها. ومن جانبه لم يكن الباب العالي يريد السماع عن أية مصالحة. وسيكون إذن من المستحيل عمل مبادرة في آسيا، ولا بد من الاكتفاء بالحفاظ على مصر وتحسين الإدارة، وزيادة وسائل الدفاع عنها. ولم تكن مصر مهددة من أي جانب، وكان أهل البلاد خاضعين، وكان أكبر عدد موالٍ، ولم يعد للمماليك أهمية. وتم القضاء على الجيشين اللذين جمعهما الباب العالي في سوريا ورودس في بداية الحملة، ففقد الجيش الأول 6000 (ستة آلاف) رجل في عمليات العريش المختلفة، و8000 (ثمانية آلاف) رجل في يافا، و6000 (ستة آلاف) في عكاء، و30000 (ثلاثون ألفًا) تشتتوا في جبل طابور. وتم الاستيلاء في يافا على أربعين مدفع تشكل معدات الميدان، وكذلك مخازنها ومعداتها من القرب. أما الجيش الثاني فقد خسر 12000 (اثني عشر ألف) رجلا في عكاء، أي 4000 (أربعة آلاف) رجل يشكلون أول اثنين من المساعدات المنفصلة من هذا الجيش، و8000 (ثمانية آلاف) وصلوا يوم 7 مايو، ومات 18000 (ثمانية عشر ألفًا) في معركة أبو قير، وتم الاستيلاء فيها على اثنين وثلاثين مدفعًا تشكل معدات الميدان. وأيضًا تم أسر الوزير مصطفي، باشا روميلي، القائد العام. ولم يعد لدى الباب العالي أي فيلق مجتمع من القوات إلا 7000 أو 8000 من الشراكسة يشكلون خلفية طليعة جيش رودس الذين لم يجدوا الوقت ليصلوا إلى أبو قير وكانوا في الدردنيل. وكان الوزير الصدر الأعظم قد ترك القسطنطينية وعبر البوسفور وأقام معسكرًا في سكوتاري (Scutari) مع أربعة آلاف رجل يشكلون أهل بيته. وكان يلزمه كثير من الوقت لجمع جيش، ولم يكن من سلطة شراكسة الباب العالي الصراع ضد الجيش الفرنسي. وكان يمكن أن تصل قوة أوروبية عن طريق البحر وتنزل في أبو قير أو دمياط، ولكن منذ أن جدد التحالف الثاني الحرب، صارت مصر موضوعًا ثانويًا. فقد كان من الآن في ميلانو وفي أمستردام وفي بروكسل وربما في سهول فلاندرا (Flandre) أو شمبانيا (Champagne)، تريد انجلترا إعادة غزو مصر.

لقد فقد الجيش الفرنسي منذ أول يناير عام 1799، في سوريا سبعمئة رجل ماتوا في المستشفيات، وخاصة بسبب الطاعون، وخمسمئة قتلوا في ميدان القتال في سوريا، ومائتين في مستشفيات مصر، ولكنهم جرحى سوريا، وستمئة وخمسين قتيل في مصر العليا والسفلى في مختلف ميادين القتال أو ماتوا إثر جراحهم (وينبغي ضمهم لخسائر أبو قير)، وأربعمئة رجل ماتوا من المرض في المستشفيات. وهكذا يكون الجيش قد خسر ألفين وستمئة وخمسين رجلاً، وقد قلنا أنَّ عدد الجيش كان تسعة وعشرين ألفًا وسبعمئة رجل في أول يناير 1799، وأصبح إذن سبعة وعشرين ألفًا وخمسين في أول سبتمبر، وكان من بينهم أربعمئة من المحاربين القدامى، لكنهم كانوا أكفاء في خدمة الميادين. وكانت الفروسية تضم ثلاثة آلاف فرس على استعداد لخوض الحرب. وكان سلاح المدفعية يمتلك معدات في غاية الأهمية، كانت قادرة على أن تعوض خسائر عدة معارك. وكانت ترسانات الإسكندرية والجيزة تمارسان نشاطيهما، وحيث كانت المستشفيات والمحاجر الصحية مجهزة كمثيلاتها في فرنسا. وكان الجيش يستطيع أن يجمع في ميدان القتال أربعة وعشرين ألف رجل، علاوة على ألفين من المساعدين، وكان ثلاثة آلاف وخمسون إما من كبار المحاربين أو من المرضى، أو من غير المحاربين، أو رجال فصائل في وقت الراحة، ولم تضم هذه القوة طاقم تجهيزات أساطيل الإسكندرية الصغيرة أو النيل.

وكان القائد العام عندما غادر فرنسا قد حصل على سلطة لا حد لها، كما حصل على تفويض مطلق من الحكومة سواء بشأن أمور مالطة أو شئون مصر وسوريا، أو شئون القسطنطينية والهند. وكان له صلاحية التعيين في كل الوظائف، وكذلك اختيار من يخلفه، وأن يقرر عودته إلى فرنسا متى وكما يريد ذلك. وكان له بعد السلطات التي اتخذت كل الأشكال والأختام بالختم الكبير، أن يتعامل مع الباب العالي وروسيا ومختلف سلطات الهند والأوصياء على إفريقيا. وأصبح بشخصه غير مفيد الآن في الشرق، في حين كان ضروريًا في الغرب، وقد كان كل شيء ينبئ له عن أن موعده مع القدر قد حان أخيرًا.

ثانيًا: باح إلى العميد بحري جانتوم بقرار رحيله إلى أوروبا، وأمره بإعداد الفرقاطتين لامبيرون، والكرراه (*La Carrère*)، ومركبين صغيرين هما لاريفانش (*La Revanche*)، والفورتين (*La Fortune*)؛ وكانت الفرقاطتان من صنع فينيسيا، وسعتهما أكبر قليلاً من الفرقاطات 44 الفرنسية، ولما كانت تجر ماءً أقل، فقد كانت تقاوم الرياح أقل منها، وكانت تستطيع تحمل الحرب، ولكن إذا طاردتها قوات أكبر فلا تستطيع تجنبها. وتم تزويد هذه الفرقة بكمية من الماء تكفي ثلاثة أشهر، ومئونة لمدة خمسة أشهر لطاقم الملاحين وأربعمئة راكب.

وبينما كانت تتم هذه الاستعدادات في ترسانة الإسكندرية، وصلت القيادة العامة إلى القاهرة، وكان الوزير مصطفى قد دخل إليها قبل بضعة أيام، وقد أثارت رؤية انتصارات معركة أبو قير إعجاب شعب القاهرة. واهتم نابليون بالاستجابة لكل احتياجات الجيش بنشاط كبير، فطلب شراء كل الأقمشة من كركاسون (Carcassonne) أو

لاندريسي (Landrecies) مهما كان اللون لأنه كان من الصعب الحصول منها على اللون الأزرق، وقد حدد اللون الذي سيكون عليه الملبس العسكري الموحد الجديد لكل كتيبة. وحقق في إدارة البلاد تغيرات عديدة أثبت التجارب ضرورتها، ولكنه كان لا يزال غير مطلع على أمور هامة كي يستطيع إجراء تغيرات أكثر أهمية. فقد أعاقت زمنًا طويلاً صعوبة اللغة، وسوء نية الأقباط في إعطاء إيضاحات عن معرفة الشئون المالية. وتم الاحتفال العظيم بمولد النبي، وقابل التقدير الحار من جانب الوزير مصطفى، والعرفان من جانب الضباط الأسرى، سواء في أبو قير أو في سوريا. وفي اليوم التالي لهذا الاحتفال أرسل القائد العام إلى القسطنطينية وإلى مكة عددًا من الضباط الأسرى الأحسن سلوكًا، وقد أحدثت رواياتهم وقعًا حسنًا.

وكانت لجنة العلوم والفنون تنتظر استسلام الصعيد لتقوم برحلة إليها، وعاد دينون (Denon) الذي كان قد لحق بقيادة ديزيه العامة، وقد أثارت الرسومات التمهيدية ومذكرات حافظته منافسة العلماء والفنانين الآخرين. وأبحر أعضاء اللجنة على ثلاث مراكب مليئة بالمنقولات وتامة التسليح، بعد أن زاروا، ورسموا، ووصفوا آثار مصر العليا، وأمضوا عدة أشهر في هذه الرحلة الشيقة التي كانت أوروبا تنتظرها منذ عدة قرون.

وبتاريخ 13 أغسطس، أمر العميد البحري جانتوم أن تكون السفن الأربع مستعدة للإبحار يوم (20 أغسطس)، ومع ذلك لا يجب التفكير في إمكانية تنفيذ ذلك مع احتمالية النجاح قبل شهر نوفمبر، حيث أن الرياح تهب من الجنوب، والليالي طويلة ملائمة. ولكن في الساعة الخامسة من صباح يوم 19 أغسطس، وصل مراسل يحمل برقيات من الأميرال، يأمر بأنه لحسن الحظ على غير المنتظر، اختفت البحرية الإنجليزية ولم تترك سوى سفينة شراعية صغيرة ذات صاريين للمراقبة أمام الميناء، ونتيجة لذلك فقد قامت فرقته ظهر يوم 24 [أغسطس] بالرسو بعيدًا عن الممرات، وكان لا بد من أن يكون على شاطئ البحر يوم 24 قبل الظهر حتى يستطيع الإبحار وانتهاز الرياح من البر للابتعاد عن الشاطئ. ولم يترك هذا الخبر غير المتوقع وقتًا للقائد العام إلا لكتابة تعليماته الأخيرة، وتحديد الأشخاص الواجب عليهم مرافقته، ولم يكن هناك لحظة لإهدارها، للاستفادة من هذا القدر السعيد.

ثالثًا: كان الجنرال ديزيه الضابط الأكثر كفاءة لقيادة جيش الشرق، ولكنه سيكون أكثر فائدة في فرنسا. وشغل كليبر المرتبة الثانية، ورينيه الصف الثالث، وفكر نابليون لحظة اصطحاب الثلاثة إلى فرنسا تاركًا قيادة الجيش للجنرال لانوس، ولكن بالنظر للمخاطر المتعلقة بالعبور فقد استشعر أن من الملائم أن يترك لجيش الشرق جنرالاً مقتدرًا؛ فاختار الجنرال كليبر.

وفي نفس الوقت أملى ثلاث مذكرات عن الموقف الحالي ومشروعاته، واحتوت المذكرة الأولى المبادئ التي قادته في إدارة حكم مصر، والتي قال فيها:

مذكرة عن الإدارة الداخلية

"العربي عدو الأتراك والمماليك الذين مارسوا الحكم بالقوة وكان حكمهم عسكريًا تمامًا. واللغة التركية غريبة بالنسبة لأهل البلاد مثل اللغة الفرنسية، ويعتقد العرب أن جنسهم أسمى من العثمانيين. ويتمتع العلماء والشيوخ أئمة الأمة العربية بثقة وحب سكان مصر، وهو ما جعل الأتراك يغارون منهم ويتخذون القرار بإبعادهم عن إدارة الشئون العامة. ولم أر ضرورة تقليد هذه السياسة، فقد كان من المستحيل علنيًا ادعاء تأثير مباشر على شعوب ترى أننا نختلف عنهم، وكنا نحتاج اتخاذ وسطاء لحكمهم، ويجب علينا أن نوفر لهم رؤساء وإلا اختاروهم بأنفسهم، لذلك فضلت كبار العلماء والعلامة في القانون: (1) لأنهم كانوا رؤساء لهم بطبيعة الحال. (2) ولأنهم الذين يفسرون القرآن، وأن الصعوبة الكبرى التي واجهتها وسوف تواجهنا هي من الأفكار الدينية. (3) ولأن العلماء طباعهم هادئة، ويحترمون العدالة، ويتمسكون بالمبادئ وبقواعد أصول الأخلاق، وأنهم بلا جدال أكثر شرفاء البلاد. وهم لا يجيدون ركوب الخيل، وليس من عادتهم المناورات الحربية، وغير أكفاء لقيادة حركة مسلحة. وقد جعلتهم يهتمون بالإدارة معي، واستعنت بهم لأتحدث إلى الشعب، وشكلت منهم دواوين العدالة، وكانوا الوسيط الذي اتخذته لحكم البلاد. وعملت على زيادة ثروتهم، ومنحتهم في كل المناسبات أعظم مظاهر التقدير، وجعلتهم يتلقون أول مراسم التكريم العسكرية، وعندما أرضيت غرورهم، أشبعت رغبة رضاء كل الشعب، ولكن اتخاذ كل هذه العناية من أجلهم لن تكون له فائدة إذا نحن لم نظهر لهم أننا نكن أكبر قدر من الاحترام للدين الإسلامي، وإذا نحن لم نسمح للمسيحيين الأقباط واليونانيين والشعب اللاتيني بالتحرر الذي قد يغير من علاقاتهم المألوفة. لقد أردت أن يكونوا أكثر طاعة أيضًا وأكثر احترامًا عما سبق للأشياء والأشخاص المتمسكين بالإسلام.

وقد كان من سلطة الباب العالي تعيين كل وظائف القضاة، ووجدت صعوبات كثيرة في تغيير هذا العرف، وفي إجبار العلماء على استعادة هذا الامتياز الذي فقدوه، ومن المهم البقاء على ما حققته.

وتعتبر القاهرة المفتاح الثاني للكعبة الشريفة، ومكة هي قلب الدين المحمدي. ولقد كانت سياسة سلاطين القسطنطينية التقليل من اعتبار شريف مكة، وتضييق وإلغاء علاقات العلماء مع مكة. وقد اقتضت مصالحي بالطبيعة اتباع أسلوب معاكس، فحافظت على إعادة الحياة إلى بعض العادات القديمة، وتلقيت صداقة الشريف، وبذلت كل ما في وسعي في تكثير وزيادة العلاقات مع المدينة المقدسة.

يجب بذل أكبر اهتمام بحيث نقنع المسلمين بأننا نحب القرآن ونبجل ونحترم النبي أعظم احترام. وإنَّ كلمة أو خطوة غير محسوبة يمكن أن تهدم عمل عدة سنوات. ولم أسمح أبدًا بأن تتعامل الإدارة مباشرة مع الأشخاص أو السلطة المدنية للمساجد، واستندت دائمًا على العلماء وتركت لهم التصرف. وفي كل المنازعات القضائية، كان يجب على السلطة الفرنسية أن تؤيد المساجد والمؤسسات الدينية، فمن الأفضل فقدان بعض الحقوق وعدم إتاحة فرصة الادعاء على مكنون أحكام الإدارة في هذه الموضوعات ذات الحساسية الشديدة. وقد كانت هذه الوسيلة هي الأقوى، وساهمت كثيرًا في جعل حكومتي ذات شعبية. وقد كان جمع الضرائب عند وصولي، والتي اضطررت إلى تحصيلها من المدينة، قد أثار ضجيجًا قليلًا، وتم سدادها بسهولة أكبر لأنني استعنت بالشيوخ لتوزيعها وتحصيلها، وقد شهد السكان بكل رضى بأنه لم يكن هنك إهانة ولا أفعال تعسفية تلحق العار بإدارة الأتراك والمماليك.

ويسيطر الأقباط على الإدارة المالية وجمع الضرائب، ويجب أن يحتفظوا بهذه المهمة، والحرص على ألا يتدخل الأتراك في هذا الجزء المهم من الإدارة، والذي يجب مع الوقت أن يصبح في أيدي الأوروبيين. ولم يعد هناك سلطة للمماليك، وهم مفيدون لتشكيل فيلق ميلشيات مرؤوسة، فهم في الأصل أعداء العرب والشيوخ، ويستطيعون أداء خدمات في كثير من الظروف. سوف نكسب مراد بك وإبراهيم بك عند منحهما لقب الأمير، ونعطي البيكوات الأخرين لقب جنرال، ونعيد أملاكهم إليهم. ويجب الحرص على ألا يجمع البيكوات أكثر من تسعمئة أو ألف فارس، وسوف نستعين بهم لاحتواء عرب الصحراء ومشاركة فيالق الجمال التي نرقيها لهذا الهدف. وسوف نستحوذ على كل آبار الصحراوات الست لكي نستطيع ممارسة سلطة قضائية مباشرة على كل هذه القبائل المترحلة.

ولا يجب أن يغيب عن البصر ضرورة العمل على أن تصبح الإسكندرية عاصمة البلاد، ويجب علينا رعاية فرع النيل من جهة رشيد أكثر من فرع النيل جانب دمياط، ودفع أكبر كمية من المياه في البحيرة حتى لو كان على حساب الشرقية، وإعادة إقامة قناة الرحمانية إلى الإسكندرية، وأخيرًا تفضيل ميناء الإسكندرية وجعله منفذ التجارة الوحيد مع أوروبا، وإعادة إقامة كل المواصلات السابقة بين مصر السفلى والفيوم والبحيرة. ويجب من الأفضل أن يتم في الإسكندرية تشييد التحصينات الدائمة والمخازن والمستشفيات والترسانات وطواحين الهواء والصناعات، حيث يجب بكل الوسائل المشجعة جذب عدد كبير من اليونانيين واليهود والمسيحيين من سوريا.

كما يجب تفضيل السويس على القصير، وجعل السويس المستودع الوحيد لاستيراد البن والتوابل من أجل صادرات بضائع أوروبا ومصر السفلى، كما يجب أن تقتصر تجارة القصير على تصدير بعض محاصيل مصر العليا.

ويجب أن تعتاد البلاد تدريجيًا على فرض التجنيد في القوات البرية والبحرية، وبخاصة يجب الحصول كل عام على بضعة آلاف من سود سنار ودارفور، وضمهم إلى الكتائب الفرنسية بواقع عشرين لكل فرقة، لأنهم اعتادوا على الصحاري وحرارة خط الاستواء، وبعد ثلاثة أو أربعة سنوات من التعود والتدريب سوف يصبحون من الجنود الشجعان والعساكر المخلصين.

ويجب التوافق مع عادات الشرقيين والتخلي عن القبعة والبنطلونات الضيقة، وإسباغ ملابس جنودنا بعض الشيء بزي المغاربة والأرناؤوط ويظهرون أمام الأهالي بهذه الملابس جيشا وطنيًا، وهكذا يكون ما ينسجم مع ظروف البلاد".

مذكرة عن التحصينات

"لا يمكن الهجوم على مصر من الجهة الشرقية، وإن كان قد غزاها الأثيوبيون منذ عدة آلاف من السنين، فحينئذ كان يسكن أعالي النيل أمم عديدة وقوية لم يتبق لدينا [منها] إلا أطلال رائعة نراها في جزيرة ماري(Meroë)، وفي سهول سنار. ولا يمكن الهجوم عليها من الحدود الغربية، وفي الواقع وصل الخلفاء الفاطميون في القرن العاشر من هذه الجهة، فقد كانت عندئذ ليبيا وبلاد مريوط (Mariotes) تضم مدنًا شاسعة وشعوبًا كثيرة لم يعد لها وجود. وعلاوة على ذلك لم يكن الفاطميون يحتاجون إلى استخدام القوة للاستقرار في مصر، فلم يحتاجوا غير الاعتماد على تأثير الأفكار الدينية. وكانت درنة أول مدينة نجدها الآن على هذه الحدود، ويسكنها سبعة آلاف عربي، ويفصلها عن الإسكندرية أكثر من مئة وخمسين فرسخًا من الصحراء. ويحمي البحر الأحمر مصر شرقًا، وهذا العائق غاية في الأهمية، حيث أن وادي النيل

يفصله عن البحر الأحمر جبال منحدرة وصحراوات قاحلة. ولا يمكن إذن الاختراق من جهة الشرق إلا بعد عبور برزخ السويس عن طريق غزة والعريش وقطية والصالحية، وهذا الطريق يعبر صحراء [تمتد] سبعين فرسخًا غير سهل تقريبًا بالنسبة لجيش خلال ستة أشهر من السنة، ويتطلب في كل الفصول كميات كبيرة من الجمال وقرب الماء. فإنْ مصر في موقع فريد، وتقع على ستمئة فرسخ من الحدود البرية، ولا يمكن الهجوم عليها إلا عن طريق واحد. وفي الواقع قام بغزوها من هذا الطريق قمبيز (Cambise)، ومن تبعوه من ملوك الفرس وملوك سوريا، ومن بعدهم الإسكندر والسلوقيون (Séleucides)، والمسلمون المخيفون، والخلفاء من بغداد، والتتار، والعثمانيون.

ويمكن أن يزداد كثيرًا العائق الطبيعي الذي على الحدود بإقامة حصن في العريش وحصن أقل أهمية في القطية، وقلعة في الصالحية، وقلعة صغيرة في وادي طملات (Tomlat)، وستة أبراج من أجل كل من الآبار الوسيطة من العريش حتى الصالحية، ومن الصالحية حتى السويس، كل ذلك يزيد كثيرًا من الصعوبة الطبيعية لهذه الحدود.

التسليح

	مدفع عيار أكثر من 12	مدفع عيار أقل	قذائف أو مدافع هاون	مجموع المدافع	قوات حاميات (رجال)
العريش	6	9	8	23	400
القطية	2	6	2	10	150
الصالحية	4	6	4	14	200
6 أبراج	-	12	-	12	120
وادي طملات	2	6	2	10	130
المجموع	14	39	16	69	1000

وقد أمرت بهدم قرية العريش، ويجب إتمام بناء معقل في داخل القلعة، وطريق وزلاقة لتعويق المهاجمين، ومقدمة خندق، وجدران بارزة في سور الحصن بشكل زاوية من البناء لكشف وضرب الحثالة.

ويغطي البحر المتوسط الحدود الشمالية، وعلى ساحل طوله مئة وعشرون فرسخًا، ولا يمكن الإنزال إلا في ثلاثة مواقع منه؛ هي الإسكندرية، وأبو قير، ودمياط.

وتعتبر الإسكندرية كموقع محصن هي مركز كل الدفاع، وكل الإدارة، وفي مأمن عن أية مفاجأة. ويوجد شاطئ المرابط داخل تحصيناتها. وطالما يسيطر الجيش الفرنسي على هذه المدينة، فيمكن نجدتها، فلا تضيع موارد مصر. وبصفة مؤقتة يجب إعادة تشييد سور العرب، وتغطيته بطريق وزلاقة، وحفر خندق عميق عند أسفل السور عرضه 10

قامات، وعمقه ثلاث قامات، وملؤه بمياه البحر، وبناء أربعة حصون؛ واحد منها أمام باب رشيد، وواحد عند عمود الصواري "بومباي"، وحصن أوسط، وحصن رابع بجوار قلعة الحمامات، وحماية هذه الحصون بالمياه والخنادق المليئة بالماء، مع متراس محصّن بمائتي رجل. وثمانية قلاع؛ هي: قلعة رأس التين التي يجب إغلاق مدخلها الضيق، وقلعة الحمامات، والقلعة التركية، والقلعة الثلاثية، والفنار، والمنارة، والقلعة التركية بالميناء الجديد، في نهاية سور العرب، وتحتوي هذه القلاع على ثماني بطاريات ساحلية تدافع عن الميناءين، وتتقابل نيرانها على 1500 و1800 قامة عن شكل هذه القلاع. وتعد قلعة المرابط ذات أهمية بالغة لأنها تحمي مدخل الممرات، وشاطئًا ملائمًا للنزول إلى البر. وعند هدم الجامع الموجود في الجزيرة وتحويله إلى معقل قوي، يمكن زيادة مقاومة هذه القلعة. وبمجرد أن يكون ذلك ممكنًا، يجب إغلاق رصيفي الميناء القديم والميناء الجديد بواسطة جدار لنكون في مأمن من أية مفاجأة، وتوفير الرجال الضروريين للدفاع. كما يمكن حماية هذا الميدان من أي هجوم بواسطة ثلاثمئة مدفع من كل عيار، وستة آلاف رجل من الحامية من بينهم ثلاثمئة من سلاح الفروسية، وثلاثة آلاف بحار من طاقم السفن الحربية والأسطول الصغير، ومائتين أو ثلاثمئة من المدافعين على الأرض، وألف رجل من المحاربين القدامى ورجال الفصائل وقت الراحة، وألف وخمسمئة رجل من سلاح المشاة الجيد.

وتحمي أبو قير قلعة ضعيفة للغاية في حالتها الحالية، ولا بد من دعم مقاومتها بالخنادق خمسة عشر يومًا، وذلك بإقامة منشآت من المباني، ويجب بناء برج محصَّن في جزيرة أبو قير يستخدم كحصن فرعي لبطارية الساحل تجوب عرْض البحر وداخل المرفأ، وكذلك عند مصب بحيرة المعدية. ويجب بناء حصن على جبل البنر مثل حصن كريتان لحماية بطارية الشاطئ.

التسليح

	قطع مدفع عيار من 36 أو24	قطع مدفع من عيار 16 أو 12 بكرات حمراء	مدفع هاون	قذائف أو قطع من عيار صغيير	المجموع	الحامية (رجال)
قلعة أبوقير	8	2	3	6 (1)	19	200
جزيرة أبوقير	10	2	3	3	18	180
حصن مصب بحيرة معدية	4	2	2	3	11	130
قلعة البنر	6	2	22	4	14	150
المجموع	28	8	10	16	62	660

(1) منها 2 معركة

وبسبب قصورهم فقط سوف تمنع هذه التحصينات الإنزال إلى البر لأن القذائف الكروية والقذائف والقنابل سوف تتلاقي على الشاطئ وفي المرفأ (المرسى الطبيعي) عندما تظهر عمارة معادية تخصص حامية الإسكندرية كتيبتين من أربعمئة رجل، وسرية من مئة وثمانين رجلاً، وثماني مدفع ميدان، ينضم إليها ستة مدافع ميدان من الحصون الثلاثة مما يشكل أربعة عشر [مدفع ميدان]. وهذه القوة المتحركة التي تناور بين الحصون ستجعل الإنزال إلى البر مستحيلا.

ولا يمكن أن يتحقق الإنزال إلى البر في دمياط إلا في الموسم المناسب، بل عندئذ يحدث دائمًا أن تتم مطاردة السفن في المرفأ. إن تسليح البرج وسط البو غاز، والانتهاء من لسبيه (Lesbé)، مع بعض البرام [(pramcs)] (سفينة مسطحة القعر تحمل مدفعية قوية، وتستعمل للدفاع عن الشواطئ)]، وزوارق المدفعية [(chaloupes) = أكبر قارب تحمله السفينة)] راسية داخل الممرات، [كل ذلك] سيدافع عن هذه النقطة أكثر من الموضعين الآخرين، وسيكفيها خمسمئة رجل وستة وثلاثين قطعة مدفع من كل عيار، بما فيها ست قطع مدافع ميدان.

وبعد اتخاذ اللازم للدفاع عن المواقع الثلاث التي يمكن إنزال جيش فيها، يجب ضمان الإبحار بالقرب من الساحل، وخاصة رحيل ووصول السمبريات والسفن التجارية للاتصال مع فرنسا. ولهذا الغرض يجب الاستيلاء على [كل من]: (1) الباريتون (El-Baretoun) حيث توجد الأطلال (الرديم) والمياه وبعض الأشجار، وميناء صالح، (2) نقطتين على الشاطئ، في الوسط بين الميناء والإسكندرية لحماية الإبحار بالقرب من الساحل. ويدافع حصن جوليان (Julien) بما فيه الكفاية عن ممر رشيد، ويجب أن يكون عند مدخل ممر البرلس برج به مدفعان عيار 18، ومدفع ميدان، وثلاثون رجلاً من الحامية، وزورق (chaloupe) مدفعية مسطح القاع ومسلح بقطعتي مدفع ضخمتين بحيث يمكنها السيطرة على البحيرة والرسو عند مدخلها تحت حماية البرج، وكذلك بحيرة المنزلة، ومصبات ديبه (Dybeh)، وأم فرج، والفرما (بيلوز)، ما قد يشكل ثماني مدافع عيار ضخم، وثماني مدافع عيار 18، وأربع قطع مدافع ميدان، ومائتي رجل. إن هدفي هو أن أوجه بعض السفن إلى الباريتون وإلى بحيرة المنزلة. وهؤلاء الذين سوف يتعرفون على الكرمل، سوف يسيرون على طول الشاطئ في صحراء طينه، ويقومون بالإنزال في البحيرة".

مذكرة عن الدفاع عن مصر

"يمكن الهجوم على مصر: (1) بواسطة جيش يجتمع في سوريا ويغادر غزة ويعبر صحراء خليج السويس ويفتح طريقًا في سهل النيل، (2) بواسطة جيش ينزل على سواحل البحر المتوسط، (3) بواسطة عملية مشتركة من جيشين أحدهما من غزة يخترق الصحراء والآخر ينزل على شواطئ البحر المتوسط. وسوف يفضل جيش تركيا الاختيار الأول، وجيش انجلترا الخيار الثاني، وإن كان هناك اختيار ثالث فسوف يهاجم الأتراك عن طريق الصحراء، ويهاجم الانجليز بحرًا.

1) دخل قمبيز واكسركسيس (Xerxès) والإسكندر الأكبر وعمرو والامبراطور سليم إلى مصر بجيش واحد عن طريق صحراء غزة عند الفرما. وهاجمها أرتاكسيركس (Artaxerxès) ملك الفرس، هاجمها بواسطة جيشين؛ واحد عبر الصحراء، والأخر بإنزال عند مصب ديبه (Dybeh)، لكنه انهزم وفشل. وكان أوشيس (Ochus)، واحد ممن جاءوا بعده، هاجم مصر بثلاثة جيوش؛ فدخل جيش البحر في النيل وحقق الإنزال في بطن البقرة (الدلتا)، وحاصر الجيش الثاني

الفرما ليجعلها مقرًا له، والجيش الثالث اتجه نحو السبع بيار. واتجه ملك مصر ضد الطابور (الرتل) في بطن البقرة، ولكن كان قد تم تحصينه. وجمع أوشيس جيوشه الثلاثة واستولى على ممفيس والبلاد. وأنتيجون (Antigone)، أحد خلفاء الاسكندر، ذهب برًا من غزة إلى الفرما، و[ذهب] ابنه عن طريق البحر، ولكن تشتت الأسطول بسبب سوء الطقس، ما أدى إلى فشل الحملة. وهزم بطلميوس إيفرجيت (Ptolémée Evergète) أنطيوخوس (Antiochus) في رفح (Rayfah)، والذي كان قد عبر الصحراء وزحف للقائه. وهاجمها سان لويس ونابليون بحرًا بجيش واحد، فنزل الأول في دمياط، وهُزم بعد عام من المعركة، وسجنه المماليك. والثاني نزل في المرابط واستولى في الشهر الأول على كل مصر السفلى والعاصمة، وبعد ذلك [استولى] على كل البلاد، وقضى على سلطة المماليك.

ولم تعد تركيا دولة، بل مجموعة باشاليك (دويلات) مستقلة، محكومة حسب أهداف ومصالح وأهواء الباشوات. ولم تعد تستطيع إقامة تلك الجيوش الضخمة التي أرعبت أوروبا في القرون السابقة. وتعتبر المليشيات التركية دون انضباط ودون تنظيم، ودون تدريب ودون تكتيك. يشكل الحشد من خمسين أو ستين ألف رجل، نصفهم من الفرسان، والنصف الآخر من رجال المشاة، مسلحين بالبنادق من كل عيار، والأسلحة البيضاء من كل نوع، ولكن لا يستحقون مسمى جيش. ولا تستطيع تركيا تكوين جيوش إلا كجيش جبل طبور (Thabor)، أما جيش أبو قير فقد تم تدريبه من قوات متميزة من أوروبا. ويبلغ عدد قوات جيش تركيا ستين ألف رجل، منهم أربعون ألف محارب، وهو غير قادر على مقاومة الصدام مع فرقة فرنسية من ستة آلاف رجل، سيجعل طليعته تهاجم العريش، ويُبقي فرقه على نسق القتال في آبار زاوي، ورفح، وخان يونس. ويحتاج الجيش عشرين يومًا للاستيلاء على العريش، ويلزمه مثل هذه الأيام لاحتلال القطية، وسيجد الجيش الفرنسي الوقت ليتجمع في غابة قطية، وينتظر العدو على طرف الصحراء. وفي مثل هذا الوضع سوف يهزم عشرون ألف رجل من جيش الشرق مائتي ألف تركي ويدفعونهم إلى الصحراء.

2) إذا أراد جيش إنجليزي وحده غزو مصر، فلا بد من أن يكون من خمسة وثلاثين ألف رجل مشاة، وثلاثة آلاف فارس، وألف رجل من سلاح المدفعية وقادة الأركان. وكان سينزل إلى شاطئ أبو قير، ويستولي على أربعة قلاع، وقلعة جوليان، قلعة مدينة رشيد، وقلعة بحيرة المعدية. وبذلك يكون قد أمن موارده، ويحاصر الإسكندرية. ويمكنه احتلال هذا البلد قبل أن يتجمع كل الجيش الفرنسي، أو هزيمة هذا الجيش إذا كان يريد رفع الحصار عنها. وإذا تم الاستيلاء على الإسكندرية، فستفقد فرنسا مصر. ودون مغادرة شواطئ البحر، ودون أن تفقد رؤية أشرعة سفنها، كان الانجليز سيحققون احتلال هذا البلد الجميل، ويؤمّنون ممتلكاتهم في الهند. ولكن لم يكن لدى إنجلترا جيش جاهز في ذلك الوقت، وكان لا بد لها من السيطرة على أيرلندا لحماية البرتغال. وكانت تكاليف مثل هذا التسليح ستستنزف مبالغ ضخمة، وهو ما كان يجب أن يتم إنجازه في التاميز (Tamise) كي تستخدمه في النيل.

3) من الأكثر احتمالاً إذن أنه لو كان الهجوم على مصر جديًا، فسيكون ذلك بعملية مشتركة، فيعبر جيش تركي من أربعين ألف إلى خمسين ألف صحراء غزة في الصالحية، وينزل على سواحل البحر المتوسط جيش انجليزي من خمسة عشر ألف رجل ومعهم ألف وخمسمئة حصان من الفروسية، وخمسمئة من المدفعية. وسوف يمثل هذان الجيشان قوة مضاعفة بالنسبة لجيش الشرق. ولكن ما هو الموسم الأكثر ملاءمة لمثل هذه العملية؟ وما هو الموقع على الساحل الذي يجب إنزال الجيش الانجليزي عليه؟ يجب أن تبدأ العملية في أول أبريل، وسيتجه الجيش التركي إلى العريش ويشق

الخندق. وتُحمل إليه بحرًا مئونته ومعدات الحصار عن طريق الماء، ويكون البحر هادئا بعد اعتدال الربيع. وبعد الاستيلاء على العريش سوف يغزو قطية، ويمكن أن ينقل له البحر كل ما هو ضروري، وعندئذ نكون في شهر مايو. ويرسو الأسطول الإنجليزي في مرفأ دمياط، وسيكون لديه زوارق مسلحة بمدافع من عيار 24، لا تغطس أكثر من 18 بوصة ماء، وتدخل في بحيرة المنزلة عن طريق ثلاثة مصبات وتستولي عليها، وتبدأ الاتصال مع الجيش التركي. وسيستولى الجيش الانجليزي في البداية على دمياط، خلف ترعة أشمون، أو حتى دون أن تذهب بعيدًا، يمكن أن يتم لقاء الجيشين سواء بترك الجيش التركي يتسلل إلى قطية عن طريق الخليج الذي يفصل بحيرة المنزلة عن البحر، وذلك ببناء جسور من المراكب على مصبات هذه البحيرة الثلاثة، أو بتحرك مشترك في مقدمة البحيرة.

وبمجرد أن ينكشف مشروع العدو، يجتمع الجيش الفرنسي بأكمله في الصالحية، ويحتاج لذلك عدة أسابيع، ويجب عليه إخلاء كل الصعيد. ومن الصالحية يتجه إلى العريش ليرفع عنها الحصار ويهزم الجيش التركي، سواء في القطية لو كانت العريش قد احتلت، أو يزحف ليهاجم الجيش الانجليزيَ قبل أن ينضم إلى الجيش التركي. وفي حال هزيمة [الجيش الفرنسي]، فقد يكون قد أعد انسحابه إلى الإسكندرية عن طريق الدلتا، فيستطيع أن يدافع عن الأراضي التي تغطيها فروع النيل، ويكسب الوقت الضروري لينهي الجلاء عن القاهرة. ويجب أن يدافع عن نفسه في الإسكندرية حتى آخر لحظة؛ لأن الأيام التالية لن تكون شبيهة بما سبق، فإنَّ بعض الأحداث تغير حالة الأمم السياسية. وأخيرًا، إذا استمر دفاع الجيش الفرنسي طويلاً، فسوف يجعل الجيش الانجليزي مشلولاً، ولن يستطيع الذهاب إلى جهة أخرى، وستزداد خسائره.

ولكن بدلاً من الإنزال في دمياط، إذن يتم إنزال الجيش الإنجليزي في أبو قير، وستكون الفرصة أكثر في صالح الجيش الفرنسي، ويجب عندئذ أن يجتمع الجيش في الإسكندرية في أقل أيام ممكنة، وأن يهاجم الجيش الإنجليزي قبل أن يستولى على قلعة أبو قير. وإذا انتصر الجيش الفرنسي نجت مصر، ولو انهزم فإن عليه على العكس أن يترك الإسكندرية لقواته ويتجه سريعًا إلى الصالحية لمواجهة جيش تركيا وهزيمته وطرده إلى الصحراء، والرجوع عندئذ من جديد إلى الإنجليز. ويمكن أيضًا كسب الموقف. ولكن إذا انهزم الجيش الفرنسي من جديد من الأتراك، فلن يتبقى أمامه إلا التمركز في الإسكندرية والدفاع عن نفسه فيها إلى أقصى مدى. ونرى من هذه الدراسة أهمية السيطرة على العريش والتي اعتبرُها الحارس الأمامي أو أحد مفاتيح البلاد. فهي تفصل جيشًا قد يعبر الصحراء وتبقيه بعيدًا عن جيش يمكن إنزاله على سواحل البحر المتوسط".

مذكرة عن الشئون السياسية

"يجب إرسال مندوبين أعمال إلى سنار والحبشة ودارفور، فقد طلبتُ من أمراء هذه البلاد إرسالهم إلى القاهرة. إن كل العلاقات مع مصر عبارة عن علاقات تجارية، ولكن علاوة على الهدف من التجارة، كان هدفي ضمان وسائل الدخول إلى أفريقيا، وتنظيم شراء عشرة آلاف عبد كل عام من عمر 14 إلى 18 سنة، فيمكن تجنيد عشرين ألف في الجيش بواقع

عشرين لكل فرقة، ويشكل الآخرون فيالق مساعدة لهم ملكات من الفرنسيين. وقد يحلوا محل المساعدين إن لم تستطع الجمهورية إرسالهم. وقد قمت باستلام ألفي عبد شاب مملوك، ينتمون إلى أشراف سوريين، ونستطيع دون تقصير توزيعهم على الملكات.

ويمثل الجمهورية قنصل في طرابلس، ويجب الإلحاح على أن ترسل حكومات تونس وطرابلس مسئولين عن الأعمال إلى القاهرة، وسيكون أعضاء هذه الحكومات غاية الفائدة لإقامة الاتصالات مع أوروبا.

وقد اضطر السلطان سليم لإعلان الحرب على فرنسا، وكان الديوان متهيئا لنا، فقد أطلعته على حقيقة ضياع جيوش سوريا ورودس. وقد كانت الجيوش الأكثر مرانا في الامبراطورية، وكان من بينها عدة كتائب تدربت على الطريقة الأوروبية واندثرت. وقد كان جنود المدافع الذين تم تدريبهم على الطريقة الفرنسية، وثمانون مدفع ميدان صبُّهم عمالنا، خسائر فادحة بالنسبة للباب العالي الذي شخصت عيناه وارتعد خوفا عندما رأى مظهر الروس. اكتبوا إلى الصدر الأعظم أننا لا نريد الاحتفاظ بمصر، وأننا لم نصل إليها إلا كما نصل إلى نُزل (خان القوافل) على طريق الهند. ويمر كل شهر بمصر رجال مهمون، هم الحجاج العائدون من مكة عبر البحر الأحمر، وينزلون بشاطئ القصير، وينزلون إلى القاهرة عن طريق النيل، ويبحرون من دمياط؛ فقدموا لهم كل كرم العبور، وأوصلوهم مع كبار الشيوخ المتعاطفين معنا، وسلموهم رسائل وأحاديث إلى الباب العالي، وسوف تفلحون لو توصلتم لأن يكون هنالك عملاء فرنسيون لدى الصدر الأعظم، فيمكنهم إفادتكم والتصدي لدسائس الإنجليز.

ويجب أن تجتهدوا من أجل تنوير الجيش، والقضاء على الأوهام الناتجة عن سوء الظن. وليست روسيا ضد حملة مصر، ولو كان استطاع قيصر(czar) دون أن يتورط ودون أن يخالف طبيعته، لكان أكثر مواءمة من عدائه ضد جيش الشرق. والواقع أن مصر هي موضوع النزاع الذي استخدمه وسوف يستغله ليضع السلاح في يد الفرنسيين والعثمانيين. وبعد هزيمة جيش الشرق والجلاء عن مصر، ستعود الصداقة بين الأمتين كما كانت منذ فرنسوا الأول؛ وذلك لأن الأتراك يعرفون جيدًا أننا لا نطمع في أراضيهم، ولكن [نريد] الهند، وليس الهلال الذي نريد إهانته على شواطئ النيل، ولكن النمر الإنجليزي. فإذن لن تقوم روسيا بشيء ضد هذا الجيش.

إنَّ الإنجليز وحدهم بصراحة وقبل كل شيء يريدون طردنا من مصر، ولكن الفرصة ضاعت عليهم. فقد جدد التحالف الثاني الحرب في إيطاليا وألمانيا وفي الشمال، وإنهم في حاجة إلى قواتهم ليستطيعوا الاستفادة من الأحداث، وإذا انهزم التحالف الثاني وعاد السلام إلى القارة، فسوف تستطيع إنجلترا ترتيب قواتها لأنها لن تفكر إلا في شئون مصر ومصالح الهندستان، ولكن عندئذ لن يساندها الباب العالي الذي يريد مراعاة فرنسا لو انتصرت هذه الأخيرة.

ويعتبر وباء الطاعون من أكثر الأعداء التي يخشاها الجيش، وذلك مما يسببه من فقدان الرجال معنويًا بتأثيره على النفوس، ومن السُويداء الناعمة التي يتركها لدى من يبرءون منه. فلا يجب قبول أية استثناءات فيْ قواعد مارسيليا الصحية، ويجب الإشراف على المحاجر الصحية بعناية".

رابعًا: كان بريد الأميرال جانتوم غير متوقع، والذي حدد الإبحار بيوم 24 أغسطس، وقد أربك القائد العام الذي كان يرغب مدة خمسة عشر يومًا لأن لديه أمورًا كثيرة يريد تسويتها، ولكن لم يكن هناك ما يجعله يتردد. وفي

يوم 19 أغسطس أرسل الجنرال برتييه الأمر إلى الجنرالات: ديزيه، وكليبر، ومينو، وموراا، ومارمون، وبيسيار (Bessières)، ولأعضاء المعهد: مونج، وبرتوليه، ودينون، وبيرسيفال (Perceval)، وإلى فرقة المرشدين، بالذهاب بكل سرعة إلى الإسكندرية. فأبحرت هيئة الأركان في المساء على النيل، وأقامت في منوف حيث كان القائد الجنرال لانوس، ووصلت يوم 23 إلى الرحمانية، ونزلت فيها من المركب. كانت الخيول على الشاطئ، وفي الساعة الرابعة بعد ظهر يوم 24 [أغسطس]، كان المخيم في معسكر الرومان بالقرب من الإسكندرية على شاطئ البحر. وتخلف كل من ديزيه وكليبر عن الموعد، فقد كان الأول حاكمًا للصعيد، وكان الثاني في دمياط، ولم يصل إلا في اليوم التالي.

مع ذلك عجّل الأميرال جانتوم الإبحار، ورأى استحالة التأخير في المساء، فقد شجعه على ذلك رؤية سفينة شراعية ذات صاريين، كانت اقتربت في الساعة الثالثة بعد الظهر للتعرف على الفرقاطات الراسية، ولاحظت أنها تستعد للإبحار. وأقلعت هذه السفينة مباشرة باتجاه قبرص، ومن المحتمل لإخبار البحرية الإنجليزية. وبعد قليل هب نسيم الجنوب الشرقي، وكانت معجزة في شهر أغسطس، الفترة التي تكون فيها الرياح الجنوبية الغربية المعتادة في ذلك الوقت، وفكر الجنرال في أن هذه الريح قد تدفع الفرقة ثلاثين أو أربعين فرسخًا خارج حدود رحلة الإسكندرية البحرية.

وسلم نابليون إلى الجنرال مينو التعليمات ليسلمها إلى الجنرال كليبر، و[سلم] الأمر إلى الجنرال ديزيه بأنه سيرحل إلى فرنسا مستفيدًا من جو الشتاء، وكان يود أن يصحبه معه، وتأثر الجنرال مينو كثيرًا في كون ثقة القائد العام مقصورةً عليه دون غيره، لكنه كان يعرف كم كان مهمًا وصول نابليون إلى أوروبا. وفي هذه المناسبة وبينما كانا يتنزهان على شاطئ الجزء الغارق في موج البحر أمام خيمته، قال له القائد العام:

"سأصل إلى باريس وأطرد مجموعة المحامين الذين يسخرون منا وغير القادرين على إدارة حكم الجمهورية، وسوف أتولى رئاسة الحكومة، وألم شمل كل الأحزاب، وأعيد إقامة الجمهورية الإيطالية، وأدعم هذه المستعمرة الرائعة".

ودخل نابليون بعد هذه المحادثة إلى خيمته على شاطئ البحر، وأملى سكرتيره السيد بورين (Bourrienne) هذه الرسالة الموجهة إلى الجنرال كليبر، والتي اعتقد هذا الأخير بصددها أنه مصرح له التفاوض والاستسلام.

وقد كان آخر أمر يومي حرره بهذا المعنى:

"أيها الجنود،

إنّ أخبارًا من أوروبا جعلتني أقرر السفر إلى فرنسا، وأترك قيادة الجيش إلى الجنرال كليبر. وسوف تصلكم قريبًا أخبار عني. إنه من الصعب أن أترك الجنود الذين أحبهم، لكن غيابي لن يكون إلا مؤقتًا. وللقائد الذي أتركه لكم ثقة الحكومة وثقتي".

وقد تم الإبحار في الساعة السابعة مساء، فركب الجنرالات لان، وموران، ومارمون، والسيدان بيرسيفال ودينون، ونصف المرشدين، على السفينة لاكرير (*La Carrère*)، يقودها الجنرال دومنوار (Dumanoir). ركب القائد العام وبرتييه ومونج وبرتوليه مع نصف المرشدين الآخرين على السفينة لاميريون (*la Murion*)، والتي أطلق عليها هذا اللقب تقديرًا لمرافق عسكري بهذا الاسم قُتل في أركول (Arcole) وهو يحمي بجسده الجنرال قائده. أما "لاكرير" فهو اسم جنرال مدفعية مات في نيرمارك (Neumarkt) في كارينثيا (Carinthie) في معركة عام 1797. وقد كانت هاتان الفرقاطتان جميلتين وكبيرتين ومسلحتين تمامًا، وقادرتين على مواجهة معركة. ولكن كانتا تجران قدمين من الماء أقل من الفرقاطات الفرنسية، ومع أنهما كانتا أطول وأكثر عرضًا، إلا أنهما لا تقاومان الرياح. وتم مضاعفة الزورقين الصغيرين بالنحاس، وكانا يسيران بمهارة، وكان يعتمد استخدامهما في أثناء جذب الفرقاطات انتباه سفن الأعداء لو كانت قوات أعظم تلاحقنا.

لقد أقلعت هذه الفرقة الصغيرة في الساعة التاسعة مساءً، وفي الساعة السادسة صباحًا وصلت إلى ثلاثين فرسخًا غرب الإسكندرية أبعد من رأس دريس (Déris). ولكن بعد ظهور الشمس بقليل وكانت الريح قد توقفت تمامًا، بدأت الرياح الشمالية الغربية من جديد بكل قوتها، واستمرت خمسة عشر أو عشرين يومًا. وأحيانًا كنا نقطع اثنين أو ثلاثة فراسخ في طريق سهل، وغالبًا ما كنا نتوه، وكانت السفن تغير الاتجاه، فتجرفها التيارات التي تعلو هذا البحر، والتي كنا نشعر بها من الغرب إلى الشرق. وكان ضباط البر يلومون ضباط البحر ويسألونهم ساخرين: متى يمكن الرسو في ميناء الإسكندرية. وقرر الأميرال غاضبًا تمور سير السفينة إلى كاندي، لكنه حينما عرض الاقتراح على القائد العام رفضه، وأمر العميد البحري أن يبقى إلى أقصى درجة قرب الشاطئ، وأن يدخل في خليج سيدرا ليختفي تمامًا، وأضاف أن اعتدال الربيع ليس بعيدًا، بينما يستمر في السير، وإنها أيام يتم اكتسابها بالنسبة لأيام قد تضيع في هذه البحار غير المعروفة، ويجب أن يكون أرفع من تكهنات الجهلة. وامتثل الأميرال إلى هذا الأمر بكل طيب خاطر، حيث أنه يتطابق مع نتاج خبرته وكل ما يعرفه عن هذه البحار. وأخيرًا جاءت رياح الربيع، وفي غضون ثلاثة أو أربعة أيام ضاعفت فرقة رأس بون (Bon) السير ثلاثة عقدة، وبعد أن جاوزت ساحل إفريقيا حاذت ساحل سردينيا، ثم تم عمل قناة لتنزل قرب مضيق بونيفاسيو (Bonifacio)، ومنها اتبعت ساحل كورسيكا حتى سانجينير (Sanguinaires) رأس خليج أجاكسيو. ولما كان هناك شك في أن الجزيرة ما زالت تابعة لفرنسا، اتجه الزورق للخليج واتصل بالصيادين، ثم أعطى إشارة الدخول. وفي الساعة الثانية بعد ظهر يوم 30 سبتمبر، رست الفرقة (وهي مجموعة من ثلاث أو أربع سفن حربية)، ونزل المسافرون من المركب، واضطرهم سوء الطقس للإقامة سبعة أيام.

وإنّ تفاصيل هذه الأحداث، والتي وقعت عام 1799 (وخاصة في أشهر يوليو وأغسطس وسبتمبر) قد أبرزت كل الأخطار التي هددت الوطن، وكان جوبير (Joubert) قد قُتل توًا في معركة نوفي (Novi).

وعند سماع خبر وصول نابليون، أسرع قادة الجزيرة إلى أجاكسيو، وبذل الجنرال سلطته لتصالح الأحزاب، وإخماد الفُرقة التي كانت قد اشتدت بعنف.

وفي 7 أكتوبر، وبينما كانوا في وسط قناة سواحل كورسيكا والبروفانس، هاجمت المجموعة رياح أكثر عنفا من ليبشيو (Libeccio)، ثم سكنت الرياح. وفي مساء يوم 8، كنا على بعد ثمانية فراسخ من طولون، وكان الطريق سهلاً، لكن الضباب كان كثيفًا. وأدركنا أننا في وسط عمارة، وبالقرب من السفن بالنظر لقرب دويّ مدافعها. وعلمنا في كورسيكا أن عمارة برويكس (Bruix) كانت قد عادت إلى المحيط، وكنا إذن وسط عمارة معادية. وفي الساعة السادسة، كانت لحظة انقشاع لم تدم إلا دقيقة، لكنها كانت كافية لنكتشف أننا على مقربة من فوهة مدافع عدة سفن عيار 74، وكان القرار الذي يجب اتخاذه محيرًا. فأمر الأميرال، بطابعه شديد الحدة، بتغيير الاتجاه إلى كورسيكا. وسأله القائد العام: "ماذا تفعل؟، أنك تُتعقَب، وسيتعرفون عليك، فتحرك على العكس نحو العدو". وقد نجحت العملية، ولم يكن هنالك أدنى شك. وبعد قليل من الوقت انزاح الضباب من جديد. وبكل حكمة أخذ الأميرال مركبين من أجاكسيو، من نوع "سبيرونار" (spéronares) جيدة السير، ومسلحة بملاحين من أهل البلد يجيدون السباحة، وأراد أن يلقي الركاب بأنفسهم في القوارب ويصلوا إلى ميناء بورت - كرو (Port-Cros) حيث يصلون بالضرورة في الليل، ويعود هو والفرقاطات إلى كورسيكا. ولكن لم يكن هذا هو رأي القائد العام الذي أمر بالإبحار إلى أنتيب (Antibes)، وبعد ساعات لاحظنا أننا في أفضل خيار. وابتعدت طلقات مدفع الإشارة، وبدا أن عمارة العدو تتجه إلى كورسيكا. وفي يوم 9 مع بزوغ النهار، رست المجموعة أمام سان رفائيل في خليج فريجيس (Fréjus)، وكنا في فرنسا بعد رحلة بحرية دامت خمسة وأربعين يومًا، وتغلبنا على كثير من المخاطر.

ولقد لاحظنا في أثناء الإبحار أن نابليون أعطى ثقة كاملة في الأميرال، ولم يعبر أبدًا عن قلقه، ولم يكن له أية رغبة، ولم يصدر سوى أمرين، وفي الحالتين أنقذاه.

ولقد كان أقلع من طولون يوم 18 مايو 1798، وظل بعيدًا عن أوروبا ستة عشر شهرًا وعشرين يومًا. وفي أثناء ذلك الوقت القليل استولى على مالطة، واحتل مصر السفلى والصعيد، وقضى على جيشين من الأتراك، وقبض على رئيسهم وعلى معداتهم ومدافعهم، واكتسح فلسطين والجليل، ووضع من الآن أساسات صلبة لأعظم مستعمرة، وأعاد العلوم والفنون إلى مهدها.

الفصل الثالث عشر

مصر في عهد كليبر

أولا: مشاعر مختلفة أثارت الجنود. ثانيًا: تشكيل حزب يطالب بالجلاء عن مصر والعودة إلى فرنسا. ثالثا: رسالة الجنرال كليبر إلى حكومة الإدارة يوم 26 سبتمبر، رد وزير الحربية في 12 يناير1800 وصل القاهرة في 4 مارس. رابعًا: أحداث وقعت في مصر في سبتمبر وأكتوبر ونوفمبر وديسمبر 1799. خامسًا: اتفاقية العريش (24 يناير 1800). سادسًا: رسالة كليبر في 26 سبتمبر 1799-اعترضها الانجليز. تأثيرها على لندن. قرار مجلس وزراء سان جيمس. سابعًا: معركة هليوبوليس (20 مارس 1800). ثامنًا: حصار القاهرة. الاستسلام (25 أبريل 1800). عاشرًا: اغتيال كليبر (14 يونيو 1800).

أولاً- وصل الجنرال كليبر إلى الإسكندرية بعد أربعة وعشرين ساعة من رحيل الفرقاطات، واستلم من عناية الجنرال مينو أوامره وتعليماته، وذهب إلى القاهرة وتسلم القيادة، وتحدث إلى الجيش بالعبارات الآتية:

"إن دوافع قهرية قد دفعت الجنرال القائد العام بونابرت السفر إلى فرنسا، ولم تنل من عزيمته مغامرة أخطار الإبحار في موسم غير موات على بحر ضيق ومليء بالأعداء، فإنه يرحل من أجل خيركم.

أيها الجنود، ستصلكم نجدة قوية، أو سلام مجيد، سلام جدير بكم وبأعمالكم يعود بكم إلى وطنكم. وعندما تلقيت عبء المهمة التي كلف بها بونابرت، أدركتُ أهميتها وما تمثله من مشقة. ولكن تقديرًا من جانب آخر لشجاعتكم التي توجتها انتصارات باهرة مرات كثيرة، وتقديرًا لصبركم المستمر لتحدي الكوارث وتحمل كل شظف العيش، وأخيرًا تقديرًا لكل ما يمكن عمله مع جنود مثلكم، لم أراع إلا مزايا شرف رئاستكم، وشرف قيادتكم، وهكذا تضاعفت كل قواي".

وقد استمر حزن الجنود مدى عدة أيام، فقد كانت ثقتهم في الجنرال مطلقة، هذا الذي حقق مجدًا أنقذهم من مواقف حرجة منذ أربع سنوات. ولكن بعد أن استسلموا لهذه المشاعر الأولى، تحدثوا عن كوارث الجمهورية، وانهزام جيوش ألمانيا وإيطاليا، والتغيرات على أثر وصول قائدهم في مثل هذه الظروف [قائلين]:

"سيحقق النصر للأعلام الفرنسية ويعيد احتلال إيطاليا! إن المنغول (Kalmouk) الذي يدهس بقدميه الجمهورية الإيطالية سوف يأخذ مكانه إلى جانب أتباع بوليه (Beaulieu) ويورمسير (Wurmser) والفنزي (Alvinzi)، وسوف تنضم الأحزاب التي تفرق صفوف الجمهورية حول رجل يحظى للغاية بثقة الأمة. وحين يمسك بزمام السلطة، سيبني

جيوشًا كثيرة، ويلقى في البحر أسرابًا كبيرة، ويقضى على التحالف الثاني كالأول، وهو ما يتيح له نجدة جيشه المفضل. ولكن هل سيوفق باستخدام سفن سيئة السير عبر بحار ضيقة يغطيها هذا العدد الكبير من السفن الإنجليزية والروسية؟".

ولقد كنا ننتظر بكثير من القلق أخبارًا من الإسكندرية، وكان أولها أن العاصفة الجنوبية الشرقية استغرقت 36 ساعة، وعلمنا بعد فترة وجيزة أن العميد البحري الإنجليزي هرع إلى قبرص، وكان قد استاء كثيرًا لعدم رؤية الفرقاطات في الميناء. وقد هددتنا إشاعات على مدى ثلاثة أشهر كانت تنشرها طرادات البحرية الإنجليزية، ولم يكن معروفًا إلا في شهر يناير بوصول نابليون في نفس الوقت إلى فرنسا، وتوليه رئاسة الجمهورية بإرادة الشعب، وأيضًا خبر الدستور الجديد للعام الثامن الجمهوري.

ولم يكن الجنود يعرفون كليبر جيدًا، لكن مظهره الحربي الجميل، والجرح الذي أصابه عند الاستيلاء على الإسكندرية، والحزم الذي أظهره في معركة طبور، وآراء الضباط الذين خدموا معه، وجيش سامبر وميز (Sambre et Meuse)، كل ذلك كان جديرًا بأن يكسبهم الثقة به.

وكان نابليون قد كتب إلى ديوان القاهرة، والذي علم بأن عمارته [التي كانت] في المحيط قد وصلت إلى البحر المتوسط، وأنه سوف يلحق بها، ويعود قريبًا ليضع خطوات مشروعه الكبير، وإعادة تشييد الوطن العربي. فقد أحبه العلماء في كل الأعمال التي أنجزها منذ ثمانية عشر شهرًا، فقد بدا متسامحًا دائمًا تجاه الشعب، ومقدرًا النبي بإخلاص. وهذا الذي سيحل محله كان أقل صلة وأقل ألفة مع قيم القرآن، ومع ذلك فقد استمر اجتماع الصباح، ولكن توقفت المحادثات الودية عن الرسول. وأثارت قامته الوسيمة الشيوخ، وكانوا يقدرون حبه للانضباط، ولم يكونوا غير مبالين بسماته الحميدة، وقد خاطبهم كليبر في أول جلسة قائلًا:

"أيها العلماء، يا مَن تستمعون إليّ جميعًا، إنني أود من خلال أعمالي الاستجابة لمطالبكم والتماسكم، لكن الأعمال بطيئة، ويبدو أن الشعب جد تواق إلى معرفة المصير الذي ينتظره من الرئيس الذي تيسر له توًا. حسنًا! قولوا له إن حكومة الجمهورية الفرنسية عندما كلفتني حكم مصر، قد كلفتني بصفة خاصة بالسهر على رفاهية الشعب المصري، وهذه المهمة من بين جميع مهام قيادتي هي الأعز إلى قلبي. إن الشعب المصري يؤسس رفاهيته على دينه الخاص، وإن العمل على احترام الدين هو أحد واجباتي الأساسية، وسوف أفعل ما هو أكثر من ذلك، إنني سوف أعمل على صون كرامته، وسوف أساهم قدر استطاعتي في تألقه ومجده. وبعد أن أخذت هذا التعهد على نفسي، فإنني لا أخشى الأشرار؛ فسوف يراقبهم أهل الخير، وسوف يطلعونني على تحركاتهم، وحين تتم حماية الرجل العادل والنزيه، فإن الشرير لا بد وأن يرتعد، فإن السيف مسلط على رأسه. لقد كسب بونابرت، سلفي، حقوق مودة العلماء والمشايخ والكبار، من خلال التمسك بالقيادة النزيهة والقويمة، وسوف أتمسك أيضًا بهذه القيادة. سأسير على خطاه، وأنال ما منحتم له، ارجعوا إذن إلى أهلكم، واجمعوهم حولكم، وقولوا لهم أيضًا: اطمئنوا أن حكم مصر انتقل إلى يد أخرى، ولكن كل ما يتعلق بسعادتكم ورفاهيتكم سيكون دائمًا، وغير قابل للتغيير". ولقد أسعدهم سماع هذا الحديث.

ثانيًا: لم يكن كليبر من قبل قائدًا عامًا في الجيش، وكان يفضل على كل الأساليب انضباط وآليات الجيش الألماني، ولم يكن لديه فكره سليمة عن قيادة الفرنسيين، وكان تأثير الأخوين داماس (Damas) عليه كبيرًا، فقد كان أحدهما ضابطه المرافق، والثاني رئيس أركانه، ولم يكن يتمتع هذان الضابطان بسعة الأفق ولا سمو الروح، فقد كانا يريدان العودة إلى فرنسا. أما كليبر فقد عمل طوال ثماني سنوات قائدًا لفرقه ضباط مشاه في النمسا. كما شارك ضد تركيا في المعركة التي هزم فيها الامبراطور يوسف الثاني، وقد ترك ذلك لديه مشاعر مبالغًا فيها عن قوة الباب العالي جعلته يعتقد أنه يستطيع إعداد مائتي ألف من الشراكسة الشجعان قادرين على كل شيء.

وعند وصوله، كان الجيش متحاملاً على حملة مصر، ولكن تغيرت أفكاره بفضل تأثير نابليون، واستسلم دون وعي لمشاعر أخرى. ولكن عندما هاجم كليبر وهيئة أركانه البلاد، أيقظا مشاعر لم تخمد تمامًا. وعلى الرغم من ذلك بقي الجيش مخلصًا للمجد والواجب، وعبر عن هذه الآراء بصراحة الجنرال مينو، ورينيه، ولانوس، ولاجرانج، وسونجي، وكل ضباط سلاح المهندسين والمدفعية، ومعظم العقداء ضباط سلاح الفروسية، وخمسة أسداس سلاح المشاة. وعلى العكس، كان يريد العودة إلى فرنسا كل من هيئة الأركان، ومئة من الضباط، ومؤيدو الحروب، وبعض موظفي الإدارة. وساهموا بتوسع في نشر مناقشات مجلس الخمسمئة (Cinq-Cents) عن شهر يونيو، والتي أدان فيها خطباء المعارضة الحملة على مصر، وجعلوها موضوع اتهام ضد حكومة الإدارة. وتظاهر هؤلاء الضباط بالقلق على حالة الجمهورية [قائلين]:

"ستكون هنالك نتيجتان للجلاء عن مصر؛ فسيرد إلى الجيش الفرنسي حفنة من الأبطال من بينهم عدد كبير من الضباط المتميزين الأول، ويعود إلى الجمهورية أحد الحلفاء، وهو الباب العالي، [وهو] ضروري لتحقيق التوازن مع روسيا والنمسا. وعلاوة على ذلك، فإنه من المستحيل البقاء الآن في هذا البلد، فليس هناك أمل في وصول تعزيزات حتى لو كانت البحار دون حصار، وإنّ فرنسا تحتاج كل جنودها للدفاع عن أراضيها. لقد كان علينا النضال ضد المناخ، والطاعون، والمماليك، والبدو، وجيوش العثمانيين، والروس، والإنجليز. ولكن كيف نقاوم كل هؤلاء الأعداء؟ قد ينتهي الأمر بالاستسلام! لقد اقترب الآن الصدر الأعظم من سوريا ومعه ثمانية آلاف رجل، ووصل جيش روسي مكون من عشرة آلاف رجل إلى الدردنيل، وعبر عشرة آلاف إنجليزي مضيق جبل طارق، فكيف يمكن مواجهة تلك الجيوش الثلاث؟ سوف نهلك إذن، ولو انتظرنا الأحداث فلا يمكن الأمل في التسوية. ولما كان من المستحيل إنقاذ مصر، فعلى الأقل التفاوض في الوقت المناسب من أجل نجدة الجيش".

وقد كان الجواب:

"إنَّ مناقشات مجلس الخمسمئة لا تعني شيئًا، وإنه من التبسيط [القول بأن] الفرنسيين أمام الأخطار التي يتعرضون لها يفتقدون غياب مثل هذا العدد من الرجال الشجعان. ولكن لا يستطيع خمسة وعشرون ألف رجل أن يشكلوا قوة حاسمة في مثل هذا الصراع، ونرى بصفة خاصة الحاجة إلى قيادة إدارة هذه السواعد، وقد رحل هذا القائد. وتحل مصر بالنسبة لنا محل مستعمرات السكر، وتضمن لنا، إن عاجلاً أو آجلاً، السيطرة على الهندستان. ولم يعد مراد بك سوى مؤيد، وسيكون من السهل كسبه، فهو يخشى العثمانيين والفتيل المحتوم. ولم يعد البدو بهذا القدر من الأهمية، كما اكتسب فرسان المرشدين معرفة الصحراء، وسوف نخضعهم تمامًا، وليس من الصحيح أن الجيش الروسي وصل إلى الدردنيل، ولن يقبل الباب العالي أبدًا أن يقيم جيش يوناني عند أسوار السراي، فلا يمكن أن يسير الهلال والصليب اليوناني متحدين في نفس المعسكر. وعلاوة على ذلك، ألم يشترك الروس بقواتهم في إيطاليا وألمانيا، وهل سياسة القيصر تهدف للقضاء على جيش الشرق؟ إن التأكيد بأن جيش انجلترا قد عبر المضيق لا أساس له من الصحة؛ لأن الجيش الإنجليزي مشغول في إيرلندا، وهو ضروري في أوروبا للتأثير على مصير هولندا وبلجيكا. إن مجلس وزارة سان جيمس (Saint James) يدرك جيدًا أنه لو انتصر التحالف الثاني، ستضطر حكومة الجمهورية إلى مغادرة مصر بتوقيع معاهدة سلام. وما زال الصدر الأعظم يبعد عدة مئات من الفراسخ، وإن مراسلات عكا ودمشق والقدس لا تتحدث عنه بتاتًا. وحين يصل إلى سوريا فينبغي عليه قتال الجزار. ولكن أخيرًا، لو أنه قد توصل إلى جمع جيش، فسيكون مثل جيش جبل طبور، غير قادر على مواجهة فرقة أوروبية. إننا لا نجد أعداءً أمامنا، وإن كان ممكنًا دون شك، ولكن إذا حدث ذلك فهل هناك من داع للاستسلام، ليس فقط دون القتال، بل ودون إعطاء فرصة لوصول جيوش الأعداء؟ فعندما يتم إنزال الإنجليز على سواحل البحر المتوسط، وعندما يكون الصدر الأعظم قد اجتاز الصحراء، سوف يكون لدينا الوقت للاستسلام، ولكن سوف نكون آثمين لو قمنا بذلك في الوقت الذي نتعرض فيه للهجوم، وهو ما يمكن أن نفعله لو انهزمنا أو أعلى الأقل عندما نكون في وجود العدو. وهل على الجنود أن يتوقعوا المخاطر على المدى البعيد؟".

وكما يحدث عادة بقي كل على رأيه، ولكن في خضم هذه المناقشات ضعفت رباطة جأش ومعنويات الجنود، وبدأ الشقاق بين الضباط، وفقد القائد العام هيبته، وأبعد عنه أكثر الشجعان لأنهم لا يشاركونه أفكاره، ويعبرون بصراحة عن آراء متناقضة. وألفوا الأفكار المخجلة لاستسلام جيش إيطاليا، والتي كانت، قبل قليل، فكرة تثير الاستنكار.

ثالثًا: عندما اتخذ كليبر قراره، كتب إلى حكومة الإدارة ليمهد له. وفي رسالته بتاريخ 26 سبتمبر، رسم لوحة قاتمة لوضعه [بأنه]: (1) تم تخفيض الجيش إلى نصف ما كانت عليه قواته الأصلية عند الإنزال، كما أنه لا يستطيع تسليح أكثر من ثمانية آلاف رجل، وفي الهامش، تم خفض عدد المقاتلين إلى خمسة آلاف. (2) كان

الجيش عاريًا، ومن المستحيل الحصول على أقمشة لإلباسه، وهو ما كان له تأثير مباشر على صحة الجنود، وكان السبب الحقيقي في أن تضم المستشفيات المزيد من المرضى عما كان عليه الأمر في السنوات السابقة. (3) عجز الرصيد، إذ كانت الديون المتأخرة أربعة ملايين، والخدمات ثمانية ملايين، ويُستهلك الدخل مسبقًا. (4) نقص في البارود والبنادق والمدافع، والمستشفيات بدون أدوية، ومع ذلك كان لا بد من تغطية خمسمئة فرسخ في البلاد التي يسكنها ثلاثة ملايين من السكان الغاية في العدوانية، ويودون ذبح كل الفرنسيين في لحظة.

ومن جانب آخر [فإنَّ]:

"(1) كان البدو أكثر عدوانية، وأكثر مراسًا على الحرب، وأكثر رعبًا مما كانوا عليه عند وصولنا. (2) ولم يكن المماليك بهذه القوة. (3) وفي الخارج، كان الصدر الأعظم قد وصل إلى غزة ومعه ثلاثون ألف رجل. وأضاف في هامش الرسالة: أنه جاء فقط إلى عكا، وفي فقرة أخرى بنفس الرسالة قال: [أنه جاء] إلى دمشق فقط. (4) وصل الجيش الروسي إلى مضيق الدردنيل. (5) [عند] إنزال الجيش الإنجليزي على شواطئ البحر الأبيض المتوسط، كيف يمكن مقاومة سبعة آلاف رجل أو ثمانية آلاف رجل؛ هي قوات الباب العالي العثماني وإنجلترا وروسيا والمماليك والبدو؟ وكيف يمكن احتلال خمسمئة فرسخ من البلاد وإخضاع ثلاثة ملايين من السكان المتعصبين؟".

ودخل الجنرال داماس (Damas) في تفاصيل أكثر لتوضيح نص القائد العام. ولكن في نفس البريد تلقى وزير الحربية من المنسق العام دور (Daure)، ومن الصراف استيف (Estève)، تقارير عن الوضع في سبتمبر. وتسلم أيضًا من الجنرال سانسون (Sanson)، قائد سلاح المهندسين، والجنرال سونجي (Songis)، قائد المدفعية، وثمانية وعشرين برتبة عقيد، ورؤساء أقسام المشاة، والفرسان والمدفعية والهندسة، برقياتٍ تناقض تأكيدات القائد العام.

وقد وصل حامل البريد بهذه البرقيات إلى باريس في الأيام الأولى من شهر يناير، وكان قد تم حل الحكومة قبل شهرين. وقام وزير الحربية برتييه بفتحها وفرزها. وكان من السهل تصور مشاعر رئيس الجمهورية عندما قدم له تقريرًا عنها. لقد اعتقد كليبر أنه ضاع، وكان يبدو له مستحيلاً أن يكون قد تجنب بحرية العدو، وأراد ببيان كاذب أن يبرر الاستسلام الذي كان يفكر فيه.

وقد أجابه برتييه، وزير الحربية، في 12 يناير [قائلاً]:

"إنه قد وضع رسالته أمام الحكومة بتاريخ 26 سبتمبر 1799، وكذلك برقيات المدير العام دور (Daure)، والصراف العام استيف، ورؤساء قادة سلاح الهندسة والمدفعية، ورؤساء أقسام المدفعية، والمشاة والفرسان والمرشدين الخ، ونتج عن الدراسة التي طلب القيام بها أن القائد العام ورئيس هيئة الأركان لم يكونا على علم، ولم يجدا الوقت لمعرفة حالة

الجيش. وقد كان الجيش عند الإنزال في الإسكندرية مكونا من تسعة وعشرين ألف رجل، وبذلك يكون نصفهم أربعة عشر ألفا وخمسمئة، إذ نتج من كشوف المدير أن الاستهلاك في أثناء أشهر يونيو ويوليو وأغسطس كان خمسة وثلاثين ألف حصة؛ وتنص التقارير في كشوف السيد استيف أن الرصيد (المتبقي) خلال هذه الأشهر الثلاثة كان ثمانية وعشرين ألف فرنسي، وألفين من الاحتياطي. وأخيرًا تقارير الحالة التي بعث بها قادة الفرق العسكرية وتم تصديرها في أول سبتمبر، نتج أيضًا عنها أن أربعة عشر فرقة مشاة، وسبع فرق لسلاح الفرسان والمرشدين، وأقسام المدفعية والهندسة، تُشكل ثمانية وعشرين ألفا وخمسمئة رجل، منهم أربعة وعشرون ألفا يحملون السلاح، ويمكنهم خوض المعركة. ونتج عن كشوف المخازن التي أرسلها العقداء أن الملابس كان يتم تجهيزها تمامًا، وأن الأقمشة في المستودعات، وأنه كان فيها سبعة آلاف بندقية، وألف ومئة سيف للفرسان. وتبين كشوف الصراف أن المتأخر من الرصيد مليون وخمسمئة ألف فرنك، وأن الضرائب المتأخرة يُتوقع وصولها إلى ستة عشر مليونا. وتوضح التقارير التي سلمها حراس مخازن المعيشة والخبز والسوائل والأخشاب والعلف أن المخازن مملوءة بوفرة، وأن الخدمة تقدم بسهولة، وأن المواد الغذائية الضرورية كانت وفيرة وزهيدة السعر. والكشوف التي بعث بها الجنرال سونجي، والتي وقع عليها مدير المعدات فولتريه (Faultrier)، تثبت وجود خمسة آلاف بندقية احتياطية في المعدات، وقطع لصنع ثلاثة آلاف منها، وألف وأربعمئة وستة وعشرون مدفعًا، وأكثر من مائتي خمسة وعشرين ألف قذيفة، وأحد عشر ألف من البارود، وثلاثة ملايين وسبعة وعشرين ألف خرطوشة تم تصنيعها، وأنه لا شك في أنه لا يمكن الاحتفاظ بأكثر من ذلك، حيث أن هذه الذخيرة تم توزيعها على عدد كبير من المدافع وبطاريات الساحل، ولكن من السهل صهر القذائف في مصر لمدافع لا قيمة لها، ولن ينقص النطرون (نترات البوتاسيوم) لصنع البارود. وعلاوة على ذلك فقد صدرت الأوامر لتصديرها بواسطة كل السفن، وأن تموين معدات القتال هو الحاجة الأكثر أهمية، حيث يصل عدد مدافع القتال في الكشوف إلى مئة وثمانين، وكرات القذائف إلى سبعين ألفا، والخراطيش المصنعة لكرات القذائف إلى سبعة وعشرين ألف.

وكان المماليك وقت وصول الفرنسيين اثني عشر ألف فارس يحملون السلاح، وكان [لديهم] عدة أساطيل صغيرة وكنوز ضخمة أصبح لديهم منها القليل، ولم يتبق لدى مراد بك إلا أربعمئة رجل تقريبًا، وأن إبراهيم بك الذي لم يكن لديه في غزو سوريا أكثر من تسعمئة رجل قد انخفض عددهم وأصبحوا الآن أربعمئة وخمسين رجلاً. وقد خدع الجنرال تقريرٌ غير أمين عندما كان يعتقد أن عددهم ألفان من الرجال، وأن البدو لن يكون لهم أدنى تأثير على مصير الجيش، وأنه لا الإنجليز ولا الروس يفكرون في إرسال أدنى قوة إلى مصر، وأن الصدر الأعظم - وفقا لآخر الأنباء الواردة من القسطنطينية - كان لا يزال في أرمينيا، وليس معه سوى أربعة آلاف رجل، وأن الباب العالي يعاني بشدة من الخسائر التي حدثت في سوريا، وفي جبل طبور وأبو قير، وأنه ليس على استعداد لتقديم المزيد من التضحيات الأخرى، وأن أكبر خطر يتعرض له الجيش يأتي من تزايد روح الانقسام، والذي يبدو أنه قد حدث فعلاً، وأن النتيجة التي لا شك فيها هي التفريط في الانضباط.

وقد كان هدف القنصل الأول أن يحتفظ الجنرال كليبر بمصر ولا يوقع على أي استسلام. أما عن المفاوضات الدبلوماسية، فإن الجنرال بونابرت كان مكلفا من الحكومة السابقة أن يتفاوض مع روسيا والباب العالي والقوى الإفريقية والهندية، وأنه مزود لذلك بسلطات خاصة ممنوحة له شخصيًا، وأنه قد استلم عند وصوله محفوظات العلاقات الخارجية، وأن الرسالة التي وجهها إلى الجنرال كليبر في الإسكندرية: بأن يتفاوض في الحالات الآتية: (1) إذا لم تصل أخبار من

فرنسا حتى شهر مايو (إذن يجب أن يتلقى هذه الرسالة قبل هذا التاريخ). (2) إذا أصاب الجيش الطاعون وكان أكثر من ضعف الطاعون الذي حدث عام 1799، والذي حصد سبعمئة رجل".

وأخيرًا أضاف الوزير:

"إن البلاد لا يتم الجلاء عنها إلا بالسلام، أو بعد تصديق الحكومة، وأنه مكلف بأن يوضح له أن هذا الأخير ليس له أن يقدم على أي اتفاق يوقع عليه خلاف هذه التعليمات، وإنه يجب عليه من الآن النظر إلى هذه التعليمات وكأنها لم تكن، وألا ينشغل إلا بالدفاع عن مصر؛ المهمة التي ائتمُن عليها، وله الشرف وشجاعة الجيش".

رابعًا: ظهرت أمام القصير فرقاطتان إنجليزيتان جاءتا من الهند، وعلى متنهما أربعمئة [رجل]، وحاولتا الإنزال أربع مرات، أيام 14، 15، 16، 17 أغسطس. وقد أبعدهما الجنرال دونزلو (Donzelot) في كل مرة، واستولى على قطعة كمدفع عيار 6 قتال، خاطرا بإنزالها إلى البر، واختفت الفرقاطتان يوم 18 وعادتا إلى الهندستان.

وقد اتخذ مراد بك مقرًا لإقامته في الواحة الصغيرة، وكان يخرج منه بين وقت وآخر للقيام ببعض الهجمات في الوادي. وقد أحاط الجنرال موران بمعسكره ليلاً، واستولى على كل أمتعته، ومئة من خيله لتزويد الجيش بالخيول، قام بجمعها مع بعض رجاله الشجعان. وقبض جندي من الخيالة من الكتيبة 20 على البيك، والذي دافع عن نفسه خلال عدة دقائق، ووجد صعوبة الإفلات. وفي نهاية شهر أكتوبر قابله من جديد بالقرب من سيدمنت على حدود الفيوم، وفقد أيضًا بعض الرجال. لم يعد لمراد بك مقر في الوادي، ولا قارب، ولا مدفع، ولا مخزن. ولم يعد يتبعه إلا بضع مئات من عبيده من الموالين المخلصين الأوفياء. ولقد كان من المحال لقدرة مراد بك، الذي كان سيدًا لكل هذه البلاد، أن يتمكن من تجهيز عشر آلاف مملوك من طليعة الفرسان في العالم، وعشرين ألف بدوي، وأربعين ألفًا من مليشيات المشاة. هذا مراد بك الذي كان يمتلك مئات المراكب المسلحة، ومخازن من شتى الأنواع، وكنوزًا وآلاف الجمال، وما كان يوازي أكثر من ذلك كله من الشهرة والنعيم والحظ البالغ، والمهارة والشجاعة!

وفي 24 سبتمبر عام 1799، رسا السير سيدني سميث أمام دمياط ومعه سفينتان حربيتان، وثمانية عشر من وسائل النقل التركية المحملة بالقوات، وازداد عددها تدريجيًا حتى وصل إلى ثلاثة وخمسين. ويوم 29 أكتوبر استولى على البرج المهجور الواقع على بعد ربع فرسخ من البحر على بوغاز دمياط، وسلحه بمدفع عيار 24، وفي أول نوفمبر قام بإنزال فرقة من أربعة آلاف إنكشاري على الضفة اليمنى من نهر النيل بين البحر وبحيرة المنزلة. والعميد فيرديه (Verdier)، وهو ضابط متميز كان قائدًا في لسبيه (Lesbé)، ويخضع لأوامره ثمانمئة رجل من سلاح المشاة، ومئة وخمسين فرس، قام بالزحف لمواجهة الإنكشاريين الذي تصدوا للنيران بشجاعة في

البداية، إلا أنه حين هجم عليهم المشاة بالحراب، وهاجم الفرسان الجناح، قاموا بالتراجع إلى البحر، فلقوا جميعًا حتفهم، باستثناء حوالي ثمانمئة منهم تم أسرهم. وتم الاستيلاء على اثنتين وثلاثين راية، ومدفع عيار 24، وأربعة قطع قتال كانوا قد أنزلوها على الأرض، وبقيت في ساحة القتال. وبعد هذا النصر الباهر أبحر سير سيدني سميث واختفى. أكان يريد غزو مصر بواسطة ستة آلاف أو سبعة آلاف إنكشاري، أم كان يهدف للاستيلاء على لسبيه ودمياط والاستقرار فيهما؟ إنَّ من الصعب معرفة مشروعه الحقيقي، وتعد هذه الحملة أقل حكمة من معركة أبو قير. وقد ظل إسماعيل بك، الذي قاد هذه الحملة، أسيرًا، وقال وهو يئن:

"هذه طليعة إنكشارية القسطنطينية التي خسرها توًا السلطان بدون داع. كان يمكنني بفرقتي هزيمة جيش الصدر الأعظم الذي لا تشكله إلا قوات من آسيا".

ولقد شعر الأتراك في القسطنطينية بأسى بالخسائر التي أوقعها السير سيدني سميث بالجيوش العثمانية. وبعد ضياع جيش رودس في عكا، وفي أبو قير، وفرقة الإنكشاريين التي تم التضحية بها في ميدان دمياط، وصل عدم الثقة بالإنجليز إلى أقصى درجة، وخاصة ضد سيدني سميث. وقد كان هذا الضابط، النشط للغاية، والدسَّاس للغاية، هو الرجل الأقل حصافة والأقل كفاءة ممن يمكن العثور عليهم ليُندَبَ لإدارة مسألة هامة.

وفي بداية شهر نوفمبر، سحب الجزار القوات التي كان يبقي عليها في يافا وفي غزة، وركزها حول عكا ليدافع عن لوائه ضد هجمات الصدر الأعظم، والذي كان قد وصل سعادته أخيرًا إلى نهر الأردن. لم يكن الجيش الفرنسي سيئًا أبدًا بملابسه الجديدة وزيادة عدد رجاله الذين كانوا قد دخلوا المستشفيات بسبب أمراض الصيف ومعركة أبو قير، فخرجوا منها أكثر جمالاً، وأشد انضباطًا، وأحسن حيوية وروحًا. وعلى ذلك كان تكذيب كل مخاوف الجنرال كليبر، وقد اضطر للاعتراف بذلك في البيانات المتعاقبة التي قدمها إلى الحكومة، لكن ذلك لم يغير سياسته المشؤومة.

خامسًا: منذ نزوله من الباخرة في الإسكندرية، بدأ نابليون المفاوضات مع الباب العالي، وباشا طرابلس، وباشا عكا، وكانت طبيعة العملية التي يقوم بها تتطلب ذلك. وكتب مباشرة إلى الصدر الأعظم عن طريق الفلكي بوشان (Beauchamp) الذي دعاه في شهر أكتوبر لأن يركب على الكرافيل التركية التي كانت بالإسكندرية، ومنذ ذلك الوقت أرسل له من الناصرة اليوم التالي لمعركة جبل طبور أفندي من دمشق، وأخيرًا في يوم 28 أغسطس 1799 أرسل له من القاهرة محمد أفندي الذي كان أسيرًا في أبو قير، وقابل محمد أفندي الوزير في إريفان

(Erivan) عاصمة أرمينيا، وسلمه رسالة القائد العام، وتمت مقابلته عدة مرات، وتحدث عن كل ما رأى، وعن كل الموضوعات التي سمع عنها.

وقد فهم الصدر الأعظم كل ذلك جيدًا، وأرسل محمد أفندي ومعه رده الذي وصل إلى القاهرة في 12 أكتوبر. وكان نابليون قد سافر منذ شهرين، وأرسل كليبر محمد أفندي من جديد يوم 17، ولكنه بعيدًا عن سياسة سلفه، قدم اقتراحات، وعرض ضباطه على الأفندي أحاديث جعلته يتصور بعض الآمال استفاد منها. وأدرك شيوخ القاهرة تدابير القيادة العامة. وقابل الأفندي الصدر الأعظم من جديد بالقرب من دمشق، وأخبره بالوضع الجديد بعد رحيل نابليون.

ومن جانبه كان السير سيدني سميث على علم تام باستعدادات هيئة الأركان السرية، وكتب في 26 أكتوبر إلى الجنرال كليبر آخذًا مبادرة التفاوض، وكانت رسالته مؤرخة من على متن التيجر (*Le Tigre*) في مرفأ دمياط، قبل مغامرته المحمومة بيومين. وكان يقول فيها: إنه علم بأن المفاوضات قد بدأت مع الصدر الأعظم، ولكن الباب العالي مرتبط بمعاهدة بتاريخ 5 يناير 1799، وأن سيدني سميث كان قد وقع بتوكيل رسمي من ملك إنجلترا، أن الباب العالي وروسيا وانجلترا اجتمعوا من أجل قضية مشتركة، ولا يمكن عقد صلح منفصل، وأن إنجلترا من الآن جزء رئيسي، وقد كتب:

"إنني، في نفس الوقت، وزير مفوض من ملك إنجلترا، والذي لي شرف تمثيله، وأنا أيضًا قائد بحرية الشرق. وبادئ ذي بدء، لا يمكن عقد تفاوض بدون تدخلي، وثانيًا لا اتصال أو لا حركة بحرًا دون تصريح مني".

وبعد هذه الديباجة، طرق أصل المشكلة، واقترح على الجنرال الجلاء عن مصر، وعرض عليه نقل جيشه مع السلاح والأعلام والأمتعة إلى سواحل فرنسا، ودون اعتباره أسير حرب.

وتم الاتفاق بعد بعض المفاوضات على أن مندوبين فرنسيين مؤهلين بسلطات القائد العام، يتوجهان على متن التيجر، ويمكن رسوهم لهذا الغرض في مرفأ دمياط. فأبحر الجنرال ديزيه ومدير المالية بوسيلج يوم 21 نوفمبر، وتعرضا في الأيام الأولى لمضايقات البحر، وبمجرد أن تعافيا كتبا مذكرة يطلبان فيها:

" (1) عقد سلام نهائي مع الباب العالي، (2) على أن ينفصل الباب العالي من التحالف الثلاثي ويعيد إقامة العلاقات القديمة مع الجمهورية، (3) أن تضمن انجلترا وحدة الإمبراطورية العثمانية، (4) ومقابل إخلاء مصر يُرد كل ما كان قد أخذه المتحالفون من الفرنسيين في البحر المتوسط، (5) أن ينتقل الجيش الفرنسي ومعه مدافعه وسلاحه وأمتعته مباشرة إلى طولون، حيث يكون على استعداد عند وصوله إلى تنفيذ أوامر حكومته".

وبعد بضعة أيام قدما تفاصيل جديدة إلى هذه المقترحات، وطلب تعويضًا عن مصر كورفو (Corfou)، وسانت مور (Sainte-Maure)، وسيفالوني (Céphalonie)، وزانت (Zante)، وسيرجو (Cérigo)، وأخيرًا رفع الحصار عن مالطة.

وكانت إجابة قائد العمارة البحرية:

"(1) للتفاوض وتوقيع السلام لا بد من التزود بتفويض من الحكومات الخاصة يحصل عليها الصدر الأعظم لطبيعة مركزه، إذ له هذه السلطات مستوفيًا الشروط، ويجب إذن أن يبرز المفوضان الفرنسيان تفويضهما لكي يتم التبادل. وإذا كانا مزودين بتفويض قائديهما العام فإنهما - بغير صفة دبلوماسية- ليسا سوى مفوضين بمهمة التفاوض وتوقيع تعهد عسكري، (2) لا يمكن أن يتم السلام بين الباب العالي وفرنسا لأن الباب العالي كان قد تعهد بالتضامن مع روسيا وانجلترا بموجب التحالف الثلاثي، (3) إن كورفو، وسانت مور، وسيفالوني، وزانت، وسيرجو، تحت سيطرة الروس، وأن جزيرة جوزو، وجزيرة مالطة، ما عدا لافاليتا تحت سيطرة ملك نابولي، (4) وأن ضمان انجلترا للإمبراطورية العثمانية كان أحد بنود معاهدة 5 يناير 1799، وعلى ذلك فلا فائدة من إعادتها اليوم، وسلم عميد البحرية بهذا الشأن صورة طبق الأصل من معاهدة 5 يناير كان قد وقعها بنفسه، (5) وأن الهدف من هذه المداولات لا يمكن أن يكون إذن إلا تدارك الجلاء عن مصر". وقال: إنَّ الجيش الفرنسي المحاصر، والمعرض لأن يهاجم من كل الجهات، هو لم ينهزم بعد. إن شجاعته، وقوة تحصينه، وشهرته، هو ما يمنحه كل الحقوق بأن يستطيع المقاومة، وهو ليس إذن في موقف تسليم، وله الحق في أن يفرض الاحتفاظ بأسلحته ومدافعه وأعلامه وممتلكاته، وأن يصل إلى طولون ومرسيليا عن طريق أقصر مسافة، ويؤدي فيه الحجر الصحي، وأن يكون مباشرة رهن حكومته دون أن يكون أسير حرب".

وقد ندد المندوبان الفرنسيان بعدم لياقة هذه المقترحات قائلين:

"لا يمكن الجلاء عن مصر بلا قيد أو شرط، وتعرفون أننا لم ننهزم، وأننا في غير موقف لتوقيع استسلام، ومع ذلك فإنكم تقترحون علينا الاستسلام. ما هذا، هل الجيش محاصر من كل جانب؟ كيف؟".

ورد عميد البحرية: "لدينا فرقاطتان في البحر الأحمر، وعدة سفن في بحر الشرق، وجيش تركي لا يحصى وصل من قبل إلى سوريا".

وأجاب ديزيه:

"ليكن الجيش الفرنسي محاصرًا، فغير ذلك ينبغي أن يكون جيش الصدر الأعظم بسوريا، وأن يكون الجيش الإنجليزي قد أنزل قواته على سواحل البحر المتوسط في دمياط أو أبو قير، وأن يكون جيش من الأثيوبيين أو أهل الحبشة قد عبروا الشلال الكبير ووصلوا إلى بلاد البربر، وأخيرًا، أن يكون قد وصل إلى الواحات جيش رابع قادم من أعماق نيجريتي

(Nigritic). وحتى عند هذه الافتراضات فلن يكون الجيش محاصرًا، وإنَّ هذه الجيوش الأربعة الذي يفصلها عن بعضها الصحاري والمستنقعات والأنهار والميادين المحصنة لن يكون تجمعها خاضعًا ومعرضًا لكثير من التقلبات".

واستأنف القول:

"نعرف ما هو جيش الصدر الأعظم، رأينا منه الكثير في الأهرام، وجبل طبور، وبعدد قليل هزمنا قوات أكثر تنظيمًا في أبو قير وفي دمياط، وكانت نخبة الامبراطورية العثمانية، وأخيرًا فإن تعليماتنا إيجابية، وتعتبر أيَّ اشتراط حربي من أي لون استسلامًا؛ ولن يخضع الجيش الفرنسي أبدًا لمثل هذه الإهانة".

وعندما رأي السير سيدني سميث أن المفاوضات لم تتقدم بعد، رسا في يافا، واتجه إلى مخيم الصدر الأعظم الذي كان في غزة، حيث كان يريد تقديم النصح والمشاورة عن الأوضاع.

وبمجرد أن عرف رئيس الوزراء عن طريق مراسلاته بالقاهرة، وما كان قد رواه له محمد أفندي، أن النفوس قد تغيرت كثيرًا بعد رحيل نابليون، وأن القائد الجديد يميل إلى مغادرة البلاد، وأنه تقدم نحو نهر الأردن. فأبلغ الجزار بما علم به، ووقع التصالح معه. وبنشر أن كل شيء قد تم ترتيبه، ولم يعد ثمة مسألة حرب، ولكن فقط عبور الصحراء لنهب مصر، وضم إليه فرق ولايات سوريا الخمس. وبعد أن جمع ثلاثمئة ألف رجل، أحاط قلعة العريش بواسطة فرقة من ستة آلاف رجل. وكان الرائد دوجلاس (Douglas) يقود عمليات الحصار، لكن سوء تنظيم الأتراك ونقص المعدات وقطع الغيار لم يتركوا له أي أمل في إنجاز هذه المهمة على أتم وجه. وازدادت التحصينات بشكل هائل بقيادة الرائد المهندس كازل (Cazals) الذي كان تحت أمرته خمسمئة رجل. وكان ذلك في اليوم الثامن للحصار، ولم يتقدم المحاصرون إلا قليلاً عن اليوم الأول، ولم يكن بين المحاصرين بعد سوى اثنين من القتلى وخمسة جرحى عندما قامت انتفاضة في الحامية. ونادى بعض الخونة على الأتراك من أعلى الأسوار: يا للعار! وألقى بعض الجنود الفرنسيين بأنفسهم الحبال والسلالم التي استخدمت في التسلق! ولم تُترك جريمتهم بغير عقاب؛ فكان هؤلاء البؤساء أول مَن تم ذبحهم، وحملت رؤوسهم رمزًا للنصر في كل سوريا. وبلغ اليأس بالرائد كازل، ووجد الوقت للانسحاب في منازل داخل الحصن، واحتوى العدو نصف ساعة، ونال الاستسلام، وأنقذ حاميته. لقد أثار هذا الحدث المؤلم وغير المنتظر حماس الصدر الأعظم لأقصى درجة، أو كما قال:

"لقد كانت أحسن معركة في هذا العصر. وسوف يدرك قيصر روسيا فكرة عظيمة عن الشجاعة العثمانية عندما يعلم بحدث يثير الإعجاب بهذا الشكل".

وفي ذلك الوقت وصل عميد البحرية إلى معسكر العريش، وأبلغ المندوبين الفرنسيين وكانا في يافا بالحدث الذي وقع، قائلا:

"من المستحيل رؤية جيش بقوة الجيش العثماني، بل لا يوجد ما هو أكثر شراسة. لقد هب تعصب الجيوش المسلمة بكل قوته، ولم يكن لدى سليمان وبايزيد (Bajazet) ولا سليم أبدًا جنودًا بواسل بهذه الدرجة تحت قيادتهم. وقد كان من المستحيل له ضمان أمن المندوبين الفرنسيين وسط جيش شديد التعصب".

ونصح المندوبين بالبقاء في يافا وانتظار عودته، وخشي ملاحظات ديزيه، الذي سوف يقيّم قدره بحق عندما يرى هذا الجيش الذي يرثى له، ولكنه كان لذات الأسباب يتحرق شغفًا لدارسة تركيبة وكل حوافز هذا الجيش الشرقي.

ودون أن يأخذ في الاعتبار تلميحات السير سيدني سميث، بدأ ديزيه الزحف مع بوسيلج ووصل إلى غزة، ومنها إلى العريش، وهناك استقبلهم المماليك استقبالاً حارًا، وكانا في أمان تام. وعندما شاهد ديزيه خلال بضعة أيام هذا الحشد الصاخب من الرجال الذين شرفوا باسم جيش، كتب إلى كليبر قائلاً:

"أحرص على الجلاء عن مصر، فهناك همهمة بحدوث ثورة في فرنسا، وأن نابليون قد تولى رئاسة الدولة. وأما فيما يدعى جيش الصدر الأعظم، فهو كومة بائسة من قطاع الطرق، ويوجد دون شك بعض الأبطال الشجعان، لكن عددهم قليل، فهذا الجيش عاجز عن مقاومة هجوم أحد فرقنا. يقال إنهم ثمانون ألف رجل، ولا أقدر أن عددهم أكثر من ثلاثين ألف محارب. وإنهم يعلنون وصول الروس في المخيم الذي تدار فيه المداولات، وكما ترى الخدعة مكشوفة، فلو كانوا في انتظار جيش ما من أوروبا، لما كانوا قد بدأوا الحرب".

كانت برقيات بوسيلج مكتوبة بلهجة مختلفة، وقام بتضخيم كل ما قاله له الصدر الأعظم، والريس أفندي، وعميد البحرية، [حيث قال]:

"إنَّ الجيش التركي غاية في الضخامة، وهو مذهل، وقد أهلك حامية العريش، وزرع طرق المخيم بحراب علق عليها بعض الرؤوس، وكان يتم قتل بعض الرجال كل يوم في أزقة المخيم، واخترقت خيمة الصدر الأعظم طلقات الرصاص، وكان في الطريق اثنا عشر من الباشوات يقودون جيشًا من مائتي ألف رجل، ووصل جيش روسيا فعلاً إلى الدردنيل، إلخ".

وكان كليبر قد جمع جيشه أمام الصالحية، وعندما علم بخبر الاستيلاء على قصر العريش، استسلم تمامًا لإجراء الاحتياطات الكاذبة التي استخلصها من حروب المجر، ودون أن يصدق ما كتبه له الجنرال ديزيه، شاهد العيان، فاعتقد أنه لم يبق له حل آخر لإنقاذ جيشه وشرفه سوى الاستسلام. فأرسل [كليبر] بعض التعليمات عكس

الأولى، وسمح لمندوبية بالتفاوض بلا قيد أو شرط على الجلاء عن مصر. وقد أدخل هذا الخبر السرور لدى العميد البحري الانجليزي الذي بذل جهدًا بعد قليل من أجل إزالة كل الصعوبات. وفي يوم 24 يناير تم التوقيع على الاتفاق، وتم التصديق عليه بعد بضعة أيام من جانب القائد العام والصدر الأعظم. ويعتبر هذا الاستسلام الحربي مشرفًا، بكل بنوده، وتم صياغته بعناية، ولم يتم إغفال الحيطة فيه، فوقع الصدر الأعظم بصفته رئيس وزراء الباب العالي، قائد البر والبحر، والسير سيدني سميث بصفته وزير مفوض بريطانيا العظمى وقائد بحرية بلاد الشام، وضمنه وزير روسيا.

وقد تضمنت صياغة هذه الاتفاقية الشروط التالية:

"إنَّ الجيش الفرنسي في مصر، إذ يتمنى أن يقدم الدليل على رغبته في وقف إراقة الدماء، وأن يرى نهاية للخلافات المؤسفة بين الجمهورية الفرنسية والباب العالي، قد وافق على الجلاء عن مصر وفقًا لأحكام هذه الاتفاقية، متمنيًا أن يكون ذلك التنازل سبيلاً لإقرار السلام العام في أوروبا.

المادة الأولى: ينسحب الجيش الفرنسي بالسلاح والأمتعة والمنقولات إلى الإسكندرية ورشيد وأبو قير، ليتم شحنها ونقلها إلى فرنسا، سواء على سفنه، أو على تلك التي يجب أن يوفرها الباب العالي، ويتم إعداد هذه السفن بسرعة. وقد تم الاتفاق على أنه بعد شهر من التصديق على هذه الاتفاقية سيتم إرسال مفوض إلى قلعة الإسكندرية ومعه خمسون شخصًا من الباب العالي.

المادة الثانية: تكون هناك هدنة لمدة ثلاثة أشهر في مصر من بداية التوقيع على هذه الاتفاقية، وفي حال انتهاء الهدنة قبل أن تكون سفن الباب العالي جاهزة، يتم تمديد هذه الهدنة حتى إنجاز الإبحار تمامًا، وبطبيعة الحال سيستخدم كلا الجانبين جميع الوسائل الممكنة لكيلا تضطرب راحة الجيش والشعب، وهو الغرض من الهدنة.

المادة الثالثة: يتم نقل الجيش الفرنسي وفقًا لتسوية المندوبين المعينين لهذا الغرض من قبل الباب العالي والجنرال العام كليبر. وإذا حدث، في أثناء الإبحار بعض المناقشات بين المفوضين بشأن هذا الموضوع، فيتم تعين مندوب من قبل العميد البحري سيدني سميث لحسم الخلاف وفقًا للوائح البحرية الانجليزية.

المادة الرابعة: يتم الجلاء عن القطية والصالحية من قبل القوات الفرنسية في اليوم الثامن، أو في موعد لا يتجاوز اليوم العاشر بعد التصديق على هذه الاتفاقية، وإخلاء مدينة المنصورة في اليوم الخامس عشر، ويتم الجلاء عن دمياط وبلبيس في اليوم العشرين، والسويس قبل ستة أيام من القاهرة، والأماكن الأخرى الواقعة على الضفة الشرقية لنهر النيل سيتم الجلاء عنها في اليوم العاشر، وسيتم الجلاء عن الدلتا بعد أسبوعين من الجلاء عن القاهرة، وتبقى الضفة الغربية لنهر النيل وضواحيها في أيدي الفرنسيين حتى إخلاء القاهرة، ومع ذلك يجب أن يظل الجيش الفرنسي فيها حتى تنزل جميع القوات من صعيد مصر، فإن الضفة الغربية والأقاليم التابعة لها لا يمكن إخلاءها إلا بعد انتهاء الهدنة، وإن كان من المستحيل الجلاء عنها في وقت سابق. وتسلم المواقع التي أخلاها الجيش إلى الباب العالي في الحالة التي هي عليها في ذلك الحين.

المادة الخامسة: يتم إخلاء مدينة القاهرة في مهلة أربعين يومًا إذا أمكن ذلك، وفي موعد أقصاه خمسة وأربعين يومًا من تاريخ التصديق على هذه الاتفاقية.

المادة السادسة: من المتفق عليه صراحة أن الباب العالي سيولى اهتمامه لكيلا تتعرض القوات الفرنسية في الأماكن المختلفة من الضفة الغربية لنهر النيل في طريقها إلى القيادة العامة ومعها الأسلحة والأمتعة لإزعاج أو عنف أو مساس بأشخاصهم وأموالهم وأعراضهم، سواء من سكان مصر، أو من قبل قوات جيش الامبراطورية العثمانية.

المادة السابعة: ونتيجة لهذه المادة المذكورة أعلاه، وتجنبًا لكل المجادلات والأعمال العدائية، يتم اتخاذ التدابير من أجل أن تكون القوات التركية دائمًا بعيدة بما فيه الكفاية عن القوات الفرنسية.

المادة الثامنة: بعد التصديق على هذه الاتفاقية مباشرة يتم إطلاق سراح كل الأتراك والدول الأخرى رعايا الباب العالي دون تمييز، من المعتقلين أو المحتجزين في فرنسا أو تحت سيطرة الفرنسيين في مصر. وعلى أساس المعاملة بالمثل [يتم إطلاق سراح] كل الفرنسيين المعتقلين في جميع المدن، وفي إسكال [اسم كان يطلق على مرافئ البحر المتوسط] الإمبراطورية العثمانية، وكذلك يتم الإفراج عن جميع الأشخاص أيًا كانت أمتهم، من المرتبطين ببعثات المفوضيات والقنصليات الفرنسية.

المادة التاسعة: وبعد الجلاء عن مصر، تبدأ على الفور إعادة أموال وممتلكات السكان والرعايا من الجانبين، أو سداد قيمتها لأصحابها، وسيتم إقرارها في القسطنطينية من قبل المفوضين المعينين لهذا الأمر بالتبادل كل فيما يخصه.

المادة العاشرة: لا يتعرض أحد من سكان مصر - من أي دين على الإطلاق- للعنف أو المساس بشخصه أو ممتلكاته بسبب علاقاته مع الفرنسيين خلال احتلالهم لمصر.

المادة الحادية عشرة: يتم تسليم جوازات سفر أو تصريحات مرور والقوافل الضرورية إلى الجيش الفرنسي، سواء من جانب الباب العالي، أو خلال حلفائه، والمقصود بذلك بريطانيا وروسيا، وذلك لضمان العودة إلى فرنسا.

المادة الثانية عشرة: عندما يتم إبحار الجيش الفرنسي عن مصر، يتعهد الباب العالي وحلفاؤه، وحتى عودته إلى القارة، بألا يشعر بالقلق بتاتًا، كما يتعهد كليبر القائد العام والجيش الفرنسي في مصر بعدم ارتكاب أي عمل عدائي خلال هذا الوقت ضد الأساطيل، ولا ضد بلاد الباب العالي وبلاد الحلفاء، وألا تتوقف السفن - التي من شأنها نقل هذا الجيش- عند أي ساحل غير سواحل فرنسا، إلا في حالة الضرورة القصوى.

المادة الثالثة عشرة: ونتيجة لهدنة الثلاثة أشهر المنصوص عليها أعلاه مع الجيش الفرنسي للجلاء عن مصر، تتفق الأطراف المتعاقدة على أن ترحل عن الإسكندرية بعض السفن التي دخلتها في هذه الفي أثناء بدون علم قادة أسطول الحلفاء، وبعد أن تأخذ المياه اللازمة والمواد الغذائية، والعودة إلى فرنسا مزودة بجوازات سفر الحلفاء. وفقط في حال طلب هذه السفن إصلاحات، فإنها تبقى حتى يتم الانتهاء من هذه الإصلاحات، وتغادر البلاد إلى فرنسا فور أول ريح مواتية.

المادة الرابعة عشرة: يمكن للقائد العام كليبر أن يرسل على الفور السفينة الشراعية (aviso)، التي سوف يتم منحها جوازات المرور الضرورية حتى يمكن لهذه السفينة إخطار الحكومة الفرنسية بالجلاء عن مصر.

المادة الخامسة عشرة: لما كان الجيش الفرنسي بحاجة إلى مئونة يومية في أثناء الشهور الثلاثة اللازمة للجلاء عن مصر، وكذلك الأشهر الثلاثة الأخرى بعد يوم الإبحار؛ فمن المتفق عليه أن يتم تقديم الكميات اللازمة له من القمح،

واللحوم، والأرز، والشعير، والقش، وفق الكشف الذي قدمه السفراء الفرنسيون، سواء لزوم الإقامة أو الرحلة. والكميات التي سيسحبها الجيش من المخازن بعد التصديق على هذه الاتفاقية يتم خصمها من الكميات التي يوفرها الباب العالي.

المادة السادسة عشرة: بعد يوم التصديق على هذه الاتفاقية، لا يرفع الجيش الفرنسي ضرائب مهما كانت في مصر، بل على العكس يترك للباب العالي الضرائب المعتادة المفروضة التي لم يتم رفعها، وتبقى مستحقة حتى رحيله، وكذلك الجمال والمراسلات الجمالة والذخائر، والمدافع والأشياء الأخرى التي يملكها والتي لا يرى ضرورة تحميلها، وكذلك مخازن الحبوب من مساهمات الضرائب التي تم تحصيلها من قبل، وأخيرًا مخازن الأغذية. هذه الأشياء سيتم فحصها وتقديرها بواسطة مندوبين يرسلهم الباب العالي إلى مصر لهذا الغرض، وكذلك عميد القوات البحرية البريطانية، جنبًا إلى جنب مع المكلفين من قبل القائد العام كليبر بالمشاركة واستقبلوا من الأولين بنسبة التقدير القائم، لغاية مبلغ (3000) بورصة ستكون ضرورية للجيش الفرنسي ليسرع تحركاته وإبحاره. وإذا كانت الأشياء المبينة سلفًا لا تبلغ هذا المبلغ فإن الباب العالي يتحمل العجز على شكل قرض تسدده الحكومة الفرنسية من أوراق المندوبين الذين عينهم الجنرال كليبر لاستلام هذا المبلغ.

المادة السابعة عشرة: على الجيش الفرنسي أن يتحمل مصاريف الجلاء عن مصر، وسيتلقى بعد التصديق على هذه الاتفاقية المبلغ المذكور وفق الترتيب التالي:

اليوم الخامس عشر: 500 درهم [بورصة]، واليوم الثلاثون: 500 درهم أخرى واليوم الأربعون: 300 درهم أخرى، واليوم الستين: 300 درهم أخرى، واليوم السبعون: 300 درهم أخرى، واليوم الثمانون: 300 درهم أخرى، واليوم التسعون:500 درهم أخرى. وكل درهم عبارة عن 500 قرش تركي وكل هذه الأموال سوف تستلم سلفة من الأشخاص المخصصين لهذا الغرض من قبل الباب العالي. ولتسهيل تنفيذ هذه الأحكام يرسل الباب العالي - مباشرة بعد تبادل التصديقات - مندوبين إلى مدينة القاهرة، وإلى كل المدن الأخرى التي احتلها الجيش.

المادة الثامنة عشرة: الضرائب التي قد يحصلها الفرنسيون بعد تاريخ التصديق وقبل إبلاغ هذه الاتفاقية في مختلف أنحاء مصر، يتم خصمها من مبلغ ثلاثة آلاف بورصة المنصوص عليها أعلاه.

المادة التاسعة عشرة: ولتسهيل وسرعة إخلاء الميادين، تكون الملاحة حرة لسفن النقل الفرنسية التي تتواجد في موانى مصر خلال الأشهر الثلاثة للهدنة، من دمياط ورشيد إلى الإسكندرية، ومن الإسكندرية إلى رشيد ودمياط.

المادة العشرون: تتطلب سلامة أوروبا أكبر قدر من الاحتياطات لمنع انتشار الطاعون وانتقاله إليها، ولا يتم إبحار مريض أو من يشتبه في تعرضه لهذا المرض، بل أنَّ المرضى بسبب الطاعون أو بأي مرض آخر لا يسمح لهم بالسفر في الموعد المتفق عليه للجلاء، ويبقون في المستشفيات، ويكونون تحت رعاية معالي الصدر الأعظم، ويقوم بعلاجهم ضباط الصحة الفرنسية الذين سيبقون بالقرب منهم حتى يسمح لهم شفاؤهم بالسفر. وليتم ذلك في أسرع وقت ممكن. وسوف ينطبق عليهم المادتين 11، 12 من هذه المعاهدة مثل بقية الجيش، ويتعهد القائد العام لجيش فرنسا بإصدار أوامر أكثر صرامة إلى مختلف الضباط قادة الفرق المسافرة بحرًا بعدم السماح للسفن بإنزالهم في موانى أخرى غير تلك التي سيتم الإشارة إليها من قبل ضباط الصحة، والتي تقدم أكبر قدر من التسهيلات لقضاء حجر صحي ناجح ومتداول وضروري.

المادة الواحدة والعشرون: كل الصعوبات التي قد تظهر ولم تكن متوقعة في هذه الاتفاقية يتم حلها وديًا بين المندوبين الذين عينهم لهذا الغرض سمو الصدر الأعظم والقائد العام الجنرال كليبر، وذلك بطريقة تسهل الجلاء.

المادة الثانية والعشرون: لا تصح هذه الاتفاقية إلا بعد التصديق من الجانبين، ويتم تبادلها في غضون ثمانية أيام بعد التصديق على هذه الاتفاقية، ويتم مراعاتها بأمانة من كلا الجانبين".

وعندما علم الجيش بضرورة إنهاء غزوته الرائعة أمام ضجة مثل ما حدث في جبل طبور، انقبضت القلوب بأسرها، وبحث الجيش عبثًا عن أسباب تبرر هذه التسوية، ولم يكن قد تلقى أي أمر من الحكومة. كان بأكمله، لا ينقصه شيء، وكانت كل الادعاءات التي تضمنها محضر المجلس الحربي كاذبة أو مبالغًا فيها، أو تافهة. ولكن من ناحية أخرى، فإن الجندي سيرى فرنسا الجميلة، ويحتضن عائلته والأصدقاء، وربما يجمع أكاليل الغار على نهر بو، وأديجي، ونهر الدانوب!

تم تسليم الأتراك كل معاقل قطية، والصالحية، وبلبيس، ولسبيه، والسويس، وكل حصون مصر العليا، وكل ضفة النيل اليمنى على طول فرع دمياط. وعبر الصدر الأعظم الصحراء بفخامة، وضم إليه جيشه من جميع الجهات، وكان الأمل في نهب سهول النيل الغنية والوفيرة يثير بحماس جشع كل قبائل الصحراء. وتم تنفيذ الاتفاق بأمانة من كلا الجانبين، وكانت اللجنة الدائمة المكونة من الفرنسيين والأتراك والانجليز تزيل بكل أمانة كل الصعوبات الطارئة. وسلمت إدارة القاهرة المدنية إلى الصدر الأعظم الذي أرسل إليها مصطفى. وتقدم تباعًا كل عظماء مصر أمام سموه لطلب العفو والتنافس في تقديم الهدايا، حسب عادات الشرق. وقد عادت نفوس المصريين إلى العدم، واستأنفوا كعادتهم السخرة والعبودية. ولم يعد امام فجر الحضارة إلا لحظة، ومن الآن لا أمل، ولم يعد الفرد يكترث إلا بأن يتأهل لنسيان ما قاله أو عمله.

وانتهز مراد بك الجلاء عن مصر العليا، وتجميع الجيش لإعادة ترتيب أموره. وقدم المديح إلى الصدر الأعظم الذي أرسل له الأوامر، وسلمه كليبر تصاريح المرور. وعندما وصل بالقرب من القاهرة، استقبل البيك الجنرال الفرنسي موران (Morand) بكل ترحاب، وكان مكلفًا باستقباله، وألبسه معطفًا وأهداه فرس معركة جميل، وقال له: "هديتي هي أقل شيء، ولكن ألقي المسئولية على الفرنسيين، فقد أخذوا ما أملك".

ووجد على الطريق سلاح الفروسية، والسيف في يده. وعند هذا المنظر شعر لحظة بالاضطراب، وأدرك جنرال الفروسية ليكلير (Leclerc) قائدها، وألقى بنفسه مع اثنين من مساعديه وسط المماليك رهن إشارته. أخذ مراد بك يتأمل بعناية الفروسية الفرنسية، والتي رأته من جانبها بسرور، وهو شعور طبيعي عند رؤية الشجعان.

ولم يتخيل المصريون ولا المماليك أيضًا شيئًا مما شاهدوه؛ فهذا الجيش الذي كان بالنسبة لهم لا يقهر، يتراجع أمام هؤلاء الرعاع، وتلك ظاهرة لم يستطيعوا أن يفسروها لأنفسهم.

وقد استقبل الصدر الأعظم مراد بك ببرود، وقال لهم بلهجة شديدة:

"أنتم المماليك ليس لديكم شجاعة إلا في التمرد ضد حكامكم، ولم تبرعوا في الدفاع عن مفتاح الكعبة المشرفة يومًا واحدًا ضد حفنة من الكفار الذين يفرون كالغزلان الضعاف عند مشاهدتي، ويفرون بمجرد أن أقترب كرمال الصحراء عند أول هبوب رياح الخماسين".

فاعتدل مراد بك الشجاع بنبل، وألقى عليه نظرة والشرر يتطاير من عينيه، وقال له:

"أيها الوزير، أشكر النبي الذي يدبر قلب وإرادة البشر، ولكن لا تنخدع بحسن حظك؛ لأن حبهم لبلادهم ولزوجاتهم وأولادهم هو الذي خلب عيون هؤلاء الكفار، وهو ما جعلهم لا يتأثرون بمحاسن النيل، ولكن أدعو الله ألا يغيروا نواياهم، وإلا لرأيت هذه الغزلان الوديعة أكثر غضبًا من أسود الصحراء الجائعة، وجلبت الموت والمذابح لصفوف جيشك، فلا يرى أحد من رعاياك سوريا المزدهرة من جديد".

وأدرك الصدر - وهو رجل متزن- أنه انفعل بكبرياء في غير محله، وهدأ من روعه وامتدح البك وحاول التصالح معه. ولحق مراد بفرقته وعسكر على جانب الجيشين من ناحية الصعيد.

سادسًا: بعد بضع أسابيع من رحيل السفينة من الإسكندرية، والتي حملت رسالة الجنرال كليبر، بتاريخ 26 سبتمبر 1799، تم تسليم نسخة مكررة من البرقية للقائد بارا (Barras)، والذي كانت سفينته تتجه إلى فرنسا. وتم القبض على هذه السفينة في بحار البروفانس، فألقى بارا برقياته في المياه بغير اكتراث، لدرجة أن ضابط صف بحري إنجليزي بدأ السباحة والتقط البرقيات وحملها إلى الأميرال كيث، الذي أرسلها فورا إلى لندن. وقد أثارت إلى أقصى درجة اهتمام مجلس وزراء سان جيمس. ومن جهة، كان نابليون قد وصل إلى زمام السلطة، وتم تعيينه رئيسًا للجمهورية، وقد كانت هذه الرسائل نوعًا من الوشاية والاتهام ضده. ومن جانب آخر، فإن المعلومات التي تقدمها عن حالة الجيش في مصر قد أزالت كل الشكوك، فقد كان من المستحيل الحصول على أوراق رسمية أكثر أمانة. كان الجيش الفرنسي عاريًا، تنقصه الأسلحة والمدافع وذخيرة الحرب، ويجد صعوبة في العيش، ولا يمتلك المال، وانخفض عدد المقاتلين ما بين خمسة آلاف إلى ثمانية آلاف محارب. وبالإضافة إلى ذلك أصبح العرب والمماليك أقوى من أي وقت مضى، وكان الشعب مضطرب المزاج، وعلى استعداد في أي وقت لذبح الفرنسيين. ولم يعد هناك أمل لدى قائدهم إلا التسليم لإنقاذ هذه الفلول البائسة. لكن هذا الحطام البائس في مصر، كان من الكوادر المدربة والثمينة بالعدد الكبير من الضباط وضباط الصف الذين كانوا بينهم. وبعد ستة أسابيع من وصولهم إلى فرنسا كانوا سيشكلون جيشًا من أربعين ألف رجل، سيكون رهيبًا للغاية. ومن جهة

أخرى فإن هؤلاء الضباط كانوا سيؤدون مهمتهم بتفان، وخاصة لرئيس الجمهورية الجديد، فقد كانوا يساندون سلطته، وسيكونون له عونًا لا يقدر بثمن، وكان لا بد من حرمانه منهم. إن النسخ المكررة من برقيات رؤساء الإدارة والعقداء، والتي تم إرسال أصولها مع السفينة التي وصلت إلى فرنسا، لم تكن قد ضمت إلى الحملة الجديدة، لدرجة أن الحكومة البريطانية لم تقدر على تصور أدنى شك في حقيقة الأحداث الواردة في رسائل هيئة الأركان.

واستشعر سير سيدني سميث في مراسلاته أنه من الممكن أن يفرض على كليبر توقيع الاستسلام وتسليم مصر، بشرط ضمان عبور الجيش ليعود إلى فرنسا بأسلحته، دون أن يكون أسير حرب، والتستر على عار الاستسلام تحت شعار اتفاق دبلوماسي، وكانوا ينتظرون هذه النتيجة الكبرى بفارغ الصبر. ولكن عندما علم من برقيات القائد كليبر الخاصة بالحالة المزرية التي وصل إليها الجيش، وأنه لا يستطيع أن يهدد الهندستان ولا ضم مجندين إليه، قرر الانجليز الإبقاء عليه أسير حرب على نهر التميز. ولذلك أرسلت الوزارة في 17 ديسمبر أمرًا إلى الأميرال كيث بالقبض على السفن التي تحمل الجيش الفرنسي واصطحابها إلى انجلترا مهما كانت تصاريح المرور التي زودت بها. وقال السيد دونداس (Dundas):

"يجب أن يموت هذا الجيش ويكون قدوة لانتقام بريطانيا، وألا يعود واحد من الرجال من بينهم لرؤية أهله".

وفي يوم 8 يناير 1800 أرسل الأميرال كيث فرقاطة إلى سيدني سميث، وصلت يوم 20 فبراير إلى قبرص. وفي نفس الوقت قامت حملة بحرية جديدة أمام الإسكندرية مع تعليمات مطابقة لأوامر اللجنة الجديدة. وبعد 15 فبراير أوقفت هذه البحرية كل السفن مهما كانت مزودة بتصاريح مرور من سيدني سميث والصدر الأعظم. وفي يوم 26 فبراير وصلت رسالة من السير سيدني سميث أخبرت الجنرال كليبر بالأمر الجديد، ودعته إلى التحلي بالصبر مدعية أن الحكومة كانت قد خدعت، ولكنه لن يتوانى عن تغير الرأي وإرسال الأوامر اللازمة. استسلم كليبر للسخرية، ومع ذلك أصبح موقفه بشعًا، فقد أخلى كل المعاقل وترك أبواب الصحراء مفتوحة. وكان جزء من جيشه قد رحل إلى رشيد والإسكندرية، وتم إخلاء المعدات وذخائر الحرب من الجيزة، وتم نزع السلاح عن قلعة القاهرة. وكان يحكم القاهرة أحد باشوات الصدر الأعظم، وكان يجب على الفرنسيين تسليم القلعة والحصون يوم 14 مارس. فاجتمع مندوبون فرنسيون وانجليز وأتراك في المطرية، وعمل السير سيدني سميث ما كان ضروريًا لتسهيل الصعوبات، ولكن الأتراك أرادوا الاستيلاء على العاصمة في 14 مارس وفقًا للاتفاق، ولم يريدوا منح المهلة التي طلبها الفرنسيون الذين تصوروا أنهم لو تركوا القاهرة قبل أن تتاح لهم حرية المرور في البحر، فسيضيعون. أجاب الصدر الأعظم أنه قد أعطى الأوامر، وأنه وفر السفن الضرورية لعبور الجيش، وأن

الصعوبات التي يضعها الإنجليز لا تخصه. ومع ذلك، فهو يوافق على بقاء الفرنسيين في الدلتا والإسكندرية حتى وصول أوامر من لندن.

وكان كليبر قد بدا مترددًا عندما أعلنوا له وصول لودي (Lodi) إلى دمياط مع الجنرال جالبو (Galbaud)، وأوزيريس (Osiris) إلى أبو قير وعلى متنها العميد لاتور- موبور (Latour-Maubourg) الذي وصل إلى القاهرة يوم 4 مارس. وأحضر معه في نفس الوقت خبر وصول نابليون إلى أوروبا، وترقيته إلى رئيس الحكومة، ودستور العام الثامن الجمهوري، ورسالة وزير الحربية المؤرخة بتاريخ 12 يناير، والإعلان المرفق التالي:

"أيها الجنود، يهتم قناصل الجمهورية دائمًا بجيش الشرق، وتعرف فرنسا كل تأثير الفتوحات لاستعادة تجارتها وإحياء حضارة العالم. كل أوروبا تنظر إليكم، وإنني دائمًا أفكر فيكم أيًا كان الموقف الذي تضعكم فيه ظروف الحرب. كونوا دائمًا جنود ريفولي وأبو قير، ولن تقهروا. امنحوا كليبر هذه الثقة التي لا حدود لها، والتي سبق أن حظيت بها، فإنه جدير بها. أيها الجنود، فكروا أنه في يوم من الأيام سوف ترجعون منتصرين إلى الأرض المقدسة، وسيكون يوم فرح ومجد للأمة بأسرها".

وقد حملت هذه الكلمات نشوة وحماس الجنود إلى أقصى درجة، لكن كانوا يرددون لأنفسهم:

"يغمرهم العار، وأعلامنا لطخت بالاستسلام، بأي وجه سنلقى قائدنا؟"

وقد أدرك كليبرمن جانبه، كم كان موقفه حرجًا الآن، ولم يبق أمامه إلا الانتصار، فقد كان يكن كراهية خاصة لحكومة الإدارة، وكان قد فرح لسقوطها. فإن كليبر لم يكن إلا جمهوريًا، ولم تمر أربعة وعشرون ساعة إلا ولوحظ في المعسكر أن ترتيبات القائد العام قد تغيرت. وفي اليوم التالي لوصول لاتور- موبور (Latour-Maubourg) تم البدء في تسليح قلعة القاهرة، والحصون والجيزة، وتم إنزال المدفعية إلى البر، وكان قد تم من قبلُ شحنها. والقوات والمخازن التي كان قد تم ترحيلها عن ميناء الإسكندرية، عادت نحو العاصمة. وفي أثناء شهر مارس امتلأ النيل بالزوارق التي تحمل الفرق وذخيرة الجيش إلى القاهرة. وعندما انتهت كل هذه الاستعدادات، قرأ القائد العام في 17 مارس مساءً أمر اليوم كما يلي بهذه المعنى:

على متن سفينة صاحب الجلالة البريطانية الملكة شارلوت مينوركا، في 8 يناير 1800:

"سيدي،

تلقيت أوامر مؤكدة من صاحب الجلالة الملك بعدم قبول أي اتفاق مع الجيش الفرنسي تحت قيادتكم في مصر وسوريا، إلا في حالة وضع السلاح، واستسلامه كأسير حرب، وترك جميع السفن وكل الذخائر في موانئ ومدينة الإسكندرية للدول المتحالفة. وفي حال حدوث الاستسلام عدم السماح لأية قوة بالعودة إلى فرنسا إذا لم يتم تبادلها. وإنني أعتقد أنه لزامًا عليّ

أن أحيطكم علمًا بأن جميع السفن التي على متنها جنود فرنسيون وتبحر من هذا البلد، وفق جوازات وقعت من غير الجهات التي لها الحق في منحها، سيجبرها ضابط السفن التي أقودها للعودة إلى الإسكندرية. وإن السفن التي سوف تقابل عائدة إلى أوروبا وفق الجوازات الممنوحة نتيجة الاستسلام الخاص مع أحد الدول المتحالفة، سيتم الاستيلاء عليها، وسيعتبر جميع الأفراد الموجودين على متنها سجناء أسرى حرب.

توقيع الأميرال كيث."

وكان رد كليبر:

"أيها الجنود، لا يرد على مثل هذه الوقاحة إلا بالانتصارات، فاستعدوا للقتال!"

لذلك كان هذا الخطاب بتاريخ 26 سبتمبر 1799، والمكتوب لتبرير الجلاء عن مصر، سببًا في الإبقاء عليها، فإنّ سوء نية الحكومة الانجليزية قد أنقذت شرف هذا الجيش الشجاع.

وفي يوم 19 مارس، كتب الجنرال العام إلى الصدر الأعظم هذه العبارات:

"لا يجد الجيش الذي كلفت بقيادته في المقترحات التي قدمت من جانب سعادتكم ضمانة كافية ضد الادعاءات المهينة، والمعارضة الرسمية من جانب الحكومة البريطانية في تنفيذ اتفاقنا، وبناء عليه اتخذ مجلس الحرب هذا الصباح قرارًا برفض تلك المقترحات، وأن مدينة القاهرة وكذلك الحصون ستظل محتلة من القوات الفرنسية إلى أن يصلني مباشرة من القائد العام رئيس الأسطول الانجليزي في البحر المتوسط، رسالة عكس التي وصلتني بتاريخ 8 يناير، وأن أجد بين يدي جوازات السفر وقع عليها الذين لديهم الحق في إعطائها. وبناء على ذلك، فإن جميع المؤتمرات اللاحقة بين مفوضينا تصبح غير مفيدة، ويعتبر الجيشان منذ هذه اللحظة في حالة حرب. إن الولاء الذي أبديته في التنفيذ الدقيق لمعتقداتي يوضح لسعادتكم مدى الأسف الذي يسببه لي إخلال غير عادي في هذه الظروف ضد المصالح المشتركة للجمهورية والباب العالي. ولقد برهنت بما فيه الكفاية لكم كانت رغبتي أن أرى تجديد علاقات المصلحة والصداقة التي كانت تربط بين البلدين منذ فترة طويلة. وقد بذلت ما فيه الكفاية لتوضيح نقاء نواياي، والتي سوف تحييها كل الدول، وسوف يساند الله بالنصر صدق دعواي، وأن الدماء التي نحن على استعداد لإسالتها سوف تنصب على واضعي هذا الخلاف الجديد.

وأنبه سعادتكم أنني سأحتفظ بمعالي مصطفى باشا رهينة في مقر الهيئة العامة حتى رجوع الجنرال جالبو (Galbaud)، المسجون في دمياط، إلى الإسكندرية مع عائلته وأتباعه، وأن يكون قد استطاع إفادتي عن المعاملة التي تلقاها من ضباط الجيش العثماني، والتي وصلتني عنها تقارير في غاية الغرابة.

إن حكمة معاليكم المعتادة سوف تجعلكم تميزون بسهولة من أين تأتي هذه الغيوم التي تتصاعد، ولكن لا يوجد ما يسيء إلى التقدير السامي والصداقة المخلصة التي أكنها لسموكم".

سابعًا: أحدث الإعلان الرائع للجنرال كليبر كل تأثير ممكن على الجيش الذي لم يعد يعبر إلا عن شعور كبير بالثقة في النجاح، والرضا بالحفاظ على الشرف وراياته التي كتبت عليها أسماء الكثير من الانتصارات بحروف من ذهب.

وقد توقع الضباط الإنجليز الذين كانوا في معسكر الوزير ما كان سيحدث، وبذلوا كل جهودهم لإقناع الأتراك بمد الأجل مدة شهر واحد، لكنهم كانوا فخورين بكثرة عددهم، ومتأكدين من استعدادات جزء من شعب القاهرة ومصر السفلى، وخاصة المنصورة، لا لم يريدوا سماع شيء. وقرر الصدر الأعظم تنبيه الجنرال الفرنسي حين ألقى بجيشه إلى القاهرة. كانت قوة الجيش الفرنسي 15000 (خمسة عشر ألف) رجل من المشاة والمدفعية والفروسية على ساحة القتال، وكان 9000 (تسعة آلاف) في القاهرة وفي الدلتا. وكانت ميسرة الجيش تحت قيادة الجنرال رينيه، وتتكون من لواءين، ويضم كل منهما كتيبة تحت إمرة الجنرال روبان (Robin)، وأخرى تحت أمرة الجنرال لاجرانج. وكانت ميمنة (الجيش) بقيادة الجنرال فريان (Friand)، وتتكون من لواءين تحت إمرة الجنرال بليار ودونزلو. وكان يقود سلاح الفروسية العميد ليكلير، وكانت المدفعية من ستين مدفعًا، واصطف سلاح المشاة في أربع مربعات على بعد مسافة الانتشار، والمدفعية والفروسية فيما بينهما. وكانت نصف سرية في الاحتياطي، وواحدة في القاهرة، وواحدة في الجيزة، واثنتان في الإسكندرية، وواحدة في رشيد، وواحدة في الدلتا. وفي الساعة الثالثة صباح يوم 19 [مارس]، بدأ كليبر الزحف من القبة إلى المطرية. وكان جيش الصدر الأعظم قوته 60000 (ستون ألف) رجل، منهم 15000 (خمسة عشر ألفًا) رجل كانوا ملحقين في بلبيس والصالحية ودمياط ومصر العليا، و45000 (خمسة وأربعون ألفًا) كانوا في ساحة القتال، و20000 (عشرون ألفًا) كانوا من البدو أو الميليشيات التي انضمت إليه منذ دخوله البلاد. وكان لديه أربعون قطعة مدفع، منها عشرون مقطورة، والبقية في ميادين رشيد والصالحية. ومع بداية النهار، التقت فرقة رينيه في المطرية مع الطليعة، واستولت على القرية بعد صراع محدود. وقد اصطف الجيش للمعركة قدمًا، وابتعدت الميسرة هكذا عن النيل، واستفاد من ذلك نادر باشا، وإبراهيم بك، على رأس 6000 (ستة آلاف) رجل من سلاح الفروسية، وصارا نحو عالية النيل، واندفعا إلى القاهرة، وأعلنا انتصار فريقيهما وهزيمة جيش الكفار. وقد كانت الانتفاضة قد أعدت من قبل، وانفجرت في كل الأحياء في نفس الوقت.

ومع ذلك هرع الصدر الأعظم لمساعدة طليعته التي كانت على مرمى من مدفعية الجيش الفرنسي، وأحاط فرسانه المتعددون بالمربعات، يدورون أنصاف دوائر من حولها، ولكنهم لم يهجموا. وأصابت قذائف المدافع والرصاص والشظايا الجيش بكثير من الخسائر، فقد كان هناك فرق كبير بين قوة هذه الفرق وقدرة المماليك في الأهرام. وقع بين أيدي هؤلاء البرابرة ستون جريحًا فرنسيًا، وقطعوا رؤوسهم وطافوا بها على أسنة الحراب كما فعل البارثيون (Parthes) برأس كراسوس (Crassus). وقد أدهش هذا الاستعراض الجنود للحظة، لكن عندما بدأ

الهجوم، اختفى كل هذا الجيش، وهرب بسرعة إلى الخانقاة. وفي هذه القرية الكبيرة، وصل إلى علم كليبر انتفاضة القاهرة، وأرسل إليها الجنرال لاجرانج ومعه لواء. وفي يوم 20 (مارس) زحف الجيش الفرنسي إلى بلبيس، واستسلم الحصن بعد بضع ساعات من القذف بالمدافع. ولم يتوقف الصدر الأعظم في مكان ما، فترك معسكره في الصالحية منتصبًا لا يزال، و[ترك] أمتعته مندفعًا عبر الصحراء ليصل إلى غزة مع ما يقرب من 5000 (خمسة آلاف) من الرجال. وفقد في هذه المعركة 9000 (تسعة آلاف) رجل بين قتيل وجريح وأسير، وتفرق الباقون ومن بينهم البدو والميليشيات من المصريين الذين عادوا إلى قراهم. وقد وقعت مدفعيته وأعلامه الأربعة وخيامه في قبضة المنتصر. ومن الصالحية اتجه الجنرال بليار مع لوائه إلى دمياط، وهاجم الفرقة التركية التي سيطرت عليها وهزمتها في ساحات الشُعراء (El-Choa'rah)، ودخل دون مقاومة في لسبيه، ووجد فيها اثني عشرة قطعة مدفع، بخلاف المدفعية التي تركها الفرنسيون.

ولم يكن هناك منازعة في معركة هليوبوليس، ولم يقدم جيش الصدر الأعظم أية مقاومة، ولم يكن جيشه على مستوى جيش جبل طبور، فتحققت نبوءة مراد بك. وشملت خسائر الفرنسيين مئة وخمسين رجلاً بين قتيل وجريح وأسير، وشارك ربع الجيش فقط، وهكذا تحقق ما قاله ديزيه من قبل: "يستطيع [الجيش] بواسطة ثلاثة آلاف فرنسي أن يهزم هذه العصبة الصاخبة".

وقد بددت المعركة الوهم الذي تغلب على القائد العام عن قوة وقدرة العثمانيين، وأدرك أن هذا الجيش المتواضع لا شيء يجمع بينه وبين مسلمي سليمان وسليم وبايزيد.

ثامنًا: عاد كليبر يوم 26 [مارس] إلى القاهرة، ولم تكن قد وصلت معدات المدفعية التي تم ترحيلها إلى الإسكندرية، وكانت الانتفاضة في كل المدينة، وتم إغلاق كل منافذ الشوارع بجدران ضخمة من صفين من الفتحات، واستندت إلى منازل استخدمت أسطحها كساحات للقتال. وظل مراد محايدًا في أثناء معركة هليوبوليس، وكسب بهذا السلوك ثقة الجيش الفرنسي، ولكن [ذلك] - جعله في نفس الوقت - يخسر ثقة الصدر الأعظم. واستسلم مراد بك إلى الجمهورية التي منحته لقب سلطان فرنسي، وحصل على محافظتين في الصعيد كمالك إقطاعية جمهورية، مقابل سداد مئة من الذهب والقمح (ذرة صفراء في تركيا) سنويًا، ووعد بتوفير مجموعة من المماليك للقتال مع الجيش الفرنسي. وفي أثناء حصار القاهرة، بقي في إقليم العاطفية، وقطع اتصالات سوريا مع الباشا الذي أرسله الصدر الأعظم إلى مصر العليا، وقام بإمداد المحاصرين وساعدهم بقوة نفوذه في المدينة، وبقي عثمان، أحد أتباعه من البيكوات، مندوبًا له في مقر القيادة العامة.

وهجم الجنرال الميرا (Almeras) على الحي القبطي في يوم 2 أبريل، واستولى عليه. وبدأ كل من القلعة وحصن ديبوي برمي القنابل وإطلاق كرات المدافع الحمراء. وطلب كل من نادر باشا وإبراهيم بك الاستسلام، ولكن ثار ضدهم الشراكسة ومن كان معهم في المدينة من المماليك والمغاربة، فأصروا على الدفاع عن أنفسهم. وفي يوم 14 أبريل، هجم الفرنسيون على بولاق واستولوا عليها، وتم تدمير هذه البلدة البائسة، وكانت المجزرة فيها مروعة. وفي اليوم التالي استولى الجنرال رينيه على مشيخة أبو قير. وفي يوم 17 (أبريل) وصلت المعدات إلى الإسكندرية، وكان الهجوم من كل جانب. وتم إشعال النار في لغم أسفل بيت زوجة مراد بك، وتم دفن 300 (ثلاثمئة) تركي تحت الأنقاض كانوا يدافعون عنه. واندلع الحريق في نفس الوقت في عدة أحياء، وتساقطت القنابل والقذائف في كل مكان، وهو ما غير من استعدادات الشعب الذي أدرك حكمة قادته وقبل الاستسلام وكان قد استخف به قبل بضعة أيام. وخرج نادر باشا ومراد بك ومعهما 4000 (أربعة آلاف) رجل تحت حراسة فرقة رينيه، وعبروا الصحراء من أجل اللجوء إلى سوريا. ولحق بهم ثلاثة آلاف من السكان الذين كانوا يخشون انتقام المنتصر. وفي يوم 24 (أبريل) احتلت المخافر الفرنسية الأبواب، وفي يوم 25 تم إزالة الحواجز ودفن الموتى وتطهير المساجد. ودخل كليبر في موكب الفائز من باب النصر على رأس الجيش. وخلال المعركة التي دامت خمسة وثلاثين يومًا كان الجيش قد فقد ألف رجل بين قتيل وجريح وأسير، بينهم 300 (ثلاثمئة) من أبناء البلد.

وتقابل مراد بك والجنرال كليبر في الجيزة يوم 29 أبريل، وتبادلا آيات التقدير والاحترام. وكان مراد بك أصغر بكثير من الجنرال الفرنسي، وقال له عندما رآه: "هذا هو أوسم مسيحي رأيته". وفي اليوم التالي سافر إلى الصعيد وكان وفيًا لأسياده الجدد، وأخضع كل مصر العليا، وطرد منها كل عملاء الصدر الأعظم، ما أتاح السيطرة على حشد الجيش.

وقد استحقت القاهرة الجزاء، وأمر القائد العام المدينة بسداد ضرائب قدرها اثنا عشر مليون مساهمة. وكانت ثمانون سفينة تركية، ترافقها أربعة فرقاطات، قد دخلت إلى ميناء الإسكندرية في شهر فبراير لنقل الجيش الفرنسي إلى فرنسا، [إلا أنه] تمت مصادرتها وبيع البضائع التي تحملها، وذلك بعد الانشقاق (rupture) الذي حدث. وقد كانت العاصمة موردًا هامًا لبيت المال، لكنها عانت بشكل هائل، ولم يعد يُرى فيها غير الأنقاض، وكان البؤس شديدًا، وتدهور مظهرها بشكل ظاهر، ولم تعد هي نفس المدينة التي استقبلت فرحة انتصارات سوريا، والتي شاركت الجيشَ مصائره بإخلاص، وكان يسعى آملاً لإعادة قيام الوطن العربي.

تاسعًا: بعد انتصاره، اهتم كليبر دون كلل بالعمل على كسب ثقة الحكومة، ولم يهمل شيئًا من أجل تدعيم المستعمرة، وكان سلوكه عكس ما كان عليه من قبل، حيث كان المهندسون والقلاع التي شيدت حول القاهرة موضعًا لسخريته، لكنها أصبحت موضع اهتمامه، مقتنعًا بأنه لو كان سيد مصر للا بد، فلا يمكن من الآن انتزاعها إلا بقوة جيش إنجليزي عظيم. وربما يكون قد توسع كثيرًا في أسلوب التحصينات الذي أمر به وبداه سلفه، وسوف يفشل جيش من ثلاثين ألف إنجليزي في مواجهة مثل هذا الجنرال. وقد أدى سلوك الجنرال كليبر الجديد إلى الوفاق مع الجيش.

أما الضباط الذين كانوا وما يزالون يتمسكون بفكرة الجلاء، فقد أخفوا مواقفهم، وقام بطرد بعضهم. ولكن بقي السكان كارهين له، ومارس الصدر الأعظم خلال شهرين تأثيرًا كبيرًا، وصار الفرنسيون من جديد كفارًا غير أهل للثقة، ويُفترض أنهم كانوا يفكرون دائمًا في الرحيل. وعلاوة على ذلك، كان في إمكان كليبر الاستفادة من كل الوقت عندما ترك نفسه إلى تجاوز صار ذا عاقبة وخيمة؛ فقد قسم على رؤساء الشيوخ وملكيات المساجد جزءًا من الأعباء الضريبية، وكان لهذا الإجراء شعبية عند الجيش الذي كان يكره كبار المشايخ، وتعرض السادات لرسم إضافي في سداد الضرائب، وكان معروفًا عنه حقده الدفين تجاه الفرنسيين، لكنهم أسرفوا في إهانته لدرجة أنهم نسوا مقامه المستمد من نسبه ومولده، وألقي القبض عليه عندما رفض السداد، وتم سجنه في القلعة، فصم أذنيه عن كل التهديدات، وغضب كليبر وأمر بضربه بالعصا. وهكذا تم ضرب السادات بالعصا! وإنَّ مثل هذه الإهانة تمس سلالة النبي! ... وكان السخط عامًا بين رجال القانون، والعلماء والمؤذنين، وارتجف الشرق بأكمله. وقد كان هذا التصرف يتعارض مع أسلوب نابليون الذي كان رحيمًا بالسادات نفسه، وذلك في اليوم التالي لثورة القاهرة في عام 1798، حين ثبت أنه كان قائد الانتفاضة. وقد دفع كليبرغاليًا لتجاهل تلك السياسة ومخالفة تعليمات نابليون، فلم يتوان العلماء عن العثور على فرصة للانتقام، واستخدموها بقسوة. إلى ما يتعلق مصير الرجال والامبراطوريات!

وسليمان [الحلبي] ولد في حلب، وكان شابًا عمره أربعة وعشرون سنة، ودرس في الجامع الأزهر. ومنذ ذلك الوقت قام بأداء الحج مرتين إلى مكة، وفي بداية عام 1799 قام بزيارة القدس، وكان في هذه المدينة عندما وصل إليها الفارون من هزيمة هليوبوليس، والقادمون إليها من جميع الجهات، وقد عانوا كثيرًا من عبور الصحراء، وكانوا ساخطين ضد الكفار ويتهمونهم بسوء النية، "وقد نصبوا لهم فخًا" كما كانوا يقولون. وكانوا يتضرعون كل يوم في المساجد لانتقامٍ يُرضي نفوس المؤمنين ويخزي الكافرين. وكان أشمت (Achmet)، وهو أغا من الإنكشارية ولد في حلب، وكان من أكثر الحانقين، أشاد برأس مواطنه وأقنعه بأنه تم اصطفاؤه من قبل النبي لإنقاذ الكعبة المشرَّفة، وإعلان الحرب المقدسة ضد المخادع والماكر زعيم الأوثان. وبعد النجاح سيرسله إلى غزة إلى أغا من أصدقائه يرتبط بالجيش. وأقام سليمان في المسجد، واشترى خنجرًا، وانضم إلى قافلة للصابون والتبغ تعبر الصحراء، ووصل إلى القاهرة. وهناك مكث في الجامع الأزهر، وأسرَّ بمشروعه لأربعة من أصدقائه الذين يخدمون في المسجد لا يخرجون منه أبدًا. وفي الجامع الأزهر كان سليمان يقضي الأيام والليالي في الصلاة، ويغطى الحرم بالآيات القرآنية التي لها علاقة بمشروعه. وقام بثلاث رحلات إلى الجيزة ليعرف السلطان والمكان، وبدا له أن تنفيذ خطته صعب فشعر بالانقباض. وانتهت الأربعون يومًا التي أتيحت إليه، وذهب عند الدكتور مصطفى، وهو مواطن من بيثينا (Bithynie)، وكان شيخًا يبلغ من العمر ثمانين عامًا، وهو معلمه السابق، وكان متعمقًا في الأمور المقدسة. ولسوء الحظ أنه كان يتحدث في ذلك الوقت عن الحرب

المقدسة، وأنها أكثر الأعمال جدارة وضمانًا لطريق الخلاص. وقد أشعلت أحاديثه الصوفية تعصب سليمان من جديد، فعبر المدينة وذهب إلى مسجد الجيزة وبات هناك. وفي اليوم الثاني وصل إلى الميناء، وبينما كان كليبر مبحرًا، تبعه [سليمان] في قارب، وحضر عرضًا عسكريًا في جزيرة الروضة، وتم طرده عدة مرات من المجموعة التي كانت تحيط بالجنرال العام، فتبعه إلى ميدان الأوزبكية، وأراد الدخول إلى حديقة المقر العام فتم طرده، ومع ذلك تمكن من الدخول إليه، وشرع فيه بالصلاة، وقضى هنالك مدة ساعتين في التعبد. وبعد ذلك الوقت، انتهز اللحظة عندما كان كليبر وحده، ورمى بنفسه على ركبتيه، وقدم له عريضة. وفي في أثناء قراءة الجنرال لها، طعنه بخنجره أربع طعنات؛ الأولى عبرت القلب، والثانية ضربت يده، وكانت الثالثة في الذراع، والرابعة في الفخذ. وجاء المهندس بروتان (Protain) فجأة وأمسك به القاتل وطعنه ست طعنات، وألقى به على الأرض بجوار جثة كليبر. وبدلاً من الهرب، بدأ سليمان يصلي، واستدار بوجهه إلى الشرق على بعد عشرين قدمًا من المكان من وراء جدار. وكان مساعد الخدمة يبحث عن الجنرال كليبر، ووجده بالفعل جثة هامدة. وتم إطلاق النفير، وأسرع الجيش لحمل السلاح، واليأس والغضب يملأ كل النفوس. ودخل المرشدون المنزل والحديقة، وقادت آثار الدماء قائد الضباط المناوب إلى المكان الذي يصلي فيه سليمان. واستجوبه فأجاب سليمان بهدوء وسكينة، وعرض عليه الخنجر الدامي. وتنكر له. وتذكر ضابط سلاح الفرسان أنه قد شاهده [من قبل] خلال العرض في جزيرة الروضة، لكنه لم يكن متأكدًا من ذلك. ولم ندرك ما العمل، لكن بروتان الذي لم تكن إصابته مميتة عاد إليه وتعرف عليه. وبعد فترة وجيزة اعترف الجاني وذكر اسم شركائه، وتم تقديمهم أمام لجنة عسكرية مكونة من: اللواء رينيه، والعميد روبن (Robin)، وقائد القوات البحرية لو روا (Le Roy) والضابط القائد العام مارتينيه، والقائد العام موران، وقائد فرقة المشاة جوجيه، ورئيس المدفعية فور (Faure)، واللواء برتران، وقائد لواء الهندسة والمفوض سارتلون (Sartelon) قائمًا بوظيفة المقرر. وقد حكم عليه بالإعدام والرفع على الخازوق، أما الدارسون فقد تم قطع رؤوسهم، وأدين الرابع غيابيًا. وحُكم ببراءة الشيخ العجوز الذي تم استجوابه، وعندما سؤل عن الحرب المقدسة، قال إن النبي أمر بها ضد المشركين، لكن الفرنسيين والمماليك والأتراك لا يعتبرون في تلك الحال.

هكذا بواسطة خنجر متعصب، مات وعمره سبعة وأربعون عامًا قائد جيش كبير، ومحارب مشهور، بين جنوده الذين أحبوه، وكانوا على استعداد ليلقوا حتفهم جميعًا لإنقاذه. وفي نفس اليوم، وفي ذات اللحظة، لقي ديزيه مصرعه على بعد ألف فرسخ من هذا المكان في معركة مارينجو، وكان حزن الجنود صادقًا.

وكانوا سيصبحون أكثر حزنًا لو أنهم توقعوا ما سيحدث عام 1801.

وقد تم دفن كليبر في موكب مهيب في أحد معاقل مزرعة إبراهيم بك، وألقى مهندس الرياضة فورية (Fourier) مرثية له.

هل كان الصدر الأعظم وراء هذا الاغتيال؟ لا توجد أية أدلة على ذلك، فلم يذكر اسمه في تلك القضية، ورفض الاتهام بغضب واستنكار، وكان الأغوات المشبوهون من آغوات حلب قد خدموا في جيشه، ولكن لم يكن لهم علاقة به. وهل كان يعلم كبار شيوخ القاهرة بوجود سليمان في الجامع الأزهر؟ وهل استطاع سليمان البقاء في الأزهر واحدًا وثلاثين يومًا داخل المسجد، وهو يصمم على القتل، دون أن يعلموا بذلك؟ وفي أثناء المحاكمة، وعندما أراد المقرر أن يستجوب أحد المتهمين عن علاقاته بالشيوخ، صرح بأن الشيخ الشرقاوي لم يكن يعلم شيئًا، وأنه يفضل الموت على أن يتهم رجال الدين. فهل كان العلماء على علم بما كان يدبر سليمان، وكانوا قد تلقوا الآيات التي كان يضعها يوميًا في حرم المسجد؛ فهي التقاليد. لكنهم كانوا عطشى للانتقام، وكانت معاملة الشيخ السادات قد نغصّتهم، فأرادوا تجاهل كل شيء!

الفصل الرابع عشر

مصر في عهد مينو

أولا: إدارة الجنرال مينو. ثانيًا: تراجع الوزارة البريطانية عن أوامر المجلس في 17 ديسمبر1799، التصديق على اتفاقية العريش. ثالثًا: مقر وحصار مالطة في 1798 و1799، استسلام هذا الميدان في 5 سبتمبر 1800. رابعًا: قرارات القنصل الأول السياسية للقيام بعمليات إلهاء في صالح جيش الشرق. خامسًا: التحركات البحرية. سادسًا: حالة أوروبا تدفع الوزارة الإنجليزية للشروع في غزو مصر. سابعًا: خطة معركة الوزارة الإنجليزية، جيش الجنرال أبير كرومبي، فرقة الهند، فرقة الاحتياطي، جيش الصدر الأعظم، فرقة قبودان باشا. ثامنًا: رسو الجنرال أبير كرومبي في مرفأ أبو قير أول مارس 1801، النزول إلى البر في 8 مارس. تاسعًا: حالة الجيش الفرنسي، مناورة الجنرال مينو، معركة يوم 13 مارس، استسلام قلعة أبو قير 18 مارس. عاشرًا: معركة المعسكر الروماني 21 مارس، وفاة الجنرال العام الإنجليزي أبير كرومبي. حادي عشر: وصول قبودان باشا إلى أبو قير في 26 مارس مع ستين ألف رجل، الاستيلاء على رشيد في 8 أبريل، استسلام قلعة جوليان 19 أبريل. ثاني عشر: هدم جسر بحيرة المعدية وتكوين بحيرة مريوط 13 أبريل، معركة الرحمانية في 9 مايو. ثالث عشر: زحف الصدر الأعظم عبر الصحراء، وصوله في 27 أبريل إلى الصالحية، معركة الخانقة 16 مايو. رابع عشر: حصار القاهرة في 20 يونيو. خامس عشر: استسلام القاهرة في 25 يونيو. سادس عشر: زحف فرقة الهند من هندستان إلى الإسكندرية. سابع عشر: حصار الإسكندرية 10 أغسطس. ثامن عشر: استسلام الإسكندرية (2 سبتمبر 1801). تاسع عشر: محاولة الإنجليز في 1807 ضد مصر. هزيمتهم فيه. عشرون: ملاحظات.

أولاً: تولى الجنرال مينو قيادة الجيش مؤقتًا، فقد كان عضوًا في الجمعية التأسيسية، وصوَّت مع أقلية النبلاء المحظورة منذ ذلك الوقت في عهد لا مونتني (La Montagne)، ولجأ إلى جيش الجمهورية الفاندية (Vendée)، وخدم فيه كقائد فرقة، وأصيب بجروح خطيرة. وبعد 9 ترميدور رقي إلى رتبة قائد عام جيش من الداخل، وتم عزله في 12 فنديمير 1795، وتمت محاكمته أمام لجنة عسكرية، وصدر الحكم ببراءته. وكان يأمل في المشاركة في حروب إيطاليا عام 1796، 1797، لكنه لم يستطع تحقيق رغبته. إلا أنه كان أكثر حظًا في عام 1798، فحصل على أوراق اعتماده في جيش الشرق، وكان أول من نزل على شاطئ المرابط، وصعد في مقدمة رماة القنابل إلى سور الإسكندرية، ورفع بيده علم فرنسا على البرج، وجرح. وتولى قيادة إقليم رشيد في أثناء حملة 1798، واعتنق الإسلام وتزوج من مسلمة في رشيد. كان يبلغ من العمر ستين عامًا، وكان ذا عقل راجح ومعارف واسعة، مُجدًا في العمل وإداريًا ناجحًا، بالرغم من أنه كان صلفًا. ولم يتولى قيادة جيشًا إلا في الداخل، إما لعدم ثقته في قدراته، أو لتواضعه، وقد عرض على الجنرال رينيه منصب القائد العام وكان أقدم الجنرالات من بعده، لكن هذا الأخير رفضها بحق، فقد كان القانون صارمًا.

وولد الجنرال رينيه في لوزان (Lausanne)، في بلدة فو (Vaud)، وتعلم ليصبح مهندسًا - جغرافيًا، فعرف الخرائط جيدًا، وقام بحروب جيوش الشمال ونهر الراين، واكتسب الصيت كرجل استشارات مفيد. لكنه يفتقر إلى صفات القائد الضرورية؛ فقد كان يميل إلى الوحدة، عديم التأثير، ورجلاً كتومًا لا يكشف عن مكنونه إلا قليلاً، ولا يعرف استثارة حماس الرجال والهيمنة عليهم.

وقد وصل خبر وفاة كليبر إلى أوروبا في أكتوبر، وفكر القنصل الأول للحظة في استدعاء مينو، ورينيه، وتكليف لانوس بالقيادة العامة، فقد كان الأقدم من بعدهما. وكان قد بدأ حياته المهنية في البيرينيه الشرقية (Pyrénées-Orientales)، وتميز في أثناء حروب إيطاليا. كان بارعًا أمام العدو، ذا حماس ملتهب، وشخصية حازمة ونشطة، ومقدامًا في أوج العمر. ولكن متى وكيف كان يمكن أن يصل هذا التعيين إلى مصر؟ فمع كل تقدير كان هناك مزيد من المساوئ لو تم تغيير النظام الطبيعي عن التخلي عنه. لم يكن لدى القنصل العام في ذلك الحين فكرة عن غياب كل الصفات الحربية التي عرفت عن مينو، والذي كان يعارض اتفاقية العريش، وكان يبدو مقبولاً من أهالي البلاد، والذين اعتنق دينهم، ولم يكن موضع نقد من أحد في شخصه ومعارفه ونزاهته واستقامته. ودون شك كان الجنود يسخرون من عبد الله مينو الذي يصلي مُوليًا جهة الشرق، والذي كانت امرأته منتقبة الوجه. لكن سنه، وشجاعته الفائقة، والبريق الذي ينعكس عليه، حيث كان واحدًا من آباء الحرية الفرنسية، وتعلقه بنابليون الذي كان يظهرها بكل حماس، كل ذلك جعله يستميل تأييد الجيش. وقد أبعد إلى فرنسا كل سيئ النوايا الذين كانوا يدافعون عن فكرة الانسحاب، وبعد أسابيع من توليه القيادة كان قد قضى على التحزب، وجمع شمل الجيش.

لم يتم تحصيل غرامة الاثني عشر مليونًا التي كان كليبر قد فرضها على مدينة القاهرة، وحصَّلها بدقة. وتم مصادرة ثمانين سفينة تركية وحمولاتها في ميناء الإسكندرية، والتي لم يكن تم بيعها بعد، وحصَّل عنها خمسة ملايين للخزينة العامة. ووصل ارتفاع مستوى النيل أعلى من السنوات الأخرى، وكان الحصاد أكثر وفرة أيضًا، والمساهمات أكثر أهمية، وتحسَّن تحصيلها. وقضى استيف (Estève)، مدير الشئون المالية، وهو شاب شديد الحماس، على الكثير من التجاوزات، وصحح الإدارة الملتوية للأقباط. وازدادت ضرائب السويس أكثر هذا العام بوصول كميات كبيرة إليها من البن والبضائع من الجزيرة العربية، وسددت القافلة الكبيرة من أفريقيا عن خمسة عشر ألف جمل مبالغ ضخمة إلى جمارك أسيوط. وكانت مصادر الدخل أكثر إنتاجية، وقد شعرت الإدارة بهذا الرخاء، وتم سداد جميع حسابات الجيش، وتزويده بملابس أنيقة، وتحسين تغذيته. وتم تزويد المستشفيات والمحاجر الصحية بكل ما تحتاجه. وتم تجهيز سلاح الفروسية والمدفعية جيدًا، وحصلت المدفعية على مئة قطعة مدفع مقطور، وضعف المؤن. وتم تزويد فريق المرشدين بالكامل، وأوحى في الصحراء رعبًا نافعًا. ووفرت

احتياجات الجيش طواحين الهواء، ومخازن البارود، ومصانع الأقمشة، ومؤسسات أخرى كان يديرها كونتيه (Conté)، وقد تعلم السكان بضع كلمات من اللغة الفرنسية، وتعلم الفرنسيون كلمات عربية، وكثير منهم كانوا يتكلمون بطريقة تفهم. وحصل مينو على ثقة الشيوخ أكثر من سلفه، فقد كان بريئًا من الإهانة التي تعرض لها السادات. وفي أثناء خريف عام 1800، جنحت على الشاطئ بين أبو قير والبرلس سفينة حربية تركية عليها أربعة وثمانون مدفعًا، وفرقاطة، وجنحت أيضًا حراقة (مركب حربي) انجليزية، وتم إنقاذ طواقمهما، مما أتاح عددًا كبير من الأسرى، ونتج عن ذلك الحصول على عدد كبير من المدافع، وكميات كبيرة من الخشب، وتم تبادل الأسرى مع الباب العالي.

وصل إلى مصر العقيد داماس (Damas)، مساعد الجنرال كليبر، والذي كان قد أرسله إلى فرنسا ليوضح سياسته وتفانيه أمام القنصل، ورجع إلى مصر بخبر انتصار مارنغو (Marengo) وحالة رخاء الجمهورية. وأقيم في القاهرة احتفال تأبين فاتح مصر العليا (ديزيه) الذي توفي في ميدان القتال في إيطاليا، في نفس يوم ونفس الساعة التي قتل فيها كليبر في مصر بخنجر قاتل حقير.

وقام هواة بتشكيل جمعية، وشيدوا مسرحًا في القاهرة، وواظب الشيوخ والعلماء على حضور العروض، وبد أنهم معجبون بها. وكانت ستصل فرقة من الممثلين لأداء الأوبرا والباليه، فقد كان مهمًا كل ما يدخل السرور على جيش فرنسي بعيد عن وطنه.

وكانت الاتصالات مستمرة في هذه السنة مع فرنسا، وتكاد الحقائب تصل مصر كل شهر تقريبًا. وقد منحت الحكومة جوائز إلى ملاك السفن الذين ينقلون إليها النبيذ والبضائع من أوروبا، وكان أسعار السلع هناك معتدلاً، فانتشر بين جيش الشرق حينئذ الإحساس بالألفة والارتباط بالحكومة والجمهورية، وبروح المجد والسعادة، والذي أنعش كل الشعب الفرنسي. وعند سماع أحداث مارنغو (Marengo)، وهوهينلندن (Hohenlinden)، ومينشيو (Municio)، لم يكن [الجيش] يشعر إلا مخافة أن يكون في المؤخرة، وكان يأمل بحماس في وصول جيش انجلترا ليحقق انتصارًا ما، ويظل على قدم المساواة مع الجيوش الأخرى.

ثانيًا: قام العميد سير سيدني سميث، الوزير المفوض لصاحب الجلالة البريطانية قبل الباب العالي العثماني، بإرسال اتفاقية العريش إلى لندن عن طريق الجنرال دوجلاس الذي كان نفس الضابط الذي حل محل العميد الملازم فيليبو (Phélippeaux) في عكا، وكان على دراية بقوة وروح ووضع الجيوش الفرنسية والتركية. ووصل [دوجلاس] إلى لندن خلال شهر مارس، واندهش بشدة من المفاهيم الخاطئة التي أضلت حكومته. ولم يكن للحكومة أن تقلل من رأي والمعلومات التي عرضها ضابط ممتاز على تلك الدرجة، قادمًا من الأماكن ذاتها. إذن

كانت رسالة الجنرال كليبر كاذبة؟ فهل كانت خديعة حرب؟ ولكن ما الهدف؟ وكيف فهمها؟ وبعد تفكير قليل لم يجد دوجلاس صعوبة في فك عقدة هذه الخدعة؟ واعتقد كليبر أن نابليون قد ضاع، وبدا من المستحيل له أن ينجو بفرقاطتين سيئتين لن تسلما من مراكب البحرية الإنجليزية، وكان يريد أن يعود إلى فرنسا بوسيلة الاستسلام. وكان الهدف من البرقيات المليئة بالادعاءات الكاذبة هو تهيئة حكومته وتبرير هذا التوجه. وكان دوجلاس قد قاد حصار العريش، وسبق أن تحدث مع ديزيه في مخيم الصدر الأعظم، وكان على دراية كاملة بالمؤامرات التي تمزق الجيش، وكان من السهل عليه أن يكتشف أخطاء عديدة. وتدعي برقية كليبر أن إبراهيم بك كان معه ألفان من المماليك، لكن إبراهيم بك الذي يشكل جزءًا من جيش الصدر الأعظم لم يكن معه سوى أربعمئة وسبعين، وكان قبودان باشا قد رسا - كما قال كليبر- في يافا مع حملة ضخمة، وكان جيش روسيا في الدردنيل، وكان كل ذلك كذبًا. ولم يكن من الصعب إذن تراجع الحكومة الانجليزية وإقناعها بأن المعلومات الواردة في هذه الرسالة كانت خاطئة، وأنه كان باطلاً أن الجيش الفرنسي مُرعب كجيش الصدر الأعظم.

وتوقع العميد دوجلاس ما حدث فعلاً، قائلاً:

"بمجرد أن عرفت الأوامر التي تلقاها الأميرال كيث من الجنرال الفرنسي بأنه سيهاجم جيش الصدر الأعظم ويقضي عليه ويطارده إلى ما وراء الصحراء، عرفت أن الفرنسيين قد أصبحوا اليوم في مصر أقوى من أي وقت مضى. ولكن ربما أن السير سيدني سميث، والذي كان له تأثير على الجنرال كليبر، كان سيزيل الشقاق بين الجيشين، وفي هذه الحالة يمكن إنقاذ كل شيء".

وأرسلت الوزارة بسرعة أوامر إلى الجنرال كيث في البحر المتوسط لتبلغه أنها صدقت على اتفاقية العريش، وتقول له بأن يسهل مرور الجيش الفرنسي. وقد تلقى هذا الخبر تعليمات جديدة يوم 17 أبريل في مرسى ليفورنو (Livourne)، وأرسل على الفور إلى سير سيدني سميث فرقاطة وصلت إلى قبرص في بداية شهر يونيو.

وقد استمر الأميرال كيث بأسلوبه من سوء النوايا، على الرغم من أن حكومته قد اعترضت على اتفاقية العريش، فطلب مع ذلك [ما يلي]: (1) أن يستسلم الجنرال كليبر والجيش كأسرى شفهيًا. (2) لا ينبغي أن يصلا إلى فرنسا في الوقت نفسه. (3) ألا يحملوا معهم بضائع. وقد كان هذا البند الأول عكس اتفاقية العريش تمامًا، فإن كليبر كان لديه رغبة ضعيفة في العودة إلى فرنسا، فلم يكن هو الرجل الذي يود العودة إليها مهانًا وقد حُطَّ من قدره. وكان الهدف من الشرط الثاني حال وصول جيش فرنسا في الوقت المناسب ليشارك في المعركة التي كان يتم الإعداد لها، ولكن كان هذا الرجاء هو الذي دفع كليبر للتوقيع. وكان الشرط الثالث يخفي خيانة؛ وذلك بحجة أن القافلة قد تحمل بضائع ممنوعة، فيحتفظ الأميرال بإمكانية حجز [الجيش] أكبر وقت يريده في سواحل جبل

طارق وماهون (Mahon). ولقد كانت جنوه (Gênes) محاصرة بالفعل برًا وبحرًا، وتجمع جيش انجليزي في ماهون، وكان بيت (Pitt) يأمل في الاستيلاء على طولون وإنشاء فانديه (Vendée) في بروفانس. لذلك كان من الضروري بالنسبة لخطط المتحالفين تأخير وصول جيش الشرق إلى فرنسا حسب رغبتهم، فإذا ركب البحر في يونيو1800، فسيتنقل بين ميناء وآخر، ويكون وصوله إلى فرنسا بعد مارينغو.

ولم يقدم سيدني سميث، والذي يعرف الأوضاع، أي اعتراض من الأميرال (الذي هو تابع له). وكتب إلى كليبر، في 19 يونيو، ليعلن له هذه الأخبار الطيبة، ويطلب منه أن ينفذ بغير قيد أو شرط اتفاقية العريش، أو اتفاقًا آخر يقوم على ذات الأسس. وحين وصلت الرسالة إلى القاهرة كان كليبر قد مات. وأجاب مينو إلى سيدني سميث بأسلوب يقضي على كل الآمال، وأعلن له وكلاؤه أن لغة القيادة العامة قد تغيرت، وأن وقت الدسائس قد انتهى من الآن فصاعدًا، ولا يمكن انتزاع مصر من فرنسا إلا بجيوش منضبطة، وكثيرة ومكونة قوات أوروبية. وقال مينو في رسالته:

"إذا كان هناك تفاوض وتوقيع لاستسلام دبلوماسي، فمن الضروري على الوزراء المكلفين من كلا الجانبين أن يكونوا مزودين بصلاحيات من حكوماتهم، أما هو، سيدي سيدني سميث، كوزير مفوض فإنه فقد صلاحيته، وأن الجنرال مينو نفسه ليس لديه صلاحيات، وأن الصدر الأعظم له الحق وحده – لمكانته - على التفاوض والتوقيع على اتفاق دبلوماسي. ومن الضروري إذن أن تكتب الحكومة الإنجليزية إلى القنصل الأول في باريس. وإذا كان هناك مسألة استسلام أو اشتراط حربي، فيجب قبل كل شيء هزيمة الجيش، وهو ما يُعتقد أنه أمر من الصعوبة بمكان".

وأنهت هذه البرقية مفاوضات اتفاقية العريش التي بدأت في شهر أكتوبر من العام السابق (1799)، وفقدت الحكومة الانجليزية فرصة هائلة، وأساءت إلى شخصيتها الاعتبارية كما هو الحال بالنظر إلى سلوكها، سواء إذا اقتصرنا على الشروط المحددة في خطاب الأميرال كيث بتاريخ 8 يناير، أو إذا فحصنا التفسيرات التي أدلى بها الوزراء في البرلمان، فإن سوء النوايا واضح، ولا يمكن الدفاع عن مجلس الوزراء من وجهة نظر السياسة والشرف والأمانة.

ثالثًا: بقي الجنرال فوبوها (Vaubois) حاكمًا لمالطة مع حامية من أربعة آلاف رجل، ومؤن ضخمة، وخاصة من القمح. وكان ينتظر من فرنسا موكبًا من ثمانية آلاف رجل كانوا ضروريين لاستكمال حاميته لتصل إلى اثني عشر ألف رجل. وكانت الاتصالات مع فرنسا حرة في أثناء أشهر يونيو وأغسطس وجزء من سبتمبر عام 1798، بحيث كان ممكنًا وصول التعزيزات، ولكن لم يتم إرسال شيء. وفي شهر أغسطس رسا العميد فيلنيف

(Villeneuve) في الميناء مع سفينة عليها مدفع عيار 80، وفرقاطتين. وقد وصل عدد طواقم هذه السفن إلى ألف وأربعمئة رجل، وكان هذا التعزيز ثمينًا للغاية، فسيرفع عدد الحامية إلى خمسة آلاف وأربعمئة رجل.

وقد كان ملك نابولي يستعد للحرب، وأرسل أوامر لإثارة سكان مالطة، وأرسل لهم الأسلحة والضباط والمال. وفي بداية شهر نوفمبر قام اللواء بحري البرتغالي، الماركيز دي نيزا (Niza)، بحصار الجزيرة، مع أربع سفن من وطنه، ورأى الجنرال فوبوه عندئذ أن من المناسب تركيز قواته في المدينة، والتخلي عن بقية الجزيرة للمتمردين، ولم تتم الموافقة عمومًا على هذا القرار. وكان المساعد العام برووو (Brouard)، وهو ضابط ذو مكانة متميزة، يريد البقاء مسيطرًا على هذه الجزيرة، وكان يعتقد أنه لا يزال ممكنًا إلزام السكان ونزع أسلحتهم. وعلى أي حال، في 16 نوفمبر [1799]، فإن الأميرال نيلسون الذي كان قد أبحر أمام المدينة، أنذر الحامية بالتسليم، ورد عليه فوبوه بازدراء، وكان قد تخلص من العديد من المدافع عديمة الفائدة، وغادر المدينة 10000 (عشرة آلاف) شخص، بعضهم طوعًا، والبعض بالقوة.

وبعد يوم 19 يناير 1799، اعتقد المتمردون أنهم منتظمون لدرجة مفاجأة المدينة، لكنهم فشلوا. وفي يوم 16 فبراير، قاموا بمحاولة أخرى فشلت أيضًا. وفي أثناء ذلك الشتاء تلقت الحامية بعض السفن من فرنسا، من بينها الفرقاطة لابوديز (*La Boudeuse*) القادمة من سواحل بروفانس. وفي 5 سبتمبر، قابل المركيز دي نيزا (Niza) في قلعة مانويل (Manoël) الجنرال فوبوهه، واقتنع بنفسه بتصميم الحامية على الدفاع عن المعقل حتى أقصى درجة.

وازدادت ثقة الحامية من جديد عندما وصل خبر ثورة برومير، ودستور العام الثامن، والأحداث السعيدة، وبعد ذلك تحسنت الأوضاع الداخلية في الجمهورية.

وقد أبحر العميد البحري بيريه (Perrée) من طولون في فبراير 1800، واستقل السفينة ليجينيريه (*Le Généreux*) وعليها مدفع عيار 74، وكانت فرقته تتكون من مركب حربي لنقل المتاع، وحراقتين محملتين بالمعيشة، ووصل إلى مستوى مالطة وطارد فرقاطة انجليزية. وكان ذلك من الخطأ، فقد التقى مع الأميرال نيلسون، وبعد معركة كانت من أكثر [المعارك] عنادًا، قُتل هذا العميد الشجاع، وتم الاستيلاء على سفينته.

ورغم أن عدد سكان المدينة انخفض إلى تسعة آلاف نسمة، فقد طرد الحاكم منها ثلاثة آلاف أيضًا. ولم يوافق الجنرال الانجليزي جراهام (Graham) على استقبالهم، وبقي هؤلاء البؤساء ثلاثة أيام على الزلاقة يموتون جوعًا، وتم طردهم من كلا الجانبين. وقد أثرت حالتهم في الفرنسيين، وأخذت المهندس فوبوه (Vaubois) الشفقة بهم، ففتح لهم أبواب المدينة.

وفي شتاء عام 1800، وصلت سفن مختلفة أتاحت الاستمرار في الدفاع، ولما كان متوقعا عدم إمكانية إطالة الدفاع، سعى فوبوه لإنقاذ الجيوم تل (*Le Guillaume Tel*). وتولى العميد البحري ديكريس (Decrès) القيادة، وخرج؛ فقد هوجم في النهار، وصمد في واحدة من أكثر المعارك البحرية المجيدة، لكنه سلم حين هاجمته سفينتا خط انجليزيتان وفرقاطة. وفي آخر شهر أغسطس أبحرت الفرقاطتان لاديان (*La Diane*)، والجيستيس (*Justice*) كذلك، وتم الاستيلاء على الأولى، وتمكنت الثانية من الوصول إلى طولون.

وأخيرًا في 5 سبتمبر 1800، وبعد عامين من الحصار، كانت المخازن فارغة تمامًا، واستسلم الجنرال فوبوه، وغادر الموقع مع أمجاد الحرب، ولم يتم أسر الحامية، وانتقلت إلى طولون.

ولو كان قد تم إرسال جزء من التعزيزات التي طلبها نابليون عند مغادرته مالطة، وهو ما كان من السهل خلال الأشهر الثلاثة الأولى من الاحتلال، لكان فوبوه قد بقي سيدًا للجزيرة بأكملها، ولكان قد حصل هنالك.من قبل على العديد من الموارد للمعيشة، فجعل التموين ممكنًا. لكن حكومة الإدارة لم تهتم، وضاعت الفرصة على الجمهورية لضمان هذا الفتح الهام.

وبمجرد أن وصل إلى لندن استسلام جزيرة مالطة، فإنَّ الجنرال كيث، والذي كان يحوم في البحر المتوسط، تلقى الأمر بإنزال جيش الجنرال أبير كرومبي فيها. واستقر فيها الجيش وجنَّد خمسمئة أو ستمئة من سكان مالطة، ورحل في ديسمبر إلى ميناء ماكري، وخيم لمدة شهرين على ساحل آسيا الصغرى، ورحل منها لبدء حملته على مصر.

رابعًا: في شهري أغسطس وسبتمبر كان المبعوث الفرنسي أوتو (Otto) قد تفاوض في لندن على الهدنة البحرية، والتي كان يمكن أن تكون مفيدة لمالطة ولمصر؛ [وذلك على أنَّ] ست فرقاطات قديمة صنعت في فينسيا، هي أطول وأوسع من الفرقاطات الفرنسية، سوف تحمل إلى مصر أربعة آلاف وثمانمئة مجند، وخمسة عشر ألف بندقية، وقذائف وذخائر حربية، وكل ما قد تحتاجه المستعمرة. وقد كان هدم الفرقاطات نفسه مفيدًا لتحصينات الإسكندرية، لكن الحكومة الانجليزية التي تخلت في الشدائد عن حليفتها النمسا، رفضت عقد هذه الهدنة، ووجد الامبراطور نفسه مجبرًا للحصول على تمديد الهدنة خمسة وأربعين يومًا، على أن يسلم الفرنسيين أولم (Ulm)، وفيليبسبورج (Philippsburg)، وإنجولشتادت (Ingolstadt).

وكانت روسيا لا تريد ولا تستطيع أن تفعل شيئًا ضد جيش الشرق، لكنها كانت تثقل على عقول الجيش كغمامة تثير الخوف. وكانت الأخيلة تنظر دائمًا وصول جيش روسي من البحر الأسود ليخدم احتياطيًا قناصة الأتراك. ولكن العلاقات الجديدة التي قامت بين الامبراطور بولس والقنصل الأول قضت على ذلك الشبح،

وأحدثت تأثيرًا معنويًا جيدًا. ومنذ ذلك الحين، نجح القنصل الأول في 16 ديسمبر 1800 في عقد التحالف الرباعي بين روسيا، والسويد، والدنمارك، وبروسيا.

ومنذ نهاية فبراير 1801، بدأ القتال بين التحالف الرباعي وانجلترا، وذهبت عمارة من ثمانية عشر سفينة حربية انجليزية إلى بحر البلطيق، وفي خلال شهري مارس وأبريل كان يُرجى أن تضطر عمارة ثانية من قوة موازية إلى دعم العمارة الأولى ضد العمارات الروسية والسويدية والدانماركية، والتي كان عددها أربعين أو خمسين من سفن الخط. وكنا نتوقع رحيل سرب العمارة الثانية لبحرية أسطول بريست، وقوتها اثنين وأربعين من سفن الخط، وعشر فرقاطات. وكان هذا [السرب] الأخير قد يهدد إيرلندا، ولكن في الواقع تم ترحيله أمام مرسى الإسكندرية، وقام بإنزال عشرين ألف مجند. ولكن يوم 24 مارس 1801 قُتل الامبراطور بولس (Paul)، وتم حل التحالف الرباعي، ولم يذهب الأسطول الانجليزي الثاني إلى بحر البلطيق، ولم يُقر أن إبحار العمارة بريست ممكنًا.

وكانت معركة مارينغو قد تركت الجيش الانجليزي والذي كان يهدف العمل في بروفانس، يعسكر في ماهون، دون عمل وكان يُخشى إرساله إلى مصر. ولكي يثنيه عن ذلك، قرر القنصل الأول إعلان الحرب على البرتغال، وأرسل الجنرال برتييه إلى مدريد لجس نبض الوزارة. واستقبل الملك وأمير السلام [Godoy] والشعب الاسباني هذا الضابط بكل مراسم التقدير والاعتبار. وتم الاتفاق على أن جيشًا فرنسيًا من خمسة عشر ألف إلى عشرين ألف رجل سوف يجتاز جبال البيرينيه (Pyrénées)، ويخدم كمساعد مع الجيش الإسباني الذي سيزحف للبرتغال. وكان رد الفعل قد وصل على الفور إلى لندن. وكان مطلوبًا من الانجليز الحفاظ على قوة كبيرة في لشبونة، وهو في البداية يؤخر تحركات أبير كرومبي، ومن ثم يؤثر على عدد قواته. ودخل إسبانيا الجنرال قائد الفرقة لوكلير، قائد فرقة المراقبة الفرنسية من جيروند (*la Gironde*). وبدأت الحرب في 23 يونيو 1801، ولم يتم توقيع السلام مع البرتغال إلا في شهر أكتوبر التالي عندما نجحت المراوغة.

وللذهاب إلى مصر، سواء سافرت السفن من سواحل بروفانس (Provence)، أو من سواحل البحر الأدرياتيكي، فإنها كانت معرضة للبحرية التي كان العدو قد أعدها بين جزيرة مارتيمو (Maretimo) ورأس الرجاء الصالح، أو في مالطة، بين مالطة وإفريقيا، أو إلى كورفو، بين كورفو وأوترانتو (Otrante) عند مصب البحر الأدرياتيكي. وقد حدد القنصل الأول السير في شبه جزيرة أوترانتو تحت قيادة الجنرال سولت (Soult) جيش احتلال من خمسة عشر ألف رجل، واستولى فيها بصفة خاصة على مواني برينديزي (Brindisi)، وأوترانتو، وتارانتو (Tarente). وقد شيد الجنرال بطاريات قوية لحماية الرسو في تارانتو بحيث تستطيع عمارة فرنسية أن تكون في أمان ضد سرب عدو يفوقها. ومن سواحل تارانتو إلى سواحل مصر لا يوجد سوى ترعة تكفي عاصفة واحدة من الرياح لعبورها. ونصف السرايا المؤقتة التي شكلت من فصائل راحة جنود أربعة عشر

مشاة، وسبعة أفواج من الفرسان التي تشكل جيش الشرق، كانت تمثل جزءًا من جيش الاحتلال. وفي أبريل 1801 استولى الجنرال سولت على شبه جزيرة أوترانتو نتيجة لبند في معاهدة السلام المبرمة في فلورنسا مع ملك نابولي في 23 فبراير من نفس العام.

وكانت محادثات الباب العالي جارية في أثناء الأشهر الستة الأخيرة من عام 1800. وقد دارت هذه المحادثات بواسطة سير روفين (Ruffin)، والذي كان لا يزال محجوزًا في القسطنطينية. وبواسطة وزراء من بروسيا وإسبانيا. كان الباب العالي منزعجًا من الخسائر التي عانى منها في سوريا وفي أبو قير ودمياط، وأخيرًا في مصر الجديدة (هليوبوليس). وكان أكثر اضطرابًا بسبب الحميمة التي شهد نشأتها بين بلاط سان بطرسبرج وباريس. وأعطى الباب العالي وعودًا أكثر إيجابية بأنه لن يبذل أي جهد ضد مصر، وذلك احترامًا لتحالفه مع انجلترا، للحفاظ على آراء المسلمين. وسوف يستمر الصدر الأعظم في البقاء في سوريا، ولكن لن يتم إرسال أية مساعدة له من دول أوروبا، ويبقى مهتمًا بقواته الخاصة. وقد كان السلطان سليم دائمًا مؤيدًا لفرنسا، وسلَّم زمام أمره أكثر من أي وقت مضى إلى الحليف الوحيد المخلص بين المسيحيين. وكان من المفهوم أن الخلافات التي حدثت بشأن مصر ستنتزاح عند السلام العام. وقد أدرك السراي أن فرنسا كانت تريد محاربة الانجليز في الشرق، وليس العثمانيين. وبسبب سوء نية مجلس الوزراء البريطاني، فإن مصر كانت من الآن مضمونة لصالح فرنسا.

خامسًا: وخلال الأشهر الثلاثة من يونيو ويوليو ونوفمبر، وشتاء 1801، تم إرسال عدد كبير من الحراقات والمراكب والسفن الشراعية من مواني بروفانس والأدرياتيكي، وكذلك من مواني إسبانيا إلى دمياط والإسكندرية، ووصل كثير منها. غادرت طولون الفرقاطتان لجيبسيان (*L'Egyptienne*)، ولي جيستيس (*La Justice*) تحملان معًا ألفًا وثلاثمئة رجل، ومن بينهم سبعمئة جندي، وبعض البنادق والذخيرة. وقد رست بأمان في ميناء الإسكندرية يوم 3 فبراير، بعد عشرة أيام في عرض البحر.

وكانت لجيبسين (*L'Egyptienne*) فرقاطة من طراز جديد مزودة بمدفعية 24 عيار، وكانت تفوق الفرقاطات الانجليزية، وقد شيدت من تصميم رسم المهندس فورفيه (Forfait)، وصنعت بشكل جيد، وكانت فكرة ناجحة، نفذها الأمريكان منذ القدم بنجاح كبير، وهي تصنيع نوع أفضل من الفرقاطات الانجليزية الحالية. ولم تواصل فرنسا على ذلك الأسلوب، وهذا خطأ. وقد كان التذرع بأن هذا النوع من السفن يستهلك نفس قطع الخشب لسفينة مدفع عيار 74، وأن الصواري تصل إلى نفس الارتفاع، وأن هذه الفرقاطات ليست مستقرة التوازن بما فيه الكفاية، ولكن من الصحيح أن أمة تريد أن يكون لديها بحرية يجب أن تمنح سفنها قوة أكبر من سفن العدو عندما يكون هذا الأخير لديه بحرية جاهرة.

وقد أبحرت الفرقاطتان الإفريقية (*L'Africaine*)، والرجنيريه (*La Régénéré*) من روشفور (Rochefort) يوم 13 يناير 1801، وتحملان أيضًا سبعمئة جندي، ونبيذًا وذخائر. وفرّقتهما عاصفة من الرياح. واستفادت "الرجنيريه" من الرياح ورست في ميناء الإسكندرية. وفي أول مارس قابلت عمارة الأميرال كيث وأبحرت مؤقتا معها، وهاجمت فرقاطة إنجليزية "الإفريقية" في مضيق جبل طارق، وكان هناك ثلاثمئة بين قتيل وجريح، واستسلمت. ولم تحدث أية خسائر في السفينة الإنجليزية لأن القبطان الفرنسي أمر رجال المدفعية بإطلاق النار وإنزال الأشرعة، ففقد كل قذائفه. وهذا الأسلوب السيء بإطلاق النار وإزالة صواري المركب كان معتمدًا لدى العديد من ضباط البحرية.

وكان الجنرال جانتوم يعرف ضواحي مصر جيدًا، وأبحر من بريست يوم 23 يناير 1801، مع سبع سفن وثلاث فرقاطات من أفضل سائرات العمارة، وكان من المفترض التوجه صوب سان- دومينغو وأبحر المحافظ البحري ليسكاليه (Lescallier) مع نساء وأطفال من المستعمرة، وكذلك رجال ملونين. واللواء البحري كالدير (Calder) الذي أرسل ليلحق به، اتجه إلى مدار (Madère) وتينيريف (Ténériffe)، وجاب كل جزر الهند الغربية، ولم يعد إلى نهر التميز إلا في نهاية الربيع. واستولى جانتوم يوم 20 يناير على الحراقة لانسنديار (*l'Incendiaire*)، وعليها مدفع عيار 28. واشتبكت واحدة من فرقاطاته لابرافور (*La Bravoure*) في معركة حامية مع فرقاطة بريطانية أقوى منها، ونجت بشرف. ودخل [جانتوم] المضيق يوم 5 فبراير، ولو كان قد استمر في طريقه، لكان من 15 إلى 20 [يناير] في الإسكندرية، حيث لم يكن هناك سوى اثنتين من السفن البحرية، وكان يمكن إنزال خمسة آلاف جندي كان يحملهم. وفي 10 فبراير استولى على مركب انجليزي كان الأميرال كيث أرسله إلى لندن من ساحل ماكري (Macri) وعليه أربعة عشر مدفعًا. وعلم هكذا جيدًا أن هذا الأميرال كان في الخليج مع تسع سفن ترافق قافلة من مئة وخمسين شراعًا. ويوم 13 فبراير طارد الفرقاطة الانجليزية لي سيكسيه (*Le Succès*) وعليها أربعون مدفعًا، واستولى عليها عند مستوى رأس الرجاء الصالح. وقد قدم له بحارة هذه الفرقاطة نفس الأخبار. ولم يكن هناك ما يمنعه من الوصول إلى الإسكندرية، لأن خليج ماكري يقع على بعد مائتي فرسخ من هذا الميناء، لكن معنويات عميد البحرية الفرنسي كانت قد أُنهكت في الملاحة من بريست إلى المضيق. وقد اعتقد في قرارة نفسه بأن سفنه بحاجة إلى إصلاحات، وأبحر إلى طولون، ورسا هناك في 20 فبراير، وبالتالي فقد فشل في مهمته. ولم تكن الإصلاحات إلا ذريعة، فكان يمكن إصلاحها في البحر دون أن يتحول عن طريقه.

كان سخط القنصل الأول شديدًا، وأبحر الأميرال من جديد من طولون في 19 مارس، ولكن كان ضياع أربعة وأربعين يومًا قد أعطى الأميرال وارنس (Warens) الوقت لجمع سرب صغير في مضيق جبل طارق، والدخول إلى البحر المتوسط. وتقابل السربان يوم 26 على بعد عشرة فراسخ شرق سردينيا، وناور الأميرال

جانتوم بمهارة وأخطأ في الطريق، واختفى أمام منافسه. وعند الفجر، عندما لم يعد وارينس يرى الأسطول الفرنسي، فاعتقد أنه هرب وفي الطريق إلى مصر؛ فصمم فورًا على اللحاق بالأميرال كيث، واضطر جانتوم للتوجه إلى سواحل سوريا والتعرف على جبل الكرمل (Carmel)، وإنزال خمسة آلاف رجل كانوا معه في دمياط، لكنه فعل عكس ذلك؛ حيث عاد إلى طولون.

وقد استحق اللوم على تصرفه، وتلقى التعليمات بمحاولة جديدة. وتلقى الأمر بإنزال الإعانات التي يحملها إلى دمياط أو إلى الباريتون، وتحمل شهرين من المواد الغذائية، وبعض القرب والمدافع وقذائف الهاون لإقامة بطاريات ساحلية في هذا المكان، وكان معه ثلاثة ملايين فرنك لشراء الخيول والجمال. وقد فشل للمرة الثالثة في تحقيق هدفه، واتخذ قراره بأن يذهب إلى الباريتون، لكن لم يكن معه مرشد يعرف هذا الميناء، واقترب من درنه (Derne) في 8 يونيو ليحصل على مرشد، ولم يستطع الإبحار منها.

عندئذ أبحر جانتوم إلى كانديا، وقابل السفينة الانجليزية سويفتشور (*Swiftsure*) وعليها ثمانون مدفعًا، وكانت واحدة من أكبر سفن البحرية الانجليزية، واستولى عليها بعد معركة استمرت ساعتين. وفي 4 يوليو أخذ حراقة كانت قد وصلت من لندن مع أوامر الأميرال كيث، واستولى على ثماني سفن نقل جاءت أيضًا من نهر التايمز محملة [...][*]، وأدخل في الإسكندرية برقياته وبعض ضباط السفينة من أهل الثقة على الحراقة هيلوبوليس (*Héliopolis*) التي فصلها عن سريته في 7 يونيو. وفرحًا بالنصر ألقى مرساه في طولون يوم 22 يوليو.

وتعتبر هذه الجولة من أبرع الجولات الحربية، فقد أصابت العدو بخسائر ضخمة، لكن الأميرال لم يحقق هدفه؛ إذ كان يمكنه أن يحققه بمزيد من الحسم في كل مرة، وأن ينقذ مصر في كل مرة. ففي المرة الأولى كان قد وصل إلى الإسكندرية من 15 إلى 25 فبراير لأن الفرقاطة لاريجينيره (*La Régénéré*)، التي عبرت مضيق جبل طارق في 13 فبراير، قد وصلت إلى هناك في أول مارس، لكن الأميرال جانتوم كان قد عبر المضيق في 5 فبراير قبل سبعة أيام. وبعد وصول تعزيزات من ثمانية آلاف رجل، كان الجنرال فريان (Friant) يمكن أن يحول دون الإنزال في أبو قير في 8 مارس. وفي المرة الثانية كان قد وصل إلى دمياط من [...] إلى [...]؛ حيث تم احتلال القاهرة والإسكندرية. وفي المرة الثالثة كان يمكن أن يصل في يونيو لأن الفرقاطة هليوبوليس، والتي أرسلها في 7 يونيو على مرأى من سواحل أفريقيا، قد ألقت مرساها يوم [....] في الميناء. وآنذاك كان القائد العام هوتشينسون (Hutchinson) بالقرب من الجيزة، ولم يكن الجنرال كوت (Coote) لديه في معسكر الرومان سوى

(*) ثلاث كلمات غير مقروءة بخط قلم نابليون.

أربعة آلاف أو خمسة آلاف رجل، وكان بين الجيش الانجليزي العديد من المرضى، ولم يكن الاحتياطي قد وصل بعد.

سادسًا: بعد معركة مارينغو (Marengo) أخذت الحكومة البريطانية من حملات فيرول (Ferrol) وقادش (Cadix)، القوات التي خصصتها لمساعدة الجنرال ميلاس (Melas) وأعربت عن أملها في حرق الترسانتين والاستيلاء على العمارتين اللتين كانتا بالمرفأ، والاحتفاظ بقادش. وفي شهر أغسطس عام 1800 تم إنزال جيش من اثني عشر ألف رجل تحت قيادة سير جيمس بولتنسي (Pultency)، وهاجم فيرول (Férol) وفشل. وأبحر من جديد ورسا في شهر سبتمبر في جبل طارق، حيث انضم إلى الجيش الذي جاء من ماهون. وتولى السير رافل أبيركرومبي (Abercromby) منصب القائد العام، وأخذ الجنرال كيث قيادة السرايا، وجال أمام قادش؛ ولكن كان لدى الإسبان الوقت للاستعداد وجمع الكثير من القوات في الأندلس. وفي بداية شهر أكتوبر، تخلى الجنرال أبيركرومبي عن الهجوم على قادش، وأقلع الجنرال كيث إلى ليفورنو (Livourne) لإنزال الجيش الذي معه، لكنه حين وصل المرفأ علم أن الهدنة قد تم تمديدها بين الجيشين الفرنسي والنمساوي في إيطاليا وفق اتفاقية كاستيجليون (Castiglione)، ووجد نفسه عندئذ في موقف حرج، حيث كانت القوات المكدسة في الناقلات تعاني كثيرًا، وتعرضت للأمراض، وأرسل بعضهم إلى مالطة التي كانت قد سُلمت توًّا للحلفاء، و[أرسل] البعض الآخر إلى ماهون.

كان كل شيء ينبئ بأنّ السلام سيتم توقيعه في لونفيل (Lunéville) بين فرنسا والنمسا، وأصبحت الاتصالات اليومية أكثر ودية بين مجلس وزراء باريس وسان بطرسبرج. وجرت إشاعات بأن الاتصالات بين بولس الأول والقنصل الأول هدفها دفع زحف جيش نصفه فرنسي ونصفه روسي إلى بحر قزوين على السند. ولم تكن المفاوضات التي تتابعت إلى القسطنطينية لا يمكن أن تكون سرية للغاية، حتى يتسرب منها شيء ما. ولا يمكن أن يكون هناك شك حول ازدهار الجيش الفرنسي في مصر، وأن شخصية الجنرال مينو لم تترك هناك أي أمل في نجاح بواسطة المؤامرات والمفاوضات. ولم يكن الباب العالي نفسه بعيدًا عن منح الموافقة على إقامة الفرنسيين في مصر، لكن قوة فرنسا والعلاقة الحميمة مع روسيا جعلتها تخشى العديد من المخاطر التي كانت تريد تجنبها. ومع ذلك إذا توطدت الهيمنة الفرنسية في مصر فإن الوزارة الانجليزية التي كانت قد اعترضت على تنفيذ اتفاقية العريش سوف تجد أنها ستتحمل مسئولية جسيمة للغاية. وقد كان دونداس (Dundas)، الذي كان الأكثر معارضة للتصديق على اتفاقية العريش، هو من عبر عن رأيه بقوة شديدة لتوظيف جيش الجنرال أبيركرومبي، العاطل في مالطة، إلى الاستيلاء من جديد على مصر وإعادة بذلك امبراطورية الهندستان البريطانية. وفي 25 أكتوبر تلقى الجنرال أبيركرومبي أوامره وتعليماته من أجل الحملة المصرية.

سابعًا: غادر [أبيركرومبي] مالطة مع ستة وعشرين كتيبة من المشاة، وأربعة أفواج من سلاح الفرسان، وستة وثلاثين قطعة مدفع معركة، وتشكيل فريق عمل من 20000 (عشرين ألف) رجل، بينهم ضباط ورقباء طبالون، ورسا في أول يناير 1801 في ميناء ماكري أمام رودس، وأنزل هناك جيشه وأقام معسكره على ساحل آسيا الصغرى. وتلقى فريقًا من 7000 أو 8000 (سبعة آلاف أو ثمانية آلاف) رجل أمر الرحيل من هندستان، والذهاب إلى البحر الأحمر، والإنزال في السويس، وبذلك يكون عند الإنجليز هناك بين 25000 و 30000 (خمسة وعشرين وثلاثين ألف) رجل في مصر. إن الغرض من الرسو العارض على ساحل آسيا الصغرى كان: (1) الضغط على الباب العالي وإبطاء سير مفوضاته مع فرنسا، (2) إتاحة الوقت لفرقة الهند لتصل إلى السويس، (3) الحصول على ألفين وخمسمئة حصان كان الجيش في حاجة لها من بينها ألف ومائتان لتجهيز سلاح الفرسان، وثلاثمئة للقيادة العامة، وألف للمدفعية وعربات الإسعاف، (4) وأخيرًا تنسيق خطة الحملة مع الصدر الأعظم الذي كان لا يزال في فلسطين. ووفق خطة المعركة، يضطر الجيش الانجليزي الإنزال برًا في يافا والاجتماع مع الصدر الأعظم وعبور الصحراء ويضم في السويس فرقة الهند والزحف إلى القاهرة مع ستين ألف من الرجال، منهم ما يقرب من النصف من الانجليز. وكانت صحراء السويس تمثل، دون شك، عقبة ولكنها صغيرة.

وفي يناير وفبراير أرسل الجنرال أبيركرومبي إلى يافا الجنرال مور (Moore) للتشاور مع الصدر الأعظم، وأقام هذا الضابط عدة أسابيع في المخيم التركي، وقام عند عودته بعرض لوحة بشعة عن هذا الجيش، فقد رأى فيه سبعة آلاف أو ثمانية آلاف رجل بائس، غير مسلحين، غير منضبطين وسيئ التصرف، يقودهم ضباط غير أكفاء قد استبدت بهم جميع أنواع الأمراض بسبب قذارتهم. وأخيرًا فإن ما يقال عنه جيش، لا يصلح إلا لتجويع الجيش البريطاني وإصابته بالعدوى، دون أن يستطيع الجيش الانجليزي الاستفادة الحقيقة منه. وقد غير هذا التقرير خطة الجنرال الانجليزي؛ فتخلى عن فكرة عبور الصحراء. وكان قد أبرم عقودًا مع موردين أتراك، ولكن لم يتلق منهم غير سبعمئة حصان، وزعهم كما يلي: خمسمئة لسلاح الفروسية، ومئة وثمانون لسلاح المدفعية.

وكان [أبيركرومبي] مترددًا جدًا حول القرار الذي كان سوف يتخذه عندما علم أن الفرقاطتين الاجيبسيان والجيستس قد دخلتا الإسكندرية، وأن حراقات وسفنًا تجارية فرنسية تجلب إليها الإعانات، وأن عمارة فرنسية خرجت من بريست، ودخلت في البحر المتوسط، وعلى متنها جيش، للنزول إلى البر. وقرر على إثر هذا الخبر الجديد رفع المرساة يوم 23 فبراير، وظهر أمام الإسكندرية في أول مارس. وقد شكل الأسطول والقافلة مئة وثمانين شراعًا، منها تسع سفن وستة فرقاطات مسلحة، وست سفن وأربعة وعشرون فرقاطة لنقل العتاد، والباقي

سفن نقل كبيرة. كانت خطته هي عمل هجوم مفاجئ على الإسكندرية، ولم يكن في حاجة لذلك إلى فروسية ولا عربات مدفعية؛ حيث كان البحارة سيقومون بجرها. وعند السيطرة على الإسكندرية، فسيعزز قوته فيها، ويعيد تجهيز فروسيته، وسيجعل قبودان باشا يلحق به. وكان الصدر الأعظم متحفزًا، ليتقدم أخيرًا من جانبه نحو النيل، وكان التقرير الذي أرسل إليه من قبل حكومته عن حالة الجيش يوضح أن عدد هذا الجيش يصل إلى ثمانية آلاف فرنسي، بالإضافة إلى أربعة آلاف من الأقباط واليونانيين والسوريين، والمجموع هو اثنا عشر ألف رجل. إن المعلومات الأكثر إيجابية التي تلقاها من القسطنطينية، والتي كان قد حصل عليها من السفن التي كانت تغادر الإسكندرية، قد رفعت عدد الفرنسيين إلى عشرة آلاف، والحلفاء إلى خمسة آلاف، وبذلك يكون الجيش الفرنسي أقل عددًا من جيشه. وكان من الواضح أنه إذا سيطر على الإسكندرية فسيصبح على الفور سيدًا لمصر، وأنَّ الجنرال الفرنسي قد يعتبر نفسه سعيدًا بقبول تسليم العريش، وأنه سيحتل مصر دون قتال، ودون أن يتعرض الجيش البريطاني إلى خسائر كبيرة جدًا. وبناء على هذه المعطيات الخاطئة تم تقدير المعركة التي ستؤدي حتمًا إلى تدمير الجيش الذي سيغامر بتهور إلى هذه الدرجة. غير أنَّ الحظ الأعمى طاب له ان يحقق نجاحها.

ثامنًا: تم إرسال ضابطين من سلاح المهندسين بالجيش الانجليزي من ماكري للتعرف على شاطئ المرابط وخليج أبو قير، واستقل الضابطان زورقا عند مدخل الميناء الأخير، ونزلا ليلاً على الشاطئ يوم 27 فبراير، وصعدا على منحدر البئر، وتأكدا أنه لم يكن محصنًا. لكنهما كانا قد ضيَّعا الوقت، وحلَّ النهار بهما، فلاحظت مدفعية الحراسة في بحيرة المعدية قاربهما واستولت عليه. وتم اغتيال أحد المهندسين وأسر الثاني وإرساله إلى القاهرة مع أوراقه ووصل إليها يوم 2 مارس. وكان الجنرال كيث يتوقع أن يجد الضابطين على متن المركب البحرية فقد كان يحتاج إلى استطلاعهما ليقرر موقع الإنزال. وبعد أن علم بفقدانهما، قام بتغيير الاتجاه، ورسا في خليج أبو قير في 2 مارس 1801، وهو نفس المكان الذي رسا فيه الأميرال برييه (Bruyes). ولكن يوم 3 مارس والأيام التالية حتى يوم 8، كان البحر سيئًا للغاية، وكان الإنزال مستحيلاً.

وقبل الفجر يوم 8 [مارس]، أبحر الجنرال مور مع ستة آلاف رجل على مئة وخمسين زورقا، يدعمهم خمسة عشر زورقا حربيًا، تحيط خمسة منها بالميمنة، وخمسة بالميسرة، وخمسة أخرى تحمي الوسط. واقتربت هذه البطاريات من الشاطئ لمحاربة البطاريات الفرنسية. وفي الرابعة صباحًا انتهت كل هذه الاستعدادات، والزوارق المصطفة بالقرب من موندوفي (*Mondovi*) الحراقة الانجليزية التي رست بأقرب قدر ممكن من الساحل. وعند الإشارة رحلت الزوارق بانتظام. وعند وصولها قرب فوهة مدفع البطاريات الفرنسية، توقفت وعدَّلت صفوفها، حيث كانت تبعد خمسين قدمًا فيما بينها، وأخذ الملاحون راحة لمدة ربع ساعة ليتمكنوا من الإبحار بقوة أكبر.

وكان لدى قائد اللواء فريان (Friant)، حاكم الإسكندرية، ستة آلاف رجل تحت قيادته، من بينهم ألفان وخمسمئة من البحارة ورجال المدفعية من القوات البحرية، وخمسمئة من قدامى المحاربين أو رجال الحامية في الراحة، وثلاثة آلاف جندي من فرق الخط، وهي الفرقة 61، 75 نصف لواء، ومئة جندي خيالة، ومفارز مدفعية مختلفة. وعلاوة على هذا العدد كان يوفر ثلاثمئة رجل من أجل حامية برج أبو قير، ومائتين في قلعة جوليان، وثلاثمئة في رشيد، ولم يبق لديه سوى خمسة آلاف ومائتي رجل في الإسكندرية. وسار فريان على شاطئ أبو قير مع كتائب ثلاثة من [نصف سرية] 61، 75، مع مئة جندي خيالة، واثني عشر قطعة من المدفعية الخفيفة. ويوم 3 [مارس] وزع ثلاثة آلاف رجل إلى اليمين، خارج مصب بحيرة المعدية لحماية رشيد. ولم يتبق له سوى ألفي رجل للدفاع [عن الساحل] الذي يمتد بطول 2200 قامة من شاطئ أبو قير حتى بحيرة المعدية، والذي كان مقررًا أن ينفذ فيه الإنزال؛ فتضرب بطاريات الحصن جزءًا منه، وتضرب الطرف الآخر بطارية توضع في نهاية بحيرة المعدية. وتم وضع ثلاثة مدافع من الحديد عند سفح منحدر البئر الواقع تقريبًا في منتصف المسافة. وكانت نيران البطاريات الثلاث تتلاقى، ولكن من بعيد. ووضع الجنرال فريان الفرقة 61 تحت قيادة العقيد دورسين (Dorsenne) إلى اليمين للدفاع عن الجزء من الشاطئ ما بين المعدية ومنحدر البئر، حيثما كان يهاجم العدو ليكون أكثر ابتعادًا عن الحصن، وعين العقيد ليويليه (Lhuilllier) مع الفرقة 75 للحفاظ على ارتفاع البئر والشاطئ بين هذا الارتفاع والحصن، ووضع مدفعية الميدان على الشاطئ عند النقاط البارزة.

وبعد قليل كان الهجوم بالمدفعية، ووصل الأسطول الصغير بأقصى سرعة إلى الشاطئ، وكان من الصعب تحديد النقطة التي يريد النزول فيها إلى البر. وبمجرد أن صار في المتناول، تم قصفه من قبل الحصن، وبطاريات البحيرة، وتل البئر، ومن الاثني عشر مدفع الميدان؛ واحتاج إلى نصف ساعة للوصول إلى البر. ولقد عانى كثيرًا، وغرق العديد من القوارب. وبدأت الفوضى بعض الوقت، فاحتل يسار هذا الأسطول بين بحيرة المعدية ومرتفع البئر فهاجمه دورسين (Dorsenne) بكل عنف على رأس [الفرقة]61. فقُتل، أو أخذ، أو اضطر للتراجع إلى البحر كل من لمس البر. ودخل جنوده في المياه إلى الخصر، ولحقوا بعدة قوارب، إلا أنه في أثناء ذلك اقتربت ميمنة الأسطول من شمال منحدر [تل] البئر، وتقدمت كتيبتان انجليزيتان بجرأة، وقامتا بالاستيلاء على مرتفع البئر. وكان العقيد ليويليه (Lhuillier) غير موفق حين اتخذ مكانه أسفل التل على اليمين، معتقدًا أنه سيكون لديه الوقت للصعود إليه إذا تم تهديد المرتفع: سبقه العدو وسيطر على المرتفع وعلى كل منظومة البلد. واستمر إطلاق النيران لبعض الوقت، وقام الفرسان ببعض الهجمات، ولكن كان الستة آلاف انجليزي جميعهم على البر، فقد كان التفاوت بين القوات كبيرًا جدًا، فلم يتمكن ألف وستمئة رجل من إزاحتهم.

فصدر الأمر من الجنرال فريان (Friant) بالتراجع، وأخذ موقعًا على بعد نصف فرسخ على الطريق إلى الإسكندرية، وفقد الجنرال بطاريات الساحل، ومدافع الميدان الثلاثة، وخيوله التي قتلتها مدافع الزوارق الحربية.

كان هذا النزول إلى البر واحدًا من أكثر الأعمال القوية التي يمكن تصورها، ولو كنا حريصين على بناء حصن أعلى مرتفع البئر، أوعلى الأقل بناء معقل جيد الاستحكام، ومُحاط بإحكام، إذن لكان الانزال إلى البر مستحيلاً.

وكان لدى الإنجليز ألف ومائتا رجل لم يشتركوا في الحرب، أي واحد من كل خمسة، أما الفرنسيون فكان عندهم ثلاثمئة رجل، أي واحد من كل ستة.

وفي يوم 8 [مارس] تم إنزال بقية الجيش، فأحاط بقلعة أبو قير، وتمركز على بعد فرسخ إلى الأمام، ويميل يمينه إلى البحر، ويساره إلى بحيرة المعدية، وتحيط به الزوارق الحربية. وكان الجيش الإنجليزي مصطفًا في ثلاث خطوط، ويجر مدفعيته مفرزة من البحارة؛ لأنه كان بغير خيول، ولم يكن عنده سوى ثمانين رجلا من الفروسية مقطورًا، وكان لا يزال كل الآخرين في الخلف. وفي يوم 10 [مارس] ازداد العدد بكتيبة من ثمانمئة رجل من جنود البحرية، وكتيبة من ثمانمئة بحار.

تاسعًا: كان لدى الجنرال أبيركرومبي 17500 (سبعة عشر ألفا وخمسمئة) رجل من المشاة، و1200 (ألف ومائتان) من الفرسان، 750 من المدفعية والمجموع 19450 (تسعة عشر ألفًا وأربعمئة وخمسون) كان من بينهم ألف وخمسمئة مريض. وكان لديه تحت السلاح سبعة عشر ألفًا وتسعمئة وخمسون رجلاً؛ من الضباط، والعريفة، والجنود، وهيئة الأركان، بما في ذلك جنود الطبال. وكانت الكتيبتان اللتان وفرهما الأسطول تمثلان معًا 1600 (ألفًا وستمئة) رجل، ولذلك كان 19550 (تسعة عشر ألفًا وخمسمئة وخمسون) رجلاً مسلّحًا. ولكنه فقد 1200 (ألفًا ومائتين) من الرجال بين قتيل وجريح أو من قبض عليهم عند النزول، وبقي 1150 (ألف ومئة وخمسون) في أبو قير، أو في خدمة المرضى. وكان إذن خط معركته من 17200 (سبعة عشر ألفًا ومائتي) رجل. وأدى الفرسان الخدمة على الأقدام، وكانت المدفعية ومستشفى نقال والمواد الغذائية دون أية وسيلة جرّ. وكان من المحال أن نرى جيشًا مجردًا من كل ما هو ضروري لخوض الحرب، ويشكل ست ألوية، وستًا وعشرين كتيبة، ومائتين وستين سرية مشاة، وست عشرة سرية من الفرسان.

وكان الجيش الفرنسي يتكون من أربعة عشر نصف سرية مشاة مما يجعل أثنين وأربعين كتيبة، كل كتيبة من خمس سرايا ومائتين وعشرة سرايا، وسبعة أفواج من سلاح الفرسان وأثنين وأربعين سرية ومن عدد كبير من فرق المدفعية. وكانت القوة العددية في مصر 27400 (سبعة وعشرين ألف وأربعمئة) رجلا منهم ألف وثلاثمئة كانوا بالمستشفيات، و2500 (ألفان وخمسمئة) من المحاربين القدامى والمرضى ورجال فصائل حامية في الراحة، و1200 (ألف ومائتان) من غير المحاربين والعاملين بلجنة الفنون. وكان الجيش العامل 22400 (اثنين

وعشرين ألفا وأربعمئة) رجل مسلحين، بما في ذلك 18000 (ثمانية عشر ألفا) بسلاح المشاة، و2500 (ألفان وخمسمئة) بسلاح الفرسان، و1500 (ألف وخمسمئة) من رجال المدفعية وجنود الإطفاء وخبراء المتفجرات. وكان مع الجيش مئة مدفع ميدان مقطور.

وهكذا كان جيش العدو متفوقا في المشاة، لكنه أقل قوة في المدفعية وسلاح الفرسان. وكان يرتكز على نقطة واحدة، وكان لدى الجيش الفرنسي عدة نقاط للحفاظ عليها، واحتواء البلاد، ومراقبة جيش الصدر الأعظم.

وفي الساعة الثالثة بعد ظهر يوم 4 مارس 1801، علم الجنرال مينو بظهور الأسطول الإنجليزي أمام الإسكندرية. وافترض أن الأمر لم يكن سوى هجوم معاكس، وأنه سوف يتعرض للهجوم من البحر الأحمر وسوريا ودمياط. فأرسل اللواء رينيه مع الفرقتين 13 و85 وعدة سرايا خيالة ليتخذوا موقعًا في الصالحية، و[أرسل] الجنرال رامبون (Rampon) مع أربع كتائب، إلى دمياط، وقام بتعزيز حامية السويس. وأرسل الجنرال لانوس (Lanusse) لإنقاذ الإسكندرية، ومعه ثلاثة آلاف وأربعمئة رجل، بما في ذلك خمسمئة من الخيول، وتسع قطع مدفع. وبعد أن استعد الجميع لكل الأمور المقدمة على هذا النحو، كان [مينو] في القاهرة مع الاحتياط، ينتظر الأخبار المتلاحقة عن العدو، لاتخاذ القرار نهائي.

وفي 11 مارس، وصل الجنرال لانوس (Lanusse) قبالة الإسكندرية، وتولى القيادة وأقام في معسكر الرومان، ويساره إلى البحر، ويمينه إلى حاجز بحيرة المعدية. واجتمعت قواته جنبًا إلى جنب مع قوات الجنرال (Friant)، تشكلان ما مجموعه من 4600 (أربعة آلاف وستمئة) من الرجال، وعشرين قطعة مدفعية، وهو ما جعل قوة فرقته، من الأسلحة الثلاثة، ترتفع إلى خمسة آلاف رجل.

وبدأ الجنرال أبيركرومبي الزحف يوم 13 مارس عند الفجر، لمهاجمة الإسكندرية، وأخذت حركته مكانًا على خطين، وعلى الجانب المدافع يجرها بحارة على رأس كل لواء. وبعد أن تقدم لبعض الوقت، تعرف على موقع الجنرال (Lanusse)، وكانت الميسرة تستند بقوة على أنقاض معسكر الرومان، فقرر أن يتحول إلى اليمين، حتى يسير إلى يساره، مقتربًا من بحرية المعدية. وكان هذا التحرك بما يتماشى مع جميع القواعد، وكان مفروض عليه بطبيعة الجهات، وبضرورة وضعه في هذا المكان ليحافظ على اتصالاته مع بحيرة المعدية حيث تصله الذخائر وقد وضع على القوارب إداراته ومستشفيات الميدان. لكنه بهذه المسيرة ترك جانبه الأيمن للعدو.

وأراد الجنرال لانوس الهجوم؛ وكان ينتفض من الغيظ لرؤية الجيش الانجليزي، كان نفسه يعتبره قويًا من 16000 إلى 18000 (ستة عشر ألف إلى ثمانية عشر ألف) رجل، يسير في سهل دون حماية من قبل أي سلاح الفرسان. ومع ذلك فإنّ برتران، عقيد الهندسة الذي كان يقوم بالتفتيش على الساحل، والذي كان آنذاك في الإسكندرية، سعى إلى تهدئة حماسه، ونصحه بألا يهاجم [قائلاً]:

"نحن واحد ضد ثلاثة، وربما ضد أربعة، ولا يمكن أن ننتصر. وعلاوة على ذلك، فإنك لا تخاطر فحسب بتحطيم معنويات فرقتك، لكنك تعرض الإسكندرية للضرر. وبمجرد أن يستدير الجانب اليمين عليك أن تأمر بالتراجع، وتعبر الوادي الصغير من جديد، وتتخذ موقعًا على المرتفعات أمام باب رشيد، وسنكون هناك في حماية مدفع حصن كريتان، وحماية حصن كليوباترا، وكذلك أبراج السور وباب رشيد. وسوف نقيم خلال النهار والليل عددًا من المعاقل تجعل موقفكم قويًا جدًا. وإن من المستحيل، في غضون أيام قليلة، أن يشعر الجنرال مينو أخيرًا كم كانت ترتيباته قاتلة، فيجيء مع كل الجيش للانضمام إلينا، وعندئذ يكون لدينا جيش أكثر عددًا من الجيش الذي أمامنا. إنَّ سلاح الفرسان مقدام، والعديد من مدفعية الميدان. وسيكون النصر بالتأكيد حاسمًا".

وقد كانت هذه الأسباب واضحة، وسيطرت طويلاً على الجنرال، ولكن عندما اقترب خط العدو من مرمى المدفع، أمر المدفعية بإطلاق النار، وكان تأثير العديد من القذائف شديدًا. وتحرك الجنرال برون (Bron)، قائد سلاح الفرسان، إلى الأمام لتتقدم المدفعية الخفيفة، وأدهش هذا التحرك الجيش الانجليزي. ولاحظ لانوس التردد، واستسلم لمشاعره، وبدلاً من إعطاء إشارة للتراجع، اندفع وهو يهتف: "إلى الأمام". ولم يكن الجنرال أبيركرومبي يتوقع مثل هذا الهجوم. وبالكاد كان الوقت للتوقف ويأخذ خطه على يمين من المعركة. وسرعان ما أصبح الالتحام رهيبًا، وتهشم الخط الإنجليزي الأول تمامًا؛ وتم أسر ثلاثمئة من الرجال، لكن الخط الثاني استعاد المعركة. وحقق لانوس معجزات خارقة، ولكن كان التفاوت قويًا، فاضطر إلى التراجع إلى موقعه في البداية، فتراجع بعد قليل إلى التلال أمام باب رشيد. وكان الجيش الإنجليزي قد رتب المعركة في أسفل الوادي، على مرمى من البطاريات الفرنسية، وبقي فيه وقتًا طويلاً دون داع، وضحى بما بين خمسمئة أو ستمئة رجل.

وتردد الجنرال أبيركرومبي، هل ينبغي مهاجمة الفرنسيين في هذا الموقع الجديد؟ وفي النهاية رأى أن هذه الارتفاعات كانت تحت نيران قلعة كريتان وأسوار رشيد. فأمر بالتراجع لاتخاذ موقع في معسكر الرومان، وخسر في هذا اليوم 1900 (ألف وتسعمئة) رجل؛ أي واحدًا من كل عشرة رجال. وخسر الجيش الفرنسي 600 (ستمئة) رجل؛ أي واحدًا من بين كل ثمانية.

وقد أظهر الجنرال لانوس شجاعة عظيمة، ولو كان لديه 9000 (تسعة آلاف) رجل لحقق نصرًا كاملاً. وفي المساء أعرب عن بعض الندم، وسعى إلى التبرير لنفسه بالقول إنه لم يكن ليترك اعتراض الطريق إلى القاهرة دون قتال، كما لو أنه كان من الصعب فتح طريق آخر من خلال أعماق بحيرة مريوط.

وقد وُجهت الانتقادات إلى الجنرال الإنجليزي لعدم متابعته لانتصاره، فقد كان يستطيع - كما قيل - الاستيلاء على الإسكندرية. لكن كان سور العرب في حالة منيعة؛ حيث كانت حصون كفاريللي وكريتان في مأمن من الإساءة. وكان قد يمكن ان يُسحق من الشظايا ويقطع سلاح الفروسية اتصالاته مع بحيرة المعدية. وإذا كان هناك من لوم عليه، فلعدم إبعاد جيشه عن بنادق المدفعية عندما كان يتفاوض، ولكن مثل هذه الحيطة - التي تحافظ على حياة الجنود - لا يتخذها سوى قدامى الجنرالات الذين اعتادوا تعريض حياتهم للمخاطر، والحروب، والقتال.

عاشرًا: علم الجنرال مينو مساء يوم 11 مارس بأن الجيش الانجليزي كان قد أتم الإنزال. وفي يوم 10، كان قد استدعى الجنرال رينيه والجنرال رامبون، وقام بتحركات مختلفة لحشد قواته، وسار طوال سبعة أيام، ووصل يوم 19 مارس أمام الإسكندرية. وخيَّم على مرتفعات باب رشيد، وميسرته إلى البحر، وميمنته إلى جانب بحيرة مريوط، ويفصله واد عن الجيش الانجليزي. واجتمعت القوات التي قادها مع القوات التي كانت قد حاربت في 13 [مارس]، وشكلا جيشًا من 9000 (تسعة آلاف) رجل من المشاة، و1800 (ألف وثمانمئة) حصان، وخمسين قطعة مدفع مقطور؛ أي ما مجموعه 12000 (اثنا عشر ألف) رجل. وكان قد ترك 6000 (ستة آلاف) رجل في حامية القاهرة، وفي صعيد مصر، وبلبيس والصالحية والسويس، ورشيد ولسبيه، كانوا من قدامى المحاربين، والعمال ورجال الفصائل في راحة، وأربعة آلاف ومائتين من المرضى والجرحى وغير المقاتلين، جزء منهم في القاهرة، وجزء آخر في الإسكندرية.

وكان الجيش الانجليزي قد فقد 3000 (ثلاثة آلاف) رجل عند إنزال قواته في المعارك من 8 إلى 13 مارس. وعند السماع بظهور سرية جانتوم، أبحرت من جديد كتيبتان من البحارة، وكان لديه من المسلحين في ميدان القتال 15000 (خمسة عشر ألف) رجل، منهم مائتا فارس، وكان يتفوق على الجيش الفرنسي في المشاة بأربعة آلاف رجل، لكنه كان أقل 1600 (بألف وستمئة) جواد في الفروسية. وكان لديه سبعون مدفعًا، أي أربعة وثلاثون قطعة مدفع قتال؛ منها ثمانية وعشرون عيار 18، وأربعة عيار 24، يخدمها البحارة، وأربعة عيار 24 على ثمانية مراكب شراعية أو زوارق حربية راسية على يمين وعلى يسار خط المعركة. لذلك كان أيضًا متفوقًا في المدفعية. وكان الموقع الذي يحتله بطول 1300 قامة، تحميه ثلاث معاقل. وكانت ميمنته، والتي وضعت في حالة دفاع، تستند على طول 25 قامة من البحر، فوق تل وعلى أنقاض معسكر الرومان. وكان الوسط [يستند] على منحدر رملي يفصل عن اليمين طريقًا عميقًا كان ينخفض منحدرًا حتى بحيرة معدية. وكان الجيش على خطين، على الرغم من أنه لا يكفي لشغل المساحة لخط واحد. وقد أحسن كلا الجيشين اتخاذ موقعه، وكان الجيش الذي سيبدأ الهجوم على الآخر سيفقد كل مزاياه.

وقد عبر ضباط الجيش الفرنسي الأكثر دراية عن أسفهم أنه في مثل ذلك الظرف الحاسم، استمر القائد العام في أسلوبه بتشتيت جنوده، [قائلين]:

"آه! لو كان نابليون هنا، فبدلاً من 12000 (اثني عشر ألف) رجل كنا سنكون 21000 (واحدًا وعشرين ألفًا) في ساحة القتال. ولكن في حالة الوضع المتدني الذي نحن فيه يجب أن نخاطر بعملية ستقرر مصير الجيش؟".

وقد كانت القوات مليئة بالحماس، وكان رأي الجيش عامة، وكذلك القائد العام، هو خوض المعركة.

كان يوجد أحد عشر نصف سرية مشاة، ولكن أضعفها غيابُ العديد من المنتدبين. وتم تقسيمهم على خمسة جنرالات، فشكّل رينيه الجهة اليمنى مع الفرق 13، 85، 25، 75 و61 خط، وكان رامبون في المركز مع الفرقتين 21، 32، وديستان ولانوس إلى اليسار مع الفرق 4، 18، 69، 88 سلاح الفرسان وقد وضع سلاح الفرسان في الخط الثاني تحت قيادة الجنرال رواز (Roize). وكان فوج الجمال تحت قيادة العقيد كفاليه (Cavalier)، وخُصص لعمل هجوم زائف على طول حاجز بحيرة معدية على أقصى يميننا من أجل جذب انتباه الإنجليز عمومًا، ويساعد الهجوم الرئيسي الذي يجب أن يقوم بتنفيذه الجنرال لانوس بواسطة يساره على يمين العدو.

وفي الساعة الثالثة صباح يوم 21 مارس، فتح العقيد كفاليه ممرًا على سد بحيرة معدية، واستولى على معقل كان احتله العدو من قبل، واستولى على قطعتي مدفع، وأصدر إنذارًا إلى مخيم الانجليز الذي تعرض لهجوم من أضعف نقطة من موقعه الذي يمكن أن يدور حوله سلاح الفرسان الفرنسي، ويقطع عنه نقطة المغادرة بحرًا. وكان الجنرال أبيركرومبي يستعد إلى الذهاب مع فرقة الاحتياط وجزء من ميمنته عندما وصل الجنرال لانوس الذي عبر الوادي في أثناء الليل أسفل مرتفع الرومان، وأطلق نداء الهجوم، واقترب بسرعة من ميمنة العدو. وكان قد بدأ بزوغ النهار، وبدأت عدة كتائب فرنسية العمليات، وكانت المعركة أكثر حمية، لكن طلقة مدفع قطعت فخذ الجنرال لانوس. وقرر هذا الحدث المؤسف مصير اليوم. فهاجم وسط الجيش الفرنسي مركز العدو، وقاد الجنرال رواز (Roize) ألفًا ومائتين من الخيول، فهجم واخترق المشاة الانجليزية، وتسلل بين خطوط العدو وأحدث الاضطراب، وجرح حتى الموت سير رالف أبيركرومبي في وسط جيشه. ولكن تنفيذ هذه العمليات كان قد تم بدون التجمع، ولم يكن ثمة قائد للجيش. وفي الساعة العاشرة صباحًا اتخذ الجيش موقعه من جديد، وظل الجيشان بقية اليوم وجهًا لوجه. وكانت خسارة الانجليز ألفين وثلاثمئة رجل بين قتيل وجريح، بينهم الجنرال أبيركرومبي الذي توفي يوم 28. ولم يعترف الانجليز في التقارير الرسمية إلا بألف وخمسمئة رجل. أما خسائر الفرنسيين فكانت ألفين وخمسمئة رجل. وأصيب كل من الجنرال لانوس، وبودو (Baudot)، ورواز (Roize)، بجروح قاتلة. وتفاخر الانجليز بأنهم حققوا النصر، وفي الواقع أنهم صدوا هجوم الجيش الفرنسي، وكانوا قد احتلوا موقعًا جيدًا، وكان لديه تفوق سلاح المشاة. وكانت تحيط بهم الزوارق الحربية التي كانت تهجم على جوانب ومن خلف الخطوط الفرنسية، وكانت تغطي أرض المعركة بالقذائف والشظايا والرصاص، لكن الجيش الانجليزي لم يخرج من خطوطه فيتقدم خطوة إلى الأمام للاستفادة من انتصاره، وبعد المعركة قضى طوال الليل

في شدة الضيق تحت السلاح، وكان مثيرًا كل شيء للقلق والشعور بالرعب لما عاناه. فعند أقل حركة من الجيش الفرنسي كان يظن أنه يهم بالاستعداد للهجوم عليه مرة أخرى. ومن السهل أن يتمكن المرء من تصوُر كيف كان يمكن أن تكون نتيجة مثل هذا اليوم لو أن الثمانية آلاف فرنسي - الذين تركهم مينو داخل مصر- كانوا على ساحة القتال على النحو الذي كان ينبغي.

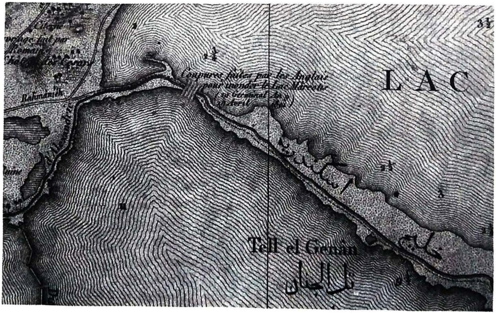
ولم يفكر الجيشان البتة إلا في إقامة الخنادق، وفي تحصين أماكنهم، وسرعان ما أصبح المخيم الفرنسي منيعًا. وعلى مدى عدة أشهر ارتاح الجنرال مينو إلى تراكم الأشغال بعضها فوق بعض، وكان يتردد في الجيش الانجليزي سماع أكثر من رأي؛ [ومنها أنه] حان الوقت للإبحار من جديد، فقد فشلت الحملة، وبعد واحد وعشرين يومًا منذ كان الإنزال لم نفعل شيئًا بعدُ، ولم يعد الاستيلاء على الإسكندرية ممكنًا بعد الآن. وكانت قرارات الجرحى والأسرى تبرز تفوق الجيش الفرنسي الكبير، فبدلاً من عشرة آلاف رجل كان الجيش من أربعة وعشرين ألف رجل، وكان يستطيع بين يوم وآخر تلقي التعزيزات من القاهرة، أما هم فلا ينتظرون شيئًا منذ عدة أشهر. وقد قام الجيش الفرنسي برد ثلاث هجمات، لكن الجيش كان قد ضعف بنقص ستة آلاف رجل، من بينهم الموتى والجرحى أو المرضى، ولم يكن هنالك غير اثني عشر ألفًا مسلحين. وعلاوة على ذلك كان لا بد من ترك مفرزة الانقضاض لعلاج الجرحى والمرضى. وقد تأقلم الفرنسيون وتغذوا جيدًا، ولم يكونوا في نفس الحال. كان الانجليز قد فقدوا يومي 8، 13 [مارس] أكثر من الفرنسيين، وفي يوم 21 فقد الفرنسيون أكثر، وهو ما كان يحقق التكافؤ، وعليه صار التناسب كما كان بين الجيشين دائمًا.

حادي عشر: كان يمكن أن يسود الرأي بالعودة بحرًا، يوم 25 مارس، لو لم يكن قبودان باشا قد رسا في الميناء مع خمس سفن حربية، وقافلة تحمل ستة آلاف من الإنكشاريين. وكانت الإغاثة أكبر مما كان يقدرها الانجليز أنفسهم، فقد كانوا يحتقرون الأتراك للغاية. حل محل ستة آلاف من الإنكشاريين القناصة، يدعهم صفوفهم محل ستة آلاف انجليزي. ولكن كان الجيش يفتقر إلى الغذاء، وخاصة المشروبات المنعشة. وكان الجيش، مكدسًا ومحاصرًا في شبه الجزيرة، يكتفي بالبسكويت واللحوم المملحة التي وفرتها له العمارة، وكان الجرحى والمرضى على رمال هذا الشاطئ القاحل، وكانت الأمراض تنتشر، وكان لا بد من السيطرة على رشيد للحصول على المرطبات والخيول. وجاء الجنرال هاتشينسون (Hutchinson)، خلفًا للسير رالف أبيركرومبي، وحصل على ستة آلاف رجل من قوات قبودان باشا، مع ثمانمئة انجليزي من قيادة العقيد سبنسر (Spencer)، وثماني قطع مدفع. وعبرت هذه الفرقة في 2 أبريل بحيرة معدية، ووصل قبالة رشيد يوم 8. وتراجعت الحامية المكونة من ثمانمئة فرنسي إلى الدلتا، ومرت على الضفة اليمنى لنهر النيل، وتركت حامية في حصن جوليان، والذي كان الجنرال هاتشينسون قد كلف قبودان [حسين] باشا باحتلاله. وسيطر عليه الأتراك يوم 19 أبريل عام 1801، بعد

خمسة أيام من حرب خندق مفتوح، وكان هناك مائتا رجل، جزء منهم من قدامى المحاربين، وتسعة عشر قطعة مدفع. وقد فتح سقوط هذا الحصن مصب نهر النيل عند رشيد والاتصالات من أبو قير إلى النيل.

ثاني عشر: بعد معركة 21 مارس، وجه الجنرال مينو الأمر للجنرال بليار بإخلاء الصعيد، وتراجع حاميات القاهرة والصالحية والسويس وبلبيس، عندما علم أن العدو قد زحف إلى رشيد، وانتدب الجنرال لاغرانج (Lagrange)، رئيس أركانه، مع أربعة آلاف رجل من سلاح المشاة وعشرين مدفع، وستمئة حصان لاتخاذ موقع في الرحمانية للحفاظ على الاتصالات مع الإسكندرية والقاهرة. ودفع الجنرال لاغرانج طليعة إلى العاطفية بين بحيرة ادكو والنيل، وهو الأمر الذي أقلق الجنرال الانجليزي كثيرًا إذا هو قام بعمل مفرزة قوية يمكن أن تعرضه للهجوم في معسكره من جهة الشمال، وهي [الجهة] الأكثر ضعفًا.

وكان المهندسون الانجليز يسعون منذ فترة طويلة إلى قطع جسر بحيرة معدية لنشر ماء البحر في جميع أنحاء حوض بحيرة مريوط، لكن الجنرال هاتشينسون، وهو رجل مستنير جدًا، رفض العملية، والتي ستكون لها عواقب وخيمة على البلاد، وإن كان يُفترض أنها مفيدة مؤقتًا، فخشي أنَّه من شأنها أن تقضي على الإسكندرية.



53 - قطع جسر بحيرة المعدية 10 أبريل 1801.

خريطة (37)

وقد قاوم لعدة أيام، لكنه وافق في النهاية. وفي 13 أبريل قام جنود الإطفاء بفتح ثلاثة ثغرات، تبعد الواحدة عن الأخرى 3 قامات، وفي الساعة السابعة مساء اندفعت المياه بارتفاع ستة أقدام، وفي خلال أربعة وعشرين ساعة نفذوا فتحة من 30 قامة، واستغرق الأمر شهرًا لإقامة التوازن وتشكيل بحيرة مريوط. وفي نهاية ذلك الوقت، لم يبق غير تيار طفيف من البحر في البحيرة. وغطت المياه كل المساحة بين بحيرة المعدية وبرج العرب، أي أكثر من اثني عشر فرسخًا طولاً، إلى ثمانية فراسخ عرضًا بالقرب من دمنهور، وفرسخ ونصف عرضًا على بعد بضع قامات أدناه (جنوب دمنهور). ويفصل ماء البحيرة عن ماء البحر برزخ من 1800 قامة عند الإسكندرية، و600 عند مستوى قلعة الحمامات، و300 (قامة) على بعد فرسخ أدناه.

وبذلك أصبح يسار معسكر الانجليز آمنًا، ولم يعد يخشى الجنرال أن يضعف، ودفع للرحيل أربعة أفواج إلى رشيد، حيث توجه إليها بنفسه. وخيم في الحمد (El-Hamad) أمام العاطفية، وألحق ميمنته إلى بحيرة ادكو، وميسرته إلى النيل، مع ثلاثمئة من الخيول الانجليزية وأربعة آلاف وخمسمئة رجل من سلاح المشاة، وستة عشر قطعة مدفع، وخمسة آلاف انجليزي، وستة آلاف رجل مع قبودان باشا، والمجموع أحد عشر ألفًا، بالإضافة إلى العديد من تشكيلات البحرية التركية على نهر النيل. وفي يوم 5 مايو أرسل هاتشينسون العقيد ستيوارت إلى الدلتا، ثم صعد النيل، مع عشر قطع مدافع انجليزية وتركية، وألف رجل. وفي يوم 7، وبعد أن أخلى الجنرال لاغرانج موقع العاطفية، استولى عليه الجنرال الانجليزي. وفي يوم 9، عسكر بالقرب من الرحمانية. وبدأ الجنرال لاغرانج الزحف إلى القاهرة، ووصل إليها يوم 13 [مايو]، بعد ثلاثة أيام ونصف اليوم. وترك مئة وعشرة رجال في الحصن الذي كان مسلحًا بثمانية عشر مدفع في حالة جيدة جدًا، ويحتوي على مخازن كبيرة للغاية. وكان يمكنه الدفاع لعدة أيام، لكنه السلوك الذي يمكن أن يسمى الخيانة بحق، بل كان الضابط الفرنسي الذي يقود قد استسلم بمطلق الحرية، ودون أن يؤخر زحف العدو لساعة واحدة. وانضم إلى الجيش الانجليزي ثمانمئة فارس سوري، كانوا قد وصلوا عن طريق الصحراء. وكانت القوات تحت قيادة هاتشينسون اثني عشر ألف رجل، وكان لدى الجنرال لاغرانج أقل من خمسة آلاف رجل، وفي الواقع كان جزء كبير من [القوة] الأولى من الأتراك، إلا أنهم إذا كانوا وحدهم منبوذين ولكن لا يمكن الاستهانة بهم عند دعم جيش أوروبي لهم.

ثالث عشر: في شهر فبراير، عندما أبلغ الجنرال مور الصدر الأعظم بمشاريع حملة حكومته، فإنه تلقاها بفتور. ونسب الصدر الأعظم إلى الانجليز هزيمة مصطفي باشا في أبو قير ودمياط وهيليوبوليس، وهو ما ألهمه كراهية كبيرة تجاه هؤلاء الحلفاء. وكانت المشروعات الأخيرة لمجلس وزراء لندن مشبوهة للغاية له، ولم يكن ينوي المشاركة في تنفيذها. وكان خلاص الامبراطورية العثمانية الآن في إقامة السلام مع فرنسا، وكان جميع وجهات نظر القصر والديوان والجيش تميل إلى ذلك. وكان الصدر الأعظم لا يشك في أن الجيش الانجليزي تعرض

للهزيمة، ولكن عندما علم بنتيجة الإنزال السعيدة، ونتائج معارك 21 [مارس]، و13 [مايو]، تغير موقفه. وفي ذلك الوقت وافق الجزار على إرسال 5000 (خمسة آلاف) رجل إلى المعسكر، وانضم إليه أغا القدس في منتصف أبريل، وتوصل الصدر الأعظم إلى جمع 15000 (خمسة عشر ألف) رجل في العريش، وعندئذ بدا واثقًا، عندما علم أن الانجليز كانوا في رشيد، وأنهم وصلوا بالفعل إلى الدلتا، فبدأ الزحف وعبر الصحراء، ووصل في 27 أبريل إلى الصالحية. ومن قطية أوفد ثلاثة آلاف رجل من طينه (Tyneh) اتجهوا إلى دمياط. وفي 7 مايو خيم في غابة كُريم (Koraym)، ويوم 11 في بلبيس، على بعد اثني عشر فرسخًا من القاهرة التي هددها.

ومع ذلك، كان الجنرال بليار قد جمع في القاهرة 9000 (تسعة آلاف) رجل محاربين وغير محاربين، في صحة جيدة أو مرضى. وعندما انضم إليه 5000 (خمسة آلاف) من رجال الجنرال لاغرانج، في يوم 13 مايو، وجد أن لديه 14000 (أربعة عشر ألف) رجل. وترك 8000 (ثمانية آلاف) رجل بين سليم ومريض، أو رجال ينتمون لفصائل في الراحة، لحراسة القاهرة والجيزة والحصون. وسافر يوم 15 مع 5000 (خمسة آلاف) رجل من المشاة و1000 من الخيول، وأربعة وعشرين قطعة من المدفعية، زاحفًا من أجل لقاء الأتراك. ووصل يوم 16 [مايو] عند الفجر إلى الخانقة، وأرسل الصدر الأعظم للقائه ندير باشا، وسار هو نفسه مع بقية قواته. وخضع الجنرال بليار بنفسه لذلك التحرك الهجومي، ولم يتخذ القرار في الوقت الضروري له، ولم يكن هناك مجال للتداول. وبدلاً من السير للأمام وطرد الرعاع الغير مرعبين خارج الصحراء، فبدلا من أن يتقدم ويطارد وراء الصحراء الرعاع قليلة القدرة، قلق على القاهرة بغير داع، ورأى أن الجنرال هاتشينسون على وشك أن يدخلها، على الرغم من أن هذا الأخير كان لا يزال على بعد ست خطوات، ورأى أن الجيش التركي قد تحول عنه، ورأى أخيرًا كل ما لا ينبغي له أن يراه. ولم ير أن جيش الصدر الأعظم أبعد في الصحراء، فكانت مصر قد نجت، فعاتب نفسه، وأمر بالتراجع دون أن يخوض المعركة. وقد تم قتل أو جرح خمسين رجلاً من كلا الجانبين في بعض المناوشات الخفيفة. وأربك هذا الخبر الانجليز، وكان ثلاثة من ضباطهم مع الصدر الأعظم، كانوا يتوقعون أعظم الكوارث. وبمجرد أن علم بتحرك الجنرال بليار، أرسل هاتشينسون، العاقل والحذر، الرائد ويلسون (Wilson) إلى معسكر الصدر الأعظم؛ يرجوه التراجع وتجنب التعرض للقتال الذي من شأنه أن يعرض نجاح كل الحملة للخطر. وأكد الصدر الأعظم أنه من خلال المعلومات التي لديه فإن الجنرال بليار لا يمكنه الهجوم عليه إلا مع ألفين وخمسمئة رجل، وأنه لو قام بعملية تراجع فسوف يبدد جيشه، ولن يتجمع إلا في الصحراء، ومع ذلك فإنه من المخجل التنازل وتسليم البلاد إلى حفنة من الرجال. وأعرب عن اعتقاده بأن الانجليز يريدون إبعاد الجيش التركي لأغراض سياسية.

رابع عشر: بعد مداولات طويلة، قرر الجنرال الانجليزي أن يواصل مسيرته إلى القاهرة لينضم إلى الصدر الأعظم، وقدر كل الأخطار، ولكن لما كانت هي فرصة النجاح الوحيدة التي لاحت له، فقد أخذ كل الحذر الممكن في مناوراته، وسار ببطء. وفي 14 مايو خيم في شبراخيت، واستولى على قافلة من الزوارق محملة بالبنادق وملابس وذخائر حرب ومواد غذائية. وكانت هذه القافلة قد خرجت من القاهرة متجهة إلى الرحمانية، ومنها إلى الإسكندرية، وكان يحرسها مئة وخمسون جنديًا، تم أسرهم. ويوم 16 [مايو] خيم الجنرال هاتشينسون في علقم (A'lqam). وفي اليوم التالي، وصله إعلان أن طابورًا فرنسيًا في الصحراء بين بحيرات النطرون والنيل. وذهب الجنرال دويل (Doyle) للبحث عنه، ومعه مائتان وخمسون حصانًا ومدفعان، وخمسمئة أو ستمئة رجل مشاة. وعلى بعد سبعة أميال من النيل قابل الفرنسيين السعاة الانجليز والبدو. وقد كانت قافلة [الفرنسيين] من خمسمئة وخمسين جملاً في حراسة خمسمئة رجل تحت قيادة العقيد كفاليه (Cavalier) الذي كان يتجه من الإسكندرية إلى القاهرة عن طريق الصحراء. وعرض الرائد ويلسون على العقيد الاستسلام، واقترح عليه أن ينقل الجنود إلى فرنسا دون أن يصيروا أسرى حرب. وقد نال عرض العودة إلى الوطن في وسط الصحراء الليبية القاحلة إعجاب كل العقول، وتم قبول الاستسلام. وكان هذا المكسب ثمينًا لجيش انجلترا الذي لم يستطع الحصول على الجمال، مما كان يبرهن على النفور الذي كان يشعر به البدو نحو الانجليز، ومحبتهم للفرنسيين.

وفي 17 مايو، كانت حامية لسبيه، التي كانت قوتها خمسمئة رجل، قد اجتمعت مع مائتي رجل من حامية البرلس، ولم يكونوا يتلقون الأوامر من القاهرة، ولم يكن يمكنهم الاتصال. وأبحرت الحامية على خمس مراكب ترتان (Tartane)، فاستولت البحرية الانجليزية على معظمها. وفي يوم 18 استولى العقيد ستيوارت على بطن البقرة (الدلتا). والعقيد هولووي (Holloway) الذي كان بالقرب من الصدر الأعظم، صرح بتقرير عن النجاح الذي حققه يوم 16 ضد الجنرال بليار، وعن زحف الصدر الأعظم إلى العاصمة. وفي يوم 23 (مايو) خيم الجيش الانجليزي في طرانه (Terrâneh). واتجه الجنرال هاتشينسون وقبودان باشا عن طريق قناة منوف إلى معسكر الصدر الأعظم، ومكثا هناك يومي 25، 26، وانضما إلى الجيش يوم 27. وكانت عملياتهما محاطة بالمخاطر، وأنقصت الأمراض جيش معسكر الرومان إلى أربعة آلاف رجل. وكان الجنرال كوت (Coote) قلقًا للغاية، وكان يمكن أن يتعرض للهجوم من ستة آلاف فرنسي من الإسكندرية، ولو كان قد فقد معسكره لأصبح موقف الانجليز حرجًا للغاية. ولم يعد لدى القائد العام نفسه إلا أربعة آلاف رجل، فقد أجلى ألف مريض إلى رشيد، وكانت الحرارة شديدة، ودخل مئات الرجال إلى المستشفى. ولو زحف الجنرال بليار عليه من ضفة النيل اليسرى، وكان يعتقد إمكانية عمل ذلك مع سبعة آلاف رجل، فكان سينهزم على الرغم من مساعدة قبودان باشا الذي ارتد إلى رشيد. وأصبحت الأمور عرضة للخطر تمامًا، وحمل الصدر الأعظم على الاقتراب من النيل ليسيرا معًا، لا يفصلهما عند الاقتراب من القاهرة إلا النهر، وأكثر للتعاون المشترك عن قرب. وتوفي مراد بك في بني سويف

بسبب الطاعون، وكان يوم 22 أبريل قد حلّ محله في قيادة المماليك عثمان بك، والذي حين رأى فشل العمليات الفرنسية بسبب سوء إدارة تصرفات قائدها، جمع قواته ولجأ إلى المخيم الانجليزي، وانضم إليه عند طرانه يوم 28 مايو مع ألف وخمسمئة فارس. وأدى هذا الدعم إلى تحسين موقف الحلفاء. وفي 5 يونيو خيم الجنرال هاتشينسون في أوأردان (Ouardàn)، ووصل يوم 19 إلى إمبابة، وكان على يمينه قبودان باشا، وكان الصدر الأعظم على يساره على ضفة النيل المواجهة، خلف البحيرة. ونصب في هذا المكان جسرًا طوله 90 قامة، وكان في حاجة إلى ستين زورقًا. وازداد جيش الصدر الأعظم عشرة آلاف من البدو الذين جاءوا من جميع أنحاء الصحراء على أمل النهب.

خامس عشر: في يوم 21 يونيو دفع الجيش الانجليزي بقواته إلى الجيزة، واستقبل ذلك اليوم الفرقتين 42 و28، واللتين جاءتا من معسكر الإسكندرية وكانتا قد غادرتاه في 10 يونيو، بعد وصول احتياطيات مالطة الأولى، وسد ذلك الفراغ بسبب الأمراض. وعلاوة على ذلك، كان الجنرال بليار قد عقد المجلس الحربي قبل عدة أيام للتشاور بشأن اتخاذ قرار، وكانت الآراء منقسمة بشدة، فأراد البعض الخروج من أحد الشواطئ مع جميع القوى المتاحة وشن المعركة شاملة، واقترح آخرون الانتقال إلى دمياط، وكان الرأي الثالث الصعود إلى صعيد مصر وإطالة الحرب. وساند العقيد دوبا (Dupas)، قائد القلعة، الرأي الأول بشدة:

"كان لا يوافق أنه من الممكن استسلام عشرة آلاف فرنسي، وتسليم أسلحتهم إلى من؟ هل إلى الأتراك، أم إلى الانجليز؟ لقد أثبتت التجربة اعتبار الأتراك شيئًا بلا قيمة، أما الانجليز فلم يكن هنالك شك في أنهم كانوا قبل الجيزة، ولكن عددهم لم يكن معروفًا، وكانت الطريقة الوحيدة للتعرف على العدو هي مهاجمته، فيضطرون إلى الانتشار ليمكن حصر عددهم بسهولة في ميدان القتال. وإذا كانوا أقل من سبعة آلاف رجل على الضفة اليسرى لنهر النيل، ومهما كانت قوات قبودان باشا، فيمكن السير على أجسادهم. وإذا كانوا كثيرين جدًا ولا يمكن دحرهم، نستمر في دعم المعركة حتى الليل، وعند ذلك، نعود إلى الخنادق. وسيكون لدينا الوقت الكافي للتفاوض، وكان الأفضل كثيرًا للجمهورية أن يموت عشرة آلاف رجل من حامية القاهرة شرفاء على أن يعود عشرة آلاف من الجنود يخجل منهم الوطن".

أما الجنرال دونزولوا (Donzelot) فقد اقترح المقاومة بضعة أسابيع في انتظار تزايد ارتفاع النيل، والقيام بكل الاستعدادات للصعود بعد ذلك إلى صعيد مصر، حيث يمكن لنا مواصلة الحرب عدة أشهر. وإتاحة فرص المناورات سيكون في صالح الفرنسيين؛ لأنهم كانوا يعرفون البلاد أفضل من أعدائهم. واقترح الجنرال موران، بالنظر لأنه لا يوجد سوى الأتراك على الضفة اليمنى لنهر النيل للسير على أجسادهم، باتخاذ موقع في دمياط، فيكون لدينا وفرة من المواد الغذائية، وشبه جزيرة ومواقع من السهل الدفاع عنها، ويمكن البقاء فيها فترة طويلة. ومن جانبه رأى الجنرال لاغرانج أنه لا يمكن عمل شيء دون أوامر من القائد العام، ونحتاج قبل كل شيء

إرسال ضابط له عن طريق الصحراء، وانتظار الرد. ورفضت أغلبية المجلس بسخط أي اقتراح بشأن الاستسلام، وانضموا إلى الرأي بتوقيع اتفاقية جلاء على أساس اتفاقية العريش. واعترض العقيد دوبا (Dupas) وكثير من أعضاء المجلس على هذا القرار، ورفضوا الانضمام إليه.

في يوم 25 يونيو، وقع الجنرال بليار اتفاق الجلاء وفقًا لرأي المجلس. وفي 4 يوليو، فإنّ ضابطًا موثوقًا به، حمل أوامر الجنرال مينو، وعبر مع مئة من الإبل جميع مراكز الجيش الانجليزي، مثل البدو، ووصل إلى المواقع الفرنسية. وفي يوم 10، سلم الجنرال بليار القاهرة، وفي يوم 15 [سلم] الجيزة. وفي اليوم التالي وصل أول ضباط فرقة الهند الشرقية إلى القاهرة، وأعلنوا أن الجنرال بيرد (Baird) سافر من جدة ونزل من البحر في القصير. وكانت قوة الجيش الذي استسلم في القاهرة 14300 (أربعة عشر ألفًا وثلاثمئة) رجل، وسافر بحرًا (13734) ثلاثة عشر ألف وسبعمئة وأربعة وثلاثون، وهرب إلى المماليك خمسمئة رجل، وكان لدى الجيش خمسون مدفعًا مقطورًا، مع ضعف المئونة. ولا يمكن التعبير عن دهشة الجنرال هاتشينسون، فقد طلب المنسق منه في أعقاب التوقيع سبعة عشر ألف حصة، وهو ما اعتقد في البداية أنها حيلة حرب. وعندما تأكد [هاتشينسون] أنه قد سار ضد أربعة عشر ألف رجل، وكان من بين هؤلاء عشرة آلاف بحالة جيدة من الجنود الأصحاء، القادرين على كل شيء، أدرك في رحلته كل هذا الجنون، وأن الحظ الأعمى قد توج الحملة بنجاح لا يصدق.

كان مجموع جيش الجنرال بليار 14600 (أربعة عشر ألفًا وستمئة) رجل من المشاة والفروسية. الجنرال مور وقبودان باشا عززا بفرقة من جيش الصدر الأعظم، ورافقا الجيش الفرنسي في مسيرته إلى رشيد، وكان هذا الأخير هو الأقوى، وهو ما أثار غاية قلق الانجليز حتى اللحظة الأخيرة. فقد كانوا يخشون من أن يطيب للفرنسيين النكوص عن الاستسلام ومهاجمتهم. وبالتالي لم يعترضوا على أي شيء، وشعروا بارتياح كبير حينما تم إبحار الجيش في خليج أبو قير يوم 7 أغسطس، وتحت حماية مدافع سفنهم الحربية. وعندئذ علت أصواتهم. وتم إنزال فيلق بليار في المحاجر الصحية في طولون ومرسيليا، في غضون شهر أكتوبر، مع أسلحته ومدافعه وأعلامه. ووجد الانجليز في القاهرة مخازن ضخمة من الأرز والقمح والدقيق والبسكويت، واللحوم والأعلاف، والمدافع والبارود، وغيرها. لم يكن الفرنسيون يحتاجون إلى شيء، وكان يمكنهم الدفاع عن أنفسهم ستة أشهر.

سادس عشر: كانت أوامر الوزارة الانجليزية قد وصلت إلى الهند في نهاية يناير1801. وتم تعيين اللواء بيرد (Baird) لقيادة فرقة، كانت قوتها عند ركوب البحر 6500 (ستة آلاف وخمسمئة) رجل من الضباط، وضباط الصف، بالإضافة إلى الجنود. وكان بينهم مائتان وعشرون فارسًا، ومئة وعشرون رجل مدفعية، والباقون كلهم من المشاة. وتم نقل ألف ومائتي شخص من حامية الرجاء الصالح؛ بما مجموعه 7700 (سبعة آلاف وسبعمئة)

رجل. ولم تصل هذه الفرقة إلى مضيق باب المندب إلا في شهر أبريل، وقد انتهت الرياح الموسمية الجنوبية، وبدأت رياح الشمال. ولما كان من المستحيل صعودها البحر الأحمر، فقد رست أخيرًا في ميناء جدة يوم 28 يونيو، وعلمت [الفرقة] هناك بخبر إنزال الجنرال أبيركرومبي إلى الشاطئ، ومعركة 21 مارس. ولما كان مستحيلاً على الجنرال بيرد (Baird) الوصول إلى السويس، فقد قرر الإنزال في القصير، حيث وصل إليها فعلاً في 20 يوليو بعد شهر من استسلام القاهرة. وحصل على 5000 (خمسة آلاف جمل) لعبور الصحراء، ووصل إلى قنش (Qench) في أول أغسطس، ومنها أبحر على النيل، وانتقل في عشرة أيام إلى القاهرة، وخيم في جزيرة الروضة للتعافي من التعب. وأبحر من جديد على النيل، وبعد ثلاثة أيام وصل قبالة رشيد يوم 5 سبتمبر. وانخفضت فرقته إلى 6000 (ستة آلاف) رجل، ومات منها200 (مائتان)، وهرب 400 (أربعمئة) وكان 1100 (ألف ومئة) مرضى. واستسلمت القاهرة في 25 يونيو، والإسكندرية في 2 سبتمبر، ولم يكن هذا الطاقم مفيدًا، على الرغم من أنه كلف خزينة شركة الهند الشرقية كثيرًا من المال. ولو كان الجنرال بليار قد استمر في البقاء بالقاهرة، ما استطاع الجنرال بيرد الحصول على وسائل الانتقال من القصير إلى النيل؛ لأنه كان لا بد من كل تأثير سلطة الصدر الأعظم على القاهرة، من أجل الحصول على هذه الكمية الكبيرة من الجمال.

وإذا كانت هذه الفرقة قد مرت عبر مضيق جبل طارق، لكانت ستصل إلى أبو قير قبل شهرين وأقل تعبًا بكثير. وكان ينبغي أن توجد هذه القوات في مضيق باب المندب في شهر يناير 1801، ولهذا السبب كان يجب رحيل أوامر لندن في شهر يونيو أو يوليو 1801. فقد كانت الرياح الجنوبية السائدة خلال فصل الشتاء، قد أوصلتها بعد خمسة عشر أو عشرون يومًا إلى السويس، وكانت ستجد عند وصولها إلى السويس صعوبة أكبر بكثير في التغلب على عبور الصحراء. ولم تكن تستطيع الحصول على الوسائل الضرورية إذا كان الفرنسيون أسياد القاهرة.

سابع عشر: ضاعت مصر، ولم يبق للفرنسيين إلا موقع الإسكندرية. وكان موقف اللواء كوت (Coote)، قائد معسكر الرومان خلال أشهر مايو ويونيو ويوليو في غاية الحرج، فقد امتلأت [الإسكندرية] بالخنادق، وكان لديه في شهر يونيو العديد من المرضى، ولم يعد يقدر على القيام بالخدمة سوى4000 (أربعة آلاف) رجل، من بينهم ضباط ورقباء من جميع الأسلحة. ومع هذا العدد القليل من القوات كان من المستحيل عليه الحفاظ على موقع جبهته بطول 1300 قامة. وإذا كان مينو قد هاجمه، وكان يمكنه ذلك بواسطة 7000 (سبعة آلاف) رجل والعديد من المدافع، لكانت جميع احتمالات النجاح في صالح الجنرال الفرنسي، ولكان مثل ذلك الحدث قد غيّر وجه الأمور، لأنه كان يسبق استسلام القاهرة. ولكن في سياق شهري يونيو ويوليو، جاءت تعزيزات من مالطة، ومن ماهون، ومن إنجلترا، تم إنزالها في أبو قير، وكانت تتألف من خمسة أفواج من خط قوات انجليزية، وفصيلة

حرس قوية، وكتيبة أيرلندية، وفوج سويسري من واتفيل (Watteville)، وفرقة من المقاتلين الانجليز تكونت من بقايا ألوية جيش كوندي (Condé)، وهو ما مجموعه 7000 (سبعة آلاف) رجل. عندئذ تم تشكيل الجيش الانجليزي من ست كتائب مع الاحتياط ، وهي: لواء حرس، وكتيبتان، أول لواء الفرقتين 25، 44، وأول وثاني كتيبة من الفرقة 27، اللواء الثاني فرقة 26، الأول والثاني كتيبة من الفرقة 54، واللواء الثالث من الفرق 90، 8، 79،18 واللواء الرابع فرق ستيوارت (Stuart)، وديلون(Dillon) [De Roll] واتفيل (Watteville) ، واللواء الخامس الفرق 89،30 ، 50، 92، واللواء السادس أول وثاني كتيبة من الفرقتين 20، 24، ومن قدامي المتطوعين الأيرلنديين، والاحتياط، وفرقة الملكة، والفرق 23، 28، 42، 58، 40 وقناصة من كورسيكا، وقناصة بريطانيين؛ والمجموع أربعة وثلاثين كتيبة، بدون احتساب فرقة الهند، والفروسية فرق 13، 11، 22، 12 وجنود خيالة خفاف. وبمجرد أن أبحر جيش الجنرال بليار، دخلت الفرقة الانجليزية إلى معسكر الرومان، حيث أقام الجنرال هاتشينسون مقره، وكان لديه ستة عشر ألف رجل مسلحين، وكان الجنرال مينو عنده عشرة آلاف في الإسكندرية. وإنّ قطع حاجز بحيرة المعدية، والتي شكلت بحيرة مريوط، قد أحبط المهندسين الانجليز، فقد جعل مدينة الإسكندرية قوية جدًا. وتم ترميم جدار العرب تمامًا؛ وأصبحت الأبراج مسلحة، وعلى بعد 500 قامة أمام الباب رشيد، كان معسكر قوي محصن طوله 1500 قامة، يستند يمينه إلى بحيرة مريوط، ويساره إلى عرض البحر. وكان يعمل فيه ستمئة من الرجال منذ أربعة أشهر، فلم يكن فقط في منأى عن هجوم مفاجئ من جهة، ولكنه كان قادرًا على مواجهة أكثر مقاومة لهجمات منتظمة؛ لأن العدو لا يمكن أن يطوقه، ويستطيع المُحاصَرُ الاستيلاء على نفس قدر المُحاصِر من البطاريات. وقد اعتمد المهندسون الانجليز خطة مهاجمة الإسكندرية من جهة الغرب، واتجهوا لهذا الغرض قبالة قلعة المرابط للاستيلاء على تلك القلعة التي من شأنها أن تسمح لسفنهم بدخول الميناء القديم ودعم الجناح يسار جيشهم الذي قد يسير إلى الإسكندرية، على الجانب الغربي من البرزخ بين البحر وبحيرة مريوط، بينما الزوارق الحربية المسلحة تحمي اليمين على طول البحيرة. ويبدو أن هذا المشروع كان مخاطرة كبيرة، وتهورًا كبيرًا، وكان يمكن أن تكون له عواقب مروعة.

وفي يوم 15 أغسطس، دخل بحيرة مريوط ستة وعشرون من الزوارق الحربية والإنجليزية والتركية، وتبادلا بضع طلقات المدافع مع الأسطول الفرنسي الذي تراجع حاملاً بطارياته. وتعّرف ضابط من القيادة الإنجليزية، وضابط من المهندسين، عند البرزخ من قلعة المرابط حتى الإسكندرية. ويوم 16 [أغسطس] نزل الجنرال كوت (Coote) مع الحراس والجنود الذين كانوا لا يزالون يتمركزون في معسكر الرومان طوال الحملة، والذي بلغ عددهم حوالي خمسة آلاف رجل، نزل [كوت] بين المرابط وبرج العرب، وأخذ موقعًا أمام قلعة المرابط. وفي نفس اليوم شق المهندسون الخندق، وفي المساء أعطى الجنرال مينو الأمر بإضرام النار في سفن

الأسطول، ودفعها تجاه أسطول العدو حيث تستخدم حراقة. وكان دون تأثير، وهكذا كان العدو المسيطر المطلق على كل البحيرة، ودون منازع.

وكانت المرابط عبارة عن قلعة بناها المهندس كريتان على جزيرة على بعد 75 قامة من الأرض الصلبة، وقد وضع هنالك برج عند أحد ممرات مرسى الإسكندرية الطبيعي لإرسال الإشارة. وتم الاهتمام بترميم التحصينات، خاصة جهة البحر، ولم يكن الجيش يحتل أية مساحة على الأرض الصلبة، وعلى الأقل كان من الضروري بناء نوع من حصن داعم، لإجبار العدو أن يستقر هناك ليهاجم سور الجزيرة. وبدلا من ذلك، تم ترك صخرة على الأرض الصلبة تسيطر على الجزيرة. وأسكتت القناصة الانجليز، من الفرقة 14، الذين اتخذوا مكانًا عليها، نار المرابط، وهو ما سمح ببناء بطاريتين دون عائق، في كل منهما ثلاث قطع [مدفع] من عيار 24. وفي يوم 18 [أغسطس] بدأتا إطلاق النار، وفي يوم 20 انهار البرج، وفي مساء نفس اليوم استسلم القائد إتيين (Etienne)، وكان لديه عشر قطع مدفع، ومئة وعشرون من رجال الحامية. وكان يمكنه أن يقاوم عدة أيام أخرى، ولم يكن الهجوم ممكنًا. ودخل الكابتن كوشران (Cochrane) في الميناء مع سبع زوارق حربية، وبدأ الجنرال كوت التحرك في طابورين صباح يوم 22 [أغسطس]، متوجهًا إلى الإسكندرية، ويحيطه من اليسار واليمين سفن مسلحة. وهناك أماكن كان فيها عرض البرزخ [الساحل] 300 قامة فقط، لكن هذا الجانب من المدينة كان مهملاً تمامًا. ووصل الجنرال كوت إلى مرمى مدفع حصن الحمامات واتخذ موقعًا هناك، ودعمه الجنرال هاتشنسون بقوة العقيد سبنسر (Spencer) من ألف وخمسمئة رجل، وفصيلة تركية من سبعمئة رجل. وكانت هناك كتيبة فرنسية، وسرب من الفرسان، وكتيبة من المدافع تحت المراقبة على موقع حصن الحمامات، ما أدى إلى نشوب العديد من المناوشات والمعارك ليلاً، وشارك الجيشان في النجاح. ويوم 21، فتحت نيرانها ضد حصن الحمامات بطاريتان من ثلاثة قطع مدفعية من عيار 24، وخمس مدافع هاون، ولكن غرقت المنصات وتوقفت النيران. ورد الفرنسيون من جانبهم وألقوا العديد من القنابل في المعسكر الإنجليزي. وفي الوقت نفسه، أمر الجنرال هاتشنسون بإقامة بطارية على التل الأخضر، والتي فتحت النار على يمين المخيم الفرنسي المحصن، على الجانب الشرقي، مع عشرة مدافع من عيار 24، وستة من عيار 12، واثنين من القذائف.

ثامن عشر: لم يكد يبدأ الحصار، وكان الجنرال كوت على الجانب الغربي، الأقرب إلى الإسكندرية، وكان لا يزال بعيدًا حوالي 700 قامة من الحصن المثلث، عندها أرسل الجنرال مينو برلمانيا للتفاوض. وقد كان الضباط الجنرالات، منذ عدة أيام، يلتمسون منه عقد مجلس حربي لإسداء المشورة لوسائل إنقاذ بقايا الجيش، ولم تكن المناقشات في هذا المجلس أقل حيوية عن تلك التي دارت في القاهرة. وقام الجنرالات ديستان (Destaing) وديلزون (Delzons) وزايونشيك، (Zayonchek) والعقيد المهندس برتران، بالإفصاح عن رأيهم بالدفاع عن

أنفسهم إلى أقصى درجة، وعدم الاستسلام وفقا للقوانين العسكرية، إلا أن يتم الاستيلاء على كل التحصينات الخارجية، واختراق الجدار الأول، والثغرة التي يمكن المرور منها بسهولة في سور البرزخ. وقد رأى غالبية أعضاء المجلس أنه لا ينبغي دون شك أن يكون هناك موضوع استسلام أو إلقاء السلاح، ولكن إذا كان من المستطاع – ويبدو أنه ممكن - الحصول على شروط كاتفاقيات العريش والقاهرة، فينبغي القبول. وبدأت المفاوضات في 29 أغسطس 1801، وتم التوقيع على الاستسلام، وتم التصديق عليه في 2 سبتمبر، وتسليم الأبواب يوم 3. وأبحرت الفرقة الأولى من الجيش الفرنسي يوم 14 سبتمبر من أبو قير، واستمر ركوب البحر حتى يوم 30 من نفس الشهر.

وفي يوم 15 نوفمبر وصل السفينة الشراعية لودي (Le Lodi) من طولون، ورست في الإسكندرية، وجاءت بخبر من تصريحات لندن، وبعد ثلاثة أيام أخطرت الحراقة لابادين (la Badine) بها رسميًا.

وكان الاستسلام هو نفس استسلام القاهرة والعريش، ما يدل بوضوح كم كانوا مذنبين، هؤلاء الذين كانوا عام 1800، حين لم يكن جيش العدو في البلاد، ووقعوا على نفس الاستسلام الذي سارع الانجليز بتوقيعه بعد عامين مع ما تبقى من الجيش، والذي كان لا تزال له هيبة، حتى بعد ستة أشهر من الحملة، على الرغم من وجود جيشين من الأتراك، وكذلك اثنين من الجيوش الانجليزية، بلغ عددهما اثنين وثلاثين ألف رجل.

لم يكن الجيش أبدًا أسير حرب، وعاد الضباط والجنود كلهم إلى وطنهم مع أعلامهم وأسلحتهم ومدافعهم وأمتعتهم. وكانت حالت الرجال الذين عادوا إلى فرنسا بعد الاستسلام من القاهرة والإسكندرية كما يلي:

	المشاة والفروسية	المدفعية	الملاحون	المرضى	المدنيون	المصريون	المجموع
القاهرة	11600	180	350	800	82	750	24662
الإسكندرية	6200	1000	1500	1400	680	120	
	17800	1180	1850	2200	762	870	

جاء 2030 رجل بشكل منفصل، ومن خلال التنازلات خاصة:

	رجل
حامية قلعة أبو قير	150
حامية حصن جوليان	210
حامية الرحمانية	110
أسرى في النيل	150
مع العقيد كافليه	560
حامية لسبيه والبرلس	630
أسرى في معارك مختلفة	100
حامية المرابط	120
المجموع	2030

عاد إذن إلى فرنسا (26192) ستة وعشرون ألفًا ومئة واثنان وتسعون رجلاً، ولا بد من طرح ثمانمئة وسبعين مصريًا، وألف وثمانمئة وخمسين من البحارة الذين كانوا جزءًا من الجيش البري، وبالتالي يكون العدد (23972) ثلاثة وعشرون ألفًا وتسعمئة واثنين وسبعين رجلاً من جيش مصر الذي عاد إلى فرنسا. وكان هذا الجيش في أول مارس 1801، وقت إنزال الانجليز (27400) سبعة وعشرين ألفًا وأربعمئة رجل، وبذلك يكون قد فُقد (3428) ثلاثة آلاف وأربعمئة وثمانية وعشرين رجلاً، سواء في ساحة القتال، أو الذين توفوا بسبب الأمراض في المستشفى، أو الفارين. وبلغ عدد الفارين خمسمئة وخمسين، بينهم خمسون لجأوا إلى القوات الانجليزية، وخمسمئة رجل انتسبوا إلى المماليك.

وفقد الجيش الانجليزي سبعة آلاف رجل بين قتيل وجريح، أو من مات بسبب الأمراض في المستشفيات. ولا يوجد شعب فقد مثل هذا العدد في البلدان الحارة، إلا الانجليز.

ووجد العدو في الإسكندرية أربعمئة وخمسة وخمسين قطعة مدفع على بطاريات البر، وثمانين فوق السفن، ومائتي ألف بارود، وثمانمئة من الإبل، وثلاثمئة من الخيول، ومخازن ضخمة من الأرز والبن والزيت.

ورفض العقيد المهندس برتران الانضمام إلى الاستسلام، وحاولوا دون جدوى أن يوضحوا له أنه لا داعي للدفاع الآن، وأن الأميرال جانتوم كان قد حاول البقاء في البحر لتقديم الإغاثة، وعاد إلى طولون، فكانت إجابته:

"أنّ وجهات نظر قائد الميدان ومجلس الحرب لا ينبغي أن تتجاوز الأسوار؛ فهل كان لدينا المؤن؟ هل تعرضنا للتهديد بالهجوم؟ هاتان القضيتان فقط ينبغي معالجتهما، وأن الأمراض حصدت الكثير من الناس في معسكرات الانجليز، وأن آخر السفن التي جاءت من أوروبا تخبرنا أن هناك تفاوض للصلح. وبوضع كل هذه الاعتبارات جانبًا، فإنّ شرف الأسلحة يتطلب تمديد الدفاع إلى آخر يوم، وإن كان حصول العدو على مصر سهلا جدًا. فقد يمكننا تمديد الدفاع شهرين آخرين، وإذا اضطررنا في نهاية ذلك الوقت إلى التسليم كأسرى حرب، نعود إلى الوطن بمزيد من المجد ومزيد من التقدير، أكثر من استسلام مثل العريش، وأن الاستسلام بشروط أكثر فائدة لم يكن أكثر شرفا".

ولو كان مينو قد استطاع البقاء على حاله في الإسكندرية حتى 15 نوفمبر، لكانت ستنقذه مفاوضات لندن، وأخذ موقفه بعين الاعتبار بعض الشيء في الشروط النهائية لصلح أميان (Amiens).

وكان موت مراد بك كارثة بالنسبة لأتباعه، فلم يكن عند عثمان باشا الذي خلفه أي خبرة وترك نفسه لعبة في يد قبودان باشا عندما أبحر مع العديد من البيكوات في قاربه على بحيرة مريوط للذهاب للعشاء في ميناء الإسكندرية. وعندما تعرضوا لنيران زورق مدفعية تركي، نزل قبودان من المركب بحجة الرد مباشرة على برقيات وصلته، وبناء على أوامره أرادوا إبحار البيكوات على مركب المدفعية لاصطحابهم إلى القسطنطينية، وقاوموا وتم قتل أربعة منهم، وكان من بينهم رئيسهم عثمان بك، وجرح ثلاثة منهم بجروح خطيرة، وأطلقوا سراحهم بناء على طلب متكرر من الجنرال الانجليزي. وفي أثناء ذلك الوقت كان الصدر الأعظم يقوم بنفس العملية في القاهرة. أما أولئك الذين نجوا من المجزرة المزدوجة فتجمعوا في صعيد مصر، وظلوا هناك لبضع سنوات، ثم اجتازوا شلالات الجنادل واستقروا في دنقلة. وإنّ شخصية الجنرال هتشنسون قد وضعته دون أي شك بعيدًا عن المشاركة في هذه المجزرة، فقد عمل ما استطاع لحماية المماليك، لكنه عانى من المتاعب التي يتعرض إليها رجل شريف يتحالف مع برابرة.

تاسع عشر: بعد معركة أوستيرليتز (Austerlitz)، وإينا (Iéna)، دخلت الجيوش الفرنسية بولندا. ولاستدعاء جيش الدانوب من الشمال لجأ القيصر إلى تأثير انجلترا ليتخلص من الحرب التي شنها عليه الباب العالي. وعبر الأميرال الانجليزي داكورث (Duckworth) مضيق الدردنيل مع سرب من تسع سفن من الخط، وعدة فرقاطات، وعدد قليل من قذائف الهاون عبرت، ورسا في يوم 19 فبراير 1807 قبالة القصر. وذهب السفير الانجليزي على متن سفينة، ومن هناك بدأ المفاوضات لإجبار الباب العالي على عقد الصلح مع روسيا، مع التخلي لها عن فالاشي (Valachie)، ومولوفا (Moldavie)، وإعلان الحرب على فرنسا. وكان الجنرال سبستياني (Sebastiani) يقيم في القسطنطينية سفيرًا لفرنسا، وكان يعرف يستغل الغضب الذي يكنه الشعب العثماني، ووضع بنفسه العديد من البطاريات التي تم تسليمها في أيام قليلة بأكثر من مائتي مدفع. فقد الأميرال الانجليزي اللحظة المناسبة،

ومدركًا بأنهم بصدد العمل بنشاط لإغلاق السماح له بالمرور عبر الدردنيل. رفع المرساة يوم 3 مارس، ودخل البحر المتوسط، وليس من دون مخاطر، فقد حدثت عدة أضرار في عبور الدردنيل، حيث فقد ثلاثمئة أو أربعمئة رجل. إن فكرة هذه العملية البائسة لا تشرف الحكومة الانجليزية، من الهجوم على المدن في وقت السلم، وحرق سفن أمير صديق، وانتهاك عاصمته، مع الإبقاء على سفيره بالقرب منه، تعدى على سياسة الحكومة مع سبع سفن [...] الخ(*).

وفي نفس الوقت، سافرت فرقة من ستة آلاف رجل من ميسينا (Messine) تحت قيادة الجنرال فرازير (Fraser)، ووصلت في 16 مارس 1807 قبالة الإسكندرية. وقد تم إنزالها هناك في المرابط، ومن هناك اتجهت برًا إلى شبه جزيرة أبو قير، بينما كانت السرية تستعد للرسو في الميناء. ولم يكن في الإسكندرية سوى حامية من أربعمئة أرناؤوط. وفي 21 مارس استلم الميدان، وأراد سيد الإسكندرية، الجنرال الانجليزي، أن يكون سيدًا لرشيد، فكوَّن مفرزة من ألفين وخمسمئة رجل. واقتحم ألف وخمسمئة من الألبانيين المنازل، وعندما رأوا الجنود الانجليز في الشوارع، بدأوا في إطلاق النار، وقتلوا أو جرحوا أو أسروا ألفًا وخمسمئة. ويوم 9 أبريل وصل الجنرال ستيوارت مع تعزيزات، وتولى القيادة، وتعرض لكثير من الفشل بما فيه الكفاية. وأخيرًا، في شهر أغسطس نزل الباشا نفسه من القاهرة مع جيشه، ووافق الانجليز على الاستسلام والجلاء عن مصر، في يوم 22 سبتمبر، بعد إقامة دامت ستة أشهر.

ومن الصعب تفسير هذه العملية السيئة، وكان مشروع الاستيلاء على الإسكندرية في زمن السلم مخالف للقانون، لكنه كان مفيدًا لصالح الانجليز لضمان تأمين امبراطورية هندستان، وإقامة مؤسسة تجارية في السويس. ولم يكن ستة آلاف رجل كافيًا، فكان لا بد من عشرة آلاف رجل، وجنرال أكثر مهارة(**).

في عام 1802، توصل مهندس سويدي جاء من القسطنطينية لإعادة تشيد جسر ترعة المعدية على ما كان عليه، [وذلك] ليس دون نفقات كثيرة، وأشغال ضخمة. كانت بحيرة مريوط قد اختفت مرة أخرى، وكان قاع الجزء الأسفل من البحيرة لا يزال مغطى بقشرة بيضاء من الملح. وقد رأى الجنرال ستيوارت أن من المستحسن هدم هذا الجسر مرة أخرى لسلامة مدينة الإسكندرية. وعند مغادرة الميناء صب في ممرات الميناء القديم العديد من سفن نقل ضخمة محملة بالحجارة.

(*) هذه الجملة لم تتم في المخطوط.

(**) لم تكتمل هذه الجملة في المخطوطة.

وقد أثار إجراء الانجليز الغضب في جميع أنحاء الامبراطورية العثمانية: (1) فلماذا يقوم الانجليز في وقت السلم باغتصاب أقاليم العاصمة، أكانوا يريدون إملاء قرارات سياسية على الباب العالي تحت قوة السلاح؟ (2) وهم في نفس الوقت يريدون إجباره على التضامن مع روسيا وانجلترا ضد فرنسا، وجاءوا للاستيلاء على الإسكندرية والإقامة فيها. (3) ومن أجل فائدة طفيفة، قطعوا من جديد حاجز ترعة المعدية، ليعرضوا مدينة كبيرة إلى الخراب. (4) وأخيرًا، بعد ترك هذه المدينة، وذلك بعد الاستسلام، فكانوا ينتهكون كل القوانين، ويدمرون ميناءها الملكية لقوة أجنبية كانت تصرّ على الحفاظ على صداقتها بالرغم من هذه الأحداث المختلفة. كان ذلك استهانة بكل ما هو أكثر قداسة بين البشر.

عشرون: الملاحظة الأولى على خطة الحملة

قامت الحكومة الإنجليزية بالحرب على مصر عام 1801، بجيش من ستين ألف رجل مسلح بما في ذلك أربعة وثلاثون ألف انجليزي، وستة وعشرون ألفًا من الأتراك، أي تسعة عشر ألفًا وخمسمئة انجليزي أبحروا مع سرب الأميرال كيث، ونزلوا في أبو قير في مارس، وفي أغسطس تم إنزال سبعة آلاف وخمسمئة من جيش الهند في القصير، وسبعة آلاف رجل من الاحتياط، غادروا لندن وجبل طارق وألمانيا، ونزلوا في أبو قير في يوليو. وركب ستة آلاف من الأتراك على متن أسطول قبودان باشا، ونزلوا يوم 25 مارس في أبو قير. وأخيرًا تجمع ستة عشر ألف شخص في فلسطين، تحت قيادة الصدر الأعظم، ووصلوا إلى مصر في مايو. وبفضل هذه القوة الكبيرة، كان لمجلس الوزراء الانجليزي أن يحقق النجاح، لكنه اتخذ خطة معيبة للغاية، على خلاف كل مبادئ فن الحرب، الأمر الذي مكّن وسبب فشل الحملة:

1) الأوامر التي جاءت من لندن في أكتوبر لم تكن لتصل الهند قبل أواخر يناير، والفرقة التي كان ينبغي أن تغادرها لم يكن وصولها ممكنًا إلى مضيق باب المندب إلا في شهر أبريل بعد الرياح الموسمية الجنوبية، ومن ثم فإنها كانت ستتعرض للرياح الموسمية الشمالية، فلا يمكنها صعود البحر الأحمر والوصول إلى السويس خلال الصيف كله. ولكن هل كانت قد وصلت في موعدها إلى القصير أو السويس، ولم يتم تزويدها بأي من الوسائل اللازمة لعبور الصحراء. وفي الواقع رست هذه الفرقة في القصير في أغسطس، بعد ستة أشهر من نزول أبيركرومبي إلى أبو قير. وإذا كانت قد عبرت صحراء قفط فقد كان ذلك لأن الصدر الأعظم، الذي كان يسيطر على القاهرة، قد استطاع أن يوفر لها خمسة آلاف من الإبل، وهو ما كان لا يستطيع عمله إذا لم يكن الحلفاء قد انتصروا فعلاً. ولم يكن ممكنًا أي تحويل عن طريق البحر الأحمر، لفرقاطتين وحراقة

مع إنزال مائتي رجل، هو كان كل ما يلزم إرساله إليها لاحتلال السويس والقصير، وكان يجب ترك جيش الهند في هدوء على نهر الجانج (Le Gange) وزيادة جيش أبيركرومبي بنفس العدد،

2) الاحتياط الذي غادر لندن وجبل طارق لم يصل إلى مصر إلا ستة أشهر بعد الجنرال أبيركرومبي،

3) لم يصل ستة آلاف رجل مع قبودان باشا إلى أبو قير إلا عشرين يومًا بعد الجنرال أبيركرومبي،

4) لم يعبر الصدر الأعظم الصحراء ولم يدخل إلى مصر إلا في شهر مايو، بعد ثلاثة أشهر، يشكل بدلاً من أربعة وثلاثين ألف انجليزي وستة وعشرين ألف تركي، لم يصل الجنرال أبيركرومبي إلى مصر إلا مع تسعة عشر ألفًا وخمسمئة انجليزي، مجردين من كل شيء. وإذا كانوا قد انهزموا، كما كان ينبغي أن يكون، فما فائدة فرق الهندستان واحتياط قبودان باشا والصدر الأعظم،

5) نزل الجنرال أبيركرومبي إلى البر دون عربات المدفعية، ودون خيول الفروسية، ولم يكن لديه ما هو ضروري لجيش، ومع ذلك كان قد أمضى شهرين في مالطة وشهرين في أسيا الصغرى لتدبير استعداداته، وفي أثناء تلك الأشهر الأربعة كان من السهل على الإدارة توفير ألفين وخمسمئة حصان التي كان يحتاج إليها، حيث كان يستطيع شراءها من صقلية، وتونس، وطرابلس ودرنه، وكاندي (Candie)، واليونان، ومن آسيا الصغرى، وقبرص، وحلب، وطرابلس السورية، وعكا، ويافا. وقد ارتكب هذه الأخطاء مجلس الوزراء الذي صمم على خطة الحملة، وهو دليل جديد على سوء الإدارة الإنجليزية، الأكثر عيوبًا في أوروبا.

الملاحظة الثانية: عن مناورات الجنرال أبيركرومبي:

في نهاية شهر فبراير، غادر الجنرال أبيركرومبي ماكري، ورسا يوم 2 مارس في خليج أبو قير، وكان يعتقد فعلاً أنه سيد الإسكندرية وأنه سيقنع الفرنسيين بقبول اتفاق العريش، ومن ثَمَّ فإنه سيحقق هدف حكومته، وبدون أية مخاطرة، ولكن:

1) **كان عليه أن ينتظر موسمًا كاملاً، فالبحر في شهر مارس سيء للغاية في هذه الأماكن، ولم يكن يستطيع أن يصل إلى مياه الإسكندرية إلا في 15 أبريل.**

2) **ينبغي تجهيز سلاح الفرسان والمدفعية المقطورة وبدون سلاح الفرسان، وبدون استخدام المدفعية المقطورة كان سيعرض جيشه إلى كثير من المخاطر.**

3) **هنا ارتكب خطأ كان قد ارتكبه بالفعل عام 1799 في هولندا، فقد كان ينبغي عليه أن يلتقي مع قبودان باشا في ماكري، ويرحل معه إلى ميناء يافا، ويبحر فيه ستة آلاف رجل من رجال الصدر الأعظم، بما في ذلك إبراهيم بك مع المماليك على خيولهم، وكان قد ظهر حينئذ في 15 أبريل في ميناء أبو قير مع تسعة عشر ألفا**

وخمسمئة انجليزي، واثني عشر ألف تركي، من بينهم ألفان وخمسمئة من الفرسان، وكان قد وصل إلى الإسكندرية قبل وصول الجيش الفرنسي من القاهرة، لإنقاذ هذا المكان.

4) وصل الجنرال أبيركرومبي قبالة الإسكندرية في 1 مارس، ولم ينزل إلى الشاطئ إلا يوم 8، وكان الطقس سيئًا، وذكر أنه وصل منذ ثمانية أيام. وكان المفروض أن يكون قد وصل فعلاً نصف الجيش الفرنسي، أي بين عشرة آلاف إلى اثني عشر ألف رجل على الشاطئ. وكان يجب عليه حينئذ أن يرفع مرساه، ويختفي من أمام أبو قير، ويهدد بعملية إنزاله في دمياط لكي يجذب إليه الجيش الفرنسي، ثم يعود بشكل غير متوقع مسافرًا بالبحر بعيدًا عن اليابس، ويحقق الإنزال في أبو قير.

5) اضطر الأميرال كيث، الذي كان تحت قيادته تسعة سفن مسلحة خط حرب، والعديد من السفن الصغيرة التي لا توجد عليها قوات، اضطر إلى عمل ثلاث هجمات مصطنعة، هجمة على المرابط، وواحدة على رأس التين، والثالثة على المنارة، وكل هجمة مكونة من سفينتين حربيتين، أو ثماني أو عشر فرقاطات وحراقات والناقلات أو مراكب (chebecs) وتهدد بالإنزال في كل هذه الأماكن فرقة من خمسة آلاف أو ستة آلاف رجل. كل ذلك كان من شأنه أن يجذب انتباه الجنرال فريان ويجبره على العودة إلى الإسكندرية، تاركًا أكثر من مائتين أو ثلاثمئة رجل على شاطئ أبو قير. ولم يفعل الأميرال كيث شيئًا لجذب انتباه الفرنسيين وتشجيع الإنزال، مما تسبب في فقدان ألف من الانجليز، وأضاع على العملية أكبر الفرص.

6) وعند الظهر، في 8 مارس، تم الإنزال من البحر، وفقد الجنرال الانجليزي بقية اليوم وأيام 9، 10، 11، 12 (أربعة أيام ونصف اليوم) في ظروف لم يكن يسمح فيها بخسارة يوم واحد. ومن بداية يوم 8 مارس، في الساعة الخامسة بعد الظهر، كان لا بد من أن يصل إلى مكان معسكر الرومان، ومن يوم 9 [مارس يبدأ] الزحف إلى المدينة، وربما كان سيستولي عليها. وبدلا من ذلك، لم يتحرك إلا يوم 13. ووصل الجنرال لانوس مساء يوم 11، ووضع المدينة في مأمن من الهجوم. وإذا كان الإنزال قد تم في نفس يوم إبلاغ الإشارة عن القافلة بالإسكندرية في أول مارس، لكان لديه أحد عشر يومًا ليحتل الإسكندرية قبل وصول النجدة الأولى من القاهرة. وفي عام 1798، لو لم يكن نابليون قد تقدم أمام أسوار الإسكندرية إلا بعد ثلاثة عشر يومًا من الرسو في المرابط، فإنه لم يكن سينجح، وكان سيجد الأسوار متأهبة ومسلحة تمامًا، ولوصل نصف المماليك بالفعل من القاهرة مع عدد ضخم من العرب والإنكشاريين. لكنه زحف إلى الإسكندرية، واقتحم أسوارها مع حفنة من الرجال بعد ثمانية عشر ساعة من إبلاغ إشارة وصول أسطوله، ودون انتظار وصول المدفعية. إنه مبدأ في الحرب، عندما يمكن استخدام البرق، فهو أفضل من المدفع.

7) وبعد معركة 13 مارس، كان الجنرال أبيركرومبي قد فشل في حملته، وكان القائد العام قد علم بظهوره قبل ثلاثة عشر يومًا، وكان يعلم أن الجيش الفرنسي قوامه خمسة وعشرون ألف رجل، ولم يكن من الحذر أمامه

سوى اختيارين؛ الأول: الإبحار من جديد والذهاب إلى قبرص، وانتظار وصول تعزيزات جديدة من انجلترا ومن قبودان باشا والصدر الأعظم، والاختيار الثاني: أن يتخذ مكانًا خلف ساحل رصيف الركوب أو على تل الشيخ في شبه جزيرة أبو قير، وتعزيز قوته فيها. وكان هذا الوضع لا يحتمل، حيث أن المكان الذي احتله في معسكر الرومان، ويمينه إلى البحر ويساره إلى بحيرة معدية، على طول مسافة 1500 قامة، كان مكانًا سيئًا لطاقم من خمسة عشر ألف رجل، لم يكن لديهم سلاح فرسان، ولا مدفعية مجرورة، فكان عليه أن يتوقع الهجوم عليه بعد أيام قليلة بجيش متفوق في القوة وعنده فروسية ضخمة ومقدامة تدعمها عدة بطاريات خفيفة؛ فيخترق يساره ويفصل جيشه عن أسطوله، مما يؤدي إلى خسارته.

الملاحظة الثالثة: مسيرات ومناورات هاتشينسون:

1) تولى هذا الجنرال القيادة في اليوم التالي لمعركة 21 مارس 1801. وكان يعلم أن الجيش الفرنسي يمكن أن يكون - في غضون أيام قليلة - مدعمًا من فرقة الجنرال بليار من خمسة آلاف أو ستة آلاف رجل، وكان لا بد من أن يقرر ترك موقع معسكر الرومان، وأن يأخذ موقعًا على رصيف الركوب.
2) بعد خمسة أيام، وعندما وصل قبودان باشا مع ستة آلاف رجل، كان عليه أن يضعهم على الفور على الخط، من خلال ربطهم بكتائبه المختلفة، وكان ستة آلاف من القناصة من تركيا تعزيزًا حقيقيًا لجيش أوروبي، في حين كانوا وحدهم جانبًا احتياطيًا لم تكن له غير قيمة ضئيلة.
3) قطع سد بحيرة معدية في 13 أبريل، وأنشأ بحيرة مريوط، وبالتالي قدم خدمة رائعة إلى الإسكندرية، وفعل ما كان واجبًا على الفرنسيين القيام به في 12 مارس؛ لأن الميدان كان قويًا وآمنًا من كل مفاجأة، لكن الهدف من الحملة برمتها كان الاستيلاء على الإسكندرية. إذن هو ضحى بالهدف الرئيس من أجل شيء ثانوي. وكان يسار الموقع دون شك أكثر دعمًا ولكن كان يمكن أن يكون أيضًا عن طريق بناء حصون جيدة في المياه، وإرساء عدد قليل من البطاريات العائمة في البحيرة.
4) **إن الزحف نحو الرحمانية مع الاستمرار في احتلال معسكر الرومان، والمناورات لتحقيق في يونيو انضمامه إلى الصدر الأعظم في القاهرة، كلها كانت عمليات فاشلة. وقد كان على الصدر الأعظم الزحف إلى الإسكندرية للقاء الجيش الانجليزي، وليس على الأخير ترك نقطة أساسية للسعي وراء نقاط ثانوية. فعندما يكون المرء في متناوله ضرب القلب، فلا ينبغي أن ينصرف لواحدة من المناورات العكسية.**
5) **عندما ذهب الجنرال لاغرانج من الرحمانية إلى القاهرة، كان لدى الجنرال هاتشنسون فرصة جيدة لإنهاء الحملة، وكان يجب عليه العودة على الفور إلى معسكر الرومان مع قبودان باشا، ويهاجم الجنرال مينو، الذي ضعف بفصل الجنرال لاغرانج؛ وكان قد طرحه في جدار العرب، واستولى على المدينة في أسابيع قليلة.**

6) خلال شهر مايو، وحتى 22 يونيو، أي خلال واحد وأربعين يومًا، كان لا يزال يتعرض لخطر مزدوج: الأول أن الجنرال مينو، الذي كان لديه تسعة آلاف رجل في الإسكندرية، لم يهاجم إلا مع ستة آلاف رجل، وكان مع الجنرال كوت أربعة آلاف رجل، ولم يهاجم معسكر الرومان. والخطر الثاني أن الجنرال بليار، الذي كان لديه أربعة عشر ألفًا من الرجال في القاهرة، لم يهزم الصدر الأعظم في الخانقة، ولم يُلق به إلى ما وراء الصحراء، ولم يعد إليه. وكان الجنرال هاتشينسون، مع عشرة آلاف من الرجال، ولم يجتمع بالجنرال مينو. وبعد عملية الخانقة، كان عليه أن يخشى أيضًا أن الجنرال بليار جاء مع كل قوته ليسير على جسده، وقد ترك مرضاه والعجزة وقدامى المحاربين، أي ألفان أو ثلاثمئة رجل كانوا في قلعة القاهرة. لقد كان سيتجنب كل هذه المخاطر لو لم يكن قد أصر على الفكرة الرئيسية للحملة؛ أي توجيه جميع العمليات ضد الإسكندرية، وقهر مصر دون إغفال صواري أسطولها.

7) ولكن إذا أراد حتمًا أن يسير إلى القاهرة، فعندئذ كان ينبغي عليه إخلاء معسكر الرومان، ووضع معسكر الجنرال كوت على رصيف الركوب أو تل الشيخ.

8) وليكون قادرًا على المناورة ضد الجنرال بليار، كان يجب على الصدر الأعظم عبور الدلتا، والاجتماع مع الانجليز على الضفة اليسرى من فرع رشيد، عند مستوى الرحمانية، ويتوجه بعد ذلك الجنرال هاتشنسون إلى القاهرة مع جيش من خمسة وعشرين ألف تركي، وخمسة آلاف إنجليزي، وسفينة كبيرة على نهر النيل.

9) في 19 يونيو، عندما كان قد بنى جسره على النيل، تحسن موقفه إلى حد كبير، لكنه لم يكن ينبغي البقاء على نصف التدبير؛ وكان يجب أن يكون خارج معسكر الصدر الأعظم على الضفة اليسرى لنهر النيل، ويستولي على الجيزة. وحين يتم تدمير جسر الفرنسيين، فإن الجيشين يتجهان معًا إلى الضفة اليمنى، ويتركان - في كلتا الحالتين- هيئة مراقبة على الضفة المقابلة. وفي الواقع، في الساعة الثانية من صباح 22 يونيو، كان الجنرال بليار قد خرج من الجيزة مع عشرة آلاف رجل، ودحر الجنرال هاتشينسون وقبودان باشا قبل أن يتخذ الصدر الأعظم قراره. وعلى افتراض أن هذا الأخير قد يستقر في بعض منازل القاهرة، فإنه لن يكون قد احتل حصنًا مهمًا، وكان سيغادرها في اليوم التالي.

10) شعر الجنرال هاتشينسون باستمرار خطر موقعه واعتقد انه يمكن يعالج الأمر بالسير ببطء شديد، صحيح أنه قد خدع دائمً في قوة الجنرال بليار والذي افترض أنها نصف الجيش على الأكثر عما كان عليها حقًا. وكان يعتقد أن القوات التي سارت إلى الخانقة هي نفسها التي كانت في الرحمانية، وكان على خطأ. عندما كان الجنرال بليار أمام الصدر الأعظم لم يكن معه رجل مشاة واحد الذي كان في الرحمانية. مبادئ فن الحرب لا تتغير، لها هدف خاصة حماية الجيوش من خطأ القادة في تقدير قوة العدو، خطأ إلى حد ما، دائما ما يحدث.

11) عبر الجنرال كوت بحيرة مريوط، وحاصر المرابط مع خمسة آلاف رجل، ولم يكن ذلك كافيًا، إذ كان يلزمه سبعة آلاف رجل. وشعر الجنرال هاتشينسون بذلك، وبعد خمسة أيام دعم قوته بمفرزة من الإنجليز، ومفرزة تركية، ولكن بعد فوات الأوان. وكم كان من العواقب نتيجة هذا الخطأ!

الملاحظة الرابعة: عن حركة الجنرال فريان:

ركض الجنرال فريان، محافظ الإسكندرية، على شاطئ أبو قير مع جميع القوى التي تحت تصرفه، لاعتراض الإنزال، ولكن كان ينبغي عليه الحصول على مزيد من المدفعية، وبناء بطاريتين ساحليتين جيدتين مع قطع مدفع من عيار 18، 24، ومدافع الهاون.

1) وبما أنه قد أهمل بناء حصن من البناء على الجرف، وكان يجب بناء معقل من خشب النخيل، وهو ما كان يستطيع أن يفعله في ستة وثلاثين ساعة، ولم يكن ينقصه أكياس طوب في الإسكندرية.
2) لقد أخطأ عندما أضعف قواته عند نزع منها ثلاثمئة رجل بعث بهم إلى الجانب الآخر من بحيرة المعدية، فإذا نزل العدو من جانب رشيد فهذه المفرزة صغيرة لا يمكن لها أن تفعل شيئًا، فإنَّ ثلاثمئة رجل سيكونون شيئًا مهمًا إذا أضيفوا إلى ألف وسبعمئة رجل كانوا معه. ومن يدري ماذا كان يمكن أن يحدث إذا كان هؤلاء الرجال ثلاثمئة، مع أربع قطع مدفع وضعت على جبل البئر.
3) وعلى أية حال، لقد كان يجب عليه إقامة ست قطع معركة يدعمها مربع من الفرقة 75، عند مرتفع البئر، وهو مفتاح الشاطئ، ولم يكن الإنزال مؤمنًا طالما أن العدو لم يكن مسيطرًا على مرتفع البئر.

الملاحظة الخامسة: الجنرال لانوس

1) تجنب الجنرال لانوس القتال. وفي يوم 13 كان لزامًا عليه الانسحاب إلى مرتفعات باب رشيد، وإذا لزم الأمر يحمي نفسه عند سور العرب وأن يلتمس الحماية من مدفعية الحصون. وإستعرض الانجليز طوال عدة ساعات أمام عينيه، وقام بحصر عددهم، ولم يكن من الحكمة ترك موقعه ليتحدى جيشًا أقوى من جيشه أربع مرات، في حين كان ينتظر تعزيزات ضخمة.

الملاحظة السادسة: الجنرال لاغرانج:

1) عندما ذهب الجنرال لارانج من الرحمانية إلى القاهرة في 10 مايو، كان يجب عليه ترك رجل حازم في الحصن مع مئة وخمسين رجلاً، ويأمره بأن يدافع عن نفسه فيه حتى أقصى درجة. وقد كان يمكنه أن يوقف سير الجيش الانجليزي في غضون ثمانية أو عشرة أيام، لكنه ترك هناك قائدًا سيئًا مع أربعين رجلاً، وأمر نفسه بإفساد الذخيرة والمخازن. واستسلم هذا القائد يوم 10 عند الفجر. وإذا كان هناك مئة وعشرة رجال في الحصن فذلك لأن ستين أو سبعين بقوا دون أوامر، وأصبحوا سكارى على إثر نهب المخازن.

2) كان من المفترض أن يرسل الجنرال قاربًا واستطلاعًا إلى ثنية منوف لتراجع القوافل إلى القاهرة،

3) لماذا خلال العشرين يومًا التي قضاها في الرحمانية، لم يضم إليها حامية لسبيه والبرلس؟ فهكذا كانت ستدعمه قوة من السبعمئة رجل الذين هلكوا، فقد كان السبعمئة رجل هم خمس فرقته.

الملاحظة السابعة: العقيد كفاليه:

لا يمكن تبرير سلوك العقيد كفاليه، وكان ينبغي عند وصوله إلى فرنسا أن يمثل أمام مجلس حربي. لقد أهلك الرومان عددًا كبيرًا من فصيلته، وكانت الرغبة في العودة إلى فرنسا هي التي دفعت الجنود إلى الاستسلام. ولكن كل خطأ يرجع إلى القائد، فقد كان يعرف استعدادات جنوده، وكان عليه منع أية مداولات، واستقبال البرلمانيين بطلقات النار، ومواصلة مسيرته إلى الإسكندرية وبحيرة النطرون. لقد كان العقيد كفاليه رجلاً طيبًا وضابطًا متميزًا جدًا، وكان يرتبط بشدة بالقائد العام. ولم يكن تصرفه في هذه الحادثة إلا أكثر مناطًا للوم، فقد سلم للجيش الانجليزي ستمئة من الإبل أفادتهم كثيرًا. وهناك قانون لا مناص منه في الجيش الفرنسي بمنع الجدال. لقد كان جنودنا غاية في الشجاعة، وعلى استعداد لأن يكونوا أصدقاء، إلا أن ضباطنا كان من السهل غشهم، ويخدعهم الأجانب على الدوام.

الملاحظة الثامنة: الجنرال بليار:

1) مساء 13 مايو، كان الجنرال لاغرانج قد انضم في القاهرة إلى الجنرال بليار الذي كان تحت قيادته أربعة عشر ألف رجل، بينهم خمسمئة من قدامي المحاربين، ومئات من الموظفين المدنيين المسلحين والحرس

الوطني المدربين، وثمانمئة مريض، وألف وخمسمئة رجل آخرين من ضعفاء البنية، والعمال ورجال الفصائل في الراحة. وكان يكفي ثلاثة آلاف رجل للحفاظ على القلعة والجيزة والحصون حول القاهرة. إذن كان متاحًا أحد عشر ألف رجل. وحين ترك في القاهرة طابورًا متحركًا من ألف من الرجال سيرًا على الأقدام، بما في ذلك الفرسان، وبضع مدافع لخدمة الاحتياط كان يستطيع أن يبتعد مع عشرة آلاف، من بينهم ألف من الفرسان وأربعة وعشرون قطعة مدفع، وبدلا من ذلك ترك ثمانمئة ألف رجل لحراسة المدينة، ولم يزحف لمواجهة الصدر الأعظم إلا مع ستة آلاف رجل فقط.

2) ولكن ستة آلاف فرنسي، كان منهم ما يقرب من ألف من سلاح الفرسان، وأربعة وعشرين قطعة مدفعية جاهزة، كانوا أكثر مما يكفي للتغلب على الصدر الأعظم ورده وراء الصحراء. ولم يكن مع الصدر الأعظم سوى ستة عشر ألف تركي كان ربعهم في دمياط، وكان عدد العثمانيين في معركة الخانقة تسعة آلاف رجل. وإن لم يكن الجنرال بليار مترددًا في اتخاذ القرار، كان عليه فقط أن يهاجم وينقذ مصر ويتفاخر بمجد خالد، فقد كان يمكنه أن يبيت يوم 16 [مايو] في بلبيس، ويوم 18 في الصالحية، ويعود إلى القاهرة يوم 20 أو 21، ويعبر النيل يوم 23 أو 24، ويصل يوم 27 أو 28 إلى طرانه، ويهاجم الجنرال هيتشينسون الذي كان معه أربعة آلاف انجليزي، وستة آلاف من أتراك قبودان باشا. وكانت الأمراض قد أضعفت الجيش الانجليزي الذي لم يكن قد تلقى بعدُ أيًا من تعزيزاته.

3) دخل الجنرال بليار القاهرة، في 18 مايو، دون مهاجمة الصدر الأعظم، وقد حان الوقت لاتخاذ قرار نهائي، عندما توجه إلى الإسكندرية عن طريق الضفة اليسرى من النيل، مع جميع الفرنسيين الذين كانوا في القاهرة، وأبحر على النهر كل ما نقله بريًا، وترك ألفين من الرجال في القلعة. ولم يكن في وسع الصدر الأعظم الاستيلاء على القلعة التي كان يمكنها الدفاع عن نفسها لفترة طويلة. وعندما فقد الأمل على أثر انضمام الجنرال بليار ومينو، وكان سيحصل على استسلام الشرفاء، وينقذ الرجال الذين كان معظمهم من ضعفاء البنية، والمحاربين القدامى، والمتماثلين للشفاء.

4) في 18 يونيو، أي بعد أربعين يومًا من معركة الخانقة، وصل هاتشينسون أخيرًا قرب الجيزة، وكان الصدر الأعظم أمامه، على الضفة اليمنى، ويفصل نهر النيل بين الجيشين؛ بحيث إذا هاجم الجنرال بليار بكل رجاله جيشًا أو آخر لكان النصر قد حالفه، فإن هزيمة أحد هذين الجيشين كانت ستؤدي إلى انسحاب الآخر، بينما إذا ابتلي بالفشل فإنه لن يعاني من دون أن يلحق بالعدو كثيرًا من الخسائر، فلن تكون أحواله بأسوأ منه.

5) في 19 أمر الجنرال هاتشينسون بإقامة جسر للتواصل مع الصدر الأعظم مما حسن موقفه كثيرًا. ولكن إذا هاجم الجنرال بليار كما اقترح العقيد ديبا (Dupas) بالعبور من ضفة واحدة عند الفجر، لكان سيزيل الجسر قبل أن يعبر عليه الجيش من الضفة الأخرى.

6) في 22 يونيو، لم يكن [الجيش] قد طُوق بعد، وكان الجيش الانجليزي أمام الجيزة على الضفة اليسرى، وكان جيش الصدر الأعظم أمام القاهرة، وكانت أعالي النيل لا تزال حرة. ولم يكن الانجليز سوى أربعة آلاف رجل، وكان الأتراك 30000 (ثلاثون ألف) رجل، بما فيهم 16000 (ستة عشر ألفا) من البدو والقوات المصرية، والذين لم يكن بينهم تماسك. وكان لدى الجنرال بليار10000 (عشرة آلاف) رجل في حالة تمكنهم من القتال، وأربعة وعشرون قطعة مدفعية، وكان عنده كل شيء بوفرة، و70000 (سبعون ألف) قذيفة، و200000 (مائتا ألف) من البارود. ولما كان قد خسر كل الفرص التي منحها له الحظ للتغلب على جيوش العدو منفردة، ولم يتبقى له سوى شرف الدفاع عن الميدان بكل العناد الذي تقتضيه سلامة الجيش وشرف السلاح الفرنسي والأنظمة الحربية. في دراسة الهجوم على طلعات خاصة الانجليز، كان يستطيع تدمير هذا الفيلق الصغير الذي كان يحقق وحده تماسك كل الجيش. وعلى الأقل كان يمكن كسب شهر أغسطس، في حين أن الفيضان الذي يغمر البلد كله، قد اضطر العدو لوقف عمليات الحصار، لأنه لم يكن يستطيع أن يستمر فيه سوى على السور من جهة الصحراء. وحين صمد ثلاثين يومًا، كان يمكن للجنرال بليار الظفر حتى شهر نوفمبر، وخلال ذلك الوقت، كان قد أتاح لتحصيناته درجة جديدة من القوة. إنَّ الشهور تتتابع، ولكن لا تتشابه. وخلال كل هذا الوقت، لم تتعرض الإسكندرية للقلق.

7) اعتقد الجنرال بليار أنَّ أمامه فيلقًا من عشرة آلاف انجليزي على الأقل، ولكن من سمح له أن يكون هذا الرأي؟ وإذا كان قد خرج من جانب الجيزة وانتشر في خط المعركة، كان يمكن ظهور الانجليز، وكان يستطيع حصر عددهم. وإذا كان قد عقد مجلس الحرب يوم 21 يونيو، لكانت الموافقة بالإجماع على اللجوء للسلاح. وتتطلب قواعد الحرب في الأحوال الضرورية مثل هذا الموقف، ألا ننجذب للإشاعات، ولكن عمل المناورات لإجبار العدو على الظهور والسماح بحصر عدده. وكان عدد الجيش الانجليزي قد وصل إلى أربعة آلاف رجل.

8) ولكن دون إجبار العدو على نشر قواته، ودون قتال، ودون أن نجرب الحظ، فإنه قد استسلم! وسلم عاصمة مصر، ومخازنها وأربعمئة من البنادق، وبعض الحصون، دون إطلاق رصاصة واحدة! وصحيح أن مصالح الجنرالات والضباط والعامة قد اتفق عليها بعناية كبيرة، فمن بين أربعة عشر ألف رجل، فإنَّ خمسمئة تم تجنيدهم مع المماليك، وتم إبحار (13723) ثلاثة عشر ألفًا وسبعمئة وثلاثة وعشرون رجلاً من أبو قير، ووصلوا إلى فرنسا. وقد حمل الجيش معه أعلامه وأسلحته وخمسين قطعة مدفعية، والعديد من الخيول، وكمية هائلة من الأمتعة، وجميع ما هو نادر في البلاد. ومع ذلك كان هذا الاستسلام نفس استسلام العريش. وعندما تعتقد الجيوش أنه من الممكن الخروج من موقف حاسم باتفاقية دون أن تسربل بالعار، فإن الخسارة تكون كاملة. وسيكون من الأفضل أن يعهد الدفاع وشرف الأسلحة إلى نساء مسنات مسلحات بمغازلهن.

9) خلال الزحف من القاهرة إلى أبو قير، اصطحب الجنرال مور (Moore) الجيش الفرنسي الذي كان أكثر عددًا من مرافقيه، وعند الاقتراب من أبو قير، خشي الجنرال الانجليزي، بحق، أن يسيطر الاستياء على الجندي الفرنسي، وأن يهاجم الانجليز، أو ينضم إلى مينو لإنقاذ مصر.

وتم حجز الضابط الذي بلغ خبر الاستسلام إلى فرنسا في محاجر مارسيليا الصحية، وأرسل تقريره وحالته. كان من السهل تخيل غضب القنصل الأول، كان أول ما فعل أن أمر باعتقال الجنرالات الذين شكلوا مجلس الحرب، وتقديم مثل صارخ لمثل هذا الانتهاك لجميع الأنظمة العسكرية. لا يمكن لقائد لواء، وقائد فيلق، أن يتخلى عن قائده العام والجيش لينقذ فريقه الخاص، وكانت فرقة الجنرال بليار كاملة، ولم تكن تعاني أي فشل، ولم تقارن نفسها بالعدو، وألقت السلاح بشروط بقدر ماهي مخجلة ومشينة، هي أكثر فائدة للأفراد. ولا يمكن قبول أيٍّ مما ادعاه الجنرال في تقريره لتبرير سلوكه باعتبارات سياسية. وكأنه قد تلقى الحق من الجمهورية أن يعرض جنوده للموت من أجل الدفاع عن نفسه، ولكن ليس حق إنقاذهم على حساب المصالح العامة. وقد كان يخشى فرقة الهند الانجليزية، وفي يوم 22 يونيو، يوم الاستسلام، كانت هذه الفرقة لا تزال راسية في ميناء جدة في البحر الأحمر على ساحل الجزيرة العربية، على بعد ثلاثمئة فرسخ من هناك! وكان يدعي أنه محاصر من قبل جيش انجليزي كثير العدد، ولم يكن قد قام بأي تحرك، ولا أي معركة من أجل أن يجبره على الانتشار، ولم يشاهده، ولم يكن الجيش سوى أربعة آلاف رجل! وكان يدعي أن الذخيرة تنقصه، واعترف أن لديه ستين ألف طلقة مدفع لإطلاق النار! وكان يقول أنَّ الغذاء ينقصه، مع أن المخازن كانت مليئة بالأغذية! وهذا فعلاً هو سوء استخدام الكلمات إذا قمنا بمقارنة هذا السلوك المشين بالسلوك الذي اتبعه شيفار (Chevert) المجيد في براغ، عندما تركه المارشال بل -ايل (Belle-Isle) مع حفنة من الناس لتشكيل مؤخرته فيسهل انسحابه. ضحى شيفار بنفسه لصالح الجيش، ولكن بليار ضحى بالجيش والشرف لينقذ جسده.

ولكن بعد رد فعل القنصل الأول تلاحقت بعض الأفكار التي جعلت تصرفاته تتغير، فقد كان الجنرال بليار ضابطًا مميزًا جدًا، قدم خدمات جليلة في نفس هذه المعركة، وفي أركولا (Arcole) غطى نابليون بجسده، وتلقى رصاصة كانت موجهة إليه، وكان رأيه صريحًا بشأن الاحتفاظ بمصر، وكان معارضًا شديدًا لاتفاقية العريش. وأثبت عند زحفه إلى الخانقة أنه رأي ما كان يجب القيام به، إلا أنه افتقر إلى الجرأة ولم تؤهله الطبيعة لمثل هذا العمل الهام، وكان القائد العام قد تركه دون أن يعطيه أي أوامر. وقد أزال كل الأمل والثقة في الجيش كلاً من الاستياء العام واليأس والتباطؤ، وعدم اتخاذ القرار، ونقص مواهب الجنرال مينو العسكرية. لقد كان الجنرالات الذين وقعوا على الاستسلام من الضباط المتميزين، وكلهم عارضوا اتفاق العريش بشدة. وفي المركز المرموق الذي كانت فيه الجمهورية بعدما كان سلام لونيفيل (Lunéville) والسلام مع روسيا، والباب العالي وانجلترا، قد رفعوا أمجاد فرنسا عاليًا، هل كان من المناسب أن نحجب هذه الروعة وندخل الحزن إلى الأمة بسبب تحقيقات

شائنة غير مشرفة مع رجال بواسل، [سبق أن] نالوا استحقاق الوطن في كثير من ظروف الأخرى. ألم يكن من الأفضل التغاضي بصرف النظر، وأن يُعزى كل ما حدث إلى القدر وعدم كفاءة الرئيس المطلقة؟ ولكن أخيرًا فإنه مهما يكن ما يمكن القيام به، ومهما تكن قوة الحكومة، ومهما تكن قوة التشريع، فإن جيشًا من الأسود بقيادة وعلٍ لن يكون أبدًا جيشًا من الأسود.

الملاحظة التاسعة الجنرال مينو:

1) كان يجب أن تصل التعليمات إلى الجنرال مينو في 3 مارس عن ظهور الأسطول الانجليزي أمام الإسكندرية؛ بينما لم يحدث ذلك إلا بعد ظهر يوم 4 (مارس). وكان التأخير مدة أربع وعشرين ساعة مؤسفًا جدًا، وكان ينبغي عليه أن يعرف يوم 2 مارس أنه تم القبض يوم 28 فبراير، في ميناء أبو قير، على مهندس انجليزي، وكان يجب أن يعرف أوراق مهندس آخر كان قد قتل، وقد تضمنت هذه الأوراق دلائل ساطعة بما فيه الكفاية عن حملة الجنرال أبيركرومبي.

2) خُدع القائد العام وفرق قواته، وتلقى الجنرال رينيه في الليلة من 4 إلى 5 الأمر بالتحرك وذهب إلى المقر الرئيسي للإدلاء بشهادته ليعبر عن ألمه من هذه التصرفات. ونقل إلى القائد العام بالمثل ما حدث عند ظهور مصطفي باشا أمام أبو قير في 12 يوليو 1799، وأبلغ نابليون بذلك يوم 15، وكان عندئذ يقيم في معسكر الأهرام، فأرسل على الفور أوامر إلى كل الجيش وجمعه في الرحمانية:

"يجب الأخذ بهذا التصرف والرحيل في نفس الليلة وإخلاء صعيد مصر، وترك قدامى المحاربين فقط والمرضى، وبعد القطع من مدفعية القاهرة".

وظل الجنرال مينو أصمَّ باردًا، واستمر في تنفيذ أوامره. وفي الفجر بدأت القوات في التحرك في اتجاهات متباينة، خلافًا لجميع مبادئ الحرب. ووصل واحد من مساعدي مينو يوم 12 مايو إلى الإسكندرية، إلى مقر الجنرال لانوس، على مرتفع الرومان وتوجه إلى ضباط الأركان بالإشادة بالاستعدادات العليمة التي أعدها رئيسه عندما علم بخبر ظهور الأسطول قبل الإسكندرية [قائلاً]:

"إنَّ قائدي المخضرم لم يُخدع، فقد أدرك أن الهجوم الحقيقي لن يكون حيث كان التهديد، ولكن في دمياط عند مخرج الصحراء والبحر الأحمر. وأيًا كان الجانب الذي يتقدم منه العدو، فقد أثبت الثعلب القديم أن لديه أكثر من ثقب واحد في حقيبته. وقد صاح عقيد الهندسة برتران، وكان حاضرًا هذه المحادثة، [قائلاً]: للأسف! كنت أعتقد أن علم الحرب يتطلب جمع القوات في النقطة الرئيسية، مع تجاهل ما هو ثانوي. وعندما يسيطر الانجليز على الإسكندرية كيف تصبح القوات في السويس، ومصر العليا، وفي الصالحية؟".

3) عندما جمع جيشه في الإسكندرية، ترك مينو الجنرال بليار مع حامية قوية في القاهرة، وبعض الحاميات في دمياط في ... وصعيد مصر، ولم يجمع سوى اثني عشر ألفا فقط، وكان يمكن أن يجمع تسعة عشر ألفا في ساحة المعركة، بالإضافة إلى سبعة آلاف آخرين من الرجال، إذا لم يكن يوم 21 مشكوكًا فيه.

4) هل كان يجب الهجوم على جيش الانجليز يوم 21؟ وكان متفوقًا في المشاة، ولكنه كان أقل بكثير في سلاح الفرسان. كان الخوف أن يكون قد تلقى مساعدات؛ لأن البحر كان مفتوحًا له. وكانت الميسرة هي نقطة الضعف في خط معركة الجيش الانجليزي بلا منازع. وفي الليلة من 20 إلى 21 كان يجب أن يتخذ الجيش الفرنسي موقعًا بتغير الجبهة، فتكون الميسرة إلى الخلف، وتكون الميمنة على بحيرة المعدية، وتنتشر الميسرة في الإسكندرية على طريق القاهرة. وكان يجب أن تترك بعض القوات القليلة من سلاح الفرسان على المرتفعات أمام باب رشيد، وبعض قطع المدفعية، وجميع الرجال المسئولين عن الدفاع عن سور رشيد. وعند الفجر، يصطف الجيش في أربعة أو خمسة صفوف، وعليه مهاجمة ميسرة العدو، آمرًا الأسطول الراسي في البحيرة بالقصف من خلال بعض قطع مدافع عيار 24. وتغير الميسرة مكانها، وكل سلاح الفرسان الفرنسي، مع ثمانية عشر قطعة من المدفعية الخفيفة، تندفع خلف وسط ويمين العدو الذي يُهاجَم من الخلف، ويُمنع من اتصالاته مع البحيرة حيث يتلقى ذخيرته، وهنالك كانت عربات الإسعاف، فيكون مهددًا بعدم القدرة على الانسحاب، فلم يكن هنالك سلاح فرسان لحمايته، فكان سيتعرض للخطر. وإذا أراد الجنرال مينو مهاجمة يساره، لذلك كان لا بد في الليل أن ينطوي وسط ويمين الجيش الفرنسي خلف ميسرة جيش الجنرال لانوس، تاركًا بعض القطع في مواقعها، وبعض فصائل الفرسان وبعض الجمال. ويكون الجيش وقد صار منطويًا على أقصى يساره، ويبدأ بالهجوم على منزل بطليموس، ويقيم فيه هناك؛ حيث في أول ظهور النهار تندفع الفروسية خلف يسار ووسط الجيش الانجليزي لتهدد اتصالاته، بينما كان على بطارية ضخمة أن تقوم بإطلاق النار على الزوارق المسلحة الراسية في وسط البحر، فيهاجم يمين العدو. كان يمكن أن يتوج هذا التشكيل بكامل النجاح، فقد تم الاستيلاء على التل، وإذا كان وسط وشمال الجيش الانجليزي قد زحف للاستيلاء عليه، فكان سيصبح تحت نيران كل المدفعية الفرنسية، فقد كان الجناحان والمؤخرة قلقان من الفرسان والمدفعية الخفيفة. ولم يكن هذا ممكنًا.

5) بعد يوم 21، كان على الجنرال مينو أن يركز كل قواته في الإسكندرية، حتى يتمكن من شن معركة جديدة وكان يستطيع أن يجمع أكثر من ستة عشر ألف رجل.

6) عندما تشكلت بحيرة مريوط في خلال شهر أبريل، كان على الجنرال مينو فورًا بناء طريق في منتصف البحيرة يؤدي إلى دمنهور، مع استخدام جميع الوسائل التي كانت تحت تصرفه؛ حيث رفع الأحجار، جسور على ركائز، وجسور على الطوافات، وجسور على قناطر. وكان عمق هذه البحيرة في معظم الأماكن ثلاثة

أو أربعة أقدام فقط، وفي منفذ هذا الجسر كان يجب عليه بناء رأس جسر، ورفع بطاريات على طول الجسر للحماية ضد سفن الأعداء، وهذه الكباري كانت مهمة ليستطيع القيام بالمناورات.

7) عندما ذهب الجنرال هاتشينسون إلى النيل، في مايو، كان على الجنرال مينو القيام بتحرك معاكس، والتركيز على الإسكندرية، والاستفادة من انتشار القوات الانجليزية لمهاجمة معسكر الرومان، والذي كان يدافع عنه الجنرال كوت، وكان يكفي أن يكسب الجنرال لاغرانج أربعًا وعشرين ساعة.

8) في نهاية مايو، كان مع الجنرال كوت أربعة آلاف من الرجال، وكان الجنرال مينو يمكن أن يهاجمه مع ستة آلاف رجل، كان النجاح محتملاً، وقد يكون حاسمًا.

9)، وبعد معركة الخانقة، كان يجب على الجنرال مينو أن يأمر بليار بالزحف إلى طرانه مع عشرة آلاف من الرجال، ومن تلقاء نفسه كان سيضطر إلى الرحيل مع أربعة آلاف رجل وثمانمئة من الإبل، ليصل إلى بحيرات النطرون ومهاجمة ميمنة الجنرال هاتشينسون في طرانه، في حين كان الجنرال بليار سيهاجمه من الأمام. وكان قد ترك ستة آلاف رجل في الإسكندرية، وهو ما كان كافيًا.

10) كانت أشغال تحصين المعسكر على التلال أمام باب رشيد ممتدة كثيرًا، حيث كان لا بد من ستة آلاف رجل لحراستهم، وهو ما كان يكبل جيشه. وكان يلزم ببساطة ثلاث حصون في مواقع جيدة في متناول مدفعية سور باب رشيد، مع خنادق مليئة بالماء، يدافع عنها ألف رجل، الأمر الذي من شأنه أن يمنع العدو من إقامة معسكره على التلال أمام باب رشيد. وعندئذ كان الجنرال مينو سيمتلك وسائل تحصين غرب الإسكندرية، ووضع هذا الجانب في حالة توازن، وذلك بوضع خط أول في ذروة حصن الحمامات، ويغلق هذا الحصن الميناء القديم وهو على بعد 500 قامة من بحيرة مريوط.

11) وكان لا بد من بناء خط ثانٍ أمام الحصن، يستند يساره على بحيرة مريوط، ويصل إلى حصن بومبي. للأسف كان هذا المعسكر المحصن على جانب رشيد هو سبب كل الكوارث.

12) في النقطة التي وصلت إليها الأمور في نهاية أغسطس، كان من الملائم إطالة أمد الدفاع إلى أقصى حد. وقد كان رأي كل ضباط المجلس الحربي بالإجماع أنه إذا كان قد أكد له الضمانات، انه يوم 15 نوفمبر سوف يقوم الجيش بإنقاذهم، أو كانوا سيتلقون نبأ عن تمهيد مفاوضات السلام. هذا المثل مثل آلاف الأمثال المشابهة الأخرى في التاريخ، تبرهن على أنَّ قائد موقع عسكري يجب ألا يفكر إلا في الدفاع عن موقعه حتى آخر رمق، وقد كان عليه أن يصبر حتى يتم تقويض سور العرب، وأن يتم الاستيلاء على حصن كريتان وحصن كفاريللي، والثغرة سالكة في متناول سور الخليج. وفي هذه الحالة فقط يصان الشرف. ومهما تكن الظروف، كان يمكن أن يكون فحسب الاستسلام مجيدًا. ولا بد للاستسلام أن ينص على شروط مجحفة كي يوصف بأنه مشرف، فدائمًا ما يساء الظن بالحامية العسكرية المستسلمة التي يسمح لها بالخروج الآمن على جسر من ذهب.

Épilogue

Le lendemain de son arrivée à Sainte-Hélène, Napoléon se confie au général Gourgaud :

« Ce n'est pas un bien joli séjour, j'aurais mieux fait de rester en Égypte. Je serais à présent empereur de tout l'Orient. »

ختام

في اليوم التالي لوصوله إلى منفاه في جزيرة سانت - هيلانة، أسّر نابليون بهمومه إلى الجنرال جورجو:

" هذا المقام ليس مريحًا، وكان من الأفضل لي لو بقيت في مصر لكنت الآن امبراطورًا على كل الشرق".

Notes bibliographiques

تقديم مذكرات نابليون

1 « Adieux à la garde », 20 avril 1814, *Correspondance de Napoléon Ier publiée par ordre de l'Empereur Napoléon III* [désormais abrégé : *Correspondance*], Plon-Dumaine, 1869, n°21561. Souligné par nous.

2 Le grand maréchal Bertrand à Barbier, 25 juin 1815, *Correspondance*, n°22064. Le bibliothécaire devait réunir une liste « des 10 000 volumes et des gravures, comme celles des voyages de Denon et de la commission d'Égypte », des livres sur l'Amérique, « un état particulier de tout ce qui a été imprimé sur l'Empereur », « toutes les bibliothèques de campagne », une collection de *Moniteur universel*, « la meilleure encyclopédie, les meilleurs dictionnaires ». Antoine-Alexandre Barbier (1765-1825), déjà employé par le Directoire, était resté au service de Bonaparte après le 18 brumaire. Il avait été nommé bibliothécaire particulier en 1807.

3 Pour reprendre le titre d'un célèbre ouvrage de Lord ROSEBERY, *The Last Phase*, Londres, Humphreys, 1900, première traduction française chez Hachette l'année suivante.

4 *Mémorial de Sainte-Hélène, ou Journal où se trouve consigné au jour le jour ce qu'a dit et fait Napoléon pendant dix-huit mois*, chez l'auteur, 1823, 8 volumes. La meilleure édition actuelle est à notre sens celle de Marcel DUNAN (Flammarion, 1951).

5 *Napoleon in exile or a Voice from Saint Helena*, Londres, 1822, 2 volumes; traduit en français et publié la même année à Paris par les Marchands de nouveautés, sous le titre *Napoléon en exil, ou l'Écho de Sainte-Hélène.* Une nouvelle traduction à été publiée sous la direction de Paul GANIÈRE et Charles-Otto ZIESENISS en 1933 (Fondation Napoléon, 2 volumes).

6 *Récits de captivité de l'Empereur Napoléon à Sainte-Hélène, par le général de Montholon*, Paulin, 1847, 2 volumes. Ce témoignage n'a jamais été réédité, sinon sous la forme d'extraits par Jean TULARD dans le recueil *Napoléon à Sainte-Hélène*, Robert Laffont, coll. « Bouquins », 1981.

7 GOURGAUD, *Sainte-Hélène. Journal inédit de 1815 à 1818*, Flammarion, 1899, 2 volumes, édition augmentée par Octave AUBRY, chez Flammarion en 1947, sous le titre *Journal de Sainte-Hélène.1815-1817* (2 volumes) : MARCHAND, *Mémoires de Marchand, premier valet et exécuteur testamentaire de l'Empereur*, Plon, 1952-1955, 2 volumes, nouvelle édition sous la direction de Jacques JOURQUIN, Tallandier, 1985 (2 vol.) et 2003 (1 vol.) ; BERTRAND, *Cahiers de Sainte-Hélène*, Sulliver puis Albin Michel, 1949-1959, 3 volumes.

8 Se reporter pour évaluer l'ampleur des matériaux venus de Sainte-Hélène à la bibliographie établie par Chantal LHEUREUX-PRÉVOT dans *Sainte-Hélène, île de mémoire*, Fayard, 2005, p. 361-394, 1726 références dont plus de 200 relèvent du témoignage des acteurs, proches ou lointains, de ce dernier acte. Ajoutons que de nombreux faux mémoriaux furent publiés comme le *Manuscrit venu de Sainte-Hélène d'une manière inconnue* (1817, le plus célèbre car Napoléon l'eut entre les mains et l'annota, *les Maximes et pensées du prisonnier de Sainte-Hélène. Manuscrit trouvé dans les papiers du comte de Las Cases* (1820) ou le *Journal curieux trouvé dans la chambre de l'empereur Napoléon à l'île de Sainte-Hélène* (1837).

9 Recensés par Jean TULARD, avec le concours d'Alfred FIERRO et de Jacques GARNIER, *Nouvelle bibliographie, critique des mémoires sur l'époque napoléonienne écrits ou traduits en français*, Genève, Droz, 1991.

10 Cité par A. PÉRIVIER, *Napoléon journaliste*, Plon-Nourrit, 1918, p. 7.

11 Ces textes ont été publiés par Frédéric MASSON et Guido BIAGI (*Napoléon inconnu : papiers inédits. 1786-1793*, Ollendorf, 1895 ; *Napoléon, Manuscrits inédits : 1786-1791*, Albin Michel (1927) et réédités par Jean TULARD (*Napoléon Bonaparte. Œuvres littéraires et écrits militaires*, Société encyclopédique française, 1967, 3 volumes). Et comme il y a toujours quelque chose de neuf en histoire napoléonienne, on doit à Peter HICKS et Émilie BARTHET une édition complétée de partie inédites de *Clisson et Eugénie* (Fayard, 2007).

12 On ne compte plus les éditions de florilèges de citations napoléoniennes. La meilleure est sans conteste celle d'André PALLUEL (*Dictionnaire de l'Empereur*, Plon, 1969), la plus récente celle de Lucian REGENBOGEN (*Napoléon a dit*, Les Belles Lettres, 1998).

13 La *Correspondance générale de Napoléon Bonaparte* est en cours d'établissement et de publication par les équipes de la Fondation Napoléon. Au moment où nous écrivons ces lignes, sept des treize volumes prévus sont parus aux éditions Fayard. Au total, ils regrouperont près de 40 000 lettres.

14 Selon un écrit du général Bertrand, c'est dès son règne que l'empereur avait dicté certaines de ses campagnes, comme celle de 1805. Nous n'en avons pas trouvé trace au « dépôt de la Guerre » (aujourd'hui Service historique de la Défense) où le grand maréchal disait qu'ils avaient été déposés. Sur le rapport de Napoléon à l'histoire en général : Annie JOURDAN, *Napoléon, héros, imperator et mécène*, Aubier, 1998.

15 *Mémorial de Sainte-Hélène*, 2-3 août 1815.

16 *Mémoires d'outre-tombe*, Gallimard, coll. « Quarto » (éd. Par Jean-Paul CLÉMENT), 1998, t. I, p.1560. Comme beaucoup, Chateaubriand confond les mémoriaux (et notamment le *Mémorial* de Las Cases) avec les Mémoires de Napoléon.

17 Signalons que Bertrand et Montholon voyagèrent avec femme et enfants (et en eurent d'autres à Sainte-Hélène) tandis que Las Cases se fit accompagner par son fils. La bibliographie sur Sainte-Hélène est colossale. Les travaux du docteur Jean GANIÈRE peuvent constituer une bonne entrée en matière : *Napoléon à Sainte-Hélène*, Le livre contemporain, 1957-1962, 3 volumes ; *Napoléon à Sainte-Hélène*, édition condensée, Perin, 2e édition, 1988. Le *Dictionnaire historique de Sainte-Hélène*, de Jacques MACÉ est un outil de travail utile et commode (Tallandier, 2004).

18 Depuis 1803, cet ouvrage connaissait une édition annuelle chez le libraire Charles-Antoine Teste, ce qui assurait de confortables revenus à son auteur.

19 Immédiatement traduit en plusieurs langues, le *Mémorial* connut huit éditions françaises en vingt ans. Il ne fut pas pour autant, ainsi qu'on a pu le dire parfois, le « best-seller» du XIXe siècle : selon une étude de Martyn LYONS (*Histoire de l'édition française*, III, *Le temps des éditeurs*, Fayard, 1990, p. 404-448), il n'apparaît qu'une seule fois (à la 23e place pour 12 000 exemplaires) dans la liste des plus gros tirages, pendant la période 1821-1825 ; il disparaît totalement de cette liste pour tous les autres quinquennats du siècle, l'ouvrage le plus vendu restant, comme au XVIIIe siècle, les *Fables* de La Fontaine. En 11844, dans une lettre à Bertrand, le fils de las Cases lui indiqua que 44 000 exemplaires avaient été vendus depuis 1823 (*Archives provenant du général Bertrand, 1773-1844,* catalogue de la troisième vente, 23 mai 1986, n°86). Sur Las Cases, la meilleure étude est due à un des ses descendants : comte de Las Cases, *Las Cases, le mémorialiste de Napoléon*, Fayard, 1959.

20 Sur Bertrand : Michel BERTHELOT, *Bertrand, Grand maréchal du palais. Dans les pas d'un fidèle,* Châteauroux, chez l'auteur, 1996 ; Thierry LENTZ, « Le grand maréchal Bertrand, au service de l'exilé de Sainte-Hélène », *Napoléon Ier magazine,* n°54, novembre 2009, p. 46-52.

21 Sur Montholon : Jacques MACÉ, *L'honneur retrouvé du général de Montholon. De Napoléon Ier à Napoléon III,* Éditions Christian, 2000.

22 Ce tableau (commandé par Gourgaud lui-même) appartient toujours aux descendants du général qui en ont très souvent autorisé la reproduction. Sur Gourgaud : Jacques MACÉ, *Le général Gourgaud*, Nouveau Monde éditions-Fondation Napoléon, 2006.

23 Sur O'Meara, récemment : Hubert O'CONNOR, *The Emperor and the Irisman, Napoleon and Dr Barry O'Meara on St Helena*, Dublin, A&A Farmar, 2008. On manqué d'une bonne biographie du médecin irlandais.

24 Son rôle était de prendre soin des armes et des longues vues de l'empereur. Il figurait comme « porte-arquebuse » sur les états de la maison de l'empereur.

25 *Souvenirs de Saint-Denis dit Ali second mameluck de l'Empereur*, publiés par Gustave MICHAUT, Payot, 1926. Reprise à l'identique de cette édition : *Souvenirs sur l'Empereur Napoléon*, Arléa, 2000. Détenteur d'une partie des papiers d'Ali, Jacques JOURQUIN les met en ordre et en a commencé la publication avec le *Journal inédit du Retour des Cendres 1840*, Tallandier, 2003.

26 Papiers Ali, cités par Jacques Jourquin, « Les manuscrits du mameluck Ali », *Journal inédit du Retour des Cendres*, p.33.

27 *Cahiers de Sainte-Hélène*, 24 août 1817.

28 *Mémorial de Sainte-Hélène*, 23 juin 1816.

29 MONTHOLON, *Récits de captivité*, 23 juillet 1817.

30 Ces livres servirent en revanche à animer les soirées de Longwood au cours desquelles l'empereur imposait parfois à ses compagnons d'interminables séances de déclamation.

31 *Napoléon dans l'exil*, 23 juin 1816.

32 Les dix-huit volumes de *l'Encyclopédie britannique* faisaient probablement partie du lot. Ils furent offerts par Bertrand à la ville de Châteauroux, en septembre 1832, avec 13 autres volumes de la bibliothèque de Sainte-Hélène (Lettre au maire, 18 septembre 1842, bibliothèque municipale de Châteauroux, Ms 39).

33 Avec une mesquinerie insensée, le gouvernement britannique exigea la restitution de ces volumes après la mort de Napoléon. Il refusa à Bertrand et à Montholon de pouvoir récupérer ceux qui avaient été annotés par l'empereur, bien que les deux généraux eussent proposé de les remplacer par des exemplaires neufs. Ces volumes ne furent même pas conservés ; ils furent dispersés en vente publique.

34 Voir Jacques JOURQUIN, « La bibliothèque de Sainte-Hélène », *Sainte-Hélène, île de mémoire*, Fayard, 2005, p. 121-125. Cette étude a renouvelé celle, pourtant excellente, de Marie ERRIGHI, « La bibliothèque de l'Empereur Napoléon à Sainte-Hélène », *Mélanges d'histoire littéraire et de bibliographie*, Nizet, 1950, P. 55-65. De même l'étude et systématique que prépare Jacques Jourquin remplacera l'ouvrage vieilli de Victor Advielle, *La bibliothèque de Napoléon à Sainte-Hélène*, Lechevallier, 1894, et les listes

découvertes par F. G. Healey (*Revue de l'Institut Napoléon*, 1959-1960, n°73, 74, 75). Très prisés par les collectionneurs, les livres de Sainte-Hélène se reconnaissent au cachet apposé par Ali suivi de la mention manuscrite « l'Empereur Napoléon ».

35 Le *Moniteur* était « journal officiel » dans la mesure où les informations qu'il publiait émanaient du gouvernement. Ce que nous entendons aujourd'hui par Journal officiel, organe de publication des lois et décrets, s'appelait alors le *Bulletin des lois*.

36 *Cahiers de Sainte-Hélène*, 21 décembre 1816. Bertrand note encore, en février 1819 : « L'Empereur se lève à six heures, lit le *Moniteur* jusqu'à 10 heures, prend un bouillon, dort une demi-heure, lit le Moniteur jusqu'à 4heures et demie et court à la bibliothèque jusqu'à sept heures ». Un autre jour, le captif avait expliqué à O'Meara : »J'ai composé l'histoire de mes campagnes [...], mais il me faut les *Moniteur* pour les dates. » (*Napoléon dans l'exil*, 19 mai 1816.)

37 Fanny Bertrand était d'origine irlandaise. Sa famille possédait un régiment irlandais au service de la France depuis le XVII^e siècle. Son père était le général Dillon, guillotiné en 1794.

38 Acheté sur place ou donné par le gouverneur dans le lot des fournitures générales, le papier était généralement du papier vergé filagrané avec le nom du fabricant et la date de production. Il venait de chez « D & C », « Jellymann », « Golding et Snilirove », « CCRIPP » (avec une représentation de Britannica encadrée d'un ovale couronné), etc. Quelques feuilles étaient filagranées « Saint Helena », bien qu'il n'y eût pas de production locale : il s'agissait du papier commandé par le Compagnie des Indes orientales pour sa colonie de l'Atlantique sud.

39 Las Cases en donne un exemple dans son *Mémorial*, à la date du 28 septembre 1816.

40 *Cahiers de Sainte-Hélène*, fin août 1818.

41 Gilbert MARTINEAU, *La vie quotidienne à Sainte-Hélène au temps de Napoléon*, Tallandier, 2005, p. 323.

42 *Mémorial de Sainte-Hélène*, 19-22 septembre 1815.

43 *Récits de captivité*, 15 mars 1818.

44 Manuscrit de Bertrand intitulé : « Des manuscrits de Sainte-Hélène », s. d., p.6, bibliothèque municipale de Châteauroux, Ms 203.

45 *Journal secret d'Albine de Montholon, maîtresse de Napoléon à Sainte-Hélène*, présenté et commenté par François Candé-Montholon, Albin Michel, p.153.

46 L'affirmation selon laquelle Albine de Montholon a pu être la maîtresse de napoléon ne repose que sur le seul témoignage de Gourgaud, premier cancanier des mémorialistes de Sainte-Hélène, et quelques allusions vagues de l'intéressé dans sa correspondance. C'est peu, mais a suffi à la plupart des historiens pour prendre l'affaire au sérieux.

47 *Ibid.*, p.151.

48 Un des seuls des torts de Bertrand fut de ne pas se soucier de sa postérité. C'était sa conception de son devoir. C'est ainsi qu'il laissa passer sans rien dire la notice malveillante que Montholon souffla à Germain Sarrut pour les éditions 1837 et 1838 de sa *Biographie des hommes du jour*. Il se montra même chevaleresque lorsque Montholon connut des difficultés et notamment lorsqu'il fut emprisonné au fort de Ham. En mai 1841, après avoir publiquement regretté que cet ancien de Sainte-Hélène n'ait pas été autorisé à participer au voyage du retour des Cendres, il publia une lettre au roi afin d'obtenir sa grâce (*Archives provenant du général comte Bertrand*, troisième vente, n°95).

49 *Mémoires pour servir à l'histoire de Napoléon Ier*, référence complète ci-après, t. IV, p. 391-393.

50 Lettre du 28 février 1820, Philippe GONNARD (éd.), *Lettres du comte et de la comtesse de Montholon (1819-1821)*, n° 19 (Madame de Montholon était rentrée en Europe).

51 Voir notre introduction au volume sur la campagne d'Égypte.

52 Plus de détails sur l'objectif politique des Mémoires dans les premiers chapitres de Philippe GONNARD, *Les origines de la légende napoléonienne. L'œuvre historique de Napoléon à Sainte-Hélène*, Calmann-Lévy, 1906.

53 Dans ses *Cahiers*, Bertrand signale une journée entière de travail à la date du 31 mars, à l'occasion d'une rémission passagère. Il ne précise pas cependant à quoi l'empereur a travaillé. Hors son testament, Napoléon ne dicta plus (à Marchand) qu'une courte note à ajouter à un *Précis des guerres de Jules César* (21 avril 1821). Montholon prétend avoir reçu deux dictées supplémentaires, de deux heures, constituant « deux projets, l'un sur la destination de Versailles, l'autre sur l'organisation des gardes nationales ». Le général affirme avoir ramené ces textes en Europe et les avoir confiés (sans en avoir fait de copie, ce qui ne lui ressemblait pas) à l'ancien secrétaire d'État impérial Maret qui ne les lui rendit jamais. Ces deux notes ont disparu. Elles ne se trouvent pas dans les papiers Maret des Archives nationales (240 AP1), il est vrai, très lacunaires.

54 *Récits de captivité*, 16 avril 1821.

55 *Cahiers de Sainte-Hélène*, 25 avril 1821. Dominique-Vivant Denon était le célèbre peintre et graveur devenu directeur des Musées sous le Consulat. Le général louis-Albert-Ghislain Bacler d'Albe, ingénieur-géographe, peintre et dessinateur, avait dirigé le cabinet topographique de Napoléon de 1801 à 1815. Antoine-Vincent Arnault, écrivain, tragédien et académicien, était un des auteurs contemporains préférés de l'Empereur.

56 Le grand maréchal emporta dans ses malles les textes sur l'Égypte, l'île d'Elbe et les Cent-Jours et de nombreuses autres dictées comme les « notes sur l'art de la guerre », les « notes sur les lettres écrites de paris pendant le premier règne » écrites par Hobhouse, etc.

57 Voir nos introductions aux textes sur la campagne d'Italie et sur les Cent-Jours.

58 Bossange avait une filiale en Angleterre où il s'était retiré sous l'Empire pour faire fortune dans la vente des stocks d'invendus qu'il fut, selon la légende, le premier à appeler « bouillons ». Voir l'article que Jacques JOURQUIN a consacré à Martin Bossange (1765-1865) dans le *Dictionnaire Napoléon*.

59 Bossange avait réalisé une traduction en espagnol publiée à Paris, en 1825. Elle fut suivie l'année suivante d'une édition, avec une nouvelle traduction, par un éditeur madrilène.

60 La première traduction allemande ne concerne que les volumes dirigés par Gourgaud.

61 Ils figurent au tome II de la partie dirigée par Gourgaud et sont fort dissemblables de la version finale.

62 Gardien du manuscrit, le général Bertrand était mort le 31 janvier 1844. Sur ces manuscrits, voir l'introduction particulière au volume consacré à la campagne d'Égypte.

63 Sur l'histoire de la publication de la Correspondance sous le Second Empire : Jacques-Olivier BOUDON, « introduction générale », *Correspondance générale publiée par la Fondation Napoléon*, t. I, p. 13-32.

64 Un contrat fut passé pour rendre possible cette opération d'ampleur limitée avec Firmin Didot et Bossange, le 30 mars 1869.

65 Rapport du prince Napoléon à Napoléon III, *Correspondance*, t. XIX, p. I-V.

66 Napoléon ne connut que les premiers volumes d'une œuvre qui en compte dix-neuf, publiés entre 1816 et 1829, chez l'éditeur Treuttel.

67 Ajoutons que les notes sur les *Mémoires pour servir à l'histoire de la vie privée, du retour et du règne de Napoléon en 1815* de Fleury de Chaboulon (parus en 1818 à Londres) ont été publiées seulement dans l'édition de 1901 de ce texte (Rouveyre, 3 volumes).

68 Hachette était l'éditeur pour le compte du ministère de la Guerre.

69 Chez Garnier frères, 1904, 5 volumes. Signalons toutefois une réédition partielle et luxueuse sous le titre *Mémoires de Napoléon*, en 1969 (Club français du livre, 3 volumes). Nous ne comptons pas comme une réédition le fac-similé de la *Correspondance* par la Bibliothèque des Introuvables, en 2003.

70 *Cahiers de Sainte-Hélène*, 28 avril 1819.

71 Dans la note manuscrite précitée (bibliothèque de Châteauroux, Ms 203), Bertrand confirme ce projet avorté de dictées sur la Russie. Napoléon consentit cependant quelques confidences à son Premier officier d'ordonnance (avril 1817) qui allait s'en prévaloir pour publier, en 1825, *Napoléon et la grande Armée en Russie, examen critique de M. le comte de Ségur* (Bossange). La querelle entre Ségur et Gourgaud se termina par un duel.

72 Les *Origines de la légende napoléonienne*, p. 84.

73 Cette dernière n'a émis qu'une seule réserve importante : elle avertit de ses doutes sur l'authenticité du chapitre « Fructidor » de la partie concernant la campagne d'Italie. Nous pensons que ces doutes peuvent être levés. (Voit notre introduction particulière au volume sur la campagne d'Italie).

74 La première personne a dû être utilisée dans certaines moutures puisque Bertrand note, le 77 août 1816 : « Relecture du chapitre XVII de la *Campagne d'Égypte,* dont l'empereur fait effacer tous les *nous* ». « Comme César et Frédéric, Napoléon écrit à la troisième personne », remarque Montholon dans l'introduction aux *Mémoires pour servir l'histoire de France sous Napoléon Ier* (I, p. IX) ajoutant : « Il ne mettait pas une grande importance à son style : la véracité des faits et le besoin de faire connaître à ses contemporains et à la postérité les motifs qui ont déterminé ses actions. »

75 *Journal, 1822-1863*, Plon, 1996, 8 août 1850.

76 *Mémorial de Sainte-Hélène*, 20 novembre 1816.

ثانيا: الحملة على مصر : مقدمة

1 Henry LAURENS, « Présentation », *Campagnes d'Égypte et de Syrie,* Imprimerie nationale, 1998, p. 8, 27 et 10. Cette édition est la dernière en date de cette partie des *Mémoires de Napoléon.*

2 Napoléon dressa de sa main le plan détaillé de l'ouvrage, brouillon qui figurait dans la première vente des *Archives provenant du général comte Bertrand* (13 décembre 1982).

3 La *Relation* de Berthier, ancien chef d'état-major de l'armée d'orient, fut publiée en 1800 à l'Imprimerie nationale. Elle était une version officielle de la campagne commandée par le Premier Consul. Le livre de WILSON, achevé en 1803, était la vision britannique des événements ; il fut traduit en français chez Egerton, libraire de Whitehouse proche du cabinet britannique, dès sa parution. Sur les critiques de Wilson, on dispose d'une courte conversation de Napoléon avec O'Meara (*Napoléon dans l'exil,* 17 mai 1816). Nous remercions Jacques Jourquin, détenteur d'une partie des papiers du mamelouk Ali, d'avoir bien voulu opérer pour nous quelques vérifications dans les inventaires dressés par le bibliothécaire de napoléon à Sainte-Hélène.

4 *Description de l'Égypte ou Recueil des observations et des recherches qui ont été faites en Égypte pendant l'expédition de l'armée française [publiée par les ordres de Sa Majesté l'Empereur Napoléon],* Imprimerie nationale, 1809-1822. À la chute de l'Empire, la moitié du travail était terminée. Au total, elle est composée de neuf volumes in-folio et onze volumes en grand in-folio.

5 BERTRAND, *Cahiers de Sainte-Hélène*, 23 juin 1816. Dans ses papiers, Ali indique que la *Description* se présentait sous la forme de 10 « cahiers de texte » et 7 volumes de planches. L'utilisation du terme « cahiers » (et non « volumes ») pourrait laisser penser qu'il s'agissait d'ouvrages non reliés.

6 *Voyage dans la Basse et la Haute-Égypte pendant les campagnes du général Bonaparte,* publié l'an X (1802-1803), chez Didot l'aîné, 2 volumes.

7 *Napoléon dans l'exil,* 28 septembre 1816.

8 Jacques François MIOT, *Mémoires pour servir à l'histoire des expéditions en Égypte et en Syrie pendant les années VI, VII. VIII de la République française*. Demonville, an XIII. L'ouvrage était critique envers Bonaparte, ce dont Hudson Lowe se servit un jour devant O'Meara pour lui démontrer que « le général » était « un homme sans caractère » (*Napoléon dans l'exil,* 19 janvier 1817). Jacques Miot ne doit pas être confondu avec un autre mémorialiste : Miot de Melito qui, lui, ne participa pas à l'expédition d'Égypte.

9 Fondée vers 210 avant Jésus-Christ par Ptolémée Évergète en hommage à sa femme près de l'isthme de Coptos (Quift), sur les rives de la mer Rouge.

10 Première et deuxième vente, 13 décembre 1982 et 8 juin 1983.

11 Voir notre introduction aux *Mémoires de Napoléon* sur la campagne d'Italie, dans cette même collection.

12 *Souvenirs du Mamelouk Ali*, p 239-240.

13 GOURGAUD : *Journal de Sainte-Hélène*, 12 et 13 décembre 1815.

14 *Souvenirs du Mamelouk Ali*, p.249.

15 Voir la discussion du 21 juillet 1816, dans le *Mémorial de Sainte-Hélène*.

16 *Cahiers de Sainte-Hélène*, 31 août 1816.

17 BERTRAND, «Des manuscrits de Sainte-Hélène», s. d., p.6. Bibliothèque municipale de Châteauroux, Ms 203.

18 *Cahiers de Sainte-Hélène*, 29 avril 1821. Bertrand ne tira jamais aucune vanité de sa proximité avec l'empereur. Bien des années plus tard, rédigeant une note sur les dons qu'il avait reçu de Napoléon tout au long de sa vie, il écrivait par exemple : « Parmi tant de guerriers qui avions assisté à la bataille des quarante siècles, à cette brillante journée d'Aboukir par laquelle le conquérant de l'Égypte fit ses adieux à son armée, pourquoi, prêt à s'éloigner des rivages de la patrie, me remit-il à Fontainebleau [en 1814], le sabre qu'il portait à Aboukir ? Pour une seule et unique raison : J'étais-là. » Sous-entendu : ... et que les autres étaient absents. Tout autre que lui aurait avancé une autre explication que le hasard pour justifier le choix de Napoléon (bibliothèque municipale de Châteauroux, Ms 219/2). Le sabre d'Aboukir fut offert par Bertrand à la ville de Châteauroux en juillet 1840, juste avant son départ pour l'expédition du retour des Cendres. Il est conservé aujourd'hui au musée Bertrand de la ville.

19 Voir l'introduction générale.

20 *Les Orientales*, 1829, XL, « Lui ».

21 De nombreux documents inédits ont récemment été publiés dans Napoléon Bonaparte, *Correspondance générale publiée par la Fondation Napoléon*, II, *La campagne d'Égypte et l'avènement*. 1798-1799, Fayard, 2005. Dans une bibliographie foisonnante, signalons quelques titres récents : Patrice BRET, *L'Égypte au temps de Bonaparte*, Hachette, 1998 ; Jean-Joël BRÉGEON, *L'Égypte de Bonaparte*, Perrin, 1998 : Henry LAURENS, *Orientales I : autour de l'expédition d'Égypte*, CNRS Éditions, 2004, ou *L'Expédition d'Égypte*, Seuil, coll. « Points », 1997 ; etc.

22 Robert MORISSEY, *Napoléon et l'héritage de la gloire*, PUF, 2010, p. 89.

23 Selon l'heureuse expression de Iradj AMINI, *Napoléon et la Perse*, Fondation Napoléon, 1995, p. 15.

24 Voir Jean-Marcel HUMBERT, « Égyptomanie », *Dictionnaire européen des Lumières*, PUF, 1999, p. 377-379 ; Jean VERCOUTER, *À la recherche de l'Égypte oubliée*, Gallimard, 1986, p. 16 *sq.*, etc.

25 *Journal de Sainte-Hélène*, 23 mars 1816.

26 Nous avons développé cette argumentation dans « Pourquoi l'Égypte ? », *Revue du Souvenir napoléonien*, 1998, n°418, p. 9-19.

27 Voir Yves LAISSUS, *L'Égypte, une aventure savante (1798-1801)*, Fayard, 1998.

28 Bonaparte au général Berthier, chef de l'état-major général de l'armée d'Orient, 19 ventôse an VII [9 mars 1799], *Correspondance générale publiée par la Fondation Napoléon*, n° 4271.

29 Engagement de ne pas reprendre le combat avant un an.

30 Sur les événements de Jaffa : Thierry LENTZ, « Bonaparte à Jaffa : scènes d'horreur et légende (7-10 mars 1799) », *Napoléon Ier*, n°31, mars-avril 2005, p. 16-24.

31 Voir l'introduction du volume sur la campagne d'Italie.

32 Lettre de Louis Bertrand et remerciements du maire de Châteauroux dans *Le Général Bertrand. 1773-1844*, catalogue d'exposition, musée de Châteauroux, 1994, n°277.

33 Cette copie a été vendue lors de la dispersion des archives Bertrand (vente le 8 juin 1983, n°93 du catalogue). La reproduction du manuscrit avait été engagée avant la mort du grand maréchal.

34 Nous remercions Madame Dominique Potard, conservateur en chef, de nous avoir facilité l'accès aux fonds Bertrand de son établissement. Il existe d'autres manuscrits sur l'Égypte venus de Sainte-Hélène aux Archives nationales. En 1881, Hortense Thayer, fille du général Bertrand, offrit une partie des brouillons des premières dictées au prince Napoléon-Jérôme ; ils sont conservés dans le fonds « Napoléon » (400 AP 109 et 110). Un autre brouillon, plus avancé et lui aussi corrigé de la main de l'empereur, a été acheté par les Archives nationales en 1978 et versé dans les archives Bertrand (390 AP 24-29). Quelques traces de la documentation qui servit aux dictées sont encore conservées dans les archives Gourgaud (314 AP 8). D'autres ont été dispersés lors des ventes des archives Bertrand. Signalons enfin l'existence d'un des premiers brouillons des dictées sur la campagne d'Égypte, avec des corrections autographes de Napoléon sur un texte écrit par Bertrand, suivi d'une indication du plan à suivre de la main de l'empereur, passé en vente en 200 (Catalogue Charavay, n° 828, octobre 2000, p. 44-45).

35 Le roi de Rome était mort en 1832.

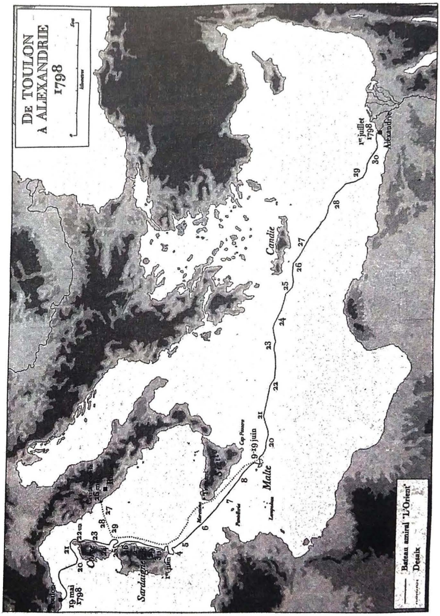
36 Le premier jet de cette introduction, dont de nombreux passages ne furent pas utilisés, est le document autographe de Bertrand titré par lui « Des manuscrits de Sainte-Hélène »,

dont nous avons cité plusieurs fois des passages (bibliothèque municipale de Châteauroux, Ms 203).

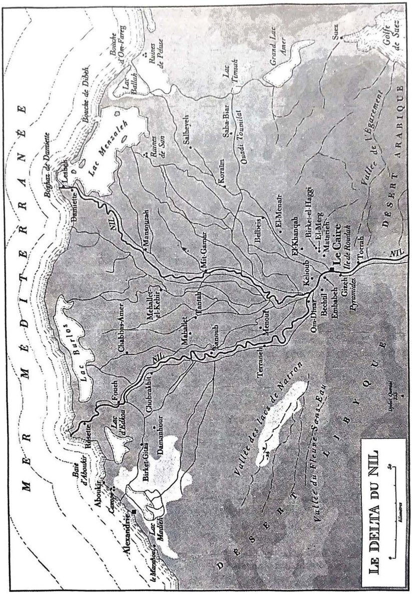
37 Après la parution, Jomard écrivit : « La *Campagne d'Égypte* par Napoléon a enfin paru. N'est-il pas indigne de voir cette histoire, le dernier volume de la *Description*, distraite du grand livre, imprimée comme un roman, vendue comme le dernier ouvrage moderne et figurant à la dernière page des journaux, noyée dans les annonces plus ridicules les unes que les autres » (lettre au botaniste Delile, 31 mai 1847, citée par Yves LAISSUS, *Jomard, le dernier des Égyptiens*, Fayard, 2004, p. 266).

38 Las Cases fut sans doute aidé d'un neveu de Bertrand, désigné par lui dans une note manuscrite sous les initiales « D. D. » (bibliothèque municipale de Châteauroux, Ms 203).

الملحقات



قسم الجغرفيا (إدارة الوثائق) في وزارة الخارجية



قسم الجغرافيا (إدارة الوثائق) في وزارة الخارجية

موجز تاريخي
عام 1798

25 فبراير (5 فانتوز)، العام السادس	يسلم بونابرت حكومة الإدارة مذكرة يقترح فيها احتلال مصر، وأعطت الحكومة موافقتها في 5 فبراير.
5 مارس (15 فانتوز)	تقبل حكومة الإدارة تكليف نابليون الحملة على مصر.
9 مايو (20 فلوريال)	وصول بونابرت إلى طولون.
19 مايو (30 فلوريال)	يغادر بونابرت طولون على متن السفينة لوريان، وسيلحق به موكب من مئة وخمسين سفينة في البحر، بالسفن التي رحلت من جنوة وأجاكسيو وسيفيتافيكيا.
20 يونيو (22 بريريل)	إنزال القوات الفرنسية في مالطة.
12 يونيو (24 بريريل)	استسلام مالطة وبقاء بونابرت فيها ستة أيام.
2 يوليو (14 مسيدور)	الاستيلاء على الإسكندرية.
10 يوليو (22 مسيدور)	بعد معركتين بين دمنهور والصالحية، يصل بونابرت إلى ضفاف النيل.
13 يوليو (25 مسيدور)	انتصار شبراخيت.
21 يوليو (3 تيرميدور)	انتصار الأهرام.
22 يوليو (4 تيرميدور)	استسلام القاهرة.
24 يوليو (6 تيرميدور)	دخول بونابرت القاهرة.
1 أغسطس (14 تيرميدور)	هزيمة معركة أبو قير البحرية.
10 أغسطس (23 تيرميدور)	معركة الصالحية، وطرد إبراهيم بك إلى غزة.
14 أغسطس (27 تيرميدور)	عودة بونابرت إلى القاهرة.
22 أغسطس (8 فروكتيدور)	نشأة المعهد المصري.
25 أغسطس (28 فروكتيدور)	رحيل ديزيه إلى الصعيد لملاحقة مراد بك.
9 سبتمبر (23 فروكتيدور)	إعلان تركيا الحرب على فرنسا.
7 أكتوبر (16 فانديمير، العام السابع)	انتصار ديزيه في سيدمنت.
22-21 أكتوبر (30 فانديمير-1 ببيمار)	**ثورة القاهرة وقمعها بعنف.**
7 ديسمبر (17 فريمار)	**احتلال السويس.**
26 ديسمبر (6 نيفوز)	**وصول بونابرت إلى السويس، وعودته إلى القاهرة في 6 يناير.**

عام 1799

10 فبراير (22 بليفيوز)	غادر بونابرت القاهرة لمحاربة الأتراك في سوريا.
11 فبراير (23 بليفيوز)	معركة رديسيه.
20 فبراير (2 فانتوز)	الاستيلاء على قلعة العريش.
25 فبراير (فانتوز)	دخول بونابرت إلى غزة.
7 مارس (17 فانتوز)	الاستيلاء على يافا ونهبها، وبداية انتشار عدوى الطاعون.
19 مارس (29 فانتوز)	بداية حصار عكا.
28 مارس (8جيرمينال)	أول هجوم ضد عكا.
1 أبريل (12 جيرمينال)	ثاني هجوم ضد عكا.
8 أبريل (19جيرمينال)	انتصار جيونو في الناصرية.
16 أبريل (27جيرمينال)	انتصار بونابرت في جبل طبور.
17 أبريل (28 جيرمينال)	دخول مورا طبرية.
24 أبريل (4 فلوريال)	ثالث هجوم ضد عكا.
10 مايو (21 فلوريال)	محاولة آخر هجوم ضد عكا.
17 مايو (28 فلوريال)	رفع الحصار عن عكا.
14 يونيو (26 بريريال)	عودة بونابرت إلى القاهرة.
24 يوليو (7 تيرميدور)	انتصار بونابرت في معركة أبوقير البرية.
26 أغسطس (6 فروكتيدور)	غادر بونابرت مصر على متن الفرقاطة لاميريون، ووصل إلى باريس في 16 أكتوبر، واستلم الحكم في 10 نوفمبر التالي.

فهرس خرائط الحملة على مصر

28	220	أجفون 27 يناير ، و25 فبراير ، الهليلة 7 أبريل 1799	4
29	221	كوم أمبو، بيبان، أبو شوافيه 31 يناير1799	2
30	222	أدفو 30 مايو، رديسيه البحيرة 8و9 و10 أبريل، الفوازية	3
31	223	أسوان فيلة	1
32	226	الصوامعه 3 مارس 1799	11
33	233	الجيطة 29 مايو 1799	5
34	234	الهاوية ، قفط 27 مايو 99	7
35	235	القصير على البحر الأحمر	7
36	236	سوريا – فلسطين	51
37	244	العريش 14 و16 فبراير، 18 إلى21 فبراير 99 ، 1و2 يونيو بير مسودية 16 فبراير 1799	32
38	254	رفح ، خان يونس 23 فبراير و31 مايو 1799	32
39	257	زاوي 22 فبراير 1799	32
40	260	غزة 24 إلى 27 فبراير – جبل سمسون 30 مايو 1799	43
41	262	الرمله 1 و2 مارس	44
42	263	عسقلان فلسطين	43
43	265	يافا 3إلى 7 مارس (كليبر) 8 إلى 13 مارس ، 24 إلى 27 مايو	44
44	270	عكا ، جبل كرمل	46
45	271	قاقون 15 مارس ، حدار 23 مايو 1799	45
46	272	الحاتي 17 مارس ، تنتورة 21 مايو 1799	46
47	274	عكا ، الناصرية ، نهر الأردن	46
48	285	لوبيه ، الناصرية 13 أبريل ، قنا 11 أبريل ، صفوريه 13 أبريل1799	46
49	287	سفط 31 مارس، الزلرية فهران أول أبريل، جسر يعقوب 2 أبريل 1799	46
50	290	جبل طبور 16 أبريل 1799	46
51	300	قيصرية 22 مايو، هانية 16 مارس 99 ، صبورة ميناء نابلس	45
52	312	حصن أبو قير 25 يوليو 1799	37
53	380	قطع الانجليز جسر المعدية 10 أبريل 1801	37

المترجم فى سطور:

دكتورعباس أبو غزالة .

ـ دكتوراه من جامعة السربون في تاريخ المسرح الفرنسي في القرن السابع عشر (1986)

ـ عمل في الإعلام بشركة ميشلان العالمية بفرنسا قبل الاتجاه إلى الترجمة :

1 ـ ترجمة "حفر قناة السويس" دكتوراه نتالي مونتل - دار عين للدراسات الاجتماعية والاقتصادية بالتعاون مع المعهد الفرنسي بالقاهرة (2005)

وصدر له عن المركز القومي للترجمة :

1- "دليل رحلة ضيوف الخديوي إسماعيل لزيارة آثار مصر" تاليف أوجيست مارييت (2007) .

2- "افتتاح قناة السويس - رحلة الملوك" (2010)

3- ترجمة "عايدة " الرواية المرسومة (2010)

ومن مؤلفاته :

1- " عبقرية أوبرا عايدة " – دار الأوبرا المصرية بالتعاون مع صندوق التنمية الثقافية (2011)

2 - "الحملة على الإسكندرية – كليبر ضد بونابرت 1798-1799 " باللغة الفرنسية عن دار جيتنر بباريس (2016)

3- ترجمة "مذكرات نابليون - الحملة على مصر 1798-1799 " عن المركز القومي للترجمة عام 2018 .

الإشراف الفنى: حسن كامل


QELIOUB
PROVINCE DE GIZEH
MASR EL QÂHIRAH
ou LE CAIRE
BOULAQ
Embabeh
GIZEH
LE VIEUX CAIRE
MASR EL ATIKAH
GEBEL
Citadelle
Tombeaux de Qaitbâi
Caravanserail de la Coubée
GEBEL GIOUCHI
GEBEL ELAHMAR
ou MONTAGNE
El Matarieh
Mit Halfeh
Beçous
El Karaqânieh
Bortos
Embabeh
Mit Oqbeh
Boulaq Dakrour
El Maatemdieh
Nehtâ
Zenin
Saqiet Mekkeh
Geziret el Dehab
Birket el Kiam
Komeisseh
K. Tahormes
Menchat Bakari
Attar el Nebi
Deir el tin
El Bayatin
PYRAMIDES de Gizêh ou de Memphis.
الهرام جيزه
Levé par MM. Jomard, Jacotin, Simonel et Devilliers.
29°. Échelle d'un Millimètre
30°



"نابليون على متن السفينة بيليروفون (Bellérophon) المتجهة إلى منفاه في جزيرة سانت - هيلانة."
رسم (Sir William Quiller) سير ويليام كويلاير 1880